هنري ميلر

صبوات

الصلب الوردي «1»

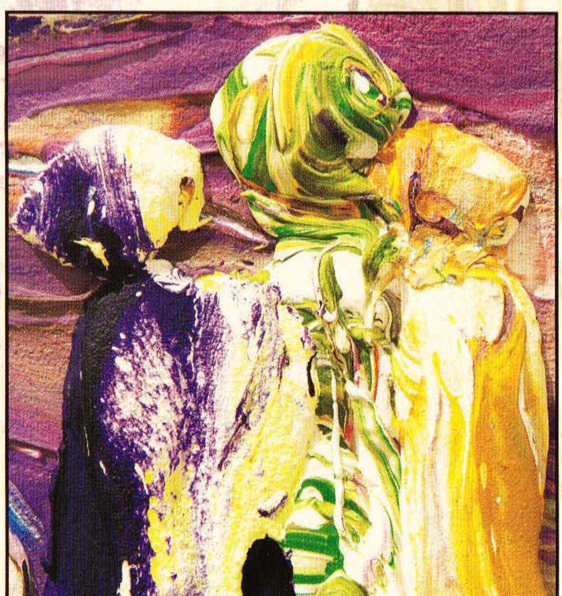

ترجمة: خالد الجبيلي

ورد

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

علي مولا

صبــوات

* هنري ميلر
* صبوات
* ترجمة: خالد الجبيلي
* جميع الحقوق محفوظة Copyright©
* الطبعة الأولى 2009
* الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـع
سوريـــة ـ دمشق، ص.ب: 30249، ☎ 5141441
الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان، ص. ب: 6435 ـ 113
☎750054 1 00961 ، فاكس:750053 1 00961
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

هنري ميلر

صبــوات

«الصلب الوردي ـ الجزء الأول»

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

العنوان الأصلي للكتاب:

The Rosy Crucifixion

I. Sexus

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

1

لابد أنها كانت ليلة خميس عندما التقيتها لأول مرة ـ في المرقص. ذهبت إلى العمل في الصباح، بعد أن نمت مدة ساعة أو ساعتين، كنت خلالها أشبه بمَشّاء أثناء النوم. مرّ اليوم كحلم. بعد العشاء غططت في النوم على الأريكة بكامل ثيابي وصحوت في حوالى السادسة من صباح اليوم التالي. كنت أشعر بانتعاش تام، وصفاء السريرة، ولم تكن تشغلني سوى فكرة واحدة ـ وهي أن أنالها مهما كلف الأمر. رحت أفكر وأنا أسير عبر الحديقة في نوع الأزهار التي يجب عليّ أن أرسلها لها مع الكتاب الذي وعدتها به (وينيسبيرغ، أوهايو). كنت أقترب من الثالثة والثلاثين، وهو السن الذي صُلب فيه السيد المسيح. كانت هناك حياة جديدة تماماً ماثلة أمامي، وكانت تتملكني الشجاعة للمجازفة بكل شيء. وفي واقع الأمر لم يكن لدي شيء أجازف به: فقد كنت في أسفل السافلين، وفاشلاً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

كان صباح يوم السبت، الذي أعتبره أفضل أيام الأسبوع على الدوام. ففيه أحيا عندما يسقط الآخرون من الإعياء، أسبوعي يبدأ يوم راحة اليهود. وبالطبع لا توجد لديّ فكرة إن كان هذا الأسبوع العظيم في حياتي سيدوم سبع سنوات طويلة. كل ما كنت أعرفه هو أن اليوم ميمون وحافل. أن تتخذ الخطوة المميتة، أن ترمي كل شيء للكلاب، هو في حد ذاته انعتاق: إذ إن فكرة العواقب لم تخطر ببالي أبداً. أن تستسلم بدون قيد أو شرط إلى المرأة التي تحب، يعني أن

تحطم كل صلة، ماعدا الرغبة في ألّا تفقدها، التي هي أفظع هذه الصلات.

أمضيت الصباح وأنا أستدين من هنا وهناك، أرسلت الكتاب والأزهار، ثم جلست لأكتب رسالة طويلة يقوم بتسليمها ساع خاص. قلت لها إني سأخابرها في ساعة متأخرة من بعد الظهر. عند الظهيرة خرجت من المكتب وتوجهت إلى البيت. كان ينتابني قلق شديد، وكنت نافد الصبر إلى درجة كبيرة. كان الانتظار حتى الساعة الخامسة عذاباً حقيقياً. عدت إلى الحديقة مرة أخرى، لكني لم أشعر بأي شيء حولي. رحت أمشي كالأعمى فوق العشب الأزغب باتجاه البحيرة حيث يُبحر الأطفال مراكبهم. فرقة موسيقية تعزف من بعيد. أستعيد ذكريات الطفولة، أحلام مخنوقة، شوق، أسف، تمرد عاطفي خانق يسري في عروقي. كنت أفكر ببعض الشخصيات العظيمة في الماضي، بكل ما حققته عندما كنت في ذلك السن. لقد ولّت الطموحات التي كانت تراودني، لا أريد أن أفعل شيئاً، إلا أن أكون رهن إشارتها. وقبل كل شيء آخر، كنت أريد أن أسمع صوتها، أن أعرف أنها ما تزال على قيد الحياة، وأنها لم تنسني. إن أقصى ما أجرؤ على الأمل به، هو أن أتمكن منذ الآن من أن أولج تلك القطعة في ذلك الشق في كل يوم من أيام حياتي، أن أتمكن من سماعها وهي تقول: مرحباً. لو وعدتني بكل ذلك، وحافظت على وعدها، فلن يهمني ما سيحدث بعد ذلك.

خابرت في تمام الساعة الخامسة. قال لي صوت شخص غريب يشوبه حزن غير مألوف إنها ليست في البيت. حاولت أن أعرف متى ستعود إلا أنه قطع المكالمة. إن التفكير بأنها ليست قريبة مني جعلني مسعوراً. خابرت زوجتي وأعلمتها أنني لن آتي إلى البيت على العشاء. استقبلت الخبر بسرور بطريقتها المعتادة المثيرة للقرف، كما لو أنها لم تكن تتوقع مني أكثر من الإحباطات والتسويفات. «موتي بحسرتها، أيتها الكلبة»، قلت في نفسي وأنا

أضع سماعة الهاتف. «على الأقل أعرف أني لا أريدك، لا أريد أي جزء منك، سواء كان ميتاً أو حياً». عربة مكشوفة كانت تسير باتجاهي، ودون أن أعرف وجهتها قفزت إليها واتجهت إلى المقعد الخلفي. بقيت قرابة ساعتين وأنا في غيبوبة تامة. عندما صحوت وجدت صالة عربية لبيع المثلجات قرب الجانب المواجه للبحر، نزلت، مشيت إلى رصيف المرفأ وجلست على دعامة خشبية ورحت أتأمل الحديد المزخرف على جسر بروكلن. كان مايزال أمامي بضع ساعات قبل أن أجرؤ على الذهاب إلى المرقص. رحت أحدق بفراغ في الشاطئ المقابل ولم تتوقف أفكاري عن التدفق، مثل باخرة تمخر بدون دفة.

عندما استجمعت قواي أخيراً، رحت أسير مترنحاً. كنت أشبه برجل مايزال تحت تأثير مخدر تمكن من الهرب من على طاولة العمليات. كان كل شيء يبدو مألوفاً ولكن من دون معنى. لقد استغرق الأمر دهوراً لتنسيق بضع انطباعات بسيطة كانت تعني بحساب التفاضل والتكامل المنعكس منضدة، كرسياً، بناية، شخصاً. بنايات أُفرغت من سكانها الآليين حتى أصبحت أكثر بؤساً من القبور. عندما تظل الآلات معطلة تخلق فراغاً أعمق من الموت نفسه. كنت شبحاً يجول في فراغ. أن أجلس، أن أقف وأشعل سيجارة، أن أقف، ألا أدخن، أن أفكر، أو لا أفكر، أن أتنفس أو أن أتوقف عن التنفس، كانت كل هذه الأمور سيان بالنسبة لي. أسقط على الأرض صريعاً، وسيدوس الرجل الذي يسير خلفك فوقك؛ أطلق النار ويطلق شخص آخر النار عليك، اصرخْ وأيقِظْ الموتى الذين يملكون أيضاً رئات قوية على نحو غريب. حركة المرور تتجه الآن شرقاً وغرباً، وبعد لحظات ستتجه شمالاً وجنوباً. كل شيء يمضي بشكل طائش وبتهور حسب القاعدة، ولا يصل أحد إلى أي مكان. ترنحْ وتمايلْ إلى الداخل والخارج، إلى الأعلى والأسفل، البعض يهوي كالذباب، ويعج البعض الآخر كالبعوض. تناول طعامك وأنت واقف، أنواع الطعام المشبع بالشحم، وورق السيلوفان الزلق، شهية دهنية. امسح

فمك، تجشأ، أنكش أسنانك، حرك قبعتك، تزحلق، ترنح، صفِّر، أطلق النار على رأسك. في الحياة التالية سأكون عُقاباً يتغذى على جيفة ممتلئة: سأجثم فوق قمة العمارات العالية وأرمي بنفسي وأغوص كطلقة في اللحظة التي أشتم فيها رائحة الموت. الآن أصفّر لحناً مرحاً - إن معدتي لا تقرقر. مرحباً، يا مارا، كيف حالك؟ وتفتر شفتاها عن تلك الابتسامة المبهمة، وتطوقني بذراعيها وتعانقني عناقاً دافئاً. يحدث ذلك في فراغ تحت مصابيح من نوع كليك القوية في منطقة يبلغ محيطها ثلاثة سنتيمترات ترسم دائرة حول البطن من حولنا.

صعدت الدرجات ودخلت الصالة، صالة الرقص الكبيرة التي تفيض الآن بوهج دافئ. أخيلة ترقص الفالس في سديم من العلكة الحلوة، الركب محنية قليلاً، الأوراك مشدودة، الكواحل تسبح في ياقوت مطحون. وبين صوت قرع الطبول أسمع أبواق سيارات الإسعاف في الأسفل، ثم سيارات الإطفاء، ثم أبواق سيارات الشرطة. رقصة الفالس مثقوبة بالألم، فتحات قليلة أحدثتها رصاصات تنزلق على تروس البيانو الميكانيكي. بناية على بعد شوارع عديدة تحترق وليس فيها سلالم نجاة. إنها ليست في المرقص. لعلها تستلقي على السرير تقرأ كتاباً، أو ربما تمارس الجنس مع أحد المتبارين لكسب جائزة، أو لعلها تجري كالمجنونة في حقل تكسوه جذامات الزرع، ترتدي فردة حذاء واحدة، ورجل يدعى كورن كوب يطاردها. فلتكن أينما كانت فأنا واقف وحيداً في الظلام الدامس، غيابها يجفف دمي.

أسأل إحدى الفتيات إن كانت تعرف متى ستصل مارا. مارا؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل. كيف ينبغي لها أن تعرف شيئاً عن شخص ولما تبدأ العمل في هذا المكان إلا منذ قرابة الساعة، والعرق يتصبب منها كفرس متدثرة بستة أطقم من الملابس الداخلية الصوفية المبطنة بالقطن المنفوش. ألن أطلبها للرقص؟ - تسأل فتاة أخرى عن مارا. نرقص وندور بضع دورات والعرق وماء الورد يتصبب

منا، الحديث يدور عن الذرة ودحاس إصبع القدم وعروق الدوالي، الموسيقيون يحدقون عبر الضباب الذي يغلف الصالة بعيون هلامية، وترتسم على وجوههم ابتسامة عريضة جامدة. لعل بوسع الفتاة الواقفة هناك، فلوري، أن تخبرني شيئاً عن صديقتي. فلوري ذات فم عريض وعينين لازورديتين. إنها باردة كنبتة الخبيزة، وخاصة أنها عادت لتوها من حفلة جماع جامحة استغرقت فترة بعد الظهر. هل فلوري تعرف إن كانت مارا ستأتي قريباً؟ لا تظن ذلك... إنها تظن أنها لن تأتي هذا المساء على الإطلاق. لماذا؟ تظن أنها على موعد مع أحدهم. من الأفضل أن تسأل اليوناني هناك فهو يعرف كل شيء.

اليوناني يقول نعم، الآنسة مارا ستأتي. نعم، انتظر قليلاً. أنتظر وأنتظر. الفتيات يلهثن مثل خيول تتصبب عرقاً وهي تنتصب وسط حقل مكسو بالثلج. إنه منتصف الليل. لا توجد دلائل تشير إلى قدوم مارا. أتجه ببطء وبتكاسل نحو الباب. فتى بورتوريكي يزرر فتحة بنطاله في أعلى الدرج.

أختبر في محطة المترو قوة نظري وأقرأ الإعلانات على الطرف الآخر من العربة. أستنطق جسمي لأتأكد من خلوه من الأمراض التي يرثها كل شخص متحضر. هل أعاني من البخر؟ هل قلبي يدق بقوة؟ هل مشط قدمي محني؟ هل مفاصلي متورمة بالروماتيزم؟ هل عندي مشكلة في جيوبي الأنفية؟ هل هناك التهاب في اللثة؟ ماذا عن الإمساك؟ أو ذلك الشعور بالتعب بعد تناول الغداء؟ لا أعاني من داء الشقيقة، أو الحموضة في المعدة، لا يوجد زكام، لا يوجد وجع عند أسفل الظهر، أو تضخم في المثانة، أو ورم، أو دوالي؟ حسب علمي فأنا سليم معافى، ومع ذلك... حسناً، الحقيقة أنه ينقصني شيء ما، شيء حيوي...

أنا ولهان. مريض حتى الموت. جسمي ثقيل كالرصاص عندما أرتمي على السرير. أغوص فوراً في أعماق الحلم. هذا الجسد،

الذي تشده مقابض من الحجارة، يستلقي ساكناً تماماً. الحالم يخرج منه، كالبخار ليبحر حول العالم. الحالم يبحث بلا جدوى عن الشكل والنموذج اللذين يلائمان جوهره الأثيري. مثل خياط سماوي، يجرب جسداً بعد آخر، لكنها لا تلائمه كلها. وفي نهاية الأمر يضطر للعودة إلى جسده، لاستعادة القالب الرصاصي ثانية، ليصبح سجين اللحم، ليواصل السبات والألم والملل.

صباح يوم الأحد. أفيق منتعشا كأقحوان. العالم أمامي، لا تشوبه شائبة، لم يُقهر، مايزال بكراً كالمناطق القطبية. أبتلع قليلاً من البيزموس وكلوريد الكلس لأزيل آخر الأدخنة الرصاصية من الخمول. سأتوجه مباشرة إلى بيتها، سأقرع الجرس، وأدخل البيت. هاهنا أنا ـ اقبليني أو اطعنيني حتى الموت. اطعنيني في القلب، في الدماغ، في الرئتين، في الكلى، في الأحشاء، في العينين، في الأذنين. إذا بقي عضو واحد حي فأنتِ مقضي عليكِ، قدركِ أن تكوني لي، في هذا العالم وفي العالم القادم وفي كل العوالم المقبلة. أنا مستميت في الحب، قاتل، عيّار، نهم. أتناول الشَعر، الشمع الوسخ، خثارات الدم الجاف، أي شيء وكل شيء تقولين إنه يخصك. أريني أباك، بطائراته الورقية، أحصنة سباقه، تذاكره المجانية للأوبرا: سألتهمهم جميعهم، سأبتلعهم أحياء. أين الكرسي الذي تجلسين عليه، أين مشطك المفضل، فرشاة أسنانك، مبرد أظافرك؟ أخرجيها لي حتى ألتهمها بجرعة واحدة. تقولين إنه لديك أخت أجمل منك. أريني إياها ـ فأنا مستعد لأن ألعق اللحم عن عظامها.

أسير نحو المحيط، باتجاه الهور حيث بُني منزل صغير لتفقس فيه بيضة صغيرة اتخذت بعدها شكلها الصحيح، وعُمِّدت باسم مارا. تلك القطرة الصغيرة التي أفلتت من قضيب رجل تنتج هذا المخلوق الرائع! آمنت بالله الأب، بالسيد المسيح عيسى الابن الوحيد الذي أنجبه، بمريم العذراء المباركة، بروح القدس، بآدم كادميوم، بمعدن نيكل الكروم، بالأوكسيدات والميكروكروم، بالطيور المائية

والطحالب المائية، بنوبات الصرع، بالطاعون، بالانحراف، بالكواكب، بأقنان الدجاج، بالثورات، بانهيارات البورصة، بالحروب، بالزلازل، بالأعاصير، بكالي يوغا وبهولا هولا. لقد آمنت. آمنت لأن عدم الإيمان يجعل المرء كالرصاص، يجعله يستلقي، ينكفئ ويتصلب، خامداً إلى الأبد، يجعله يذوي...

ألقي نظرة على المشهد الطبيعي المعاصر. أين بهائم الحقل، المحاصيل، السماد، الورد الذي يزهر في وسط الفساد؟ أرى خط سكة الحديد، محطات الوقود، بنايات من الإسمنت، عوارض حديدية، مداخن طويلة، مقابر سيارات، مصانع، مخازن، محلات ألبسة، مساحات شاغرة. لا توجد حتى عنزة على مرمى البصر. أراها بكل وضوح وبشكل متميز: إنها تنم عن الخراب، الموت، الموت الدائم. منذ ثلاثين سنة وأنا أرتدي الصليب الحديدي رمز العبودية المخزي، أخدم لكن لا أؤمن، أعمل ولكن لا أتقاضى أجراً، أرتاح لكني لا أعرف طعم السكينة. لماذا يجب علي أن أؤمن بأن كل شيء سيتغير فجأة، كل مرادي أن أحظى بها، أن أحب وأن أكون محبوباً؟

لن يتغير شيء سواي.

عندما اقتربت من البيت رأيت امرأة في الحديقة الخلفية تعلق ثياباً على حبل الغسيل. رأيت طرفها الجانبي. إنه بلا شك وجه المرأة ذات الصوت الأجنبي الغريب الذي أجابني على الهاتف. لا أريد أن أقابل هذه المرأة، لا أريد أن أعرف من هي، لا أريد أن أصدق الشكوك التي تراودني. مشيت نحو البناية، وعندما وصلت إلى الباب مرة أخرى، اختفت، وتلاشت معها شجاعتي بطريقة ما.

بتردد رحت أقرع الجرس. فُتح الباب بقوة على الفور، وظهر شاب طويل مخيف سدّ عتبة الباب. إنها ليست موجودة، أيمكنك أن تخبرني متى ستعود، من أنت، ماذا تريد منها؟ إذن مع السلامة وخبط الباب في وجهي! أصبحت وجهاً لوجه مع الباب الذي أخذ يحدق في وجهي. أيها الشاب، ستندم على فعلتك هذه. سأعود يوما ومعي

مسدس لأفجر خصيتيك به...هكذا إذن! الكل مستعد، الكل مدرب لأن يكون مراوغاً. الآنسة مارا لا توجد حيث يُتوقع أن توجد، ولا يعرف أحد أين يمكن أن تكون. الآنسة مارا تقطن في الأثير: رماد بركاني تذروه الرياح هنا وهناك. الهزيمة، اللغز منذ اليوم الأول من السنة الدراسية. الأحد الكئيب بين الوثنيين، بين الأقرباء، القريب من الولادة العرضية. الموت لجميع الأخوة المسيحيين! الموت للوضع الراهن المزيف!

تمر أيام قليلة ولا يبرز دليل عنها. بعد أن أنهت زوجتي عملها في المطبخ، جلست ورحت أكتب رسائل طويلة جداً إليها. هكذا إذاً كنا نعيش حياة سقيمة في منطقة محترمة، نقطن في منزل مؤلف من صالة استقبال وسرداب جنائزي مبني من الحجر البني. أحاول الكتابة من حين لآخر، إلا أن الكآبة التي نشرتها زوجتي حولها تفوق طاقتي. ولم أتمكن من فك السحر الذي نشرته في البيت إلا مرة واحدة فقط. كان ذلك عندما أُصبتُ بحمى شديدة دامت بضعة أيام حينها رفضتُ أن أرى الطبيب، ورفضت أن أتناول أي دواء، أو أي غذاء. استلقيت على السرير العريض في ركن الغرفة في الطابق العلوي، ورحت أصارع الهذيان الذي كان يهدد حياتي بالموت. لم أصب أبداً بمرض حقيقي منذ طفولتي وكانت التجربة لذيذة. ولكي أشق طريقي إلى المرحاض كنت مثل شخص يترنح عبر ممرات ملتوية في باخرة تمخر عباب المحيط. عشت حيوات عديدة في الأيام القليلة التي استمرت فيها الحمى. كانت تلك عطلتي الوحيدة التي أمضيتها في القبر الذي يدعى البيت. وكان المطبخ المكان الآخر الوحيد الذي كان بإمكاني أن أتحمله. كان أشبه بزنزانة مريحة في أحد السجون، وكسجين كنت أجلس هنا غالباً وحيداً في وقت متأخر من الليل أخطط لهروبي. وهنا أيضاً كان صديقي ستانلي ينضم إليّ في بعض الأحيان، يندب سوء حظي ويجرد كل أمل من الأشواك المرة والخبيثة.

في هذا المكان كتبت أكثر الرسائل جنوناً. يمكن لأي شخص

يظن أنه مهزوم، يائس، بدون مورد، أن يكتسب مني الشجاعة. في يدي قلم خشن، ودواة وورقة ـ أسلحتي الوحيدة. دوّنت كل شيء يخطر ببالي، سواء كان ذا معنى أم لم يكن. وبعد أن أرسلت الرسالة بالبريد، صعدت إلى الطابق العلوي واضطجعت بجانب زوجتي، عيناي مفتوحتان تماماً، أحدق في الظلمة، كما لو كنت أحاول أن استشرف مستقبلي. وكنت أردد باستمرار أنه إذا أحب رجل، رجل مخلص ويائس مثلي، امرأة من كل قلبه، وإذا كان على استعداد لقطع أذنيه وإرسالهما بالبريد إليها، إذا أخرج دم قلبه وضخه على الورقة، إذا أشبعها بحاجته وشوقه إليها، حاصرها إلى الأبد، فلعلها لن ترفضه. الرجل الأكثر سذاجة، الرجل الأكثر ضعفاً، يجب على الرجل الأقل جدارة أن ينتصر إذا كان مستعداً للتضحية بآخر قطرة من دمه. إذ لا يمكن لامرأة أن ترفض هبة الحب المطلق.

عدت إلى المرقص ووجدت رسالة في انتظاري. مجرد رؤية خط يدها جعلني أرتعش. الرسالة مختصرة ومباشرة، تقول فيها إنها ستقابلني في تايمز سكوير، أمام الصيدلية، في منتصف ليلة اليوم التالي. ورجتني ألا أبعث إليها رسائل إلى بيتها.

لم يكن في جيبي أكثر من ثلاثة دولارات عندما التقينا. كانت تحيتها ودية وسريعة. لم تذكر شيئاً عن زيارتي إلى بيتها أو الرسائل أو الهدايا التي أرسلتها إليها. أين أريد أن أذهب، سألتني بعد أن تفوهت بكلمات قليلة. ليس عندي أدنى فكرة. كان وقوفها أمامي بلحمها ودمها، تحدثها إليّ، تحديقها في وجهي، حدثاً لم أتمكن من استيعابه تماماً حتى الآن... «لنذهب إلى مطعم جيمي كيلي» قالت، لتخرجني من حيرتي. أمسكتني من ذراعي وقادتني إلى جانب الرصيف حيث كانت تنتظرنا سيارة أجرة. غصت في المقعد الخلفي، إن مجرد حضورها غمرني. لا أحاول أن أقبلّها أو حتى أن أمسك يدها. يكفيني أنها جاءت ـ وهو شيء عظيم.

بقينا حتى ساعة متأخرة من الصباح، أكلنا وشربنا ورقصنا.

تحدثنا بحرية وتفهم. لم أعرف عنها، عن حياتها الحقيقية، أكثر مما كنت أعرف، لا لأنها لا تريد أن تبوح بها، بل لأن اللحظة كانت مفعمة، ولم يكن يبدو لنا أن الماضي أو المستقبل مهم.

حين جاءت الفاتورة كاد يغشى عليّ.

لكي أماطل كسباً للوقت طلبت مزيداً من الشراب. عندما اعترفت لها بأني لا أملك سوى دولارين اقترحت علي أن أعطيهم شيكاً، وقالت إنها متأكدة أنهم سيقبلونه لأني بصحبتها. شرحت لها أني لاأحمل دفتر شيكات، وأنني لا أملك سوى راتبي. باختصار، شرحت لها كل شيء.

وفيما كنت أعترف لها بهذا الأمر المحزن برقت في خاطري فكرة. استأذنت منها وتوجهت إلى كشك الهاتف. طلبت المكتب الرئيسي لشركة البرق، واستجديت المدير الليلي، الذي كان صديقاً لي، أن يبعث لي على الفور ساعياً وورقة من فئة الخمسين دولاراً. كان مبلغاً كبيراً ولا يمكن أن يستدينه من خزينة النقود، وهو يعرف أني لست موضع ثقة، لكني رويت له قصتي المحزنة، ووعدته بأني سأعيد المبلغ قبل انقضاء النهار.

كان الساعي أحد أصدقائي الطيبين أيضاً، رجلاً عجوزاً، يدعى كرايتون، كان في السابق قساً إنجيلياً. أبدى دهشة عندما وجدني في مكان كهذا وفي هذه الساعة. وفيما كنت أوقع الفاتورة سألني بصوت خفيض إن كنت متأكداً أن الخمسين دولاراً تكفيني، وأضاف «يمكنني أن أقرضك مبلغاً من مصروفي الخاص». وقال إنه سيكون في غاية السعادة إن قبلت منه مساعدته.

سألته، وأنا أفكر بالمهمة أمامي في الصباح: «كم بوسعك أن تقرضني؟».

فقال على الفور: «يمكنني أن أقرضك خمسة وعشرين دولاراً أخرى».

أخذت المبلغ وشكرته بحرارة. سددت الفاتورة، وأعطيت النادل بقشيشاً سخياً، وصافحت المدير، ومساعد المدير، والحارس، والفتاة التي تستلم القبعات، والبواب، والشحاذ الذي كان يمد يده في الخارج. ركبنا سيارة أجرة، وما أن انطلقت عجلات السيارة حتى اندفعت مارا واعتلتني. انصهر جسدانا، وأخذت السيارة تترنح وتتمايل، وأسنانها تصطك بأسناني، ولسانها يلتف حول لساني، والعصير يدفق منها كحساء حار. وعندما عبرنا ساحة مفتوحة على الطرف الآخر من النهر، مع بداية انبلاج الفجر، لمحت شرطياً يحدق فينا بدهشة عندما مرقت السيارة بجانبه بسرعة. «طلع الفجر يامارا»، قلت لها وأنا أحاول أن أنفكّ عنها بلطف «انتظر، انتظر»، أخذت تتوسل، وهي تلهث وتشدني إليها بقوة، وفي تلك اللحظة أتتها رعشة طويلة. وأخيراً، انزلقت مبتعدة عني وعادت لتتكور في ركنها، وفستانها مايزال منحسراً فوق ركبتيها. انحنيت لأعانقها مرة أخرى. تعلقت بي كعلقة، وهي تحرّك مؤخرتها الزلقة بجنون. أحسست بعصيرها الحار يقطر بين أصابعي. كانت أصابعي الأربعة تلامس عانتها، تعبث بالأشنة المبتلة التي كانت ترتعش بتشنجات كهربائية. ارتعشت مرتين أو ثلاثا ثم غاصت في مقعدها منهكة، وهي تبتسم لي بضعف مثل ظبية وقعت في الشرك.

بعد قليل أخرجت مرآتها وبدأت تذرر وجهها بالبودرة. وفجأة لاحظت تعبيراً مروعاً على وجهها، ثم ندت عنها التفاتة سريعة. وفي لحظة أخرى جثت على المقعد، وراحت تحدق خارج النافذة الخلفية، ثم قالت: «أحد ما يتبعنا... لا تنظر إلى الوراء!» كنت خائراً جداً وسعيداً جداً فلم أبال لما قالته. «إنها مجرد هستيريا»، قلت في نفسي. لم أنبس بكلمة، لكني رحت أراقبها بدقة وهي توجه إلى السائق أوامر متلاحقة، تطلب منه بتشنج، أن يأخذ هذا الطريق أو ذاك، وأن يزيد من سرعته. «أرجوك، أرجوك!» بدأت تتوسل إليه، كما لو كان الأمر يتعلق بالحياة أو الموت. «يا سيدتي»، سمعته يقول،

كما لو كان الصوت يأتي من بعيد، من عربة أخرى في الأحلام، «لا يمكنني أن أسرع أكثر من ذلك... فلديّ زوجة وطفل... أنا آسف».

أخذت يدها وضغطتها برفق. بدا على وجهها تعبير محبط، وكأنها تريد أن تقول «أنت لا تعرف. أنت لا تعرف... هذا فظيع». لم تكن اللحظة مناسبة لأسألها أي شيء. وفجأة أدركت أننا في خطر. فجأة رحت أجمع اثنين واثنين بطريقتي المجنونة. قلّبت الأمر بسرعة... لا أحد يتبعنا إنه مفعول الكوك واللودانوم (نوع من الأفيون). إلا أن شخصا يلاحقها هذا مؤكد... لقد ارتكبت جريمة، جريمة بشعة، وربما أكثر من جريمة... لاشيء تقوله صحيح... إني في دوامة من الأكاذيب... أنا أعشق وحشاً، وحشاً فظيعاً لا يتصوره العقل... يجب أن أتركها الآن، على الفور، دون أن أنتظر منها تفسيراً . لعله قضي علي... لا يمكن سبر أغوارها التي ليس لها قرار، لعلي عرفت أن المرأة الوحيدة في العالم التي لا أستطيع أن أعيش بدونها يغلفها اللغز... اخرج فوراً... اقفز... انج بروحك!

أحسست بيدها تجوب ساقي، تثيرني خلسة. كان وجهها مسترخياً، عيناها واسعتين، مفتوحتين على وسعهما، تشعان بالبراءة.. قالت «هاهم قد ذهبوا، أصبح كل شيء على ما يرام الآن».

لاشيء صحيح، أقول لنفسي. إننا في البداية فقط. مارا، مارا، أين تقودينني؟ إنه المقدر، إنه المشؤوم، لكني أنا لك جسداً وروحاً، وستأخذينني أينما وحيثما شئت، سلميني إلى خالقي، مكسوراً، مسحوقاً، مليئاً بالكدمات. بالنسبة لنا لا يوجد تفاهم نهائي. أشعر بالأرض تميد تحت قدمي...

لم تتمكن أبداً من اختراق أفكاري، لا الآن ولا لاحقاً. لقد سبرت أعمق من الفكر: لقد قرأت أفكاري كما لو كان لديها هوائي. عرفت أنه كُتب عليّ أن أحطم نفسي، وأن أحطمها أيضاً في نهاية الأمر. كانت تعرف أنها التقت بقرينها مهما كانت اللعبة التي قد تدّعي أنها

ستلعبها معي. كنا نقترب من البيت. اقتربت مني جداً، وكما لو كانت تملك مفتاحاً في داخلها تتحكم فيه بإرادتها، فقد أضفت عليّ تألق حبها المنير المشع المبهر. توقف السائق. طلبت منه أن يتوقف على مسافة أبعد قليلاً وأن ينتظر. كنا نواجه بعضنا، أيادينا متشابكة، وركبنا تتلامس، والنار تسري في عروقنا. بقينا هكذا لبضع دقائق، كما يحدث في بعض الاحتفالات القديمة، ولم يكسر الصمت سوى قرقرة المحرك.

قالت: «سأخابرك غداً». وانحنت باندفاع فوقي لعناق أخير. ثم همست في أذني، «لقد وقعت في حب أغرب رجل على وجه الأرض. إنك تثير خوفي، أنت لطيف للغاية. ضمني إليك بقوة... اهصرني... ثق بي دائماً... أكاد أشعر كما لو أني كنت مع الله».

عانقتها، ارتعش جسدي بدفء عاطفتها، وأصبح عقلي خالياً من أي شيء بسبب عناقها، فقد أثارته تلك البذرة الصغيرة التي زرعتها فيّ. شيء ما قد قُيد، شيء ما يصارع دون جدوى لتوكيد نفسه منذ أن كنت طفلاً، ويأتي الآن إلى الشارع ليلقي نظرة حوله، أفلت الآن وأخذ يصعد إلى السماء الزرقاء كصاروخ. كينونة جديدة هائلة بدأت تورق بسرعة مخيفة من قمة رأسي، من التاج المزدوج الذي كان لي منذ الولادة.

بعد ساعة أو ساعتين من الراحة ذهبت إلى المكتب، الذي كان ممتلئاً بحشد من مقدمي الطلبات. وكانت الهواتف ترن كالمعتاد. وبدا لي أكثر من أي وقت مضى أنه لا جدوى من أن أمضي حياتي وأنا أحاول أن أسدّ الثقوب التي تتسرب بشكل دائم. لقد فقد المسؤولون في شركة كوسموديمونيك العالمية للبرق إيمانهم بي وفقدت أنا إيماني بالعالم الرائع الكامل الذي كانوا يربطونه بالأسلاك، الكابلات، بالبكرات، بالأجراس وبأشياء أخرى لايعرفها إلا الله. فلم أكن أعر أي اهتمام إلا لراتبي ـ وكل ما كنت أتحدث عنه هو العلاوة التي كنت سأقبضها في أي يوم. وكان لدي اهتمام آخر،

سر، اهتمام شيطاني، وهو أن أفرغ حقدي الذي كنت أكنه لسبيفاك في العمل، الخبير الذي جلبوه من مدينة أخرى ليتجسس علي. وكان سبيفاك يشي بي في كل المكاتب التي كان يظهر فيها، مهما كان المكتب بعيداً ونائياً. كنت أبقى صاحياً عدة ليال أفكر في الأمر كمفرقعة نارية أمينة ـ كيف يمكنني أن أتسقطه وأتسبب في طرده. وأقسمت أن أصبر على العمل حتى أطعنه. وكنت أشعر بمتعة كبيرة عندما كنت أبعث إليه برسائل زائفة بأسماء وهمية أسخر فيها منه، وأجعله موضع سخرية الجميع، وأسبب له اضطراباً شديداً. وكنت أطلب أيضاً من أشخاص أن يبعثوا له برسائل تهدد حياته. وكنت أطلب من كيرلي، عميلي الرئيسي، أن يخابره من حين لآخر، ويقول له إن بيته يحترق، أو إن زوجته نقلت إلى المستشفى ـ أي شيء يقلقه ويجعله يدور كالأحمق. كنت موهوباً بمثل هذا النوع من الحرب في المكر والخديعة. إنها موهبة ترعرعت لديّ منذ أيام الطفولة، حينما قال لي أبي «من الأفضل أن تشطب اسمه من الدفتر، فهو لن يسدد ما عليه!» فسّرت ذلك كما لو أن رئيس قبيلة من الهنود الحمر قد سلم سجيناً إلى أحد المحاربين الصغار وقال له «وجه أبيض قبيح، اعمل معه اللازم!» (كان لديّ ألف وسيلة ووسيلة لأعكّر صفو الرجل دون أن أخرج عن القانون. فقد واصلت محاربة بعض الأشخاص، الذين كنت أكرهم من حيث المبدأ، حتى بعد أن سددوا ديونهم الضئيلة منذ فترة طويلة. وكان أحد الأشخاص، الذين كنت أمقتهم جداً، قد أصيب بسكتة دماغية بعد أن تلقى إحدى رسائلي المهينة المغفلة الاسم الملطخة بروث قطة، أو طير، أو كلب أو شيء أو شيئين آخرين، بما فيها تلك التنويعات الإنسانية المعروفة. لقد كان سبيفاك غريمي، وكنت قد ركزّت كل إمكانياتي ومواهبي على الخطة الوحيدة لإزالته من الوجود. وعندما كنا نلتقي كنت أبدي له تهذيباً بالغاً، وتأدباً واحتراماً شديدين، وأظهر له حماساً كبيراً للتعاون معه بكل وسيلة، ولم أفقد أعصابي معه مطلقاً، مع أن كل كلمة كان يتفوه بها تجعل دمي يغلي ويفور. بذلت كل ما بوسعي

لأزيد من كبريائه، لأنفخ في ذاته، حتى تحين تلك اللحظة التي أثقب فيها ذلك البالون المنتفخ ويدويّ صوت انفجاره في كل مكان.

حوالى الظهر خابرت مارا. لابد أن الحديث دام ربع ساعة. ظننت أنها لن تغلق السماعة. قالت إنها قرأت رسائلي مرات ومرات، كما قرأت بعضها بصوت عال إلى عمتها، أو بالأحرى أجزاء منها. (قالت عمتها إنه لابد أن أكون شاعراً. وكانت منزعجة بشأن النقود التي استدنتها. هل بمقدوري أن أردها كلها أم هل يجب عليها أن تحاول وتستدين بعضاً منها؟ من الغريب أن أكون فقيراً ـ كنت أتصرف كشخص غني. إلا أنها سعيدة لأني كنت فقيراً. في المرة القادمة سنذهب في جولة في عربة الترامواي. فهي لا تكترث بالنوادي الليلية، بل كانت تفضل جولة على الأقدام في الريف أو جولة على القدمين على طول الشاطئ. كان الكتاب رائعاً ـ فقد بدأت بقراءته هذا الصباح. لماذا لا أحاول أن أكتب؟ إنها واثقة من أني قادر على تأليف كتاب عظيم. لديها أفكار كثيرة لتأليف كتاب وستقولها لي عندما نلتقي ثانية. وإن أردت فإنها ستعرفني على بعض الكتّاب الذين تعرفهم ـ وسيكونون سعيدين لمجرد مساعدتي.

كانت تتحدث بلا انقطاع. هزني الطرب وانتابني القلق في الوقت نفسه. كنت أفضل لو تدون ذلك على الورق. إلا أنها قالت إنها نادراً ما تكتب رسائل. لماذا، لم أفهم. كانت طلاقتها رائعة، فهي تقول أشياء معقدة، متقدة بشكل عشوائي، أو كانت تستطرد إلى عالم منسي متبل بألعاب نارية ـ عبارات لغوية تدعو للإعجاب ربما يجاهد كاتب متمرس ساعات كي يخرج بها. ومع ذلك فإن رسائلها ـ أتذكر الصدمة التي تلقيتها عندما فتحت أول رسالة منها ـ تكاد تكون طفولية.

إلا أن كلماتها أحدثت فيّ تأثيراً غير متوقع. فبدل أن أُهرع خارج البيت بعد العشاء مباشرة في ذلك المساء كدأبي، استلقيت على الأريكة في الظلام وغصت في أحلام يقظة عميقة. «لماذا لا تحاول

أن تكتب؟» كانت تلك هي العبارة التي لازمتني طوال اليوم، والتي كانت تكرر نفسها باستمرار، حتى عندما كنت أقول شكراً لصديقي ماكجريجور على الدولارات العشرة التي اعتصرتها منه بعد كثير من الذل والتملق والمداهنة.

بدأت أشق طريقي في الظلمة نحو البداية. بدأت أتذّكر أكثر أيام طفولتي سعادة، أيام الصيف الطويلة عندما كانت أمي تأخذني من يدي، تقودني إلى الحقول لأرى صديقي الصغيرين، جويي وطوني. وكطفل كان من المحال أن أخترق سر تلك البهجة التي تأتي من الإحساس بالتفوق. ذلك الإحساس الإضافي، الذي يمكّن المرء من المشاركة، وفي الوقت نفسه، ملاحظة مشاركة الآخرين، بدت لي أنها الهبة الطبيعية لكل شخص. لم أكن مدركاً أني كنت أتمتع بكل شيء أكثر من الأولاد الآخرين. ولم أتبين الاختلاف بيني وبين الآخرين إلا عندما بدأت أكبر.

يجب أن تكون الكتابة والتأمل عملين مجردين من الإرادة. ومثل تيار في محيط عميق الغور، يجب أن تطفو الكلمة إلى السطح عند أول خاطرة. فالطفل ليس بحاجة لأن يكتب، لأنه بريء. فالمرء يكتب ليتخلص من السموم التي جمعها بسبب أسلوب حياته الزائف. إنه يحاول أن يسترد براءته، ومع ذلك فإن كل ما ينجح في عمله (بالكتابة) هو أن يلقح العالم بفيروس من خيبة أمله. لن يضع إنسان كلمة على الورق إذا كان يملك الشجاعة لأن يعيش ما يؤمن به. إن إلهامه ينحرف عن المصدر. وإذا كان يرغب في خلق عالم من الحقيقة والجمال والسحر، فلماذا يضع ملايين الكلمات بينه وبين حقيقة ذلك العالم؟ لماذا يؤجل العمل ـ ما لم تكن رغبته، شأن الرجال الآخرين، القوة والشهرة والنجاح. فقد قال بلزاك «*الكتب هي فعل الإنسان في الموت*»، ومع إدراك الحقيقة، يسلم الملاك إلى الشيطان الذي يمتلكه بإرادته.

الكاتب يتودد إلى جمهوره بتزلف كما يفعل أي سياسي أو أي

نصاب آخر، إنه يحب أن يعزف على الوتر الحساس، أن يكتب وصفة كما يفعل الطبيب، أن يتبوأ مكانة لنفسه، أن يُعترف به كقوة، أن يحصل على الكأس المترعة بالتملق، حتى لو أرجئ ذلك ألف سنة. إنه لا يريد عالماً جديداً يمكن خلقه على الفور، لأنه يعرف أنه لن يناسبه على الإطلاق. فهو يريد عالماً مستحيلاً يكون فيه الحاكم دمية غير متوجة تهيمن عليه قوى خارج سيطرته تماماً. إنه يرضى بأن يحكم بشكل ماكر ـ في العالم الخيالي للرموز ـ لأن مجرد فكرة الاتصال بالحقائق الفجة والسمجة تثير فزعه. صحيح أنه يحيط بالحقيقة أكثر من الآخرين بكثير، لكنه لا يبذل جهداً في فرض تلك الحقيقة العليا على العالم بقوة المثال. بل يكتفي بأن يعظ فقط، أن يجتر عواقب الكوارث والنكبات، نبي ينعق دائماً بالموت بدون شرف، يرجمه دائماً، يجافيه دائماً أولئك الذين مهما كانوا غير مناسبين لمهماتهم، فإنهم مستعدون وراغبون في تنكب مسؤوليات عن قضايا العالم. إن الكاتب العظيم حقاً لا يريد أن يكتب: يريد أن يكون العالم مكاناً يستطيع أن يعيش فيه حياة خيالية. أول كلمة مرتعشة يضعها على الورقة هي كلمة الملاك المجروح: الألم. إن عملية كتابة الكلمات تتماثل مع تناول المرء مخدراً. يمتلئ المؤلف بأوهام العظمة عندما يرى أن الكتاب تحت يديه يكبر ويكبر. أنا أيضاً فاتح ـ ربما كنت أعظم فاتح على وجه الأرض! إن يومي لآتٍ. سأستعبد العالم بسحر الكلمات... وإلى ما هنالك حتى الغثيان.

تستحوذ عليّ تلك العبارة الصغيرة ـ *لماذا لا تحاول أن تكتب؟* كما كانت تفعل منذ البداية، في مستنقع يائس من الاضطراب والتشويش. أردت أن أسحر وأطرب لا أن أستعبد، أردت حياة أغنى وأعظم لكن ليس على حساب الآخرين، أردت أن أحرر خيال جميع الناس على الفور لأنه بدون مساندة العالم كله، بدون عالم موحد في الخيال، تصبح حرية الخيال رذيلة. أنا لا أكن احتراماً للكتابة لذاتها أكثر مما أكنه لله بذاته. لا يوجد أحد، أو مبدأ، أو فكرة، صالحة في حد ذاتها. إن ما هو صحيح هو ذلك الشيء الكثير من أي شيء، حتى

الله ـ الذي يحققه جميع الناس بشكل مشترك. يقلق الناس دائماً على مصير العبقرية. أما أنا فلست قلقاً أبداً على العبقرية: لأن العبقرية تعتني بالعبقري في الإنسان. لم أكن أهتم بأحد أبداً، الإنسان الذي يضيع بالمراوغة، الإنسان العادي الذي لا يلاحظ حضوره أحد. العبقري لا يلهم عبقرياً آخر، كل العباقرة علقات إذا جاز لنا قول ذلك. إنهم يتغذون من المصدر نفسه ـ دم الحياة. الشيء الأكثر أهمية بالنسبة للعبقري هو أن يجعل نفسه عديم الفائدة، أن يتم امتصاصه في الجدول المشاع، أن يصبح سمكة ثانية وليس نزوة الطبيعة. وفكرت أن الفائدة الوحيدة، التي يمكن أن يقدمها عمل الكتابة لي، تكمن في أن أزيل الخلافات التي تفصلني عن أخواني البشر. ومن المؤكد أني لم أكن أريد أن أصبح فناناً، بمعنى أن أصبح شيئاً غريباً، شيئاً منفصلاً وخارج تيار الحياة.

إن أفضل شيء يتعلق بالكتابة ليس العمل الفعلي في تدوين كلمة إثر كلمة، ووضع لبنة فوق لبنة، إلا أن التمهيد، العمل المضني الذي يتم في صمت، تحت أية ظروف، في حالة الحلم وفي حالة اليقظة أيضاً. باختصار، فترة الحمل. لا يمكن لإنسان أن يكتب ما يريد أن يقوله: إن الخلق الأصلي، الذي يحدث في جميع الأوقات، سواء كتب المرء أم لم يكتب، ينتمي إلى الدفق الأساسي: ليس له أبعاد الزمن، أو شكله، أو عناصره. في هذه الحالة التمهيدية التي هي خلق وليست ولادة، الشيء الذي يختفي لا يتعرض للدمار، شيء موجود للتو، شيء خالد، كالذكرى، أو المادة، أو الله، يستدعى ويرمي فيه المرء نفسه مثل غصين في سيل جارف. الكلمات، الجمل، الأفكار، مهما كانت رائعة أو مبدعة، أكثر تهويمات الشعر جنوناً، أكثر الأحلام عمقاً، أكثر الرؤى هلوسة، ما هي إلا طلاسم خام محفورة بالألم والحزن لإحياء ذكرى لا يمكن ابتعاثها. في عالم مرتب بذكاء لا توجد فيه حاجة للقيم، لبذل محاولة غير معقولة لكتابة مثل هذه الأحداث العجائبية. حقاً، لن يكون لها أي معنى، لأنه إذا توقف البشر عن إدراكها، فمن سيرضى بالشيء المزور عندما يصبح الحقيقي

في متناول الجميع؟ من يريد أن يفتح المذياع ويستمع إلى بيتهوفن، مثلاً، عندما يعزف بنفسه الأنغام المثيرة للنشوة التي جاهد بيتهوفن لتسجيلها على نحو مستميت؟ عمل فني عظيم، إذا حقق أي شيء، فهو يذكرنا، أو لنقل أنه يجعلنا نحلم، بكل ما هو سائل وغير ملموس. أي الكون. لا يمكن فهمه، بل يمكن قبوله أو رفضه فقط. وإذا قبلناه ننتعش، وإذا رفضناه ننكمش. مهما كان فحواه فهو ليس كذلك: إنه دائماً شيء أكثر من أن تقال فيه الكلمة الأخيرة. إننا نفرغ فيه كل شيء بسبب الجوع الذي ننكره يومياً في حياتنا. إذا قبلنا أنفسنا بأننا كاملون، فإن العمل الفني، وفي الواقع عالم الفن بكامله، سيموت من سوء التغذية. كل فرد منا يتحرك بدون أقدام على الأقل بضع ساعات يومياً، عندما تغلق عيناه وجسمه ينكفئ. إنه فن الحلم عندما يكون في قدرة كل إنسان أن يكون يقظاً في أحد الأيام. وقبل ذلك بوقت طويل ستتوقف الكتب عن الوجود، لأنه عندما يكون الرجال يقظين ويحلمون فإن قدرتهم على الاتصال (مع بعضهم ومع الروح التي تحرك كل الرجال) ستتحسن بحيث تغدو الكتابة أشبه بالنعيق الأجش لأبله.

الانجراف مع التيار ـ هذه العبارة الصغيرة. هذا النوع من التفكير هو الذي يسود عندما تذكر كلمة «الكتابة». فخلال عشر سنوات من الجهود غير المتواصلة، تمكنت من كتابة مليون كلمة أو ما يقارب ذلك، ويمكنك أن تقول أيضاً مليون خوصة عشب. إن لفت الانتباه إلى هذا العشب الخشن أمر مهين. كان جميع أصدقائي يعرفون أني أمتلك رغبة شديدة في الكتابة ـ وهذا هو السبب الذي كان يجمع حولي عدد من الأصدقاء أحياناً: الرغبة في الكتابة. فخذ على سبيل المثال، إد غافارني، الذي كان يدرس ليصبح قساً: كان يجمع عدداً من الأصدقاء في بيته من أجلي، لكي أبرز مواهبي على الملأ لتصبح الأمسية ممتعة. ولكي يثبت اهتمامه بالفن النبيل، كان يزورني في فترات منتظمة تقريباً، ويجلب معه شطائر باردة وتفاحاً وبيرة. وكان في بعض الأحيان يملأ جيبه بالسيجار. كان عليّ أن

أملأ بطني وخياشيمي. ولو كانت لديه ذرة من الموهبة لما حلم أن يصبح قساً أبداً. وهناك زابروفسكي، عامل البرق في شركة برق كوسموديمونيك لأمريكا الشمالية: كان دائماً يفحص أحذيتي وقبعتي ومعطفي، ليتأكد إن كانت في حالة جيدة. لم يكن لديه وقت للقراءة، ولم يكن يكترث أبداً بما كنت أكتب، ولم يكن لديه إيمان بأني سأصبح شيئاً على الإطلاق، لكنه كان يحب أن يسمع عن ذلك. وكان يهتم بالخيول، وكان يعتبر أن استماعه لي بمثابة تغيير غير ضار له، ويستحق ثمن وجبة غداء جيدة أو ثمن قبعة جديدة، إذا دعت الضرورة. وكنت أشعر برغبة شديدة عندما أروي له قصصاً كما لو كنت أتحدث إلى رجل من القمر. وكان يقاطعني عند أكثر الشطحات دقة، ويسألني إن كنت أفضل فطيرة من الفريز أو قطعة من الجبن البارد كحلوى... وكان هناك كوستيجان، من يوركفيل، احتياطي جيد آخر وحساس كخنزير عجوز. تعرف مرة على كاتب في صحيفة الشرطة، مما جعله مؤهلاً لأن يصاحب النخبة. كان يروي لي قصصاً، قصصاً يمكن بيعها، إذا نزلت من عليائي وأصغيت له. كان كوستيجان يتوسل إليّ بأسلوب غريب، إنه يبدو بليداً، خنزيراً هرماً، تكسو وجهه البثور والشعر الخشن وكأن أسلاكا تغطي جسده. كان في غاية اللطف والدماثة إلى درجة أنه إذا تنكر في زي امرأة فلن تتوقع أن بإمكانه أن يدفع شخصاً إلى الحائط ويضربه حتى يندلق دماغه من رأسه. كان من ذلك النوع الصلب الذي يمكن أن يغني بصوت ذي طبقة عالية ويستنهض مجموعة من البدينين لشراء إكليل جنائزي. وفي عمل البرقيات، كان يُعد كاتباً موثوقاً هادئاً، وكان يعمل لمصلحة الشركة من كل قلبه. أما خارج أوقات العمل، فقد كان هولاً مقدساً، بلاء يثير الذعر في المنطقة التي يقطن فيها. وكانت لديه زوجة اسمها الأصلي تيلي جوبيتير، وجسدها أشبه بنبتة صبار، تمنح الكثير من الحليب الكامل الدسم. وكان قضاء أمسية معهما يجعل عقلي وكأنه سهم مسموم.

من الأصدقاء والمؤيدين كان لديّ قرابة الخمسين. وكان من

بينهم ثلاثة أو أربعة يتفهمون قليلاً ما كنت أحاول أن أفعله. أحدهم، ملحن يدعى لاري هانت، يعيش في بلدة صغيرة في مينيسوتا. وكنا قد أجّرناه ذات مرة غرفة وكاد يقع في حب زوجتي - لأني كنت أعاملها على نحو مشين. إلا أنه كان يحبني حتى أكثر من زوجتي، وهكذا، إثر عودته إلى ريفه المتخلف بدأ يبعث لي رسائل حتى أصبحت بحجم مجلد. وبدأ يلمح الآن إلى رجوعه إلى نيويورك لزيارة قصيرة. كنت أتمنى أن يأتي ويخلصني من الزوجة. منذ سنوات، حين بدأت علاقتنا تسوء، حاولت أن أجمّلها في عينيّ حبيبها القديم، الذي كان اسمه رونالد، من شمال الولاية. وكان رونالد قد جاء إلى نيويورك ليطلب يدها للزواج. أستعمل هذه العبارة المنمقة لأنه كان من ذلك الضرب الذي يمكنه أن يقول شيئاً كهذا دون أن يبدو تافهاً وأحمق. حسناً، التقينا نحن الثلاثة وتناولنا طعام العشاء في مطعم فرنسي. ومن الطريقة التي كان ينظر فيها إلى مود، رأيت أنه كان شديد الاهتمام بها، وأنهما يتفقان في أمور كثيرة أكثر مما كنت أتفق معها. دخل في قلبي على الفور، فقد كان واضحاً، صادقاً حتى العظم، لطيفاً، يراعي شعور الآخرين، من النوع الذي يجعل منه ما يدعى «زوج جيد». زد على ذلك، فقد كان ينتظرها منذ فترة طويلة، ولا بد أنها نسيته، وإلا فلم تكن لتقترن بنغل عديم القيمة مثلي لم يتمكن من معاملتها جيداً... إن ما حدث في ذلك المساء كان شيئاً غريباً، وهي لن تغفر لي ما حييت إذا علمت بذلك. فبدل أن آخذها إلى البيت، رجعت إلى الفندق مع حبيبها القديم. وسهرت طوال الليل وأنا أحاول إقناعه بأنه هو الرجل الأنسب، وحدثته عن جميع الأشياء النتنة التي كنت أتصف بها، أشياء فعلتها لها وللآخرين، وتوسلت إليه، ورجوته أن يتزوجها. حتى إني تجاوزت الحد وقلت له إني أعرف أنها تحبه، وأنها اعترفت لي بذلك. وقلت له إنها «لم تتزوجني إلا لأني كنت الوحيد أمامها. هي حقاً تتوقع منك أن تتخذ خطوة، أمنح نفسك فرصة». إلا أنه لم ينصت لي. كان مثل غاستون والفونس في ذلك الفيلم الهزلي، سخيفاً ومثيراً

للشفقة وغير واقعي. ذلك النوع من الأشياء التي ما فتئوا يقدمونها في الأفلام والتي مازال الناس يدفعون نقوداً لمشاهدتها... على أي حال، عرفت أني لن أكرر ذلك عند التفكير بزيارة لاري هانت القادمة. كانت خشيتي الوحيدة هي أن يكون قد وجد امرأة أخرى في أثناء ذلك، وعندها سيكون من الصعب أن أغفر له ذلك.

هناك مكان واحد (المكان الوحيد في نيويورك) الذي كنت أجد متعة في الذهاب إليه، وخاصة عندما يكون مزاجي رائقا، وهو مرسم صديقي أولريك في شمال المدينة. كان أولريك طائراً داعراً، وقد جعلته مهنته يتعرف على راقصات التعري، المثيرات للشبق، وكل أنواع الإناث المفسدات جنسياً. ومن بين البجعات النحيفات الفاتنات اللاتي كن يأتين إلى مرسمه ليتعرين أمامه، كنت قد أحببت أكثر ما أحببت الفتيات الملونات، اللواتي كان يبدلهن باستمرار. ولم يكنّ يقفن أمامنا لاتخاذ وضعيات بسهولة. وعندما كنا ننجح في إقناعهن بذلك، كان إقناعهن بأن يدلين ساقاً من فوق الكرسي ذي المسند وأن يكشفن عن قليل من لحم السلمون الوردي أكثر صعوبة. وكان أولريك معيناً لاينضب من التصاميم الداعرة، وكان يبتدع دائماً طرقاً يمكنه من خلالها أن يلج ذكره فيها. كانت وسيلة لإفراغ أفكاره في أمور رخيصة كان يكلف برسمها. (فقد كانت تدفع له مبالغ كبيرة لتصميم علب جميلة من الحساء أو الذرة لوضعها على الأغلفة الخلفية للمجلات). وكان يرغب حقاً في أن يرسم فروجاً مربربة يسيل منها العصير لكي يلصقها على جدران الحمامات لتسهيل حركة الأمعاء. يفعل ذلك دون مقابل، إذا تدبر له أحدهم الطعام والمال اللازمين. وكما قلت منذ قليل، فقد كانت عنده نزعة رائعة نحو اللحم الداكن. فعندما كان يطلب من العارضة أن تتخذ وضعية غريبة ـ كأن تنحني لتلتقط دبوس شعر، أو تتسلق درجات السلم وهي تمسح بقعة على الحائط ـ كان يعطيني ورقة وقلم رصاص ويطلب مني أن أقف في زاوية تمكنني من رؤية مناطق حساسة، وأتظاهر بأني أرسم شكلاً بشرياً (وهو شيء خارج

طاقتي)، كنت أمتّع عينيّ بالأجزاء التشريحية المختارة المعروضة أمامي وأنا أملأ الورقة بأشكال من أقفاص الطيور، ورقع الشطرنج، والأناناس وأقنان الدجاج. وبعد استراحة قصيرة، كنا نساعد العارضة على استعادة وضعيتها الأصلية بدقة. وكان ذلك يستوجب منا شيئاً من المناورة الذكية، كأن تنزّل أو ترفع الردفين، أو أن ترفع قدماً واحدة إلى الأعلى قليلاً، أو أن تباعد بين ساقيها أكثر قليلاً، وما إلى ذلك. وكنت أسمعه يقول: «أظن أن ذلك رائع يالوسي»، وهو يحركها بمهارة لتصبح في وضعية داعرة. «هل تستطيعين أن تثبتي هكذا يالوسي؟» وتصدر لوسي هسيساً زنجياً بأن كل شيء على ما يرام. وكان يقول لها: «لن نبقيك هكذا طويلا يالوسي»، ويغمزني غمزة ماكرة، ويضيف قائلاً لي «لاحظ التمهبل الطولي» مستخدماً عبارات غير مفهومة يستحيل على لوسي أن تتابعها بأذنيها الأرنبيتين. وكان لكلمات مثل «التمهبل» وقعها السحري على أذنيّ لوسي. فذات مرة التقت به في الشارع وسمعتها تقول له «أي التمهبل ستمارس اليوم، يا سيد أولريك؟»

كنت على وفاق مع أولريك أكثر من أي صديق آخر. فقد كان يمثل بالنسبة لي أوروبا، تأثيرها الحضاري. كنا نتحدث ساعات طوال عن هذا العالم الآخر حيث توجد للفن علاقة بالحياة، حيث يمكنك أن تجلس بهدوء في الأماكن العامة وتراقب العرض الحي الذي يمر أمامك ورأسك يقلب أفكارك الخاصة. هل سأذهب إلى هناك ذات يوم؟ هل سيأتي ذلك اليوم متأخراً جداً؟ كيف سأعيش؟ ما اللغة التي سأتحدث بها؟ وعندما فكرت بالموضوع على نحو واقعي بدا لي أنه لا أمل لي في ذلك. الأرواح المجازفة فقط يمكنها أن تحقق مثل هذه الأحلام. لقد فعلها أولريك ـ لمدة سنة ـ بفضل تضحية قاسية. فقد عمل أشياء كان يكره أن يفعلها لمدة عشر سنوات كي يحقق حلمه. أما الآن فقد انتهى ذلك الحلم وعاد إلى حيث بدأ. بل عاد إلى الوراء أكثر، حقاً، لأنه لن يتمكن من أن يتكيّف ثانية مع المطحنة. لقد كانت بالنسبة لأولريك بمثابة إجازة دراسية: حلم

يدور كدودة الخشب مع مرور السنين. لم أستطع أبداً أن أفعل ما فعله أولريك. لا أستطيع أن أقوم بتضحية من ذلك النوع، ولا يمكن أن أكتفي بمجرد عطلة مهما طالت أو قصرت. فقد كانت سياستي دائماً أن أحرق جسوري خلفي، وأن تكون وجهتي دائماً نحو المستقبل. إذا ارتكبت خطأ فهو مميت. إذا ألقي بي فإني أسقط في القاع ذاته. الشيء الوحيد الذي يحميني هو مرونتي. أحياناً يشبه الارتداد أداء الحركة البطيئة، أما في عيون الله فليس للسرعة أهمية خاصة.

كنت قد أنهيت كتابي الأول في مرسم أولريك منذ أشهر قليلة ـ الكتاب عن الرسل الإثني عشر. كنت أعمل في غرفة أخيه، وكان قد قال لي رئيس تحرير إحدى المجلات منذ فترة قصيرة، بعد أن قرأ بضع صفحات من قصة لم أنهها بعد، قال ببرود إني لا أملك ذرة من الموهبة، وإني لست على اطلاع ببديهيات الكتابة ـ بالاختصار، إني فاشل تماماً وأن أفضل شيء يمكن أن تفعله، يا بني، هو أن تنسى هذا الأمر، وأن تحاول أن تعيش بصدق. وكان غبي آخر قد ألفّ كتاباً لقي نجاحاً كبيراً عن عيسى النجار قد قال لي الشيء نفسه. وإذا كانت قصاصات الرفض تعني أي شيء، فثمة تأكيد بسيط يؤيد انتقاد هذه العقول البصيرة. «من هم هؤلاء الحمقى؟» أقول لأولريك، «لماذا يقولون لي ذلك؟ ماذا فعلوا سوى أنهم أثبتوا أنهم يعرفون كيف يجمعون المال؟».

حسناً، كنت أتحدث عن جويي وطوني، صديقيّ الصغيرين. كنت مستلقياً في العتمة، غصين صغير يطفو في الجدول الياباني. نهضت وأشعلت ضوءاً خافتاً. غمرني شعور بالهدوء وصفاء العقل، مثل نبتة اللوتس المتفتحة. لم أعد أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بعصبية، لم أعد أشدّ شعري من جذوره. أغوص ببطء في الكرسي بجانب المنضدة أحمل قلم رصاص وأبدأ الكتابة. أصف بكلمات بسيطة كيف كانت مشاعري وأنا أمسك يد أمي ونحن نتمشى في الحقول

المشمسة، كيف كانت مشاعري عندما رأيت جويي وطوني وهما يندفعان نحوي وذراعاهما مشرعتان، ووجهاهما متألقان يشعان بهجة. أضع لبنة فوق لبنة كما يفعل عامل بناء المجد. كان يحدث شيء ذو طبيعة عمودية ـ لم تكن أنصال العشب هي التي تنمو، بل شيئاً ذا هيكل، شيئاً ذا خطة. لم أبذل جهداً لأنهيه. توقفت عن الكتابة عندما أفرغت كل ما يمكنني أن أقوله، ورحت أقرأ ما كتبته ثانية بهدوء. تأثرت جداً بحيث ترقرقت الدموع في عيني. هذا شيء لا يراه رئيس التحرير: شيء يجب وضعه جانبا في الدرج، أن تحتفظ به للتذكير بالعمليات الطبيعية، كوعد بالإنجاز.

كل يوم نذبح أجمل دوافعنا. لذلك نصاب بوجع في القلب عندما نقرأ تلك الخطوط التي كتبت بيد معلم وندرك أنها ملكنا، كالبراعم الطرية التي خنقناها لأننا نفتقر إلى الإيمان بالثقة في قوانا، معاييرنا بالصدق والجمال. كل إنسان، عندما يصبح هادئاً، عندما يصبح صادقاً جداً مع نفسه، يصبح بوسعه أن ينطق حقائق عميقة. إننا نستمد جميعنا من نفس المصدر. لا يوجد لغز عن أصل الأشياء. إننا جميعنا جزء من الخلق، جميع الملوك، جميع الشعراء، جميع الموسيقيين، كل ما علينا هو أن ننفتح، أن نكتشف ماذا يوجد هناك.

ما حدث لي عند الكتابة عن جويي وطوني كان بمثابة وحي. لقد أوحي لي أن بإمكاني أن أقول ما أريد ـ إذا لم أفكر بشيء آخر، إذا ركزت على ذلك تماماً ـ وإذا كنت أرغب في تحمل العواقب التي تصدر عن عمل نقي دائماً.

2

بعد يومين أو ثلاثة أيام، التقيت بمارا لأول مرة في وضح النهار. كنت أنتظرها في محطة لونغ أيلاند للسكك الحديدية في بروكلن. كانت الساعة تقارب السادسة مساء على نظام التوقيت الصيفي، وكان مشهد اندفاع الموظفين يبدو غريبا تحت أشعة الشمس الساطعة التي تشيع الحياة والضياء حتى في هذا القبو الكئيب الذي يستخدم كحجرة انتظار لخطوط سكة حديد لونغ أيلاند. كنت أقف بالقرب من الباب عندما شاهدتها وهي تعبر السكة بين العربات، وكانت أشعة الشمس تتسرب من خلال المبنى القبيح ذي الأعمدة المذهبة. كانت ترتدي فستاناً سويسرياً منقطاً منح قوامها مزيداً من الامتلاء. وهبّت نسمات خفيفة لتعبث بشعرها الأسود اللماع، ولتزيد إشراقة وجهها الناصع البياض. بتلك الخطوات الرشيقة، السريعة، الواثقة، المتيقظة، شعرت بالحيوان يخترق اللحم بنعمة مزهرة وجمال هش. هكذا هي إذن مارا أثناء النهار، مخلوق موفور الصحة، غض، ترتدي ثياباً في غاية البساطة، وتكاد تتحدث كطفل.

قررنا أن نمضي الأمسية على الشاطئ. خشيت أن يكون الجو بارداً عليها وهي في هذا الفستان الرقيق، لكنها قالت إنها لا تبرد أبداً. كانت البهجة تغمرنا بحيث أخذت الكلمات تتدفق دفقاً من فمينا. انحشرنا في مقصورة السائق، وكاد وجهانا يتلامسان ويتوهجان بإشعاعات شمس الغروب اللاهبة. كم كان الفرق كبيراً بين هذه

الجولة على السطح، وتلك الجولة التي انطلقت فيها وحيداً باتجاه بيتها في صباح يوم الأحد ذاك والقلق يعتريني! هل يمكن للعالم أن يغّير لونه في فترة قصيرة كهذه؟

الشمس النارية الغاربة تلك ـ رمز البهجة والدفء ـ تلهب قلوبنا، تنير أفكارنا، تسحر أرواحنا. دفؤها سيدوم حتى الليل، سيتدفق من تحت الأفق المقوس في تحد لليل. في هذا اللهيب الناري أعطيتها المخطوطة لتقرأها. لم يكن بالإمكان اختيار لحظة ملائمة أكثر من هذه أو ناقد أفضل منها. لقد ولدت في الظلمة وتعمدت في النور. وفيما رحت أراقب قسمات وجهها غمرني شعور بالسمو، إلى حد أني شعرت كما لو أنني سلمتها رسالة من الخالق نفسه. لم أكن بحاجة لأعرف رأيها، فقد كان بوسعي أن اقرأه على قسمات وجهها. لسنوات عديدة حافظت على هذا التذكار، أذكره في اللحظات البائسة عندما كنت أخلو بنفسي، وأنا أذرع الغرفة العلوية الوحيدة ذهاباً وإياباً في مدينة أجنبية، وأنا أقرأ الصفحات المكتوبة حديثاً، وأبذل جهدي لأتخيل تعابير الحب والإعجاب المرتسمة على وجوه جميع قرائي مستقبلاً. وعندما كان أحدهم يسألني إن كنت أتصور نوعاً معيناً من القراء وأنا أكتب، كنت أقول إنه لا يوجد ببالي أناس معينين، ولكني أضع في مخيلتي في واقع الأمر صورة حشد كبير، حشد مجهول، لعلي أتعرف من هنا وهناك على وجه ودود فيه: في ذلك الحشد، أرى الدفء البطيء المشتعل يتراكم، الذي كان ذات مرة صورة وحيدة: أراه ينتشر، يشتعل، يزداد اشتعالاً حتى ينقلب إلى حريق كبير. (الوقت الوحيد الذي يحصل فيه الكاتب على مكافأته هو عندما يأتي إليه أحد وهو يحترق بهذا اللهب الذي نفخه فيه في لحظة من الخلوة. النقد الصادق لا يعني شيئاً: إن ما يحتاجه المرء هو العاطفة الجياشة، النار من أجل النار).

حين يحاول المرء أن يفعل شيئاً خارج طاقته، فمن العبث أن يسعى للحصول على استحسان أصدقائه. فالأصدقاء يتواجدون في

أفضل أحوالهم في لحظات الهزيمة، على الأقل تلك هي تجربتي. وهم إما أن يخذلوك تماماً أو لا يعيروك أي اهتمام. الحزن هو الرابطة الكبرى ـ الحزن وسوء الحظ. ولكن عندما تختبر قواك، حين تحاول أن تفعل شيئاً جديداً، فإن أخلص أصدقائك قد يثبت أنه خائن. والطريقة الوحيدة التي يتمنى لك فيها حظاً طيباً، عندما تثقب أفكارك الوهمية، تكفي لخذلانك. إنه لا يؤمن بك إلا بالقدر الذي يعرفك فيه، واحتمال أن تكون أعظم مما تبدو يثير حفيظته، لأن الصداقة تقوم على المودة. ولعلي أقول إن القاعدة تتمثل في أنه يجب على المرء أن يقطع كل صلاته بالآخرين إذا شرع في مغامرة كبيرة، أن ينطلق إلى القفر، وعندما يجاهد مع نفسه، يجب أن يعود ويختار تابعاً، مهما كان هذا التابع سيئاً: بل إن كل ما يهم هو أن يؤمن بشكل ضمني. فلكي تورق النواة، يجب أن يُظهر شخص آخر، فرد خارج الحشد، إيمانه. فالفنانون، شأنهم شأن الزعماء الدينيين العظماء، يظهرون فطنة تثير الدهشة في هذا المجال. فلا يختارون الشخص الذي قد يساعدهم في أداء غرضهم، بل يختارون دائماً شخصاً غامضاً وغالباً ما يكون سخيفاً.

من الأمور التي أشعرتني بالإحباط في بداياتي، والتي كادت تصبح مأساة، هي أني لم أجد ذلك الشخص الذي أثق فيه، بصفتي كشخص أو ككاتب. كانت هناك مارا، هذا صحيح، إلا أن مارا لم تكن صديقة، بل تكاد لا تكون شخصاً آخر، فقد أصبحنا متوحدين بقوة. كنت أحتاج شخصاً من خارج الحلقة المفرغة من المعجبين المزيفين، والحسودين الذين يشوهون سمعتك. كنت أحتاج إلى رجل من حيث لا يُحتسب.

بذل أولريك قصاراه ليتفهم ما يجيش في خاطري، لكنه لم يدرك آنئذ ما كان مقدراً لي أن أصبح. كيف لي أن أنسى الطريقة التي تلقى فيها النبأ المتعلق بمارا؟ كان ذلك بعد يوم من ذهابنا إلى الشاطئ. وكنت قد ذهبت إلى المكتب كالمعتاد في الصباح، ولكن عند

الظهيرة انتابتني رغبة لاعجة بأن استقل عربة وأتوجه إلى الريف. كانت الأفكار تتدفق في رأسي، وبالسرعة التي كنت أدونها فيها، ثمة أفكار أخرى تتدفق وتحتشد، حتى تصل في نهاية الأمر إلى النقطة التي تتخلى فيها عن أي أمل بأن تتذكر الأفكار الرائعة، وتستسلم ببساطة لكتابة كتاب تدوّن فيه ما يجول في خاطرك. وأنت تعرف حق المعرفة أنه لن يكون بوسعك أن تستعيد تلك الأفكار، ولن تستطيع كتابة سطر واحد، أو تستعيد تلك الكلمات أو الجمل الصاخبة الرائعة المترابطة التي كانت تنخل عبر عقلك كنشارة الخشب وهي تنسل عبر فتحات صغيرة. في تلك الأيام يكون لديك أفضل رفيق يمكن أن تحظى به ـ الذات المتواضعة، المهزومة، المتثاقلة أثناء يوم العمل، التي تحمل اسماً وتُعرف في السجلات العامة في حال وقوع حادث أو وفاة. أما النفس الحقيقية، التي تتولى زمام الأمور، فتكاد تكون غريبة. إنه الشخص المزدحم بالأفكار، الشخص الذي يكتب في الهواء، الشخص الذي، إذا أصبحت مفتوناً جداً بمآثره، سيصادر أخيراً النفس البالية القديمة، ويستحوذ على اسمك، وعنوانك، وزوجتك، وماضيك، ومستقبلك. ومن الطبيعي أنك عندما تصادف صديقاً قديماً وأنت في هذه الحالة من البهجة، فلا يريد أن يعترف على الفور بأنه توجد لديك حياة أخرى، حياة منفصلة ليس له نصيب فيها. ويقول بسذاجة تامة ـ «أشعر بالغبطة اليوم، إيه؟» وأنت تومئ برأسك بخجل تقريباً.

قلت: «أنظر ياأولريك»، وانفجرت في وجهه، وهو مازال منهمكاً في تصميم علبة حساء كامبيل، وأضفت «أريد أن أخبرك بشيء يعتمل في صدري».

قال: «بالتأكيد، قل ما عندك»، وهو يغمس فرشاة الألوان المائية في القدر الكبير الموضوع على الكرسي الصغير بجانبه. «أرجو أن لا تمانع إذا واصلت هذا الشيء اللعين؟ يجب عليّ أن أنهيه هذه الليلة». تظاهرت بأني لا أمانع، لكني كنت مرتبكاً. خفضت

صوتي قليلاً لكي لا أزعجه أكثر من اللازم وقلت: «هل تذكر تلك الفتاة التي أخبرتك عنها ـ الفتاة التي قابلتها في المرقص؟ لقد قابلتها ثانية، ذهبنا معا إلى الشاطئ ليلة أمس...».

«كيف كان ذلك... هل مشي الحال؟».

من الطريقة التي انزلق فيها لسانه فوق شفتيه عرفت أنه كان يُعدّ نفسه لينسج قصة مسيلة للعاب.

«استمع يا أولريك، هل تعرف ماذا يعني أن يكون المرء عاشقاً؟».

حتى أنه لم يتكرم بالتطلع إليّ والرد عليّ. وفيما راح يمزج ألوانه بحذق في صينية القصدير غمغم بأني مهووس بالغرائز الطبيعية.

واصلت دون خجل: «هل تظن أنه يمكنك أن تلتقي بامرأة يوما ما وتغيّر حياتك كلها؟».

أجاب: «التقيت بواحدة أو اثنتين حاولتا ذلك ـ لكنهما لم تنجحا تماماً، كما يمكن أن ترى».

«اللعنة! انسَ ذلك ولو للحظة، أرجوك؟ أريد أن أخبرك شيئاً... أريد أن أخبرك بأني عاشق، عاشق متيم. أعرف أن ذلك يبدو سخيفاً، لكن هذا شيء آخر ـ لم أكن مثل هذا من قبل. إنك تتساءل إن كانت جيدة للمضاجعة. نعم، إنها رائعة. لكني لا أكترث بذلك أبداً...

«أوه، أنت لا تكترث؟ حسناً، ذلك شيء جديد».

«هل تعرف ماذا فعلت اليوم؟».

«ذهبت إلى شارع هوستون وربما إلى بورليسك».

«ذهبت إلى الريف. رحت أمشي هناك كالمجنون...».

«ماذا تعني ـ هل طردتك؟».

«لا. قالت إنها تحبني... أعرف أن ذلك يبدو طفولياً، أليس كذلك؟».

«لن أقول ذلك بالضبط. لعلك مشوش قليلاً، هذا كل ما في الأمر. الكل يتصرفون بغرابة قليلاً عندما يعشقون. في حالتك قد يدوم ذلك فترة أطول. أتمنى أن لا أكون منشغلاً بهذا العمل اللعين الذي بين يدي، لكنت استمعت إليك بمزيد من التعاطف. هل تستطيع أن تعود بعد قليل؟ ربما نستطيع أن نأكل معا، موافق؟».

«حسناً، سأعود بعد ساعة أو حوالى الساعة. لا تعتمد عليّ أيها النغل، فأنا لا أملك سوى سنت واحد».

هبطت درجات السلم قفزاً، وذهبت إلى الحديقة. كنت أشعر بالحنق. وكان من السخف أن أفرغ حنقي أمام أولريك. ذلك الشخص البارد دائماً كالجليد. كيف يمكنك أن تجعل شخصاً آخر يفهم ما يجري حقاً في داخلك؟ لو انكسرت إحدى ساقيك لتوقف عن عمل أي شيء، أما إذا كان قلبك مفعماً بالبهجة ـ حسناً، فهذا شيء ممل... ألا تعرف ذلك. يمكن أن يكون تحمّل الدموع أسهل من الفرح. الفرح مدّمر: إنه يزعج الآخرين. «إذا بكيت فستبكي وحدك» يالها من أكذوبة! إبك وستجد مليون تمساح يبكي معك. العالم يبكي إلى الأبد. العالم غارق في البكاء. أما الضحك فهو شيء آخر. الضحك مؤقت وعابر. أما الفرح فهو نوع من النزف المنتشي، شيء معيب من الإفراط في القناعة التي تفيض من كل مسام من مسامات كينونتك. لا يمكنك أن تجعل الناس سعداء لمجرد أنك سعيد. الفرح يولد من تلقاء نفسه: أن تكون فرحاً أو لا تكون. الفرح مؤسس على شيء عميق جداً لا يمكن فهمه والتواصل معه. أن تكون سعيداً هو أن تكون مجنوناً في عالم من الأشباح الحزينة.

لا أتذكر قط أني رأيت أولريك سعيداً جداً. يمكنه أن يضحك على الفور، ضحكة عالية مجلجلة أيضاً، إلا أنه ما أن تتلاشى ضحكته، سرعان ما يعود إلى شخص أقل من عادي. أما ستانلي فكان أقصى ما يمكن أن يفعله عندما يغمره الفرح، هو أن يطلق تكشيرة مليئة بحامض الكاربوليك. لم أجد أحداً من معارفي مرحاً حقاً من الداخل.

أما صديقي كرونسكي، الطبيب المقيم، فعندما كان يراني في مزاج رائق، كان يتصرف كما لو أنه أصيب بذعر شديد. فقد كان يتكلم عن الفرح والحزن كما لو كانا حالتين مرضيتين ـ قطبان متضادان في الدورة المخلة بالعقل.

حين عدت إلى المرسم كان محتشداً بأصدقاء أولريك الذين جاؤوا بلا موعد. وكان أولريك يسميهم الأرستقراطيين الصغار القادمين من الجنوب. إذ قدموا من فرجينيا ونورث كارولينا في سيارات سباق، وأحضروا معهم دوارق من براندي الدراق. لم أكن أعرف أحداً منهم، وانتابني قليل من الانزعاج في بادئ الأمر، إلا أنه بعد كأس أو كأسين انتعشت وبدأت أتحدث بطلاقة. ولدهشتي بدا أنهم لا يفهمون ما كنت أتحدث عنه. واعتذروا عن جهلهم بطريقة ماكرة ومحرجة بقولهم إنهم مجرد أناس ريفيين عاديين، وأنهم يعرفون عن الخيول أكثر مما يعرفونه عن الكتب. ولا أذكر أني ذكرت أي كتاب، إلا أن ذلك كان أسلوبهم للسخرية مني، كما تبين لي بعد حين. لا بد أني مثقف، هذا ما قالوه. ومن المؤكد أنهم سادة ريفيون، بأحذية عالية ومهاميز. ساد الجو شيء من التوتر، رغم الجهود التي بذلتها لأتكلم بأسلوبهم. ثم أصبح الوضع سخيفاً، بسبب ملاحظة غبية حول والت وايتمان التي أبداها أحدهم. كنت أشعر بالسمو اليوم، فالنزهة التي فُرضت علي فرضاً جعلتني يقظاً إلى حد ما، إلا أنه مع جرع براندي الدراق والحديث السخيف الذي كان يدور، بدأت أشعر بالبهجة تغمرني ثانية شيئاً فشيئاً. وغمرني مزاج عارم بأن أقارع أولئك الأرستقراطيين الصغار القادمين من الجنوب. لذلك، عندما حاول السيد الصغير المثقف من درهام أن يجادلني ويحاورني عن كاتبي الأمريكي المفضل، انهلت عليه بالمطرقة والسندان. وكعادتي في مثل هذه الحالات أطلقت ملاحظاتي بقوة.

ساد الضجيج المكان. وكان يبدو أنه لم يسبق لهم أن رأوا أحداً

متحمساً جداً لمسألة غير ذات أهمية. ضحكهم الصاخب جعل صدري يعتمل بالغضب. اتهمتهم بأنهم مجموعة من السكارى الأغبياء، وأنهم أبناء عاهرات لا عمل لهم، جاهلون، متعصبون، نتاج قوادين لا يصلحون لشيء وما إلى هنالك. وقف شاب نحيف طويل، أصبح فيما بعد نجماً سينمائياً مشهوراً، وهدد بأن يحطم جمجمتي. وسارع أولريك لإنقاذي بأسلوبه الحريري الناعم، وأترعت الأقداح حتى حوافها وأُعلنت الهدنة. في تلك اللحظة قُرع الجرس ودخلت امرأة شابة جميلة. قُدمت لي على أنها زوجة رجل بدا أن الآخرين جميعهم كانوا يعرفونه. أخذت أولريك جانباً لأعرف حقيقة الأمر، فأسر لي بقوله: «إن زوجها مشلول، وهي تقوم على خدمته ليلاً نهاراً. وهي تأتي إلى هنا بين الحين والآخر لاحتساء قليل من الشراب ـ أصبح الأمر صعباً عليها كما أظن».

انتحيت جانباً ورحت أرمقها بنظراتي من الأعلى إلى الأسفل. كانت تشبه واحدة من تلك الإناث الشبقات اللاتي يتمكنّ من إرضاء حاجاتهن بطريقة ما، وهن يلعبن دور الشهيد. وما كادت تجلس حتى قرعت فتاتان أخريان الجرس، كانت إحداهما ترتدي ثياباً مهلهلة ويبدو من شكلها أنها بغي، والأخرى زوجة أحدهم، ريفية وترتدي ثياباً خالية من الأناقة. كنت أتضور جوعاً. وبوصول النساء فقدت قدرتي على المواجهة. لم أكن أفكر إلا بشيئين فقط: الطعام والجنس. توجهت وأنا شارد الفكر إلى الحمام ونسيت أن أغلق الباب. فقد انسحبت إلى الحمام بسبب انتصاب بطيء أحدثه فيّ البراندي، وبينما كنت واقفاً هناك، أمسك ذكري بيدي وأنا أوجهه نحو الوعاء بشكل قوس منحني، فُتح الباب فجأة. إنها إيرين، زوجة المشلول. أطلقت صيحة مكتومة من الدهشة وراحت تغلق الباب، لكن لسبب ما، ربما لأني بدوت هادئاً وغير مبال تماماً، وقفت عند عتبة الباب. وفيما أخذت أبول، راحت تتحدث إليّ كما لو أن شيئاً غير عادي لم يكن يحدث. «ياله من أداء» قالت، وأنا أنفض عنه القطرات الأخيرة. «هل تفعلي ذلك دائماً؟» وأمسكتها من يدها وسحبتها إلى

الداخل، ثم أقفلت الباب باليد الأخرى. «لا، أرجوك لا تفعل ذلك». راحت تتوسل، وبدت خائفة تماماً. «لحظة واحدة فقط» همست، وذكري يلامس فستانها. ضغطت شفتي على فمها الأحمر. «أرجوك، أرجوك» وهي تستجديني وتحاول الإفلات من عناقي. «إنك تحط من قدري»، وعرفت أنه كان عليّ أن أتركها تذهب. عملت بسرعة وبغضب وقلت: «سأتركك تذهبين». «قبلة واحدة أخرى فقط». وعندها دفعتها إلى الباب ودون أن أرفع فستانها، طعنتها بذكري عدة مرات، ثم قذفت كمية كبيرة من سائلي على مقدمة سروالها الحريري الأسود.

لم يلحظ أحد غيابي. كان الأولاد الجنوبيون متحلقين حول المرأتين الأخريين، وكانوا يبذلون ما بوسعهم للاستحواذ عليهما. وسألني أولريك بمكر إن كنت قد رأيت إيرين.

قلت: «أظن أنها ذهبت إلى الحمام».

قال «كيف كان الأمر؟، هل ما زلت عاشقاً؟» ابتسمت ابتسامة ساخرة.

وتابع قوله: «لماذا لا تجلب صديقتك في إحدى الليالي، أستطيع أن أجد ذريعة دائماً كي تأتي إيرين. ويمكننا أن نتناوب على تعزيتها، ماذا تقول؟».

قلت: «اسمع، أقرضني دولاراً؟ يجب أن آكل، فأنا أتضور جوعاً».

حين تطلب من أولريك نقوداً، تكون له دائماً طريقة مميزة في أن يبدو محتاراً، مشوشاً. وكان يجب عليّ أن أختصر المسافة معه بهذه الطريقة، أو يتملص منها بذلك الأسلوب الناعم الذي لا يقاوم بالرفض. «هيا» قلت، وأمسكته من ذراعه، «ليس هذا وقت التردد والتلعثم». وذهبنا إلى الصالة حيث دس في يدي قطعة ورقية. وفيما كنا نقترب من الباب خرجت إيرين من الحمام. «ماذا، لا تقل إنك

ذاهب؟» سألت، وجاءت إليّ وشبكت ذراعيها في ذراعينا. «نعم، يجب أن يسرع الآن»، قال أولريك، «لكنه وعد بأن يعود قريباً». وطوقناها بذراعينا وغمرناها بالقبل.

«متى سأراك ثانية؟» قالت إيرين. «قد لا أكون هنا عندما تعود. أوّد أن أتحدث معك».

«كلام فقط؟» قال أولريك.

«حسنا، أنت تعرف» قالت، وأنهت كلامها بضحكة فاجرة.

الضحكة أصابتني في كيس الصفن. أمسكتها ثانية ودفعتها إلى الزاوية ووضعته بين ساقيها، وانزلق لساني داخل حنجرتها.

«لماذا تهرب الآن؟» غمغمت. «لماذا لا تبقى؟».

تقدم أولريك ليحصل على نصيبه وقال: «لا تقلقي علي»، والتصق بها كعلقة. «ذلك الأحمق لا يحتاج إلى تعزية. لديه أكثر من اللازم».

وعندما انسللت خارجا التقطت أخر إشارة توسل من إيرين. كان ظهرها محنياً حتى نصفه تقريباً، وفستانها منحسر فوق ركبتيها، ويد أولريك تجوس فوق ساقيها. «يا لها من عاهرة!» غمغمت، وأنا أنزل الدرجات. كنت خائراً من الجوع، وفي أمس الحاجة إلى قطعة من اللحم يغمرها البصل مع علبة بيرة.

تناولت طعامي في الركن الخلفي من أحد المطاعم على الجادة السادسة، ليس بعيداً عن منزل أولريك. تناولت ما أردت وبقي معي عشرة سنتات. شعرت بالسعادة تغمرني، وأصبحت في مزاج يجعلني أقبل أي شيء. لا بد أن مزاجي كان مرتسماً على وجهي لأني، عندما وقفت لبرهة في المدخل لأتأمل المشهد، حيّاني رجل بطريقة ودية كان ينزه كلباً. ظننت أنه أخطأ وحسبني شخصاً آخر، وقد حدث ذلك معي مرات عديدة، لكن لا، كان ودوداً فقط، لعله كان في ألق مزاجه مثلي. تبادلنا بضع كلمات، وبعد لحظات كنت أسير معه والكلب. قال

إنه يقيم في مكان قريب من هذا المكان، وإذا كنت أرغب في مشاركته في احتساء قدح يمكنني أن أصطحبه إلى شقته. لقد أقنعتني الكلمات القليلة التي تبادلناها بأنه رجل محترم مثقف وحساس، وينتمي إلى المدرسة القديمة. وقال إنه عاد لتوه من أوروبا، حيث عاش سنوات عديدة. وعندما وصلنا إلى شقته، كان يروي لي قصة حب له مع دوقة في فلورنسة. وبدا أنه اعتبر مسألة معرفتي بأوروبا أمراً طبيعياً. لقد عاملني كما لو كنت فناناً.

كانت الشقة فاخرة نوعاً ما. وعلى الفور أخرج علبة جميلة من سيجار الهافانا الممتاز وسألني إن كنت أريد قدحاً. تناولت كأساً من الويسكي وجلست على كرسي ذي مسند فاخر. وسرعان ما انتابني شعور بأن هذا الرجل سيدس في يدي نقوداً بعد فترة وجيزة. وراح يستمع إليّ كما لو كان يصدق كل كلمة نطقت بها. فجأة تجرأ وسألني إن لم أكن كاتباً؟ لماذا؟ حسناً، من الطريقة التي كنت أنظر فيها حولي، الطريقة التي كنت أقف فيها، من التعبير حول الفم ـ أشياء صغيرة، لا يمكن تعريفها، انطباع عام من الحساسية والفضول.

سألته: «وأنت؟ ماذا تفعل؟».

أبدى إشارة استهجان، كما لو أنه أراد أن يقول، لم أعد شيئاً» «كنت رساماً في وقت ما، بل رساماً سيئاً أيضاً. لا أعمل أي شيء الآن. أحاول أن أمتع نفسي».

أطلق ذلك لساني. وراحت الكلمات تتدفق من فمي كطلقات حارة. أخبرته عن وضعي، كم كانت الأمور مشوشة، كيف تجري الأمور، وعن آمالي العريضة، عن الحياة القابعة أمامي لو تمكنت فقط من أن أتحكم فيها، أعتصرها، أنظمها، أقهرها. كذبت قليلاً. كان من المحال أن أعترف لهذا الغريب الذي هبط من السماء لإنقاذي، بأني كنت فاشلاً تماماً.

«ماذا كتبت حتى الآن؟».

بعض الكتب والقصائد، ومجموعة من القصص القصيرة. هممت بسرعة كي لا أفسح له المجال لطرح أسئلة بديهية عن الحقيقة. الكتاب الجديد الذي بدأته ـ كان ذلك شيئاً رائعاً ـ فيه أربعون شخصية. لقد رسمت مخططاً عن الكتاب على الجدار، أشبه بخريطة ـ يجب أن يراه في وقت ما. هل تذكر كيريلوف، إحدى الشخصيات في أحد أعمال دوستويفسكي، الذي أطلق النار على نفسه، أو شنق نفسه لأنه كان في غاية السعادة؟ كان ذلك أنا. كنت سأطلق النار على الجميع لفرط سعادتي... فاليوم مثلاً، لو كان قد رآني قبل بضع ساعات، كنت فاقد العقل تماماً. أتدحرج فوق العشب بجانب الساقية، أمضغ العشب، أخدش نفسي ككلب، أصرخ من عمق رئتي، حتى أنني جثوت على ركبتي وصليت، لا لأطلب شيئاً بل لأقدم الشكر، الشكر لأني ما أزال أعيش، لأني قادر على أن أتنفس الهواء... أليس من الرائع أن يتنفس المرء؟

واصلت رواية قصص قصيرة عن حياتي في شركة البرق: المحتالون الذين كان علي أن أتعامل معهم، الكذابون حتى المرض، المنحرفون، المتسكعون، العاجزون، المقيمون في بيوت الأجرة، العاملون في الجمعيات الخيرية، المنافقون، الزعران، الفقراء المريضون، الأولاد الهاربون الذين يختفون من على وجه البسيطة، العاهرات اللواتي يحاولن شق طريقهن عنوة للعمل في مكاتب البنايات الشاهقة، المجانين، المصابون بالصرع، اليتامى، الفتيان في الإصلاحية، السجناء السابقون، المغتلمات.

فتح فمه كمفصلة باب، وكادت عيناه تخرجان من رأسه، فقد بحث عن العالم كله كضفدع ضُرب بصخرة. هل تريد كأساً آخر؟

بالتأكيد! ماذا كنت أقول؟ أوه نعم... في منتصف الكتاب سأنفجر. لم لا؟ هناك الكثير من الكتّاب الذين يمكنهم المضي حتى النهاية وهم ممسكون بزمام الأمور، إن ما نحتاج إليه هو إنسان، مثلي مثلاً، لا يبالي بشيء لما يحدث. دوستويفسكي لم يذهب بعيداً.

أنا ثرثار مستقيم. يجب على المرء أن يصبح ديوثاً! الناس سئموا من الحبكة والشخصية. الحبكة والشخصية لا يشكلان حياة. الحياة ليست في الطابق العلوي: الحياة هنا الآن، في أي وقت تقول الكلمة، في أي وقت تترك الأمور تسير على هواها. قوة الحياة أربعمائة وأربعون حصاناً بمحرك ذي أسطوانتين...».

هنا قاطعني وقال: «جيد، يمكنني القول أن الأمر يبدو كذلك... أتمنى أن أقرأ واحداً من كتبك».

قلت له، مأخوذاً بالاحتراق الداخلي: «سوف يكون لك ذلك، سأرسل لك كتاباً بعد يوم أو يومين».

قُرِع الباب. عندما نهض ليفتحه قال إنه ينتظر شخصاً، وتمنى لي ألا أنزعج، وقال إنه ينتظر صديقة فاتنة.

وقفت امرأة رائعة الجمال عند المدخل. استويت واقفاً لأحييها. بدا أنها إيطالية. لعلها الدوقة التي تكلم عنها.

قال: «سيلفيا، من سوء حظك أنك لم تأتي منذ قليل. لقد كنت أستمع إلى أروع القصص. هذا الشاب كاتب. أريدك أن تتعرفي عليه».

اقتربت مني ومدت يديها لأمسكهما. «أنا واثقة من أنك كاتب ممتاز»، قالت، ثم أضافت «لقد عانيت، يمكنني أن أرى ذلك في عينيك».

«إنه يعيش حياة رائعة، ياسيلفيا. أشعر وكأني لم أبدأ حياتي بعد. وماذا تظنين أنه يعمل لكسب عيشه؟».

التفتت إليّ وكأنها تريد أن تقول إنها تفضل أن تسمعها من شفتيّ. كنت مضطرباً. لم أكن مستعداً للقاء مثل هذا المخلوق الفاتن، كانت مفعمة بالثقة، متزنة للغاية، وطبيعية تماماً. أردت أن أنهض وأضع يدي على وركها، أمسكها هكذا وأقول لها شيئاً بسيطاً جداً، صادقاً جداً، من شخص إلى آخر. كانت عيناها مخمليتين ونديتين، سوداوين، ومستديرتين تتألقان بالعطف والدفء. هل يمكن أن تكون

عاشقة لهذا الرجل الأكبر منها سناً؟ من أي مدينة جاءت ومن أي عالم؟ لكي أقول لها حتى كلمتين أحسست أنه يجب عليّ أن أكون حذراً. فأي خطأ سيكون قاتلاً.

بدا أنها أدركت الورطة التي وقعت فيها، فسألت: «ألن يقدم لي أحد كأساً؟» ونظرت إليه أولاً ثم نظرت إليّ وأضافت: «إنك تشرب بورت كما أظن».

«لكنك لا تشرب شيئاً!» قال مضيفي وقد نهض لمساعدتي. كنا ثلاثتنا نقف بجانب بعضنا، سيلفيا ترفع الكأس الفارغ. قال: «إني مسرور جداً لأن الأشياء سارت بهذا الشكل، لم يكن بإمكاني أن أجمع شخصين متناقضين في كل شيء أكثر منكما. أنا متأكد من أن أحدكما سيفهم الآخر».

حين رفعت الكأس إلى شفتيها أخذ رأسي يدور. وكنت أعرف أن هذا مجرد تمهيد لمغامرة غريبة. وانتابني حدس قوي بأنه سيجد في الحال عذراً ليتركنا وحدنا بعض الوقت، وأنه بدون أن تنبس بكلمة سترتمي بين ذراعي، وشعرت أيضاً أني لن أرى أياً منهما بعد ذلك.

وفي واقع الأمر، حدث تماماً كما تصورت. ففي أقل من خمس دقائق من وصولها، أعلن مضيفي أن لديه مهمة بالغة الأهمية وأنه يتعين عليه أن يذهب من أجلها، واستأذن للذهاب لفترة قصيرة. وما أن أغلق الباب حتى جاءت إليّ وجلست في حضني، وقالت كما حدست ـ «لن يعود الليلة ثانية. يمكننا الآن أن نتحدث». أثارت هذه الكلمات فزعي أكثر مما أذهلتني. وجعلت الأفكار من كل نوع تبرق في رأسي. بل فوجئت عندما أضافت بعد برهة ـ «وماذا عني، هل أنا مجرد امرأة جميلة، ربما خليلته؟ ماذا تظن نمط حياتي؟».

فأجبت تلقائيا وبصدق: «أظن أنك امرأة في غاية الخطورة، لن أفاجأ إن كنت جاسوسة شهيرة».

قالت: «إنك تمتلك حدساً قوياً، لا، أنا لست جاسوسة، لكني...».

«حسناً، لو كنتِ كذلك فلن تخبريني، أعرف ذلك. في الحقيقة لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك. هل تعرفين ماذا أتساءل؟ أتساءل ماذا تريدين مني. أشعر وكأني وقعت في فخ».

«أنت قاسٍ. الآن بدأت تتخيل أشياء. فإذا أردنا شيئاً منك علينا أن نتعرف عليك بشكل أفضل، أليس كذلك؟» وسادت لحظة صمت ثم قالت فجأة: «هل أنت متأكد من أنك لا تريد أن تكون إلا كاتباً؟»

أجبت بسرعة: «ماذا تقصدين؟».

«لا أقصد شيئاً. أعرف أنك كاتب... لكن يمكن أن تكون شيئاً آخر أيضاً. إنك من النوع الذي يمكن أن يفعل أي شيء يختاره، أليس كذلك؟».

أجبت: «أخشى أن يكون الأمر عكس ذلك، حتى الآن فقد انتهى كل شيء فعلته نهاية مأسوية. فأنا لست متأكداً حتى من أنني كاتب، في هذه اللحظة».

نهضت من حضني وأشعلت سيجارة لنفسها. «لا يمكن أن تكون فاشلاً»، قالت بعد أن ترددت للحظة بدا أنها تستجمع نفسها لتقول شيئاً مهماً. قالت ببطء وبتعمد «مشكلتك هي أنك لا تقوم بعمل جدير بإمكانياتك. إنك تحتاج إلى مشاكل أكبر، صعوبات أكبر. إنك لا تعمل جيداً إلا عندما تكون تحت تأثير ضغط. لا أعرف ماذا تعمل، إلا أني متأكدة من أن حياتك الحالية لا تليق بك. أنت خلقت لتقود حياة خطرة، يمكنك أن تتنكب أخطاراً أعظم من الآخرين لأن... حسناً، ربما تعرف أنت نفسك ذلك... لأنك محمي».

دمدمت على نحو مبهم: «محمي؟ لم أفهم قصدك».

أجابت بهدوء: «بل فهمت، لقد أمضيت حياتك كلها وأنت محمي. فكّر للحظة فقط... ألم تقترب من حافة الموت مرات عديدة... ألم تكن تجد باستمرار أحداً يساعدك، عادة شخصاً غريباً، في اللحظة التي تظن أنك فقدت كل شيء؟ ألم ترتكب عدة جرائم حتى الآن، جرائم لم

يشتبه فيك أحد؟ ألست الآن تعيش وسط عاطفة ملتهبة، قصة حب، التي لولا أنك مولود تحت نجمة الحظ، لقادتك إلى الخراب؟ أعرف أنك عاشق متيم. أعرف أنك مستعد لأن تفعل أي شيء لكي تروي هذه العاطفة... أتنظر إليّ بغرابة... إنك تتساءل كيف عرفت هذا. أنا لا أملك مواهب خاصة ـ إلا القدرة على قراءة البشر بإلقاء نظرة واحدة عليهم. اسمع، قبل قليل كنت متلهفاً لأن آتي إليك. كنت تعرف أنني سأرتمي بين ذراعيك حالما غادر البيت. لقد فعلت ذلك، لكنك كنت مشلولاً ـ هل أقول إنك خفت مني قليلاً؟ لماذا؟ ماذا بإمكاني أن أفعل لك؟ ليس لديك مال، أو نفوذ أو قوة، أو تأثير. ماذا كان يمكن أن تتوقع مني أن أطلب منك؟» توقفت قليلاً ثم أضافت: «هل أقول الحقيقة؟».

هززت رأسي بعجز.

«كنت تخشى أني إذا طلبت منك شيئاً ألا تستطيع رفضه. كنت مرتبكاً إذ لأنك تحب امرأة، فقد شعرت أنك ستكون ضحية امرأة أخرى. أنت لا تحتاج إلى امرأة ـ إنها مجرد أداة لتحرر نفسك. تتمنى حياة مليئة بالمغامرات، تريد أن تحطم أغلالك. ومهما كانت المرأة التي تحب فأنا أرثي لحالها. فهي ستبدو الأقوى بالنسبة لك، وكل هذا لأنك غير واثق من نفسك. إنك الأقوى. وستكون دائماً الأقوى ـ لأنك لا تفكر إلا بنفسك، بقدرك. لو كنت أقوى قليلاً لخشيت منك. قد تصبح متعصباً خطيراً، لكن ذلك ليس قدرك. إنك عاقل جداً، معافى جداً. تحب الحياة أكثر من نفسك. أنت مشوش، لأنه مهما كان الشخص، وأياً كان الذي تمنحه نفسك لا يكفيك ـ أليس كذلك؟ لا يمكن لأحد أن يتحملك لفترة طويلة: أنت تنظر دائماً إلى أبعد من الشيء الذي تحبه، تبحث عن شيء لن تجده أبداً. يجب أن تنظر داخل نفسك إذا كنت تأمل في أن تحرر نفسك من العذاب. أنا واثقة من أنك تستطيع أن تقيم صداقات بسهولة، ومع ذلك لا يوجد أحد يمكن أن تدعوه صديقك حقاً. إنك وحيد. وسوف تبقى وحيداً دائماً. أنت تطلب الكثير، أكثر مما يمكن أن تقدمه الحياة...».

قاطعتها قائلاً: «انتظري لحظة، أرجوك، لماذا اخترت أن تقولي لي ذلك؟».

توقفت لحظة، كما لو أنها ترددت في الإجابة بشكل مباشر، ثم قالت: «أظن أني أجيب فقط عن سؤال في عقلي»، ومضت قائلة: «يجب عليّ الليلة أن أتخذ قرارا خطيرا، سأغادر صباحاً في رحلة طويلة. عندما رأيتك قلت في نفسي ـ قد يكون هذا الرجل هو الذي سيساعدني. لكني كنت مخطئة. لا يوجد شيء يمكنني أن أطلبه منك... يمكنك أن تطوقني بذراعيك، إن أحببت... إن لم تكن خائفاً مني».

اقتربت منها، ضممتها بقوة إليّ ورحت أقبلّها. أبعدت شفتيّ عن فمها ورحت أنظر في عينيها، وذراعاي ما زالتا تطوقان خصرها.

قالت وهي تنفصل عني بلطف: «ماذا ترى؟».

ابتعدت عنها ورحت أنظر إليها بثبات لبضع لحظات ثم أجبت: «ماذا أرى؟ لاشيء. لاشيء البتة. إن التطلع في عينيك يشبه النظر إلى مرآة داكنة».

«لقد انزعجت. أليس كذلك؟».

«إن ما قلتِه عني ـ أثار خوفي... وهكذا فإني لن أكون عوناً لك، أليس كذلك؟».

أجابت: «لقد ساعدتني، بطريقة ما، إنك تساعد دائماً، بشكل غير مباشر. ليس بوسعك إلا أن تشع طاقتك، ولهذا فإن الناس يعتمدون عليك، لكنك لا تعرف لماذا. بل إنك تكرههم من أجل ذلك، رغم أنك تتصرف كما لو كنت لطيفاً ومتعاطفاً حقاً. عندما جئت إلى هنا الليلة كنت مهزوزة قليلاً من الداخل، لقد فقدت تلك الثقة التي أملكها عادة. نظرت إليك ورأيت... ماذا تظن؟».

«رجل مزهو بنفسه على ما أظن».

«رأيت حيواناً! أحسست بأنك ستلتهمني، لو تركت نفسي على سجيتها. وللحظة أو اثنتين شعرت بأني أردت أن أترك نفسي على سجيتها. لقد أردت أن تضمني، أن تلقي بي على السجادة. لو ضاجعتني بهذه الطريقة لما كنت راضياً، أليس كذلك؟ لقد رأيت فيّ شيئاً لم يسبق لك أن رأيته في امرأة أخرى. رأيت القناع الذي هو قناعك». توقفت ثانية ثم أضافت، «إنك لا تجرؤ على كشف ذاتك الحقيقية، ولا أنا أيضاً. نحن نتوافق في أمور كثيرة. فأنا أعيش حياة محفوفة بالمخاطر، ليس لأني قوية، بل لأني أعرف كيف أستغل قوة الآخرين. أخاف ألا أفعل الأشياء التي أقوم بها لأني إذا توقفت فسأنهار. إنك لا تقرأ شيئاً في عيني لأنه لا يوجد فيهما شيء يقرأ. ليس عندي شيء أعطيك إياه، كما قلت لك منذ قليل. أنت تبحث فقط عن فريستك، ضحاياك الذين تتغذى عليهم. نعم، أن تكون كاتباً ربما يكون أفضل شيء بالنسبة لك. لو قيض لك أن تتصرف وفق أفكارك فمن الممكن أن تصبح مجرماً. عندك دائماً خيار السير في طريقين. ليس الإحساس الأخلاقي الذي يردعك عن الاتجاه في الطريق الخاطئ - بل غريزتك فقط هي التي تخدمك على أفضل وجه على المدى البعيد. أنت لا تعرف لماذا تتخلى عن مشاريعك الرائعة، تظن إنه الضعف، الخوف، الشك، لكنه ليس كذلك. لديك غرائز حيوانية، إنك تذلل كل شيء من أجل رغبتك في العيش. فأنت لن تتردد في أن تنالني ضد رغبتي، حتى لو عرفت أنك واقع في شرك. إنك لا تخاف من الوقوع في فخ البشر، ولكن الفخ الآخر، الفخ الذي سيضع قدميك في الاتجاه الخطأ، الذي تحذره وأنت محق في ذلك». توقفت عن الكلام ثانية، ثم تابعت «نعم، لقد أسديت لي خدمة عظيمة. لو لم ألتق بك الليلة لاستسلمت لشكوكي».

قلت: «إذن فإنك على وشك الإقدام على عمل خطير».

هزت كتفيها وقالت: «من يعرف ما هو ذاك الشيء الخطير؟ أن تشك، هذا شيء خطير. ستتعرض لأمور أخطر بكثير مما سأتعرض

لها أنا. وستلحق الأذى بالآخرين وأنت تدافع عن نفسك من مخاوفك وشكوكك. بل إنك لست متأكداً في هذه اللحظة من أنك ستعود إلى المرأة التي تحب. لقد سممت عقلك. ستتركها إذا تأكدت أنه يمكنك أن تفعل ما تشاء دون مساعدتها. إلا أنك ستحتاجها وستدعو ذلك حباً. ستتذرع دائماً بهذا العذر وأنت تمتص حياة تلك المرأة».

قاطعتها بحماس: «هنا أنت تخطئين، إنه أنا الذي يُمتص حتى أغدو كعود يابس، وليس المرأة».

«هذا هو أسلوبك في خداع نفسك. إذ لا يمكن للمرأة أن تعطيك ما تريد لتجعل من نفسك شهيداً. المرأة تريد الحب وأنت عاجز عن منحها الحب. لو كنت رجلاً سافلاً لأصبحت وحشاً، لكنك تحول إحباطاتك إلى أشياء مفيدة. نعم، بالتأكيد الاستمرار في الكتابة. إذ يمكن للفن أن يحول القبيح إلى جميل. إن تأليف كتاب سيء أفضل من العيش حياة بشعة. الفن مضجر ومؤلم ومهدئ. إذا لم تمت في أثناء المحاولة، فقد يحولك عملك إلى إنسان اجتماعي يحب الخير. أنت أكبر من أن ترضى بمجرد الشهرة، وأنا أستطيع أن أرى ذلك. ربما إذا عشت طويلا، فإنك ستكتشف أن هناك شيئاً أبعد مما تدعوه الحياة الآن. فمن الممكن أن تعيش عمراً مديداً لتعيش من أجل الآخرين، وهذا يتوقف على مدى استخدامك ذكائك» (تطلع أحدنا إلى الآخر بحماس) «لأنك لست على قدر من الذكاء كما تظن أنت. تلك هي نقطة ضعفك، كبرياؤك الثقافي المغرور. وإذا اعتمدت كلية على ذلك فإنك ستهزم. أنت تتمتع بكل الفضائل الأنثوية، إلا أنك تخجل من الاعتراف بذلك. وتظن أنك رجل شجاع لأنك قوي جنسياً، إلا أنك امرأة أكثر من كونك رجلاً. فحولتك الجنسية هي المؤشر الوحيد على قوة أعظم لم تستخدمها بعد. لا تحاول أن تبرهن على أنك رجل باستغلال قواك في إغواء النساء. النساء لا يُخدعن بهذا النوع من القوة والسحر. فحتى عندما تخضع النساء فكرياً، يكنّ دائماً سادة الموقف. من الممكن استعباد المرأة جنسياً، ومع ذلك فهي تهيمن

على الرجل. وستمر في وقت عصيب أكثر من الرجال الآخرين، لأن الهيمنة على الآخرين لا تندرج في اهتماماتك. ستحاول دائماً أن تسيطر على نفسك، ولن تكون المرأة التي تحبها سوى أداة في يدك». هنا توقفت، وأحسست أنها كانت تتوقع مني أن أغادر.

قالت وأنا أودعها: «أه، بالمناسبة، لقد طلب مني السيد أن أسلمك هذا» وأعطتني مغلفاً مختوماً. «لعله شرح لك لماذا لم يقدم لك عذراً أفضل ليغادر على هذا النحو الغامض». أخذت المغلف وصافحتها. لو قالت فجأة: «اركض! اركض وانج بحياتك!» لفعلت ذلك بدون تردد. انتابتني الحيرة تماماً، لا أعرف لماذا أتيت ولماذا أغادر. لقد دخلت في هذه التجربة وأنا في قمة نشوة غريبة بدا منشؤها الآن بعيداً ولم تعد هامة بالنسبة لي. ومن الظهيرة وحتى منتصف الليل دخلت في دوامة كاملة.

فتحت المغلف في الشارع. كان يحتوي على ورقة من فئة العشرين دولاراً أشفعت بورقة كتب عليها «أتمنى لك حظاً سعيداً!» لم أفاجأ تماماً. فقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل أول ما وقعت عيني عليه.

بعد بضعة أيام كتبت قصة أسميتها «تداعيات حرة» وأحضرتها إلى أولريك وقرأتها له بصوت عال. كتبتها بدون حبكة ولم يكن لها بداية أو نهاية. وكانت في رأسي فكرة ثابتة خلال القصة كلها، وهي الفوانيس اليابانية المتأرجحة. وأهم ما فيها أني جعلت البطلة خانعة. هذه الإشارة، التي رمزت فيها إلى مارا، كانت مفاجئة بالنسبة لي أكثر مما يمكن أن تكون بالنسبة إلى القارئ. ورأى أولريك أن الكتابة كانت رائعة جداً، لكنه أقرّ بأنه لم يستطع أن يميز فيها رأساً من ذنب. وأرادني أن أريها إلى إيرين، التي كان يتوقع مجيئها بعد قليل. وقال إن في هذه المرأة عرقاً فاسداً، كانت قد عادت معه إلى المرسم في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد أن ذهب الآخرون، وامتصت دمه حتى كاد يموت. وقال إن ثلاث مرات لابد أن

تكفي لإشباع أية امرأة، إلا أن هذه المرأة لا تشبع إن واصلتها طوال الليل. وقال: «هذه العاهرة لا تتوقف عن الارتعاش، ولا عجب أن زوجها أصيب بالشلل ـ فلا بد أن تكون قد لوت قضيبه».

رويت له ما حدث معي في تلك الليلة عندما غادرت الحفلة. هز رأسه وقال: «والله، لا تحدث لي مثل هذه الأشياء. لو روى لي شخص آخر قصة كهذه فلن أصدقه. يبدو أن حياتك كلها تتألف من مثل هذه الأحداث. هل بوسعك أن تخبرني لماذا يحدث لك ذلك؟ لا تسخر مني، فأنا أعرف أنه من الغباء أن أسألك سؤالاً كهذا. أعرف أيضاً أني طير حبيس في قفصه. يبدو أنك منفتح تماماً ـ أظن أن السر يكمن في ذلك. أنت تتلهف لمعرفة الناس أكثر مني. فأنا ملول ـ إنه عيب فيّ، وأنا أعترف بذلك. في مرات كثيرة تخبرني عن الوقت الرائع الذي أمضيته ـ بعدما غادرت. إلا أني متأكد تماماً من أنه لن يحدث معي أبداً ما يحدث لك حتى لو سهرت طوال الليل... شيء آخر عنك يقلقني هو أنك تجد دائماً شخصية مثيرة للاهتمام يتجاهلها معظمنا. لديك أسلوب خاص في سبرها، في جعلها تكشف عن نفسها. أما أنا فليس لدي الصبر على ذلك... ولكن أخبرني بصدق الآن، ألا تشعر بشيء من الأسف لأنك لم تلج قضيبك في تلك التي اسمها...؟».

«هل تقصد سيلفيا؟».

«نعم. تقول إنها كانت لولو. ألا تظن أنه كان بإمكانك أن تمضي معها خمس دقائق أخرى وتنال ما كان آتياً إليك من نصيب؟»

«نعم، أظن ذلك...».

«أنت شخص مضحك. أظن أنك تريد أن تقول إنك حصلت على شيء أهم مما لو بقيت هناك، أليس كذلك؟».

«لا أعرف. وربما كان ذلك، ربما لم يكن. ولأقول لك الحقيقة، نسيت أن أضاجعها عندما كنت على وشك أن أغادر. لا يمكنك أن

تضاجع كل امرأة تصادفها، أليس كذلك؟ كيف كان بوسعي أن آمل أن أخلص منها لو فعلتها معها؟ ربما نقلت لي مرضاً زهرياً. لعلي كنت سأخيب أملها. اسمع، فأنا لا يقلقني كثيراً أن أفقد فتاة جميلة من حين لآخر. يبدو أنك تحفظ سجلاً باللاتي قمت بمضاجعتهن. لذلك لا تكن قليل الأدب معي، أيها اللوطي. يجب أن أفعل معك كما يفعل طبيب الأسنان لأقتلع منك ضرساً نخراً، أذهب إلى ناصية الشارع، ويترك لي غريب، لم أكن قد تعرفت عليه أكثر من دقائق معدودة، ورقة من فئة العشرين دولاراً على رف الموقد. كيف تفسر ذلك؟».

«أنت لا تفسرها» قال أولريك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ثم تابع قائلاً: «لهذا السبب لا تحدث معي أشياء من هذا القبيل على ما أظن... لكن ما أريد أن أقوله هو هذا»، ونهض عن مقعده متجهماً.

«حينما تجد نفسك في ورطة حقيقية يمكنك أن تعتمد عليّ دائماً. كما ترى، فأنا لا أقلق كثيراً عليك لأني أعرفك، وأعرف أنك ستجد دائماً مخرجاً، حتى لو خذلتك».

«أفهم من قولك أنك تثق بقدراتي كثيراً».

«لا أقصد أن أقسو عليك عندما أقول شيئاً كهذا. لو كنت مكانك لانتابتني الكآبة لأني لا أستطيع أن أطلب مساعدة من صديق ـ فأنا أخجل من نفسي. لكنك تهرع إليّ مقطباً وتقول ـ يجب أن يكون عندي هذا... يجب أن يكون عندي ذلك. إنك تتصرف وكأنك لا تحتاج إلى مساعدة بشكل مستميت».

أجبته: «اللعنة، هل تريدني أن أركع وأتوسل من أجل ذلك؟».

«لا، ليس ذلك، بالطبع. أنا أتحدث كغبي ملعون ثانية. إلا أنك تجعل الناس يحسدونك، حتى عندما تقول إنك يائس. تجعل الناس يرفضونك أحياناً لأنك تعتبر أنه من الطبيعي أنهم يجب أن يساعدوك، أليس كذلك؟».

«لا، يا أولريك، ليس الأمر كذلك. لكن حسناً. سأصطحبك الليلة إلى العشاء».

«وغداً ستطلب مني أجرة تاكسي».

«حسناً، وهل هناك أي ضرر في ذلك؟».

ضحك وقال: «لا، إنها مجرد عجرفة». وأضاف «منذ أن عرفتك، وأنا أعرفك منذ فترة طويلة، وأنت تطلب مني ـ خمسة سنتات، عشرة سنتات، ربع دولار، ورقة من فئة الدولار... ومرة حاولت أن تطلب مني خمسين دولاراً، هل تذكر؟ وأنا أقول لك دائماً لا، أليس كذلك؟ ولكن الأمر سيان بالنسبة لك على ما يبدو. فنحن مانزال صديقين جيدين. لكني أتساءل أحياناً ما رأيك الحقيقي فيّ بحق الله. وقد لا يرضيني ذلك».

«يمكنني أن أجيبك على ذلك الآن، يا أولريك»، قلت بحبور «أنت...».

«لا، لا تقل لي الآن. أجّلْها! لا أريد أن أسمع الحقيقة الآن».

ذهبنا لتناول العشاء في الحي الصيني، وفي الطريق دس أولريك في يدي ورقة من فئة العشر دولارات، فقط ليبرهن لي أن قلبه تجاهي لم يتغير. جلسنا في الحديقة وتحدثنا مطولاً عن المستقبل. وأخيراً قال لي ما قاله العديد من أصدقائي عني ـ بأنه لا يأمل كثيراً من أجلي وأنه واثق من أني سأنجز شيئاً عظيماً. وأضاف بصدق أنه يظن أني لم أبدأ في التعبير عن نفسي بعد ككاتب. وقال: «إنك لا تكتب كما تتحدث. يبدو أنك تخشى أن تكشف نفسك. وإذا حدث وانفتحت وقلت الحقيقة فستكون مثل شلالات نياغارا. دعني أخبرك بصدق ـ إني لا أعرف كاتباً في أمريكا يتمتع بموهبة أكثر منك. أنا أؤمن بقدراتك دائماً ـ وسأظل أؤمن بك حتى لو فشلت. إنك لست فاشلاً في الحياة، هذا أمر أنا واثق منه، رغم

أنها الحياة الأكثر جنونا التي شاهدتها في حياتي. فلن يكون عندي وقت لأن أرسم خطأً لو فعلت كل شيء تفعله في يوم واحد».

تركته وقد انتابني شعور كما ينتابني غالباً، بأنه لعلي لم أقدّر صداقته حق تقدير. فأنا لا أعرف ما أتوقعه من أصدقائي. الحقيقة أني لست راضياً عن نفسي، عن جهودي المحبطة، بأن لاشيء أو لا أحد يبدو أنه يناسبني. لو كنت قادراً على الاختيار فأنا متأكد من أني سأختار الفرد الأقل استجابة، فقط لأسعد بشطبه من قائمتي. وأنا أعرف تماماً أنه إذا ضحيت بصديق قديم، فسيكون عندي ثلاثة أصدقاء جدد في الغد. وكنت أتأثر كثيراً عندما أصادف أحد هؤلاء الأصدقاء الذين كنت قد نبذتهم، ويتبين لي فيما بعد أنه لا يكّن لي أية مشاعر بالكراهية، وأنه متلهف وراغب في استئناف الصداقة القديمة، ويتم ذلك عادة عن طريق وجبة عامرة وعرض بتسليفي بضعة دولارات. وكنت أضمر دائماً النية بأن أفاجئ أصدقائي في أحد الأيام وأسدد لهم كل ديونهم. وغالباً ما كنت أمضي ليالي طويلة وأنا أحلم بذلك. وهو الآن مبلغ ضخم، مبلغ لا يمكن تسديده إلا بظهور ثروة غير متوقعة بضربة حظ. لعل قريباً لي، لم أسمع به من قبل، يموت وأرث منه قدراً من المال، خمسة أو عشرة آلاف دولار، عندها سأتوجه فوراً إلى أقرب مكتب للبرق وأبعث بسلسلة من الحوالات البريدية إلى كل من هبّ ودبّ. ويجب أن يتم ذلك برقياً لأنه إذا بقيت النقود في جيبي بضع ساعات فستتبخر بشكل أحمق غير متوقع.

ذهبت لأنام في تلك الليلة وأنا أحلم بميراث. وفي الصباح كان أول شيء سمعت به العلاوة التي أعلن عنها - وكان بإمكاننا أن نستلم المبلغ قبل نهاية الدوام. كان الجميع في حالة من الحبور والبهجة. وكان السؤال الملح - كم هو المبلغ؟ وفي حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت العلاوة. واستلمت حوالى ثلاثمائة وخمسين دولاراً. وكان أول رجل أوليه عنايتي هو الحارس

مكغوفيرن. (خمسون دولاراً على الحساب) تفحصت القائمة. كان هناك ثمانية أو عشرة أشخاص يمكنني أن أسدد لهم على الفور - الأخوة في عالم شركة كوسموديمونيك للبرق الذين كانوا في غاية اللطف معي. وكان على الباقي أن ينتظروا إلى يوم آخر بمن فيهم الزوجة التي قررت أن أكذب عليها بشأن العلاوة.

رحت أسير باتجاه شمال المدينة، وسرعان ما وصلت إلى جادة برودواي. وفي الشارع الرابع والثلاثين غذذت خطاي. فقد قررت أن أذهب إلى المرقص. في الشارع الثاني والأربعين تعين عليّ أن أشق طريقي عبر الزحام. الحشد أثارني: كان هناك دائماً خطر أن أصادف أحداً ويجعلني أحيد عن هدفي. وبعد قليل كنت أقف أمام المرقص، ألهث قليلاً وتساءلت إن كنت قد فعلت الصواب.

حين دخلت المرقص كانت مارا ترقص مع رجل عجوز متصابٍ. رحت أراقبها لدقائق قبل أن تراني. سحبت رفيقها من يده وجاءتني واحمرار متألق يكسو وجهها وقالت: «أريد أن تتعرف على صديق قديم لي»، وقدمتني إلى السيد كاروثرس ذي الشعر الأبيض. تبادلنا التحية بود ووقفنا نتحادث لعدة دقائق. ثم جاءت فلوري وابتعد كاروثرس.

قلت: «يبدو أنه شخص ظريف، أحد المعجبين بك، على ما أظن؟».

«إنه رائع معي - فقد اعتنى بي عندما كنت مريضة. يجب ألا تثيرك غيرته. إنه يحب التظاهر بأنه يحبني».

قلت: «يتظاهر؟».

قالت: «تعال نرقص، سأحدثك عنه فيما بعد».

وفيما كنا نرقص أخذت الوردة التي كانت تضعها على ثوبها وعلقتها في عروتي وقالت وهي ترتشف جرعة من النبيذ: «يجب أن نستمتع بهذه الليلة». قلت لها وأنا أقودها إلى الشرفة لأكلمها بضع

كلمات على انفراد «هل تظنين أنه بوسعك أن تغيبي ليلة غد لترافقيني إلى المسرح؟».

ضغطت على ذراعي موافقة. قلت لها: «تبدين أجمل من أي ليلة أخرى»، وأنا أشد على يدها.

دمدمت قائلة: «كن حريصاً في أي شيء تفعله»، وهي تنظر إليّ خلسة من فوق كتفها. «يجب ألا نبقى هنا طويلاً. لا أستطيع أن أوضح لك الآن، ولكنك كما ترى، فإن كاروثرس غيور جداً ولا يمكنني أن أثير غضبه. ها هو يأتي الآن... سأتركك».

تقصدت ألا ألقي نظرة حول المكان، مع أني كنت أتوق لأدرس كاروثرس عن كثب. وقفت عند درابزين الشرفة الحديدي المهلهل، ورحت أمعن النظر في بحر الوجوه في الأسفل. حتى من هذا الارتفاع المنخفض، اتخذ الحشد ذلك المنظر اللاإنساني. لو لم يكن هناك شيء يسمى لغة، لما كان هناك شيء يفرق كتل اللحم هذه عن الأشكال الأخرى من الحياة الحيوانية. حتى ذلك، حتى الموهبة القدسية للخطاب، لا يمكن التمييز بينها بسهولة. عمّ يتحدثون؟ هل يمكن أن يدعوها المرء لغة؟ للطيور والكلاب لغة أيضاً، ربما تكون كافية بالقدر نفسه للغوغاء. إن اللغة تبدأ فقط عند النقطة التي يتعرض فيها التواصل للخطر. كل ما يقوله هؤلاء الناس إلى بعضهم الآخر، كل شيء يقرؤونه، كل شيء ينظمون حياتهم به لا معنى له. وبين هذه الساعة وألف ساعة أخرى وألف ساعة ماضية لا يوجد فرق جوهري. في مد الحياة الكوكبية وجزرها، يجري هذا الجدول في طريق جميع الينابيع الأخرى الماضية والمستقبلية. منذ دقائق استخدمت كلمة «غيور». كلمة غريبة، وخاصة وأنت تنظر إلى الغوغاء، وأنت تشاهد التزاوج العشوائي، وأنت تعرف أن الذين يشبكون أيديهم الآن سينفصلون بعد قليل في أغلب الظن. لم أكن أبالي كم هو عدد الرجال الذين يحبونها وأنا داخل الدائرة. شعرت بالأسف على كاروثرس، لأنه ضحية الغيرة. لم يسبق لي أن كنت

غيوراً في حياتي. ربما لم أكن أبالي كثيراً. تخليت عن إرادتي الحرة مع المرأة الوحيدة التي كنت أريدها بشكل مستميت. في الحقيقة، أن يكون لديك امرأة، أن يكون لديك شيء، فهذا لا يعني شيئاً: إن ما يهم هو حياتك مع الشخص، أو حياتك مع الشيء الذي تمتلكه. هل يمكن أن تستمر في حبك للأشخاص أو الأشياء إلى الأبد؟ قد تعترف هي أيضاً بأن كاروثرس يحبها بجنون ـ وماذا سيؤثر ذلك على حبي؟ إذا كانت المرأة قادرة على إلهام الحب في رجل فهي قادرة على إلهامه في الآخرين. أن تحب أو تكون محبوباً ليس جريمة. في الحقيقة تبدو الجريمة في أن تجعل شخصاً يعتقد بأنه أو أنها الشخص الوحيد الذي قد تحبه.

دخلت المرقص. كانت ترقص مع شخص آخر. وكان كاروثرس يقف وحيداً في الزاوية. مدفوعا بالرغبة في أن أواسيه قليلاً، توجهت إليه وبدأت أحدثه. ولو كان يعاني من لواعج الغيرة فمن المؤكد أنه لن يظهرها. وانتابني شعور بأنه كان يعاملني بشيء من العنجهية. وتساءلت إن كان فعلاً يغار أم أنه يحاول أن يجعلني أعتقد ذلك ليخفي شيئاً آخر. المرض الذي تحدثت عنه ـ إن كان خطيراً جداً فمن الغريب أنها لم تذكره لي من قبل. والطريقة التي ألمحت فيها إليه جعلني أعتقد أنه حدث مؤخراً. كان يعتني بها. أين؟ ليس في بيتها بالتأكيد. شيء آخر خطر ببالي: لقد ألحت عليّ بشدة ألا أرسل لها رسائل إلى بيتها. لماذا؟ ربما لا يوجد لديها بيت. قالت إن تلك المرأة التي كانت تعلق الملابس في حديقة المنزل لم تكن أمها. من هي إذن؟ ألمحت إلى أنها قد تكون جارة. كانت حساسة من موضوع أمها. عمتها هي التي قرأت رسالتي وليس أمها. والشاب الذي فتح الباب ـ هل كان أخاها؟ قالت نعم، لكنه بالتأكيد لم يكن يشبهها. وأين كان أبوها طوال اليوم، ألم يعد يربي الآن خيول السباق أو يطيّر طائرات ورقية من السطح؟ من الواضح أنها لم تكن تحب أمها كثيراً. بل إنها ألمحت ذات مرة إلى أنها ليست متأكدة إن كانت هي أمها.

«مارا فتاة غريبة، أليس كذلك؟» قلت لكاروثرس بعد فترة من الصمت أثناء محادثتنا الهشة.

أطلق ضحكة عالية قصيرة، وكما لو أنه يريد أن يطمئنني عليها، أجاب: «إنها مجرد طفلة، أنت تعرف. وبالطبع لا يمكن أن تصدق كل كلمة تقولها».

أجبته: «نعم، هذا هو الانطباع الذي تعطيني إياه». فرّد كاروثرس «لا يوجد شيء في رأسها سوى أن تمضي أوقاتاً ممتعة».

عندها جاءت مارا. أراد كاروثرس أن يراقصها، لكنها قالت: «لكني وعدته بهذه الرقصة»، وأمسكت بيدي.

«لا، هذا حسناً، أرقصي معه! عليّ أن أذهب على أية حال. آمل أن أراك قريباً»، وانسللت خارجاً قبل أن تتاح لها فرصة إبداء أي احتجاج.

في مساء اليوم التالي وصلت إلى المسرح قبل الموعد المحدد، وحجزت مقعدين في الصف الأمامي. كان في البرنامج عدد من الأبطال الأثيرين لدي، من بينهم تريكسي فريجانزا، وجو جاكسون، وروي بارنيس. لابد أن يكون عملاً زاخراً بالنجوم.

انتظرت نصف ساعة أكثر من الموعد المحدد ولم تأتي مارا. كنت في غاية الشوق لمشاهدة العرض لذا قررت عدم الانتظار أكثر من ذلك. وفيما كنت أتساءل عما سأفعل بالبطاقة الثانية، مر بجانبي زنجي وسيم متجهاً إلى شباك التذاكر. اعترضته وسألته إن كان لا يمانع في قبول بطاقتي. ارتسمت علامات الدهشة على وجهه عندما رفضت أن أخذ نقوداً منه وقال: «ظننتك أحد المضاربين».

إنها على حلبة الرقص، تراقص شخصاً داكن البشرة يضمها إليه. حالما انتهت الرقصة هرعت إليها وسألتها: «أين كنت؟ ماذا في الأمر؟ لماذا لم تأتي؟».

أبدت دهشة لأني منزعج جداً من أمر تافه كهذا. ماذا منعك من المجيء؟ آه، لا شيء على الإطلاق. لقد خرجت في وقت متأخر، حفلة جامحة... ليس مع كاروثرس... فقد غادر بعد أن غادرت أنت بفترة قصيرة. لا، فلوري هي التي أقامت الحفلة. فلوري وحنة ـ هل تذكرهما؟ (هل أذكرهما؟ فلوري الشبقة وحنة السكيرة. كيف لي أن أنساهما؟) نعم، كان هناك الكثير من الشراب وطلب منها أحدهم مرافقته وقد حاولت ذلك... حسناً، لقد انزعجت قليلاً. كان ذلك كل شيء. كان ينبغي أن أدرك أنه حدث لها شيء ما. إنها ليست من الصنف الذي يحدد موعداً وتخلفه ـ هكذا.

سألتها: «متى وصلت إلى هنا؟» مشيراً إلى أنه لم تكن تبدو عليها أي علامة من علائم التأثر، بل كانت باردة ورصينة على نحو غير عادي.

لقد وصلت منذ بضع دقائق فقط. ماذا يعني ذلك؟ صديقها جيري، الملاكم المحترف السابق الذي يدرس القانون حالياً، كان قد اصطحبها إلى العشاء. كان في الحفلة ليلة أمس وكان لطيفاً إلى درجة أنه أوصلها إلى بيتها. سأراك بعد الظهر من يوم السبت في حي الفيليج ـ في صالة شاي باغودا. فقد كان الدكتور تاو، الذي يدير المكان، أحد أصدقائها الطيبين، وقالت إنه شاعر، وهي تود أن تلقاه.

قلت إني سأنتظرها وأرافقها إلى البيت، بالمترو هذه المرة إن لم يكن لديها مانع. رجتني ألا أزعج نفسي ـ سأعود إلى البيت في وقت متأخر جداً وما إلى ذلك. ألححت. كان بإمكاني أن أرى أنها لم تكن مسرورة جداً. في الواقع انزعجت. بعد لحظة تذرعت بأنها ستذهب إلى غرفة الملابس. مما يعنى أنه كانت توجد مكالمة هاتفية، كنت متأكداً من ذلك. تساءلت ثانية إن كانت تقطن حقاً في ذلك المكان الذي قالت إنه البيت.

ظهرت ثانية وابتسامة ترتسم على محياها، وقالت إن المدير

سمح لها بالانصراف مبكراً. يمكننا أن نذهب حالاً إذا أردنا. في البداية كان علينا أن نتناول طعامنا في مكان ما. في الطريق إلى المطعم، وخلال الوجبة، أخذت تتحدث بسرعة كبيرة عن المدير ولطفه. إنه يوناني طيب القلب. وإن ما فعله لبعض الفتيات كان رائعاً. ماذا تعني؟ مثل ماذا؟ حسناً، مثل فلوري. فعندما أجهضت فلوري ـ كان ذلك قبل أن تلتقي بصديقها الطبيب ـ دفع لها نيك جميع النفقات، حتى أنه أرسلها إلى الريف لتمضي بضعة أسابيع. وحنة، التي قلعت كل أسنانها... حسناً، قدم لها نيك طقماً جميلاً من الأسنان الاصطناعية.

وسألتها بدماثة، وماذا يحصّل نيك لقاء كل ذلك.

تابعت قولها: «لا يعرف أحد شيئاً عن نيك. فهو لم يحاول التقرب من الفتيات مطلقاً. إنه مشغول بشؤونه الخاصة. إنه يدير مكانا للقمار في شمال المدينة، وهو يضارب في البورصة، ويملك حماماً عاماً في كوني آيلاند، وينوي شراء مطعم في مكان ما... لا يوجد لديه وقت ليفكر بمثل هذه الأمور».

قلت: «يبدو أنك واحدة من الفتيات الأثيرات لديه»، ثم أضفت «تأتين وتروحين كما يحلو لك».

قالت: «إن نيك يفضّلني، ربما لأني أجذب نوعاً مختلفاً من الرجال أكثر من الفتيات الأخريات».

سألتها فجأة: «ألا ترغبين في أن تعملي شيئاً آخر لكسب رزقك؟ إن هذا النوع من العمل لا يليق بك ـ ولهذا أنت ناجحة على ما أظن. قولي لي ألا يوجد شيء آخر تودين عمله؟»

أظهرت ابتسامتها كم كان سؤالي ساذجاً. «أنت لا تظن أني أعمل هذا جرّاء حبي لهذا العمل؟ أعمله لأني أكسب نقوداً أكثر مما يمكنني أن أجمعها من أي مكان آخر. لدي مسؤوليات كثيرة. لا يهم ماذا أعمل ـ يجب أن أكسب مبلغاً معيناً من المال كل أسبوع. لكن

لنتوقف عن الحديث عن هذا الموضوع، إنه مؤلم جداً. أعرف ما تفكر فيه، لكنك مخطئ. الجميع يعاملونني كملكة. الفتيات الأخريات غبيات، أما أنا فأستعمل ذكائي. ألا تلاحظ أن أكثر المعجبين بي هم من العجائز».

«أتقصدين جيري مثلاً؟».

«آه... جيري، إنه صديق قديم. جيري غير محسوب».

توقفت عن الحديث في الموضوع. من الأفضل عدم السبر في الأعماق. إلا أن شيئاً واحداً كان يؤرقني، وقد تطرقت إليه بأكبر قدر من اللطافة. لماذا تضيع وقتها مع مثل هاتين الساقطتين فلوري وحنة؟

أطلقت ضحكت، وقالت إنهما أعزّ صديقتين لها. فهنّ يفعلن أي شيء من أجلها، وهن يعبدنها. يجب أن يكون للمرء شخص يمكنه أن يعتمد عليه في وقت الضيق. فحنة مستعدة لأن تقدم لها أسنانها الاصطناعية إذا طلبتها منها. وبمناسبة الحديث عن الأصدقاء، هناك فتاة رائعة تود أن تعرّفها عليّ ـ يوماً ما ـ نوع آخر تماماً، أرستقراطي تقريباً، اسمها لولا. يجري في عروقها شيء من الدم الملون، لكنه قلما يُلحظ. نعم، لولا صديقة عزيزة جداً، وهي متأكدة من رغبتي في التعرف عليها.

اقترحت عليها على الفور: «لماذا لا تأخذين موعداً معها؟ يمكننا أن نلتقي في مرسم صديقي أولريك. أريدك أن تقابليه أيضاً».

قالت إن ذلك سيكون رائعاً، ولا يمكنها تحديد الموعد الآن، لأن لولا في حلّ وترحال دائم. لكنها ستحاول أن تجعل هذا الموعد قريباً. وقالت إن لولا عشيقة منتج أحذية غني، وهي ليست حرة دائماً. إلا أن مصادقة لولا شيء جيد، فهي تمتلك سيارة سباق. ولعلنا نذهب يوماً إلى الريف ونمضي ليلة هناك. إلا أن للولا أسلوباً خاصاً بها، فهي متعجرفة قليلاً في الواقع، لكن ذلك بسبب دمها

الملون. وطلبت مني ألا أخبر أحداً بأني عرفت عنها أي شيء، أما بالنسبة لصديقي أولريك ـ فيجب ألا أخبره عنها أبداً.

«لكنه يحب الفتيات الملونات، سيكون مهووساً بلولا».

قالت مارا: «لكن لولا لا تريد أن تُحب لهذا السبب، وكما سترى فهي شديدة البياض وجذابة جداً. ولا يشك أحد بأنه تجري فيها قطرة دم ملون واحدة».

«حسناً، أتمنى ألا تكون جدية أكثر من اللازم».

قالت مارا على الفور: «لا تقلق من ذلك، فما أن تنسى نفسها حتى تصبح مرحة جداً. ولن تكون أمسية مملة، أؤكد لك ذلك».

مشينا قليلاً من محطة المترو إلى بيتها. وفي الطريق وقفنا تحت شجرة وبدأنا شيئاً من العناق. كانت يدي تجوس داخل فستانها وهي تتحسس فتحة بنطالي. كنا نتكئ على جذع شجرة. كان الوقت متأخراً ولا يوجد أحد في مرمى البصر. ولولا الحياء لضاجعتها على الرصيف.

وفيما كنت أستعد لأغمده فيها انقضّت علينا فجأة قطة سوداء ضخمة من بين الأغصان، وهي تموء بصوت مرتفع وكأنها تنزو. كدنا نموت خوفاً، لكن القطة كانت خائفة أكثر منا لأن مخالبها تشبثت بمعطفي. ومن شدة خوفي رحت أضربها لأبعدها عني لكنها خمشتني وعضتني. كانت مارا ترتعد وتهتز كورقة شجرة. سرنا إلى أرض خالية واستلقينا على العشب. خشيت مارا أن أصاب بالتهاب. انسلت إلى البيت وعادت ومعها قليل من اليود. كان عليّ أن استلقي هناك وانتظرها.

كانت الليلة دافئة. استلقيت على ظهري ورحت أتطلع إلى النجوم. مرت امرأة لكنها لم تلحظ وجودي هناك. وعندما عادت مارا أخذ قضيبي يتحرك. جثت بجانبي ومعها الضمادات واليود، كان قضيبي يحدق في وجهها. انحنت فوقه والتهمته بشهية. دفعت

الأشياء جانباً وسحبتها فوقي. وعندما قذفت كانت ما تزال ترتعش، رعشة تلو الأخرى، حتى خيّل إليّ أنها لن تتوقف عن الارتعاش.

استلقينا واسترحنا قليلاً والنسمات العليلة تهب علينا. بعد قليل جلست ووضعت اليود. أشعل كل منا سيجارته وجلسنا نتحدث بهدوء. وأخيرا قررنا الذهاب. رافقتها إلى باب بيتها وفيما كنا واقفين يعانق أحدنا الآخر، أمسكتني بقوة وهزتني وقالت: «لا يمكنني أن أتركك تذهب الآن». وارتمت عليّ، وقبلتني بحرارة وحشرت يدها في فتحة بنطالي بدقة هائلة. هذه المرة لم نكترث بالبحث عن أرض فضاء، بل تهاوينا فوق الرصيف تحت شجرة كبيرة. لم يكن الرصيف مريحاً جداً ـ كان عليّ أن أسحب نفسي وأتحرك بضعة أقدام كي أستلقي فوق شيء من التراب الناعم. وكانت هناك بركة ماء صغيرة قرب مرفقها، وكان علينا أن نبتعد ونتحرك شبراً آخر، لكني عندما حاولت أن أستله منها قالت بهياج شديد: «لا تخرجه ثانية، إنه يفقدني صوابي. نكني، نكني!». بقيت فوقها مدة أطول. وكما حدث سابقاً، ارتعشت مرات كثيرة، وهي تئن وتشخر مثل خنزير عالق في مكان ضيق. وبدا أن فمها يزداد اتساعاً، شبقاً تماماً، وزاغ بصرها، وكأنها أصيبت بنوبة صرع. استليته منها برهة كي أبردّه. وضعت يدها في البركة بجانبها ورشت عليه بضع قطرات من الماء. غمرني شعور رائع.

نفضنا الغبار عن نفسينا ورحنا نسير صوب البيت ثانية. عند الناصية وقفت متهالكة وودعتني.

3

كان ذلك في عصر يوم السبت، والشمس ساطعة وحادة في الخارج، عندما كنت أرشف قليلاً من الشاي الصيني الفاتح اللون في حديقة الدكتور ووتشي هاتشي تاو، الذي قدّم لي قصيدة طويلة عن الأم مدونة على ورقة خشنة. يبدو أنه نوع متفوق من الرجال ـ لا يمكن التواصل معه أيضاً. كنت أرغب في أن أسأله شيئاً عن التاو الأصلي، إلا أني لم اقرأ حتى الآن تاو تج تشينج. فلو كنت قد قرأته لما احتجت لأن أسأله أي سؤال ـ ولم أكن لأجلس في حديقته وأنا أنتظر امرأة اسمها مارا. لو كنت بذلك القدر من الذكاء وقرأت تلك القطعة الشديدة الوضوح المكثفة من الحكمة القديمة لوفرت على نفسي الكثير من المصائب التي ألمتّ بي والتي سأرويها الآن.

فيما كنت جالساً في الحديقة في العام 17 قبل الميلاد، تجول في رأسي أفكار تختلف تماماً عن هذه الأفكار. ولكي أكون صادقاً إلى حد كبير، فأنا لا أستطيع أن أتذكر فكرة واحدة منها الآن. أذكر بغموض أني لم أحب القصيدة عن الأم ـ بدت لي كما لو أنها كانت مجرد كلام فارغ. والأكثر من ذلك، لم أحب ذلك الصيني الذي كتبها ـ أذكر ذلك تماماً. أعرف كذلك أنه تملكني غضب شديد. (لو كنت استوعبت شيئاً من التاو لما فقدت مزاجي الآن. كنت سأجلس هناك قانعاً كبقرة، أشكر الله لأن الشمس ساطعة في الخارج، وأشعر بالامتنان لأني مازلت على قيد الحياة). أما اليوم، وفيما أكتب هذا،

فلا توجد هناك شمس ولا مارا، رغم أني لم أتحول إلى بقرة قانعة بعد، أشعر بحيوية شديدة وسكينة مع العالم.

سمعت صوت الهاتف يرن في الداخل. اقترب مني صيني منبسط الوجه، لعله أستاذ في الفلسفة، وقال لي بلغة أعواد الطعام إن سيدة ترغب في التحدث إليّ على الهاتف. إنها مارا، ولكي أصدّقها قالت إنها نهضت من السرير الآن. وقالت إنها تشعر بالغثيان بعد أن احتست كمية كبيرة من الشراب ليلة البارحة وفلوري كذلك، وهما تقيمان الآن في فندق قريب. أي فندق؟ لم تشأ أن تقول. انتظر نصف ساعة فقط وستأتي هي بنفسها. كان مزاجي معكراً. ومن معها في السرير، أريد أن أعرف. هل يمكن أن يكون رجلاً يبدأ اسمه بحرف كاف، لا؟ إنها لا تحب ذلك. وهي لا تسمح لأحد بأن يتحدث إليها بهذه الطريقة. حسناً، إني أتكلم بهذه الطريقة، هل تسمعين؟ قولي لي أين أنت وسأكون عندك بلمح البصر. إذا لم ترغبي في القول فإلى جهنم إذن. لقد سئمت ذلك... ألو، ألو! مارا! لا جواب. حسناً، لا بد أن ذلك أزعجها بسرعة. فلوري، تلك العاهرة الصغيرة، المسؤولة عن كل ما يجري، فلوري ذات الكاب المبطن بالفراء الشائك.

مرّ أسبوع ولم أسمع كلمة واحدة من مارا. ومن حيث لا أحتسب أتتني مكالمة هاتفية. يبدو أنها كانت مكتئبة. هل يمكنني أن أقابلها على العشاء في مكان ما، إنها تريد أن تحدثني عن شيء بالغ الأهمية. في صوتها نبرة جادة لم ألحظها من قبل.

في حي الفيليج، وفيما كنت مسرعاً لأصل في الموعد المحدد، لم أصادف سوى كرونسكي. حاولت أن أصرفه عني لكن دون جدوى.

«ولماذا أنت مستعجل هكذا؟» سألني بتلك البسمة العريضة التهكمية المملّة التي تكسو وجهه والتي يستحضرها دائماً في الوقت الخطأ.

أقول له إني على موعد.

«هل أنت ذاهب لتناول الطعام؟».

أقول بحدة: «نعم، سأتناول الطعام، ولكن وحدي».

«أوه، لا، إنك لن تتناول الطعام وحدك، يا سيد ميلر. إنك بحاجة إلى صحبة، يمكنني أن أرى ذلك. إنك لست على ما يرام اليوم... إنك تبدو قلقاً. آمل ألا تكون امرأة؟».

«اسمع ياكرونسكي، سألتقي أحداً ما ولا أريدك أن تكون موجوداً».

«الآن، يا سيد ميلر، كيف يمكنك أن تحدّث صديقاً قديماً بهذه الطريقة؟ إني أصرّ على مرافقتك. أنا الذي سيدفع ثمن الوجبة ـ لا يمكنك أن تقاوم ذلك، أليس كذلك؟».

ضحكت رغماً عني. «حسناً، اللعنة... اتبعني إذن. ربما احتجت إلى مساعدتك. أنت لا تنفع إلا في أوقات الشدة. اسمع، لا تتصرف على نحو سخيف. سأعرّفك على المرأة التي أحبّ. يمكن ألا تروق لها نظراتك، لكني أريدك أن تقابلها على أي حال. سأتزوجها يوماً ما، وبما أنه لا يبدو أني سأتمكن من التخلص منك، فلعلها ستبدأ في تحملك الآن كما ستتحملك في ما بعد. لدي شعور غامض بأنك لن تحبها».

«يبدو أن ذلك أمر جدي تماماً يا سيد ميلر. يجب أن أتخذ الخطوات اللازمة لكي أحميك».

أجبته: «إذا بدأت بالتدخل سأوجه لك ضربة على رأسك»، وأطلقت ضحكة وحشية. «أما فيما يتعلق بهذه المرأة، فأنا في مطلق الجدية. إنك لم ترني هكذا من قبل، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تصدق، هه؟ حسناً، راقبني فقط. أقول لك إني جاد تماماً... إذا اعترضت طريقي فسأقتلك بكل هدوء».

لدهشتي كانت مارا في المطعم، وكانت قد اختارت طاولة في ركن مظلم. قلت لها: «مارا، هذا صديق قديم، الدكتور كرونسكي. لقد أصرّ على المجيء. آمل ألا تمانعي حضوره». ولدهشتي حيّته بحرارة. أما كرونسكي، فما أن وقعت عيناه عليها حتى تهالك.

وأثارني صمته كثيراً. إذ كان عادة يصبح ثرثاراً ويحدث نوعاً من الضجيج بأجنحته المخفية، عندما كنت أقدمه إلى أنثى.

كانت مارا أيضاً هادئة على نحو غير اعتيادي، وبدا صوتها هادئاً كأنه حالة منومة.

حالما طلبنا الوجبة وتبادلنا بضع كلمات مهذبة، قال كرونسكي الذي كان ينظر إلى مارا بنظرات ثابتة ومعجبة: «يبدو لي أن شيئاً ما حدث، شيئاً مأساوياً. فإذا أردت أن أذهب فإني سأغادر على الفور. وأقول لك الحق، فأنا أفضل أن أبقى. ربما يمكنني المساعدة. فأنا صديق هذا الشخص وأودّ أن أكون صديقاً لك. أعني هذا بكل صدق».

تأثرت مارا قليلاً. من الواضح أن هذه الكلمات مستها في الصميم فردت بدفء: «بالتأكيد أرجو أن تبقى»، ومدت يدها عبر الطاولة تعبيراً عن الثقة. وأضافت: «إنك تسهّل الأمور عليّ لكي أتحدث. لقد سمعت الكثير عنك، لكني لا أظن أن صديقك قد أنصفك» ونظرت إليّ كأنها تلومني ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة.

قلت على الفور: «لا، هذا صحيح فأنا لم أعطك صورة صحيحة عنه»، واستدرت إليه وقلت: «كما تعرف ياكرونسكي، فإنك أكثر الأشخاص مقتاً وكراهية يمكن لشخص أن يتخيل، ومع ذلك...».

قال بامتعاض: «هيا، هيا، لا تبدأ معي هذه العبارة المأخوذة من دوستويفسكي. إذ إنك ستقول بأني عبقريك الشرير. نعم، لديّ شيء من التأثير الشيطاني الشاذ عليك، إلا أنك لا تفهمني كما أفهمك. أنا أحبك بصدق. وسأفعل أي شيء تطلبه مني إذا كنت أظن أنك تعنيه حقاً ـ حتى لو سبّبت الأذى لأحد أحبه كثيراً. فأنا أقدرّك أكثر من أي شخص أعرفه، لماذا، لا أعرف، لأنك بالتأكيد لا تستحق ذلك. الآن أعترف أني حزين. أرى أن أحدكما يحبّ الآخر وأظن أن أحدكما خلق للآخر، ولكن...».

«أتظن أن مارا ليست متحمسة كثيراً، ايه؟».

قال بجدية تثير الفزع «لا أستطيع أن أقول الآن. لا أستطيع أن أقول سوى أنها تناسبك تماماً».

قالت مارا بتواضع شديد: «إذاً تظن أني أستحقه حقاً؟».

نظرت إليها بدهشة. لم أصدق مطلقاً أنها يمكن أن تقول شيئاً كهذا لشخص غريب.

كلماتها ألهبت كرونسكي. «تستحقينه؟» قالها بسخرية. «لكن هل هو يستحقك أنتِ؟ هذا هو السؤال. ماذا فعل في حياته لكي تستحقه امرأة؟ إنه لم يبدأ حياته بعد ـ فهو مازال في مرحلة سبات. لو كنت مكانك لما وضعت ذرة من الثقة فيه. إنه حتى ليس صديقاً جيداً، فما بالك في أن يكون حبيباً أو زوجاً. مارا المسكينة، لا تشغلي بالك بمثل هذه الأمور. اجعليه يفعل شيئاً ما من أجلك، انخسيه، اجعليه يفقد صوابه إذا تعين عليك ذلك، لكن اجعليه يتفتح! إذا كان عليّ أن أقدم لك نصيحة صادقة، وأنا أعرفه وأحبه، فهي: مزّقيه، عاقبيه، ادفعيه حتى آخر خندق! وإلا فستضيعين ـ سيلتهمك. لا، إنه ليس من الصنف الرديء، ليس لأنه يقصد أن يؤذي... أوه لا! إنه يفعل ذلك من باب الشفقة. يكاد يجعلك تعتقدين بأنه يضع مصلحتك في قلبه فيما يغرز مخالبه فيك. يستطيع أن يمزقك إرباً بابتسامة منه، ويقول لك إنه يفعل ذلك من مصلحتك أنت. إنه الشيطان، لا أنا. أنا أدعيّ ذلك، لكنه يعني كل ما يفعله. فهو أقسى مأفون يسير على ساقين عرفه التاريخ ـ والغريب في الأمر أنه يجعلك تحبينه لأنه قاس، أو ربما لأنه صادق في ذلك. إنه يحذرك سلفاً قبل أن يوجه إليك ضربته. إنه يقولها لك وهو يبتسم. وفي النهاية يرفعك وينفض عنك الغبار بلطف، ويسألك إن كان قد آذاك وما إلى هنالك ـ كملاك. هذا المأفون!».

قالت مارا بهدوء: «طبعاً فأنا لا أعرفه كما تعرفه أنت، لكني يجب أن أعترف بأنه لم يكشف لي عن ذلك الجانب من طبيعته أبداً ـ ليس حتى الآن، على أية حال. فكل ما أعرفه عنه أنه لطيف وطيب.

آمل أن يتصرف معي بهذا الشكل على الدوام. فأنا لا أحبه فقط، بل أؤمن به كشخص، سأضحي بكل شيء لكي أجعله سعيداً...».

«لكنك لست سعيدة جداً الآن، أليس كذلك؟» قال كرونسكي، متجاهلاً كلماتها: «قولي لي، ماذا فعل ليجعلك...؟».

قالت بحيوية: «لم يفعل شيئاً، إنه لا يعرف ماذا يزعجني».

«حسناً، هل يمكنك أن تخبريني؟» قال كرونسكي، مغيّراً نبرة صوته وأصبحت عيناه نديتين وبدا مثل جرو صغير ودود يثير الشفقة.

قلت وأنا أتطلع إليه: «لا تضغط عليها، ستقول لنا بنفسها في الوقت المناسب». تغيّرت قسمات وجهه فجأة. أشاح بوجهه. نظرت إلى مارا ورأيت الدموع تترقرق في عينيها، ثم أخذت تنهمر بغزارة. وبعد لحظة استأذنتنا وتوجهت إلى الحمام. نظر كرونسكي إليّ وعلى فمه ابتسامة ميتة شاحبة، نظرة مريض كتوم وهي تتلاشى في ضوء القمر.

قلت له: «لا تأخذ الأمر بهذا الشكل المأساوي، إنها من النوع الشجاع، وستتمكن من التغلب على مصاعبها».

«هذا ما تقوله أنت! لإنك لا تعاني. أنت سريع الانفعال وتدعو ذلك معاناة. توجد مشكلة في حياة هذه الفتاة، ألا تستطيع أن ترى ذلك؟ إنها تريدك أن تفعل شيئاً من أجلها ـ ليس فقط أن تنتظر حتى ينتهي الأمر. إذا لم تضغط عليها لتعرف فسأفعل أنا ذلك. هذه المرة لديك امرأة حقيقية. والمرأة الحقيقية يا سيد ميلر، تتوقع شيئاً من الرجل، ليس فقط كلمات وإشارات. وإذا كانت تريد منك أن تهرب معها، وأن تترك زوجتك وطفلتك وعملك، فأنا أقول لك افعل ذلك. استمع إليها وليس إلى ذاتك الأنانية!» تهالك على مقعده وراح ينكش أسنانه. وبعد لحظات أضاف «لقد التقيت بها في المرقص؟ حسناً، يجب أن أهنئك على أنه مايزال عندك إحساس بأنك تميز الغث من

السمين. هذه الفتاة قد تجعل منك شيئاً، إذا تركتها تفعل ذلك. أعني ما زال لديك الوقت. لقد قطعت شوطاً معها كما تعرف. سنة أخرى مع زوجتك ويُقضى عليك». بصق على الأرض باشمئزاز. «إنك محظوظ. الأشياء تأتي إليك دون أن تسعى إليها. أنا أعمل كابن عاهرة وفي اللحظة التي أدير فيها ظهري يتهاوى كل شيء».

أجبته ساخراً: «ذلك لأني لست يهودياً».

«إنك لست يهودياً. أنت يهودي أسود. أحد أولئك الكفرة السحرة الذين يريدون أن يبدو كل يهودي كذلك. إنك... أوه، جيد أنك ذكرت ذلك. مارا يهودية، بالطبع؟ هيا الآن، لا تتظاهر بأنك لا تعرف. ألم تخبرك بعد؟»

لا يعقل أن تكون مارا يهودية، حتى أني ضحكت ببساطة في وجهه.

«تريد أن أبرهن لك ذلك، هل هذا ما تريد؟».

«أنا لا أبالي ما هي، لكني متأكد أنها ليست يهودية».

«ما هي إذن؟ أتمنى ألا تقول إنها تنتمي إلى عرق آري نقي؟».

«لم أسألها قط، اسألها إن أحببت».

«لن أسألها»، قال كرونسكي، «لأنها قد تكذب عليّ أمامك ـ لكني سأخبرك إن كنت على صواب أم لا عندما أراك في المرة القادمة. أظن أن بوسعي معرفة اليهودي بمجرد رؤيته».

«لقد ظننت أني يهودي عندما التقيت بي لأول مرة».

ضحك على الفور وقال: «إذن صدقت ذلك حقاً؟ هه هه هه! إنك أحمق مسكين، لقد قلت لك ذلك إطراء لك. لو كان فيك قطرة دم يهودي لقتلتك».

صمتنا عندما عادت مارا. قالت مارا وهي تجلس: «كنتما تتحدثان عني، أليس كذلك؟ لماذا لا تواصلان كلامكما، فأنا لا أمانع».

قال كرونسكي: «إنك مخطئة، لم نكن نتحدث عنك مطلقاً...».

فتدخلت قائلاً: «إنه يكذب، نعم كنا نتحدث عنك، ولكننا لم نذهب بعيداً. أريدك أن تخبريه عن عائلتك يا مارا ـ أعني عن الأشياء التي حدثتني عنها».

تجهم وجهها وقالت متظاهرة بالغضب: «وما شأنك بعائلتي؟ عائلتي لا تثير الكثير من الاهتمام».

فقال كرونسكي مشدوهاً: «لا أصدق ذلك. أظن أنك تخفين شيئاً».

النظرة التي تبادلاها جعلتني أرتعش. كانت كما لو أنها أعطته إشارة ليواصل بحذر. لقد فهما بعضهما بشكل سري، بطريقة استبعدتني. وخطرت ببالي صورة المرأة التي كانت في حديقة بيتها الخلفية بوضوح شديد. لم تكن تلك المرأة جارة، كما حاولت أن تلمح. هل يمكن أن تكون زوجة أبيها؟ حاولت أن أتذكر ما قالته لي عن أمها الحقيقية لكنها ضاعت فجأة في المتاهات المعقدة التي نسجتها حول هذا الموضوع الذي بدا من الواضح أنه مؤلم.

قالت وهي تلتفت إليّ: «ما الذي تريد أن تعرفه عن عائلتي؟».

قلت: «لا أريد أن أسألك أي شيء يثير إزعاجك، لكن أخبرينا عن زوجة أبيك إذا كان ذلك ممكناً؟».

سألها كرونسكي: «من أي بلد زوجة أبيك؟».

أجابته مارا: «من فيينا».

«وأنت، هل ولدت في فيينا أيضاً؟».

«لا، ولدت في رومانيا، في قرية جبلية صغيرة. قد يسري فيّ شيء من الدم الغجري».

«تقصدين أن أمك غجرية؟».

«نعم، هناك قصة بهذا المعنى. يقولون إن أبي هرب من أمي في

ليلة زواجهما إلى زوجته الأخرى. ولهذا السبب فإن أمي «زوجة أبي» تكرهني، هل تتصور ذلك. فأنا الغنمة السوداء في العائلة».

«وأظن أنك تحبين أباك حتى العبادة؟».

«أنا أعبده. فهو يشبهني. الآخرون غرباء عني ـ لا يوجد شيء مشترك يجمعنا».

سأل كرونسكي: «وأنت تقومين برعاية العائلة، أليس كذلك؟».

«من قال لك ذلك؟ آه فهمت، إذن هذا ما كنتما تتحدثان عنه عندما...».

«لا يا مارا، لم يخبرني أحد. أستطيع أن أرى ذلك في وجهك. إنك تضحين بنفسك ـ ولهذا فأنت حزينة».

قالت: «أنا لا أنكر ذلك، أفعل ذلك من أجل أبي. إنه رجل عاجز، لم يعد قادراً على العمل».

«وماذا عن أخوتك؟».

«لاشيء. إنهم مجرد كسالى. لقد أفسدتهم. فقد هربت من البيت عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، لم أتحمل الحياة في البيت. غبت سنة كاملة، وعندما عدت وجدتهم في حالة مزرية. لا حول لهم ولا قوة. وأنا الوحيدة التي أمتلك أية مبادرة».

«وأنت تعيلين العائلة كلها؟».

«أحاول، في بعض الأحيان أريد أن أتوقف عن ذلك ـ إنه عبء ثقيل عليّ. لكني لا أستطيع غير ذلك. فإذا توقفت سيموتون جوعاً».

قال كرونسكي بحماس: «كلام فارغ، هذا ما يجب أن تفعليه».

«لكني لا أستطيع ـ وأبي ما زال على قيد الحياة. سأفعل أي شيء، سأعمل مومساً، ولا أراه محتاجاً».

قال كرونسكي: «وهل يتركونك تفعلين ذلك، أيضاً، انظري يامارا، لقد وضعت نفسك في موقع مزيف. لا يمكنك أن تتحملي كل المسؤولية. دعي الآخرين يعتنون بأنفسهم. خذي أباك إلى مكان

آخر ـ سنساعدك في رعايته. إنه لا يعرف كيف تكسبين المال، أليس كذلك؟ إنك لم تخبريه أنك تعملين في مرقص، أليس كذلك؟».

«لا لم أخبره. إنه يظن أني اعمل في المسرح. لكن أمي تعرف».

«وهي لا تكترث بذلك؟».

«تكترث؟» قالت مارا وعلى وجهها ابتسامة مرة. «إنها لا تكترث مادمت أنفق على البيت. تقول إني لست فتاة جيدة. إنها تدعوني عاهرة. تقول إني أشبه أمي».

قاطعتها قائلاً: «مارا، لم يكن عندي فكرة أنها سيئة إلى هذه الدرجة. إن كرونسكي محق، يجب أن تنقذي نفسك. لماذا لا تفعلين كما يقترح عليك ـ اتركي العائلة وخذي أباك معك؟».

فقالت مارا: «أتمنى أن أفعل ذلك، لكن أبي لن يترك أمي أبداً. إنها تهيمن عليه ـ لقد جعلته مثل طفل».

«وماذا إن عرف حقيقة ما تفعلين؟».

«لن يعرف أبداً. فأنا لن أسمح لأحد أن يخبره. ذات مرة هددتني أمي بأنها ستخبره: قلت لها إني سأقتها إن هي فعلت». ابتسمت بمرارة، «هل تعرف ماذا قالت أمي؟ قالت بأني حاولت أن أدس لها السم».

هنا اقترح كرونسكي أن نواصل حديثنا في بيت صديق له مسافر في شمال المدينة. قال إنه يمكننا أن نمضي الليلة هناك إذا أحببنا. في المترو تغيّر مزاجه، فقد عاد مرة أخرى ضفدعاً شبقاً، مزوحاً شيطانياً، شاحب الوجه، كعادته. وهذا يعنى أنه يعتبر نفسه مغرٍ، شعرت أنه يرمق الإناث الجذابات بنظرات شبقة. كان العرق يتصبب من وجهه، يبلل ياقته ويجعلها تذوي. كلامه أصبح مفككاً محموماً، لا تواصل فيه. كان يحاول بطريقته المشوهة أن يشيع جواً مسرحياً.

بدت مارا مسرورة لمرآه مما أثار اشمئزازي، وقالت: «صديقك مجنون تماماً، لكنه يعجبني».

سمع كرونسكي الملاحظة. ابتسم ابتسامة عريضة بطريقة مأساوية وبدأ العرق يتصبب منه بغزارة. وكلما ازدادت ابتسامته اتساعاً وأصبح يتصرف كمهرج وقرد، بدا حزيناً ومنقبضاً. لم يكن يريد أن يظن أحد أنه حزين. لقد كان كرونسكي، الشخص الكبير، الهانئ، المتهور، المهمل، البشوش، السليم، الحيوي، الذي يحل مشاكل الناس. وكان بوسعه أن يتحدث لساعات طويلة دون توقف ـ لأيام، إذا كانت لديك الشجاعة لأن تنصت إليه. كان يصحو وهو يتكلم، ويدخل فوراً في مماحكات جدالية مسفة، عن مصير العالم، عن طبيعته الكيميائية الحيوية، عن تكوينه الفيزيائي الفلكي، عن ترتيبه الاقتصادي السياسي. العالم كله في كارثة. إنه يعرف لأنه يجمع دائماً حقائق حول شح القمح أو نقص النفط، أو يجري بحوثاً عن وضع الجيش السوفيتي أو أوضاع ترساناتنا وتحصيناتنا. إنه يقول، وكأن الأمر بديهي لا مراء فيه، إن جنود الجيش السوفيتي لا يستطيعون شن حرب في هذا الشتاء لأنه لا يوجد لديهم عدد كاف من المعاطف والأحذية، وما إلى هنالك. كان يتحدث عن الكربوهيدرات والدهون والسكر وما إلى ذلك. يتحدث عن إمدادات العالم وكأنه هو الذي يسيّر شؤون العالم. كان يعرف عن القانون الدولي أكثر مما يعرفه أكبر الخبراء المشهورين في هذا الموضوع. لم يكن هناك موضوع تحت الشمس لا يعرفه معرفة تامة وشاملة. ومع ذلك لم يكن الآن سوى طبيب مقيم في مستشفى المدينة، لكنه بعد بضع سنوات سيصبح جراحاً أو طبيباً نفسانياً مشهوراً، أو ربما شيئاً آخر، لم يكن يعرف بعد ماذا سيصبح. «لماذا لا تقرر أن تصبح رئيساً للولايات المتحدة؟» سأله أحد اصدقائه ساخراً، فأجاب مقطباً: «لأني لست معتوهاً، أتظن أنه ليس بإمكاني أن أصبح رئيساً إذا أردت؟ اسمع، أنت لا تظن أن على المرء أن يكون ذكياً لكي يصبح رئيساً للولايات المتحدة، أليس كذلك؟ لا، فأنا أريد عملاً حقيقياً. أريد أن أساعد الناس، لا أريد أن أخدعهم. إذا قيض لي أن أستلم زمام هذا

البلد فعليّ أن أنظف البيت من قمته إلى قاعه. وبداية سأخصي الأشخاص من أمثالكم». ويواصل على هذا المنوال ساعة أو ساعتين، يطهّر العالم، يرتب أوضاع البيت الكبير، ممهداً السبيل للأخوة في الإنسانية وإمبراطورية الفكر الحر. في كل يوم من حياته يستعرض شؤون العالم بمشط رفيع، ينظف القمل الذي جعل تفكير البشر رديئاً. في يوم ما سيتحدث بحماسة شديدة عن أحوال الرقيق على الساحل الذهبي، ويستشهد بسعر سبيكة الذهب مقابل نصف صدفة، أو يأتي بتلفيقة إحصائية رائعة أخرى عن الأسباب التي جعلت الناس يكرهون بعضهم دون قصد، وأحدثت وظائف تزيد عن الحاجة للكائنات اللافقرية، الرجال ذوي الصدور الضعيفة على صفحات صحف المعلومات المالية، وهكذا يضيف إلى عبء الاقتصادات السياسية غير الملموسة. وفي يوم آخر، كان يتحدث غاضباً عن معدن الكروم أو البرمنغنات، لأن ألمانيا أو ربما رومانيا احتكرت مادة أو أخرى في السوق مما جعل الأمر صعباً على الجراحين في الجيش السوفيتي إجراء عملياتهم عندما يحين اليوم الكبير. أو أنها ستخزن نوعاً آخر من حشرة جديدة ومذهلة ستجعل العالم المتحضر قريباً في حالة فوضى إذا لم نتصرف في الحال وبحكمة شديدة. كيف يواصل العالم ترنحه يوماً بعد يوم بدون إرشادات الدكتور كرونسكي، كان لغزاً لم يوضحه لنا أبداً. لم يكن الدكتور كرونسكي يشك أبداً في صحة تحليلاته عن الأوضاع العالمية. الحزن، الرعب، الفيضانات، الثورات، كانت كل هذه الظواهر تحدث ببساطة لكي تؤيد حكمته. كانت النكبات والكوارث تجعله فرحاً، كان ينعق ويغني كضفدع عالمي. كيف كانت الأمور تسير معه شخصياً ـ لم يسأله أحد قط هذا السؤال. شخصياً لم تكن هناك فائدة ترجى منه. إنه يبدّل ويغيّر، بما أن أحداً لا يتمتع بالفطنة ليسأل عن أي شيء أفضل منه. لقد ماتت زوجته الأولى بسبب حماقة طبية، وزوجته الثانية ستصاب بالجنون قريباً. بوسعه

أن يخطط أروع نماذج من البيوت للجمهورية البشرية الجديدة إلا أنه وللغرابة، لم يتمكن من الحفاظ على عشه الصغير خالياً من بق الفراش والآفات الأخرى، وبسبب انشغاله بالأحداث العالمية، وفي وضع الأمور في نصابها في أفريقيا، وفي غوادلوب، وفي سنغافورة، وما إلى هنالك، كان بيته دائماً سبباً للكدر التافه، بعبارة أخرى، صحون وسخة، أسرّة غير مرتبة، أثاث مفكك ومخلوع، زبدة فاسدة تسيل، مرحاض مسدود، أنابيب ترشح، أمشاط وسخة ملقاة على الطاولة، وبشكل عام، فإن هذه الحالة المسرة، التعيسة، المجنونة قليلاً من الخراب التي كانت تتحلى بها شخصية الدكتور كرونسكي تتجلى في شكل قشرة الرأس، والأكزيما، والدمامل، والبثور، والثآليل، والأكياس الدهنية، وبخر الفم، وعسر الهضم واضطرابات قليلة أخرى، ولا واحدة خطيرة لأنه ما أن توضع أسس النظام العالمي حتى يختفي كل شيء يتعلق بالماضي، ويولد الإنسان في جلد جديد كحمل حديث الولادة.

قال إن صديقه الذي سيأخذنا إلى بيته فنان. وكونه صديقاً للدكتور العظيم كرونسكي فإن ذلك يعني أنه فنان غير عادي، فنان لن يعترف به أحد إلا عندما تحل الألفية الجديدة. وكان صديقه رساماً وموسيقياً عظيماً. إلا أننا لن نتمكن من الاستماع إلى الموسيقى، بسبب غياب صديقه، لكنه سيكون بوسعنا رؤية لوحاته ـ أو بعضها، وذلك لأنه كان قد حطم الجزء الأكبر منها. ولولا خاطر كرونسكي لحطم كل شيء. وسألته عرضاً ماذا يعمل صديقه الآن، فقال إنه يدير مزرعة نموذجية للأطفال المعوّقين في براري كندا. وكان كرونسكي هو الذي نظم الحركة بنفسه لكنه كان مشغولاً جداً ولا يمكنه أن يشغل نفسه بالتفكير في تفاصيل الإدارة العملية. كما أن صديقه كان مصاباً بالسل، ويجب أن يبقى هناك إلى الأبد على الأغلب. وكان كرونسكي يرسل إليه برقية من حين لآخر يقدم فيها له نصائحه عن هذا وذاك. لقد كانت مجرد البداية ـ وقريباً سيفرغ

المستشفيات ومستشفيات المجانين من نزلائها، ويبرهن للعالم أن الفقراء يمكنهم رعاية الفقراء، والضعفاء رعاية الضعفاء، والمشلولين رعاية المشلولين، والمعاقين رعاية المعوّقين.

«هل هذه إحدى لوحات صديقك؟» سألته وهو يشعل الضوء وقد برزت كمية كبيرة من القيء الأصفر والأخضر المائل للصفار على الحائط.

فقال كرونسكي: «هذه إحدى لوحاته المبكرة، إنه يحتفظ بها لأسباب عاطفية. لقد وضعت أفضل لوحاته في المخزن. لكن هاهنا لوحة صغيرة يمكن أن تعطيك فكرة عن أعماله»، ونظر إليها بكبرياء، كما لو كانت إحدى أعمال فرد من سلالته. «إنها رائعة، أليس كذلك؟».

قلت: «فظيعة، إنه مصاب بعقدة الخراء، لا بد أنه ولد في بالوعة، في بركة مملوءة ببول حصان فاسد في يوم عكر من أيام شباط قرب مصنع للغاز».

فقال كرونسكي والحقد يتملكه: «تقول إن... إنك لا تميّز الرسام الصادق من غير الصادق. إنك معجب بالحداثيين السابقين. أنت رومانسي».

قلت بإصرار: «قد يكون صديقك من الحداثيين، لكنه ليس رساماً، إنه لا يملك ذرة حب، إنه لا يعرف شيئاً سوى الكراهية، والأكثر من ذلك فإنه لا يمكنه أن يرسم ما يكره. إن عينيه يغشاهما الضباب. تقول إنه مصاب بالسل: وأنا أقول إن صديقك صفراوي، نتن، وكذلك بيته. لماذا لا تفتح النوافذ؟ الرائحة هنا أشبه برائحة جيفة كلب».

«تعني فئران المختبرات، أنا استخدم المكان كمختبر ولهذا فإن رائحته نتنة قليلاً. أنفك حساس جداً، يا سيد ميلر. إنك محب للجمال».

سألته: «هل هناك شيء للشراب هنا؟».

لم يكن يوجد بالطبع، إلا أن كرونسكي اقترح أن يخرج ويأتي بشيء من الشراب. قلت له: «أحضر شيئاً قويا. فهذا المكان يجعلك تريد أن تتقيأ. لا عجب في أن النغل المسكين أصيب بالسل».

هرول كرونسكي خارجاً خجولاً، نظرت إلى مارا، وقلت لها: «ماذا تظنين؟ هل ننتظره أم نذهب؟».

«إنك قاس جداً. لا، لننتظر. أريد أن أسمعه أكثر ـ إنه مثير للاهتمام. وهو حقاً يقدرك كثيراً. أستطيع أن أرى ذلك من الطريقة التي يتطلع فيها إليك».

قلت لها: «إنه يثير الاهتمام في المرة الأولى فقط، بصراحة، هو يضجرني حتى الموت. إني أستمع إلى هذا الهراء منذ سنوات. مجرد هراء. ربما يكون ذكياً لكن توجد لوثة في عقله. إنه سينتحر ذات يوم، تذكري كلماتي. بالإضافة إلى ذلك فهو يجلب النحس. فحينما أقابل هذا الشخص تسير الأمور معي عكس ما أشتهي. إنه يحمل الموت معه، ألا تشعرين بذلك؟ إذا لم يكن ينعق فهو يثرثر كقرد. كيف يمكنك أن تصادقي شخصاً كهذا؟ يريد أن تكوني صديقة لحزنه. لا أعرف ماذا يدور في خلده. إنه قلق على العالم. أنا لا أبالي بأي شيء في هذا العالم. إذ لا يمكنني أن أصلح العالم، ولا يمكنه هو أيضاً... ولا يمكن لأي شخص أن يفعل ذلك. لماذا لا يحاول أن يعيش؟ قد لا يكون العالم إلى هذه الدرجة من السوء إذا حاولنا أن نمتع أنفسنا قليلاً. لا، إنه يثير حنقي».

عاد كرونسكي وهو يحمل زجاجات من المشروبات السيئة جداً، وزعم أنه لم يجد غيرها في هذا الوقت. ولم يكن يشرب أكثر من كشتبان، لذلك لم يبال كثيراً إن تسممنا بها أم لا. وقال إنه يتمنى أن نتسمم. كان مكتئباً. وبدا أنه أعدّ نفسه ليكون مكتئباً طوال الليل. وشعرت مارا، كبلهاء، بالأسف لحالته. تمدد على الأريكة وألقى برأسه على حضنها. وبدأ نغمة أخرى، نغمة غريبة ـ حزن العالم المجرد. لم تكن جدلية وتشنيعية كما سبق، بل أنشودة، أنشودة

صادرة عن دكتافون موجهة إلى ملايين المخلوقات الحزينة في أرجاء العالم. وراح الدكتور كرونسكي يعزف هذا اللحن في العتمة، ورأسه على حضن المرأة، ويده تلامس السجادة.

دسّ كرونسكي رأسه في حضنها كرأس أفعى منتفخ، وراحت الكلمات تنسل من فمه كما يتسرب الغاز من أنبوب مكسور في الوسط. توقف الدكتور كرونسكي عن الوجود: لم يبق سوى الألم والعذاب اللذين يعملان مثل إلكترونات موجبة وسالبة في الفراغ الذري الواسع لشخصية مفقودة. في هذه الحالة المؤقتة من التوقف لم يكن بوسع حتى نشر الفكر السوفييتي في أرجاء العالم بمعجزة أن يفجر شرارة الحماس فيه. كانت الأعصاب، الغدد الصماء، الطحال، الكبد، الكلى، الأوعية الدموية الصغيرة القابعة بالقرب من سطح الجلد هي التي تتكلم. كان جلده نفسه عبارة عن حقيبة تضم كتلة من العظام، العضلات، الأوتار، الدم، الدهن، المصل اللمفاوي، الصفراء، البول، الغائط، وما إلى هنالك بشكل فوضوي ومفكك. كان جسمه رهينة للموت، والدكتور كرونسكي في قمة حيويته في عالم الأشعة السينية للإحصائيات، لم يكن سوى قملة تتصدع تحت ظفر وسخ. ولم يخطر ببال الدكتور كرونسكي أبداً، في نوبات الحزن البولية التناسلية هذه، أن للكون وجهة نظر يمكن أن يأخذ فيها الموت مظهراً آخر.

انبهرت مارا تماماً بكل هذا، وراحت تمسد شعره وتموء بنعومة، فيما استمر الجدول يتدفق من بين شفتيه الشاحبتين الغليظتين. لقد أثار عطفها الواضح لهذا المُعاني حنقي أكثر مما أثارتني رتابة شذوذه. إن صورة كرونسكي المتكوم كعنزة مريضة بدت لي هزلية بشكل متميز. فقد ابتلع الكثير من علب القصدير الفارغة، تغذى على قطع سيارة مرمية. كان مقبرة متحركة من الحقائق والأشكال، إنه يموت من عسر الهضم الإحصائي.

قلت له بهدوء: «هل تعرف ما يجب أن تفعله؟ يجب أن تقتل

نفسك الآن، الليلة. لا يوجد شيء تعيش من أجله ـ لماذا تضحك على نفسك؟ سنتركك بعد قليل وكل ما عليك أن تفعله هو أن تتخلص من نفسك. إنك ذكي، لا بد أنك تعرف وسيلة لتفعل ذلك دون إرباك. حقاً، أظن أنك تدين بذلك إلى العالم. كما هو الحال الآن، فأنت لا تزعج إلا نفسك».

كان لهذه الكلمات تأثير شبه كهربائي على الدكتور المتألم كرونسكي. وفي الحقيقة قفز واستوى على قدميه في حركة تشبه خنزير البحر. صفق بيديه ورقص بضع خطوات كحيوان غليظ الجلد. كان منتشياً، كما يفعل حفار المجاري عندما يعلم أن زوجته ولدت طفلاً آخر.

«إذاً تريدني أن أتخلص من نفسي يا سيد ميلر، إيه؟ وفيم العجلة؟ أنت تغار مني، أليس كذلك؟ حسناً سأخيب أملك الآن. سأعيش وأجعلك بائساً. سأعذبك. وفي يوم ما ستأتي وتتوسل إليّ أن أعطيك شيئاً يدرأ عنك الأذى. ستتوسل إليّ وأنت جاثٍ على ركبتيك وسأرفضك».

قلت له: «إنك مجنون»، وأنا أمرر يدي تحت ذقنه.

فأجاب وهو يربّت على قبضة يدي: «أوه لا أنا لست مجنوناً! إني عصابي، ككل اليهود. فأنا لن أقتل نفسي أبداً، لا تخدع نفسك. بل سأخرج في جنازتك وسأسخر منك. ربما لن تخرج من أجلك جنازة. ربما ستكون مديناً لي بحيث سيتعين عليك أن تورثني جسدك عندما تموت. يا سيد ميلر، عندما أبدأ بتقطيعك إرباً فلن يبقى منك سوى فتات».

مد يده وتناول سكيناً لفتح المغلفات من فوق البيانو ووضع طرفها المدبب على صدري. ورسم خطاً خيالياً للشق ثم رفع السكين أمام عيني وقال: «هكذا سأبدأ، من أحشائك. سأخرج أولاً كل ذلك الهراء الرومانسي الذي يجعلك تظن أنك تعيش حياة رائعة، ثم سأسلخ جلدك كما تسلخ الأفعى حتى أصل إلى أعصابك المسالمة

الهادئة، وأجعلها ترتجف وتقفز، وستصبح حياً تحت السكين أكثر مما أنت حي الآن، ستبدو غريباً وأنت بساق واحدة ورأسك مركون على الرف فوق الموقد وفمك مثبت بتكشيرة أبدية».

ثم التفت إلى مارا وقال: «هل تظنين أنك ستظلين تحبينه عندما أحضره للمختبر؟».

أدرت ظهري له وتوجهت نحو النافذة. كان مشهداً خلفياً مثالياً في البرونكس: سياجات خشبية، عواميد لتعليق الملابس، حبال غسيل، بقع عشبية جرباء، سلسلة بيوت سكنية متلاصقة، سلالم النجاة، وما إلى هنالك. الأشكال تروح وتجيء أمام النافذة وهي ترتدي جميع أنواع الملابس. تستعد للقيام بأعمالها المملة التي لا تحمل أي معنى في الغد. لعل واحداً من أصل مائة ألف سينجو من المصير العام. أما الباقون، فإذا دخل أحدهم ليلاً وحز حناجرهم وهم نيام فسيكون رحيماً بهم. إن الاعتقاد بأن هؤلاء الضحايا التعسين سيخلقون عالماً جديداً ما هو إلا جنون محض. فكرت بزوجة كرونسكي الثانية، التي ستفقد صوابها في نهاية الأمر. كانت تجمع بين هذه الأنواع كلها. فقد كان أبوها يدير مخزنا للقرطاسية، والأم ممددة على السرير تعالج طوال اليوم سرطان رحمها. وكان أخوها الصغير مصاباً بمرض النوم، والآخر مشلول، والأخ الأكبر متخلف عقلياً. حالة مرتبة بذكاء تضع العائلة كلها في حالة غير صالحة للعمل وكذلك البيت.

بصقت من النافذة باشمئزاز.

كان كرونسكي يقف إلى جانبي، ويطوق بذراعه خصر مارا. «لماذا لا تقفز؟» قلت له ورميت قبعتي من النافذة.

«ماذا، وأوسّخ الأرض ليقوم الجيران بتنظيفها؟ لا يا سيدي، إن من كان مثلي لا يفعل ذلك. يا سيد ميلر، يبدو لي أنك أنت الذي يجب أن تنتحر. لماذا لا تقفز؟».

قلت: «أنا مستعد، شريطة أن تقفز معي. دعني أريك كم هو سهل. هيا أعطني يدك».

فقالت مارا: «كفى، توقفا عن ذلك! إنكما تتصرفان كطفلين. ظننت أنكما ستساعداني في حل مشكلتي. فأنا لدي هموم حقيقية».

فقال كرونسكي باكتئاب: «لا توجد حلول، من المحال مساعدة أبيك لأنه لا يريد المساعدة. إنه يريد أن يموت».

قالت مارا: «لكني أريد أن أعيش، أرفض أن أكون خادمة كادحة».

«هذا ما يقوله الجميع، لكن ذلك لا يفيد. إلى أن نسقط هذا النظام الرأسمالي المتعفن فلن يكون هناك حل».

قاطعته مارا: «كل ذلك هراء، هل تظن أني سأنتظر الثورة حتى أعيش حياتي؟ يجب عمل شيء ما الآن. إذا لم أتمكن من حلها بأي طريقة أخرى فسأصبح عاهرة ـ عاهرة ذكية بالطبع».

فقال كرونسكي: «لا توجد عاهرة ذكية، إن عهر الجسد دليل على ضعف الذكاء. لماذا لا تستخدمين عقلك؟ سيكون لديك فرصة أفضل إذا أصبحت جاسوسة. الآن هذا شيء مثالي! أظن أنه يمكنني أن أجد لك شيئاً شبيهاً بذلك. لدي بعض الصلات الممتازة في الحزب. بالطبع، يجب أن تتخلي عن فكرة العيش مع هذا الطير»، وأشار بإبهامه إليّ. «لكن فتاة جميلة مثلك»، وراح يحدق فيها من رأسها حتى أخمص قدمها، «يمكنها أن تنال حظها. تودين أن تعملي ككونتيسة أو أميرة؟ مائة دولار في الأسبوع وجميع النفقات مدفوعة... ليس بالأمر السيء على الإطلاق؟».

قالت مارا: «لكنني أربح أكثر من ذلك الآن، دون أن أجازف بأن أصاب بطلقة واحدة».

«ماذا؟» صاح كلانا على الفور.

ضحكت وقالت: «تظنان أن ذلك قدر كبير من المال؟ إني أحتاج إلى أكثر من ذلك. لو أردت لأمكنني أن أتزوج مليونيراً في الغد، لديّ الآن عدة عروض».

قال كرونسكي: «لماذا لا تتزوجين واحداً وتطلقينه بسرعة، يمكنك أن تتزوجي واحداً بعد الآخر وتصبحين مليونيرة. أين عقلك؟ لا تقولي لي إن ضميرك لا يسمح لك بمثل هذه الأشياء؟».

لم تعرف مارا كيف تجيبه. كل ما خطر ببالها أن تقول إنه من البذاءة أن تتزوج عجوزاً وهو على حافة قبره من أجل نقوده.

قال باحتقار: «وتظنين أنه يمكن أن تكوني عاهرة! إنك سيئة مثل هذا الشخص هنا ـ لقد أفسدته الأخلاقيات البرجوازية. اسمعي، لماذا لا تدربينه كي يصبح قواداً لك؟ ستصبحان شخصين رومانسيين جميلين في عالم الجنس السري. افعلي ذلك! لربما أحضرت لكما بعض الزبائن من حين لآخر».

قلت له وعلى وجهي تلك الابتسامة المملة اللطيفة: «دكتور كرونسكي، أظن أننا سنستأذنك في الانصراف الآن. وأؤكد لك أنها كانت أجمل وأمتع أمسية وأكثرها إفادة. وعندما تصاب مارا بالزهري سأزورك للحصول على خدماتك الخبيرة. أظن أنك حللت جميع مشاكلنا بطريقة رائعة. عندما ترسل زوجتك إلى مستشفى المجانين تعال وامضِ بعض الوقت معنا ـ سيكون من الممتع أن تكون معنا، إنك ملهم ومسلي على أقل تقدير».

توسل إليها: «لا تذهبي الآن، أريد أن أتحدث إليك بجدية»، والتفت إلى مارا. «كم تحتاجين الآن؟ يمكنني أن أقرضك ثلاثمائة دولار، إذا كان ذلك سيساعدك. يجب أن أعيدها بعد ستة أشهر، لأنها ليست لي. اسمعي، لا تذهبي الآن. دعيه يذهب فأنا أريد أن أخبرك بعض الأشياء».

نظرت إليّ مارا وكأنها تسألني إن كان ذلك مجرد كلام.

قال كرونسكي: «لا تطلبي نصيحته، أنا صادق معك. لأنني أحبك وأريد أن أفعل شيئاً من أجلك». والتفت إليّ بفظاظة وقال: «هيا اذهب، اذهب إلى البيت، هيا؟ فلن أغتصبها».

سألتها: «هل أذهب؟».

قالت مارا: «نعم، أرجوك، لماذا انتظر الأبله طوال هذا الوقت ليقول ذلك؟».

انتابتني شكوك في الثلاثمائة الدولار لكني غادرت على أي حال. في المترو، رأيت نفسي وجها لوجه مع الركاب الليليين المحطمين في هذه المدينة الكبيرة، وغصت في تأمل عميق للنفس، كما يفعل البطل في الروايات الحديثة. ومثله، سألت نفسي أسئلة لا فائدة منها، تخيلت مشاكل لا وجود لها، وضعت خططاً للمستقبل لن تتحقق أبداً، شككت في كل شيء، حتى بوجودي. لأن الفكر بالنسبة للبطل الحديث لا يفضي إلى شيء، ودماغه عبارة عن مصفاة يقوم من خلالها بغسل خضار العقل المنقوعة. يقول لنفسه إنه عاشق ويجلس في المترو المتحرك محاولاً الجري مثل بالوعة. إنه يخدع نفسه بأفكار جميلة. ولعله الآن يجثو على الأرض، يجوس بيديه على ركبتيها، ويمرر كفه الحيوانية المتعرقة ببطء إلى الأعلى فوق اللحم البارد: ويقول لها بلغة لزجة إنه لا يوجد لها مثيل، لا توجد هناك ثلاثمائة دولار لكنه سيحاول الحصول عليها. ولو تمكن من جعلها تفتح ساقيها أكثر قليلاً، سيحاول أن يستدين مبلغاً ما. وهي تقول لنفسها إنها لا تخدع أحداً لأنها حذرت الجميع بصراحة شديدة من أنها إذا أرادت أن تفعلها فستفعلها وأنها يجب أن تفعل شيئاً. ليساعدها الله، إنه أمر حقيقي جداً وعاجل جداً: إنها تستطيع أن تتجاوز ذلك بسهولة لأنه لا يعرف أحد كم مرة ضاجعت لقاء دريهمات قليلة، لديها عذر جيد، فهي لا تريد أن يموت أبوها ميتة الكلاب. هل سيثيرها طوال الليل؟ تأخذ رأسه بين يديها وتمرر أصابعها في شعره الدهني، يقبلّها بين ساقيها، تأتيها الرعشة،

تتلوى وتتلوى، تلهث، تشد شعره. أين أنت؟ تصرخ. آه! يحاول أن يفكر بشيئين في الوقت نفسه: الثلاثمائة دولار... ثلاثة أوراق مالية. من سيمنحني هذا المبلغ؟ يا إلهي، إن هذا رائع.

فتح بطلنا عينيه وعاد إلى نفسه ثانية ـ بعبارة أخرى، الرجل الذي يعرف أنه أنا، فمن يرفض أن يصدق ما يقوله له عقله. لعلهما منهمكين الآن في حديث طويل، أقول لنفسي، وأنا أسدل الستارة على المشهد البديل. لا أظن أنها ستترك حيواناً متعرقاً يغلفه الدهن أن يلمسها. لعله حاول أن يقبلها لكنها تعرف كيف تتدبر نفسها جيداً. أتساءل إن كانت مود ما تزال مستيقظة؟ أشعر بالانتصاب. وفيما كنت أسير نحو البيت، رحت أفكر بفرج مود. بالتأكيد فهي تستطيع أن تضاجع عندما تكون رائقة المزاج. كانت نصف نائمة. ممددة هناك بهدوء لاطية كالملعقة. أدخلت المفتاح في القفل ودفعت البوابة الحديدية. يجب أن أتسلل إليها، وأن أولجه فيها وهي تحلم. صعدت إلى الطابق العلوي بهدوء وخلعت ثيابي. استطعت أن أسمعها وهي تتقلب على السرير، تستعد في نومها لتدير مؤخرتها الدافئة نحوي. أنسللت في السرير وتكوّرت خلفها. تظاهرت بأنها ميتة خارج العالم. ليس بهذه السرعة وإلا استيقظت. يجب أن أفعلها لها متظاهراً بأني نائم وإلا فإنها ستشعر بالإهانة. كانت مستلقية ساكنة تماماً. إنها تريده، تلك العاهرة، لكنها لا تعترف بذلك. حسناً، ألعب لعبة الكلب الميت! حركتها قليلاً، قليلاً فقط. استجابت كجذع يغمره الماء. ستستلقي ثقيلة هكذا وتتظاهر بأنها نائمة. نعم، أولجت نصفه فيها. يجب أن أديرها كرافعة، لكنها أخذت تتحرك. من الرائع أن تضاجع زوجتك وكأنها حصان ميت. فأنت تعرف كل تجعيدة وثنية في بطانتها الحريرية، يمكنك أن تأخذ وقتك وتفكر بأي شيء تحب. إن الجسد جسدها ولكن فرجها لك. فالفرج والذكر زوجان، ومهما كانا متوافقين فالجسدان يتجهان في طريقين مختلفين. وفي الصباح سيواجه الجسدان بعضهما، سيتصرفان كما لو كانا مستقلين. برؤوس أصابعي رحت أحركها كما أشاء. قذفت

فيها وتركته فيها. كانت تفتح وتغلق كزهرة. إنها معاناة، لكنها المعاناة الحقيقية. الزهرة تقول: ابق هناك، تتحدث الزهرة كإسفنجة ثملة. تقول الزهرة: آخذ قطعة اللحم هذه أتغذى عليها حتى أستيقظ. وماذا يقول الجسد، الرافعة المستقلة تسير على كرات محمل؟ الجسد مجروح ومهان. الجسد فقد اسمه وعنوانه مؤقتاً. يريد الجسد أن يقطع القضيب ويحتفظ به كما يفعل الكنغر إلى الأبد. مود ليست ذلك الجسد، وهي تستلقي ومؤخرتها متجهة إلى الأعلى، أما الضحية فهي الخرطوم المطاطي الذي لا حول له ولا قوة.

4

في مساء اليوم التالي زارني صديقي القديم ستانلي. مود تمقت ستانلي، ولها أسبابها في ذلك، لأنه في كل مرة ينظر إليها كان يلعنها في سره، وكانت نظراته تنم عن القول بصراحة «لو كانت هذه الكلبة في بيتي لأخذت الفأس وقطعتها إرباً». فقد كان يضمر لها كراهية عمياء. وكان يبدو الآن نحيفاً مثل سلك معدني كما كان عندما خرج من سلاح الفرسان منذ سنوات في حصن أوغليثورب. وكان ستانلي يبحث دائماً عن شيء ليقتله. ولو تمكنّ مني لقتلني، أنا الذي اعتبر أخلص أصدقائه. كان يكره العالم، مفعماً بالكراهية والثأر. ولم يكن سبب زيارته لي الآن إلا ليتأكد من إني لم أكن أحرز أي تقدم يذكر، بل أغوص في وحل المشاكل أكثر وأكثر. وكان يقول لي: «إنك لن تحرز تقدماً في شيء، أنت مثلي ـ ضعيف، ولا يوجد لديك طموح»، ويضيف، «إن ما يجمعنا هو الطموح المشترك: الكتابة. فقد كان لدينا أمل أكبر منذ خمس عشرة سنة، عندما كان أحدنا يكتب رسائل إلى الآخر». لقد كان حصن أوغليثورب مكاناً يلائم ستانلي كثيراً، إذ جعله سكيراً، مقامراً، لصاً، مما جعل رسائله مثيرة للاهتمام. ولم تكن هذه الرسائل تتحدث عن حياة الجيش، بل عن الكتّاب الغربيين والرومانسيين الذين حاول تقليدهم في كتابته. ولم يعد ستانلي إلى الشمال، فقد كان يتعين عليه أن ينزل من القطار في تشيكاماوغا، ويلف نفسه بورق التبغ وروث البقر ويتزوج امرأة هندية هناك. لكنه اتجه شمالاً إلى الحانوتي، ووجد لنفسه فتاة

بولندية بدينة ذات مبايض خصبة، وأنجب ذرية من البولنديين الصغار، وحاول دون جدوى أن يكتب وهو واقف وراء المغسلة في المطبخ. وقلما كان ستانلي يتحدث عن شيء في الحاضر، بل كان يفضل أن ينسج قصصاً مدهشة عن رجال كان يحبهم ويعجب بهم في الجيش.

لقد كان ستانلي يتمتع بجميع مزايا البولنديين السيئة. إذ كان عقيماً، لاذعاً، عنيفاً، كريماً بطريقة مزيفة، رومانسياً كعاطل مأجور، وفيّاً كغبي وخائناً حتى الصميم. والأهم من ذلك، كان ببساطة يهترئ غيرة وحسداً.

بعد ليلتين كنت معكر المزاج. كنت مستلقياً على الأريكة في الظلام، أفكاري تنتقل بسرعة من مارا إلى الحياة العقيمة والسيئة في شركة البرق. جاءت مود لتقول لي شيئاً وارتكبت خطأ عندما مررت يدي بشكل عفوي فوق فستانها فيما كانت واقفة تتذمر من شيء أو آخر. فابتعدت عني وهي تشعر بالإهانة. لم أكن أفكر في مضاجعتها - بل بدر مني ذلك بشكل طبيعي، تماماً كما تمسّد شعر قطة. فعندما تكون مستيقظة لا يمكنك أن تمسها بهذه الطريقة. ولم تكن ترضى أبداً أن أضاجعها بهذه الطريقة. ففي رأيها أن المضاجعة والحب متلازمان: ربما الحب الجسدي. فقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر منذ أن عرفتها لأول مرة، عندما كنت أجعلها تدور على طرف ذكري وهي جالسة على كرسي البيانو. والآن تتصرف كطباخ يعد قائمة من الأطعمة الصعبة. كانت تقرر ذلك على نحو متعمد، تجعلني أعرف بطريقتها المكبوتة الماكرة، أن الوقت حان لعمل ذلك. لعلها لهذا السبب جاءت منذ لحظات، رغم أن الأمر بدا غريباً بالطريقة التي أخذت تتوسل من أجلها. على كل حال، لم أكن أبالي بذلك سواء أرادت أم لم ترد. تذكرت سبيفاك الذي كان يراقب تحركاتي كصقر خلال الأيام القليلة الماضية. فقد تركزت كراهيتي للحياة داخل شركة البرق في كراهيتي له. كان يمثّل لي تلك

الشركة الملعونة شخصياً. يجب عليّ أن أزيله من الوجود قبل أن يطردوني. ورحت أفكر كيف يمكنني أن أستدرجه إلى رصيف الميناء في الظلام، وأجعل أحد أصدقائي المخلصين يدفعه إلى الماء. فكرت بستانلي، الذي يحب أن يقوم بهذه المهمة...

أتساءل إلى متى سيبقيني هذا الشخص قلقاً ومتوتراً بهذا الشكل؟ وكيف يمكنني أن أتخلص منه؟ أرى مارا قادمة للقائي في المحطة. سنبدأ حياة جديدة معاً! ما نوع الحياة التي لم أجرؤ على التفكير بها. لعل كرونسكي يتمكن من اقتراض ثلاثمائة دولار أخرى. ولا بد أن يفيد أصحاب الملايين الذين تحدث عنهم في شيء. بدأت أفكر بالآلاف ـ ألف لزوجها العجوز، ألف لنفقات السفر، ألف تكفينا لبضعة شهور. إذا ذهبنا إلى تكساس، أو إلى مكان مهجور آخر كهذا، ستزداد ثقتي بنفسي. سأتوقف في مكاتب الصحف معها ـ إذ كانت تعطي دائماً انطباعاً جيداً ـ وسأطلب إذناً بكتابة مقال. سأزور رجال الأعمال وأريهم كيف يكتبون إعلاناتهم. وأنا على ثقة من أني سأقابل شخصاً ودوداً في رواق أحد الفنادق، يمنحني الفرصة. البلد كبير جداً، وهناك الكثير من الأشخاص الوحيدين، الكثير من الأرواح الكريمة المستعدة للعطاء. يا ليتني التقي بالشخص الملائم، سأكون مخلصاً وصريحاً. لنقل إني ذهبت إلى الميسيسيبي، في أحد الفنادق المتداعية القديمة. رجل يخرج من الظلمة ويمشي نحوي ويسألني عن صحتي. شخص يتوق إلى قليل من الدردشة. أقدمه إلى مارا. ثم نتسكع في الخارج يداً بيد ونتمشى في ضوء القمر، الأشجار تخنقها النباتات المتسلقة، أشجار المنغوليا تتعفن على الأرض، الهواء خانق ورطب، يجعل الأشياء تتعفن وكذلك الرجال. سأكون بالنسبة له نسيماً عليلاً قادماً من الشمال. سأكون مخلصاً وصادقاً ومتواضعاً تقريباً. أكشف أوراقي على الفور، هكذا إذن. إني أحب هذا المكان، وأريد أن أبقى هنا طوال حياتي. إن ذلك سيثير فزعه قليلاً، لأنه لا يجب أن يبدأ في التحدث عن ذلك بهذا الأسلوب وبهذه الصراحة إلى شخص من

الجنوب. ماذا تريد أن تفعل؟ ثم سأتكلم مرة أخرى بلطف، كمزمار ذي إسفنجة مبللة تسد فتحته. أيها السيد، أنا لا أحب البرد. لا يا سيدي! أريد أن أقوم بعمل صادق، أي شيء يبقيني على قيد الحياة. هل يمكنني أن أتحدث بصراحة؟ لا تظن إني معتوه؟ نحن نعيش وحيدين هناك في الشمال. نعم يا سيدي، نشعر بالاكتئاب والخوف والوحدة. نعيش في غرف صغيرة، نأكل بالشوكة والسكين، نحمل ساعات، حبوب للكبد، فتات خبز، نقانق. لا نعرف أين نحن هناك، بصدق يا سيدي. إننا خائفون حتى من الموت، سنقول شيئاً، شيئاً حقيقياً. لا تنم... ليس حقاً. صلي طوال الليل لكي ينتهي العالم. إننا لا نؤمن بأي شيء: إننا نكره الجميع، يسمم أحدنا الآخر. كل شيء ضيق وصلب جداً، لقد ثبت كل شيء بالحديد الحار القاسي. لا نفعل شيئاً بأيدينا. نبيع. نشتري ونبيع. نشتري ونبيع، هذا كل ما في الأمر يا سيدي...

أتخيل الرجل المحترم العجوز بوضوح وهو واقف تحت شجرة متدلية ينظف حاجبه المحموم. لا يهرب مني كما فعل الآخرون. لن أتركه. كان كل شيء حقيقياً بحيث شعرت أنه يجب أن أخبر مارا عنه مباشرة. ذهبت إلى المطبخ وبدأت في كتابة رسالة. «عزيزتي مارا ـ لقد حلت جميع مشاكلنا...». وتابعت كما لو أن كل شيء كان واضحاً ومحدداً. بدت لي مارا مختلفة الآن. أرى نفسي واقفاً تحت الأشجار الكبيرة أتحدث إليها بطريقة أثارت دهشتي. كنا نمشي بين الأعشاب الغليظة وذراعي مشبوكة في ذراعها، نتحدث كما يتحدث البشر. وكان القمر بدراً أصفر كبيراً يتوسد كبد السماء والكلاب تلاحقنا. وبدا لي أننا تزوجنا والدم يجري عميقاً بيننا. وكانت تتوق للحصول على بجعات لتعوم في البحيرة الصغيرة وراء البيت. لا حديث عن المال، لا أضواء نيون. كم هو رائع أن يتنفس المرء بشكل طبيعي، ألا يكون مستعجلاً أبداً، لا يصل إلى أي مكان، لا يفعل شيئاً مهماً إطلاقاً ـ سوى أن يحيا! وكانت هي تفكر بذلك أيضاً. لقد تغيّرت مارا. أصبح جسدها أكثر امتلاء، أثقل، تتحرك

ببطء، تتحدث بهدوء، أصبحت تلوذ بالصمت لفترات طويلة. لو هامت بنفسها لتأكدت أنها ستعود دون أن تتغير، تفوح منها رائحة عطرة، تمشي بخطى واثقة...

«هل فهمت يا مارا؟ هل ترين كيف سيكون الأمر؟».

أفصح عن كل شيء بصدق، أكاد أبكي باستغراب تام، عندما أسمع مود تهذر عبر القاعة. أجمع الأغطية وأطويها. أضع قبضة يدي فوقها وأنتظر أن تفوه بأي شيء.

«إلى من تكتب؟» سألت بهذه الطريقة المباشرة والواثقة.

«إلى أحد معارفي»، أجبت بهدوء.

«امرأة على ما أظن».

«نعم، امرأة، وبدقة أكبر فتاة»، قلت لها عابساً وبجدية، وتصورتها تحت الأشجار الكبيرة، والبجعتان تعومان على غير هدى في البحيرة الهادئة. قلت لها إذا أردت أن تعرفي فسأقول لك. لا أرى سبباً يدعوني للكذب أكثر من ذلك. إني لا أكرهك، كما كنت أكرهك من قبل. لا أريد أن أجرحك. إن كل ما أريده هو أن تتركيني أكون أنا نفسي.

«إنك تحبها. لست بحاجة لأن ترد ـ أعرف أن الأمر كذلك».

«نعم، هذا صحيح ـ فأنا أحب. لقد وجدت الشخص الذي أحبه حقاً».

«لعلك ستعاملها بطريقة أفضل مما كنت تعاملني».

«آمل ذلك»، قلت، محافظا على هدوئي، متمنياً أن تسمعني حتى النهاية». لم يحب أحدنا الآخر حقاً، «إنها الحقيقة يا مود، أليس كذلك؟».

أجابت: «لم تكنّ لي احتراما أبداً ـ كإنسان، إنك تجرح مشاعري أمام أصدقائك وتخرج مع نساء أخريات، حتى إنك لا تبدي أي اهتمام بطفلتك».

«مود، أريد مرة واحدة فقط ألا تتحدثي بهذه الطريقة. أرجو أن نتحدث بدون مرارة».

«إنك تستطيع ـ لأنك سعيد. لقد وجدت لعبة جديدة».

«ليس الأمر كذلك يا مود. اسمعي، لنفترض أن كل الأشياء التي تقولينها صحيحة ـ ما الفرق الآن؟ لنفترض أننا كنا في قارب وأخذ يغرق...».

«لا أرى لماذا يجب أن نفترض أشياء. إنك ستعاشر شخصاً آخر وتترك لي الشقاء كله، والمسؤوليات كلها».

قلت وأنا أنظر إليها برقة بالغة: «أعرف، أريدك أن تغفري لي ذلك ـ هل يمكنك ذلك؟ ما فائدة الكلام؟ حتى إننا لم نتعلم قط أن يحب أحدنا الآخر. ألا يمكننا أن نفترق كأصدقاء؟ لا أقصد أن أخذلك. سأحاول أن أفعل ما عليّ ـ إني أعني ما أقول».

«الكلام سهل. أنت تعِد دائماً بأشياء لا يمكنك أن تنجزها. ستنسانا في اللحظة التي تخرج فيها من هذا البيت. فأنا أعرفك. لا يمكنني أن أكون كريمة معك. لقد خدعتني بمرارة منذ البداية. إنك أناني، أناني جداً.لم أكن أظن أنه يمكن أن يصبح إنسان قاسياً جداً، بلا قلب، لا يعرف الرحمة إلى هذه الدرجة. أصبحت أتعرف عليك بصعوبة الآن. إنها المرة الأولى التي تتصرف فيها هكذا».

«مود، إن ما سأقوله قاس، لكن يجب أن أقوله. أريدك أن تفهمي شيئاً. لعلي يجب أن أفعل ذلك معك لكي أتعلم كيف أعامل المرأة. إنه ليس خطئي بالكامل ـ إن للقدر يداً في ذلك أيضاً. ففي اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليها عرفت...».

«أين التقيت بها؟» سألت مود، وأصبح فضولها الأنثوي يستحوذ عليها.

«في المرقص. إنها جليسة رجال. هذا يبدو سيئاً، أعرف. لكنك إذا رأيتها...».

«لا أريد أن أراها. لا أريد أن أسمع المزيد عنها. أنا فقط أتساءل». ورمتني بنظرة سريعة مليئة بالشفقة وأضافت: «وتظن أنها المرأة التي ستجعلك سعيداً؟».

«تدعينها امرأة ـ إنها ليست امرأة، إنها مجرد فتاة شابة».

«هذا أسوأ. أوه، يالك من غبي!».

«مود، ليس الأمر كما تظنين، أبداً. يجب ألا تحكمي على الأمور بهذه الطريقة. كيف يمكنك أن تدّعي أنك تعرفين؟ وعلى أي حال فأنا لا أبالي. لقد اتخذت قراري».

عند ذلك خفضت رأسها. بدت حزينة ومرهقة بشكل لا يصدق كجسد إنساني مدلى من خطاف لتعليق اللحم.أطرقت برأسي إلى الأسفل، ولم أتحمل أن أرى وجهها.

جلسنا هكذا بضع دقائق، لا يجرؤ أحدنا أن يرفع نظره. سمعت شهقة وعندما رفعت عيني، رأيت وجهها يرتعش من الألم. وضعت ذراعيها على الطاولة، وهي تبكي وتنشج، ثم أسندت وجهها على الطاولة وراحت تضغطه. كنت قد راقبتها مرات عديدة وهي تبكي إلا أن بكاءها هذه المرة كان الأفظع، من النوع الذي لا يقاوم الاستسلام. لقد أثار ذلك حنقي. وقفت وراءها ووضعت يدي على كتفها. حاولت أن أقول لها شيئاً، لكن الكلمات توقفت في حنجرتي. وبما أني لم أعرف ما سأقوله لها، رحت أمسد شعرها بيدي، أداعبه بشيء من الحزن والجفاء أيضاً، كما لو كان رأس حيوان غريب مجروح عثرت عليه في الظلام.

«هيا هيا» حاولت أن أهمهم، «هذا لن يفيد في شيء».

تضاعف نشجها. عرفت أني أخطأت في كلامي. لا أعرف ماذا سأفعل. فمهما فعلت ـ حتى لو أرادت أن تقتل نفسها فلن يكون بوسعي أن أغيّر من الوضع شيئاً. لقد توقعت أن تذرف الدموع، كما كنت شبه متوقع من أن أفعل ذلك ـ أمسد شعرها وهي تبكي. لقد كان

كل تركيزي منصباً على الهدف. كم تمنيّت أن أتمكن من التغلب على هذا الوضع، وتذهب لتنام وأجلس لأكمل الرسالة. بإمكاني أن أضيف حاشية عن التئام الجرح. بإمكاني أن أقول بمتعة صادقة ومزيج من الحزن «لقد انتهى الأمر».

كان ذلك ما يجول في خاطري وأنا أمسد شعرها. لم أكن بعيداً عنها. وبينما كنت أشعر بخلجات جسدها انتابني السرور أيضاً عندما خطر لي أنها ستصبح هادئة بعد أسبوع عندما أكون قد ذهبت. قلت لها: «ستشعرين بأنك أصبحت امرأة جديدة، والآن ستتغلبين على كل هذا العذاب. إنك محقة وهو أمر طبيعي، ولا ألومك على ذلك!». كان يجب أن أهزها لتحديد الفكرة، لأنها في تلك اللحظة انتصبت في جلستها فجأة وراحت تنظر إليّ بعينين وحشيتين، يائستين، مغرورقتين بالدموع، ثم ألقت بذراعيها حولي وشدتني إليها وغبنا في عناق عاطفي محموم. «لن تتركني الآن، أليس كذلك؟» نشجت، وراحت تقبلني بشفتيها النهمتين المالحتين. «طوقني بذراعيك، أرجوك. ضمني إليك. يا إلهي، أشعر بالضياع التام!» كانت تقبلني بحرارة وشوق شديدين لم أشعر بهما من قبل. لقد وضعت فيها جسدها وروحها - وكل الحزن الذي حال بيننا. انسلت يدي تحت إبطيها ورفعتها برقة واستوت واقفة على قدميها. كنا قريبين من بعضنا كما يمكن أن يكون الحبيبان، نتمايل كما يمكن لحيوانين بشريين أن يتمايلان، ونتهدهد كما يحدث عندما يستسلم أحدهما للآخر. انفتح ثوبها الفضفاض وكانت عارية تحته. انسلت يدي أسفل ظهرها وجثمت فوق ردفيها الممتلئين، وحشرت أصابعي عميقاً في الشق الكبير، ورحت أشدها إليّ، أمضغ شفتيها، أعضعض شحمة أذنيها، رقبتها، ألعق عينيها، جذور شعرها. استرخت وأصبحت ثقيلة، أغمضت عينيها، أغلقت عقلها. استرخت كما لو أنها ستهوي على الأرض. رفعتها وحملتها عبر الصالة، وصعدت بها الدرجات إلى الغرفة المجاورة وألقيتها على السرير. ارتميت فوقها، وراحت تنزع عني ملابسي. استلقيت على ظهري مثل

رجل ميت، ولم يكن ثمة شيء ينبض بالحياة فيّ سوى قضيبي. أحسست بفمها يطبق فوقه، والجورب في قدمي اليسرى ينزلق ببطء. مررت أصابعي في شعرها الطويل، ثم انزلقت تحت صدرها، وكوّرت سلة خبزها الناعمة اللدنة. راحت تناور في الظلمة. ألقت ساقيها على كتفي والتصق شعابها بشفتيّ. جعلت مؤخرتها فوق وجهي، كما يحدث عندما ترفع دلو الحليب لتروي عطشك، وشربت ومضغت والتهمت مثل أبله. كانت في غاية الهياج. ثم كانت عملية سريعة ونظيفة ـ لا دموع، لا كلمات حب، لا وعد بهذا أو بذاك. ضاجعني! كان ذلك كل ما كانت تطلبه. تعمدت أن أمارس الحب معها بحميمية وهياج شديدين. فلعلها آخر مرة أمارس فيها الحب معها. إذ أصبحت للتو غريبة عني. كنا نزني، ذلك النوع من الزنا العاطفي الذي يحلو للتوراة أن تتحدث عنه. أبراهام ولج ساراه أو ليندرا وهو يعرفهما. (وضعت هذه الكلمات بحروف مائلة بشكل غريب في النسخة الإنكليزية من التوراة) إلا أن الطريقة التي كان يعامل فيها البطاركة القدماء المستشارون زوجاتهم الشابات والمسنات، وأخواتهم، وأبقارهم وأغنامهم، تدل على أنهم كانوا يعرفون الأمور الدنيوية معرفة جيدة. لابد أنهم كانوا طائشين بكل مكر ومهارة الفاسقين العجائز. شعرت وكأن إسحاق يضاجع أرنباً في الهيكل. لقد كان أرنباً أبيض ذا أذنين طويلتين. وكان يحتوي في داخله على بيضات عيد الفصح التي راحت تتساقط في سلة الواحدة تلو الأخرى. أتأمل داخلها بعمق، أدرس كل بقعة فيها، كل شق ودمعة، كل طية ناعمة، كل نتوء مستدير طري تورم حتى أصبح بحجم محارة منكمشة. تحركت قليلاً لتستريح، إنها تقرأه كما تقرأ لغة بريل بأصابعها الفضولية. تجثو على أربع كأنثى الحيوان، ترتعش وتتأوه بمتعة لا لبس فيها. إني أعرفها وهي تعرفني. سيأتي الربيع والصيف والشتاء ثانية، وستذوب بين ذراعي شخص آخر، وستستلم له بشكل أعمى. ستتأوه وتفحّ، ولكن ليس معي. لقد قمت بواجبي، منحتها طقوس الموت. أغمضت عيني ولعبت دور

الميت عن العالم. نعم، يجب أن نتعلم أن نعيش حياة جديدة، مارا وأنا. يجب أن أنهض مبكراً وأخفي الرسالة في جيب معطفي. غريب أحياناً كيف تنتهي إليها الأمور. تظن دائماً أنك ستكتب الكلمة الأخيرة في سجل الحسابات بمتعة فائقة. لا تفكر بالإنسان الآلي الذي يغلق الحساب وأنت تغط بالنوم. إنه من النوع الأكثر صرامة في تدقيق الحسابات.

الفأس يهوي. التأمل الأخير. قطار شهر العسل السريع والجميع على متن القطار الذي يمر بمدن ممفيس، تشاتانوا، وناشفيل، وتشيكاماوغا. يمر عبر حقول القطن المكسوة بالثلج... التماسيح تتثاءب في المياه الموحلة... آخر ثمرة مشمش تتعفن فوق العشب... القمر أصبح بدراً، والخندق عميق، والأرض سوداء سوداء، سوداء.

5

كان صباح اليوم التالي أشبه باليوم الذي يلي العاصفة ـ تناول الإفطار كالمعتاد، اندفاع إلى محطة المترو، وعد بأن أصحبها إلى أحد الأفلام بعد العشاء. لعله كان مجرد حلم سيء بالنسبة لها، وكان من الأفضل أن أجعلها تنساه أثناء النهار. أما بالنسبة لي فكان ذلك خطوة نحو الخلاص. لم يثر أحدنا الموضوع ثانية أبداً. لكنه كان ماثلاً طوال الوقت مما جعل الأمور أسهل بيننا. لا أعرف بماذا كانت تفكر، إلا أن تفكيري كان واضحاً ومحدداً. وفي كل مرة كنت أوافق على أحد طلباتها كنت أقول لنفسي: «حسناً، هل هذا هو كل ما تريدين مني؟ سأفعل أي شيء تحبين ولن أجعلك تتوهمين بأني سأعيش بقية حياتي معك».

كانت تنحو للتساهل مع نفسها أكثر عندما كانت تريد أن تشبع طبيعتها البهيمية. كنت أتساءل غالباً ماذا كانت تقول لنفسها عندما تتذرع بالأعذار للنوبات التي كانت تنتابها قبل هذا الزواج غير المتكافئ أو بعده. من المؤكد أنها وضعت فيه كل جوارحها. فقد أصبحت قدرتها على المضاجعة الآن أفضل مما كانت عليه في السابق عندما كانت تضع وسادة تحت مؤخرتها وتحاول تقبيل السقف. أصبحت تضاجع باستماتة وعنفوان، على ما أظن.

مرّ أسبوع لم أر فيه مارا. وطلبت مني مود أن أصطحبها إلى المسرح في نيويورك، مسرح يقع قبالة المرقص. جلست خلال

العرض أفكر بمارا وهي قريبة جداً وبعيدة جداً. فكرت فيها بإلحاح وبدون توقف بحيث أطلقت العنان لنفسي ونحن نغادر المسرح. قلت لها وأنا أشير إلى المرقص: «ما رأيك في أن نذهب إلى هناك ونراها؟». كان قولي ذلك شيئاً قاسياً وأشفقت عليها ما أن نطقت بكلماتي. نظرت اليّ مود، كما لو أني وجهت إليها ضربة بقبضة يدي. اعتذرت على الفور، وأمسكتها من ذراعها، وقدتها بسرعة في الاتجاه المعاكس، وقلت وأنا أفعل ذلك «كانت مجرد فكرة. لم أقصد أن أزعجك. ظننت أنك قد تكونين فضولية، هذا كل ما في الأمر». لم تحر جواباً. ولم أبذل أي جهد آخر لأهدئ الأمر. في المترو انسلت ذراعها في ذراعي وتركتها هناك، كأنها تريد أن تقول ـ «فهمت، كنت غير لبق وطائش كعادتك». في الطريق إلى البيت توقفنا عند بائع المثلجات المفضلة لديها، وعلى صحن المثلجات الفرنسية المولعة بها، راحت تتحدث عن أمور منزلية تافهة، مما يدل على أنها نسيت ذلك الأمر. كان للمثلجات الفرنسية، التي كانت تعتبرها من ضروب الرفاهية، مع نكأِ جرح جديد، تأثير في جعلها تميل لممارسة الحب. فبدل أن تخلع ثيابها في غرفة النوم في الطابق العلوي، كما كانت تفعل دائماً، ذهبت إلى الحمام المجاور للمطبخ، وتركت الباب مفتوحاً، وخلعت ثيابها قطعة قطعة، ببطء وبهدوء وبتمعن كما تفعل راقصات التعري، ثم نادتني فيما كانت تمشط شعرها لتريني علامة زرقاء على فخذها. كانت تقف عارية هناك ما عدا حذائها وجوربها، وشعرها المنسدل على ظهرها.

رحت أتفحص العلامة الزرقاء بعناية، وبما أني كنت أعرف ما كانت تريدني أن أفعله، رحت ألمسها برقة هنا وهناك لأرى إن كانت هناك بقع مؤلمة أخرى أغفلتها، وفي الوقت نفسه أبقيت النار متأججة، وأخذت أسألها بصوت هادئ وثابت جعلها تتمكن من تحضير نفسها لمضاجعة ملتهبة دون أن تعترف بأن ذلك كان كل ما كانت تصبو إليه. فلو قلت لها، كما فعلت، بصوت الطبيب المحترف، الهادئ المملّ ـ «أظن أنه من الأفضل أن تستلقي على الطاولة في

المطبخ حيث يمكنني أن أفحصك على نحو أفضل» ـ لفعلت ذلك بدون مداورة، وباعدت بين ساقيها، وتركتني أولج إصبعاً فيها دون حرج، لأنها تذكرت الآن، وفي هذا الوقت بالذات، أنه منذ أن وقعت منذ مدة، يوجد ورم صغير في داخلها، على الأقل هكذا كانت تظن. وكان هذا النتوء يثير قلقها، وكانت تأمل أن تتمكن من تحديد مكانه إن أنا أولجت إصبعي هناك بلطف، وهكذا. ولم يبدُ أنها انزعجت على الإطلاق، عندما اقترحت عليها أن تستلقي هناك للحظة على الطاولة، فيما رحت أخلع ملابسي. وشعرت أن المطبخ بدأ يزداد حرارة، ونحن نقف بجانب الموقد المتوهج، وهكذا دواليك. وهكذا فقد خلعت ثيابي كلها ماعدا جوربي وحذائي، وبانتصاب يمكنه أن يخترق صحناً تقدمت نحوها وتابعت عملي. أو بالأحرى، أخذت أذكر بدوري الآن أشياء من الماضي، كالنتوءات، والكدمات والبقع والثآليل والوحمات، وما إلى ذلك، فتمنحني تلك النظرة الفاحصة ونحن نفعل ذلك، ثم نأوي إلى الفراش لأن الوقت أصبح متأخراً ولم أكن أريد أن اجعلها تشعر بالتعب.

الغريب أنها لم تكن متعبة على الإطلاق هذه المرة، قالت ذلك وهي تنزل من على الطاولة وهي تعصر انتصابي وخصيتي، بحركات ثابتة ورقيقة. بعد ذلك دفعها فضولها لترى كم أزيد طولاً عنها، لذا وقفنا في البداية ظهراً لظهر ثم بطناً لبطن، وعندما أخذ يقفز بين ساقيها كسهم ناري، تظاهرت بأنها لا تفكّر إلا بالأقدام والبوصات، وقالت إنها يجب أن تخلع حذاءها لأن كعبه عال، وما إلى هنالك. لذلك أجلستها على كرسي المطبخ، وببطء رحت أنزع حذاءها وجوربها، وفيما كنت أسدي لها هذه الخدمة بتأدب جم أخذت تمسد قضيبي بتأن وبتمعن، وهو أمر كان من الصعب أن تفعله وهي في هذه الوضعية، لكني شجعتها على أن تفعل ذلك فاقتربت منها ورفعت ساقيها في زاوية قائمة، ثم وبدون الكثير من الجلبة رفعتها من صلبها ودفعته فيها وحملتها إلى الغرفة الأخرى حيث ألقيتها على الأريكة، وولجتها مرة أخرى، وتابعنا ما كنا قد

بدأنا به بعزيمة راسخة، فراحت تفعل الشيء ذاته، وأخذت تتوسل بلغة صريحة غير عادية بأن أتماسك أكبر فترة ممكنة، وأن أبقيه هناك إلى الأبد، ثم استدركت وقالت انتظر لحظة، فاستلته منها، واستدارت، وجثت على ركبتيها، ودفنت وجهها في الأريكة، وراحت تهز مؤخرتها على نحو مسعور، وقالت بصوتها الذي أصبح يشبه الغرغرة بلغة إنكليزية صريحة ومكشوفة كي تسمعه أذناها «أولجه كله... أرجوك، أرجوك... إني استعر حرارة».

نعم، ففي بعض الأحيان كانت تخرج منها كلمة كهذه، كلمة سوقية كانت تجعلها تتكور بذعر وسخط عندما تكون في كامل وعيها، أما الآن، وبعد هذه المجاملات الصغيرة، وبعد قيامي بفحص فرجها بإصبعي، وبعد رفع الأثقال والمنافسة على المقاييس، وبعد مقارنة الكدمات والبقع والنتوءات وما إلى هنالك، وبعد مداعبة القضيب الخفيفة العرضية، وبعد المثلجات الفرنسية اللذيذة، والهفوة الطائشة خارج المسرح، كل هذا بالإضافة إلى ما كان يدور في مخيلتها منذ ذلك الاعتراف القاسي منذ بضع ليالي، فإن كلمة أستعر حرارة، كانت الكلمة المناسبة للدلالة على الفرن العالي للفولاذ، الذي أصبح فرجها اللاهب يشبهه، وكان ذلك يعني «مهما كنت خلال عصر هذا اليوم أو البارحة، ومهما كنت أفكّر الآن، أو مهما كنت أمقتك، ومهما كنت ستفعل غداً، أو بعد غد، فأنا الآن أريده، وأريد كل ما يلوذ به: كنت أتمنى لو كان أكبر حجماً، وأثخن وأطيب مذاقاً: كم أتمنى أن تقتلعه وتتركه هناك: لا يهمني كم امرأة ضاجعت، فإني أريدك أن تضاجعني، أولجه في فرجي، أولجه في مؤخرتي، إني شبقة الآن، هل تسمع؟ إني شبقة إلى حد أني قد ألتهمه، أدخله كله».

كنت عادة بعد هذا العراك أصحو مكتئباً. وأنظر إليها وهي في ثيابها وذلك التعبير اليومي المقذع المتجهم يحيط بفمها، وأتأملها على مائدة الطعام، بلا مبالاة، وبما أنه لم يكن يوجد شيء آخر أنظر

إليه، كنت أتساءل في بعض الأحيان، لماذا لا أصحبها في نزهة في مساء أحد الأيام وأدفعها من فوق رصيف الميناء. بدأت أتطلع كرجل غريق إلى ذلك الحل الذي وعدني به ستانلي، الذي لم تبدر منه أية إشارة حتى الآن، بأن يخلصني منها. ولأتوج ذلك كله كتبت رسالة إلى مارا أقول فيها إنه يجب أن نجد طريقة للخلاص قريباً وإلا فإني سأنتحر. لابد أنها كانت رسالة عاطفية لأنها عندما خابرتني قالت إنها تريد أن تراني على الفور. وبعد الغداء بقليل في أحد تلك الأيام المحمومة عندما بدأ كل شيء يسير في طريق الخطأ، كان المكتب مكتظاً بمقدمي الطلبات. وحتى لو كان لديّ خمسة ألسن وخمس أذرع وخمسة وعشرين هاتفاً بدلاً من ثلاثة أشخاص فقط تحت تصرفي، لما تمكنت من توظيف مقدمي الطلبات لملء الفراغ المفاجئ والمتعذر تفسيره الذي حدث بين عشية وضحاها. حاولت أن أؤجل مارا حتى المساء لكنها رفضت. وافقت على أن أقابلها لبضع دقائق في شقة أعطتني عنوانها، وقالت إنها شقة أحد أصدقائها في حي الفيليج حيث لن يزعجنا أحد.

تركت مجموعة من الرعاع من مقدمي الطلبات وهم يتعلقون بالدرابزين، وأنا أعد هيمي، الذي كان يخابر بشكل مسعور للحصول على «سعاة» بأني سأعود بعد بضع دقائق. قفزت في سيارة أجرة كانت تقف عند ناصية الشارع، وترجلت أمام محل لبيع الدمى عند مدخله حديقة صغيرة. جاءت مارا إلى الباب وهي ترتدي فستاناً بنفسجياً فاتحاً وكانت عارية تحته. طوقتني بذراعيها وراحت تقبّلني بحرارة.

قلت: «إنه عش صغير رائع»، وأبعدتها قليلاً لألقي نظرة أفضل على المكان.

قالت: «نعم، أليس كذلك؟ إنه يخص كاروثرس. إنه يقطن في أول الشارع مع زوجته، وهذه مجرد غرفة صغيرة يستخدمها أحياناً عندما يتأخر عن البيت».

لم أقل شيئاً. استدرت لألقي نظرة على الكتب ـ المصطفة على الجدران. ومن طرف عيني رأيت مارا تخطف شيئاً خلسة من فوق الحائط ـ بدت كصفحة ورق صرّ.

قلت: «ما هذا؟» ولم أكن فضوليا حقاً، بل تظاهرت بذلك.

أجابت: «لاشيء، إنه رسم أولي له طلب مني أن أتلفه».

«دعيني أراه!».

«لا أظنك تريد أن تراه، فهو عديم القيمة» وراحت تجعدها بيدها.

«أريني إياها على أي حال»، قلت، وأمسكت ذراعها وخطفت الورقة من يدها. فتحتها ولدهشتي رأيت أنه كاريكاتير عني وخنجر يخترق القلب.

قالت: «قلت لك كم هو غيور، إنه لا يعني أي شيء ـ فقد كان ثملاً عندما رسمه. لقد أصبح مؤخراً يشرب كثيراً. يجب أن أراقبه كصقر. إنه مجرد طفل كبير. يجب ألا تظن أنه يكرهك ـ إنه يتصرف هكذا مع أي شخص يبدي أي اهتمام بي».

«قلت إنه متزوج. ما قصته ـ أليس على وفاق مع زوجته؟».

«إنها عاجزة» قالت مارا بنبرة شبه جدية.

«على كرسي متحرك؟».

أجابت: «لا، ليس بالضبط»، وابتسامة يتعذر كبتها تملأ شفتيها. «أوه، لماذا تتحدث عن ذلك الآن؟ ماذا سيؤثر ذلك عليك؟ أنت تعرف أني لا أحبه. قلت لك مرة إنه كان لطيفاً معي للغاية، والآن جاء دوري لكي أرعاه ـ إنه بحاجة إلى شخص يرعاه».

«إذن أنت تنامين هنا بين الحين والآخر فيما يقيم هو مع زوجته العاجزة، أليس كذلك؟».

«إنه ينام هنا أيضاً في بعض الأحيان: هناك سريران، كما

ترى. أوه، رجاء، دعنا لا نتحدث عن هذا الموضوع. لا يوجد شيء يمكنك أن تقلق عليه، ألا يمكنك أن ترى، ألا تصدقني؟». اقتربت مني، وطوقتني بذراعيها. وبدون جلبة رفعتها وحملتها إلى الأريكة. وبعد هنيهة كانت فوقي. عندما خرجت من الحمام كانت تستند إلى الأريكة وسيجارة تتوسط شفتيها. جلست هناك بضع دقائق ويدي على ساقها، ورحت أحدثها بهدوء.

قلت: «عليّ أن أعود إلى المكتب، ولم تتح لنا فرصة للحديث».

قالت متوسلة: «لا تذهب الآن»، وهي تستوي في جلستها. طوقتها بذراعي وقبلّتها قبلة طويلة محمومة. وراحت أصابعها تنسل في فتحة بنطالي عندما سمعنا فجأة أحداً يدير قبضة الباب.

قالت: «إنه هو» وقفزت بسرعة واستوت واقفة على قدميها واتجهت صوب الباب. قالت بسرعة وهي تسرع للقائه: «ابق حيث أنت». لم يكن لديّ وقت لأزرر فتحة بنطالي. وقفت ورحت أسويه فيما ألقت نفسها بين ذراعيه وهي تحييه ببعض العبارات السعيدة السخيفة.

قالت: «لديّ زائر، لقد طلبت منه أن يأتي. وهو سيغادر بعد بضع دقائق».

قال: «مرحباً»، وهو يتقدم مني ويده ممدودة ليحييني وابتسامة لطيفة تعلو شفتيه. ولم يبد عليه أنه فوجئ بوجودي. بل إنه أبدى في الواقع لطفاً أكثر مما أبداه لي في تلك الليلة عندما قابلته لأول مرة في المرقص.

«يمكنك أن تبقى الآن؟» قال وهو يفك رزمة أحضرها معه، «يمكنك أن تحتسي قليلاً من الشراب أولاً؟ أتفضل الويسكي أم البيرة؟».

قبل أن أتمكن من قول نعم أو لا، اندفعت مارا لتحضر بعض الثلج. وقفت وظهري مستدير جزئياً نحوه فيما كان مشغولاً

بالزجاجات وتظاهرت بأني مهتم بكتاب على الرف أمامي، ورحت أزرر فتحة بنطالي خلسة.

«أرجو المعذرة لما يبدو عليه هذا المكان»، قال. «إنه مجرد مخبأ، حيث يمكنني أن ألتقي بمارا وأصدقائها القلائل. إنها تبدو جميلة في هذا الفستان، ألا تظن ذلك؟».

قلت «بالتأكيد، إنه جذاب».

قال: «لا توجد أشياء كثيرة هناك»، وأومأ باتجاه رفوف الكتب. «الكتب الجيدة موجودة في البيت».

قلت، وأنا سعيد بأني تمكنت من تحويل المناقشة إلى هذا المستوى. «يبدو أنها مجموعة جميلة تماماً».

«علمت أنك كاتب ـ أو هكذا أخبرتني مارا».

«ليس تماماً»، أجبت. «أريد أن أكون. ربما كنت أنت كاتباً أيضاً، أليس كذلك؟».

ضحك. «أوه»، قال باستهجان، فيما راح يصب مزيجاً من المشروبات، «نبدأ جميعنا في هذا الطريق، كما أظن. لقد خربشت بضعة أشياء في زماني ـ معظمها أشعار. لا يبدو أنه بوسعي أن أفعل أي شيء الآن سوى الشراب».

عادت مارا ومعها الثلج. قال لها: «تعالي هنا»، ووضع الثلج على الطاولة وطوق خصرها بذراعه، وأضاف: «لم تقبليني بعد». رفعت رأسها وتلقت القبلة التي طبعها على شفتيها ببرود.

قال وهو يدلق الماء الفوار في الأقداح: «لم أعد أحتمل البقاء في المكتب أكثر من ذلك، لا أعرف لماذا أذهب إلى ذلك المكان الملعون ـ فلا يوجد شيء أفعله سوى أن أبدو مهماً وأوقع اسمي على الأوراق السخيفة»، وأخذ جرعة كبيرة، ثم أشار لي بأن أجلس، وألقى بنفسه فوق كرسي موريس كبير، وهمهم «آه، هذا أفضل»، كرجل أعمال متعب، رغم أنه من الواضح لم يقم بأي عمل يذكر. ثم

أشار إلى مارا وقال وهو يربت على ذراع الكرسي: «اجلسي هنا دقيقة، أريد أن أحدثك. عندي أخبار طيبة لك».

كان مشهداً مثيراً للاهتمام جداً بعد ما حدث منذ بضع دقائق فقط. وتساءلت للحظة فيما إذا كان يتعمد عمل ذلك أمامي. وحاول أن يشد رأسها إلى الأسفل لتمنحه قبلة أخرى مسيلة للعاب لكنها قاومته - وهي تقول «هيا، إنك تتصرف بسخافة. أرجوك ضع الشراب جانباً. ستثمل بعد قليل وبعدها لن أتحدث معك».

وضعت ذراعها على كتفه ومررت أصابعها عبر شعره.

استدار نحوي وقال لي: «أترى كم هي مستبدة، كان الله في عون المسكين الذي سيتزوجها! فها أنا أهرع إلى البيت لأخبرها بخبر جيد و...».

قاطعته مارا: «حسناً، ما هو؟».

«لماذا لا تقله؟».

قال كاروثرس: «امنحيني فرصة فأخبرك به».

وهو يربت على عجيزتها برفق. ثم استدار نحوي وقال «بالمناسبة، ألن تصب لنفسك قدحاً آخر؟ صب لي واحداً أيضاً - هذا إذا سمحت لك. لا يوجد عندي شيء أقوله هنا. فقد أصبحت الآن مصدر إزعاج».

وبدا أن هذا النوع من الهزل وتبادل النيران سيستمر إلى ما لانهاية. كنت قد تأخرت كثيراً وتعين عليّ أن أعود إلى المكتب. إلا أن القدح الثاني عدّل مزاجي وقررت أن أبقى وأكمل حتى النهاية. ولاحظت أن مارا لم تكن تشرب. شعرت أنها كانت تريد أن أغادر. دخلا في أحاديث جانبية ثم نسيا الخبر الجيد. أو ربما أخبرها خفية عني - فقد بدا أنه نبذ الموضوع فجأة. لعلها عندما كانت تستجديه أن يعلمها الخبر قرصت ذراعه محذرة إياه. (نعم، ما هي الأخبار الطيبة؟ وتلك القرصة التي تقول له إنه لا يجرؤ على البوح

بها). لقد كنت في حيرة من أمري. جلست على الأريكة الأخرى ورفعت الغطاء سراً لأرى إن كانت هناك أية أوراق. لم يكن يوجد أي شيء. وسأسمع حقيقة الأمر فيما بعد، فما زال أمامنا طريق طويل.

أصبح كاروثرس بالفعل سكيراً ـ سكيراً اجتماعياً لطيفاً. أحد هؤلاء الذين يحتسون ويصحون بين الحين والآخر. أحد الذين لا يفكرون بالطعام، ممن يتمتعون بذاكرة غريبة، يلاحظون الأشياء بعين نسر، ومع ذلك يبدو أنه فاقد الوعي، محطم، ميت في نظر العالم.

وسألها فجأة: «أين هي اللوحة التي رسمتها؟» وهو ينظر بثبات في البقعة على الحائط حيث كانت معلقة.

قالت مارا: «أزلتها».

فزمجر «هه» لكنه لم يبد اعتراضاً شديداً. وأضاف: «لقد أردت أن أريها إلى صديقك هنا».

فقالت مارا: «لقد رآها».

«أوه، لقد رآها؟ حسناً. إذاً نحن لا نخفي أي شيء عنه، أليس كذلك؟ فأنا لا أريد أن يكون لديه أية أوهام عني. تعرفين إذا لم يكن بوسعي أن أنالك، فلن أدع أي شخص آخر ينالك، وماعدا ذلك فكل شيء يسير على ما يرام؟ أه، بالمناسبة، رأيت صديقتك فاليري أمس. إنها تريد أن تنتقل إلى هنا ـ خلال أسبوع أو أسبوعين. قلت لها يجب أن أتكلم معك حول هذا الموضوع ـ فأنتِ من تقوم بإدارة هذا المكان».

فأجابت مارا بحدة: «بل إنه بيتك ويمكنك أن تفعل به ما تشاء. ولكن في اللحظة التي تأتي فيها سأغادر البيت، فلدي بيت أعيش فيه، وأنا لا آتي إلى هنا إلا لأعتني بك، لأمنعك عن الشرب حتى الموت».

قال واستدار نحوي: «إنه أمر مضحك كم تكره هاتان الفتاتان

الواحدة منهما الأخرى. بحق السماء فإن فاليري مخلوقة محبوبة. صحيح لا يوجد لديها ذرة من العقل، إلا أن ذلك ليس عيباً كبيراً، فعندها كل الأشياء التي يريدها الرجل. فقد أقامت معي سنة أو أكثر، كنا فيها على وفاق رائع أيضاً ـ حتى جاءت هذه»، وأومأ برأسه باتجاه مارا، «بينك وبيني أظن أنها تغار من فاليري. لا بد أن تقابلها ـ ستراها إن بقيت هنا فترة أطول. عندي حدس بأنها ستأتي إلى هنا قبل انتهاء اليوم».

ضحكت مارا بطريقة لم أسمعها من قبل. كانت ضحكة حقيرة وقبيحة وقالت باحتقار «تلك الحمقاء، لا يمكن لهذه الفتاة أن تنظر إلى رجل دون أن تحمل منه، إنها إجهاض على الماشي...».

فقال كاروثرس بتكشيرة غبية: «تعنين صديقتك فلوري».

فأجابت مارا بغضب: «أتمنى أن لا تقحم اسمها في هذه القصة».

سألني كاروثرس، متجاهلاً الملاحظة: «لقد قابلت فلوري، أليس كذلك؟ هل رأيت عاهرة صغيرة فاسقة أكثر من هذه الفتاة؟ ومازالت مارا تحاول أن تجعل منها سيدة». انفجر ضاحكاً وأضاف: «غريب، البغايا اللاتي تجمعهن. روبيرتا ـ فتاة أخرى طائشة. تتجول دائماً بسيارات الليموزين. كان عندها كلية عائمة، قالت، لكن ما هي... حسناً، فيما بيننا، إنها مجرد غبية كسولة. لكن مارا ضمتها تحت جناحيها بعد أن طردتها أنا وهي تقوم برعايتها. حقاً يا مارا، إنك تتصرفين بغباء أحياناً رغم أنك تدعين أنك فتاة ذكية، ما لم» ـ وتابع كلامه وهو ينظر إلى السقف شارداً ـ «يكن هناك شيء آخر. من يدري».

قال وهو مايزال يحدق في السقف: «ما الشيء الذي يجعل امرأتين تندمجان بهذا الشكل. إن الطيور على أشكالها تقع، ذلك

المثل القديم. ومع ذلك فإن الأمر غريب. فأنا أعرف فاليري، وأعرف فلوري، أعرف هذه، أعرفهن كلهن - ومع ذلك، إذا ضغطت عليّ فأنا لا أعرف أي شيء عنهن، لا شيء. إنه جيل آخر يختلف عن الجيل الذي نشأت فيه، إنهن أشبه بفصيلة أخرى من الحيوانات. بداية، ليس لديهن إحساس أخلاقي، لا يوجد شيء من هذا على الإطلاق. فهن يرفضن أن يبقين في المنزل، لأنهن يعتبرن أن الحياة في المنزل شبيهة بالحياة في حديقة الحيوانات. تعود إلى بيتك وتجد غريباً يستلقي في سريرك - وتعتذر لأنك تطفلت عليهما. أو يطلبن منك نقوداً ليصحبن صديقاً إلى أحد الفنادق لقضاء الليلة. وإذا حملن يجب أن تجد لهن طبيباً. إنه أمر مثير، لكنه في بعض الأحيان مصدر إزعاج لعين. من الأفضل أن يربي المرء أرانب، أليس كذلك!»

قالت مارا: «هذه هي الطريقة التي يتحدث بها عندما يكون ثملا»، في محاولة منها أن تخفف من حدة الأمر، «هيا تابع، حدّثه عنا أكثر. أنا متأكدة من أنه يستمتع بذلك».

لم أكن واثقا تماماً من أنه كان ثملاً. إنه واحد من أولئك الأشخاص الذين يتحدثون بطلاقة ولا على التعيين سواء كانوا ثملين أم صاحين، واحد من الذين يقولون حتى أشياء أكثر روعة، في الحقيقة، مما لو كانوا صاحين. رجال متحررون مفعمون بالمرارة عادة، واحد من الذين يتصرفون وكأن شيئاً لا يمكن أن يفاجئهم بعد كل هذا، إلا أنهم في الصميم، عاطفيون تماماً، يغمسون نظامهم العاطفي المكدوم بالكحول حتى لا ينفجروا في البكاء في لحظة غير متوقعة. والنساء يجدنهم جذابين لأنهم لا يطلبون، لا يظهرون أية غيرة حقيقية، رغم أنهم قد يفعلون كل ذلك من الخارج. ويكونون غالباً، كما هو حال كاروثرس، ملتصقين بزوجات محبطات مشلولات، مخلوقات تسمح لأنفسها من باب الضعف (الذي يدعونه رحمة أو وفاء) أن تحمل عبء ذلك مدى الحياة. ومن كلامه يتبين لك أنه لا توجد لكاروثرس أي صعوبة في العثور على صبايا جذابات

يشاركنه عش الغرام. أحياناً كانت توجد لديه صبيتان أو ثلاث صبايا يعشن معه في وقت واحد. لعله كان يجب أن يتظاهر بالغيرة والامتلاك، لكي لا يستغفلنه. أما بالنسبة لزوجته، كما عرفت في ما بعد، فقد كان عجزها ينحصر في ـ أن غشاء بكارتها لم يفض. وقد تحمل كاروثرس ذلك لسنوات كمن يضحي بنفسه. ولكن فجأة، عندما أدرك أنه أخذ يتقدم في السن، بدأ يسعى كأحد فتيان المعاهد. ثم أخذ يكثر من الشراب. لماذا؟ هل وجد أنه في سن لا يستطيع معها أن يروي ظمأ فتاة صغيرة مفعمة بالصحة؟ هل ندم فجأة على السنوات التي قضاها وهو ممتنع عن الجنس؟ وتقصدت مارا، التي أسرّت لي بهذه المعلومات، أن تحيط هذا الموضوع بالغموض. إلا أنها اعترفت بأنها كانت تنام معه في معظم الأحيان على الأريكة نفسها، وتركتني أخلص إلى أنه لم يحلم أبداً بأن يغويها. وأضافت أنه كان يسعد الفتيات الأخريات بالطبع أن ينمن معه.

الساعة الآن الرابعة صباحاً وكاروثرس يغط في النوم على الأريكة. كنا واقفين عند الباب على الجادة السادسة محاولين أن نتوصل إلى شيء من التفاهم. كنت ألح عليها أن تدعني أرافقها إلى بيتها، وكانت تحاول إفهامي أن الوقت متأخر جداً.

«لكني اصطحبتك إلى البيت من قبل حتى في ساعة متأخرة أكثر من هذه».

كنت مصمّماً على أن لا أدعها تعود إلى عرين كاروثرس.

قالت متوسلة: «إنك لا تفهم، فأنا لم أذهب إلى البيت منذ عدة أسابيع وكل أشيائي هنا».

«إذن أنت تعيشين معه، لماذا لم تقولي لي ذلك منذ البداية؟»

«أنا لا أعيش معه. أقيم في بيته مؤقتاً ريثما أجد مكاناً أعيش فيه. لن أعود إلى المنزل. لقد تشاجرت مع أمي وخرجت. قلت لهم إني لن أعود أبداً».

«وأبوك ـ ماذا قال؟».

«لم يكن هناك عندما حدث ذلك. أعرف أن قلبه لابد وأن يتحطم، لكني لم أعد أحتمل ذلك».

قلت: «أنا آسف. إذا كان الأمر كذلك. أظن أنك مفلسة أيضاً، دعيني أسير معك ـ لابد أنك مجهدة».

أخذنا نسير في الشوارع الخاوية. توقفت فجأة وطوقتني بذراعيها وقالت وهي تنظر إليّ بعينيها المغرورقتين بالدموع: «إنك تثق بي، أليس كذلك؟».

«طبعاً أنا أثق بك، لكن أتمنى أن تجدي مكانا آخر تقيمين فيه. أستطيع دائماً أن أجد ثمن إيجار غرفة. لماذا لا تدعيني أساعدك؟».

فقالت بإشراق: «لا أحتاج إلى أي مساعدة الآن».

«آه... كدت أنسى أن أزف إليك الخبر السعيد. نعم سأذهب لبضعة أسابيع ـ إلى الريف. لقد أعطانا كاروثرس غرفته في الغابة الشمالية، سنذهب نحن الثلاثة ـ فلوري وحنة بيل وأنا. ستكون عطلة رائعة. أرجو أن تتمكن من اللحاق بنا؟ ستحاول أليس كذلك. ألست سعيداً؟» ووقفت لتمنحني قبلة. أضافت: «ألا ترى أنه ليس شخصاً سيئاً، فهو لن يأتي إلى هناك. لو كان يحبني كما تظن لذهب وحده معي إلى هناك؟ إنه لا يحبك، أنا أقر بذلك. إنه يخاف منك ـ إنك خطير جداً. على أي حال يجب أن تتوقع منه بعض المشاعر الجيدة. إذا ماتت زوجته لاشك أنه سيطلب الزواج مني ـ لا لأنه يحبني بل لأنه يريد أن يحميني. هل فهمت الآن؟».

قلت: «لا، لم أفهم. لكن حسناً. من المؤكد أنك تحتاجين إلى عطلة، أتمنى أن تستمتعي هناك. أما بالنسبة لكاروثرس، فمهما قلت عنه، فأنا لا أطيقه ولا أثق به. ولست متأكداً من أن تصرفاته تنبع من هذه الصفات النبيلة التي تذكرينها. أتمنى أن يموت، هذا كل ما في الأمر، وإذا استطعت أن أعطيه قطرة سم فلن أتردد في ذلك».

قالت عندما كنا واقفين عند الباب نودع بعضنا: «سأكتب إليك كل يوم».

قلت وأنا أشدها إليّ وأهمس كلمات في أذنها: «اسمعي يا مارا، كان عندي أشياء كثيرة كنت أريد أن أحدثك عنها اليوم لكن كل شيء تبخر».

قالت بشكل محموم: «أعرف، أعرف».

«ربما تتغير الأمور عندما تذهبين، لا بد أن يحدث شيء ما قريباً. لا يمكن أن نستمر هكذا إلى الأبد».

قالت هامسة وهي تقترب مني بحرارة: «هذا رأيي أيضاً، أنا أكره هذه الحياة. أريد أن أفكر في مخرج عندما أكون هناك وحيدة. لا أعرف كيف تورطت في كل هذه المشاكل».

قلت «حسناً، لعلنا نتوصل إلى شيء. ستكتبين لي، هذا وعد؟».

قالت: «بالطبع سأكتب لك... يومياً»، واستدارت لتذهب.

وقفت هناك لحظة بعد أن دخلت إلى البيت، وتساءلت (هل كنت غبياً لأني تركتها تذهب، ألم يكن من الأفضل أن أخلصها من محنتها ونشق طريقنا معاً، زوجة أو لا زوجة، عمل أو لا عمل) ابتعدت وأنا ما أزال أقلّب الأمر في ذهني، إلا أن قدميّ كانتا تشداني باتجاه البيت.

6

هاهي قد ذهبت إلى الغابة الشمالية، وقد وصلت لتوها، ومعها هاتان الفتاتان النتنتان، وكان كل شيء يسير على ما يرام. وكان هناك شابان رائعان من سكان تلك الغابة النائية يقومان برعايتهن، ويطهيان لهن طعامهن، ويعلمانهن ركوب القارب والاندفاع مع تيار الماء، ويعزفان لهن الغيتار والهرمونيكا في الرواق الخلفي من البيت في الليل عندما تزدان السماء بالنجوم وما إلى هنالك ـ وكانوا جميعهم محشورين في خلفية صورة بطاقة بريدية تظهر فيها ثمار الصنوبر الرائعة وهي تتساقط من الأشجار.

اتجهت في الحال لزيارة عرين كاروثرس لأتأكد إن كان مايزال في المدينة. كان في البيت واندهش لرؤيتي، لكنه لم يكن مسروراً لزيارتي. تظاهرت بأني جئت لأستعير كتاباً كان قد أعجبني في تلك الأمسية. قال لي بجفاء إنه توقف عن عادة إعارة الكتب منذ فترة طويلة. وكان في هذه المرة صاحياً تماماً، وبدا من الواضح أنه كان عازماً على التخلص مني بأسرع ما يمكن. ولاحظت، وأنا أستأذنه في الذهاب، أنه ثبّت صورتي على الحائط والخنجر يخترق قلبي فيها. ولاحظ أني رأيتها لكنه لم يأبه بذلك.

شعرت بالمهانة قليلاً إلا أني شعرت في الوقت نفسه بالارتياح. للمرة الأولى تقول لي مارا الحقيقة! غمرتني سعادة جامحة واندفعت إلى المكتبة العامة، واشتريت في طريقي دفتراً ومغلفاً، جلست هناك

حتى وقت إغلاق المكتبة وكتبت لها رسالة مطولة. طلبت إليها أن ترسل لي برقية ـ فليس بوسعي أن أنتظر منها رسالة بالبريد. وبعد أن أرسلت لها الرسالة كتبت برقية طويلة وبعثتها إليها. وبعد يومين، لم أسمع منها رداً خلالهما، أرسلت لها برقية أطول، وبعد أن أرسلتها جلست في رواق فندق ماك ألبين وكتبت لها رسالة أطول بكثير من الأولى. وفي اليوم التالي تلقيت منها رسالة قصيرة، دافئة وعاطفية، تكاد تكون طفولية، ولكنها لم تشر إلى برقيتي الأولى، الأمر الذي أثار جنوني. لعلها أعطتني عنواناً زائفاً. ولكن لماذا تفعل ذلك؟ على أي حال، من الأفضل أن أرسل لها برقية ثانية! طلبت منها العنوان الكامل وأقرب هاتف لها. هل استلمت البرقية الثانية والرسالتين؟ «راقبي البريد والبرقيات القادمة. اكتبي أكثر. أبرقي عندما تستطيعين. أبلغيني متى ستعودين. أحبك. إني متيم بك. رئيس الوزراء يتكلم».

«رئيس الوزراء» لابد أن هذه العبارة أدت الغرض. إذ لم تمض فترة قصيرة حتى وصلت منها برقية موجهة إلى كلاهن الصياد، تلتها رسالة ممهورة بتوقيع فكتوريا. كان الله يرعاها عندما كانت تكتب. فقد شاهدت غزالاً ولاحقته في الغابة وضلت طريقها، ثم عثر عليها شابا الغابة وأعاداها إلى البيت. كانا شخصين بسيطين للغاية، ووقعت حنة وفلوري في حبهما، وهما تذهبان معهما للتجذيف بالقوارب، وكانتا في بعض الأحيان تنامان معهما في الغابة طوال الليل. وقالت إنها ستعود بعد أسبوع أو عشرة أيام، وإنها لم تعد تحتمل فراقي. وأضافت: «سأعود إليك، أريد أن أصبح زوجتك». بهذه البساطة. ياله من شيء رائع. زاد حبي لها لأنها كانت لا تعرف اللف والدوران، بسيطة، صريحة وصادقة جداً. كتبت لها ثلاث رسائل متتالية، وأنا أتنقل من مكان لآخر، تغمرني حالة من النشوة.

انتظرت عودتها على أحرّ من الجمر. قالت إنها ستعود ليلة

الجمعة، وإنها ستخابرني في مرسم أولريك حالما تطأ قدماها المدينة. حلت ليلة الجمعة، وجلست هناك حتى الثانية صباحاً انتظر مكالمتها الهاتفية. قال أولريك، المتشكك دائماً، لعلها كانت تعني يوم الجمعة القادم. عدت أدراجي إلى البيت وحزن شديد يغمرني إلا أني كنت واثقاً من أني سأسمع منها هاتفاً في الصباح. وفي اليوم التالي، خابرت أولريك عدة مرات أستفسر منه إن كان قد سمع منها شيئاً. كان ملولاً، ولم يبد أي اهتمام، وشعرت أنه أصبح يخجل مني قليلاً. وعند الظهيرة، وفيما كنت أغادر المكتب، صادفت ماكجريجور وزوجته يتجولان في سيارتهما الجديدة. لم يكن قد رأى أحدنا الآخر منذ شهور عديدة، وألح عليّ أن أتناول طعام الغداء معهما. حاولت أن أتملص منهما لكني لم أتمكن. قال: «ما خطبك؟ إنك لست على ما يرام. أظن أن في الأمر امرأة أخرى. يا إلهي، متى ستتعلم أن تعتني بنفسك؟».

أثناء الغداء قال لي إنهما قررا أن يخرجا في جولة إلى لونغ آيلاند، وربما قضيا الليلة في مكان ما هناك. لماذا لا أصحبهما؟ قلت إني على موعد مع أولريك، قال: «إذن، أحضر صديقك أولريك. وأضاف إني لا أحتاجه كثيراً، لكن إذا كان سيسعدك ذلك، فليأتِ معنا، ولم لا؟» حاولت أن أقول له إن أولريك قد لا يتحمس كثيراً للذهاب معنا. لم ينصت إليّ وقال: «إنه سيأتي، اترك ذلك عليّ. سنذهب إلى مونتوك بوينت أو إلى شلتر آيلاند، ونستلقي هناك ونريح أعصابنا ـ سيكون ذلك مفيداً لصحتك. أما بالنسبة إلى جان التي أنت قلق عليها، فلماذا لا تنساها! فإذا كانت تحبك حقاً فإنها ستأتي إليك بنفسها. عاملهن بفظاظة، هذا ما أقوله دائماً، أليس كذلك يا تس؟» ونكز زوجته في ضلعها فكاد نفسها ينقطع.

كانت تس مولي من ذلك النوع من النساء الأيرلنديات الساذجات الطيبات القلب، وكانت أكثر النساء دمامة وأقلهن أناقة، وكانت بدينة غليظة الجسم عريضة، تكسو وجهها نقر الجدري، وشعرها خفيف

وملبد (وأخذ يتساقط وعلى وشك أن تصبح صلعاء)، لكنها كانت مرحة وكسولة، ومستعدة دائماً للشجار على الفور. وكان ماكجريجور قد تزوجها لأسباب عملية بحتة، ولم يدّعيا أبداً أن أحدهما يحبّ الآخر. وكما أوضح لي بعد فترة وجيزة من زواجهما، فقد كانت العلاقة الحميمية بينهما علاقة حيوانية بحتة، وكانت ممارستهما لها نادرة جداً، لأن الجنس لم يكن يعني لها شيئاً. فلم تكن تمانع أبداً في أن يداعبها بين الحين والآخر، ولكنها لم تكن تجد في ذلك أي متعة. وكانت تسأله بين الفينة والأخرى «هل انتهيت؟» وإذا استغرق وقتاً طويلاً وهو فوقها، طلبت منه أن يجلب لها قدحاً من الشراب أو شيئاً تأكله. وقال لي مرة «لقد سئمت منها، فقد أحضرت لها ذات مرة صحيفة لتقرأها. وقلت لها هيا إقرئيها، ولا تنسي القصة ذات الرسوم!».

ظننت أنه سيصعب علينا إقناع أولريك بأن يأتي معنا. فقد كان قد التقى بماكجريجور عدة مرات، وكان في كل مرة يهز رأسه وكأنه يقول: «لقد عجزت عن فهم هذا الشخص!» ولدهشتي حيا أولريك ماكجريجور بحرارة. فقد كان ينتظر شيكاً دسماً في الأسبوع القادم لإنجازه تصميم علبة فاصولياء جديدة، وكان يرغب في الحصول على شيء من الراحة. وكان قد خرج لتوه ليشتري لنفسه بضع زجاجات من الشراب. بالطبع لم تكن هناك مكالمة هاتفية من مارا، وقال إنه «لن تكون هناك أي مخابرة طوال أسبوع أو أسبوعين، هيا لنحتسي شيئاً!».

أبدى ماكجريجور إعجابه بغلاف مجلة كان أولريك قد انتهى لتوه من تصميمها، وهي تصور رجلاً يحمل على ظهره حقيبة غولف. ورأى مايجريجور أنها تنبض بالحياة، وقال بطريقته غير اللبقة المعهودة: «لم أكن أعرف أنك ترسم جيداً إلى هذه الدرجة»، ثم سأله: «كم تحصل لقاء عمل كهذا، إذا جاز لي أن أسأل؟» فأخبره أولريك، فازداد احترامه له. وفي أثناء ذلك وقعت عينا زوجته على لوحة

بالألوان المائية أعجبتها فسألته «هل رسمتها أنت؟» فهزّ أولريك رأسه، فقالت «أوّد أن أشتريها، كم تريد ثمناً لها؟» قال أولريك إنه سيكون سعيداً بأن يقدمها لها كهدية عندما ينتهي منها. فصرخت «أتعني أنها لم تنته بعد؟ تبدو لي منتهية. لا يهمني، سآخذها بأي حال كما هي. هل تأخذ عشرين دولاراً ثمناً لها؟».

قال ماكجريجور: «اسمعي الآن أيتها المتبلدة العقل»، ونخزها ممازحاً على فكها كالثور فأوقع الكأس من يدها، «الرجل يقول لك إنها لم تنته بعد، ماذا تريدين أن تفعلي، أن تجعلي منه كذاباً؟»

قالت: «لم أقل إنها انتهت، ولم أدعه كذاباً. لقد أعجبتني كما هي وأريد أن أشتريها».

«حسنا، اشتريها إذن، بحق المسيح، وأنهينا من هذه القصة!».

قال أولريك «لا، حقاً، لا يمكنني أن أتركك تأخذينها وهي في هذه الحالة، زد على ذلك، إنها ليست جيدة لكي أبيعها ـ إنها مجرد مخطط أولي».

قالت تس مولي «هذا لا يهم، فأنا أريدها. وسأعطيك ثلاثين دولاراً ثمناً لها».

فتدخل ماكجريجور: «لقد قلت عشرين منذ دقيقة، ما خطبك، هل أنت مجنونة؟ ألم تشتري لوحة من قبل؟ اسمع يا أولريك، من الأفضل أن تدعها تأخذها وإلا فلن ننتهي من هذا أبداً. فأنا أريد أن أصطاد قليلاً من السمك قبل أن ينقضي النهار، ماذا تقول؟ بالطبع هذا الأحمق ـ وأشار بإبهامه إليّ ـ لا يحب صيد السمك، إنه يريد أن يجلس ويكتئب، أن يحلم بالحب، أن يتأمل السماء وهذا النوع من السخافات. تعال، هيا لنذهب. نعم، صحيح، خذ زجاجة معك ـ فربما أخذنا جرعة منها قبل أن نصل إلى هناك».

أخذت تس اللوحة المعلقة على الحائط وتركت ورقة من فئة العشرين دولاراً على الطاولة.

قال ماكجريجور محذراً: «من الأفضل أن تأخذيها معك، فلا أحد يعرف من قد يسطو على البيت بعدما نخرج».

بعد أن اجتزنا شارعاً أو أكثر، خطر لي أنه كان يجب عليّ أن أترك رسالة لمارا مثبّتة على الجرس. فقال ماكجريجور «أوه، اللعنة على هذه الفكرة! دعها تقلق على أي شيء ـ إنهن يحببن ذلك. أليس كذلك ياتوتس؟» ولكز زوجته في خاصرتها.

فقالت له غاضبة: «إذا لكزتني هكذا مرة أخرى فسأحطم هذه الزجاجة على رقبتك. إني جادة في ما أقول».

قال وهو ينظر إلينا في الخلف وعلى وجهه ابتسامة صفراء: «إنها جادة في ذلك، لا يمكنك أن تلكزها كثيراً، أليس كذلك يا توتس؟ نعم، إن مزاجها رائق ـ وإلا لما تحملتني طوال هذه الفترة، كما فعلت، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

«أوه، اخرس! أنظر أمامك. لا نريد أن تتحطم هذه السيارة كالأخرى».

فصرخ: «صحيح؟ يا إلهي، هذا الكلام يعجبني. ومَن، اسمحي لي أن أسأل، اصطدم بشاحنة الحليب على طريق هيمستد في وضح النهار؟».

«أوه، إنس ذلك!».

وبقيا هكذا حتى عبرنا طريق جامايكا. وفجأة توقف عن مضايقتها وإزعاجها وبدأ، وهو ينظر من خلال المرآة، يتحدث عن مفهومه عن الفن والحياة. وبدأ يقول إنه لا بأس بأن يبذل المرء جهده ووقته في هذا النوع من الأمور ـ أعني الرسم وكل هذا التدليس ـ شريطة أن يكون المرء موهوباً. إن الفنان الجيد يستحق النقود التي يحصل عليها. وكدليل على ذلك فقد حصل عليها، كما ترى. وقال إنه يعني أن جميع الموهوبين يحصلون دائماً على التقدير. أليس كذلك؟ وعلق أولريك أن هذا هو رأيه أيضاً. ولكن

بالطبع ليس دائماً. وتابع ماكجريجور قائلاً إنه يوجد بطبيعة الحال أشخاص من أمثال غوغان، ممن كانوا فنانين جيدين، ولكنهم مصابون بلوثة من الجنون الغريب، بشيء من الفظاظة، إذا جاز له القول، مما حال دون حصولهم على التقدير الذي يستحقونه في الحال. وأضاف لا يمكنك أن تلوم الناس على ذلك، أليس كذلك؟ ففي رأيه أن بعض الناس يولدون سيئي الحظ. فخذه هو نفسه مثالاً على ذلك، فهو واثق من أنه ليس فناناً، إلا أنه ليس فاشلاً أيضاً. فأسلوبه جيد كأسلوب الآخرين، وربما أفضل بقليل. فقط ليبرهن أن الأشياء غير ثابتة، وأنه يفسد كل شيء يضع يده فيه. وفي بعض الأحيان كان أي محتال صغير يتفوق عليه. لماذا؟ لأنه، أي ماكجريجور، لن يركع ليفعل أشياء محددة. وأضاف أن هناك أشياء لا يمكنك أن تفعلها. لا يا سيدي! وخبط المقود بقوة. لكنهم بهذا الأسلوب يلعبون لعبتهم، وهم يجارونها أيضاً. لكن ليس إلى الأبد.

كنا نعبر بلدة، فقال ماكجريجور: «يا إلهي، أظن أني أعرف هذه المنطقة، أين نحن بحق الجحيم؟» توقف بجانب الرصيف ولوّح إلى أحد المشاة. «يا هذا، ماذا تدعى هذه المنطقة؟» فأخبره الرجل. فقال ماكجريجور: «هل تصدقون؟ أظن أني عرفت هذا الأحمق، يا إلهي يالها من جرعة جميلة من السيلان أصابتني هنا! أتراني أستطيع أن أجد البيت. أودّ أن أمضي بالسيارة إلى هناك لأرى إن كانت تلك العاهرة الجميلة جالسة على الشرفة. إنها أجمل فتاة يمكن أن تقع عيناك عليها ـ إنها ملاك صغير. واحدة من تلك العاهرات الصغيرات المثيرات، ملتهبة دائماً ـ دائماً تقذفه أمامك، تفركه في وجهك. انطلقت بسيارتي مرة إلى هذا المكان، وكان المطر ينهمر بغزارة لأحافظ على موعدي معها. كان كل شيء جميلاً، وكان زوجها مسافراً وكانت متشوقة لتلك القطعة من اللحم... أحاول أن أتذكر الآن، أين عثرت عليها. أعرف أني أمضيت وقتاً صعباً في إقناعها بأن تدعني أزورها. على كل حال، أمضيت معها وقتاً رائعاً ـ لم أغادر السرير طوال يومين. كانت تأتيها الرعشة تسع مرات

دون توقف وبعد ذلك كانت تقول لك: افعلها ثانية، مرة أخرى. وبعد عدة أيام بدأ يحكّني ثم اشتد احمراره وتورم. لم أصدق أني أصبت بالسيلان. ظننت أن حشرة لسعتني، ثم بدأ القيح يسيل منه. يا إلهي، الحشرات لا تجعل القيح يسيل. ذهبت إلى طبيب العائلة، فقال هذا جميل، أين حصلت عليه؟ فأخبرته. قال: إنه من الأفضل أن أجري فحصاً للدم، ربما كنت مصاباً بالسفلس».

زمجرت تس «هذا يكفي، ألا يمكنك أن تتحدث عن شيء أكثر إمتاعاً؟».

فأجابها ماكجريجور: «حسنا، يجب أن تعترفي بأني أصبحت نظيفاً تماماً منذ أن عرفتك، صحيح؟» وأضاف بابتسامة عريضة «إنها تخاف دائماً أن أجلب لها هدية»، وراح ينظر من خلال المرآة مرة أخرى. «اسمعي ياتوتس، يصاب الجميع بمرض أو بآخر. يجب أن تشكريني لأني أصبت به قبل أن ألتقي بك ـ أليس هذا صحيحا يا أولريك؟».

قالت تس: «ماذا تفضلت؟» وكان من الممكن أن تنشأ مشاجرة أخرى لو لم نصل إلى قرية صغيرة، ففكر ماكجريجور أنه من الأنسب أن نتوقف هنا. وقال إنه يود أن يذهب لجمع السرطانات، وأضاف إنه يوجد مطعم قريب على جانب الطريق يقدم طعاماً جيداً، إذا لم تخنه ذاكرته. وطلب منا أن نترجل من السيارة. سألنا «هل تريدان أن تبولا؟ تعالا!» وتركنا تس واقفة على جانب الطريق كمظلة ممزقة ودخلنا لنفرغ مثانتنا. أمسكنا من ذراعينا وقال: «فيما بيننا، يجب أن نأتي إلى هنا في المساء. فإن أردتما أن ترقصا وتشربا شيئاً، فهذا هو المكان المناسب. إذ تأتي إليه مهرات سريعات، ولن أقول لزوجتي إننا سنبقى ـ لأنه سينتابها الفزع. سنذهب إلى الشاطئ أولاً ونتمشى هناك. وعندما تشعران بالجوع قولا لي، وسأتظاهر بأني تذكرت فجأة المطعم بجانب الطريق ـ وأطلب منكما أن تأخذاني معكما؟».

تمشينا صوب الشاطئ، الذي كاد أن يكون مهجوراً. اشترى ماكجريجور علبة سيجار، وأشعل واحداً، وخلع حذاءه وجوربيه وراح يخوض في الماء وهو يدخن سيجاراً غليظاً. قال: «إن ذلك شيء رائع، أليس كذلك؟ يجب أن يعود المرء طفلاً بين الحين والآخر» وطلب من زوجته أن تخلع حذاءها وجوربيها. وراحت تتهادى في الماء كبطة يكسوها الشعر، فيما تمدد أولريك على الرمل وأخذ غفوة. تمددت ورحت أراقب حركات ماكجريجور وزوجته الخرقاء. تساءلت إن كانت مارا قد وصلت وماذا ستظن عندما لن تجدني هناك. أردت أن أعود بأسرع ما يمكن. لم أكن أكترث بالمطعم على جانب الطريق والمهرات السريعات اللاتي يأتين للرقص فيه. انتابني شعور بأنها عادت، وأنها جالسة الآن على عتبة باب أولريك تنتظرني. أردت أن أتزوج ثانية، هذا ما كنت أريده. ما الذي أقنعني بأن آتي إلى هذا المكان المنعزل؟ كرهت لونغ آيلاند، كما كنت أكرهها على الدوام.

ذهبنا إلى المطعم على جانب الطريق. وإن كنت قد فكرت في أن أعترض على الذهاب معهما إلا أني نسيت ذلك الآن. فقد وصلت إلى حالة من اللامبالاة بسبب اليأس. تركت نفسي أنجرف مع التيار. وكما يحدث عندما تترك نفسك تجرفها إرادة الآخرين وأفكارهم المتناقضة، حدث شيء لم يكن في حسباننا.

كنا قد انتهينا من تناول الطعام، وكنا نحتسي كأسنا الثالثة أو الرابعة، وكان المكان قد غصّ بالرواد، وكان الجميع في مزاج رائق. وفجأة استوى شاب واقفاً على قدميه، عند طاولة قريبة، يحمل قدحاً بيده وراح يخاطب الناس. لم يكن ثملاً، بل كانت تغمره حالة من الغبطة والنشوة، كما كان يسميها الدكتور كرونسكي. وراح يوضح بهدوء وسهولة أنه سمح لنفسه أن يوجه الانتباه إليه وإلى زوجته، التي رفع قدحه من أجلها ليشرب نخبها، لأن هذه هي الذكرى الأولى لزفافهما، ولأن السعادة كانت تغمرهما في هذه المناسبة فقد أرادا

أن يعلم الجميع ذلك وأن يشاطروهما سعادتهما. وقال إنه لا يريد أن يجعلنا نشعر بالملل ويلقي علينا خطاباً، ولم يسبق له أن ألقى خطاباً في حياته، ولن يحاول ذلك الآن، لكنه أراد فقط أن يعلم الجميع مبلغ سعادته هو وزوجته، ولعله لن يشعر بهذه السعادة مرة أخرى طوال حياته. وقال إنه مجرد شخص عادي، وإنه يعمل لكسب قوته، وإنه لا يكسب مالاً كثيراً (ولم يعد أحد يكسب كثيراً من النقود)، إلا أنه كان يعرف شيئاً واحداً وهو أنه كان سعيداً، وأنه سعيد لأنه وجد المرأة التي يحب، وأنه مايزال يحبها، رغم مضي سنة كاملة على زواجهما. (ابتسم) وقال إنه لا يخجل من أن يعترف بذلك أمام العالم أجمع. وقال إنه يشعر برغبة جامحة في أن يخبرنا بكل ذلك، حتى لو أحسسنا بالملل، لأنك عندما تكون في غاية السعادة، تريد أن يشاركك الآخرون سعادتك. وقال إنه يعتقد أن من الرائع وجود مثل هذه السعادة في الوقت الذي تسود فيه العالم عيوب وأخطاء كثيرة، إلا أنه ربما ستكون هناك سعادة أكبر إذا أفضى كل شخص بسعادته إلى الآخر، بدل أن ينتظر ولا يبوح بأسراره إلا عندما يكون تعيساً وحزيناً. وقال إنه يتمنى أن يرى الجميع سعداء، حتى لو كان أحدنا غريباً عن الآخر، فقد توحدنا في هذا المساء معه ومع زوجته، وإذا شاركناهما غبطتهما الغامرة فإن ذلك سيجعلهما أكثر سعادة.

لقد طابت له فكرة أن يشاركهما فرحتهما جميع الحاضرين، وراح يتحدث مدة عشرين دقيقة أو يزيد، وأخذ يتنقل من موضوع إلى آخر، كرجل يجلس أمام البيانو يرتجل معزوفاته. وقال إنه لم يكن يساوره أدنى شك في أننا جميعنا أصدقاؤه، وبأننا سننصت إليه حتى ينهي كلامه. ولم تكن ثمة أشياء سخيفة في حديثه رغم أنه كان مشحوناً بالانفعال. وكان مخلصاً تماماً، صادقاً تماماً، وتستحوذ عليه الفكرة بأن السعادة هي أكبر نعمة على وجه الأرض. ولم تكن الشجاعة هي التي جعلته يقف ويتحدث إلينا، لأن فكرة أن يقف ويرتجل كلمة طويلة هي بالنسبة له مفاجأة كما هي بالنسبة

لنا. فهو الآن، ودون أن يعرف ذلك بالطبع، على وشك أن يصبح داعية، تلك الظاهرة الغريبة التي تسم الحياة الأمريكية والتي لم يجد أحد بعد تفسيراً شافياً لها. فماذا لو أفاق الإحساس بالعزلة الذي يسكن الأشخاص الذين مستهم رؤيا، صوت مجهول، حافز داخلي لا يقاوم ـ وهناك آلاف وآلاف منهم في البلد ـ فجأة، كما لو أنه أفاق من غيبوبة طويلة، وخلق لهم هوية جديدة، صورة جديدة عن العالم، إلهاً جديداً، سماء جديدة؟ لقد اعتدنا على أن نفكر بأننا هيئة ديموقراطية عظيمة، تربطنا روابط مشتركة من الدم واللغة، توحدنا كل أنماط الاتصال التي يمكن أن يبتكرها أبداع بشري، نرتدي الملابس نفسها، نتناول الطعام ذاته، نقرأ الصحف نفسها، يشبه الواحد منا الآخر في كل شيء ما عدا الاسم والوزن والرقم، إننا أكثر الشعوب تجمعاً في العالم، ونمنع بعض الشعوب البدائية التي نعتبرها متخلفة عن التطور. ومع ذلك ـ وعلى الرغم من جميع الأدلة الظاهرية بأننا مترابطون بشكل وثيق، متجاورون، نتمتع بروح الدعابة، متعاطفون، نكاد نكون أخوة، فإننا أناس وحيدون، قطيع مجنون سقيم، نتخبط بحماس مسعور، نحاول أن ننسى أننا لسنا ما نؤمن بما نحن عليه، إننا لسنا متحدين حقاً، ليس أحدنا مخلص للآخر، لا نستمع حقاً، لسنا حقاً أي شيء، بل مجرد أرقام خلطتها يد خفية في حسابات لا تعنينا. وفجأة يأتي أحدهم بين الحين والآخر متيقظاً، مهلهلاً، كما لو كان مصنوعاً من غراء اللامعنى الذي يلصقنا ـ الهراء الذي ندعوه الحياة اليومية والتي هي ليست حياة بل شيئاً أشبه بالغيبوبة فوق ينبوع الحياة العظيم ـ ويبدو لنا هذا الشخص، لأنه لم يعد يتوافق مع النمط العام، مجنوناً تماماً، ويجد نفسه فريسة لقوى غريبة تكاد تثير الفزع، يجد أنه بوسعه أن يفطم آلافاً لا تعد ولا تحصى من القطيع، يطلقهم من مراسي سفنهم، يوقفهم على رؤوسهم ويغمرهم بالبهجة أو الجنون، يجعلهم يتخلون عن أقربائهم، ينبذ دعوتهم، يغير شخصيتهم، سيماء وجوههم، روحهم. وما هي طبيعة هذا الإغواء القاهر، هذا الجنون، هذا

«التشويش المؤقت» كما يحلو لنا أن ندعوه؟ ماذا لو لم يكن ثمة أمل في إيجاد المتعة والسكينة؟ فكل داعية يستخدم لغة مختلفة، إلا أنهم يتحدثون جميعاً عن الشيء ذاته. (لا تسعى، لا تكافح، لا تصعد على أكتاف الآخرين، لا تتخبط وراء أهداف عقيمة ومتذبذبة). وبومضة عين ينكشف السر العظيم الذي يوقف الحركة الخارجية، الذي يهدئ الروح، الذي يوازن، الذي يجلب الصفاء والتوازن، وينير المحيا بلهب هادئ ثابت لا يخبو أبداً. وعندما يبذلون جهداً للإفصاح عن السر يصبحون مصدر إزعاج لنا. نتجنبهم لأننا نشعر بأنهم ينظرون إلينا بتعال، لا نتحمل أن نفكر في أننا متساوون مع شخص آخر، مهما بدا متفوقاً. إلا أننا لسنا متساوين، إننا في الغالب في مرتبة أدنى، أدنى بكثير، أدنى مرتبة لاسيما للذين يتسمون بالهدوء وضبط النفس، البسطاء في أسلوبهم، والثابتون في معتقداتهم. إننا نمقت الثابت والراسخ، محصنون ضد تملقنا، منطقنا، مجموعة المبادئ المجمعة من هنا وهناك، أشكال ولاءاتنا القديمة.

قلت لنفسي وأنا أستمع إليه إنه إذا غمرت هذا الشاب سعادة أكبر فسيصبح رجلاً خطيراً. خطير، لأنه إذا كنت سعيداً دائماً فهذا يعني أنك ستشعل العالم. أن تجعل العالم يضحك شيء، وأن تجعله سعيداً شيء آخر تماماً. وحتى الآن لم يُفلح أحد في ذلك. الشخصيات العظيمة، التي أثرت على العالم سواء في الخير أو في الشر، كانت دائماً شخصيات مأساوية. حتى فرانسيز الأسيسي كان كائناً معذباً. ولم يكن بوذا، بالفكرة التي استحوذت عليه للقضاء على الألم، إنساناً سعيداً تماماً. كان أكثر من ذلك، إذا أحببت: كان وديعاً هادئاً، وعندما مات، كما يُروى، توهج جسمه كله كما لو كان نخاعه يضطرم ناراً.

ورغم ذلك، وكتجربة أولى (إن أحببت) عن الحالة الأكثر إدهاشاً التي يصل إليها الرجال المقدسون، يبدو لي أن المحاولة جديرة بجعل العالم كله سعيداً. أعرف أنه أصبح لكلمة («سعادة»)

جِرس مقرف، خاصة في أمريكا، إنها تبدو غبية وتافهة وفارغة، وقد أصبحت الكلمة المثالية للضعفاء والواهنين. لقد استعرناها من الأنغلوسكسون، وشوهناها وحولناها إلى كلمة عديمة المعنى. وأصبح واحدنا يخجل إذا استعملها بجدية. لكن لا يوجد سبب جيد لأن تكون هكذا. السعادة مشروعة كالحزن، والجميع، باستثناء الأرواح المتحررة التي وجدت في حكمتها شيئاً أفضل، التي ترغب في أن تكون سعيدة، وإن استطاعت (لو عرفت كيف!)، ستضحي بكل شيء لتحصل عليها.

أعجبت بكلمة الشاب، رغم أنها كانت تبدو فارغة عندما يتمعن المرء فيها، بل إنها أعجبت الجميع. وقد أحبه الجميع هو وزوجته، وغمر الجميع شعور بالحبور، وأصبحوا أكثر تواصلاً، أكثر استرخاء، أكثر تحرراً. كنا وكأن كل واحد منا قد حُقن حقنة في ذراعه. وراح الناس يتحدثون إلى بعضهم من وراء موائدهم، أو وقفوا وراحوا يتصافحون، أو أخذ الواحد منهم يربت على ظهر الآخر. نعم، إذا صدف وكنت شخصاً جدياً جداً، يهمك مصير العالم، تكرس نفسك لهدف سام (كتحسين الظروف المعيشية للطبقات العاملة أو تخفيض نسبة الأمية بين السكان المحليين)، لربما بدا لك أن هذه الحادثة الصغيرة ستنطوي على أهمية مبالغ فيها تماماً. إن إظهار السعادة الصادقة على الملأ يمنح بعض الناس شعوراً بالانزعاج. فهناك أناس يفضلون أن يحتفظوا بسعادتهم لأنفسهم، ويعتبرون أن إظهار سعادتهم للآخرين أمر غير لائق، أو لعلهم كانوا منغلقين على أنفسهم ولم يعودوا يفهمون معنى التواصل أو المشاركة. على أي حال، لم تكن توجد بيننا مثل هذه الأرواح الرقيقة. فقد كان رواد المطعم مجموعة من الناس العاديين، أو بعبارة أخرى من الناس العاديين الذين يمتلكون سيارات. كان بعضهم ثرياً ولم يكن بعضهم الآخر غنياً، إلا أن أياً منهم لم يكن يتضور جوعاً، ولم يكن أحد منهم مصاباً بالصرع. لم يكن أحد منهم مسلماً أو زنجياً أو أبيض من الطبقات الدنيا، بل كانوا أناساً

عاديين بالمعنى العادي للكلمة، شأن ملايين الأمريكيين الآخرين، لا يوجد شيء يميزهم، ليس لهم هدف عظيم. وفجأة، عندما أنهى كلمته، بدا أنهم قد أدركوا أنهم يشبهون بعضهم بعضاً، ما من أحد أفضل من أحد، وما من أحد أسوأ من أحد، وألقوا جانباً عقدهم التافهة التي أبقتهم منعزلين في مجموعات صغيرة، ونهضوا على نحو فطري واختلطوا ببعضهم. وسرعان ما بدأت المشروبات تتدفق وهم يغنون، ثم راحوا يرقصون، ورقصوا هذه المرة بشكل مختلف عما اعتادوا عليه. بعضهم نهض ورقص ولم يكن قد حرك ساقه منذ سنوات، بعضهم رقص مع زوجته، بعضهم رقص وحده وكان دائخاً، منتشياً بالسعادة والحرية اللتين غمرتهم، بعضهم كان يغني وهو يرقص، بعضهم كان يشع طيبة ويبتسم لكل من تقع عينه عليه.

كان التأثير الذي أحدثته هذه الكلمة الصريحة البسيطة من البهجة العارمة شيئاً يثير الدهشة. فلم تكن كلماته في حد ذاتها ذات معنى، بل كانت مجرد كلمات عادية بسيطة بوسع أي شخص أن يستحضرها على الفور. وكان في رأي ماكجريجور، الشكّاك دائماً، الذي يبذل دائماً ما بوسعه لكشف الأخطاء والعيوب، شاباً ذكياً جداً، بل ربما شخصية مسرحية، وأنه تعمد أن يكون بسيطاً، ساذجاً ليحدث تأثيراً في الناس. ومع ذلك، لم يستطع أن ينكر أن هذه الكلمة جعلت مزاجه رائقاً. فقد أراد أن يعلمنا ببساطة أنه لا يتأثر بسهولة.

غمرنا جميعنا إحساس بالحبور، وقررنا أن نعود إلى المدينة وألا نبقى الليلة هنا كما كنا قد خططنا. وغنينا ملء أفواهنا طوال الطريق. حتى تس غنت، صحيح بنشاز، ولكن بقوة وطلاقة. ولم يسبق لماكجريجور أن سمعها وهي تغني من قبل، فقد كان جهازها الصوتي يشبه حيوان الرنة. وكان كلامها محدوداً، يقتصر على شخير ونشيج أجش، تتخلله زفرات وآهات من الموافقة أو الرفض. وانتابني خوف غريب بأن تنفجر في الغناء (فيما بعد) بدل أن تطلب قدحاً من الماء أو تفاحة أو شطيرة من لحم الخنزير. وكان بوسعي

أن أتصور التعبير الذي سيرتسم على وجه ماكجريجور، إذا خطر ببالها أن تطلع علينا بإحدى خزعبلاتها وهي شاردة، ونمت نظراته عن دهشة لا تصدق. («وماذا أيضاً بحق المسيح»)، لكنه يقول لها في الوقت نفسه «هيا، تابعي، حاولي أن ترفعي عقيرتك واستخدمي طبقة عالية على سبيل التغيير!» فقد كان يقوم بأشياء غريبة، يفكر بأنه توجد بعض الأشياء الحقيرة، أشياء يفعلها الناس لم يكن يتصورها أبداً. وكان يعتقد أنه لا يوجد شيء سيء جداً، مجوني جداً، مخز جداً يمكن أن يرتكبه الإنسان ضد أخيه الإنسان. كان يتفاخر بأنه يتمتع بعقل منفتح، عقل متفتح لأي شكل يتسم بالغباء والقسوة والخيانة أو العناد. وتابع فرضيته بأن كل إنسان في أعماقه، وضيع، سافل، أناني، قاس، وهو أمر يؤكده عدد القضايا التي تنشرها وسائل الإعلام عن المحاكم. فإذا كان بالوسع التجسس علينا جميعنا، أن يتم تعقبنا، مطاردتنا، استجوابنا، أن نرغم على الاعتراف، فلماذا في رأيه، يجب أن نسجن جميعاً. وأن أسوأ المسيئين سمعة، الذين يجب أن نصدقهم، هم القضاة، ووزراء الدولة، والحراس، ورجال الدين، والمربون، والعاملون في الجمعيات الخيرية. أما في مهنته، إذ لم يلتق طوال حياته سوى بواحد كان أو اثنين كانا في غاية الصدق، ويمكن الوثوق بكلمتهم، أما الباقون، الذين يشملون عملياً جميع المهن الأخرى، فكانوا أحقر من أعتى المجرمين، رعاع وسفلة القوم وحثالة الإنسانية. وقال إنه نفسه لا يعرف لماذا كان صادقاً وأميناً، لأن ذلك ليس مجدياً. فقد خلق هكذا، وبالإضافة إلى ذلك، كانت لديه مواطن ضعف أخرى، وها هو يجمع كل العيوب التي تعتريه، أو التي أقرّ بأنها تعتريه، أو التي كان يتخيل أنها تعتريه، وكانت قائمة طويلة، وعندما انتهى من تعدادها خطر لي أن أسأله لماذا يحتفظ بالفضيلتين الأخريين وهما الصدق والأمانة.

قال فجأة: «إذاً مازلت تفكر بها؟» والتفت قليلاً وخرجت الكلمات من طرف فمه. «حسناً، إني أشعر بالأسف عليك. أظن أن

الحل الوحيد هو أن تتزوجها. من المؤكد أنك تحب العذاب. وكيف ستعيش ـ هل فكرت في ذلك؟ تعرف أنك لن تحتفظ بهذا العمل لفترة طويلة ـ لا بد أنهم يعاملونك بحكمة هذه المرة. إني أستغرب كيف أنهم لم يطردونك من العمل منذ فترة طويلة. لا بد أنك ضربت الرقم القياسي هذه المرة ـ كم مضى عليك الآن، ثلاث سنوات؟ أستطيع أن أتذكر عندما كانت ثلاثة أيام فترة طويلة بالنسبة لك. بالطبع إذا كانت الفتاة من النوع الملائم فيجب ألا تقلق لكي تحافظ على العمل. فهي ستحافظ عليك. سيكون ذلك مثالياً، أليس كذلك؟ عندها يمكنك أن تكتب تلك التحف التي لطالما كنت تعدنا بها دائماً. لهذا السبب أظنك متلهفاً للتخلص من زوجتك: إنها تلاحقك، ولا تتركك تلتقط أنفاسك. يا إلهي، كيف تشعر وأنت تنهض كل صباح وتذهب إلى العمل! كيف تتصرف، قل لي؟ لقد كنت كسولاً إلى درجة أنك كنت تتكاسل عن النهوض وتناول طعامك... اسمع ياأولريك، لقد رأيت هذا المأفون يرقد في السرير ثلاثة أيام متتالية. لا عيب في هذا الرجل سوى أنه لا يمكنه أن يتحمل فكرة مواجهة العالم. إنه يصبح ولهاناً أحياناً، أو يشعر بالرغبة في الانتحار. كان ذلك شيئاً ـ يحب أن يهددنا بالانتحار». (نظر إليّ من خلال المرآة.) «لقد نسيت تلك الأيام، أليس كذلك؟ والآن يريد أن يعيش... لا أعرف لماذا... لم يتغير شيء... كل شيء مايزال سيئاً كما كان. الآن يقول إنه سيقدم للعالم شيئاً ـ تحفة فنية، لا أقل من ذلك. لم يستطع أن يقدم لنا كتاباً عادياً يعرض في السوق. أوه لا، إنه ليس من ذلك الصنف! يجب أن يكون شيئاً فذاً، شيئاً لم يسمع عنه أحد من قبل. حسناً، ما أزال أنتظر. لا أقول إنك لن تفعل ذلك، ولا أقول إنك ستفعل ذلك، فأنا ما أزال أنتظر. وفي الوقت نفسه، يجب على البقية منا أن تواصل كسب عيشها. لا يمكننا أن ننتظر مدى الحياة لنصدر تحفة فنية»، (توقف لحظة ليلتقط أنفاسه) «أشعر أحياناً أنني أريد أن أكتب كتاباً بنفسي ـ فقط لأبرهن لهذا الرجل أنه لا يتعين عليه أن يجعل من نفسه قرداً ليخدعنا. أظن أنه يمكنني، إذا أردت، أن أؤلف كتابا في

ستة أشهر ـ هذا دون أن أهمل عملي الرئيسي. لا أقول إنه سيفوز بجائزة. لا أدعي أنني *فنان*. إن الشيء الذي يزعجني من هذا الأحمق هو أنه واثق من أنه فنان. إنه واثق من أنه يفوق (هايمر أو لنقل دريزر) وحتى الآن لا يوجد عنده شيء ملعون يمكن أن يرينا إياه. يريدنا أن نثق به، وهو ينزعج إذا طلبت منه أن يريك شيئاً ملموساً كمخطوطة. هل يمكنك أن تتصور أنه بوسعي أن أقنع قاضياً بأنني محام قدير دون أن يكون لدي حتى شهادة جامعية؟ أعرف أنه لا يمكنك أن تلوح بشهادة في وجه أحدهم لتبرهن على أنك كاتب، ولكن يمكنك كذلك أن تلوح بمخطوطة، أليس كذلك؟ يقول إنه كتب عدة كتب حتى الآن ـ حسناً أين هي تلك الكتب؟ هل شاهدها أحد؟».

هنا قاطعه أولريك ليقول لي كلمة. كنت مسترخياً في مقعدي الوثير في الخلف وأنا أكتم ضحكي. كنت أستمتع بهذا الخطاب الطويل المليء بالتنديد والشتائم التي يكيلها لي ماكجريجور، ومضى يقول: «حسناً، إذا قلت إنك رأيت مخطوطة فسأصدقك. لم يرني شيئاً أبداً ابن الزانية هذا. أظن أنه لا يحترم حكمي. كل ما أعرفه هو أنني أستمع إليه وهو يتحدث حتى يخيّل إليك أنه عبقري. أذكر له أي مؤلف ـ لا يعجبه أحد. حتى أناتول فرانس لا يعجبه. لا بد أنه يريد أن يبلغ شأواً كبيراً إذا كان سيجعل هذه الطيور تأخذ مقعداً خلفياً. وأرى أن رجلاً مثل جوزيف كونراد ليس فناناً فقط بل معلماً أيضاً. وهو يعتقد أن كونراد أعطي مكانة أكبر مما يستحق. يقول إن ميلفيل أديب فذ. ثم، بحق المسيح، هل تعرف ما اعترف لي به ذات يوم؟ إنه لم يقرأ ميلفيل! ويقول إن ذلك ليس مهماً. كيف ستتفاهم مع شخص كهذا؟ أنا لم أقرأ ميلفيل أيضاً، ولكن فلتحلّ عليّ اللعنة إن اعتقدت إنه أفضل من كونراد ـ لن أفعل ذلك حتى أقرأ له بأي شكل من الأشكال».

قال أولريك: «حسناً، لعله ليس مجنوناً إلى هذه الدرجة. فالكثير من الناس ممن لم يشاهدوا جيوتو مثلا واثقون أنه أفضل من ماكسفيلد باريش».

فقال ماكجريجور «هذا أمر مختلف، فلا يوجد خلاف حول قيمة أعمال جيوتو، ولا أعمال كونراد. إن ميلفيل، برأيي يكاد يكون حصاناً أدهم. قد يجده هذا الجيل متفوقاً على كونراد، لكن يمكن أن ينطفئ كمذنّب بعد مائة أو مائتي سنة. لقد كان على وشك الانقراض عندما اكتُشف مرة أخرى في الآونة الأخيرة».

قال أولريك: «وما الذي يجعلك تظن أن شهرة كونراد لن تنطفئ بعد مائة أو مائتي سنة؟».

«لأنه لا يوجد شك في ذلك. إن شهرته تقوم على إنجازات عظيمة. إنه محبوب في العالم، وتُرجمت أعماله إلى عشرات اللغات. والشيء نفسه ينطبق على جاك لندن أو أو. هنري، فلا شك أنهما كاتبان دون المستوى، لكنهما باقيان، إذا كنت أعرف عما أتكلم. الجودة ليست كل شيء. الشعبية مهمة بقدر الجودة. فما أن تتلاشى قوة العطاء، فلا بد أن الكاتب الذي يدخل المتعة إلى نفوس أكبر عدد من القراء - إذا افترضنا أن أعماله تتصف بشيء من الجودة وأنه ليس كاتباً ممتهناً - هو الذي يدوم لفترة أطول من أكثر أنواع الكتاب نقاوة وتفوقاً. فبوسع معظم الناس أن يقرؤوا كونراد، ولكن لا يمكن لأي شخص أن يقرأ ميلفيل. وعندما نصل إلى حالة فريدة، مثل لويس كارول، الذي أراهن أنه، طالما بقي الناطقون بالإنكليزية على قيد الحياة، فإنه سيبقى حياً حتى بعد شكسبير...».

ثم تابع كلامه بعد لحظة من التفكير: «أما الرسم فهو في رأيي شيء مختلف بعض الشيء. إذ إن تذوق لوحة جيدة يحتاج إلى وقت أطول من تذوق كتاب جيد. ويظن الناس أنه بسبب معرفتهم القراءة والكتابة فإن بوسعهم تمييز الكتاب الجيد من الكتاب الرديء. حتى الكتّاب، أعني الكتّاب الجيدين، ليسوا متفقين على التمييز بين الكتاب الجيد والكتاب الرديء. وينسحب ذلك أيضاً على الرسامين. ومع ذلك أرى أن الرسامين متفقون بوجه عام على وجود أو عدم وجود مزايا جيدة في أعمال الرسامين المشهورين أكثر مما لدى الكتّاب

فيما يتعلق بالكتابة. فقط الرسام نصف الموهوب هو الذي ينكر قيمة أعمال سيزان مثلا. لكن خذ ديكنز أو هنري جيمس مثلاً، وانظر إلى مدى اختلاف الآراء بين الكتّاب والنقاد الكبار حول قيمتهما. فلو كان يوجد اليوم كاتب غريب في مملكته كما هو حال بيكاسو في مملكته، فسرعان ما ستفهم ما أقصده. حتى لو لم يحبوا أعماله، فإن معظم الناس ممن يعرفون شيئاً عن الفن يوافقون على أن بيكاسو عبقري عظيم. والآن لنأخذ جويس، الذي يعد غريب الأطوار ككاتب، هل اكتسب سمعة كسمعة بيكاسو؟ وباستثناء الضالعين في المعرفة، وما عدا المتعجرفين الذين يحاولون مجاراة كل شيء، فإن سمعته، كما هي اليوم، مبنية على أنه فلتة زمانه. وأوافق على أن الجميع يقرون بعبقريته، إذا جاز لي القول. إن بيكاسو يحظى بالاحترام، حتى لو لم يكن مفهوماً دائماً. أما جويس فشيء مختلف، إذ ازدادت شهرته لأنه لا يمكن فهمه بسهولة. والكل يقرّ بأنه فلتة من فلتات الطبيعة، ظاهرة فريدة، مثل كارديفي العملاق».

وهنا توقف برهة ليشعل سيجاراً آخر ثم واصل كلامه: «هناك شيء آخر أريد أن أقوله. أعرف الآن ما الذي جعلني أبدأ هذا الموضوع. إنه هذا ـ فأنا أشعر بالأسف على الشخص الذي يولد وهو كاتب. ولهذا السبب فأنا أوبخ هذا الأحمق كثيراً، أحاول أن أثبطه لأني أعرف ما سيواجهه. فإذا كان حقاً جيداً فهذا شيء رائع. إذ يمكن للرسام أن يرسم ست لوحات في سنة واحدة ـ هكذا قيل لي. أما تأليف كتاب فيستغرق من الكاتب أحياناً عشر سنوات، وإذا كان جيداً، فهو يحتاج إلى عشر سنوات أخرى ليجد ناشراً، وبعد ذلك يجب أن تترك على الأقل من خمس عشرة سنة إلى عشرين سنة ليحظى باعتراف القراء به. إنه تقريباً عمر كامل ـ لكتاب واحد، تذّكر. فكيف يمكنه أن يعيش في أثناء ذلك؟ حسناً، إنه عادة يعيش كالكلب. الشحاذ يعيش ملكاً بالمقارنة معه. لا يتخذ أحد هذه المهنة إن كان يعرف ما يخبئ له الزمن. أقول بصراحة إن الأمر لا يستحق

ذلك. إن الفن لا يعني أن يخرج بهذه الطريقة. والنقطة التي أريد أن أوضحها هي أن الفن أصبح ترفاً في الوقت الحاضر، إذ يمكنني أن أعيش دون أن أقرأ كتاباً واحداً أو أنظر إلى لوحة واحدة. لدينا أمور كثيرة أخرى - إننا لسنا بحاجة إلى كتب ولوحات. أما الموسيقى فنعم - إننا نحتاج إلى الموسيقى دائماً. ليس من الضروري أن تكون موسيقى جيدة، بل موسيقى والسلام. لم يعد أحد الآن يؤلف موسيقى جيدة، وإني أرى أن العالم مقبل على كارثة. إنك لا تحتاج إلى ذكاء شديد لترى كيف تسير الأمور. في الحقيقة، كلما كنت أقل ذكاء كنت أفضل حالاً. لقد أصبحنا نحصل الآن على الأشياء مرتبة بشكل بدأت تقدم فيه إليك على طبق كبير. كل ما تحتاج أن تعرفه هو كيف تفعل بالقليل على نحو مقبول. حسناً، فقد أصبح بوسعك أن تنضم إلى اتحاد، وتعمل أقل ما يمكن، ثم تحال إلى التقاعد عندما تبلغ السن القانونية. وإذا كانت لديك ميول جمالية فلن يكون بوسعك أن تطّلع عليها. إن الفن يجعلك مستاء، قلقاً. نظامنا الصناعي لا يسمح بأن يحدث ذلك - بل يقدم لك بدائل ضئيلة تجعلك تنسى أنك إنسان. وأقول لك أنه لن يكون هناك بعد فترة وجيزة فن على الإطلاق. يجب أن تدفع للناس نقوداً كي يذهبوا لزيارة متحف أو لحضور حفلة موسيقية. لا أقول إن هذا الحال سيستمر إلى الأبد. لا، وعندما تصبح الأمور على ما يرام، ويسير كل شيء بسلاسة، فلن يعود يزعق أحد بعد ذلك، لن يقلق أو يستاء أحد، سينهار كل شيء. الإنسان لم يخلق ليكون آلة. الشيء المضحك هو أن كل هذه الأنظمة الحكومية المثالية تَعِد دائماً بأنها ستجعل الإنسان حراً - لكنها تحاول أولاً أن تجعله يجري كساعة تعمل لمدة ثمانية أيام. يطلبون من الفرد أن يصبح عبداً لترسيخ الحرية للبشرية. إنه منطق شراب الروم. لا أقول إن النظام الحالي أفضل. في واقع الأمر، إنني أظن أنه من الصعب أن نتخيّل شيئاً أسوأ مما لدينا الآن. لكني أعرف أن الأمور لن تتحسن إذا تخلينا عن الحقوق

القليلة المتبقية لدينا الآن. لا أظن أننا نريد مزيداً من الحقوق ـ أظن أننا نريد أفكاراً أعظم. يا إلهي، عندما أرى ما يحاول المحامون والقضاة المحافظة عليه فإن ذلك يجعلني أتقيأ. القانون ليس له علاقة بالحاجات الإنسانية، إنه وسيلة غير شريفة تنهض بها نقابة من الطفيليين. خذ أي كتاب قانوني واقرأ أي مقطع لا على التعيين بصوت عال. سيبدو لك الأمر مثيراً للجنون، إذا كنت تتمتع بكامل أحاسيسك. إنه شيء جنوني، بحق الله! لكن يا إلهي، إذا بدأت أشك في صحة القانون فسأبدأ في أن أشك بأشياء أخرى أيضاً. سأجن إن نظرت إلى الأشياء نظرة واضحة. لا يمكنك أن تفعل ذلك ـ إذا أردت أن تسير أمورك في الحياة. يجب عليك أن تحدق وأنت تمضي قدماً، يجب أن تتظاهر بأن الحياة معقولة، يجب أن تدع الناس يظنون أنك تعرف ماذا تفعل. لكن لا أحد يعرف ماذا تفعل! إننا لا نستيقظ في الصباح ونفكر ماذا سنفعل. لا سيدي! إننا نستيقظ في وسط الضباب والمراوغة، عبر نفق مظلم ينتابنا شعور بالغثيان. نلعب اللعبة. رغم أننا نعرف أنها مزيفة وقذرة لكن ليس لنا حيلة في ذلك ـ لا يوجد لدينا خيار. نولد بتركيبة معينة، نتأقلم معها: يمكننا أن نعدّل قليلاً شيئاً هنا وهناك، كما تفعل مع مركب ينضح بالماء، ولكن لا يمكن إصلاحه، لا يوجد وقت لذلك، عليك أن تتجه إلى الميناء، أو أن تتخيل أنه يتعين عليك ذلك. لن نصل إلى هناك أبداً، بالطبع. فالقارب سيغرق أولاً، صدقني... الآن لو كنت أنا هنري، لو كان لدي نفس الثقة التي يتمتع بها بأنني فنان، هل تظن أني أبالي بأن أبرهن ذلك للعالم؟ ليس أنا! فأنا لن أخط سطراً على ورقة، سأفكر بأفكاري فقط، سأحلم أحلامي، وأدع الأمور تسير هكذا. سآخذ أي عمل، أي شيء يبقيني على قيد الحياة، وسأقول للعالم: «إلى الجحيم، ياجاك، فإنك لا تكسوني! إنك لن تجعلني أجوع لأبرهن لك على أنني فنان. لا يا سيدي ـ أعرف ما أعرف ولا يمكن لأحد أن يخبرني شيئاً آخر. سأشق طريقي في الحياة، سأعمل أقل

ما يمكن. لو كان عندي أفكار كثيرة غنية جيدة، سأحتفظ بها لنفسي. ولن أحاول أن أحشرها في عقول الناس. سأتصرف كأخرس معظم الوقت. سأكون من بني نعم، سأوافق على كل شيء بدون جدال. سأتركهم يسيرون فوقي إن أرادوا ذلك. مادمت أعرف في قلبي وروحي أني شيء ما حقاً. سأتقاعد وأنا في منتصف العمر، لن أنتظر حتى أصبح مسناً وهرماً، حتى يمتصون آخر نقطة من دمي ثم يرضونني بجائزة نوبل... أعرف أن هذا يبدو سخيفاً. أعرف أن الأفكار يجب أن تمنح شكلاً وجوهراً، لكني أتحدث عن المعرفة والكينونة وليس عن التصرف. باختصار إنك تصبح شيئاً لكي تكون هذا الشيء ـ ولن يكون من الممتع أن تكون شيئاً مهما طال الوقت، أليس كذلك؟ حسناً، أظن أنك تقول لنفسك ـ إلى الجحيم إن أصبحت فناناً، وماذا بعد ذلك؟ ماذا يعني أن يكون المرء فناناً؟ هل يعني أنه يتعين عليك أن تؤلف كتباً أو ترسم لوحات؟ أظن أن ذلك أمر ثانوي ـ وهذا هو الدليل على أنك واحد منهم... لنفترض أنك كتبت يا هنري أعظم كتاب وأنك فقدت المخطوطة بعد أن أنجزتها؟ ولنفترض أنه لم يعرف أحد أنك كتبت هذا الكتاب العظيم، حتى أقرب المقربين إليك؟ في تلك الحالة ستكون في الموقع نفسه الذي أنا فيه، أنا الذي لم يخط سطراً واحداً على ورقة؟ وإذا متنا كلانا فجأة، في تلك اللحظة، فلن يعرف العالم أبداً أن أحدنا كان فناناً. فأكون أنا قد أمضيت وقتاً ممتعاً، وتكون أنت قد هدرت حياتك بالكامل».

لم يعد أولريك يتحمل أكثر من هذا فقال محتجاً: «على العكس تماماً، فالفنان لا يتمتع بحياته إذا لم يقدم رسالته في الحياة. أنت الذي سيهدر حياته. إن الفن ليس أداء منفرداً، إنه سيمفونية جميلة في الظلمة يشاركك فيها ملايين المستمعين والمشاركين. إن متعة أن يكون لديك فكرة جميلة لا تعد شيئاً قياساً بمتعة إعطائها شكلاً وتعبيراً ـ تعبيراً دائماً. في الواقع، يكاد يكون من المستحيل أن

تمتنع عن إعطاء فكرة عظيمة شكلاً وتعبيراً. إننا مجرد أدوات لقوة أعظم، نحن خالقون بتفويض، بالوكالة. لا يمكن لأحد أن يخلق وحده ومن تلقاء نفسه. الفنان أداة تسجل ما هو موجود، شيء يخص العالم أجمعه والذي، إذا كان فناناً حقاً، يضطر لأن يعيده إلى العالم. أن يحتفظ المرء بالأفكار الجميلة لنفسه كمثل شخص يتمتع ببراعة فنية ويجلس في أوركسترا وهو مكتوف اليدين. لا يمكنك أن تفعل ذلك! أما بالنسبة إلى المثال الذي أعطيته، عن مؤلف يفقد جهد حياته في كتابة المخطوطة، فإني أقارن مثل هذا الشخص بموسيقار رائع يعزف مع أوركسترا طوال الوقت، ولكن في غرفة أخرى منعزلة، حيث لا يسمعه أحد. ولكن هذا لا يجعله عازفاً مشاركاً في أقل تقدير، ولن تسلبه متعة أن يعزف وهو يتبع قائد الأوركسترا أو سماع الموسيقى التي تعزفها آلته. إن أكبر خطأ ارتكبته هو أنك تظن أن المتعة شيء لا يمكن اكتسابه، لكنك لو كنت تعرف العزف على الكمان، لوجدت متعة بالقدر نفسه. من السخف ألا أعرف لماذا أهتم بمناقشة هذا الأمر. أما بالنسبة إلى المكافأة، فإنك تخلط دائماً بين المكافأة والتقدير. إنهما شيئان مختلفان. حتى لو لم تحصل على شيء لقاء ما أنجزت، فإنك على الأقل تشعر بالرضا على ما تقوم به. من المؤسف أننا نركز على الحصول على مكافأة لقاء أعمالنا ـ حقاً هذا ليس ضرورياً، ولا أحد يعرف ذلك أكثر من الفنان، لأنه يمضي وقتا تعيساً ولذلك فهو يقوم بعمله مجاناً. إنه ينسى، كما تقول، أنه يجب أن يعيش. لكن هذه حقاً نعمة. فمن الأفضل بكثير أن ينشغل المرء بأفكار رائعة من أن ينشغل بالتفكير بماذا سيأكل في الوجبة التالية، أو في الإيجار، أو في شراء زوج جديد من الأحذية. وبطبيعة الحال، فعندما تصل إلى النقطة التي يجب عليك عندها أن تأكل، ولا يوجد لديك شيء تأكله، يستحوذ عندئذ على فكرك تناول الطعام. ولكن الفرق بين الفنان والفرد العادي، هو أنه عندما يتناول الفنان وجبته يعود فوراً إلى

عالمه اللامحدود، وعندما يغرق في ذلك العالم فهو يشعر بأنه ملك، أما الإنسان العادي، الإنسان المتبلد الذهن، فهو مجرد محطة للحشو ولا يفصل بين فترات تناوله الطعام سوى الغبار والدخان. وحتى إذا افترضنا أنك لست رجلاً عادياً، بل إنساناً غنياً، شخصاً يمكنه أن ينغمس في ملذاته ونزواته وشهواته: فهل تظن لدقيقة واحدة أن المليونير يتمتع بالطعام أو النبيذ أو النساء كما يتمتع بها فنان جائع؟ فلكي تستمتع بأي شيء يجب أن تكون مستعداً للحصول عليه، وهذا يتضمن شيئاً من القدرة على التحكم، الانضباط، العفة. والأهم من ذلك، فهذا يعني الرغبة، والرغبة شيء يجب أن تغذيه وترعرعه بالعيش جيداً. إني أتحدث الآن كما لو كنت فناناً، وأنا لست ذلك حقاً. فأنا مجرد رسام تجاري، لكني أعرف ما يكفي عن ذلك لأقول إني أحسد الرجل الذي تكون لديه الشجاعة لأن يكون فناناً ـ أحسده لأني أعرف أنه أغنى بلا حدود من أي نوع آخر من البشر. إنه أغنى لأنه يستهلك نفسه، لأنه يمنح نفسه طوال الوقت، ولا يعمل فقط من أجل النقود أو العطايا. إنك لا تستطيع أن تكون فناناً في المقام الأول، لأنك تفتقر إلى الإيمان. ولا يمكن أن تكون لديك أفكار جميلة لأنك تقضي عليها سلفاً. إنك تنكر مدى الجهد الذي يستغرقه صنع الجمال، الذي هو الحب، حب الحياة نفسها، حب الحياة لذاتها. إنك ترى العيب، الدودة، في كل شيء. أما الفنان، حتى عندما يرى عيباً، فإنه يصوغه في شيء نقي. إنه لا يحاول أن يدعي أن الدودة هي زهرة أو ملاك، بل يدمج الدودة في شيء أكبر. يعرف أن العالم ليس مليئاً بالديدان، حتى لو رأى مليون أو بليون دودة. إنك ترى دودة صغيرة جداً وتقول «أنظر، كيف أن كل شيء متعفن!» أنت لا تستطيع أن ترى أبعد من الدودة... حسناً، أعذرني، فأنا لا أقصد أن أجرحك أو أعنيك شخصياً. لكني آمل أن تفهم ما أرمي إليه...» فردّ ماكجريجور بسرعة ومرح: «هذا جميل، من المفيد أن تسمع رأي شخص آخر. ربما كنت على حق في أنني ربما كنت شديد التشاؤم.

لكني أنا هكذا. أظن أني سأكون أسعد بكثير لو نظرت إلى الأمر من وجهة نظرك لكني لا أستطيع ذلك. زد على ذلك، يجب أن أعترف بأني لم يسبق لي قط أن قابلت فناناً جيداً. أظن أني سأجد متعة كبيرة إن تحدثت إلى أحدهم ذات يوم».

فقال أولريك: «حسناً، إنك تتحدث طوال حياتك إلى واحد منهم دون أن تعرف ذلك. فكيف ستميز الفنان الجيد عندما تلتقي بفنان إذا لم تكن تميز واحداً في صديقك هذا؟».

زمجر ماكجريجور قائلاً: «يسرني أنك قلت هذا، والآن وقد دفعتني إلى هذا الحد، فإني أعترف بأني أؤمن بأنه فنان. وأنا أؤمن بذلك على الدوام. أما بالنسبة للإنصات إليه، فأنا أنصت إليه أيضاً وبجدية، إلا أني سرعان ما بدأت أشك به أيضاً. وأظن أني إذا أنصتّ إليه فترة طويلة فإنه سيدمرني. أعرف أنه على حق، لكن كما قلت لك من قبل ـ إذا أردت أن تكون على ما يرام، إذا أردت أن تعيش، لا يمكن أن تجيز لنفسك مثل هذه الأفكار. من المؤكد أنه على حق! سأبدل مكاني معه يوماً ما، الكلب المحظوظ. ماذا حصلت لقاء كل كفاحي؟ أنا محامي. وماذا يعني ذلك؟ ربما كنت قطعة من الخراء. هذا شيء أكيد، تراهن أني أريد أن أبدل المواقع. ولكني لست فناناً، كما قلت. أظن أن مشكلتي هي أنني لا أستطيع أن أقبل الواقع بأن أكون مجرد شخص آخر».

7

عندما عدت إلى المدينة وجدت رسالة قصيرة من مارا وُضعت على جرس باب أولريك تقول فيها إنها وصلت بعد مغادرتنا بفترة قصيرة، وإنها انتظرتني ساعات وهي جالسة على الدرج، إن كان علي أن أصدقها. وقالت إنها ذهبت إلى روكاواي مع صديقتيها، ويجب أن أخابرها في أقرب وقت.

وصلت عند الغسق ووجدتها تنتظرني في المحطة، وكانت ترتدي ملابس سباحة ارتدت فوقها معطفاً. كانت فلوري وحنة نائمتين في الفندق، وقالت إن فلوري فقدت طقم أسنانها الاصطناعية الجديدة الجميلة وأعصابها منهارة. أما فلوري فستعود إلى الغابة، بعد أن وقعت في غرام بيل، أحد الشابين اللذين التقين بهما في الغابة، وأنه عليها أن تجهض أولاً. وأضافت أن فلوري لم تكن قلقة، والشيء الوحيد الذي كان يضايقها هو أن تلك البقعة بين فخذيها كانت تكبر وتتضخم مع كل إجهاض، وأنها ستتسع قريباً ولن تعود تصلح إلا للسود.

أخذتني إلى فندق آخر لنقضي الليلة معاً. جلسنا في مطعم الفندق الذي يشبه صالة حانوتي ورحنا نتحدث ونحتسي البيرة لفترة قصيرة من الوقت. كانت مارا تبدو غريبة الشكل في ذلك المعطف ـ أشبه بشخص خرج مسرعاً من بيته الذي شب فيه حريق بعد منتصف الليل. كنت في غاية الشوق لكي أضمها في السرير،

ولكن لكي لا نثير أي شبهات من حولنا تظاهرنا أننا لسنا في عجلة من أمرنا. كنت قد فقدت أي إحساس بالمكان: فقد بدا لي كما لو أننا نلتقي في غرفة مظلمة بالقرب من المحيط الأطلسي بعد النزوح. ودخل زوجان آخران أو ثلاثة بهدوء، ورشفوا مشروباتهم، وراحوا يتهامسون خفية. ومر أمامنا رجل يحمل ساطوراً يقطر دماً، ويمسك دجاجة من ساقيها وهي مقطوعة الرأس، والدم ينقط منها على الأرض، مخلفاً خطاً متعرجاً، وكأن عاهرة ثملة حائضاً تترنح في مشيتها.

وأخيراً قادونا إلى غرفة صغيرة في نهاية ممر طويل. كانت أشبه بنهاية حلم مزعج. وكان الممر يشكل محور عالمين لا يتصل الواحد منهما بالآخر، فإذا اتجهت يساراً فقد لا تجد طريق العودة ثانية. خلعنا ملابسنا وارتمينا على السرير الحديدي الصغير وانغمسنا في حمأة جنسية. وبدونا كمتصارعين بقيا دون أن يفصل أحد بينهما في حلبة فارغة بعد أن أطفئت الأنوار وتفرق الجمهور. وكانت مارا التي انفصلت بطريقة ما عن عضوها الجنسي تبذل جهدها على نحو مسعور لتصل إلى الرعشة. كان الوقت ليلاً وقد ضاعت مارا في العتمة، وكانت حركاتها حركات حالم يجاهد يائساً ليعود ويدخل الجسد الذي بدأ يستسلم. قمت لأغتسل، لأبرّد نفسي بقليل من الماء البارد، لكن لم تكن توجد مغسلة في الغرفة. وفي ضوء المصباح الأصفر الذي خبا وكاد أن يتلاشى تماماً، نظرت إلى نفسي في المرآة المتصدعة، وبدت على وجهي تعابير جاك مغتصب النساء وهو يبحث عن قبعة القش في المبولة. كانت مارا تتمدد منكفئة على السرير، تلهث والعرق ينضح منها، وكانت تبدو كجارية منهكة أوسعت ضرباً. ارتديت بنطالي وسرت مترنحاً في الممر الذي يشبه القُمع أبحث عن الحمام. وكان ثمة رجل أصلع، عار حتى الخصر، يقف أمام حوض من الرخام يغسل صدره وتحت إبطيه وهو ينخر. ورحت أنتظره بفارغ الصبر، وعندما انتهى فتح علبة من

المسحوق وراح يذرو منها بسخاء على صدره المجعد والجاف كجلد الفيل.

عندما رجعت إلى الغرفة وجدت مارا تدخن سيجارة وتداعب نفسها. كانت تتحرق شهوة. عدنا مرة أخرى، وكانت تجثو على يديها وركبتيها هذه المرة. بدأت الغرفة تئن وتنتفخ، وأخذت الجدران تتعرق، وكاد الفراش المحشو بالقش يلامس الأرض. وبدأت العملية تأخذ مظاهر وسمات حلم سيء. ومن نهاية الممر جاء صوت أزيز متقطع لشخص مصاب بالربو، بدا كصوت عاصفة تئز عبر فتحة جرذ مجعدة.

سمعنا أحداً يتحسس الباب فيما كانت على وشك الوصول إلى الرعشة. انزلقت من فوقها ومددت رأسي من الباب. سكير يبحث عن غرفته. وبعد بضع دقائق، عندما توجهت إلى الحمام كان مايزال يبحث عن غرفته. عندما عدت لأواصل ما كنت قد بدأته، أحسست كأن قضيبي مصنوع من أربطة مطاطية قديمة. فلم أعد أشعر بذلك الطرف، وكنت أولجه في شقها كما لو كنت أدفع قطعة من الشحم الصلب في أنبوب لتصريف المياه. كما أن البطارية كانت قد أفرغت ولم تعد فيها أي شحنة أخرى. الشيء الذي فاجأني هو أن قضيبي بقي منتصباً مثل مطرقة، وقد فقد مظهره كأداة جنسية، وبدا كقطعة رخيصة تباع في مخازن الخمسة عشر سنتاً، مثل أداة صيد سمك ملونة ناصعة لا طعم لها.

عند الفجر، قمت عنها وغططت في غيبوبة انتهت بحلول المساء عندما سمعت طرقاً على الباب. نظرت من النافذة فرأيت مجموعة من الأسقف المكسوة بالقطران تتناثر هنا وهناك وفوقها الحمامات. ومن اتجاه المحيط تناهى إلى سمعي هدير الأمواج تلتها سيمفونية أصوات صفيحة معدنية ساخنة يبردها الرذاذ إلى درجة تسع وثلاثين درجة. وكانت أصوات دندنة وهمهمة تنبعث من الفندق مثل ذبابة مستنقع سمينة تحتضر في بقعة منعزلة من غابة صنوبر.

حين عدت إلى المدينة، استفسرت مود بطريقتها المؤدبة الملتوية إن كنت قد أمضيت عطلة جميلة. وألمحت إلى أني أبدو منهكاً بعض الشيء، وأضافت أنها تفكر بأن تأخذ هي نفسها إجازة لبعض الوقت، وقد تلقت دعوة من صديقة لها من الدير لتمضي بضعة أيام في بيتها الريفي. قلت لها إنها فكرة عظيمة.

وبعد يومين رافقتها هي والطفلة إلى المحطة. وسألتني إن كنت لا أمانع في مرافقتهما جزءاً من الطريق، ولم أر مانعاً في ذلك. زد على ذلك، فقد ظننت بأنها ربما تريد أن تخبرني شيئاً مهماً. صعدت إلى القطار وقطعت مسافة إلى الريف، ورحنا نتحدث عن أشياء غير ذات أهمية، وكنت أتساءل طوال الوقت متى ستفتح الموضوع، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. وأخيراً نزلت من القطار ورحت ألوح لهما مودعاً. وأخذت تحث الطفلة «قولي لبابا وداعاً، فلن تريه لبضعة أسابيع». مع السلامة! مع السلامة! لوحت بطيبة قلب، مثل أي أب من الضواحي يودّع زوجته وطفلته. قالت إنها ستغيب بضعة أسابيع. سيكون ذلك رائعاً. رحت أتمشى ذهاباً وإياباً على الرصيف بانتظار القطار وأنا أفكر بجميع الأشياء التي سأفعلها في غيابها. مارا ستكون سعيدة. سيكون الأمر مثل قضاء شهر عسل: فبوسعنا أن نفعل مليون شيء رائع على امتداد أسابيع عديدة.

في اليوم التالي صحوت وأنا أشعر بألم شديد في أذني. خابرت مارا وحثثتها على مقابلتي في عيادة الطبيب. كان الطبيب أحد أصدقاء الزوجة الشيطانيين. وكاد يقتل الطفلة ذات مرة بأدواته التي كانت تستخدم للتعذيب في القرون الوسطى، والآن جاء دوري. تركت مارا تجلس في الخارج على مقعد قرب المدخل باتجاه الحديقة.

بدا الطبيب مسروراً برؤيتي، ودخل معي في نقاش شبه أدبي، وراح يغلي أدواته. ثم اختبر قفصاً زجاجياً يدار بالكهرباء شبيه بساعة شفافة لكنها كانت في الواقع أداة لاإنسانية من النوع الشيطاني لمص الدماء أراد أن يجربها عليّ.

لقد عبث الكثير من الأطباء بأذني فأصبحت خبيراً بذلك الآن. وكان كل التهاب جديد يعنى أن العظم الميت يقترب أكثر وأكثر من الدماغ. وأخيراً سيكون هناك الاحتكاك العظيم، إذ سيصبح العظم خلف الأذن كفرس بري طائش، وستكون هناك حفلة موسيقية من المناشير والمدقات الفضية، وسأُنقل إلى البيت ووجهي ملتف ومتهدل على أحد الجانبين ككاتب متحمس مصاب بالفالج.

قال «طبعاً لم تعد تسمع بهذه الأذن؟» وغمس سلكاً حاراً داخل جمجمتي دون أن يحذرني.

أجبت وأنا أكاد أنزلق من المقعد من الألم: «لا، أبداً».

فقال وهو يحرك خطافاً شيطاني المظهر: «سيؤلمك هذا قليلاً».

واستمر الأمر على هذا المنوال، كل حركة أكثر إيلاماً من سابقتها، حتى وصلت إلى درجة من الألم أردت فيها أن أركله في بطنه. وكان القفص الكهربائي مايزال هناك: ليغسل القنوات ويستخرج أخر نقطة من القيح، ويخرجني إلى الشارع مثل حصان البرونكو الشموس.

قال وهو يشعل سيجارة لأحصل على قليل من الراحة: «إنه عمل كريه، وأنا شخصياً لا أريد أن أفعل ذلك. إذا أصبح وضعك أسوأ فمن الأفضل أن أجري لك عملية».

جلست لكي يغسلها. أدخل الخرطوم وشغّل المفتاح. أحسست وكأنه يغسل دماغي بمحلول من حامض البروسيك. وبدأ القيح يسيل خارجاً يشوبه خط رقيق من الدم. كان الألم لا يطاق.

صاح بعد أن أصبح لون وجهي أبيض شاحباً: «هل تؤلمك حقاً إلى هذا الحد؟».

قلت: «إنها تؤلم أكثر من ذلك بكثير، إذا لم توقفها فإني سأحطمها. أفضّل أن يكون لدي ثلاث عظمات خلف أذني وأبدو كضفدع مجنون».

سحب الخرطوم ومعه بطانة أذني، بطانة المخيخ، بطانة إحدى كليتي ونخاع عظم عصعصي.

قلت: «أحسنت صنيعاً، متى أعود ثانية؟».

قال إنه يرى أنه من الأفضل أن أعود في الغد ـ ليرى إن كانت قد تحسنت.

ذعرت مارا عندما رأتني. أرادت أن تأخذني إلى البيت حالاً وتعتني بي. كنت منهكاً للغاية بحيث لم أعد أحتمل وجود أحد بقربي. ودعتها بسرعة وقلت لها «قابليني غداً».

مشيت مترنحاً إلى البيت كالسكران وارتميت على الأريكة، وغططت في نوم عميق كشخص مخدر. عندما صحوت كان الفجر قد بدأ يبزغ. شعرت بارتياح شديد. نهضت وذهبت أتمشى في الحديقة. كانت الحياة قد بدأت تدبّ في البجعات: لا يوجد لها عظام رقبة.

حين يتلاشى الألم تبدو الحياة عظيمة، حتى دون أن يكون لديك نقود أو أصدقاء أو طموحات كبيرة. مجرد أن تتنفس بسهولة، أن تمشي دون تشنج مفاجئ أو اختلاج، عندها تصبح البجعات في غاية الجمال، والأشجار أيضاً، بل وحتى السيارات. إن الحياة تتحرك على زلاجات، الأرض حبلى وتنقل دائماً حقولاً مغناطيسية جديدة من الفضاء. أنظر كيف تحني الريح أنصال الأعشاب الصغيرة. إن كل شيء يستجيب. وإذا كانت الأرض نفسها تتألم، فليس بإمكاننا أن نفعل شيئاً. إن الكواكب لا تصاب بألم في الأذن، إنها منيعة، رغم أنها تحمل فوقها آلاماً ومعاناة يعجز اللسان عن وصفها.

وصلت إلى المكتب قبل وقت الدوام لأول مرة. عملت بنشاط منقطع النظير دون أن أحس بالتعب. التقيت بمارا في الوقت المحدد، كانت تجلس أيضاً على مقعد الحديقة، في المكان ذاته.

اكتفى الطبيب هذه المرة بإلقاء نظرة على أذني فقط، وأزال طبقة رقيقة من الجلد فوق الجرح، ومسحها بمرهم مسكن وغطاها. ودمدم «تبدو جيدة، تعال بعد أسبوع».

كنت أنا ومارا في حالة من الحبور. تناولنا العشاء في مطعم خارج المدينة، وتناولنا معه قليلاً من نبيذ التشيانتي. كان المساء معتدلاً، وملائماً للتنزه على العشب الأزغب. بعد حين اضطجعنا على العشب ورحنا نحدق في النجوم. سألتني مارا: «هل تظن حقاً أنها ستغيب عدة أسابيع؟».

كم سيكون الأمر رائعاً لو تم ذلك.

قلت: «ربما لن تعود، لعل ذلك ما كانت تريد أن تقوله لي عندما طلبت مني أن أرافقها مسافة من الطريق. لعلها جنت في آخر دقيقة».

لم تكن مارا تظن أنها من الصنف الذي يجعلها تُقدم على تضحية كهذه. يمكننا أن نتمتع بالسعادة لفترة من الزمن، يمكننا أن نتناسى وجودها.

قالت مارا: «كم أتمنى أن نهرب من هذا البلد معاً، أتمنى أن نتمكن من الذهاب إلى بلد آخر، إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد».

وافقتها وقلت إن ذلك سيكون شيئاً مثالياً. قلت: «سنفعل ذلك في نهاية الأمر، لا يوجد أحد أهتم به هنا. لقد كانت حياتي كلها بلا معنى - حتى جئت أنت».

وفجأة قالت مارا: «لنذهب ونجذف بقارب في البحيرة». نهضنا وسرنا باتجاه أحد المراكب. كان الوقت متأخراً جداً، وكانت المراكب جميعها مربوطة بسلاسل. بدأنا نمشي على غير هدى في ممر بجانب الماء، وسرعان ما وصلنا إلى استراحة صغيرة مهجورة بنيت فوق سطح الماء. جلست على المقعد الصلب وجلست مارا على حضني. كانت ترتدي فستانها السويسري المنقط الذي كنت أحبه عليها كثيراً، ولم تكن ترتدي تحته شيئاً. نزلت عن حضني لحظة ورفعت فستانها واعتلتني وباعدت بين ساقيها. التحم أحدنا بالآخر. وعندما انتهينا جلسنا لحظات دون أن ننفصل عن بعضنا، بل راح واحدنا يمضغ شفاه الآخر وأذنه بصمت.

ثم نهضنا وغسلنا أنفسنا بمناديلنا على حافة البحيرة. وبينما كنت أجفف ذكري بذيل قميصي شدتني مارا من ذراعي فجأة وأشارت إلى شيء يتحرك وراء الأجمة. لم أر سوى شيء يلمع. زررت ملابسي الداخلية بسرعة وأمسكت مارا من ذراعها وعدنا إلى الممر المكسو بالحصى ورحنا نمشي ببطء في الاتجاه المعاكس.

قالت مارا: «إنه شرطي، أنا متأكدة من ذلك، إنهم يفعلون ذلك، هؤلاء المنحرفون القذرون. إنهم يختبئون دائماً وراء الشجيرات ويتجسسون على الناس».

وما هي إلا برهة، حتى سمعنا خطوات ثقيلة وراءنا.

قال: «انتظرا دقيقة، أنتما الاثنان، أين تظنان أنكما ذاهبان؟».

قلت متظاهراً بأني مغتاظ: «ماذا تعني؟ ألا ترى إننا نتمشى؟».

قال «إنه وقت التنزه، وأرى أن أصطحبكما معي إلى المخفر. ماذا تظن هذه ـ مزرعة للسفاد؟».

تظاهرت بأني لم أفهم قصده، فقال: «من الأفضل أن تُبعد هذه السيدة قبل أن أقبض عليك».

«إنها زوجتي».

«هه... زوجتك، هل هي حقا زوجتك؟ حسناً، ألا يدعو هذا إلى الضحك؟ مجرد مداعبات غرامية وهديل، ايه؟ وتغسل عورتك على الملأ أيضاً ـ لعنني الله إن كنت قد رأيت شيئاً كهذا في حياتي. الآن لا تستعجل الأمور. أنت مدان بإساءة خطيرة، يا فتى، وإذا كانت هذه زوجتك فهي في ورطة أيضاً».

«انتظر قليلاً، إنك لا تعني ما تقول...».

قاطعني بسؤاله: «ما اسمك؟» ومد يده ليخرج دفتر ملاحظاته الصغير.

قلت له اسمي.

«وأين تسكن؟».

قلت له.

«واسمها؟».

«نفس اسمي ـ إنها زوجتي، كما قلت لك».

قال بخبث وكراهية قذرة «إذن قلت لي، حسناً. ماذا تعمل لكسب قوتك؟ هل تعمل؟».

سحبت محفظتي وأريته بطاقة شركة كوسموديمونيك التي أحملها دائماً والتي تؤهلني لأن أركب مجاناً في أنفاق المترو في مدينة نيويورك الكبرى. أخذ يحك رأسه عندما رآها وسوّى قبعته فوق رأسه «إذاً فأنت مدير التوظيف، أليس كذلك؟ إنه منصب مسؤول لشاب مثلك»، وتوقف لحظات ثقيلة ثم قال: «أظن أنك تريد أن تحتفظ بعملك لفترة أطول، أليس كذلك؟».

وفجأة تخيلت اسمي مكتوباً بالخطوط العريضة في العناوين البارزة في جرائد الصباح. إنها قصة جميلة يمكن أن يكتبها مراسلو الصحف إذا أرادوا ذلك. لقد آن الأوان لعمل شيء.

قلت: «أنظر أيها الشرطي، دعنا نتحدث بهدوء. فأنا أسكن قريباً من هنا ـ لماذا لا تأتي معنا إلى البيت؟ ربما كنت أنا وزوجتي طائشين قليلاً ـ إذ لم ينقضِ على زواجنا زمن طويل. لم يكن علينا أن نفعل ذلك في مكان عام، لكن الوقت ليل ولا يوجد أحد...».

قال: «حسناً، ربما توجد وسيلة لحل ذلك، إنك لا تريد أن تفقد عملك، أليس كذلك؟».

قلت: «لا، لا أريد». ورحت أتساءل في الوقت نفسه عن المبلغ الموجود في جيبي وفيما إذا كان سيقبله أم لا.

راحت مارا تتلمس داخل حقيبتها.

«لا تستعجلي يا سيدتي. تعرفين أنك لا تستطيعين أن ترشي

مسؤولاً عن القانون. بالمناسبة، ما الكنيسة ألتي تذهبين إليها، إن لم أكن فضولياً؟».

أجبت بسرعة، وأعطيته اسم الكنيسة الكاثوليكية عند ناصية شارعنا.

«إذن أنت واحد من أبناء الأب أومالي. حسناً، لماذا لم تقل لي منذ البداية؟ من المؤكد أنك لا تريد أن تلحق العار بالأبرشية، أليس كذلك؟».

قلت له إني سأموت إن سمع الأب أومالي بذلك.

«وهل تزوجتما في كنيسة الأب أومالي؟».

«نعم، يا أبتي، أقصد أيها الشرطي. تزوجنا في نيسان الماضي». كنت أحاول أن أعدّ الدولارات الورقية في جيبي دون أن أخرجها. وبدا لي أنه لا يوجد سوى ثلاثة أو أربعة دولارات. وتساءلت كم دولاراً يوجد مع مارا. أخذ الشرطي يمشي ومشينا معه، ثم توقف قليلاً، وأشار بهراوته إلى الأمام، وأشاح برأسه قليلاً وبدأ مناجاة بطيئة وقال وقد رفع يده اليسرى إن أقصر طريق للخروج من الحديقة هو السير بشكل مستقيم وقال حذار، وأحسنا السلوك وما إلى هنالك.

حشرنا أنا ومارا بضعة دولارات ورقية بسرعة في يده وشكرناه للطفه معنا، وتركناه وهرعنا بسرعة البرق.

قلت: «أظن أنه من الأفضل أن تعودي معي إلى البيت، وإذا لم يكن المبلغ الذي أعطيناه إياه كافياً، فمن المحتمل أن يأتي لزيارتنا. أنا لا أثق بأولاد الزنا القذرين هؤلاء... الأب أومالي، خراء».

أسرعنا إلى البيت وأغلقنا القفل من الداخل. كانت مارا ما تزال ترتعد. أخرجت قليلاً من نبيذ البورت المخبأ في الخزانة.

قلت وأنا أفرغ في فمي قدحاً مترعاً: «ما ينقصنا هو أن تعود مود وتفاجئنا».

«لا أظن أنها يمكن أن تفعل ذلك؟».

«لا يعرف سوى المسيح ما يمكن أن تفعله».

قالت مارا: «أظن أنه من الأفضل أن ننام هنا، فأنا لا أحب أن أنام في سريرها».

احتسينا النبيذ وخلعنا ثيابنا. وخرجت مارا من الحمام وقد ارتدت غلالة مود الحريرية. رؤيتها وهي في غلالة مود أجفلتني. قالت: «إني زوجتك، أليس كذلك؟» وطوقتني بذراعيها. أثارني قولها ذلك. ثم أخذت تجول في الغرفة وتتفحص الأشياء.

سألتني «أين تكتب؟ على تلك الطاولة الصغيرة؟».

أومأت برأسي.

«يجب أن يكون عندك طاولة كبيرة وغرفة لك. كيف يمكنك أن تكتب هنا؟».

«عندي طاولة مكتب في الطابق العلوي».

«أين؟ في غرفة النوم؟».

«لا، في الصالة. إنها أشبه بصالة حانوتي رائعة فوق، هل تودين رؤيتها؟».

قالت على الفور: «لا، أفضل أن لا أصعد إلى فوق. سأفكر بك دائماً وأنت جالس هنا في هذه الزاوية بالقرب من النافذة... هل كتبت لي كل تلك الرسائل هنا؟».

قلت: «لا، كتبت لك من المطبخ».

قالت: «أرني.. فقط أرني أين كنت تجلس. أريد أن أرى كيف كنت تبدو».

أمسكتها من يدها وقدتها إلى المطبخ. جلست وتظاهرت بأني أكتب لها رسالة. انحنت فوقي ووضعت شفتيها على الطاولة وراحت تقبل البقعة المحاطة بذراعي.

قالت: «لم أحلم في عمري أني سأرى بيتك»، وأضافت: «من الغريب رؤية المكان الذي له هذا التأثير على حياتك. إنه مكان مقدس. أتمنى أن نأخذ هذه الطاولة معنا وهذا الكرسي ـ كل شيء ـ حتى الموقد. أتمنى أن ننقل الغرفة بكاملها ونبنيها في بيتنا الخاص. هذه الغرفة تخصنا نحن».

نمنا على الأريكة في القبو. كانت الليلة دافئة فنمنا عاريين. وفي حوالى الساعة السابعة صباحاً، وفيما كنا مستلقيين وذراعانا متشابكين، دُفع الباب بقوة ومن كانت تقف سوى زوجتي العزيزة، والمالك الذي يسكن هو وابنته في الطابق العلوي. أُخذنا على حين غرة ونحن في غمرة اللذة. قفزت من السرير وأنا عار تماماً. اختطفت منشفة من فوق الكرسي بجانب الأريكة ولففتها حول خصري وانتظرت إصدار الحكم. أشارت مود إلى شهودها بأن يدخلوا ويلقوا نظرة إلى مارا، التي ما زالت مستلقية هناك ورفعت الغطاء تغطي به صدرها.

قالت مود «أرجو أن تخرج هذه المرأة من هنا بأسرع مايمكن»، واستدارت على عقبيها وصعدت إلى الطابق العلوي مع شهودها.

«هل نامت في سريرنا في الطابق العلوي طوال الليل؟ إذا كان الأمر كذلك، لماذا انتظرت حتى الصباح؟».

«هدّئي من روعك يا مارا. لقد انتهى كل شيء الآن. يمكننا أن نبقى ونتناول الفطور».

ارتديت ملابسي بسرعة وخرجت لأحضر قليلاً من لحم الخنزير والبيض.

قالت: «يا إلهي، لا أفهم كيف يمكنك أن تأخذ الأمور بهدوء شديد»، وجلست إلى الطاولة وسيجارة بين شفتيها، تراقبني وأنا أعد الفطور. «أليست لديك أية مشاعر؟».

«بالتأكيد لديّ. إن شعوري هو أن كل شيء يسير على نحو رائع. فأنا حر، هل تدركين ذلك؟».

«ماذا ستفعل الآن؟».

«سأعمل لتحقيق شيء واحد. سأذهب هذا المساء إلى بيت أولريك - ربما تقابليني هناك. لدي إحساس بأن صديقي ستانلي يقف وراء كل هذا. سنرى».

في المكتب أرسلت برقية إلى ستانلي كي يقابلني في المساء عند أولريك. وأثناء النهار تلقيت مكالمة هاتفية من مود اقترحت فيها عليّ أن أجد لنفسي غرفة، وقالت إنها تريد الطلاق بأسرع ما يمكن. لم أعلق على الموضوع، بل تكلمت معها بطريقة جدية بحتة وقلت لها إني سأبلغها متى سأرغب في استعادة أشيائي.

أخذ أولريك الأمر بجدية كبيرة. فقد كان ذلك يعني له تغييراً في الحياة، وكانت كل التغييرات خطيرة بالنسبة له. ومن الناحية الأخرى كانت مارا متمالكة نفسها تماماً وتتطلع إلى الحياة الجديدة. وبقى أن نرى كيف سيعالج ستانلي الأمر.

وفي الحال قرع الجرس، وكان هو عند الباب. كان يبدو شريراً كعادته وثملاً كالبابا. لم أره هكذا منذ سنوات. وقال إنها أهم مناسبة ويجب أن نحتفل بها. وكان الحصول منه على أية تفاصيل أمراً من ضرب المحال. قال: «قلت لك سأدبر الأمر لك»، وأضاف، «لقد تدخلت في الأمر كما تتسرب الذبابة في نسيج العنكبوت. لقد رتبت الأمر بدقة. أنا لم أسألك أي سؤال، أليس كذلك؟ كنت أعرف ماتريد أن تفعله».

أخذ جرعة من قنينة كان يحملها داخل جيب معطفه، بل حتى لم يكلف نفسه عناء رفع قبعته. كان بوسعي أن أراه الآن كما كان يبدو عندما كان في حصن أوغليثورب. كان من صنف الرجال الذين أود أن أتحاشاهم، عندما يكونون في مثل هذه الحالة.

رن جرس الهاتف. كان الدكتور كرونسكي يسأل عن السيد ميلر. صاح «مبروك! سآتي لأراك بعد بضع دقائق. لدي شيء أريد أن أخبرك إياه».

قلت: «بالمناسبة، هل تعرف شخصاً لديه غرفة إضافية يريد أن يؤجرها؟».

«هذا تماماً ما أردت أن أكلمك عنه. عندي مكان يلائمك تماماً ـ في البرونكس. إنه صديقي ـ وهو طبيب. يمكنك أن تأخذ جناحاً كاملاً من الدار لنفسك. لماذا لا تأخذ مارا معك؟ سيعجبك المكان. عنده غرفة فيها طاولة بلياردو في الطابق الأرضي، ومكتبة جيدة، و...».

سألته: «هل هو يهودي؟».

«هل هو يهودي؟ إنه فوضوي، تلمودي ومناصر للإجهاض. شاب ظريف جداً ـ وإذا احتجت إلى أي مساعدة فسيعطيك قميصه. لقد مررت لزيارتك في بيتك ـ هكذا علمت. يبدو أن زوجتك سعيدة حتى الموت، فهي ستعيش حياة جيدة من النفقة التي ستدفعها لها».

قلت لمارا ما قاله لي، وقررنا أن نلقي نظرة على المكان فوراً. اختفى ستانلي. قال أولريك إنه ربما ذهب إلى الحمام.

توجهت إلى الحمام وقرعت الباب. لم أسمع رداً. دفعت الباب فانفتح. كان ستانلي مستلقياً في الحوض بكامل ثيابه، قبعته تغطي عينيه، الزجاجة الفارغة في يده. تركته مستلقياً هناك.

قلت لأولريك ونحن نشق طريقنا إلى الخارج: «أظن أنه قد ذهب».

8

البرونكس! كنا قد وُعدنا بجناح كامل من البيت ـ جناح ديك رومي، مكسو بالريش والبثور. وحسب رأي كرونسكي «العرين». كانت حقاً فترة انتحارية بدأت بالصراصير وشطائر البسطرمة الساخنة وانتهت في غرفة صغيرة في نيوبيرغ، في شارع ريفرسايد حيث بدأت السيدة كرونسكي الثانية مهمة لا حمد فيها ولا شكوراً بإظهار نوبات لامحدودة من الجنون.

وبتأثير من كرونسكي قررت مارا أن تغير اسمها من مارا إلى مونا. وحدثت هنا في ضواحي البرونكس تغييرات هامة أخرى.

وصلنا إلى مخبأ الدكتور أونيريفيك في الليل. وكان قد هطل قليل من الثلج، وتشكلت طبقة بيضاء صافية على زجاج الباب الأمامي الملون. كان من نوع البيوت التي تصورت أن كرونسكي سيختارها لنقضي فيها «شهر عسلنا». حتى الصراصير، التي كانت تعلو الجدران حالما أضأنا النور، بدت مألوفة. وكانت طاولة البلياردو، التي انتصبت في زاوية الغرفة، مربكة في البداية، بيد أنه عندما بدأ ابن الدكتور أونيريفيك الصغير يفتح فتحة بنطاله ويبول على ساق الطاولة، أخذ كل شيء يبدو تماماً كما يجب أن يكون.

كان الباب الأمامي يفضي مباشرة إلى غرفتنا، المجهزة بطاولة بلياردو، وسرير نحاسي كبير ولحاف من الريش، وطاولة للكتابة، وبيانو ضخم، وحصان خشبي، وموقد، ومرآة متصدعة

تكسوها نقاط سود من براز الذباب ومبصقتين ومقعد. وكان يحيط بالغرفة مالا يقل عن ثماني نوافذ، تغطي اثنتين منهما ستائر لا يمكن إنزالها أكثر من ثلثي المسافة، وبالطبع كانت النوافذ الأخرى عارية ومكللة بأنسجة العنكبوت. كان مكاناً رائعاً حقاً، إذ لم يكن أحد يستأذن للدخول إلى الغرفة بقرع الجرس أو الطرق على الباب، بل كان كل فرد يدخل دون استئذان ويجد طريقه على أفضل وجه. «كانت غرفة تطل على مشاهد» من الداخل والخارج.

هنا بدأنا حياتنا معاً. يا لها من بداية ميمونة وموفقة! ولم يكن ينقصنا سوى مغسلة نبول فيها لنجاري صوت المياه الجارية. وعندما كان أحد أفراد عائلة الدكتور أونيريفيك يمل من الجلوس في غرفة الغسيل في الطابق السفلي، يتهادى إلى غرفتنا كطائر من طيور الأوك والبطريق ويراقبنا بصمت مطبق ونحن نتناول طعامنا أو نستحم أو نمارس الجنس أو نفلّي بعضنا من القمل. وكانوا يقفون هناك صامتين كحيوانات الرنة ولم يكن شيء يثير فزعهم أو دهشتهم، حتى لو كان جنيناً أجرب.

كان الدكتور أونيريفيك مشغولاً دائماً، وكان مختصاً بأمراض الأطفال، لكن الأطفال الوحيدين الذين شاهدناهم خلال إقامتنا كانوا أجنة يقوم بتقطيعها إلى قطع متناهية في الصغر ويطرحها في البالوعة. وكان لديه ثلاثة أطفال خارقين، لذا كان يتركهم يفعلون ما يحلو لهم. فقد كان الابن الأصغر، الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات، عبقرياً في الجبر، ومن المؤكد أنه كان على وشك أن يصبح مهووساً بإشعال الحرائق، وعالماً رياضياً ممتازاً، إذ أضرم النار في البيت مرتين. وأظهرت آخر مأثرة له أبداعاً عبقرياً: فقد أشعل النار في عربة أطفال فيها طفل رضيع ودفع العربة من فوق هضبة باتجاه شارع مزدحم.

لم يحاول أحد أن يتصدى لمشكلة الصراصير. فقد كانت الملايين منها تختبئ في الفتحات وتحت الخشب ووراء ورق

الجدران. ولم يكن عليك سوى أن تضيء النور لتخرج جحافل الصراصير من الجدران والسقف والأرضية والشقوق وتسير زرافات ووحدانا في استعراض، فتنتشر وتناور كما لو أنها تطيع أوامر صرصار سوبر غير مرئي. في البداية كانت مقرفة، ثم أصبحت مقززة، وأخيراً، ومع الظواهر الغريبة المزعجة الأخرى التي كانت تميّز بيت الدكتور أونيريفيك، فقد أصبح وجودها مقبولاً لكل من هب ودب باعتبارها أمراً حتمياً.

كان صوت البيانو نشازاً تاماً. فقد كانت زوجة كرونسكي، ذلك المخلوق الخجول، الشبيه بالفأر، ذات الفم الملتوي بابتسامة أبدية مستهجِنة، تجلس وتعبث بمفاتيح هذه الآلة، غير عابئة بأصوات النشاز القبيحة التي تصدرها أصابعها الماهرة. فإذا سمعتها وهي تعزف «باركارول» مثلاً، فإنك ستشعر بعذاب حقيقي. إذ يبدو أنها لم تكن تسمع الألحان الموسيقية الكريهة، والمعزوفات ذات الأصوات المجلجلة. كانت تعزف وترتسم على وجهها تعابير من الصفاء التام، وتبدو روحها تستطير طرباً، وتصبح أحاسيسها خدرة ومفتونة. كان يغمرها هدوء سام لا يمكن أن يخدع أحداً، حتى هي نفسها، ففي اللحظة التي تتوقف فيها أصابعها عن العزف، كانت تعود إلى حقيقتها ـ التافهة، الوضيعة، الحقودة.

ومما يثير الاستغراب، الطريقة التي كان يتظاهر فيها كرونسكي بأنه عثر على جوهرة في زوجته الثانية هذه. وكان يمكن أن يكون الأمر مثيراً للشفقة، لو لم يكن مأساوياً، لو لم يكن هو نفسه شخصاً تافهاً إلى هذه الدرجة. فقد كان يتقرب منها كخنزير يحاول أن يكون عفريتاً. ولم تكن النقر والشعرات الطويلة القاسية في وجهها تسهم إلا في إبراز جسدها الضخم الثقيل الأخرق الذي يخفي روحاً شديدة الحساسية. وكان هو يتلوى ويدور أمامها كدلفين مجروح، واللعاب يسيل من طرف فمه، والعرق يتصبب من حاجبيه ويغرق عينيه النديتين. ورغم أننا كنا نرثي له لأسلوبه

التمثيلي المروّع في كلامه الذي كان يعرضه علينا في هذه المناسبات، إلا أنه كان يضحكنا حتى تطفر الدموع من عيوننا.

وبالطبع كان هناك الدكتور أونيريفيك نفسه، الذي كان يمكن للبيت كله أن يشعر بحضوره، ولا يشعر به كإنسان. ماذا كان يجري في مكتبه في الطابق الثاني؟ لا أحد يعرف حقاً. وكان كرونسكي يعطي بطريقته الميلودراميه المسهبة صوراً خيالية خرقاء عن الإجهاض والإغواء، وعن ذلك اللغز الدموي من المناشير التي لا يمكن إلا لوحش أن يجمع عناصرها. وقد أعجبت بالدكتور أونيريفيك، في المناسبات القليلة التي كنا نلتقي فيها، وعرفت أنه رجل لطيف، طيب القلب، على اطلاع سطحي بالأشياء، وذو اهتمام عميق بالموسيقى. ولم أشاهده مرة يفقد توازنه إلا في بضع دقائق، ويمكن تبرير ذلك.

كيف سمح مدير العمال في شركة كوسموديمونيك العظيمة للبرق لنفسه أن يقع في فخ هذا العرين الجنسي المشبع بالدم أمر لا يمكن فهمه. ففي اللحظة التي ترجلت فيها من القطار في المحطة، ورحت أهبط الدرج في قلب البرونكس، عدت شخصاً آخر. وكانت مؤسسة الدكتور أونيريفيك، لا تبعد سوى بنايات قليلة تكفي لجعل ذهني يتشتت، وتمنحني وقتاً كافياً لأتمثل دور العبقري الحساس، الشاعر الرومانسي، الصوفي السعيد الذي عثر على حبيبته الحقيقية، والذي كان مستعداً لأن يموت من أجلها.

كان ثمة تناقض فظيع بين الحالة الداخلية الجديدة للكينونة هذه والجو المادي للجوار الذي كان علي أن أغوص فيه كل ليلة. ففي كل مكان كانت تلوح لك الجدران المملة الرتيبة المتجهمة، تعيش وراءها عائلات تتمحور حياتها حول العمل. عبيد طموحون صبورون دؤوبون، ليس لهم هدف سوى الانعتاق والتحرر. وهم في خلال ذلك يتحملون أي شيء، لا يعبؤون بالتعب، محصنون ضد البشاعة. أرواح صغيرة بطلة تستحوذ عليها فكرة أن تحريرها من ربق عبودية العمل لا يسهم إلا في تضخيم قذارة وبؤس حياتها.

ما الدليل الذي أملكه على أنه قد يكون للفقر وجه آخر؟ فقط الذكرى الضبابية الباهتة، من طفولتي في شارع 14 في بروكلن. ذكريات طفل كان يعيش في مأوى، أتيحت له كل الفرص، ولم يعرف سوى البهجة والحرية ـ حتى أصبح في العاشرة من العمر.

لماذا ارتكبت تلك الحماقة وتحدثت إلى الدكتور أونيريفيك؟ إذ لم أكن أرغب في التحدث عن اليهود في ذلك المساء ـ بل كنت قد نويت أن أتحدث عن كتاب *الطريق إلى روما*. ذلك الكتاب عن بيلوك الذي أضرم النار في داخلي. لقد كان رجلاً حساساً، عالماً، رجلاً كان تاريخ أوروبا ينبض في ذاكرته، وقد قرر أن يسافر من باريس إلى روما سيراً على الأقدام، لا يحمل شيئاً سوى حقيبة على ظهره وعصا صلبة يتكئ عليها. وفي الطريق، حدثت كل تلك الأشياء التي تحدث دائماً على الطريق. للمرة الأولى فهمت الفرق بين العملية والهدف، وأدركت الحقيقة بأن هدف الحياة هو أن تعيشها. كم حسدت هيلاري بيلوك على مغامرته! حتى هذا اليوم، أستطيع أن أرى في زوايا صفحاته الرسومات الصغيرة بقلم الرصاص التي رسمها عن الأسوار والقمم المستديرة والأبراج والحصون. ما علي إلا أن أفكر ثانية بعنوان كتابه وأنا أجلس في الحقول، أو أقف على أحد الجسور الجميلة من القرون الوسطى، أو أغفو بالقرب من قناة هادئة في وسط فرنسا. لم أكن أحلم بأنه يمكنني أن أرى تلك الأرض، أن أقف على الجسور نفسها، أن أسير في تلك الحقول، لم أكن أتصور أن ذلك يمكن أن يحدث لي! إنه قدري.

حين أفكر الآن بالحيلة التي حررتني، عندما أفكر بأنه أطلق سراحي من هذا السجن لأن الفتاة التي أحببتها كانت تريد أن تتخلص مني، ترتسم على وجهي ابتسامة حزينة، محيرة، غامضة. كم الأشياء مشوشة ومعقدة! إننا نشعر بالامتنان للذين يطعنوننا في الظهر، ونهرب من الذين يقدمون لنا المساعدة. إننا نهنئ أنفسنا على حظنا السعيد. لم أحلم قط أن حظنا السعيد قد يصبح مستنقعاً

يستحيل أن نخلّص أنفسنا منه. نجري إلى الأمام ونحن نتطلع إلى الخلف، نسرع بتهور لنقع في الفخ. إننا لا نهرب إلا إلى طريق مسدود.

أسير في البرونكس. خمسة أو ستة شوارع. مونا تنتظرني هناك. تضمني بشوق، كما لم نتعانق من قبل. سيكون أمامنا ساعتان فقط نمضيهما معا وبعدها ستغادر - ستذهب إلى المرقص حيث ستعمل جليسة للرجال. وعندما تعود في الثالثة أو الرابعة صباحاً، سأكون عندها أغط في نوم عميق، وستقلب الدنيا وتقعدها إذا لم أصحُ، إذا لم ألق ذراعي حول عنقها بحرارة وأقول لها أحبك، وأن لديها الشيء الكثير الذي تريد أن تقوله لي في كل ليلة ولا يوجد وقت لذلك. وفي الصباح، عندما أغادر تكون مستغرقة في النوم. نأتي ونذهب كقطارين يسيران على سكتين متقابلتين. هكذا بدأت حياتنا معاً.

أحبها من كل قلبي. إنها كل شيء بالنسبة لي، ومع ذلك فهي ليست كالنساء اللاتي كنت أحلم بهن، كتلك المخلوقات المثالية اللاتي عشقتهن في صباي. هي لا تشبه أي شيء كنت قد رسمته في مخيلتي. إنها صورة جديدة تماماً، شيء غريب، شيء رماه القدر في طريقي من المجهول. عندما أنظر إليها، وأشرع في حبها قطعة قطعة، أجد أنها كلها تفلت مني. حبي يزداد ويزداد، لكنها، تلك التي أسعى إليها بشوق عارم، تفلت مني كإكسير. إنها كلها لي، لكني لا أمتلكها. أنا مهووس بحب لم يظهره لي أحد من قبل - حب مطلق وغامر - ومع ذلك فإن يديّ ترفرفان إلى الأبد، أمسك وأقبض، ولكني لا أمسك شيئاً.

وفيما كنت عائداً إلى البيت في مساء أحد الأيام، رأيت بطرف عيني واحدة من تلك المخلوقات الحسية من الغيتو، بدا أنها خرجت من بين صفحات العهد القديم. كانت واحدة من اليهوديات التي ينبغي أن يكون اسمها روث أو راحيل، أو ربما مريم.

مريم! ذلك هو الاسم الذي أبحث عنه. أخذت أسأل نفسي لماذا كنت أرى أن هذا الاسم رائع جداً؟ كيف يمكن لمثل هذه الاسم البسيط أن يهيج فيّ هذه العواطف الجياشة؟ مريم... أجمل الأسماء. إذا كان بوسعي أن أقولب النساء جميعهن في الصورة المثالية، إذا كان بوسعي أن أمنح هذه المثالية كل الصفات التي أبحث عنها في المرأة، فإن اسمها سيكون مريم.

نسيت تماماً المخلوق الجميل الذي ألهمني هذه الأفكار. كنت أفكر بشيء ما، ومع تسارع خطواتي، ومع تسارع دقات قلبي بجنون أكثر، تذكرت فجأة وجه مريم، صوتها، شكلها، ملامحها التي عرفتها عندما كنت صبياً في الثانية عشرة. وكانت تدعى مريم بينتر. لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، لكنها كانت ممتلئة، مفعمة بالحيوية، متألقة كزهرة يفوح شذاها ـ لا نظير لها.لم تكن يهودية، بل لم تكن توحي، لا من قريب أو بعيد، بذكرى تلك المخلوقات الأسطورية في العهد القديم (أو لعلني لم أكن قد قرأت العهد القديم بعد). كانت تلك الصبية ذات الشعر الكستنائي الطويل، والعينين الشهلاوين النجلاوين، والفم الواسع قليلاً الذي يحييني بمودة وأنا ألقاها في الشارع، تلقائية دائماً، مسترخية دائماً، موفورة الصحة دائماً ومتألقة بطبيعتها الطيبة، عطوفة، ومع ذلك حكيمة، متفهمة تماماً. ولم يكن من الضروري أن تبادرها بأسلوب أخرق: كانت تتقدم نحوي دائماً وهي تشع بهذه البهجة الداخلية السرية، تتدفق على الدوام. غمرتني، أسرتني، احتوتني كأم، أدفأتني كعشيقة، أتت إليّ كعروس جنية. لم أفكر بها أفكاراً بذيئة: لم أشتهها أبداً، لم أشتهِ مداعبتها. أحببتها من الصميم، حباً جماً، وكنت في كل مرة ألاقيها فيها، كنت أشعر وكأنني ولدت من جديد. كل ما كنت أطلبه هو أن تبقى حية، أن تكون من هذه الأرض، أن تكون في مكان ما، في أي مكان، في هذا العالم، وأن لا تموت أبداً. لم أكن آمل في أن أحصل منها على شيء، لم أكن أريد منها شيئاً. كان مجرد وجودها يكفيني. نعم، كنت ألوذ بالبيت، أتوارى، وأشكر

الله بصوت عال لأنه بعث مريم إلى أرضنا هذه. يالها من معجزة! ويالها من نعمة أن يحب المرء هكذا!

لا أعرف إلى متى استمر ذلك. ولم تكن لدي أدنى فكرة إن كانت تعرف مدى هيامي بها أم لا؟ كنت عاشقاً، غارقاً في الحب حتى أذني، كنت مع الحب. أن تحب! أن تستسلم تماماً، أن تسجد أمام الصورة القدسية، أن تموت ألف ميتة في الخيال، أن تقضي على كل أثر من الذات، أن تجد الكون كله متجسداً ومكتنفاً في الصورة الحية للآخر! نقول مراهقة. تباً! إنها جرثومة حياة المستقبل، البذرة التي نخفيها، التي ندفنها في أعماقنا، التي نخنقها ونكتمها ونبذل مابوسعنا لندمرها ونحن ننتقل من تجربة إلى أخرى ونتعثر ونتخبط ونتيه عن الطريق.

وعندما كنت ألتقي بالمرأة المثالية الثانية ـ أونا غيفورد ـ كنت أمرض. في الخامسة عشرة من العمر والقرحة تنهش أعضائي الحية. كيف يمكنني أن أفسر ذلك؟ لقد خرجت مريم من حياتي، ليس بشكل مثير، بل بهدوء وصمت. لقد اختفت بكل بساطة، ولم أعد أراها، حتى أنني لم أعرف ماذا كان يعني ذلك. لم أفكر في الأمر. يأتي الناس ويذهبون، تظهر الأشياء وتختفي. وشأن الآخرين كنت في حالة مد وجزر، وكان كل شيء طبيعياً رغم تعذر تفسيره. كنت قد بدأت أقرأ، أقرأ بنهم. كنت أدور في داخلي، أطبق على نفسي، كما تطبق الزهور على نفسها في الليل.

أونا غيفورد لم تجلب سوى المعاناة والألم. أريدها، أحتاجها، لا أستطيع أن أعيش بدونها. لم تكن تقول نعم أو لا، لسبب بسيط هو أني لم أكن أملك الشجاعة لأطرح السؤال عليها. سأبلغ السادسة عشرة من العمر بعد فترة وجيزة، وما زال كلانا في المدرسة ـ سنتخرج في السنة القادمة. كيف يمكن لفتاة في عمرك، لمجرد أنك تومئ لها، أو تحدق فيها، أن تكون المرأة التي تصبح الحياة بدونها مستحيلة؟ كيف يمكنك أن تحلم بالزواج قبل أن تكون قد عبرت عتبة

الحياة؟ ولكن لو كنت قد هربت مع أونا غيفورد آنذاك، في سن الخامسة عشرة، لو كنت قد تزوجتها وأنجبت منها عشرة أطفال، لكان الأمر مناسباً. ماذا يهم لو أصبحت شيئاً مختلفاً تماماً، لو أصبحت في الحضيض؟ ماذا يهم إن كان ذلك يعني شيخوخة مبكرة؟ كنت بحاجة إليها ولكنها لم تلبي تلك الحاجة أبداً، وكانت تلك الحاجة كجرح يكبر ويكبر حتى أصبحت حفرة فاغرة فاها. ومع تقدم الحياة، ومع تزايد تلك الحاجة اليائسة التي أصبحت أكثر حدة، جررت كل شيء إلى الحفرة وطمرته فيها.

حين تعرفت إلى مونا لأول مرة، لم أكن أدرك مدى حاجتها إلي. ولم أكن أدرك أيضاً مدى التغيير الذي طرأ على حياتها، عاداتها، خلفيتها، ماضيها، لكي تقدم لي تلك الصورة المثالية عنها، التي سرعان ما انتابها الشك بسرعة بأني أنا الذي اختلق لها كل هذا. لقد غيرت كل شيء ـ اسمها، مكان ولادتها، أمها، نشأتها، أصدقاءها، أذواقها، حتى رغباتها. وكان من طبعها أنها أرادت أيضاً أن تغير اسمي، وهذا ما فعلته. أصبحت الآن فال، اسم التحبب لفالنتاين، الذي كنت طالما أخجل منه ـ كان يبدو لي أشبه باسم مخنث ـ ولكن بما أن الاسم بدر من شفتيها فقد أصبح يبدو وكأنه الاسم الذي يناسبني. لم يناديني أحد باسم فال، مع أنهم كانوا يسمعون مونا تكرره على أسماعهم بدون توقف. أما بالنسبة لأصدقائي فقد بقيت دائماً كما كنت، ولم يتأثروا بمجرد تغيير الاسم.

عن التغييرات... أذكر تماماً الليلة الأولى التي قضيناها في منزل الدكتور أونيريفيك. كنا قد أخذنا دشاً معاً، وكنا نرتجف من رؤية الأعداد الغفيرة من الصراصير التي داهمت الحمام. صعدنا إلى السرير تحت اللحاف المحشو بالريش، ومارسنا الحب بلذة عارمة في هذه الغرفة العامة الغريبة، الممتلئة بأشياء غريبة. التحمنا وانصهرنا بقوة في تلك الليلة. كنت قد انفصلت عن زوجتي وانفصلت هي عن والديها. لم نعرف لماذا قبلنا أن نعيش في هذا

البيت المغرق في الغرابة، ففي أعماقنا الحقيقية لم نكن نحلم بأن نختار مكاناً كهذا. لكننا لم نكن في وعينا الحقيقي. كنا متلهفين لأن نبدأ حياة جديدة، وأحس كلانا بالذنب، للآثام التي ارتكبها كل منا لنبدأ مغامرتنا الكبيرة. وفي البداية أحست مونا بذلك أكثر مني، أحست أنها مسؤولة عن هذا الانفصال. وقد أسفت على الطفلة التي خلفتها ورائي، وليس على زوجتي. لقد برّحت بها تلك الفكرة والخوف من أن أستيقظ يوماً وأدرك أني ارتكبت خطأ. بذلت المستحيل لتجعل من نفسها قطعة مني، لأن تحبني بمثل هذا الإخلاص، بمثل هذه التضحية بالذات، حتى تتلاشى. لم تكن تتعمد ذلك، بل حتى أنها لم تكن تدرك ماذا كانت تفعل، لكنها تعلقت بي بشدة بحيث أنني عندما أفكر في ذلك الآن تطفر الدموع من عيني. لأن ذلك لم يكن ضرورياً: كنت بحاجة إليها أكثر مما كانت بحاجة إلي.

وفيما كنا على وشك أن نخلد إلى النوم في تلك الليلة، وعندما أدارت ظهرها لي، انسل الغطاء عنها وأدركت، من الوضعية شبه الحيوانية التي اتخذتها، جمال ظهرها الرائع. انسل كفي فوق لحمها، ورحت أداعب ظهرها كما لو كنت أداعب خاصرة لبؤة. وكان من المستغرب فعلاً أني لم أدرك روعة ظهرها من قبل، فقد كنا قد نمنا معا مرات عديدة، ونمنا في شتى الأوضاع، لكني لم ألحظ روعته. والآن، وعلى هذا السرير العريض الذي بدا أنه يسبح في الضوء الباهت في الغرفة الكبيرة، نقشت صورة ظهرها في ذاكرتي. لم تكن لدي أفكار محددة عنه - مجرد أحاسيس ممتعة غامضة عن القوة والحيوية اللتين تتمتع بهما. كان بإمكانها أن تحمل العالم على ظهرها! لم أتصور شيئاً كهذا في حياتي، لكن الفكرة كانت هناك، في منطقة غامضة مبهمة من وعيي، بل بالأحرى على رؤوس أصابعي.

تحت مياه الدش رحت أمازحها بشأن بطنها التي أخذت تكبر

وتتكور، وأدركت في الحال أنها كانت في غاية الحساسية إزاء قوامها. لكني لم أكن أنتقدها على لحمها الزائد ـ الذي سرني أن أكتشفه. وبعد ذلك، وتحت بصري، أخذ ينكمش هذا الجسد الذي سبق أن كان ممتلئاً بسخاء. وبدأ التعذيب الداخلي مفعوله. وفي الوقت نفسه بدأ لهيب النار الذي كان يتأجج فيها يزداد إشراقاً وسطوعاً. وقد استهلكتها العاطفة اللاهبة التي عاشت في لحمها، فقد أخذ عنقها المرمري القوي، ذلك الجزء من جسدها الذي كان أشد مايثيرني، ينحف وينحف حتى أصبح رأسها يبدو كنبات الفاونيا العملاق وهو يتأرجح على جذعها الهش.

كنت أسألها، وقد أثار هذا التحول السريع فزعي: «ألست مريضة؟».

فتقول: «بالطبع لا! لقد بدأ وزني يخف».

«لكنك تبالغين في ذلك يا مونا».

فتجيب: «كنت هكذا عندما كنت فتاة، ومن الطبيعي أن أكون نحيفة».

«لكني لا أريدك أن تنحفي. لا أريدك أن تتغيري. انظري إلى رقبتك ـ هل تريدين أن تصبح هزيلة؟».

فتقول: «رقبتي ليست هزيلة»، وتقفز واقفة لتنظر إلى نفسها في المرآة.

«لم أقل إنها كذلك يا مونا... لكنها قد تصبح كذلك إذا تابعتِ هذا الأسلوب الطائش».

«أرجوك يا فال، لا تتحدث عن هذا الموضوع. إنك لا تفهم».

«مونا، لا تتحدثي هكذا، فأنا لا أنتقدك. أريد أن أحميك فقط».

«أنت لا تحبني وأنا هكذا... أليس كذلك؟».

«مونا، أنا أحبك بأي شكل كنتِ، أحبكِ، أعبدكِ. لكن أرجوكِ

كوني معقولة. أخشى أن تصبحي ضعيفة، أن تتبخري في الهواء، لا أريدك أن تصبحي مريضة».

«لا تكن سخيفاً يا فال. لم أشعر أني أفضل حالاً في حياتي أكثر من الآن».

وأضافت: «بالمناسبة، هل سترى الصغيرة يوم السبت؟» ولم تكن تذكر زوجتي أو الطفلة بالاسم. كما كانت تفضل أن تظن بأني أقوم بزيارة الطفلة فقط في هذه الزيارات الأسبوعية إلى بروكلن.

قلت «أظن إنني سأذهب... لماذا، هل من سبب يدعوني لعدم الزيارة؟».

قالت: «لا، لا»، وهزت رأسها بغرابة، واستدارت لتبحث عن شيء في درج المكتب.

وقفت وراءها، وطوقت خصرها بذراعي وهي منحنية.

«مونا، قولي لي شيئاً... هل يزعجك ذهابي إلى هناك؟ اصدقيني القول. وإذا كان الأمر كذلك، فسأكف عن الذهاب. على كل حال سينتهي ذلك ذات يوم».

«لا أريد أن تتوقف عن الذهاب، هل قلت لك عكس ذلك؟».

قلت «لا...» وأطرقت ورحت أحدق ملياً في السجادة «لاااا لم تقولي شيئاً قط. لكني أريدك أن تفعلي ذلك أحياناً...».

صرخت بحدة: «لماذا تقول ذلك؟» وبدا عليها شيء من السخط «ألا يحق لك أن ترى ابنتك؟ كنت سأفعل ذلك لو كنت مكانك». توقفت لحظة، ثم انفجرت دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها: «لن أتركها لو كانت لي. لن أتخلى عنها مقابل أي شيء».

«مونا! ماذا تقولين؟ ماذا يعني ذلك؟».

«لا يعني شيئاً. لا أعرف كيف يمكنك أن تفعل ذلك. فأنا لاأستحق مثل هذه التضحية. لا أحد يستحق ذلك».

قلت: «دعينا نكفّ عن الحديث عن هذا الموضوع، فسنقول

أشياء لا نعنيها. أقول لك إني غير نادم على أي شيء. لم تكن تضحية، أرجو أن تفهمي ذلك. لقد رغبت فيك وحصلت عليك، وأنا سعيد. يمكنني أن أنسى الجميع إذا اقتضى الأمر. إنك العالم كله بالنسبة لي، وأنت تعرفين ذلك».

أمسكتها وشددتها نحوي. تدحرجت دمعة على خدها.

«اسمع يا فال، أنا لا أطلب منك أن تلغي أي شيء، لكن...».

«لكن ماذا؟».

«ألا يمكنك أن تلقاني مرة في الليل عندما أنتهي من العمل؟».

«في الساعة الثانية صباحا؟».

«أعرف... إنه وقت غير مناسب... لكني أشعر بوحدة شديدة عندما أغادر المرقص. خاصة بعد الرقص مع كل هؤلاء الرجال، كل تلك المخلوقات الغبية المروعة، التي لا تعني لي شيئاً. عندما أعود إلى البيت تكون نائماً. ماذا لديّ أفعله؟».

«لا تقولي هذا أرجوك. نعم، طبعاً سألقاك ـ من الآن وصاعداً».

«ألا يمكنك أن تأخذ غفوة بعد العشاء و...».

«طبعاً يمكنني ذلك. لماذا لم تقولي لي ذلك من قبل؟ إنها أنانية مني ألا أفكر بذلك».

«لست أنانياً يا فال».

«أنا... اسمعي، لنفترض أني ذهبت معك هذا المساء؟ سأعود، وآخذ غفوة، وألقاك عند الانصراف».

«أنت متأكد أن ذلك لن يكون متعباً جداً؟».

«لا يا مونا، سيكون ذلك رائعاً».

في طريقي إلى البيت، بدأت أدرك ماذا يعني أن أرتب ساعاتي على هذا النحو. سنتناول وجبة في الساعة الثانية في مطعم ما.

ساعة في قطار المترو. وفي السرير نتحدث قليلاً ثم ننام. عندها ستصبح الساعة الخامسة صباحاً تقريباً وفي الساعة السابعة يجب أن أنهض ثانية وأستعد للذهاب إلى عملي.

اعتدت أن أبدل ملابسي كل مساء، استعداداً للموعد في المرقص. لم أكن أفعل ذلك كل مساء، بل كنت أذهب كلما أمكنني ذلك. أرتدي ملابس قديمة ـ قميصاً كاكياً، وخفاً رياضياً، كانت مونا قد سرقته من كاروثرس ـ يتلائم وذاتي الرومانسية الواثقة. كنت أعيش حياتين: حياة في شركة كوسموديمونيك للبرق وحياة مع مونا. وكانت فلوري تنضم إلينا في المطعم أحياناً.

في مساء أحد الأيام، وبعد أن أوصلت مونا إلى العمل، رحت أتجول في الشوارع الجانبية. وفكرت بالذهاب إلى السينما وألتقي بمونا بعد العرض. وفيما كنت أعبر مدخل إحدى البنايات سمعت صوتا يناديني باسمي. استدرت وكانت فلوري وحنة بيل تقفان في الممر، كما لو أنهما كانتا تختبئان من أحد. اجتزنا الشارع لنحتسي شيئاً، وكانت الفتاتان تتصرفان بشيء من العصبية والتململ، وقالتا إنهما ستغادران بعد بضع دقائق ـ وستشربان فقط لمؤانستي. ولم يسبق لي أن التقيت بهما وحدهما، لذلك كانتا مضطربتين، كما لو أنهما كانتا تخشيان أن تكشفا عن معلومات يجب ألا أعرفها. وبعفوية أخذت يد فلوري المستلقية في حضنها وضغطت عليها، لكي أشعرها بالاطمئنان ـ من شيء أجهله. ولدهشتي راحت تعتصر يدي بدفء، ثم مالت نحوي كأنها تريد أن تقول شيئاً سرياً إلى حنة، وفكت قبضتها وراحت تتحسس فتحة بنطالي. وفي تلك اللحظة دخل رجل فحيته الفتاتان، وقدمتاني إليه بصفة صديق. كان اسم الرجل موينهان. قالت فلوري «إنه مخبر»، وغمزتني بعينها. ولم يكد الرجل يجلس حتى قفزت فلوري واقفة وأمسكت بذراع حنة وأسرعتا خارجتين، ولوحتا بيديهما مودعتين عند الباب، وركضتا تعبران الشارع باتجاه المدخل الذي كانتا تختبئان فيه.

قال موينهان: «إن تصرفهما غريب»، ثم سألني «ماذا تريد أن

تشرب؟» ونادى النادل. طلبت كأساً آخر من الويسكي ونظرت إليه نظرة لا معنى لها، إذ لم ترق لي فكرة أن أجلس مع مخبر. أما موينهان فكان يفكر بطريقة أخرى، إذ بدا سعيداً عندما وجد شخصاً يتحدث إليه. ومن العصا التي أحملها وثيابي المهلهلة استنتج في الحال أني فنان من نوع ما.

«إن ثيابك تدل على أنك فنان» ـ وكان يعني رساماً ـ «لكنك لست فناناً. يداك رقيقتان جداً»، وأمسك يديّ وراح يتفحصهما بسرعة، ثم أضاف: «إنك لست موسيقياً أيضاً، حسناً، بقي شيء واحد فقط ـ أنت كاتب!».

هززت رأسي موافقاً، وانتابني إحساس تمتزج فيه السعادة بالغضب. لقد كان من ذلك الصنف الأيرلندي الذي ينفرني أسلوبه المباشر. وكان بإمكاني أن أحدس التحدي الحتمي؟ لماذا؟ لم لا؟ كيف حدث ذلك؟ وكعادتي، بدأت كلامي معه على نحو ممل. وافقته. لكنه لم يرغب في أن أوافقه ـ بل كان يريد أن أجادله.

ولم أكد أتفوه بكلمة، حتى أخذ بعد بضع دقائق يوجه لي الإهانات وقال في الوقت نفسه «يعلم الله كم يحبني».

قال: «إنك من ذلك النوع من الرجال الذين أودّ لقاءهم». وطلب مزيداً من الشراب «إنك تعرف أكثر مما أعرف بكثير، لكنك لن تتحدث، فأنا لست في مستواك. أنا في مستوى أدنى منك، وهنا أنت مخطئ! لعلي أعرف أشياء كثيرة لا تخطر ببالك. لعلي أخبرك بضع أشياء. لماذا لا تسألني شيئاً؟».

ماذا كنت سأقول؟ لا يوجد شيء أريد أن أعرفه ـ على الأقل منه. أردت أن أنهض وأذهب ـ دون أن أسيء إليه. لم أكن أرغب في أن يدفعني لأجلس في مقعدي بتلك الذراع المكسوة بالشعر الطويل، كما لم أكن أريد أن يسيّل لعابه عليّ ويشويني ويجادلني ويوجه لي الإهانات، كما كنت أشعر بدوار في رأسي. فقد كنت أفكر بفلوري وسلوكها الغريب ـ وكنت ما أزال أشعر بيدها تتحسس فتحة بنطالي.

قال: «يبدو أنك لست معي، كنت أظن أنه يمكن استثارة الكتّاب بسرعة، كنت أظن أنهم حاضرو البديهة، سريعو الردّ. ماذا في الأمر، ألا تريد أن تكون اجتماعياً؟ لعلك لا تحب كأسي؟ اسمع» - ووضع يده الثقيلة فوق ذراعي «لنكن صريحين... أنظر فأنا صديقك! أريد أن أتحدث إليك. ستخبرني بأشياء...كل الأشياء التي لا أعرفها. لعلي لن أحصل عليها كلها دفعة واحدة، لكني سأستمع. فلن نغادر هذا المكان حتى نسوّي الأمر، أتفهم قصدي؟» وابتسم لي واحدة من تلك الابتسامات الأيرلندية الغريبة، التي يمتزج فيها الدفء والصدق، والحيرة والعنف. وكان ذلك يعني أنه إما أن يحصل على ما يريده مني أو أنه سيلقيني أرضاً. ولسبب يتعذر تفسيره كان مقتنعاً بأن لديّ شيئاً يحتاجه بشدة، مفتاح لغز الحياة، الذي، حتى لو لم يحصل عليه تماماً، لساعده في شيء ما.

انتابني شيء من الفزع. فهذه هي تماماً الحالة التي أقف عاجزاً حيال التعامل معها. كان بوسعي أن أقتل ابن الزانية هذا بدم بارد.

قررت أن أجاريه، أن أفرغه من غروره بوخزة واحدة وبعدها أجعله يثق بذكائي.

«تريدني أن أتحدث بصراحة، أليس كذلك؟» وابتسمت له ابتسامة صريحة.

أجاب «بالتأكيد، بالتأكيد، هيا هات ما عندك! أستطيع أن أتحمل كل ما ستقوله».

قلت وما زالت تلك الابتسامة المطمئنة المملة ترتسم على وجهي: «حسناً، قبل كل شيء، أنت لست سوى قملة، وأنت تعرف ذلك. إنك تخشى شيئاً، لا أعرف ما هو بعد، لكننا سنتوصل إليه. أنت تتظاهر معي بأنك شخص متواضع، نكرة، ولكنك تشعر في قرارة نفسك بأنك ذكي، شخصية هامة، شخص قاس. إنك لا تخشى شيئاً، أليس كذلك؟ كل ذلك خراء وأنت تعرف ذلك. إن الخوف يغمرك. تقول يمكنك أن تتحمل أي شيء. تتحمل ماذا؟ لكمة في الفك؟ بالطبع يمكنك

ذلك، بشخصية قاسية مصنوعة من الإسمنت مثل شخصيتك، لكن هل تستطيع أن تقبل الحقيقة؟».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة متألقة قاسية، وتدفق الدم إلى وجهه بشدة، مما يدل على أنه كان يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه، فقد أراد أن يقول «نعم، استمر»، لكن الكلمات خنقته. فأومأ وابتسم تلك الابتسامة الكهربائية.

«لقد ضربت الكثير من الجرذان بيديك العاريتين هاتين، أليس كذلك؟ كان أحدهم يمسك لك الشخص، وأنت تكيل له الضربات والركلات حتى يصرخ. تنتزع منه اعترافاً، ثم تنفض الغبار عنك وتدلق بعض المشروبات في حنجرتك. لقد كان جرذاً ويستحق ذلك. لكنك جرذ أكثر منه، وهذا ما يشغل بالك، إنك تحب أن تؤذي الناس. أراهن أنك كنت تقتلع أجنحة الذباب عندما كنت طفلاً. أحدهم آذاك ذات مرة ولا تستطيع أن تنسى ذلك» (شعرت أنه بدأ يجفل عند ذلك) «أنت تذهب إلى الكنيسة بانتظام وتعترف، لكنك لا تقول الحقيقة. تقول نصف الحقيقة، فلم تخبر أبانا قط أي شخص حقير ممقوت أنت حقاً، إنك تخبره عن خطاياك الصغيرة، ولا تقول له كم تكون سعيداً ومبتهجاً عندما تضرب الأشخاص العزل الذين لم يؤذوا أحداً في حياتهم. وبالطبع فإنك دائماً تضع هبة سخية في الصندوق. رشوة! كما لو أن ذلك قد يرضي ضميرك! الجميع يقولون إنك شخص ممتاز - ماعدا الفقراء المساكين الذين تتعقبهم وتشبعهم ضرباً. تقنع نفسك أن ذلك عملك، ويجب أن تكون كذلك وإلا... من الصعب أن تفكر ماذا يمكن أن تفعله إذا فقدت وظيفتك، أليس كذلك؟ ما هي المؤهلات التي تمتلكها؟ ماذا تعرف؟ لأي شيء تصلح؟ بالتأكيد، ربما تصلح زبالاً أو عاملاً يجمع القمامة، رغم شكّي في أن لديك المقدرة على ذلك. لكنك لا تعرف شيئاً مفيداً، أليس كذلك؟ إنك لا تقرأ، إنك لا تنتمي إلا إلى فصيلتك. اهتمامك الوحيد هو السياسة. السياسة مهمة جداً! إنك لا تعرف متى يمكن أن تحتاج إلى صديق. قد

تقتل الشخص الخطأ ذات يوم ثم ماذا؟ لماذا، فأنت تريد شخصاً يكذب عنك، شخصاً يعمل عنك ـ دودة خسيسة مثلك لا تملك أي ذرة من الرجولة أو الحشمة».

توقفت ثانية.

«إذا كنت تريد أن تعرف حقاً بماذا أفكر، فإني أقول إنك قتلت عدداً من الأشخاص الأبرياء. أقول بأن في جيبك لفافة تخنق حصاناً. كما يوجد شيء في ضميرك وإنك جئت إلى هنا لتغرقه. أقول بأنك تعرف لماذا نهضت هاتان الفتاتان فجأة وهرعتا إلى الشارع. أقول إنه إذا عرفنا كل شيء عنك فقد تستحق الكرسي الكهربائي...».

توقفت عن الكلام وأنا منقطع الأنفاس، وبحركة آلية رحت أفرك فكي، كما لو أني فوجئت بأنه مايزال سليماً. أما موينهان، الذي لم يعد بإمكانه أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فقد انفجر بقهقهة تثير الفزع.

قال: «إنك مجنون، مجنون كبقّة الفراش، لكني أحببتك. استمر، تابع كلامك. قل أسوأ ما تعرفه فأنا أريد أن أسمعه»، عندها نادى النادل وطلب دفعة أخرى من الشراب، وأضاف: «إنك محق في شيء واحد، فلدي لفافة في جيبي. هل تريد أن تراها؟» وأخرج لفافة من الأوراق المالية، ودسها تحت أنفي وقال «هيا تابع الآن، قل المزيد...».

أربكني مشهد النقود، وتركّز تفكيري في الطريقة التي يمكنني أن أُحصِّل فيها منه على بعض نقود الرشوة التي كسبها بغير وجه حق.

وتابعت كلامي متخذاً نبرة أخرى: «كان ما قلته لك جنوناً، وأنا مستغرب أنك لم تقم وتوسعني ضرباً. إني متوتر الأعصاب على ما أظن...».

قال موينهان: «لا يتعين عليك أن تخبرني بذلك».

اتخذت نبرة استرضائية أكثر. «دعني أخبرك شيئاً عني»، تابعت بصوت معتدل، وأوجزت له ببضع كلمات منصبي في شركة كوسموديمونيك، وعلاقتي مع أورورك، مخبر الشركة، وطموحي بأن أصبح كاتباً، وزياراتي إلى العيادات النفسية، وإلى ما هنالك، فقط لأفهمه أني لست حالماً. أعجبه ذكر اسم أورورك. إذ كان أخو أورورك (كما عرفت) رئيس موينهان، وكان يهابه كثيراً.

«وأنت على ما يرام مع أورورك؟».

قلت: «إنه صديق عظيم لي، رجل أحترمه. يكاد يكون بمثابة أب لي. تعلمت منه شيئاً عن الطبيعة البشرية. إن أورورك رجل كبير يشغل وظيفة صغيرة. وهذا ليس المكان الذي يستحقه، أين لا أعرف. لكنه يبدو سعيداً حيث هو، مع أنه لا يرحم نفسه في العمل. ما يثير حفيظتي أنه لم ينل التقدير الذي يستحقه».

تابعت بهذه الطريقة وأنا أعدد مناقب أورورك، وكانت كلماتي تعطي الأثر المطلوب. وكان من الواضح أن موينهان أخذ يسترخي ويلين كإسفنجة.

وأخيرا انفجر قائلاً: «لقد أخطأت فهمي، عندي قلب كبير، لكني لا أُظهر ذلك. لا يمكنك أن تذهب وتعرض نفسك ـ وأنا لم أُخلق لهذا النوع من العمل. نحن لسنا جميعاً مثل أورورك، أتفق معك، لكننا بشر، يا إلهي! إنك مثالي، هذه مشكلتك. أنت تريد الكمال...»، ونظر إليّ نظرة غريبة ودمدم لنفسه. ثم تابع بصوت هادئ واضح: «كلما تحدثت أكثر أحببتك أكثر. لديك شيء كان لديّ ذات يوم. كنت أخجل منه آنئذ... كنت أخشى أن أكون مخنثاً أو شيئاً من هذا القبيل. الحياة لم تفسدك ـ هذا ما أحببته فيك. إنك تعرفها جيداً ولا تجعلك حاقداً أو وضيعاً. لقد قلت أشياء قبيحة منذ حين، وأقول لك الحق، كنت سأشنقك. لماذا لم أفعل ذلك؟ لأنك لم تكن تتحدث إلي: كنت تعني جميع الأشخاص من أمثالي الذين خرجوا عن جادة الصواب في مكان ما. يبدو أنك توجه كلامك شخصياً، لكنك لست كذلك. إنك

تتحدث إلى العالم طوال الوقت. كان يجب أن تكون واعظاً، هل تدرك ذلك؟ أنت وأورورك، تشكلان فريقاً جيداً. أنا أعني ما أقول، فلدينا عمل يجب أن نقوم به ولا نحصل منه على أي متعة، أما أنتم فتعملون من أجل المتعة. والأكثر من ذلك... حسناً، لا تهتم لذلك... أنظر، أعطني يدك...». ومد يده وأمسك يدي الفارغة، «أترى» وأجفلت عندما ضغط عليها ـ «يمكنني أن أعصر يدك حتى العظم. يمكنني أن أجلس هكذا فقط، أتحدث إليك، أنظر مباشرة إليك، وأسحق يدك حتى العظم. هذه هي القوة التي أملكها».

أرخى قبضته وسحبت يدي بسرعة. أحسست أنها خدرة، مشلولة.

ومضى يقول: «لاشيء أكثر من ذلك، كما ترى، إنها قوة عنيفة خرساء، أما أنت فلديك قوة من نوع آخر لا توجد لديّ. يمكنك أن تجعل مني لحماً مفروماً بذلك اللسان الذي تملكه. فأنت تملك عقلاً»، ونظر بعيداً، كما لو كان شارد الذهن، ثم قال شبه حالم، «كيف حال يدك؟ ألم تتألم؟».

تحسستها بيدي الأخرى، كانت مسترخية عديمة الفائدة «أظن أنها على ما يرام».

نظر إلي بإمعان، ثم قال: «أنا جائع. لنأكل شيئاً».

نزلنا إلى الطابق السفلي وفتشنا في المطبخ أولاً. لقد أرادني أن أرى كيف أن كل شيء نظيف: وراح يتجول وهو يمسك سكاكين تقطيع اللحوم والسواطير، ويرفعها إلى الضوء لكي أفحصها وأبدي إعجابي بها.

«يجب أن أقطع شخصاً ما بواحدة من هذه» وأخذ يلوح بالساطور «أشطره إلى نصفين».

أمسكني من ذراعي بلطف وقادني إلى الطابق العلوي وقال: «هنري، سنصبح أصدقاء. ستخبرني المزيد عن نفسك وستدعني

أساعدك. لديك زوجة جميلة جداً أيضاً». صدرت مني جفلة عفوية، فأحكم قبضته على ذراعي وقادني إلى الطاولة.

«هنري، دعنا نتكلم بصراحة لنغيّر الموضوع. إني أعرف شيئاً عنك أو شيئين، حتى لو بدا أني لا أعرف». توقف ثم أردف: «أخرج زوجتك من ذلك الملهى الرخيص». كنت على وشك أن أقول «أي ملهى؟» عندما استأنف كلامه: «يمكن للمرء أن يتورط بكل شيء ويخرج نظيفاً ـ أحياناً. لكن المرأة شيء مختلف. فأنت لا تحب أن تراها تعمل هناك، بذلك الزغب الذي يجعل الرؤوس تصاب بالدوار؟ ابحث عن الشيء الذي لا يجعلها تبقى هناك. لا تحقد علي الآن... أنا لا أحاول أن أؤذي مشاعرك، وإني لا أعرف شيئاً عن زوجتك ـ أي أكثر مما سمعته».

قلت: «إنها ليست زوجتي».

قال بلطف كما لو أن ذلك لم يكن أمراً مهماً «حسنا، مهما كانت بالنسبة لك، أخرجها من ذلك الملهى الموبوء! أقول لك ذلك كصديق. أعرف عمّا أتحدث».

بدأت أدرس المسألة جيداً، بسرعة وعلى نحو متقطع. عاد ذهني إلى فلوري وحنة، لخروجهما المفاجئ. هل ستكون هناك إغارة على المرقص؟ هل يحاول أن يحذرني؟

لا بد أنه حدس ما كان يجول في رأسي، لأن الشيء التالي الذي تفوه به كان: «إذا كان عليها أن تعمل فدعني أحاول أن أجد لها عملاً. يمكنها أن تفعل شيئاً آخر، أليس كذلك؟ فتاة جذابة مثلها...».

قلت: «لنتوقف عن هذا الحديث، وشكراً للنصيحة».

رحنا نتناول طعامنا لبرهة ونحن صامتان، ثم أخرج موينهان اللفافة السميكة من الأوراق المالية وأخرج ورقتين من فئة الخمسين دولاراً، ووضعهما بجانب طبقي. قال «خذهما وضعهما في جيبك، دعها تجرب المسرح، لماذا لا تفعل ذلك؟» وأطرق رأسه

ليجرف شوكة مليئة بالسباغيتي ويحشرها في فمه. التقطت الورقتين ودسستهما بهدوء في جيب بنطالي.

وحالما تمكنت من تحرير نفسي، انطلقت للقاء مونا أمام المرقص. انتابني مزاج غريب.

كنت أشعر بدوار في رأسي وأنا أتجه جذلاً باتجاه برودواي. لقد عزمت على أن أكون مبتهجاً، رغم أني كنت أحس بأن شيئاً يدعوني لأن أكون غير ذلك. كانت تغمر مزاجي حالة من السعادة، شعور بالغبطة على حد تعبير كرونسكي. بالنسبة لي كان ذلك يعني دائماً أني سعيد دون سبب. مجرد أن تكون سعيداً، وأن تعرف أنك سعيد، وأن تبقى سعيداً مهما قال أو فعل أحدهم. لم يكن شعوراً بالبهجة بسبب الكحول، فقد يكون الويسكي ساهم في تحسين المزاج، لكن لاشيء آخر. ومع كل خطوة كنت أخطوها، كان المشروب يتبخر من رأسي، ويبدأ دماغي يصفو ويصفو.

فيما كنت ألقي نظرة عابرة على لوحة في أحد المسارح تذكرت وجهاً مألوفاً. عرفت من هو، اسمه وكل شيء، وقد تملكتني الدهشة ـ لأقولها بصدق أكثر، كنت مندهشا أكثر بكثير مما كان يجري في داخلي، لأنه لم يكن لدي وقت أو مكان لأن أدهش لشيء حدث لشخص آخر. سأعود إليها فيما بعد، عندما يكون الشعور بالغبطة قد تلاشى. وفيما كنت أعد نفسي بذلك، من أصادف سوى صديقي القديم بيل وودروف.

مرحباً مرحباً، كيف حالك، أنا بصحة جيدة، لم أرك منذ فترة طويلة، ماذا تفعل، كيف حال الزوجة، أراك ثانية فيما بعد، نعم أنا مستعجل، بالتأكيد سآتي لزيارتك، إلى اللقاء، مع السلامة، ومضى الأمر هكذا، جسمان صلبان يصطدمان في الفضاء في الوقت الخطأ، يحتكان ببعضهما، يتبادلان الذكريات، يملآن الأرقام الغلط، يعدان ويعدان ومن جديد، ينسيان، يفترقان، يتذكران ثانية... بعجلة، بآلية، بدون معنى، وماذا يفيد كل ذلك بحق الجحيم؟

بعد عشر سنوات كان هو نفسه، وودروف. أردت أن أنظر إلى نفسي في المرآة ـ بسرعة. عشر سنوات! وأراد أن يعرف كل الأخبار دفعة واحدة. ياله من نغل غبي! عاطفي. عشر سنوات. عدت سنوات إلى الوراء، على طول ممر ملتو يشبه قمعاً محفوفاً بمرايا مشوهة على الجانبين، عدت مباشرة إلى تلك البقعة من الزمن والفضاء حيث كان وودروف يقبع في عقلي بالطريقة التي أراه فيها دائماً، حتى في العالم الآخر. هو قابع هناك، كما لو كان عينة ذات جناحين تحت المجهر. هناك حيث كان يدور بعجز في مكانه ـ وهنا حيث تأتي ـ تلك التي كانت صورتها تبرق في دماغي وأنا أعبر المسرح. كانت الفتاة التي أحبها بجنون، الفتاة التي لم يتمكن من العيش بدونها، وكان على الجميع أن يساعدوه للتقرب منها، حتى أمه وأبوه حتى نسيبه البروسي الذي كان يكره الأرض التي يمشي عليها.

إدا فيرلين. كان اسمها يليق بها تماماً. فقد كانت كما كان يبدو من اسمها ـ جميلة، عقيمة، متصنعة، عديمة الوفاء، مدللة، لعوب، فاسدة، جميلة كإحدى دمى درسدن، باستثناء أن لها خصلات سوداء براقة، وخواء في روحها، هذا إذا كان لديها روح! فقد عاشت حياتها كلها بجسدها، بأحاسيسها، برغباتها ـ وكانت هي التي توجه العرض، عرض الجسد، بإرادتها الاستبدادية التي كان وودروف المسكين يعزوها إلى شيء من قوة الشخصية.

إدا، إدا... كان يشنّف آذاننا بقصصها. كانت لطيفة بشكل منحرف، بلطافة امرأة من عاريات كراناتش. الجسد أبيض، الشعر أسود فاحم، الروح مائلة إلى الخلف، كحجرة اقتلعت من مكانها في الأهرامات. وكانا يقدمان مشاهد مخزية أثناء غزلهما، وكان وودروف يجعلها تبكي في أغلب الأحيان. وفي اليوم التالي كان يرسل لها وروداً وأزهاراً أو صندوقاً كبيراً من الشوكولاته. وكانت إدا تبتلع كل شيء. كانت نهمة وليس في قلبها رحمة.

وأخيراً أقنعها بأن تتزوجه. لا بد أنه رشاها، فقد كان واضحاً

من أنها كانت تحتقره. شيّد من أجلها عشَّ حب صغير جميل يتجاوز إمكانياته، واشترى لها كل ما كانت تشتهيه نفسها من الملابس والأشياء الأخرى، وكان يأخذها إلى المسرح عدة ليالٍ في الأسبوع، وكان يحشوها بالحلويات، وكان يجلس بجانبها ويمسك يدها عندما كانت تنتابها آلام الحيض، ويستشير اختصاصياً إذا سعلت، وبشكل عام كان يؤدي دور الزوج المتيم الولهان.

وكلما ازداد اهتمامه بها، كان اهتمامها ورعايتها له يقلّان. كانت وحشاً من رأسها إلى أخمص قدميها. وشيئاً فشيئاً تبين له أنها كانت باردة. لم يصدق ذلك أحد منا بالطبع، باستثناء وودروف، الذي مرّ بالتجربة نفسها مع زوجته الثانية، ولو عاش فترة أطول لمرّ بالتجربة نفسها مع الزوجة الثالثة والرابعة. وكان ولعه وهيامه بإدا جامحين إلى حد أنها لو فقدت ساقيها، فلن يغيّر ذلك من حبه لها، بل سيزيده اضطراماً.

كان وودروف مع كل عيوبه يحرص على صداقاته، فقد كان هناك ما لا يقل عن ستة منا يضمنا إلى صدره ويمنحنا ثقته. وكنت واحداً منهم ـ أقدم صديق له، في واقع الأمر. وكان بوسعي أن أدخل بيته وأخرج منه في الوقت الذي أشاء. وبوسعي أن أتناول طعامي، وأنام، واستحم، وأحلق ذقني هناك. كنت أُعتبر واحداً من أفراد الأسرة.

ومنذ البداية كرهت إدا، ليس بسبب سلوكها تجاه وودروف، بل لسبب غريزي. وكانت إدا بدورها لا تشعر بالراحة لوجودي، ولم تكن تعرف ماذا تفعل لي. إذ لم انتقدها ولم أمتدحها قط، بل كنت أتصرف كما لو أنها كانت زوجة صديقي، لا أكثر ولا أقل. ومن الطبيعي أنها لم تكن راضية عن مثل هذا الموقف. فقد أرادت أن تدخلني تحت عباءة سحرها وغوايتها، وأن تجعلني أمشي فوق حبل البهلوان، كما فعلت مع وودروف وعشاقها الآخرين. ومن الغرابة أني لم أكن محصناً ضد سحر امرأة أكثر من هذه، فلم أكن أبالي

مثقال ذرة بها، رغم أني كنت غالباً أتساءل كيف تسلك وهي في السرير. كنت أتساءل عن ذلك في داخلي، ولكن الرسالة وصلتها بطريقة ما، وتغلغلت في مسامات جلدها.

وفي بعض الأحيان كانت تتذمر بصوت عال من أنها لا تريد أن تبقى وحدها معي بعد أن أمضي الليلة في بيتهما. وكان وودروف يقف عند الباب، استعداداً للذهاب إلى العمل، وهي تتظاهر بأنها قلقة. وأستلقي أنا في السرير أنتظر أن تحضر لي فطوري، فيقول لها وودروف: «لا تتحدثي هكذا يا إدا. فهو لن يؤذيك ـ إني أأتمنه على حياتي».

وفي بعض الأحيان، كنت أنفجر ضاحكاً وأصرخ: «لا تقلقي ياإدا، فأنا لن أغتصبك، لأنني عنين».

فتصرخ متظاهرة بالهستيريا «أنت عاجز؟ إنك لست عنيناً. أنت فاسق».

فيقول وودروف «خذي له فطوره»، ويتوجه إلى العمل.

كانت تكره فكرة أن تقوم على خدمتي في السرير، فلم تكن تفعل ذلك حتى لزوجها، ولم تفهم لماذا كان عليها أن تفعل ذلك لي. ولم يحدث أن تناولت فطوري في السرير قط، إلا في بيت وودروف، ومن الواضح أني كنت أفعل ذلك لإغاظتها وإذلالها.

كانت تقول: «لماذا لا تنهض وتأتي إلى المائدة؟»

«لا أستطيع ـ لديّ انتصاب».

«أوه، كفّ عن الحديث عن هذا الشيء، ألا يمكنك أن تفكر بشيء غير الجنس؟».

وكنت تفهم من كلماتها أنها تعتبر الجنس شيئاً شريراً، مروعاً، ومقرفاً، إلا أن أسلوبها كان يدل على عكس ذلك تماماً. فقد كانت عاهرة فاسقة، باردة فقط لأنها تحمل قلب عاهرة. فإذا مررت يدي على ساقها وهي تضع الصينية على حضني كانت تقول: «هل أنت

راضٍ؟ تحسسها جيداً. أتمنى أن يراك بيل، ليرى مدى إخلاص صديقه».

قلت لها يوماً: «لماذا لا تخبريه؟».

«لن يصدقني، ذلك الأحمق. سيظن أني أحاول إثارته بالغيرة».

كنت أطلب منها أن تعد لي الحمام. وكانت تتظاهر بأنها تعترض لكنها كانت تفعل ذلك. وفي أحد الأيام، وبينما كنت جالساً في حوض الحمام أدعك جسدي بالصابون، لاحظت أنها نسيت المناشف، فناديتها «إدا، إجلبي لي بعض المناشف». دخلت الحمام وأعطتها لي. كانت ترتدي روب حمام حريري، وجوارب حريرية. عندما انحنت فوق الحوض لتضع المناشف على الرف انفتح روبها. انزلقت على ركبتي ودفنتُ رأسي في فروتها. حدث ذلك بسرعة خاطفة بحيث لم يكن لديها وقت كي تبدي أي اعتراض، أو حتى لتتظاهر بأنها تعترض على ذلك. وبسرعة خاطفة شددتها إلى الحوض، هي وجواربها وكل شيء. نزعت عنها روب الحمام ورميته على الأرض، وتركت الجوارب عليها ـ ما جعلها تبدو شهية أكثر وفاسقة أكثر. استلقيت وشددتها فوقي. كانت تتأجج بالشهوة. راحت تعضني في كل مكان، تلهث، تتأوه، تتلوى كدودة معلقة على خطاف. وفيما كان أحدنا يجفف الآخر، انحنت فوقي وراحت تداعب قضيبي. جلست على حافة حوض الحمام وجثت عند قدميّ وراحت تلتهمه. وبعد برهة، أوقفتها على قدميها، ثم جعلتها تنحني وولجتها من الخلف. كان شيئها صغيراً شهياً، وكان مثل قفاز يحيط بقضيبي بإحكام. رحت أقّبل مؤخرة عنقها، وشحمتي أذنيها، والبقعة الحساسة على كتفيها، وعندما ابتعدت عنها كانت آثار أسناني بادية على مؤخرتها البيضاء الجميلة. لم يفه أحدنا بكلمة. عندما انتهينا توجهت إلى غرفتها وبدأت ترتدي ثيابها. سمعتها تدندن بصوت منخفض. استغربت أنها تمكنت من التعبير عن رقتها بهذه الطريقة.

ومنذ ذلك اليوم، راحت تنتظر حتى يذهب وودروف لتلقي بنفسها عليّ.

سألتها ذات مرة: «ألا تخشين من أن يعود فجأة ويجدك معي في السرير؟».

«لن يصدق عينيه. سيظن أننا نلاعب بعضنا».

«لن يظن أننا نلاعب بعضنا إذا شعر بهذا» ولكزتها فشهقت.

«كم كنت أتمنى لو يعرف كيف يضاجعني! إنه سريع جداً، فهو يخرجه كعصا مكنسة ويدفعه هناك قبل أن أشعر بأي شيء. أستلقي فقط وأتركه يضاجعني - فينتهي في أقل من لحظة. أما معك فإني أشعر بالحرارة حتى قبل أن تلمسني. هذا لأنك لا تهتم كما أظن. إنك لا تحبني حقاً، أليس كذلك؟».

قلت: «أحب هذا»، ولكزتها بقوة. «أحب فرجك يا إدا... إنه أجمل ما فيك».

قالت: «أنت كلب، يجب أن أكرهك عندما تقول ذلك».

«لماذا لا تكرهينني إذن؟».

غمغمت «أوه، لا تتحدث هكذا»، والتصقت بي «أبقيه هناك وضمني إليك بقوة، عضّ ثدييّ... ليس بهذه الشدة... هناك، هكذا». وأمسكت يدي وراحت تضغط بأصابعي على شقها، وراحت تدمدم لاهثة «هيا، افعلها، افعلها» وبرقت عيناها.

وعند الغداء سألتني: «هل ينبغي لك أن تذهب الآن؟ ألا يمكنك أن تبقى قليلاً؟».

«أتريدينه مرة أخرى؟».

«ألا يمكن أن تكون لطيفاً أكثر من ذلك؟ آه لو سمعك بيل وأنت تقول هذا!».

«إنك لا تلبسين ثيابا داخلية، أليس كذلك؟ أنت امرأة فاسقة، هل تعرفين ذلك؟».

رفعت فستانها وجعلتها تجلس هكذا فيما رحت أحتسي قهوتي.

«داعبيه قليلاً ريثما أنهي قهوتي».

«يا لك من قذر»، قالت، لكنها فعلت ما طلبته منها.

«افتحيه بإصبعيك. إني أحبّ لونه. إنه كالمرجان من الداخل. تماماً مثل أذنيك. تقولين إن لدى بيل قضيب هائل. لا أعرف كيف يمكنه أن يولجه فيه». تناولت شمعة من الطاولة بجانبي وأعطيتها لها.

«لنرى إن كنت تستطيعين أن تدخليها كلها».

مدت الساق الأخرى وأسندتها على ذراع الكرسي وبدأت تدخلها. كانت تنظر إلى نفسها بإمعان، وقد انفرجت شفتاها وكأنها كانت على وشك أن تأتيها الرعشة. وبدأت تحرك نفسها إلى الأمام والوراء، ثم راحت تحرك مؤخرتها بشكل دائري. دفعت كرسيها، وجلست على ركبتي ورحت أتفرج عليها.

«إنك تستطيع أن تجعلني أفعل أي شيء، أيها الشيطان القذر».

«لأنك تحبين ذلك، أليس كذلك؟».

كانت على وشك أن تأتيها الرعشة. سحبت الشمعة خارجاً وأولجتُ ثلاثة أصابع فيه.

«هل هو كبير بما فيه الكفاية؟» وشدتني إليها وعضت شفتي.

انتصبت واقفاً وفككت أزرار فتحة بنطالي. وبلمحة بصر أخرجته من مكمنه ووضعته في فمها. راحت تلتهمه مثل صقر جائع. وقذفت في فمها.

«يا إلهي» قالت، وهي تكاد تختنق وتهذر «لم أفعل ذلك من قبل». وهرعت إلى الحمام، كما لو كانت قد ابتلعت سماً.

دخلت إلى الغرفة وارتميت على السرير. أشعلت سيجارة وانتظرتها حتى تأتي. عرفت أنها ستكون قصة طويلة.

عادت وهي ترتدي روبها الحريري ولم يكن ثمة شيء تحته. قالت: «اخلع ثيابك» وسحبت الأغطية وغاصت تحتها. تمددنا هناك وأخذ أحدنا يداعب الآخر. كان فرجها رطباً جداً.

«رائحتكِ رائعة» قلت «ماذا فعلتِ؟».

سحبت يدي ووضعتها على منخريّ.

«لا بأس بها» قلت «ما هي؟».

«إحزر».

نهضت باندفاع، وهرعت إلى الحمام وعادت تحمل زجاجة عطر. سكبت بعضاً من العطر على يدها وفركت قضيبي بها؛ ثم رشت بضع قطرات على شعر عانتها. لسعتني كالنار. أمسكت القنينة وغمرتها عليها، من رأسها إلى قدميها. ثم رحت ألعق إبطيها، أقضم الشعر الذي يكسو فرجها، وانزلق لساني كالحية في منحنى فخذيها. أخذت تعلو وتهبط وكأن تشنجات بدأت تسري في أنحاء جسدها. واستمر الأمر هكذا حتى اشتد انتصابي وأصبح كالمطرقة. لقد أثارها ذلك إلى درجة كبيرة. أرادت أن تجرب جميع الوضعيات، وهكذا كان. انتابتها رعشات متتالية وكاد يغشى عليها. ألقيتها على طاولة صغيرة، وعندما كانت على وشك أن تأتيها الرعشة، رفعتها ورحت أمشي بها في الغرفة، ممسكاً إياها من فخذيها، وكنت أدعه ينزلق منها بين الحين والآخر ليزيدها إثارة وهياجاً.

كانت شفتاها قد مُضغتا حتى بليتا، وكانت البقع تملؤهما، بعضها أخضر، وبعضها أزرق. أحسست بطعم غريب في فمي، كغراء السمك وعطر شانيل 976. وبدا قضيبي مثل خرطوم مطاطي مكدوم؛ كان يتدلى بين ساقيّ، وقد امتدّ بوصة أو بوصتين أكثر من المعتاد وازداد انتفاخاً. عندما خرجت إلى الشارع شعرت بوهن في ركبتي. ذهبت إلى بقالية واشتريت علبتي حليب وجرعتهما. قلت لنفسي كم كان جسدها رائعاً للمضاجعة، وتساءلت كيف سأتصرف عندما ألتقي بوودروف ثانية.

توالت الأحداث على وودروف. فأهم شيء أنه فقد وظيفته في المصرف، ثم هربت إدا مع أحد أصدقائه المقربين، وعندما اكتشف أنها كانت تنام مع ذلك الشخص قبل سنة من هروبها، أصيب باكتئاب شديد دام سنة كاملة، ثم صدمته سيارة وأجريت له عملية ثقب في الدماغ، ثم أصيبت أخته بلوثة في عقلها، وأضرمت النار في البيت وأحرقت أطفالها أحياء.

لم يفهم لماذا حدثت له هذه الأشياء، هو بيل وودروف، الذي لم يسبق له أن آذى شخصاً في حياته.

صادفته عدة مرات في شارع برودواي، وكنا نتوقف ونتحادث قليلاً عند ناصية الشارع. ولم يلمح أبداً إلى أنه كان يشك بأني كنت أعابث حبيبته إدا. أصبح يتحدث بمرارة عنها الآن، كعاهرة قذرة، ناكرة للجميل، لم تكن تظهر ذرة من الإحساس. ولكن كان من الواضح أنه كان مايزال يحبها. ومع ذلك فقد بدأ يعاشر فتاة أخرى، تعمل في محل لطلاء الأظافر، لا تتمتع بجاذبية إدا، لكنها مخلصة وجديرة بالثقة، حسب تعبيره. وقال. «أريدك أن تقابلها ذات يوم»، ووعدته بأني سأفعل ـ ذات يوم. وفيما كنت أبتعد عنه سألته: «ماذا حدث لإدا، هل تعرف؟».

قال «إنها تعمل في المسرح، إنه مكانها الطبيعي، على ما أظن. لا بد أنهم أخذوها لشكلها ـ فلم أكن أرى أنها تتمتع بأي موهبة».

إدا فيرلين. ما زلت أفكر بها وبتلك الأيام الحرة والسهلة في الماضي وأنا أخطو إلى مدخل المرقص. كانت لديّ بضع دقائق يجب أن أضيّعها. نسيت أي شيء عن النقود في جيبي. ما زلت أعيش في الماضي. تساءلت إن كنت سأتوقف عند المسرح ذات يوم وألقي نظرة على إدا من وسط الصف الثالث، أو أصعد إلى غرفة ملابسها وأتحدث إليها على انفراد فيما تضع مساحيقها. تساءلت إن كان جسدها ما زال أبيض كما كان. كان شعرها آنذاك أسود طويلاً منسدلاً على كتفيها. كانت حقاً قطعة ساحرة، فرجاً خالصاً، هذا

ماكانت عليه. وكان وودروف مفتوناً بكل ذلك، بريئاً للغاية، متيماً بها. وأذكر ما قاله لي يوما أنه كان يقبّل مؤخرتها في كل ليلة، ليثبت لها أنه عبدها المخلص. ومن العجب أنها لم تكن تبول عليه. لقد كان يستحق كل ذلك، ذلك الغبي.

ثم تذكرت شيئاً جعلني أضحك. إذ يعتقد الرجال دائماً أنه إذا كانوا يملكون قضيباً كبيراً فهذه نعمة كبيرة من نعم الحياة. إنهم يظنون أنه ما عليك إلا أن تهزه أمام امرأة وستصبح في الحال طوع بنانك. حسناً، إذا كان هناك شخص يملك قضيباً كبيراً فهو بيل وودروف. كان يمتلك قضيب حصان حقيقياً. أتذكر أول مرة رأيته فيها ـ لم أكد أصدق عيني. كان يجب أن تكون إدا عبدة له، نعم لقد أعجبت به، ولكن بطريقة خاطئة. لقد ذعرت منه وهربت. جعلها تتجمد في مكانها. وكلما دفعه فيها أكثر، كانت تتضاءل أكثر. كان يمكنه أن يضاجعها بين ثدييها، أو تحت إبطيها، ولابد أنها كانت ستجد متعة أكبر، لاشك في ذلك. ولكن لم تكن تخطر لوودروف مثل هذه الأفكار. كان يعتقد أنها مهينة.

إدا فيرلين. غمرتني رغبة جامحة في أن أبحث عنها قريباً. لم يعد فرجها بتلك النعومة، لا فائدة من أن يقنع المرء نفسه. لو بقي فيها شيء من ذلك العصير، لو ظلت مؤخرتها بتلك الطراوة والملمس الحريري، فمن الجدير أن أجرب حظي معها مرة أخرى.

انتظرت حوالى نصف ساعة أو أكثر، ولم تظهر أي إشارة من مونا. قررت أن أصعد الدرج وأسأل. علمت أنها ذهبت إلى البيت في وقت مبكر ـ بسبب وجع في رأسها.

9

لم أعرف لماذا غادرت مارا المرقص في وقت مبكر إلا بعد العشاء في مساء اليوم التالي. فقد تلقت رسالة من البيت وأسرعت لترى والديها. لم أضغط عليها لكي تتحدث، لأني أعرف كم هي كتومة على حياتها الأخرى. إلا أنها، كانت متلهفة، ولسبب ما، لأن تفرغ ما يجيش في صدرها. وكالعادة، راحت تلف وتدور بقصصها الغامضة، وتعذر عليّ أن أعرف لقصتها رأساً من ذنب. وكل ما عرفته هو أنهم كانوا في حالة يرثى لها ـ وكانت تعني بـ «أنهم» العائلة بكاملها، وتشمل أخوتها الثلاثة وزوجة أخيها.

سألتها ببراءة: «وهل يعيشون جميعهم تحت سقف واحد؟».

قالت بشيء من الانزعاج: «لا ليس تماماً».

صمتُ برهة، ثم جازفت وسألتها عن أختها، التي قالت عنها ذات مرة إنها أجمل منها لكنها قالت «إنها عادية جداً».

«ألم تقولي إنها متزوجة؟».

«نعم، بالطبع. وما دخل ذلك؟».

«في ماذا؟» سألتها وقد انتابني شيء من الانزعاج.

«حسناً، عما نتحدث؟».

ضحكت. «هذا ما أريد أن أعرفه. عم نتحدث؟ ماذا تريدين أن تقولي لي؟».

«إنك لا تنصت إليّ. أختي ـ أظن أنك لا تصدق أنه لديّ أخت؟».

«لماذا تقولين ذلك؟ بالطبع أصدقك. فقط لا أصدق أنها أجمل منك».

«حسناً إنها أجمل مني، وأنا أكرهها، ليس غيرة منها، إذا كان ذلك ما يدور في خلدك. أكرهها لأنها عديمة الخيال، فهي ترى ما يحدث ولا تحرك ساكناً. إنها أنانية بكل معنى الكلمة».

قلت بلطف: «أظن أنها المشكلة القديمة نفسها ـ إنهم يريدونك أن تساعديهم. حسناً، لربما أنا...».

«أنت! ماذا يمكنك أن تفعل؟ أرجوك يا فال، لا تبدأ في التحدث بهذه الطريقة»، وأطلقت ضحكة هستيرية وتابعت: «يا إلهي، هذا يذكرني بأخوتي. فجميعهم يقدمون اقتراحات، ولا أحد يفعل شيئاً».

«لكن يامونا، أنا أعني ما أقول. أنا...».

فقالت بحدة. «لديك زوجتك وابنتك كي تعتني بهما، أليس كذلك؟ لا أريد أن أسمع شيئاً عن مساعدتك. إنها مشكلتي وحدي، لا أعرف لماذا يجب عليّ أن أفعل كل شيء وحدي. يستطيع الصبيان أن يفعلوا شيئاً إذا أرادوا. يا إلهي، لقد ساعدتهم لسنوات طويلة. ساعدت العائلة كلها والآن يطلبون مني المزيد. لا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك. هذا ليس عدلاً».

سادت برهة من الصمت ثم تابعت: «أبي رجل مريض ـ ولا أتوقع منه أي شيء. وهو الوحيد الذي أرعاه وأهتم به. ولولاه لأدرت ظهري لهم ـ ورحلت وتركتهم وشأنهم».

سألتها: «حسناً، وماذا عن أخوتك؟ ماذا يعيقهم؟».

قالت: «لاشيء سوى الكسل، لقد أفسدتهم بالدلال وجعلتهم يعتقدون أنهم عاجزون ولا يصلحون لشيء».

«هل تعنين أن لا أحد منهم يعمل؟».

«أوه أجل، أحياناً يحصل أحدهم على عمل لبضع أسابيع ثم يتركه لسبب سخيف. إنهم يعرفون أني سأكون دائماً هناك لنجدتهم».

انفجرت قائلة: «لا أستطيع أن أعيش حياة كهذه! لن أتركهم يحطمون حياتي. أريد أن أكون معك - هم يبعدونني عنك. إنهم لا يبالون بماذا أفعل مادمت أجلب لهم النقود. النقود، النقود. يا إلهي كم أكره سماع هذه الكلمة!».

قلت بلطف: «لكن يا مونا، لديّ قليل من النقود من أجلك. نعم، انظري».

أخرجت الورقتين من فئة الخمسين دولاراً ووضعتهما في يدها.

ولدهشتي انفجرت في ضحكة هستيرية غريبة، ولم يعد بإمكانها أن تسيطر على نفسها. طوقتها بذراعي وقلت لها: «إهدئي يامونا، إهدأي... أنت مضطربة جداً».

ترقرقت الدموع في عينيها، وقالت بضعف: «لا يمكنني أن أفعل شيئاً حيال ذلك يا فال، إنك تذكرني بأبي كثيراً. فقد كان يفعل الشيء ذاته. فعندما كانت تسوّد الدنيا في عينيه كان يحضر زهوراً أو هدية غريبة. أنت مثله تماماً. إنكما حالمان، كلاكما. ولهذا أحبك»، وألقت بذراعيها حول رقبتي بحرارة وراحت تنشج ثم دمدمت: «لا تقل لي من أين حصلت عليها، هذا لا يهمني. لا يهمني إن كنت قد سرقتها، فأنا أسرق من أجلك، إنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟ فال، إنهم لا يستحقون النقود. أريدك أن تشتري شيئاً لنفسك، أو»، وأضافت بحماس، «أحضر شيئاً لطفلتك. اشترِ لها شيئاً جميلاً، شيئاً رائعاً - تتذكره دائماً».

ثم قالت وهي تحاول أن تستجمع نفسها: «فال، إنك تثق بي، أليس كذلك؟ فلا تسألني أشياء لا يمكنني أن أجيب عنها، هل تعدني بذلك!».

جلسنا على الكرسي ذي المسند الكبير. أجلستها فوق حضني ورحت أداعبها، وأمسّد شعرها استجابة لطلبها.

«لو لم ألتق بك يا فال، لما كنت أعرف ماذا سيحل بي. إلى أن التقيت بك ـ كنت أشعر وكأن حياتي لم تكن تخصني، فلم أكن أكترث بما كنت أفعل، آه لو أنهم تركوني بسلام. لا أستطيع أن أتحمل أن يطلبوا مني أشياء. أشعر بأني مهانة. كلهم عاجزون، جميعهم، ماعدا أختي. كان بإمكانها أن تفعل شيئاً ـ إنها عملية جداً، متزنة ورصينة. لكنها تريد أن تقوم بدور السيدة. فهي تقول إنه يكفي أن يكون في العائلة فتاة داشرة، إنها تعنيني. تعتقد أني جلبت لهم العار. وهي تريد أن تعاقبني، بالإمعان في إذلالي. إنها تشعر بلذة شريرة عندما تراني وأنا أحضر النقود التي لا يفعل أحد شيئاً لإحضارها. تلمح بكل التلميحات القذرة. أريد أن أقتلها. ويبدو أن أبي لا يفهم الوضع أبداً، إنه يظن إنها حلوة ـ ملاك. فهو يجعلها لا تقدم أدنى تضحية ـ فهي أرق من أن تتعرض لهذا العالم المتوحش الملوث. زد على ذلك فهي زوجة وأم. أما أنا...» واغرورقت عيناها بالدموع ثانية.

ومضت تقول: «لا أعرف من أي شيء يظنون أني مجبولة. كل ما يعتقدونه هو أني قوية. أستطيع أن أتحمل أي شيء. أنا الطائشة الداشرة. يا إلهي، أظن في بعض الأحيان أنهم مجانين، كلهم. من أين يظنون أني أحصل على النقود؟ إنهم لا يبالون... حتى أنهم لا يجرؤون على سؤالي».

«هل ستتحسن صحة أبيك؟» سألتها بعد فترة صمت طويلة.

«لا أعرف يا فال».

وأضافت: «إذا مات فلن أقترب من الآخرين ثانية. وإذا رأيتهم يموتون جوعاً فلن أحرك ساكناً من أجلهم».

وقالت: «أتعرف، أنت لا تشبهه أبداً من الناحية الجسدية، ومع

ذلك فلديكما شبه كبير. إنك ضعيف ولطيف مثله، لكن الحياة لم تفسدك، كما أفسدته هو. أنت تعرف كيف تعتني بنفسك، عندما تريد ـ لكنه لم يتعلم أبداً. إنه عاجز دائماً. لقد امتصّت أمي دمه، عاملته كما عاملتني. كل شيء على طريقتها الخاصة... أتمنى أن تقابله قبل أن يموت. غالباً ما أحلم بذلك».

قلت لها: «لعلنا نلتقي في يوم من الأيام رغم أني لا أظن أن ذلك سيحدث».

«ستحبه كثيراً يافال. إنه يتمتع بروح مرحة جداً. حكواتي من الطراز الأول. أظن أنه كان من الممكن أن يصبح كاتباً لو لم يتزوج أمي».

نهضت وبدأت تضع مكياجها، واستمرت في حديثها عن أبيها بولع شديد وعن الحياة التي عاشها في فيينا وأماكن أخرى. كان موعد ذهابها إلى المرقص يقترب.

وفجأة أشاحت بوجهها بعيداً عن المرآة وقالت: «فال، لماذا لا تكتب في وقت فراغك؟ لقد أردتك دائماً أن تكتب ـ لماذا لا تفعل ذلك؟ لا يتعين عليك أن تأتي إلى المرقص لترافقني إلى البيت في معظم الأحيان. كم أفضل أن آتي إلى البيت وأراك تطبع على الآلة الكاتبة. ولا ينبغي لك أن تبقى في تلك الوظيفة طوال حياتك، أليس كذلك؟».

اقتربت مني وطوقتني بذراعيها وقالت: «دعني أجلس على حضنك، اسمع يا عزيزي فال... لا يجب عليك أن تضحي بنفسك من أجلي، إذ يكفي أن أحدنا يفعل ذلك. أريدك أن تحرر نفسك. أعرف أنك كاتب ـ ولا أبالي متى ستصبح مشهوراً. أريد أن أساعدك... فال، إنك لا تنصت إليّ». ولكزتني برقة وقالت: «بماذا تفكر؟».

قلت: «أوه، لاشيء، كنت أحلم فقط».

«فال، افعل شيئاً أرجوك! لا تترك نفسك هكذا. أنظر إلى هذا المكان! كيف جئنا إلى هنا؟ ماذا نفعل هنا؟ فينا شيء من الجنون، أنت وأنا. فال، أبدأ ـ الليلة، نعم؟ أحبك عندما تكون متقلب المزاج.

أحب الشعور بأن لديك أفكاراً عن أمور أخرى. أحبك عندما تقول أشياء مجنونة. يا ليتني أستطيع أن أفكر بهذه الطريقة. أنا مستعدة لأن أضحي بأي شيء في سبيل أن أكون كاتبة. أن يكون عندي عقل، أن أحلم، أن أضيع في متاهة مشاكل الآخرين، أن أفكر بشيء آخر غير العمل والنقود...أتتذكر تلك القصة التي كتبتها لي مرة ـ حول طوني وجويي؟ لماذا لا تكتب شيئاً لي ثانية؟ فقط لي. قال، يجب أن نحاول أن نعمل شيئاً... يجب أن نجد مخرجاً. هل تسمع؟».

لقد سمعت جيداً. كانت كلماتها تجري في رأسي كلازمة في قصيدة. قفزت واقفاً، كما لو كنت أريد أن أبعد خيوط العنكبوت. أمسكتها من خصرها وقلت لها: «مونا، ستتغير الأمور قريباً، قريباً جداً. عندي إحساس بذلك... دعيني أرافقك إلى المحطة ـ فأنا أحتاج إلى نفحة من الهواء».

أبدت شيئاً من الانزعاج، فقد كانت تأمل في شيء أكثر إيجابية.

قلت ونحن نسير مسرعين في الشارع: «مونا، إن المرء لايتغير فوراً بهذه البساطة! فأنا أريد أن أكتب، نعم، هذا أمر أكيد. لكن علي أن أستجمع نفسي. أحتاج إلى هدوء وراحة بال. لا يمكنني أن انتقل من شيء إلى آخر بهذه السهولة. إني أكره عملي بالقدر الذي تكرهين فيه عملك، ولا أريد أن أعمل عملاً آخر، بل أريد إجازة كاملة. أريد أن أختلي بنفسي لفترة لأعرف مداها حق المعرفة، فأنا بالكاد أعرف نفسي، بالطريقة التي أعيشها الآن. أعرف كل شيء عن الآخرين ولا أعرف شيئاً عن نفسي. كل ماأعرفه هو أني أحس. أحس أكثر من اللازم. لقد جفت عروقي من كثرة ما عُصرت. أتمنى أن تتوافر لي أيام، أسابيع، شهور، لأفكر فيها فقط. الآن إني أفكر بين الحين والآخر. إن التفكير من الكماليات».

ضغطت على يدي، وكأنها تريد أن تقول إنها فهمت.

«عندما أعود إلى البيت سأجلس وأحاول أن أفكر، ربما غططت في النوم. يبدو أني سُخرِّت لأعمل فقط، لقد أصبحت آلة».

وتابعت كلامي: «هل تعرفين بماذا أفكر أحياناً؟ أفكر في أنه إذا توافر لي يومان أو ثلاثة أيام هادئة للتفكير فقط، فإني سأقلب الأشياء رأساً على عقب. كل شيء أهوج وخارج عن الصواب. إن الأمور هكذا، وهذا ما يجعلنا لا نجرؤ على إطلاق العنان لأنفسنا كي نفكر. يجب أن أذهب إلى المكتب في أحد الأيام وأفجر دماغ سبيفاك. هذه هي الخطوة الأولى...».

وصلنا إلى محطة المترو فوق الأرض.

قالت: «لا تفكر بمثل هذه الأشياء الآن، اجلس واحلم. احلم بشيء رائع من أجلي. لا تفكر بأولئك الأشخاص التافهين القبيحين. فكر بنا!».

صعدت الدرجات بخفة، وراحت تلوح مودّعة.

تسكعت عائداً إلى البيت، وأنا أحلم بحياة أخرى، حياة أغنى، وتذكرت فجأة، أو ظننت أني تذكرت، أنها تركت ورقتي الخمسين دولاراً على رف الموقد تحت المزهرية المليئة بالزهور الاصطناعية، ورأيت طرف الورقتين من تحت قاعدة المزهرية، تماماً كما وضعتهما. هرولت إلى البيت، إذ كنت أعرف أن كرونسكي إذا رآهما فسيسرقهما، وهو سيفعل ذلك لا لأنه غير أمين، بل نكاية بي.

وعندما اقتربت من البيت رحت أفكر بشيلدون المجنون. حتى أني بدأت أقلد طريقته في الكلام، رغم أنني كنت منقطع الأنفاس من الجري. ورحت أضحك على نفسي وأنا أفتح الباب.

كانت الغرفة فارغة والنقود قد تبخرت. أعرف أن ذلك سيحدث. جلست وأخذت أضحك ثانية. لماذا لم أقل شيئاً لمونا عن موينهان؟ لماذا لم أذكر لها شيئاً عن المسرح؟ كنت في العادة أقول لها كل شيء على الفور، أما في هذه المرة فثمة شيء أوقفني، شيء من الارتياب الفطري من نوايا موينهان.

كنت على وشك أن أتصل بالمرقص كي أتأكد إن كانت مونا قد أخذت النقود دون أن ألاحظ ذلك. نهضت لأتجه إلى الهاتف لكني غيّرت رأيي فجأة. تملكني دافع قوي لأن أبحث في البيت قليلاً. توجهت إلى مؤخرة البيت وهبطت الدرج. وبعد بضع درجات شاهدت غرفة كبيرة مضاءة بشدة حيث يجفف الغسيل. كان هناك مقعد على طول الحائط، مثل مقاعد المدرسة، وكان يجلس عليه رجل عجوز ذو لحية بيضاء ويعتمر طاقية مخملية. كان منحنياً إلى الأمام، يسند رأسه بظاهر يده التي يمسك بها عكازاً. وبدا أنه كان يحدّق في الفضاء.

أشار بعينيه دلالة على أنه رآني؛ لكن جسده ظل ثابتاً دون أن يأتي بأي حركة. لقد رأيت العديد من أفراد العائلة لكني لم أره من قبل. حيّيته باللغة الألمانية، لأني حسبت أنه يفضّل التحدث بالألمانية على التحدث بالإنكليزية، التي كان يبدو أن لا أحد في هذا البيت الشاذ يتكلم بها.

«تستطيع أن تتحدث بالإنكليزية إذا أحببت»، قال بلهجة ثقيلة. كان يحدّق مباشرة إلى الأمام في الفضاء، كما من قبل.

«هل أزعجك؟».

«لا، على الإطلاق».

ظننت أنه كان يجب أن أعرّفه بنفسي، «اسمي...».

«وأنا»، قال، دون أن ينتظر سماع اسمي، «أنا والد الدكتور أونيريفيك. أظن أنه لم يحدثك عني أبداً».

«لا»، قلت، «لم يخبرني عنك على الإطلاق. لكني نادراً ما أراه».

«إنه رجل مشغول جداً. مشغول جداً ربما...».

«لكنه سُيعاقب ذات يوم»، واصل كلامه، «يجب على المرء ألا يقتل حتى الأجنة. هذا المكان أفضل ـ توجد سكينة وهدوء».

«ألا تريدني أن أطفئ بعض الأضواء؟» سألت، راجياً أن أحوّل أفكاره إلى موضوع آخر.

«يجب أن يكون هناك نور»، أجاب. «مزيد من الأضواء... عدد أكبر من الأضواء. فهو يعمل في الظلام هناك. إنه مزهو بنفسه كثيراً. يعمل من أجل الشيطان. من الأفضل المكوث هنا مع الثياب الرطبة». ثم صمت وهلة. كان يُسمع صوت قطرات الماء التي كانت تتساقط من الثياب الرطبة. شعرت بقشعريرة. فكّرت بقطرات الدم التي تنقط من يدي الدكتور أونيريفيك. «نعم، قطرات الدم»، قال العجوز، كما لو أنه قرأ أفكاري. «إنه جزّار. لقد كرّس تفكيره للموت. إنه أحلك ما في عقل لإنسان ـ قتل الكائنات التي تسعى لأن تولد. حتى الحيوانات يجب على المرء ألا يقتلها، إلا من أجل التضحية. إن ابني يعرف كلّ شيء ـ لكنه لا يعرف أن القتل هو أعظم الذنوب. يوجد نور هنا... نور عظيم... وهو يجلس هناك في الظلام. أبوه يجلس في القبو، يصلّي من أجله، وهو هناك يذبح، ويذبح. في كل مكان توجد دماء. إن البيت ملوّث. من الأفضل المكوث هنا مع الغسيل. سأغسل النقود أيضاً، إذا أمكنني ذلك. هذه الغرفة النظيفة الوحيدة في البيت. والنور جيد. النور. النور. يجب أن نفتح أعينهم ليتمكنوا من الرؤية. يجب على الإنسان ألا يعمل في الظلام».

«على العقل أن يكون العقل نقياً، يجب أن يعرف العقل ماذا يفعل».

لم أفهْ بكلمة واحدة. رحت أستمع باحترام. لقد نوّمني جِرس كلماته، الضوء الذي يعمي الأبصار. كانت تبدو على وجه الرجل العجوز سيماء رجل من نبلاء روما القديمة؛ وقد زاد الرداء الفضفاض الذي كان يرتديه والطاقية المخملية التي يعتمرها من علو مكانته. وكانت يداه الحساستان الجميلتان يدي جرّاح؛ فقد برزت العروق الزرقاء منها كالزئبق، وجلس في القبو الشديد الإضاءة مثل طبيب بلاط كان قد نفي من موطنه. وقد ذكّرني ببعض الأطباء المشهورين الذين ازدهروا في بلاط إسبانيا أثناء عهد حكم

المسلمين. كان فيه شيء موسيقي نقي؛ كانت روحه نظيفة تشعّ من كلّ مسام كيانه.

سمعت طقطقة أقدام تنتعل خفاً. دخل غومبال يحمل زبدية من الحليب الحار. وعلى الفور تغيّرت قسمات العجوز. فقد استند إلى الحائط ونظر إلى غومبال بدفء ورقة.

«هذا آبي، ابني الحقيقي»، قال، ووّجه نظراته كلها نحوي.

تبادلت بضع كلمات مع غومبال وهو يقرّب الزبدية من شفتي العجوز. كانت رؤية الهندوسي متعة حقيقية. فمهما كان العمل الذي يقوم به وضيعاً كان يؤديه بكرامة واعتزاز. وكلما كانت الخدمة وضيعة أكثر، ازداد شرفاً. بدا أنه لم يكن يشعر بالإحراج أو المهانة على الإطلاق، كما أن ذلك لم يلغ وجوده. فقد بقي هو نفسه على الدوام، بشكل كامل ومتميز. حاولت أن أتخيّل كيف كان سيبدو كرونسكي وهو يقوم بمثل هذه الخدمة.

غادر غومبال الغرفة للحظات قليلة ثم عاد وهو يحمل نعلاً دافئاً. جثا عند قدميّ العجوز، وفيما كان يؤدي هذه المناسك، راح العجوز يمسّد رأس غومبال بلطف.

«إنك أحد أبناء النور»، قال العجوز وهو يرفع رأس غومبال ويحدق في عينيه بثبات. وأعاد غومبال نظرة العجوز بذات النور السائل المتألق النقي. بدا أن أحدهما سيغرق كيان الآخر ـ خزانان من النور السائل، الضوء السائل، يطفحان من نظرات متبادلة مطهّرة. وفجأة أدركت أن الضوء المبهر المنبعث من الضوء الكهربائي لم يكن شيئاً بالمقارنة مع انبعاث الضوء الذي كان يمرّ بين الرجلين. ربما لم يكن العجوز يدرك هذا الضوء الاصطناعي الأصفر الذي اخترعه الإنسان؛ ربما كانت الغرفة مضاءة بهذا الضوء الساطع المنبعث من روحه. حتى الآن، ومع أن أحدهما توقف عن التحديق في عينيّ الآخر، كانت الغرفة أكثر إضاءة من قبل ـ كان مثل شفق غروب ناري، الألق السماوي.

عدت إلى غرفة الجلوس أنتظر غومبال. كان لديه شيء يريد أن يخبرني به. وجدت كرونسكي جالساً على الكرسي ذي المسندين يقلب صفحات أحد كتبي. كان أكثر هدوءاً من المعتاد. كان يجلس بطريقة غير منضبطة.

قال: «مرحباً! لم أكن أعرف أنك موجود في البيت»، وقد فوجئ بحضوري غير المتوقع، وأضاف، «كنت فقط ألقي نظرة على بعض أشيائك التافهة»، ووضع الكتاب جانباً، وهو كتاب تلّ الأحلام لمؤلفه آرثر ماشين.

وقبل أن تتاح له الفرصة ليواصل مزاحه المألوف، دخل غومبال. اتجه نحوي وبيده النقود. أخذتها منه بابتسامة، وشكرته، ووضعتها في جيبي. ظنّ كرونسكي أني أستدين نقوداً من غومبال. ثار حنقه ـ والأكثر من ذلك ـ شعر بالسخط.

قال: «يا إلهي، هل عليك أن تستدين منه؟» حاول غومبال أن يتحدث على الفور، لكن كرونسكي أسكته وقال: «ليس من الضروري أن تكذب لتغطي عليه. إني أعرف ألاعيبه». عاد غومبال وتكلّم بهدوء وإقناع.

«السيد ميلر لا يتحايل عليّ»، قال.

«حسناً، إنك تفوز»، قال كرونسكي. «لكن أرجوك لا تجعله ملاكاً. أعرف أنه يعاملك جيداً ـ ولجميع رفاقك السعاة ـ لكن ذلك ليس لأنه يتمتع بقلب طيب... فهو معجب بكم أنتم الهندوس لأنكم تعتبرون بالنسبة له سمكاً غريب الأطوار».

ابتسم له غومبال بتسامح، كما لو كان يفهم انحرافات العقل المريض.

ردّ كرونسكي بحدّة على ابتسامة غومبال هذه وصرخ، «لاتبتسم لي تلك الابتسامة التي تنم عن الرثاء، فأنا لست واحداً من أولئك المنبوذين التعسين. إني طبيب. أنا...».

«أنت ما تزال طفلاً»، قال غومبال بهدوء وحزم.

«أي شخص لا يتمتع إلا بقليل من الذكاء يمكنه أن يصبح طبيباً...».

هنا أجاب كرونسكي بعنف ساخراً «يمكنهم ذلك، ايه؟ هكذا؟ مثل دحرجة قطعة خشب...» تطلع حوله كما لو كان يبحث عن مكان ليبصق فيه.

«في الهند نقول...» ـ وبدأ غومبال إحدى قصص الأطفال تلك التي تدمّر الشخص الذي يتمتع بعقل تحليلي. فقد كان في جعبة غومبال قصة صغيرة لكلّ حالة. كنت أجد متعة كبيرة في الاستماع إليها؛ فقد كانت مثل علاجات بسيطة، حبات من الحقيقة مكسوة بمواد غير ضارة. لا يمكنك أن تنساها ما حييت بعد ذلك، هذا ماأحببته في هذه القصص. إننا نؤلف كتباً سميكة لنشرح فيها فكرة بسيطة؛ أما الشرقيون فيحكون قصة بسيطة تقبع في دماغك وكأنها ماسة. والقصة التي حكاها تدور حول ذبابة سراج الليل وطأها فيِلسوف شارد الذهن كان حافي القدمين. كان كرونسكي يكره الحكايات التي تتواصل فيها الأشكال الأوطأ من الحياة مع الكائنات الأعلى، كالإنسان، على المستوى الفكري. وكان يشعر بأنها إهانة شخصية، تشهير ينم عن حسد.

ورغماً عنه ابتسم لخاتمة الحكاية. وندم كذلك على سلوكه الفظ. فقد كان يكنّ احتراماً شديداً لغومبال. وما أزعجه أنه أُرغم على التهجم على غومبال بحدّة وهو ينوي أن يسحقني. لذلك استفسر والابتسامة ما تزال على وجهه، بصوت رقيق مؤدب عن غوزي، وهو شخص هندوسي عاد إلى الهند منذ عدة أشهر.

قال له غومبال إن غوزي مات بعد عودته إلى الهند بفترة وجيزة بسبب إصابته بالزحار.

«إنه لأمر سيئ»، قال كرونسكي وهو يهزّ رأسه حزناً، كما لو كان يريد أن يقول إنه من العبث القضاء على الأحوال الطبيعية في بلد

كالهند. ثم استدار نحوي، وبابتسامة خفيفة حزينة قال: «أتتذكر غوزي؟ ذلك الشاب الصغير المكتنز البدين، الذي كان يشبه بوذا مقرفصاً».

هززت رأسي. «يجب أن أقول إني أتذكّره. ألم أجمع نقوداً ليتمكن من العودة إلى الهند؟».

«كان غوزي قديساً»، قال كرونسكي بحماس.

تجهم وجه غومبال قليلاً وقال: «لا، لم يكن قديساً. يوجد الكثير من الرجال في الهند الذين...».

«أعرف ما تريد أن تقوله»، قاطعه كرونسكي، «بالنسبة لي، كان غوزي قديساً. الزحار! يا إلهي، كأننا نعيش في القرون الوسطى... بل وأسوأ من ذلك!»، وبدأ يصف على نحو يثير الرعب الأمراض التي ما تزال تنتشر بشدة في الهند. وراح ينتقل من المرض إلى الفقر، ومن الفقر إلى الخرافة، ومن كل هذه إلى العبودية، والذل، واليأس، واللامبالاة، والعجز. إن الهند مجرد مقبرة واسعة عفنة، مدفن يسيطر عليه المستغِلون بالتواطؤ مع بريطانيا بالاشتراك مع المهراجات والأمراء الحاكمين المخبولين عديمي الذمة. لكنه لم يذكر ولا كلمة واحدة عن الهندسة المعمارية، والموسيقى، والعلم، والدين، والفلسفات، والوجوه الجميلة، وكياسة النساء وطيبتهن، والثياب الملونة، والروائح القوية، ورنين الأجراس، والأجراس الضخمة، والمناظر الطبيعية الرائعة، وتنوع الزهور، والمواكب التي لا تتوقف، واختلاف الألسنة، والأجناس، والأنواع، والتخمر والتلوث وسط الموت والفساد. والصحيح إحصائياً كما هو الحال دائماً، فلم ينجح إلا في تقديم نصف الصورة السلبي. فالهند تنزف حتى الموت، هذا أمر صحيح. أما الجزء الحيّ منها، فقد كان متألقاً بطريقة لم يتمكن كرونسكي من تقديره. فلم يذكر ولا مرّة مدينة بالاسم، ولم يفرّق في حياته بين أكرة ودلهي، وبين لاهور وميسور، وبين دارغييلنغ وكراتشي،

وبيّن بومباي وكلكتا، وبين بناريس وكولومبو. وبين الزرادشتية واليانية، وبين البوذية والهندوسية ـ فقد كانت جميعها شيئاً واحداً بالنسبة له، جميعهم ضحايا بؤساء للظلم، جميعهم يتعفنون ويتفسخون ببطء تحت شمس قاتلة لكي يقضي شخص إمبريالي عطلته فيها.

ودارت بينه وبين غومبال مناقشة لم أستمع إليها جيداً. ففي كلّ مرة كنت أسمع اسم مدينة كانت تعتريني نشوة عاطفية. فقد كان مجرد ذكر كلمات كالبنغال، وغوجارات، وساحل مالابار، وكالي غات، ونيبال، وكشمير، والسيخ، وباغافاد غيتا، وأبانيشاد، وراجا، وستوبا، وبراكريتي، وسودرا، ونيرفانا، وغورو، وهانومان، وسيفا، يكفي لأن أدخل في غيبوبة لما تبقى من المساء. كيف يمكن أن يجرؤ شخص مدان بأنه يعيش حياة طبيب مقيّدة في مدينة باردة قاسية مثل نيويورك ويتحدّث عن تنظيم قارة تقطنها نصف بليون روح، وتنتشر فيها مشاكل لا حصر لها، متعددة الأشكال، تزعزع خيال مثقّفي الهند العظماء؟ لا عجب أنه كان منجذباً للقدسيين الذين اتصلوا به في أكثر المناطق جهنمية في شركة كوسموديمونيك الأمريكية. فقد كان هؤلاء «الصبية»، كما كان يدعوهم غومبال (كانت أعمارهم تتراوح بين الثالثة والعشرين والخامسة والثلاثين سنة)، مثل محاربين منتخبين، مثل تلاميذ مختارين. المشاق التي تحمّلوها، أولاً في قدومهم إلى أمريكا، ثم صراعهم من أجل الاستمرار في الإبقاء على الجسد والروح معاً حتى ينهون دراساتهم، ثم ليجدوا سبيلاً يعودون فيه إلى وطنهم، ثم يتخلون عن كلّ شيء لتكريس أنفسهم لتقدّم شعبهم ـ حسناً، لا يوجد أمريكي، لا يوجد أمريكي أبيض، يمكنه أن يتبجح بشيء من هذا القبيل. وعندما يتيه بين الحين والآخر أحد هؤلاء «الصبية»، يصبح كلباً صغيراً في حضن امرأة من المجتمع الراقي، أو عبد راقصة فاتنة. كنت أريد أن أبتهج. فقد أحسست بالمتعة عندما سمعت صبياً هندوسياً يسترخي ويستلقي على وسائد ناعمة، يتناول طعاماً

دسماً، ويضع خواتم من الماس، ويرقص في النوادي الليلية، ويسوق سيارات، ويغوي صبايا عذراوات، وما إلى ذلك. تذكّرت شاباً زرادشتياً مثقفاً كان قد هرب مع امرأة متوسطة العمر، كسولة سيئة السمعة؛ تذكّرت القصص الخبيثة التي نشرت عنه، الفوضى التي بثها بين الشبان الأقل انضباطاً. لقد تابعت مهنته بحماس، لقد كان يلعق الحثالة، تخيلياً، فيما كان ينتقل من مجال إلى آخر. وفي أحد الأيام، فيما كنت أستلقي مريضاً في غرفتي التي جعلت منها زوجتي مشرحة، جاء لزيارتي، وأحضر معه زهوراً وفواكه وكتباً، وجلس بالقرب من سريري وأمسك يدي، وراح يحدثني عن الهند، عن الحياة المدهشة التي عرفها عندما كان طفلاً، عن التعاسة التي كابدها بعد ذلك، عن الإهانات التي أنزلها الأمريكان به، عن جوعه مدى الحياة، ثم أفضى لي عن الحياة الثرية، حياة الأغنياء، الحياة الرائعة، وكيف أنه انتهز الفرصة عندما جاءته ووجدها أنها فارغة، خاوية من كلّ شيء سوى الثياب، والجواهر والمال والنساء. لقد تخلى عنها جميعها. وقال إنه سيعود إلى شعبه، ليعاني معهم، ويرفعهم إذا أمكنه ذلك، وإذا لم يتمكن، فإنه سيموت معهم، يموت كما يموتون، في الشارع، عارياً متشرداً، منبوذاً، محتقراً، يدوسون فوقه، يبصقون عليه، مجموعة من العظام حتى العقبان ستجد صعوبة في أن تجد شيئاً تتناوله فيها. وقال إنه سيفعل ذلك ليس بدافع الذنب أو الندم أو التوبة بل لأن الهند في حال رثة، الهند تتقيّح كدودة، الهند جائعة، الهند تتلوى تحت نعال الغزاة، وكانت تعني له أكثر بكثير من كلّ أسباب الراحة والفرص ومزايا بلاد قاسية لا ترحم مثل أمريكا. أقول لقد كان زرادشتياً، وكانت أسرته غنية في أحد الأيام؛ فعلى الأقل عرف طفولة سعيدة. إلا أنه كان هناك هنود آخرون نشؤوا في الغابة والحقل، وعاشوا حياة تبدو لنا وجوداً حيوانياً. كيف تمكن هؤلاء الأفراد الغامضون، الخجولون، من التغلب على هذه العقبات الهائلة التي كانت تواجههم يوماً بعد آخر، مايزال لغزاً بالنسبة لي إلى يومنا هذا. ففي جميع الأحوال، سافرت معهم في الطرق التي

تأخذك من القرية إلى البلدة ومن البلدة إلى المدينة؛ واستمعت معهم إلى الأغاني الفولكلورية البسيطة، وإلى حكايات العجائز، صلوات المؤمنين، وتوجيهات المعلمين، وقصص الأساطير، وموسيقى العازفين في الشوارع، وعويل النادبين ورثائهم. ومن خلال عيونهم رأيت الخراب الذي نزل على شعب عظيم. لكني رأيت كذلك أن هناك خصائص تقاوم أعظم الدمار والخراب. ففي وجوههم، وهم يروون تجاربهم، كانت تنعكس الرقة، والتواضع، والوقار، والإخلاص، والإيمان، والصدق ونزاهة الملايين الذين أصبح قدرهم يثير جزعنا. إنهم يموتون كالذباب ويولدون من جديد؛ يتزايدون ويتضاعفون؛ يقدّمون الصلوات والتضحيات، إنهم لا يقاومون، ومع ذلك لا يستطيع شيطان أجنبي أن يستأصلهم من التربة التي يغذّونها بجثثهم الفقيرة. إنهم ينتمون إلى جميع الأنواع، جميع الأحوال، وجميع الظلال، وجميع الألسنة، وجميع الطوائف؛ ينطلقون كالأعشاب ويوطؤون كالأعشاب. إن كشف أسرار حتى أشدّ الفلقات صغراً في هذه الحياة الهائجة يجعل العقل مغلفاً بالشك وعدم اليقين. إن بعضهم كالأحجار الكريمة القاسية، وبعضهم كالزهور النادرة، وبعضهم كالتماثيل، وبعضهم كالصور المشتعلة للكهنة، وبعضهم كالعقول التي فصلت عن أجسادها، وبعضهم كالخضراوات النتنة: يسيرون كلهم جنباً إلى جنب في حشد لانهائي مائج.

في خضم هذا التأمل، ذكّرني كرونسكي بصوت مرتفع بأنه رأى شيلدون. قال: «كان يريد أن يزورك، ذلك الأحمق، لكني أثنيته عن ذلك... أظن أنه كان يريد أن يقرضك بعض المال».

شيلدون المجنون! من الغريب أن أفكّر به وأنا في طريق عودتي إلى البيت. النقود، نعم... كان لديّ شعور بأن شيلدون سيقرضني نقوداً مرة أخرى. لم تكن لديّ فكرة بماذا كنت أدين له. فلم أكن أتوقع أن أسدد له المبلغ على الإطلاق. كنت آخذ ما كان

يقدمه لي لأن ذلك كان يدخل السعادة إلى نفسه. كان مجنوناً كأرنب بري، لكنه كان ماكراً ومخادعاً وخبيثاً أيضاً. لقد ارتبط بي كعلقة، لسبب غامض لم أحاول أن أبحث فيه.

كانت تعابير وجه شيلدون هي التي تسحرني، والطريقة التي يغرغر فيها وهو يتكلّم، كما لو كانت هناك يد خفية تخنقه. وبالطبع فقد مرّ في تجارب فظيعة في غيتو كراكاو حيث نشأ وتربى. وكان قد روى لي حادثة لن أنساها في حياتي جرت خلال مذبحة قبل أن يهرب من بولندا. فقد هرع إلى بيته مرعوباً أثناء عمليات القتل التي كانت تحدث في الشارع، فوجد الغرفة مليئة بالجنود. وكانت أخته، التي كانت حاملاً، ممددة على الأرض، يغتصبها جندي وراء الآخر. وأُرغم أبواه اللذان قيدت أيديهما وراء ظهريهما، على مشاهدة هذا المشهد المريع.

ألقى شيلدون بنفسه على الجنود وجُرح بسكين. وعندما صحا وجد أن أمه وأباه قد أسلما الروح؛ وكان جسد أخته ملقى عارياً بجانبهم، وقد فتحت بطنها بوحشية وحشيت بالقشّ.

كنا نتمشى في تومبكينس سكوير في الليلة التي حكى لنا فيها هذه القصة. (وقد كررها مرات عديدة بعد ذلك، وكان يرويها دائماً بالدقة ذاتها، حتى أنه كان يستخدم الكلمات نفسها. وفي كلّ مرة، كان شعر جسدي يقشعر وتسري في جسدي رعشة باردة). لكن في تلك الأمسية الأولى، عندما انتهى من رواية قصته، لاحظت أنه طرأ عليه تغيير غريب، إذ كان يلوي وجهه كما قلت. كان كما لو كان يحاول أن يصفر لكنه لم يكن يستطيع. فقد تقلصت عيناه الصغيرتان والملتهبتان على نحو غير عادي. ولم يكن بوسعك أن ترى شيئاً بين جفنيه إلا بؤبؤين لاهبين كانا يخترقانني مباشرة. وقد انتابني شعور غريب للغاية عندما أمسك بذراعي وقرّب وجهه من وجهي، وبدأ يحدث صوت اختناق وغرغرة انتهى أخيراً بإحداث ضوضاء تشبه صوت صافرة. كانت مشاعره جامحة، إلى درجة أنه أخذ

لبضع دقائق، وهو يمسكني بشكل محموم ويضغط بوجهه بجانب وجهي، يصدر من حنجرته صوتاً لا يمكن تمييزه بأنه صوت إنساني، لا يشبه شيئاً ما ندعوه كلاماً. لكن ماذا كانت تلك اللغة، تلك الغرغرة، الهسهسة، الاختناق، والصفير على نحو مسعور! لم أستطع أن أدير وجهي، حتى لو أردت ذلك، كما لم أتمكن من التخلص من قبضته، لأنه كان يمسكها بإحكام شديد. تساءلت إلى متى سيدوم ذلك، وهل ستنتابه نوبة عنف بعد ذلك. لكن لا، فعندما هدأ بدأ يتحدث بصوت خفيض هادئ، وبنبرة واثقة، كما لو أن شيئاً لم يحدث. وواصلنا سيرنا حيث كنا نتجه إلى الطرف الآخر من الحديقة. كان يتحدّث عن الجواهر، التي كان قد ابتلعها بذكاء، وقيمتها، وكيف كانت قطع الزمرد والياقوت تتلألأ، وكيف كان يعيش، ووثائق التأمين التي كان يبيعها في أوقات فراغه، وحقائق وحوادث أخرى ليست ذات صلة.

وكما قلت، فقد كان يروي هذه الأشياء بأسلوب هادئ جداً، بنبرة تكاد تكون رتيبة، لكنه كان يرفع صوته أحياناً، عندما يصل إلى نهاية الجملة، وينهي كلامه دون قصد بإشارة استفهام. إلا أن أسلوبه كان يتغير كثيراً في هذه الأثناء. وكان يصبح مثل الوشق. فقد كان يبدو أنه يوجه ما يرويه إلى شخص غير مرئي. وقد كان يستخدمني كمستمع، لذلك كان يبدو، ليعلن بطريقة ماكرة ومتملقة عن أشياء، كان هذا الشخص «الآخر»، حاضراً لكنه غير مرئي. «إن شيلدون ليس أحمق»، كان يقول بهذه اللغة الملتوية غير المباشرة. «شيلدون لم ينس بعض الخدع الصغيرة التي لُعبت عليه. إن شيلدون يتصرّف كرجل محترم الآن، كما يجب، لكنه ليس نائماً... لا، شيلدون دائماً متيقظ. إذ يستطيع شيلدون أن يلعب دور الثعلب عندما يريد. يمكنه أن يرتدي ثياباً جميلة، كالجميع، ويتصرّف بأدب جم. هو لطيف ودود، ومستعدّ دائماً لتقديم خدمة. إنه لطيف مع الأطفال الصغار، حتى مع الأطفال البولنديين. لا يطلب شيئاً. إنه هادئ للغاية، مؤدب جداً... لكن احذر!!!» ثم لدهشتي يأخذ شيلدون يصفّر،

صفرة طويلة واضحة، موجهة، ليس لديّ شكّ في ذلك، إلى الشخص الخفي. احذر اليوم! كانت صفرته واضحة تماماً. احذر، لأن شيلدون يهيّئ شيئاً شيطانياً غير اعتيادي، شيئاً لا يستطيع دماغ بولندي أخرق أن يتخيّله أو يخترعه. لم يكن شيلدون خاملاً طوال هذه السنوات...

وجاءت مسألة إقراض المال بشكل طبيعي تماماً. فقد بدأت في ذلك المساء ونحن نحتسي فنجان قهوة. وكالعادة لم يكن في جيبي سوى خمسة أو عشر سنتات، لذلك اضطررت لأن أترك شيلدون يدفع الحساب. فقد كانت فكرة ألّا يملك مدير التوظيف نقوداً شيئاً لايمكن أن يصدقه شيلدون إلى درجة أني خشيت للحظة أنه سيقوم برهن جميع جواهره.

«خمسة دولارات تكفي يا شيلدون»، قلت، «إذا ألححت على إقراضي شيئاً».

ارتسمت تعابير الامتعاض على وجه شيلدون. «أوه لا، أوه لا»، صاح بصوت حاد بدا أنه يشبه صافرة. «شيلدون لا يعطي خمسة دولارات أبداً. لا، لا، يا سيد ميلر، شيلدون يعطي خمسين دولاراً».

وأقسم أنه أخرج خمسين دولاراً، ورقات من فئة الخمس دولارات والدولار. ومرة أخرى، اتخذ موقف الوشق، وراح ينظر خلفي وهو يخرج النقود، ويدمدم شيئاً بين أسنانه يبين فيه حقيقة شيلدون.

«لكن شيلدون، سأصبح مفلساً ثانية في الغد»، قلت، وتوقفت لأرى تأثير ذلك عليه.

ابتسم شيلدون ـ ابتسامة مخادعة كتومة، كما لو كان يشاطرني سراً هاماً.

«إذن سيعطيك شيلدون خمسين دولاراً آخر غداً»، قال وقد خرجت الكلمات من فمه بصفير غريب.

«لا أعرف متى يمكنني أن أسدد لك النقود»، قلت له.

ورداً على ذلك، أخرج شيلدون من جيبه ثلاثة ورقات مالية مبقعة بالزيت. لقد بلغ مجموع السلف أكثر من ألفي دولار. ومن جيوب صدريته أخرج عدداً من الخواتم التي كانت أحجارها تتلألأ وكأنها أحجار أصلية.

«هذا لا شيء»، قال.

«شيلدون لا يخبر الجميع بذلك».

كانت التأملات من هذا النوع تثيرني دوماً إلى أكبر درجة. عشر دقائق من أحلام اليقظة تجعلني أندفع لتأليف كتاب. رحت أفكّر بمونا. لو كان بإمكاني أن أبدأ من أجلها. ومن أين أبدأ؟ في هذه الغرفة التي تشبه بهو مشفى للمجانين؟ أأبدأ وكرونسكي ينظر من فوق كتفي؟

قرأت مؤخراً عن مدينة مهجورة في بورما، عاصمة منطقة قديمة نشأ في نطاق دائرة مائة ميل حولها ما يقرب من ثمانية آلاف معبد ذات يوم. وقد أضحت المنطقة فارغة تماماً، منذ ما يزيد على ألف سنة. ولم يكن يوجد وسط هذه المعابد الفارغة سوى حفنة من الكهنة، ربما كانوا أنصاف مجانين. وقد غزت اليوم هذه الصروح المقدسة الثعابين والخفافيش والبوم، وفي الليل، كانت بنات آوى تعوي وسط هذه المعابد الخربة.

لماذا تجعلني هذه الصورة من الخراب كئيباً إلى هذه الدرجة المؤلمة؟ لماذا يجب أن توقظ ثمانية آلاف معبد خرب فارغ، فيّ مثل هذا الألم؟ فالناس يموتون، وشعوب تختفي، وأديان يخفت بريقها: إنه نظام الأشياء. لكن ذلك الشيء من الجمال يجب أن يبقى. لكن أن يكون عاجزاً على التأثير، عاجزاً على جذبنا، كان لغزاً أثقل كاهلي. لأني لم أبدأ حتى في البناء! فقد رأيت في مخيلتي معابدي خربة، حتى قبل أن توضع حجرة واحدة فوق أخرى. وبطريقة غريبة كنت أنا وسعاتي الحمقى الذين كانوا يساعدونني في أن نطوف في الأماكن المهجورة من الروح مثل بنات آوى التي كانت تعوي في

الليل. كنا نجول وسط قاعات صروح أثيرية، معبد بوذي في الحلم، هُجر قبل أن يأخذ شكلاً دنيوياً. في بورما، كان المحتل مسؤولاً عن دفن روح الإنسان في الأرض. لقد تكرر ذلك كثيراً في تاريخ البشرية ولا يوجد ثمة تفسير لذلك. لكن ما الذي يمنعنا، نحن الحالمين في هذه القارة، من إعطاء شكل وروح لصروحنا الرائعة؟ فسباق المهندسين المعماريين الحالمين مكتوب عليه الفناء. إذ وجهت عبقرية الإنسان إلى قنوات أخرى. هكذا قيل. لم أستطع أن أقبلها. نظرت إلى الأحجار المنفصلة، العوارض، الأبواب، النوافذ التي تشبه حتى في المباني عيون الروح؛ نظرت إليها وأنا أنظر إلى صفحات هذه الكتب المنفصلة، ورأيت هندسة معمارية تتحدث عن حياة شعبنا، سواء كانت في الكتاب، في القانون، في الحجارة، في التقاليد؛ رأيت أنها خلقت (شوهدت أولاً في العقل) ثم شُيئت، مُنحت ضوءاً، هواء وفضاء، منحت هدفاً ومعنى، منحت إيقاعاً يعلو ويهبط، بذرة تنمو لتصبح شجرة مزدهرة، انحداراً من ورقة متغضنة وغصناً لتبذر مرة أخرى، وسماداً عضوياً لتغذية البذرة. رأيت هذه القارة كالقارات الأخرى قبلها وبعدها: مخلوقات بكل معنى الكلمة، بما في ذلك الكوارث ذاتها التي تجعل وجودها منسياً...

بعد أن خرج كرونسكي وغومبال أحسست أني في حالة شديدة من اليقظة، فقد أثارتني الأفكار التي كانت تجول في رأسي، فشعرت بالرغبة في أن أخرج وأمشي مسافة طويلة. وفيما كنت أضع أشيائي نظرت إلى نفسي في المرآة. ولويت وجهي كما كان يفعل شيلدون، وهنّأت نفسي على قدرتي على المحاكاة. ففي السابق، فكّرت في أن أصبح مهرجاً جيداً. فقد كان هناك زميل لي في المدرسة أعتبره أخي التوأم. كنا قريبين من بعضنا بشكل وثيق، وعندما تخرّجنا، شكّلنا نادياً يتألف من اثني عشر شخصاً وأطلقنا على أنفسنا اسم جمعية أكزيركس. كنا أنا وهو أصحاب المبادرة - أما الآخرون فكانوا مجرد تابعين بلهاء. وكنا أحياناً، أنا وجورج مارشال نقوم بأداء مشاهد للآخرين بيأس شديد، نهرّج بارتجال.

وفي وقت لاحق، كنت أفكر بأنه كانت لهذه اللحظات خاصية مأساوية. كانت تبعية الآخرين تثير الشفقة حقاً: كانت دلالة على الكسل واللامبالاة العامة التي رأيتها طوال حياتي. وعندما تذكرت جورج مارشال، بدأت ألوي وجهي أكثر؛ كان أدائي جيداً إلى درجة أني بدأت أخاف من نفسي. إذ فجأة تذكّرت اليوم الذي نظرت فيه في المرآة لأول مرة في حياتي وأدركت أني كنت أحدّق في شخص غريب. كان ذلك بعد أن ذهبت إلى المسرح مع جورج مارشال وماكجريجور. قال جورج مارشال شيئاً في تلك الليلة أزعجني كثيراً. غضبت منه لغبائه، لكني لا أستطيع أن أنكر أنه وضع إصبعه على بقعة مؤلمة. قال شيئاً جعلني أدرك أن توأمتنا قد انتهت، وأننا سنصبح في الواقع أعداء منذ ذلك الحين. وكان محقاً، مع أن الأسباب التي قدمها كانت خاطئة. منذ ذلك اليوم بدأت أسخر من صديقي المحبوب، جورج مارشال. أردت أن أكون عكسه بكل وسيلة. كان ذلك أشبه بفصل الكروموسومات عن بعضها.

بقي جورج مارشال في العالم، معه، ومنه؛ ضرب جذوره ونما مثل شجرة، ولا شك أنه وجد مكانه فيه ونال قسطاً من السعادة. لكني فيما كنت أنظر في المرآة في تلك الليلة، منكراً صورتي، عرفت أن ما كان قد توقعه جورج مارشال حول مستقبلي كان صحيحاً من الناحية السطحية فقط. فلم يكن جورج مارشال قد فهمني حقاً، وفي اللحظة التي شكّ فيها أني كنت مختلفاً عنه تركني.

كنت ما أزال أنظر إلى نفسي بينما كانت هذه الذكريات تجول في خاطري. أصبح وجهي حزيناً وساهماً. ولم أعد أنظر إلى صورتي، بل إلى صورة ذاكرتي في لحظة أخرى - عندما كنت جالساً على منحنى ذات ليلة انصت إلى «صبي» هندوسي اسمه تاود. قال تاود أيضاً شيئاً في تلك الليلة أثار في نفسي اضطراباً عميقاً. لكن تاود قالها كصديق. كان يمسك يدي، كما يفعل الهندوس عادة. وكان من الممكن أن يظن أي عابر سبيل يرانا أننا ربما كنا نمارس

الجنس. كان تاود يحاول أن يجعلني أرى الأشياء في ضوء مختلف. وما كان يحيّره فيّ أني كنت «طيب القلب» ومع ذلك... كنت أشيع الحزن حولي. كان تاود يريدني أن أكون صادقاً مع نفسي، تلك النفس التي عرفها وقبلها على أنها نفسي «الحقيقية». وبدا أنه لم يكن يعرف طبيعتي المعقدة، أو إذا كان قد فهمهما فلم يولها أي أهمية. لم يفهم لماذا كنت مستاء من المكانة التي وصلت إليها في الحياة، خاصة وأني أشغل منصباً جيداً. لم يكن يدرك أني كنت مجرد آلة عمياء، أطيع قانون الكسل، وأكره الكسل حتى لو كان لذيذاً.

تركت تاود في تلك الليلة وأنا في حالة من اليأس. كنت أكره فكرة أن يحيط بي مغفلون يمسكون يدي ويريحونني كي أبقى مقيداً بالسلاسل. اعتراني شعور مشؤوم بالبهجة وأنا أبتعد عنه؛ وبدلاً من أن أذهب إلى البيت توجهت بشكل غريزي إلى الغرفة المؤثّثة، حيث تعيش النادلة التي كنت أقيم معها علاقة رومانسية. جاءت إلى الباب وهي ترتدي قميص نومها، ورجتني ألا أصعد معها إلى غرفتها بسبب تأخر الوقت. دخلنا إلى المدخل، وانحنينا فوق المدفأة لنتدفأ. وبعد دقائق قليلة أخرجته ومنحته إياها بأفضل ما يمكن لي أن أفعله في مثل هذا الموقف المتوتّر. كانت ترتعد خوفاً ولذة. وعندما انتهينا لامتني لأني كنت متهوراً. همست «لماذا تفعل هذه الأشياء؟» وهي تلتصق بي. هربت وتركتها تقف عند أسفل الدرج محتارة. وبينما هرعت إلى الشارع راحت تتكرر عبارة «أيّها النفس الحقيقية؟» في رأسي.

تلك هي العبارة التي كانت ترافقني حتى الآن، أغذّ الخطى في شوارع برونكس السقيمة. لماذا أمشي بسرعة كبيرة؟ ما الذي يدفعني إلى السير بهذه السرعة؟ أبطأت، كما لو أنني أترك الشيطان يستحوذ عليّ...

إذا استمررت في خنق اندفاعك فسينتهي بك الأمر بأن تصبح

كتلة من البلغم. وأخيراً بصقت تلك الكتلة التي كانت تستنزف كلّ قواك، والتي أدركت بعد سنوات أنها لم تكن مجرد بصقة، بل تبين لك أنك بصقت أعماق ذاتك. وإذا فقدت ذلك فستجري في الشوارع المظلمة كمجنون تلاحقه الأشباح. وسيكون بوسعك أن تقول دائماً بإخلاص مثالي: «لا أعرف ماذا أريد أن أفعله في الحياة». يمكنك أن تنطلق في الحياة وتخرج من الطرف الخاطئ من المنظار، ترى كلّ شيء وراءك، خارج قبضتك، وملوياً على نحو شيطاني. ومنذ ذلك الحين انتهت اللعبة. وبأيّ اتجاه ستسلكه، ستجد نفسك في قاعة المرايا؛ ستجري كمجنون، تبحث عن منفذ، وتجد نفسك محاطاً بصور مشوهة من نفسك الحلوة.

أكثر ما كنت أكرهه في جورج مارشال، وفي كرونسكي، وفي تاود وفي المضيفين غير المحسوبين الذين كانوا يمثلونهم، جديتهم السطحية. فالشخص الجدّي مرح حقاً، ويكاد يكون لامبالياً. كنت أحتقر الناس الذين يواجهون مشاكل العالم، لأنهم كانوا يفتقرون إلى أهميتهم الحقيقية. فالإنسان الذي تزعجه أحوال الإنسانية، إما أن لا تكون لديه مشاكل خاصة، أو أنه يرفض مواجهتها. إني أتحدث عن الغالبية العظمى، ليس عن القلة التي تحررت، التي بعد أن قلبّت الأمور على جميع وجوهها، الغالبية التي تتميز بقدرتها على التماهي مع الإنسانية كلها، وذلك تتمتع بأعظم مافي تلك الرفاهية: الخدمة.

ثمة شيء لا أؤمن به من كل قلبي ـ *العمل*. العمل، الذي بدا لي حتى عند عتبة الحياة أنه نشاط مخصص للبليدين. إنه نقيض الخلق، الذي هو عبارة عن لعبة، ولأنه ليس له علة وجود أخرى، فهو أكبر قوة محفزة في الحياة. هل قال أحد إن الله خلق الكون ليجد لنفسه عملاً؟ وبسلسلة من الظروف التي ليس لها علاقة بالعقل أو الذكاء أصبحت كالآخرين ـ عاملاً كادحاً. وكان لدي العذر المقلق بأني أعيل بعملي زوجة وطفلة. كنت أعرف أن ذلك عذر واه، لأني إذا

سقطت ميتاً في الغد فإنهما سيواصلان حياتهما بطريقة أو بأخرى. هل يجب عليّ أن أضع حداً لكل شيء، وأكون أنا نفسي، لم لا؟ إن الجزء الذي استسلم مني للعمل، الذي مكّن زوجتي وطفلتي من العيش بالطريقة التي كانتا ترغبانها بدون تفكير، هذا الجزء الذي أبقى العجلة تدور ـ فكرة حمقاء، مغرورة تماماً! ـ كان الجزء السفلي مني. لم أقدم شيئاً إلى العالم جرّاء قيامي بمهمة المعيل، فقد انتزع العالم تقديره مني، هذا هو كل ما في الأمر.

لن يبدأ العالم يحصل مني على شيء ذي قيمة إلا عندما أتوقف عن أن أكون عضواً جاداً في المجتمع وأصبح ـ أنا نفسي. إن الدولة، الأمة، الأمم جميعها، العالم، ليسوا سوى تجمعات كبيرة من الأفراد الذين يكررون أخطاء أسلافهم. لقد علقوا في العجلة منذ ولادتهم وتمسكوا بها حتى الموت ـ هذه المطحنة التي يحاولون تبجيلها وتكريمها التي يدعونها «الحياة». لو سألت أيا كان أن يشرح لك ماهية الحياة أو يعرّفها لك، ماذا يعني أن يخلق الجميع ويموت الجميع، لأجابك بنظرة لا معنى لها. فقد تناول الفلاسفة مسألة الحياة في كتبهم التي لا يقرأها أحد. فليس لدى أولئك المنهمكين في غمرة الحياة الوقت لمثل هذه الأسئلة التي لا أساس لها. «يجب عليك أن تأكل، أليس كذلك؟» هذا هو السؤال، الذي من المفترض أن يكون لسد فراغ، والذي سبق أن أجاب عنه العارفون ببواطن الأمور، إن لم يكن على نحو سلبي مطلق، فعلى الأقل بشكل سلبي نسبياً وعلى نحو يثير القلق، وهو دلالة على كل الأسئلة الأخرى التي أعقبته في أحد الأجنحة الإقليدية. ومن قراءاتي القليلة لاحظت أن الأشخاص المنهمكين في خضم الحياة، الذين يقولبون الحياة، الذين يُعتبرون أنهم هم الحياة نفسها، كانوا يأكلون قليلاً، ينامون قليلاً، يملكون قليلاً، أو لا يملكون شيئاً. لم تكن لديهم أوهام عن الواجب، أو رغبة في تخليد أقاربهم، أو الحفاظ على الدولة. بل كانوا يهتمون بالحقيقة وبالحقيقة فقط. كانوا يقرون بنوع واحد فقط من النشاط ألا وهو الخلق. لا يمكن لأحد أن يطلب خدماتهم

لأنهم عاهدوا أنفسهم على أن يعطوا الجميع، على أن يعطوا دون مقابل، لأنها الوسيلة الوحيدة للعطاء. هذا هو أسلوب الحياة الذي يروق لي: الذي يضفي عليها معنى. إنها الحياة ـ وليست شبه الحياة التي يعبدها كل من هم حولي.

لقد فهمت كل ذلك ـ منذ أن كان عقلي يتشكل عند عتبة الرجولة. لكن يجب أن تمر كوميديا عظيمة من الحياة قبل أن تصبح هذه الرؤيا عن الواقع قوة محفزة. لقد عمل الجوع الكبير للحياة الذي أحس به الآخرون فيّ فعل المغناطيس، فقد جذب المحتاجين إلى هذا النوع الخاص من الجوع. لقد ضُخم الجوع ألف مرة. كان كما لو أن أولئك الذين تعلقوا بي (كالبرادة الحديدية) أصبحوا حساسين وراحوا يجذبون أشخاصاً آخرين بدورهم. الإحساس ينضج فيصبح تجربة، والتجربة تولد التجربة.

إن ما كنت أشتاق إليه سراً هو أن أحلّ نفسي من كل تلك الحيوات التي نسجت نفسها في نمط حياتي وجعلت قدري جزءاً منها. إن تخليص نفسي من هذه التجارب المتراكمة التي تشكلت لدي بوساطة قوة العطالة فقط، يتطلب جهداً ضخماً. ومن حين لآخر كنت أندفع وأمزق الشبكة، ولكن الخناق كان يضيق عليّ أكثر. وبدا أن تحريري ينطوي على ألم ومعاناة للقريبين مني والعزيزين عليّ. فكل حركة كنت أقدم عليها لمصلحتي كانت تجلب عليّ اللوم والإدانة. فقد كنت خائناً ألف مرة ومرة، وفقدت الحق حتى في أن أمرض ـ «لأنهم» كانوا بحاجة إليّ. فلم يكن يسمح لي أن أبقى هادئاً، بدون حركة، ولو مت فأظن أنهم كانوا سيحنطون جسدي ليبدو حياً أبداً.

وقفت أمام المرآة وقلت بخوف: «أريد أن أرى كيف أبدو في المرآة وعيناي مغلقتان». عندما اطلعت لأول مرة على هذه الكلمات التي قالها ريختر، أحدثت فيّ اضطرابا يتعذر وصفه. كما فعلت الفقرة التالية، التي تكاد تبدو أنها نتيجة طبيعية للكلمات أعلاه ـ من

نوفاليس: «تكمن قرارة الروح حيث يتلامس العالمان الداخلي الخارجي. لأنه لا أحد يعرف نفسه، إذا كان هو فقط نفسه وليس شخصا آخر أيضاً في الوقت نفسه».

يمر وقت تستحوذ فيه الأفكار على المرء، عندما يكون المرء مجرد ضحية منكودة الحظ لأفكار شخص آخر. هذا «التملك» من الآخر يبدو أنه يحدث في فترات يكون فيها المرء مسلوب الشخصية، حين تنفك النفوس المتصارعة عن بعضها، كما كانت. في العادة يكون المرء محصناً من الأفكار، فهي تذهب وتجيء، تُقبل أو تُرفض، تُلبس كالقمصان، تُنزع كالجوارب الوسخة. لكن في الفترات التي ندعوها أزمات، عندما ينفصل العقل وينشق مثل ماسة تحت ضربات المطرقة، تلتصق أفكار الحالم البريئة هذه، تقبع في زوايا دماغه، وتتغلغل بشكل حاذق، وتحدث تغييراً مؤكداً في شخصيته لايمكن إلغاؤه. من الخارج لا يطرأ تغيير كبير، ولا يتصرف الفرد الذي يتعرض لذلك فجأة على نحو مختلف، بل بالعكس، ربما تصرف بطريقة «طبيعية» أكثر من قبل. وتتخذ هذه الحالة الطبيعية الظاهرة شكل أداة واقية على نحو متزايد، وينتقل من الخداع السطحي إلى الخداع الداخلي. ومع كل أزمة جديدة، يدرك بقوة أكبر حدوث تغيير ولكنه ليس بتغيير، بل بالأحرى تكثيف لشيء مخبأ في الأعماق. والآن عندما يغلق عينيه يمكنه حقاً أن ينظر إلى نفسه، فلا يعود يرى قناعاً. إنه يرى دون أن يُرى، إذا توخينا الدقة. رؤيا بدون بصر، قبضة سائلة غير حسية: اندماج البصر والصوت: قلب النسيج. هنا تتدفق الشخصيات البعيدة التي تتفادى الاتصال الفج للأحاسيس، وهنا تتراكب الألوان المنعكسة سراً فوق بعضها بانسجام حيوي ساطع. إنها لا تستخدم لغة، لا تضع خطوطاً عريضة.

عندما تغرق السفينة تبدأ بالغوص ببطء، وتأخذ الأشرعة والصواري وحبال السفينة تطفو بعيداً. وفي قعر محيط الموت تتزين القشرة النازفة بالجواهر، وتبدأ الحياة التشريحية بقسوة ودون شفقة. إن الشيء الذي كان سفينة يصبح شيئاً لا يفنى ولا اسم له.

وعلى غرار السفن، يخفق الرجال مرة بعد أخرى. الذاكرة فقط هي التي تنقذهم من التشتت التام. يضع الشعراء غرزاتهم في النول، يرمون قشاتهم للغرقى ليتمسكوا بها وهم يغوصون في لجة الانقراض. الأشباح تعود وتصعد الدرجات المائية، وتعلو في الخيال، قطرات مصابة بالدوار، تحفظ عن ظهر قلب الأرقام، والتواريخ، والأحداث، وهي تعبر من الحالة الغازية إلى الحالة السائلة وتعود ثانية. ليس هناك دماغ قادر على تسجيل التغيرات المتغيرة.

لا شيء يحدث في الدماغ، إلا الصدأ والتآكل التدريجي للخلايا. أما في العقل، فإن عوالم غير معروفة، لا اسم لها، غير مستوعبة، تتشكل، تتفسخ، تتحد، تذوب وتتواءم باستمرار. في عالم العقل، الأفكار هي العناصر الراسخة التي تشكل كواكب الحياة الداخلية. نتحرك داخل مداراتها، بحرية إذا تبعنا أنماطها المعقدة، سواء كنا مستعبدين أو مملوكين إذا حاولنا إخضاعها. كل شيء خارجي ماعدا الانعكاس المسلط من آلة العقل.

الخلق هو المسرحية السرمدية التي تحدث عند خط الحدود، إنها تلقائية وإلزامية، وتطيع القانون. يبتعد المرء عن المرآة وترتفع الستارة. حفلة دائمة، لا يُستبعد منها إلا المجانين. فقط الذين «فقدوا عقولهم» كما نقول، لأن هؤلاء لا يتوقفون عن الحلم بأنهم يحلمون. لقد وقفوا أمام المرآة وعيونهم مفتوحة وغطوا في سبات عميق، ختموا ظلهم في مقبرة الذكرى. فيهم النجوم تنهار لتشكل ما أطلق عليه هوغو «حديقة حيوانات نادرة من شموس تعمي البصر، التي تجعل نفسها من خلال الحب، كلاب البودل الصغيرة وكلاب النيوفنلندي الضخمة».

الحياة المبدعة! الصعود. أن يتجاوز المرء نفسه. تنطلق كالصاروخ في السماء، تتمسك بسلالم الطائرة، تصعد، تحلق، ترفع

العالم إلى الأعلى من فروة الرأس، توقظ الملائكة من عرائنها الأثيرية، تغرق في الأعماق السحيقة، تتعلق بذيول المذنبات. وكان نيتشه قد كتب عنها بنشوة ـ وبعدها أغمي عليه أمام المرآة ليموت في الجذر والزهرة. فقد كتب «الدرجات والدرجات المعاكسة» وفجأة لم يعد هناك أي قاع. العقل، كماسة مشقوقة، سُحقت بضربات مطرقة الحقيقة.

مر وقت تصرفت فيه كمسؤول عن أبي. كنت أُترك وحيداً لساعات طوال، محصوراً في الكشك الصغير الذي كنا نستعمله كمكتب. وبينما كان يشرب مع أصدقائه كنت أتغذى من زجاجة الحياة الخلاقة. رفاقي كانوا الأرواح الحرة، السادة الكبار من الروح. الشاب الصغير الجالس هناك في الضوء الأصفر الباهت أصبح معتوهاً تماماً. عاش بين طيات الأفكار العظيمة، قعد كناسك في القفار القاحلة في سلسلة جبلية شاهقة. ومن الحقيقة عبر إلى الخيال ومن الخيال إلى الإبداع والخلق. في هذه البوابة الأخيرة، التي لا عودة منها، داهمه الخوف. أن تخاطر أكثر يعني أن تجول وحيداً، أن تعتمد كلية على نفسك.

إن الغرض من النظام هو المزيد من الحرية، لكن الحرية تفضي إلى اللانهاية، واللانهاية تُدخل الفزع في النفوس. ثم برزت الفكرة المريحة الهنيئة بالتوقف عند الحافة، بكتابة ألغاز الدافع، الإلزام، الدفع، بإغراق الأحاسيس في الروائح الإنسانية. لكي تصبح إنساناً تماماً، يتجسد الشرير العطوف، صانع أقفال الباب الكبير المؤدي بعيداً ويعزل إلى الأبد...

الرجال يغرقون كالسفن، والأطفال أيضاً. هناك أطفال يستقرون في القاع ولما يبلغوا التاسعة من عمرهم، يحملون معهم سر الغدر بهم. هناك وحوش غدارة تنظر إليك بعيون شاب بريئة مملة، جرائمهم غير مسجلة، لأنه لا توجد لهم أسماء.

لماذا تطاردنا الوجوه الجميلة هكذا؟ هل للزهور الرائعة جذور شريرة؟

بعد تفحصها قطعة قطعة، قدميها، يديها، شعرها، شفتيها، أذنيها، صدرها، أنتقل من سرتها إلى فمها، ومن فمها إلى عينيها، المرأة التي وقعت في حبها، التي خمشتها، عضضتها، غمرتها بالقبل، المرأة التي كانت في الماضي مارا وأصبحت الآن مونا، التي كان لها وسيكون لها أسماء أخرى، شخصيات أخرى، توليفات أخرى، لم تعد قابلة للاختراق، لم يعد بالإمكان الوصول إليها، أكثر من تمثال بارد في حديقة منسية لقارة مفقودة. في التاسعة أو قبل ذلك، وبمسدس لم يكن من المفروض أن ينطلق، قد تكون ضغطت على زناد الإغماء وسقطت كبجعة ميتة من أعالي حلمها. قد تكون تمت بهذه الطريقة، لأنها كانت مشتتة في اللحم، وفي العقل كانت كالغبار المُذرى هنا وهناك. في قلبها جرس يقرع، ولكن ماذا كان يعني ذلك؟ لا أحد يعرف. صورتها لا تماثل الصورة التي شكلتها في قلبي. لقد تطفلت عليه، أدخلته كشاش رقيق بين ثنايا الدماغ في لحظة من التفسخ، وعندما التأم الجرح بقي أثره، كورقة ضعيفة تتطاير فوق حجرة.

في تلك الليالي المسكونة عندما كنت، وأنا مفعم بالخلق، لا أرى شيئاً سوى عينيها، وفي تلك العينين، اللتين تبزغان كفقاقيع برك من الحمم، تبرز أشباح إلى السطح، تذوي وتتلاشى، تظهر ثانية، تجلب معها الرهبة، الوجل، الخوف، الإبهام. كائن يُلاحق باستمرار، زهرة مخفية لم تشم الكلاب البوليسية رائحتها. وخلف الأشباح، وقفت طفلة منكمشة بدا أنها تعرض نفسها بفسق، تتلصص من وراء الأكمة، ثم تغطس البجعة، ببطء، كما في الأفلام، وندف الثلج تتساقط مع الجسم الساقط، ومن ثم أشباح ومزيد من الأشباح، والعيون تعود عيوناً ثانية، تحترق كالفحم، ثم تتوهج كالجمر، ثم تصبح طرية كالزهور، ثم يلوح الأنف، الفم، الخدان، الأذنان خارج الفوضى، تلتقي كالقمر، قناع ينكشف، لحم يتشكل، وجه، سمات.

ليلة بعد ليلة، من الكلمات إلى الأحلام، إلى اللحم، إلى الأشباح.

الامتلاك وعدم الامتلاك. أزهار القمر، سعف نخيل عريضة تنمو في الغابة، نباح كلاب بوليسية، جسم طفل أبيض ضعيف، فقاقيع حمم، ندف الثلج المتساقطة ببطء، القعر لا أرضية له حيث يزهر ليصبح لحماً. وما اللحم سوى القمر؟ وما القمر سوى الليل؟ والليل يطول، ويطول، ويطول إلى أبعد ما لا يحتمل.

«فكر بنا» قالت في تلك الليلة عندما استدارت وصعدت الدرج بسرعة. وشعرت كما لو أنني لم أعد أستطيع أن أفكر بأي شيء سوى ذلك. نحن الاثنان نصعد الدرج إلى ما لانهاية. ثم «الدرجات المتعاكسة»، الدرجات في مكتب أبي، الدرجات المفضية إلى الجريمة، إلى الجنون، إلى بوابات الاختراع. كيف يمكنني أن أفكر بأي شيء آخر سوى ذلك؟

الخلق. أن أخلق الأسطورة التي يمكنني أن أكتشف من خلالها مفتاحاً أفتح فيه روحها.

امرأة تحاول أن تفصح عن سرها. امرأة يائسة، تسعى من خلال الحب أن توحد ذاتها مع ذاتها. أمام عظمة اللغز يقف المرء مثل الحريش (أم أربع وأربعين) التي تشعر أن الأرض تميد تحت قدميها. كل باب يفتح يفضي إلى فراغ أكبر. يجب على المرء أن يسبح كنجمة في محيط من الزمن لا يمكن تعقبه. يجب أن يكون لدى المرء صبر الراديوم المدفون تحت إحدى قمم جبال الهيمالايا.

مضى عليّ الآن حوالى عشرين سنة منذ أن بدأت دراسة الروح المشعة، في ذلك الوقت تعرضت لمئات من التجارب. والنتيجة هي أنني أعرف أكثر قليلاً ـ عن نفسي. أظن أن الأمر ينطبق كثيراً على الزعيم السياسي أو العبقري العسكري. لا يكتشف المرء شيئاً عن أسرار الكون، وفي أفضل الأحوال يتعلم المرء شيئاً عن طبيعة القدر.

في البداية يريد المرء أن يقترب من كل مشكلة مباشرة. وكلما كانت المقاربة مباشرة ودؤوبة أكثر، نجح المرء بسرعة وبحتمية

في أن يعلق في نسيج العنكبوت. لا يوجد أحد عاجز أكثر من البطل، ولا يمكن لأحد أن ينتج مأساة وتشويشاً أكثر من هذا النوع. يومض سيفه فوق العقدة المستعصية، يعد بالخلاص السريع. وهم ينتهي في محيط الدم.

ثمة شيء يجمع بين الفنان المبدع والبطل. ورغم أنه يعمل في مجال آخر، فإنه يعتقد أيضاً أن لديه حلولاً يقدمها. فهو يضحي بحياته لتحقيق انتصارات خيالية. وفي نهاية كل تجربة عظيمة، سواء من قبل سياسي، محارب، شاعر أو فيلسوف، تتخذ مشاكل الحياة الطبيعة المبهمة نفسها. ويقال إن أكثر الناس سعادة هم أولئك الذين ليس لهم تاريخ. أما أولئك الذين لهم تاريخ، أولئك الذين صنعوا تاريخاً، فيبدو أن السعادة لا تترسخ لديهم إلا من خلال إنجازاتهم لسرمدية الصراع. وهؤلاء يختفون أيضاً، في نهاية المطاف، تماماً كأولئك الذين لم يبذلوا أي جهد، الذين كانوا سعيدين في أن يعيشوا فقط ويتمتعوا بحياتهم.

الفرد المبدع (في صراعه مع الوسط المحيط) يفترض به أن يجد متعة تعادل، إن لم تكن تفوق، الألم والمكابدة اللتين ترافقان الصراع للتعبير عن ذاته، ونحن نقول إنه يحيا في عمله. ولكن هذا النوع الفريد من الحياة يتباين بشدة بالنسبة للفرد، بأنه يدرك مزيداً من الحياة، الحياة الوفيرة، التي قد يقال إنه يكسب رزقه نتيجة عمله. أما إذا لم يكن هناك إدراك فليس ثمة هدف أو فائدة ترجى من استبدال الحياة الخصبة الخيال بالحياة المليئة بالمغامرات في الواقع فقط. فكل شخص يرتفع على الأعمال الروتينية اليومية، يفعل ذلك ليس بأمل توسيع مجال تجربته فقط، أو حتى إغنائها، بل لتسريعها. وبهذا المعنى فقط يكون للكفاح أي معنى. اقبل هذا الرأي، ويصبح التمييز بين الفشل والنجاح صفراً. وهذا ما يتعلمه كل فنان عظيم أثناء عمله ـ أي يجب أن يكون للعملية التي يضطلع بها علاقة ببعد آخر من أبعاد الحياة، وعندما يتماهى في تلك العملية

فإنه يحسّن الحياة. وفي هذه النظرة إلى الأشياء ينتهي بشكل دائم - ويحمي - من الموت الماكر الذي يبدو أنه ينتصر عليه، ويتكهن أن السر العظيم لن يمكن فهمه، بل يندمج في جوهره. يجب أن يجعل نفسه جزءاً من اللغز، يعيش فيه ومعه أيضاً. القبول هو الحل: إنه فن، ليس أداء مغروراً من ناحية الفكر. إذ من خلال الفن يقيم المرء أخيراً صلة بالحقيقة: ذلك هو الاكتشاف العظيم. هنا تكمن اللعبة والإبداع. ليس هناك موطئ قدم صلب تُطلق منه المقذوفات التي ستثقب عفن الحماقة والجهل والطمع. لا ينبغي وضع نظام للعالم: العالم هو نظام من التجسد. ويجب علينا نحن أن نوائم أنفسنا مع هذا النظام. فإذا تمكنا من امتلاك القوة التي نتمنى أن نمتلكها، لإرساء الجيد والصحيح والجميل، فستبرهن أنها ليست سوى وسيلة لتحطيم بعضها. ولحسن حظنا أننا ضعفاء. يجب علينا أولا أن نفهم ثم نتحلى بالانضباط والتسامح، وإلى أن نصبح متواضعين ونعترف بوجود إدراك ما وراء إدراكنا، إلى أن يصبح لدينا إيمان وثقة بالقوى العظمى، يجب على الأعمى أن يقود الأعمى. أما الذين يعتقدون بأن العمل والعقل سيحققان كل شيء، فلا بد أن يكونوا مخدوعين بالدور الخيالي وغير المتوقع للأحداث، وهم الذين يصابون بخيبة أبدية، ولا يعودون قادرين على أن ينحوا باللائمة على الآلهة، أو الله، ويلتفتون إلى أخوانهم وينفّسون عن غضبهم العاجز بالصراخ «خيانة! غباء!» وكلمات جوفاء أخرى من هذا القبيل.

تكمن أكبر متعة للفنان في أن يدرك وجود طبقة أعلى من الأشياء، في أن يعترف بتناول بواعثه الإلزامية والتلقائية التي تتشابه بقوة بين المخلوقات الإنسانية وبين ما يدعى بالخلق «الإلهي». في الأعمال التخيلية، يتجلى القانون من خلال طبقة شديدة الوضوح أكثر مما يظهر في قطعة فنية أخرى. لاشيء أقل فوضوية وجنوناً، من عمل متخيل. وهذا الخلق، الذي لا يقل عن كونه اختراعاً

تاماً، يتخلل كل المستويات، يخلق، كالماء، مستواه. ولا تسهم التفسيرات اللانهائية المقدمة في شيء، سوى أنها تزيد من أهمية مايبدو أنه غير واضح ومفهوم. ويحدث عدم الفهم هذا إحساساً عميقاً. فيتأثر الجميع، حتى الذين يدّعون أنهم لا يتأثرون. فثمة شيء في الأعمال التخيلية، التي لا يمكن تشبيهها إلا بالترياق. هذا العنصر الغامض، الذي يشار إليه غالباً «بالهراء الخالص» يجلب معه نكهة وعبير ذلك العالم الأكبر، الذي لا يمكن اختراقه أبداً والذي نوجد فيه نحن وكل الأجرام السماوية. إن كلمة «هراء» هي واحدة من أكثر الكلمات المحيرة في مفرداتنا، تنطوي على معنى سلبي فقط، كالموت. لا يمكن لأحد أن يفسر معنى كلمة هراء: بل يمكن التعبير عنها فقط. فالهراء يعود إلى عوالم أخرى، أبعاد أخرى، والتعبير الذي نعبّر عنه في بعض الأحيان، والنهائية التي نرفضها بها، تدل على طبيعتها المزعجة. ونرفض كل شيء لا يمكننا أن ندخله في إطار فهمنا الضيق، لذا قد يبدو أن العمق والهراء ينطويان على بعض الصلات غير المعروفة.

لماذا لم أبدأ كلامي بمجرد هراء؟ لأني، كالآخرين، كنت خائفاً. والأعمق من ذلك هو أني علقت في قلب نسيج العنكبوت. بقيت سالماً في مدرستي الدادائية المدمرة: تحولت، إذا كانت هذه هي الكلمة المناسبة، من دارس إلى ناقد إلى مدّمر. وكان مصير تجاربي الأدبية الخراب، مثل المدن القديمة التي اجتاحها الهمجيون. أردت أن أبني، لكن المواد لم تكن موضع ثقة ولم تكن الخطط جاهزة. وإذا كان جوهر الفن هو الروح الإنسانية، فيجب أن أعترف أنه مع الأرواح الميتة لا يمكنني أن أتصور شيئاً ينمو تحت يدي.

أن تعلق في تخمة الحلقات المثيرة، أن تشارك باستمرار، يعني، بين أشياء أخرى، أن المرء غافل عن فهم الخطوط العريضة لتلك الدراما الأكبر التي لا يشكل النشاط الإنساني فيها سوى جزء ضئيل. إن فعل الكتابة يضع حداً لنوع من النشاط ليطلق نشاطاً آخر من

عقاله. فعندما يتأمل راهب في صلاته، وهو يذرع قاعة الهيكل ببطء وصمت، فإن المشي يحرك إحدى عجلات الصلاة، عجلة تلو عجلة، ويقدم عرضاً حياً لفعل الجلوس للكتابة. إن عقل الكاتب، الذي لم يعد مشغولاً بالملاحظة والمعرفة، يجول متأملاً في وسط عالم من الأشكال التي تدور بمجرد حفيف أجنحته. هو ليس مستبداً، بل يمارس إرادته على التابعين الخاضعين في مملكته الحرام. أما المستكشف فهو يحيي كائنات تهجع في حلمه. فالحلم، كتيار الهواء المنعش في دار مهجورة، يرتب أثاث العقل في بيئة جديدة. تتعاون فيه الكراسي والمناضد، والرائحة تنبعث، وهكذا تبدأ المسرحية.

إذا سألنا ما غرض المسرحية، وما صلتها بالحياة، فإن السؤال عديم الجدوى. أسأل الخالق لماذا البراكين؟ لماذا الأعاصير؟ لأنها لا تسهم في شيء سوى أن تلحق الضرر وتحدث الكوارث. لكن، بما أن الكوارث لا تقضي إلا على الذين تبتلعهم فيها، يمكنها أن تنير الطريق للناجين ليدرسوها، ولذلك فهي تقع في عالم الإبداع. والحالم الذي يعود من رحلته البحرية سالماً، إذا لم تغرق السفينة التي تقله أثناء الرحلة، لربما تمكن من تحويل انهيار نسيجه الرقيق إلى مادة أخرى وهذا ما يفعله عادة. إن ثقب فقاعة بالنسبة لطفل قد لا يقدم شيئاً سوى الدهشة والمتعة، أما الساعي وراء الأوهام والسراب فهو قد يستجيب بأسلوب مختلف. وقد يجلب العالم إلى الفقاعة الثراء العاطفي من عالم الفكر. والظاهرة التي تجعل الطفل يصرخ لذة وحبوراً قد تتمخض هي نفسها عن رؤيا رائعة من الحقيقة في عقل إنسان مجرب جدي. ففي الفنان يبدو أن ردود الفعل المتناقضة تأتلف أو تندمج، لتخلف ذلك الشيء المطلق، المحفز العظيم الذي يدعى الإدراك. إن الرؤية، المعرفة، الاكتشاف، الاستمتاع ـ بهذه القدرات أو القوى أمور واهية لا حياة فيها ولا إدراك. إن لعبة الفنان هي أن ينتقل إلى الواقع. إنها رؤية ما بعد «الكارثة» التي تعيد إلى الأذهان صورة ساحة معركة خاسرة إلى

العين المجردة. لأنه منذ بداية الزمن، قلما تبدو الصورة التي قدمها العالم إلى العين الإنسانية المجردة أي شيء سوى ساحة حرب قبيحة من القضايا الخاسرة. هي الآن كذلك، وهكذا كانت وهكذا ستكون إلى أن يكف الإنسان عن اعتبار نفسه موضع النزاع.

10

دأبت على مغادرة العمل بعد ظهر كل يوم سبت، وعلى تناول طعام غدائي إما مع هيمي لوبشير وروميرو أو مع أورورك وأومارا. وكان كيرلي ينضم إلينا أحياناً، أو جورج ميلتيادس، وهو شاعر وعلّامة يوناني، ويعمل ساعياً في الشركة. وكان أومارا يدعو إرما ودولوريس لتنضما إلينا بين الحين والآخر، وكانتا قد رقيتا من مجرد سكرتيرتين متواضعتين في مكتب التوظيف في شركة كوسموديمونيك للتلغراف إلى بائعتين في أحد المخازن الكبيرة الواقعة في الجادة الخامسة. وكان تناول الطعام يستمر عادة حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ثم أنطلق بخطى متثاقلة بطيئة باتجاه بروكلن لأقوم بزيارتي الأسبوعية لمود والصغيرة.

وبما أن الثلج كان مايزال يكسو الأرض فلم يكن بوسعنا أن نخرج للتنزه في الحديقة. وكانت مود ترتدي عادة ثوبها المنزلي وبرنس حمام، وكان شعرها الطويل ينسدل حتى خصرها تقريباً. وكانت الغرف المكتظة بالأثاث، تغمرها حرارة شديدة، وكانت مود تحتفظ عادة بصندوق من الحلوى قرب الأريكة التي تضطجع عليها.

وكنا نتبادل التحيات بحيث يخيل للمرء أننا صديقان قديمان. وفي بعض الأحيان تكون الطفلة عند الجيران تلعب مع إحدى صديقاتها الصغيرات. وكانت مود تقول: «لقد انتظرتك حتى الساعة

الثالثة» بأسلوب يشوبه عتب خفيف، إلا أني كنت أعرف تماماً أنها تشعر بالغبطة في سريرتها لأن الطفلة لم تكن موجودة. وأقول لها بأنني تأخرت في المكتب، فتنظر إليّ نظرة تعني ـ «إني أعرف أعذارك، فلماذا لا تفكر بعذر آخر؟».

وتسألني فجأة: «كيف حال صديقتك دولوريس»، أو كانت تنظر إليّ نظرة حادة وتقول «ألم تعد صديقتك؟» وكانت تبطن في سؤالها هذا تلميحاً لطيفاً بأنها تأمل أن لا أخدع المرأة الأخرى (مونا) كما خدعتها هي. ولم تكن تذكر اسم مونا على لسانها أبداً، وبالطبع لم أكن أذكره أمامها، وكانت تشير إليها بقولها «هي».

وكان في هذه الأسئلة أيضاً نوع من التلميحات الأكثر عمقاً. فبما أن إجراءات الطلاق كانت ما تزال في مراحلها الأولى، وبما أن الانفصال لم يتم قانوناً بعد، ولا يعرف أحد ما يمكن أن يحدث في أثناء ذلك، فإننا على الأقل لم نعد عدوين. وكانت الطفلة دائماً بيننا ـ رابطاً قوياً. وإلى أن تتمكن من ترتيب شؤونها الحياتية على نحو مختلف، كنت أعيلهما كليهما. وكانت مود تريد أن تطلع على تفاصيل أكثر عن حياتي مع مونا، وتريد أن تعرف فيما إذا كانت الأمور تسير على ما يرام كما كنا نتوقع أم لا، لكن الكبرياء كان يمنعها من الاستفسار عن ذلك علناً. ومما لاشك فيه أنها كانت على قناعة بأن السنوات السبع التي عشناها معاً لم تكن أمراً تافهاً تماماً والتي أصبحت تبدو الآن في حالة مهلهلة. فأي حركة خاطئة من جانب مونا وأعود إلى النمط القديم. لذا كان عليها أن تستغل هذه الصداقة الغريبة الجديدة التي نشأت بيننا، فلعلها تمهد لعلاقة أخرى أكثر عمقاً.

وكنت أحياناً أشعر بالأسف عليها عندما يتضح هذا الأمل الذي لم تكن تعبّر عنه بصراحة. ولم أكن أخشى أن أعود وأسقط في هذا النمط القديم من الحياة الزوجية. وإذا حدث أي شيء لمونا ـ فإن التهديد الوحيد بالفراق الذي يمكن أن أفكر فيه هو الموت ـ وإني

واثق تماماً بأني لن أستأنف الحياة مع مود. وكنت أفضل عندئذ أن أتوجه إلى إحداهن من أمثال إرما أو دولوريس، أو حتى مونيكا، النادلة الصغيرة في المطعم اليوناني.

«لماذا لا تأتي هنا وتجلس بجانبي ـ فلن أعضك».

بدا صوتها آتياً من بعيد. وعندما كان يصادف ونبقى وحدنا، مود وأنا، كان عقلي في أغلب الأحيان يسرح بعيداً. وكما هو الحال الآن مثلاً، كنت أجيبها غالباً وأنا في شبه غيبوبة، الجسد فقط مطيع لرغباتها أما ما تبقى مني فكان غائباً. وكان يعقب ذلك تماماً أن تتصارع إرادتانا قليلاً، أو بالأحرى كان احتداماً بين إرادتها وإرادتي الغائبة، فلم تكن تنتابني أي رغبة في دغدغة رغباتها الجنسية، ولم أكن أذهب هناك إلا لقتل بضع ساعات وأخرج دون أن أنكأ أي جراح جديدة. وكانت يدي تتيه عادة وأنا شارد على جسدها الشهواني. وفي البداية لم يكن الأمر يتعدى تلك المداعبة التلقائية التي يمنحها المرء لحيوان أليف، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت أدرك أنها كانت تستجيب بمتعة خفية، ولكنها، ما أن تفلح في تركيز اهتمامي على جسدها حتى كانت تقدم على حركة مفاجأة لتبعدني عنه.

«تذكّر، فأنا لم أعد زوجتك».

وكان يروق لها أن تقذف ذلك في وجهي، وهي تعرف تماماً أنها تحرضني لأعاود مساعيّ من جديد، وهي تعرف أن محور عقلي، وأصابعي أيضاً، ستتركز على الشيء المحرم: هي نفسها. وكان تمحكها هذا يؤدي أيضاً غرضاً آخر ـ إذ كانت تظهر قدرتها على أن تعرض أو ترفض. وكانت تبدو دائماً أنها تقول بجسدها: «لكي تحصل على هذا لا يمكنك أن تتجاهلني». فقد كانت تشعر بالمهانة عندما تفكر أنه لا يجذبني إليها سوى جسدها. ويبدو أنها كانت تقول «سأمنحك أكثر مما يمكن أن تمنحه لك أي امرأة أخرى. فقط لو نظرت إليّ، لوْ رأيتني على حقيقتي». فقد كانت تعرف جيداً

أني كنت أنظر ما وراءها، وبأن الهوة بيننا أوسع مما كنا نتصور، وأنها أصبحت الآن أكثر خطورة مما كانت في السابق. وكانت تعرف أيضاً أنه لم تكن ثمة وسيلة أخرى للوصول إليّ إلا عن طريق جسدها.

ومن الحقائق الغريبة أن الجسد، مهما كان مألوفاً للعين والملمس، قد يصبح شديد الغموض في اللحظة التي نشعر فيها أن صاحبه غدا محيراً أو مراوغاً. إذ أذكر اللذة المتجددة التي كنت استكشف من خلالها جسد مود بعد أن علمت أنها ذهبت لاستشارة طبيب ليفحص مهبلها. ومما أضفى على هذه القصة نكهة خاصة، هو أن هذا الطبيب كان أحد الذين تقدموا لخطبتها، ولم تكن قد أتت على ذكره أمامي أبداً. وفي أحد الأيام باغتتني بقولها إنها زارته في عيادته، وإنها كانت قد أجهضت منذ مدة، ولم تكن قد أخبرتني بذلك، وإنها ذهبت إلى عيادة حبيبها القديم، الذي كانت تثق به، وقررت أن تجعله يفحصها.

«هل دخلت هكذا إلى عيادته وطلبت منه أن يفحصك؟»

فقالت ضاحكة «لا، ليس ذلك تماماً».

«حسناً، ماذا حدث بالضبط؟».

كان فضولي قد دفعني لأن أعرف إن كان قد وجد أنها تحسنت أم لا خلال السنوات الخمس أو الست التي انقضت. ألم يحاول مغازلتها؟ وكان بالطبع قد تزوج، فقد قالت لي ذلك للتو. لكنه كان أيضاً وسيماً جداً، ذا شخصية جذابة، وقد قالت لي ذلك بصعوبة.

«حسناً، كيف كنت تشعرين وأنت تصعدين إلى الطاولة وتفتحين ساقيك ـ أمام حبيبك القديم؟».

حاولت أن تُفهمني أنها كانت باردة تماماً، بحيث أن الدكتور هيلاري، أو مهما كان اسمه بحق الشيطان، طلب منها أن تسترخي، وبأنه ذكّرها بأنه يتصرف كطبيب، وما إلى ذلك.

«هل استرخيت ـ أخيراً؟».

ضحكت مرة أخرى، تلك الضحكة المثيرة التي كانت تضحكها دائماً عندما يتعين عليها أن تتكلم عن أشياء «مخجلة».

تابعت سؤالها: «حسناً، ماذا فعل؟».

«أوه، لاشيء يستحق الذكر. لقد فحص مهبلي فقط» ـ ولم تقل مهبلي! ـ بإصبعه. وبالطبع كان يضع قفازاً من المطاط على إصبعه». أضافت ذلك كما لو أنها تبرئ نفسها من أي شبهة بأن الفحص لم يكن سوى فحص روتيني.

واستغربت أنها تطوعت وقالت: «إنه يظن أني أصبحت مكتنزة على نحو جميل».

«أوه، قال ذلك؟ إذن فقد فحصك فحصاً شاملاً؟».

لقد ذكرتني بهذه الحادثة ملاحظة قالت فيها إن الألم القديم عاد للظهور مؤخراً، وأن ذلك يثير قلقها. وراحت تشرح لي مرة أخرى كيف أنها وقعت منذ سنوات وظنت أن حوضها أصيب بأذى. كانت تتكلم بجدية، إلى درجة أني عندما دسست يدي بين فخذيها، عند حافة هضبة فينوس، ظننت أن ذلك قد تم ببراءة تامة. وكان شعرها كثيفاً في تلك المنطقة، أجمة من الورد، التي إذا تاهت الأصابع بعد مسافة قليلة، كانت تظهر على الفور، صلبة كفرشاة. كانت واحدة من تلك الأشياء الغزيرة التي تثير الجنون عند مسها من وراء ستارة من الحرير أو المخمل. ففي الأيام الأولى، حين كانت ترتدي ثياباً رقيقة جذابة، وعندما كانت تتصرف بغنج ودلال وإغراء، كنت غالباً أمسكها من هناك بسرعة ونحن واقفان في مكان عام، أو في رواق مسرح، أو في محطة مترو مرتفعة. وكان ذلك يثير حنقها. لكني كنت أقترب منها حتى أكاد ألتصق بها لأحجب مكان يدي، وكنت أظل ممسكاً به وأقول: «لا أحد يستطيع أن يرى ماذا أفعل. لا تتحركي»، وأستمر في التحدث إليها، ويدي مدفونة في فروتها، فيما كانت تتسمر من الخوف. وفي المسرح، وما أن كانت تخفت الأنوار، حتى تفتح ساقيها وتتركني أداعبها. وبدون تردد كانت تفك أزرار فتحة بنطالي، وتداعب قضيبي حتى نهاية العرض.

كان فرجها مايزال مثيراً. كنت أعرف ذلك تماماً الآن، ويدي مستندة بدفء على حافة حقيبتها السميكة، فيما كانت ما تزال تواصل حديثها، والكلمات تتدفق من فمها لتؤجل تلك اللحظة المحرجة من الصمت، عندما لا يكون هناك شيء سوى ضغط يدي وقبولها الضمني بأنها ترغب في أن تبقى هناك.

وكما لو كنت أبدي اهتماماً كبيراً في ما كانت ترويه، ذكّرتها فجأة بزوج أمها الذي فقدته. وكما توقعت، فقد أثارها ذلك على الفور. فما أن ذكرت لها اسمه حتى وضعت يدها على قضيبي وراحت تضغط عليه بدفء. وعندما انسلت يدي أبعد قليلاً، تشابكت أصابعي في شعراتها الشائكة، ولم تبد أي ممانعة أبداً ـ في هذه اللحظة. وتابعت حديثي عن زوج أمها بشكل عاصف، تماماً كما لو كنت أستاذاً وهي تلميذة. وفيما كانت أصابعي تعقد شعراتها وتحلها غمرتني شهوة جامحة. وعندما كنت قد بدأت أزورها منذ سنوات قليلة، كنت أغار بشدة من زوج أمها هذا. فقد كانت آنذاك امرأة في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسد، ناضجة بكل معنى الكلمة، وكانت رؤيتي لها وهي جالسة على حضنه أمام النافذة، عند الشروق، تتحدث إليه بصوت خفيض، تثير غضبي. وكانت تقول لي «إني أحبه» كما لو كان ذلك يبرر سلوكها، لأن كلمة حب كانت تعني لها شيئاً نقياً تماماً، شيئاً بعيداً تماماً عن المتعة الجسدية. وكانت هذه المشاهد تتكرر في الصيف، وكنت أنا، الذي كنت أنتظر ذلك الغبي المسن لأن يطلقها من أسره، أفكر باللحم العاري الدافئ القابع تحت ثوبها الرقيق الشبيه بالشاش الذي كانت ترتديه. وبدا لي أنها ربما كانت تجلس أيضاً عارية بين ذراعيه. دائماً أدرك وزنها في ذراعيه، الطريقة التي كانت تجلس فيها عليه، فخذاها ترتعشان، وشقها السخي يرسو فوق فتحة بنطاله. وكنت متأكداً أنه مهما كان حب العجوز لها نقياً، فلا بد أنه كان يعرف جيداً قيمة الثمرة الشهية التي كان يضمها بين ذراعيه. الجثة الميتة

فقط هي التي يمكنها ألا تعبأ بكل هذا النسغ والحرارة التي تنضح من الجسد الدافئ. وكلما تعرفت عليها أكثر، كنت أفكّر بأنه من الطبيعي أن تقدم جسدها بهذه الطريقة الماكرة الشهوانية. إذ لم تكن بعيدة عن علاقة السفاح؛ فإذا قيض لها أن «تنتهك» فإنها تفضل أن يقوم بذلك أبوها الذي أحبته؛ وما جعل الأمر يبدو بسيطاً أنه لم يكن أباها الحقيقي، بل الأب الذي اختارته، هذا إذا كانت قد سمحت لنفسها حقاً أن تفكر بمثل هذه الأشياء بشكل منفتح. كانت تلك العلاقة اللعينة المنحرفة هي التي جعلت من الصعب أن أدخلها في علاقة جنسية منفتحة واضحة هذه الأيام. كانت تتوقع مني حباً لم يكن بمقدوري أنه أمنحه لها. كانت تريدني أن أداعبها كطفلة، أن أهمس في أذنها كلمات حلوة، أن ألاطفها بدلال، أدللها، أداريها وأسليها. كانت تريدني أن أضمها، وأداعبها بطريقة سِفاح غريبة. لم تكن تعترف بأن لها فرجاً وأن لدي قضيب. كانت تريد كلاماً عن الحبّ، وأن أهصرها بصمت وعلى نحو سري، استكشافات باليد. أما أنا فكنت مباشراً جداً، فظاً جداً بالنسبة لها.

وبعد أن ذاقت طعم الشيء الحقيقي لم تعد تكاد تتمالك نفسها ـ بشغف، بشهوة عارمة، بخجل، بمهانة، وما إلى هنالك. من الواضح أنه لم يخطر لها أنها ستكون ممتعة إلى هذه الدرجة، ولا مقرفة هكذا ـ لها ـ أن تترك نفسها على سجيتها. أن تفكر أنه يوجد شيء مدلى بين ساقي الرجل، الأمر الذي يمكن أن يجعلها تنسى نفسها تماماً، كان أمراً يثير السخط. لم تكن تريد أن تكون مستقلة ـ وهي لم تعد مجرد طفلة. لم تكن تريد عالماً وسطاً، الاستسلام، الاندماج، التبادل. كانت تريد أن تحتفظ بذلك الجوهر الوثيق الصغير المخبأ في صدرها، ولم تكن تسمح لنفسها إلا بمتعة الاستسلام الشرعية. ولم يعد يمكن فصل ذلك الجسد وتلك الروح، وخاصة في العمل الجنسي، اللذين كانا مصدر إثارة عميقة. كانت دائماً تتصرف وكأنها تخلت عن فرجها من أجل القضيب، كانت قد فقدت شيئاً،

جزءاً صغيراً من نفسها العميقة، عنصراً لا يمكن استبداله. وكلما جاهدت ضده اكتمل تخليها. لا توجد امرأة يمكن أن تضاجع بوحشية، كالمرأة الهستيرية التي جعلت عقلها بارداً جنسياً.

رحت أداعب شعراتها المتصلبة المجعدة في أجمتها، وتركت إصبعاً يتيه عرضاً إلى الأسفل حتى فتحة فرجها، فيما كانت أفكاري تغوص في أعماق الماضي. وكاد ينتابني الشعور بأني كنت أباها المختار، وأني أداعب فتاتي المثيرة عند الغسق في غرفة تغمرها الحرارة. كان كل شيء زائفاً، عميقاً وحقيقياً في الوقت نفسه. وإذا كان عليّ أن أتصرف كما كانت ترغب، أن أقوم بدور العشيق الرقيق المتفهم، فلا بد أن الجائزة ستكون كبيرة. كانت تلتهمني باستسلام تام. فقط واصل هذه الادعاءات، وستفتح فخذيها بهياج بركاني.

«دعيني أرى إن كان يؤلمك في الداخل»، همست، وسحبت يدي ودسستها بمهارة تحت ذلك الستار وراحت تجوس بين ساقيها، وقد باعدت بين ساقيها أكثر، مستجيبة لأدنى ضغطة من يدي.

سألتها وأنا أخترق عمقها: «هناك... هل يؤلمكِ هناك؟».

كانت عيناها نصف مغمضتين، وأومأت إيماءة لا معنى لها، لاتعني بها نعم أو لا. أدخلت إصبعين آخرين فيها، وتمددت بهدوء بجانبها، ووضعت ذراعاً تحت رأسها وشددتها بلطف نحوي، وأصابعي ما زالت تخضخض بمهارة العصير الدافق منها.

تمددت ساكنة، مستسلمة تماماً، عقلها مشغول تماماً بمداعبة أصابعي. تطلعت إليها وشاهدت السعادة ترتسم على وجهها. هذا ما كانت تحبه، هذا التبادل الأعمى للعواطف. أطبقت بقبضتها على قضيبي وراحت تداعبه برقة. اختلست نظرة سريعة إليها، فبدت قسمات وجهها في غاية الاسترخاء. هذا ما تحبه، التبادل الأعمى للعواطف. لو كان بإمكانها أن تغفو الآن، وتدع نفسها تُضاجَع، ولو أمكنها أن تتظاهر بأن لا يوجد جزء من جسدها واع يرى ما يحدث،

لفعلت ذلك. كي تستسلم تماماً، وتبدو بريئة تماماً... يا لها من نعمة. كانت تحب أن تمارس الحب بفرجها الداخلي، تستلقي ساكنة هناك، لا تأتي على أي حركة، كما لو كانت في غيبوبة.

يجب عدم الإقدام على أي خطوة خاطئة، عدم خدش ذلك الجلد الرقيق الذي تنسجه مثل شرنقة حول ذاتها الحسية العارية. إن الانتقال من الإصبع إلى القضيب يتطلب حذاقة منوم مغنطيسي. إذ يجب زيادة المتعة المميتة شيئاً فشيئاً، كما لو كانت سماً، اعتاد الجسد على تناوله بجرعات متدرجة. يجب ممارسة الجنس معها من خلال حاجب الشرنقة، كما كان يحدث في السنوات الماضية، عندما كنت أريد أن أنالها، كان يتعين عليّ أن أنتهكها من خلال قميص نومها... لقد خطرت لي فكرة شيطانية، فيما أخذ قضيبي شكلاً لولبياً بمتعة نتيجة مداعباتها بمهارة. وبرفق رفعت يدها عن قضيبي، ورفعت في الوقت نفسه ساقاً، وألقتها فوقي. وللحظات قليلة، تركت قضيبي يقفز ويرتعش عند فم فرجها، فراح ينزلق من المقدمة إلى المؤخرة، ثم يعود إلى المكان الذي انطلق منه، كما لو كان دمية مطاطية مرنة. وأخذت تتكرر لازمة غبية في رأسي وهي: «هل الشيء الذي أمسكه فوق رأس جميل أم رائع؟» وتابعت هذه اللعبة الصغيرة، وكنت بين الحين والآخر، أدفع رأسه في فرجها بوصة أو ما يقارب ذلك، ثم أمرره إلى الأعلى نحو طرف فرجها حيث يلطي ويستكين في دغلها المبلل بالندى. وفجأة أطلقت شهقة، وبعينين مفتوحتين على وسعهما، استدارت استدارة كاملة، واستقرت على يديها وركبتيها، وبشكل محموم، سعت لأن تمسك قضيبي وتدسه في مصيدتها اللزجة. وضعت يديّ كلتيهما حول ردفيها، وراحت الأصابع تنزلق على طول الحافة الداخلية لفرجها المنتفخ المتهدج، وفتحته كما تفتح كرة مطاطية ممزقة. وضعت قضيبي عند النقطة الحساسة وانتظرت ردة فعلها. ولوهلة حسبت أنها غيّرت رأيها فجأة. فقد دفعت رأسها، المدلى باسترخاء، وراحت عيناها تتبع حركات فرجها المسعورة، إلى الأعلى، وتحولت نظرتها فجأة إلى

نقطة ما في رأسي. تعبير عن متعة أنانية بحتة تدور في فلكها، وعندما بدأت تحرك مؤخرتها بشكل دائري، ولم يكن قضيبي قد انسل إلا نصفه فيها، راحت تمضغ شفتها السفلى، وبذلك لكزتها بكامل قوتي، وانزلق إلى آخره، إلى أعمق أعماقها إلى درجة أنها راحت تئن، وتهاوى رأسها على الوسادة. وفي هذه اللحظة، سمعنا صوت طرقات عالية على الباب. ذهلنا وكاد يقع قلبانا من مكانيهما. ابتعدت عني بسرعة وجرت نحو الباب.

سألت: «من هناك؟».

«إنه أنا» جاء صوت مرتعش خجول، عرفته على الفور.

«أوه، أنتِ! لماذا لم تقولي لي ذلك؟ ماذا في الأمر؟».

جاء الصوت الضعيف بطيئاً «فقط أردت أن أعرف إن كان هنري هنا؟».

قالت مود، متمالكة نفسها وأضافت «نعم، بالطبع إنه هنا... أوه، ميلاني»، كما لو أن الأخيرة كانت تعذبها، «هل ذلك كل ما أردت أن تعرفيه؟ ألم يكن بإمكانك...؟».

«توجد مكالمة هاتفية لهنري»، قالت ميلاني المسكينة المسنة. ثم ببطء أكثر قالت: «أظن... أن الأمر مهم».

نهضت من فوق الأريكة ورحت أزرر فتحة بنطالي وصرخت «حسناً، سآتي فوراً». أصبت بصدمة عندما رفعت السماعة. كان كيرلي يخابر من قاعة الصراصير، وقال إنه لا يمكنه أن يخبرني ماذا في الأمر، إلا أنه يجب عليّ أن آتي إلى البيت بأسرع ما يمكن.

قلت «لا تتكلم بهذه الطريقة، قل لي الحقيقة. ماذا حدث؟ هل الأمر يتعلق بمونا؟».

قال: «نعم، لكنها ستكون بخير بعد قليل».

«إذن فهي لم تمت؟».

«لا، لكنها نجت بأعجوبة. أسرع...» وأغلق سماعة الهاتف.

في القاعة اصطدمت بميلاني، كان صدرها نصف مكشوف. نظرت إليّ نظرة متعاطفة، تجمع بين العطف والحسد واللوم. «لم أشأ أن أزعجك»، وارتفع صوتها بشكل مؤلم، «لو لم يقولوا إن الأمر مهم»، وبدأت تجر قدميها نحو الدرجات «هناك أشياء كثيرة يجب عليك أن تقوم بها. عندما تكون شاباً...».

لم أنتظر حتى أسمعها. هبطت الدرج راكضاً وكدت أرتمي بين ذراعي مود.

سألت باهتمام «ماذا في الأمر؟» ثم أضافت، عندما لم أجب فوراً: «هل حدث شيء... لـ... لها؟» وأضافت: «أتمنى ألّا يكون هناك شيء خطير»، فيما كنت أبحث عن معطفي وقبعتي.

«هل يجب أن تذهب حالاً؟ أقصد...».

كانت هناك أكثر من نبرة قلق في صوت مود. هناك بعض الانزعاج، إيحاء فاتر بالرفض. وواصلت: «لم أشعل الضوء»، وتحركت باتجاه المصباح كما لو أنها كانت تريد أن تضيئه، «لأني خشيت أنه ربما تأتي معك ميلاني»، وعبثت قليلاً ببرنس الحمام، كما لو كانت تريد أن تعيد تفكيري إلى الموضوع الذي كان يشغل بالها. وفجأة أدركت أنه ليس من اللائق أن أذهب وأتركها دون أن أريها شيئاً من العطف.

«يجب أن أسرع»، قلت وأنا أحاول أن أرتدي قبعتي ومعطفي وأسرعت إلى جانبها وقلت: «أكره أن أتركك الآن... وأنت في هذه الحال»، وأمسكت اليد التي كانت على وشك أن تضيء المصباح، شددتها إليّ وعانقتها. لم تبد أي مقاومة، بل على العكس، ألقت رأسها إلى الخلف وقدمت شفتيها. وبسرعة انحشر لساني في فمها، وبدأ جسدها المسترخي الدافئ يضغط على جسدي. («بسرعة، بسرعة»، جاءت كلمات كيرلي). قلت لنفسي: «سأفعلها بسرعة»، لم أعد أبالي الآن إن كنت أقدم على خطوة طائشة أم لا. انسلت يدي تحت ثوبها وغاصت أصابعي في شقها. ولدهشتي مدت يدها إلى

فتحة بنطالي، وأخرجت قضيبي. دفعتها وأسندتها إلى الحائط، وتركتها تمرره على فرجها. كانت مستعرة الآن، تعي كل حركة تقوم بها. كانت تعامل قضيبي وكأنه قطعة من ممتلكاتها الخاصة.

كان من الصعب أن نفعلها ونحن واقفين. همست في أذنها «لنستلق هنا»، وجثت على ركبتيها وشدتني إليها أيضاً.

قلت: «ستصابين بالبرد»، وهي تحاول محمومة أن تخلع ثيابها.

قالت: «لا يهمني ذلك» وهي تسحب بنطالي وتشدني نحوها بطيش.

«يا إلهي...» قالت وعادت تقضم شفتيها، وتعصر خصيتي، فيما أخذت ألجها ببطء. راحت تتأوه بمتعة عارمة.

لم أعد أريد أن أقفز على الفور وأتناول قبعتي ومعطفي وأذهب، بل استرخيت فوقها، وقضيبي الذي يخترقها ما يزال صلباً. كانت من الداخل أشبه بفاكهة ريانة، وقد بدا أن لبّ ثمرتها يتنفس. وسرعان ما أحسست بالرايتين ترفرفان. كانت تشبه زهرة تتمايل مع الرياح. وكانت مداعبة التويجات أمراً مغرياً. وراحت تتحرك، ليس بحركات متشنجة قوية، بل كما تخفق الرايات الحريرية مع النسيم. ثم، وكأنها قد استعادت زمام السيطرة على نفسها فجأة، فقد أصبحت جدران فرجها من الداخل مثل عصارة ليمون طرية، تشد وترخي حسب رغبتها، وكأنه قد أصبح لديها يد خفية.

استلقت هناك هامدة، استسلمت لهذه المداعبات الماهرة («أسرع، أسرع!» لكني تذكرت بوضوح شديد الآن أنه قال إنها لم تمت). وبوسعي أن أطلب سيارة أجرة في أي وقت: فلن تؤثر بضع دقائق أقل أو أكثر. إذ لن يتصور أحد أني تأخرت لهذا السبب. (تمتع حتى آخر لحظة، تمتع حتى آخر لحظة). وقد أصبحت تعرف الآن أني لن أخرجه منها، أصبحت تعرف أنه أصبح بوسعها الآن أن

تستله متى شاءت، وخاصة وأنها مستلقية بهدوء بهذه الطريقة، تمارس الجنس بفرجها الداخلي فقط، تمارس الجنس بعقل يخلو من العقل.

أطبقت فمي على فمها ورحت أضاجعها بلساني. كانت تستطيع أن تصنع العجائب بلسانها. أشياء نسيت أني كنت أعرف أنها تستطيع أن تفعلها. ففي بعض الأحيان كان لسانها ينزلق إلى حنجرتي كما لتدعني أبتَعله، ثم تسحبه بعذوبة وإغواء شديدين كي تركّز على ما يحدث في الأسفل. ففي ذات مرة استليت قضيبي كله كي يتنشق نفحة من الهواء، لكنها مدت يدها إليه بنهم شديد، وأرجعته إلى حيث كان، ودفعت بحوضها إلى الأمام كي يغوص إلى أعماقها. أما الآن فقد أخرجته من مكمنه، ومثل كلب ذي أنف يسيل، راحت تتشممه. كان لهذه اللعبة مفعول كبير عليها، إذ راحت ترتعش رعشات طويلة، تفجرت برقة مثل نجمة بخمسة رؤوس. كنت أضبط نفسي ببرود وتروٍّ، إلا أنه عندما بدأ سيل الرعشات يجرفها، دفعته فيها بقوة كشيطان، ورحت ألكزها إلى الأعلى، وإلى الأطراف، وإلى الأسفل، وإلى الخارج، وإلى الداخل، يغوص في أعماقها، يتراجع، يتقلّب فيها، وكنت واثقاً من أني لن أنهي ما أقوم به إلا عندما يحين الأوان لذلك.

فعلت الآن شيئاً لم تفعله من قبل أبداً. فقد تملكتها شهوة عارمة، وراحت تعض شفتي، ورقبتي، وأذني، وأخذت تدمدم بكلمات مثل رجل آلي مهووس «هيا... أعطني إياه... كله... هيا». وكانت تنتقل من رعشة إلى أخرى، تدفع، تقتحم، ترفع نفسها، تدحرج مؤخرتها، ترفع ساقيها أو تلفهما حول رقبتي، تئن، تتأوه، تشخر، تنخر، وتصأصئ كأنثى الخنزير، ثم وفجأة، وقد تهالكت تماماً، راحت تتوسل بأن أوصلها إلى لحظة الرعشة. ترجوني بأن أبذل شهوتي فيها. كانت تستلقي هناك مثل كيس من الشوفان، تلهث، ينضح العرق منها بغزارة، مستكينة مستسلمة، منهكة تماماً، وببطء

وبإصرار رحت ألكزها بقوة، وفيما كنت أجد متعة فائقة في هذا اللحم المقطّع، البطاطا المهروسة، مرق اللحم، وجميع أنواع التوابل، رحت أقذف في فم رحمها، فأخذت ترتعش وكأن تياراً كهربائياً قد أصابها.

في المترو حاولت أن أعدّ نفسي للمحنة المقبلة. وانتابني شعور بالثقة بأن مونا لم تكن في خطر. والحق يقال إن الخبر لم يصدمني، فقد كنت أتوقع حدوث شيء منذ عدة أسابيع. فلا يمكن للمرأة أن تستمر في التظاهر بأنها غير مبالية عندما يكون مستقبلها كله في خطر، وخاصة المرأة التي تشعر بأنها مذنبة. فرغم أنى لم أشك بأنها أقدمت على عمل يائس، كنت أعرف أيضاً أن غرائزها تمنعها من تحقيق أهدافها. إن الشيء الذي كنت أخشاه أكثر من أي شيء آخر هو أن تكون قد أفسدت العمل. لقد ثار فضولي. ماذا فعلت؟ كيف تصرفت حيال ذلك؟ هل خططت ذلك وهي تعرف بأن كيرلي سيهرع لنجدتها؟ تمنيت أن تكون قصتها مقنعة هذه المرة. إذ لم أكن أريد أن أسمع منها حكاية غريبة غير معقولة، ستجعلني وأنا في حالتي المضطربة أدخل في نوبة ضحك هستيرية. أردت أن أتمكن من الاستماع إليها دون أن ترتسم على وجهي أي تعابير ـ أن أبدو حزيناً ومتعاطفاً لأني أشعر بأني حزين ومتعاطف. كانت الدراما تؤثر عليّ دائماً على نحو غريب، وتثير فيّ دائماً الإحساس بالعبث، خاصة عندما أكون مدفوعاً بالحب. وربما لهذا السبب كنت، في لحظات اليأس، أضحك من نفسي دائماً. وفي اللحظة التي كنت اتخذ فيها القرار لأتصرف كنت أغدو شخصا آخر ـ ممثلاً. وبالطبع كنت دائماً أبالغ بدوري. وأظن أنه في أعماقي، فإن هذا السلوك الشاذ يعود إلى النفور من المكر الذي لا براء منه. حتى لو كان ذلك يعني أن أنجو بنفسي، فقد كنت أكره أن أصدق الناس. أن تحطم مقاومة امرأة، أن تجعلها تحبك، أن تثير غيرتها، أن تفوز بها ثانية ـ وهي أشياء لا تتماشى مع قناعتي حتى بالاستخدام اللاواعي للوسائل الشرعية، وما لم تستسلم المرأة لي طوعاً فإني

لاأعتبر ذلك نصراً أو سعادة لي. كنت دائماً عاشقاً خائباً. أُثبط بسهولة، لا لأني كنت أشك بقواي بل لأني كنت أشك بهن. أريد أن تأتي المرأة إليّ، أريدها أن تناغيني هي في البداية، أن تكون هي البادئة. ولا مانع من أن تكون وقحة جداً معي! فكلما سلمتني نفسها بطيش ازداد إعجابي بها. كنت أكره العذراوات والبنفسج المنكمش. المرأة الغاوية! هذا هو مثلي الأعلى.

كم نكره أن نقّر بأننا لا نريد إلا أن نكون عبيداً، أن نكون العبد والسيد في الوقت نفسه! إذ حتى في الحب يكون العبد هو السيد دائماً، السيد متنكراً. فالرجل الذي يحب أن يقهر المرأة، أن يخضعها، أن يجعلها تستجيب لإرادته، أن يشكلها وفقاً لرغباته - أليس هو عبد لعبده؟ فكم من السهل، في مثل هذه العلاقة، أن تقلب المرأة موازين القوة! إذ إن مجرد التهديد بالاعتماد على الذات، من طرف المرأة، يجعل الطاغية الأنيق يصاب بالدوار. أما إذا تمكنا من أن يلقي الواحد على الآخر بنفسه بجنون، أن لا يخفيا شيئاً عن بعضهما، أن يسلما كل شيء، إذا اعترف كل منهما للآخر بأن أحدهما يعتمد على الآخر، أفلن يتمتعا بحرية كبيرة؟ إن الرجل الذي يعترف لنفسه بأنه جبان يكون قد تقدم خطوة لقهر خوفه، أما الرجل الذي يعترف بذلك بصراحة على الملأ، ويطلب من الآخرين أن يعاملوه على هذا الأساس، فهو في سبيله إلى أن يصبح بطلاً. وعندما تحين ساعة الاختبار الحاسم، يفاجأ مثل هذا الرجل غالباً، بأنه يكتشف أنه لا يعرف ما هو الخوف. وبعد أن يصبح لا يخشى أن يعتبر نفسه جباناً فلا يعد شخصاً، ولا يحتاج ذلك إلا إلى إثبات التحول. والشيء نفسه ينسحب على العاشق، فالرجل الذي لا يقر لنفسه فحسب، بل لأقرانه من الرجال، وحتى للمرأة التي يحب أيضاً، بأنه يمكن لامرأة أن تجعله رهن إشارتها، وأنه عاجز عندما يتعلق الأمر بالجنس الآخر، يكتشف عادة أنه الأكثر قوة من الاثنين. لاشيء يحطم المرأة بسرعة أكثر من الاستسلام التام لها، فالمرأة مستعدة أن تقاوم، أن تُحاصر: فقد ربيت على أن تتصرف هكذا.

وعندما لا تواجه أي مقاومة تسقط على رأسها في الفخ. وإن أعظم رفاهية يمكن للحياة أن تقدمها للمرء هي أن يتمكن من منح نفسه تماماً وبالكامل. فالحب الحقيقي لا يبدأ إلا عند هذه نقطة من الانحلال. إن الحياة الشخصية كلها تقوم على أساس التبعية، التبعية المتبادلة. فليس المجتمع سوى تجمع من الأشخاص يعتمد فيه الواحد منهم على الآخر. هناك حياة أخرى أغنى ما وراء حظيرة المجتمع، ما وراء الشخصي، لكن لا يمكن للمرء أن يعرفها، أو يصل إليها إذا لم يجتاز أولاً ذرى وأعماق الغابة الشخصية. لكي تصبح الحبيب العظيم، الجذاب، محور التركيز المبهر وإلهام العالم، يجب عليك أن تجرب أولاً الحكمة بأن تكون غبياً تماماً. أما أولئك الذين ليس لهم هدف سوى أن يكونوا محبوبين، الذين لا يسعون إلا لرؤية انعكاس صورتهم في المرآة، فلن يرضيهم أي حب، مهما كان عظيماً. وفي عالم متعطش للحب لا عجب أن تعمي بهجة وألق ذواتهم المنعكسة أبصار الرجال والنساء. ولا عجب أن عجلات قطار المترو السريع، رغم أنها تقطّع الجسم إلى إرب، فإنها تخفق في تسريع إكسير الحب. وفي موشور الأناني تكون الضحية العاجزة محاطة بالضوء الذي يعكسه. الأنا تموت في قفصها الزجاجي...

أفكاري تتشعب كالسرطان. فجأة تظهر صورة ميلاني. دائماً في البال، كورم منتفخ، شيء بهيمي وملائكي حولها. تعرج دائماً وهي تسير، تجر كلماتها من فمها، تدندن، يسيل لعابها، عيناها الكبيرتان السوداوان معلقتان كجمرة حارة في محجريهما. دائماً شاردة، ليس بالتفاهات العادية للحياة اليومية، بل بجسدها. فلم يكن من غير المعتاد لها أن تتجول في البيت، تقوم بالأعمال المنزلية الرتيبة التي لا تنتهي وهي تكشف عن ثدييها الحليبيين. وكانت مود توبخها دائماً، وتغضب دائماً لبذاءة ميلاني، كما تدعوها. إلا أن ميلاني كانت بريئة مثل كلب الماء المسعور. وإذا بدت كلمة «كلب الماء» غريبة إلا أنها ملائمة جداً. مع ميلاني قفزت في مخيلتي كل أصناف الصور السخيفة. كان في عقلها مس، وكلما ضعفت قدراتها

العقلية أصبح جسمها أكثر استحواذاً. فقد غاص عقلها في اللحم وإذا كانت حركاتها أصبحت صعبة ومرتعشة، فلأنها تفكر بهذا الجسم الممتلئ لحماً وليس دماغها. ويبدو أن الجنس قد توزع في أنحاء جسدها، ولم يكن متموضعاً في مكان واحد، لا بين ساقيها ولا في مكان آخر. لم تعد تشعر بالخجل، إذ لم يكن شعر عانتها، إذا صدف أن كشفته ونحن على مائدة الفطور وهي تخدمنا، يختلف عن أظافر قدميها أو سرتها. وأنا متأكد من أني إذا لمست شيئها عرضاً وأنا أمد يدي لأتناول غلاية القهوة، فلن تكون ردة فعلها تختلف عن تلك إذا لمسست ذراعها.

وعندما كنت أستحمّ، كانت تفتح الباب غالباً دون اكتراث وتعلّق المناشف على الرفّ فوق الحوض، وتعتذر بطريقة متواضعة ضعيفة، لكنها لا تحاول أبداً أن تشيح بنظرها. ففي بعض الأحيان، وفي مثل هذه المناسبات، كانت تقف وتحدثني لبضع لحظات عن حيواناتها الأليفة أو الدحاس في إصبع قدمها، أو قائمة الطعام للغدّ وهي تنظر إليّ ببراءة مطلقة، لا يعتريها بأي شكل من الأشكال أي شعور بالحرج. ومع أنها كانت مسنة وشعرها أبيض، كان لحمها حياً، حيّ على نحو يكاد يكون مقززاً بالنسبة لعمرها. وبشكل طبيعي، كان يحصل لديّ انتصاب أحياناً وأنا مستلق في حوض الحمام وهي تنظر دون ذرة خجل وهي تتحدث كلاماً سخيفاً لا معنى له. ومرّة أو مرّتين دخلت مود علينا على غير توقع. كان ينتابها الذعر، بالطبع. «لا بد أنك مجنونة»، قالت لميلاني. فأجابتها الأخيرة، «يا للعجب، لماذا تحدثين كلّ هذه الجلبة! إني واثقة من أن هنري لا يمانع»، وكانت تبتسم تلك الابتسامة السوداوية الحزينة. ثم تعود إلى غرفتها، التي اختارتها لها مود كي تعيش فيها. وحيثما عشنا كانت غرفة ميلاني تبدو ذاتها دائماً. الغرفة التي يسجن فيها المصابون بالخرف. ودائماً الببغاء في قفصه، ودائماً كلب البودل الهزيل الأجرب، ودائماً الصور نفسها من القرن الماضي، ودائماً ماكينة الخياطة، ودائماً هيكل السرير النحاسي والصندوق القديم.

غرفة غير مرتّبة كانت تبدو لميلاني مثل الجنة. غرفة مليئة بعواء شديد، ونعيق تتخلله همهمات، وهديل، وعبارات ممتزجة، وصراخ يعبر عن المودّة. وأحياناً، عندما أمر من أمام الباب المفتوح، كنت أراها جالسة على السرير لا ترتدي سوى قميصها الداخلي، والببغاء يجثم على يدها المنحنية، والكلب يقضم الطعام بين ساقيها. «مرحباً»، كانت تقول، وتنظر إليّ ببراءة. «إنه يوم جميل اليوم، أليس كذلك؟» وربما كانت تدفع الكلب جانباً، لا خجلاً أو إحراجاً، بل لأنه كان يدغدغها بلسانه الرطب الصغير المخادع بشكل شيطاني.

وكنت أحياناً أتسلل إلى غرفتها سرّاً، بدافع التطفّل فقط. فقد كنت أتوق لكي أعرف عن ميلاني، عن الرسائل التي تتلقاها، الكتب التي تقرأها، وما إلى ذلك. لم يكن ثمة شيء مخفي في غرفتها. ولم يكن هناك شيء مستهلك تماماً. وكانت يوجد دائماً قليل من الماء صغير في الصحن تحت سريرها، ودائماً توجد بعض قطع من البسكويت نصف المقضومة ملقاة على الصندوق أو قطعة من الكعك الذي كانت قد قضمتها ونسيت أن تأكلها كلها. وأحياناً كان يوجد كتاب مفتوح ملقى على السرير، والصفحة مفتوحة بوساطة نعل ممزّق. وكان من الواضح أن بولوير ليتون أحد المؤلفين المفضلين لها، وكذلك رايدر هاغارد. وبدا أنها تهتمّ بالسحر، وخاصة السحر الأسود. وكان هناك كتيب عن التنويم المغناطيسي. وكان أكثر الاكتشافات إثارة للدهشة يوجد في أحد دروج الطاولة، أداة مطاطية لا يوجد لها إلا استخدام واحد، ما لم تكن ميلاني تنوي بأسلوبها المتصدّع استخدامها استخداماً بريئاً تماماً. وسواء كانت ميلاني تمضي ساعة لطيفة أحياناً بهذه الأداة، كما كانت تفعل الراهبات في قديم الزمان، أو أنها اشترتها من مخزن لبيع الخرداوات وخبأتها لكي تستعملها بطريقة لا تثير الشك في وقت ما أثناء حياتها التي لا نهاية لها، كان لغزاً لي. ولم يكن من الصعب عليّ أن أتصورها وهي تستلقي على اللحاف الوسخ مرتدية قميصها الداخلي الممزّق، تدخل

هذا الشيء وتخرجه من شيئها وهي شاردة الذهن. بل حتى يمكنني أن أتصوّر الكلب وهو يلعق العصير الذي أخذ يقطر ببطء بين سيقانها. والببغاء يزعق بشكل مجنون، ربما يكرّر بعض العبارات الغبيّة التي علّمتها ميلاني له، لعله يكرر جملة غبية، مثل «سهل جداً يا عزيزتي»، أو «أسرعي الآن، أسرعي!».

كانت ميلاني غريبة الأطوار، ومع أن عقلها قد طار، فقد فهمت بطريقة بدائية، طريقة آكلي لحوم البشر تقريبا بأن الجنس يوجد في كل مكان، كالطعام والماء والنوم والدحاس. ومما كان يزعجني أن مود تتذرع بمثل هذه الأعذار غير الضرورية عندما تكون ميلاني موجودة. فإذا تمددنا على الأريكة بعد العشاء، لنستمتع بقليل من الجنس بهدوء في العتمة، كانت مود تقفز فجأة وتشعل ضوءاً خافتاً - لكي لا تشك ميلاني بما كنّا نفعله، أو أنها لن تتطفل وهي شاردة الذهن لكي تسلمنا رسالة نسيت أن تعطيها لنا عند الفطور. كنت أستمتع بفكرة لأن تدخل علينا ميلاني (فيما تكون على وشك أن تتسلق فوقي)، لتسلمني رسالة، وآخذ الرسالة بابتسامة مع كلمة شكراً، وتقف ميلاني هناك للحظة لتقول أشياء تافهة بأن الماء الحار حار جداً أو تسأل مود إن كانت تتناول البيض في الصباح أو قليلاً من الجبن. وكانت مود ترى أن ميلاني لا تعرف أننا كنا نمارس الجنس معاً. وبما أنها تعتبرها بلهاء أو معتوهة تماماً، أقتنعت أن أشخاصاً مثل ميلاني لا يفكرون بالجنس مطلقاً. إذ لم يكن لدى زوج أمها حياة جنسية مع هذه المجنونة، وهي واثقة من ذلك. وهي لن تخوض في سبب تأكدها من ذلك، لكنها متأكدة، والطريقة التي رفضت فيها الموضوع تشير بوضوح بأنها تفكر بأن هذه تعد جريمة بحق زوج أمها. لكي تصدقها يخيل لك، أن ميلاني تعمدت إفساد عقلها ليحرم زوج أمها حقّه الجنسي.

كان لي مكان في قلب ميلاني، فقد كانت تقف إلى جانبي دائماً عندما كنت أتشاجر مع مود، ولا أذكر أنها حاولت أن توجه لي اللوم على سوء سلوكي الصارخ. وكان ذلك أسلوبها منذ البداية. فقد كانت

مود تحاول أن تبعدها عن الأنظار في الأيام الأولى. كانت ميلاني شيئاً تخجل منه كثيراً ـ فعلى ما يبدو أنها كانت تذكرها دائماً بالعار العائلي. إذ كان يبدو أن ميلاني لا تلاحظ الفرق بين الناس الجيدين والسيئين؛ ولم يكن لديها إلا مبدأ توجيهي واحد، وهو الاستجابة الفورية للشفقة. لذلك، عندما اكتشفت أنني لم أكن أحاول أن أهرب منها عندما كانت تفتح فخّها، عندما وجدت أنه يمكنني أن أستمع إلى ثرثرتها ولا أصرف اهتمامي بها، مثل مود، حيث وجدت أنني أجد متعة بالطعام والبيرة والنبيذ، وخاصة الأجبان، فقد كانت على استعداد لأن تصبح جاريتي. كنت أجري معها أحياناً أكثر الأحاديث غباء وسخفاً عندما تكون مود غائبة في المطبخ عادة وزجاجة بيرة بيننا وربما قليل من سجق الكبدة وقليل من جبن ليدر كرانز على الجانب. وكنت أطلق لها العنان في مثل هذه المناسبات، وألتقط بعض اللمحات الرائعة منها عن الماضي غير المثير للاهتمام. كان يبدو «أنهم» جاؤوا من منطقة كسولة وشبه مصابة بالإمساك حيث يتدفّق ويرز بيرغير. إذ إن النساء كنّ يمسكن دائماً والرجال يدخلون السجنّ دائماً لسبب بديهي.

كان من الرائع أن أرى أنها وافقت على إقامة الشاب الياباني الذي كان أحد نجوم نزلائنا. وكان اسمه توري تاكيكوتشي، وكان شاباً صغيراً أميرياً مترفاً. فقد فهم الوضع بنظرة خاطفة، رغم عدم إتقانه اللغة. وبالطبع، ولأنه كان يابانياً، كان من السهل عليه أن يبتسم في وجه ميلاني عندما وقفت عند عتبة باب غرفته وراحت تثرثر مثل عنزة متصدّعة. وقد ابتسم لنا بالطريقة نفسها، حتى عندما أخبرناه عن وقوع كارثة خطيرة. وأظن أنه كان سيبتسم الابتسامة ذاتها لو أخبرته أنني سأموت بعد بضع دقائق. وبالطبع كانت ميلاني تعرف أن الشرقيين يبتسمون بهذه الطريقة الغامضة، لكنها كانت ترى أن ابتسامة السيد تي ـ هكذا كانت تدعوه دائماً، «السيد تي»، فاتنة. وكانت ترى أنه يشبه الدمية. نظيف ومرتّب جداً أيضاً! إذ لم يكن يترك وراءه ذرة من الأوساخ.

وعندما أصبحنا أكثر حميمية، ويجب أن أقول أننا جميعنا أصبحنا أكثر حميمية قبل أن يخرج السيد تي بشهر أو بشهرين، بدأ يجلب فتيات إلى غرفته. وكان قد أخذني جانباً بأدب ذات يوم وسألني إن كان يُسمح له أن يحضر فتاة إلى البيت بين الحين والآخر، وقدم ذلك العذر الواهي (بابتسامة عريضة) بأن لديه عملاً يجب أن يتمه. واستخدمت عذره للحصول على موافقة مود. وادعيت أن هذا الشاب التافه لم يكن جذاباً كثيراً لذلك لا يمكن أن يكون هناك شيء إلا عمل ما يمكن أن يجلب فتاة أمريكية جميلة إلى غرفته. قبلت مود بتردّد، تمزقها الرغبة في أن تحافظ على مظهرها أمام الجيران والخوف من فقدان نزيل سخي كنا نحتاج إلى ماله.

لم أكن في البيت عندما وطأ أول غريب عتبة بيتنا، لكني سمعت عنها في اليوم التالي ـ سمعت أنها كانت جميلة للغاية. كانت ميلاني هي من أفشى بالسرّ. وكانت سعيدة بأنه وجد صديقة ـ مثله.

«لكنها ليست صديقة»، قالت مود بطريقة رسمية.

«أوه حسناً»، تشدّقت ميلاني، «ربما كان مجرد عمل... لكنها كانت في غاية الجمال. يجب أن تكون له فتاة، مثل أي شخص آخر».

وبعد أسابيع قليلة انتقل السيد تي إلى فتاة أخرى. وهذه المرة لم تكن «جميلة» جداً. كانت أطول منه، ببنية مثل نمرة، ومن الواضح أنها لم تكن هناك لمناقشة عمل.

هنأته في صباح اليوم التالي فيما كنا نجلس إلى المائدة، وسألته بصراحة شديدة من أين عثر على هذه الفتاة الباهرة الجمال.

«في المرقص»، قال السيد تي مكشراً عن أنيابه الصفراء بودّ شديد، ثم أطلق ضحكة بناتية.

«ذكي جداً، أليس كذلك؟» سألته فقط لأبقي الكرة تتدحرج.

«أوه نعم، إنها فتاة ذكية جداً، إنها فتاة جيدة جداً».

«احذر من أن تنقل لك مرض الزهري»، قلت بهدوء وأنا أجرع قهوتي.

ظننت أن مود ستسقط من على الكرسي. فكيف أناقش السيد تي بهذه الطريقة؟ بدت لها طريقة مسيئة ومثيرة للاشمئزاز أيضاً، أرادت أن تعلمني.

بدت الحيرة على السيد تي. إذ لم يكن قد تعلم كلمة «الزهري» حتى الآن. وبالطبع كان يبتسم، ولم لا؟ فلم يبال بما قلناه طالما سمحنا له أن يفعل ما يحلو له.

ومن باب التهذيب تطوعت في أن أشرح له معنى الكلمة. فقلت له موضحاً «صداع».

ضحك ضحكة صاخبة لهذه. نكتة جيدة جداً. نعم، لقد فهم. لم يفهم شيئاً، هذا الأير الصغير، لكنه كان من الأدب أن أجعله يظن أنه فهم. ثم ابتسمت أيضاً. ابتسامة ساخرة، جعلت السيد تي يزداد ضحكاً، ويغسل أصابعه في إبريق الماء، ويتجشأ ثم ألقى منديله على الأرض.

يجب أن أعترف أنه يتمتع بذائقة جيدة، السيد تي. ولا شكّ أنه كان سخياً بماله. لقد جعلن لعابي يسيل، بعضهن. بالنسبة له لا أظن أن جمالهن كان يعني له الكثير؛ لربما كان أكثر اهتماماً بوزنهن، بتركيبة بشرتهن، والأهم من كلّ ذلك بنظافتهن. فقد جلب من جميع الأنواع ـ ذوات الشعر الأحمر، الشقراوات، السمراوات، القصيرات، الطويلات، المكتنزات والرشيقات ـ تماماً كما لو كان قد أخرجهن من حقيبة. لقد كان يشتري الفروج ـ وكان ذلك كلّ ما في الأمر. وفي الوقت نفسه، كان يحرز تحسناً في تعلّم اللغة الإنكليزية. («كيف تقول هذا...؟» «ماذا يدعى ذلك؟» «هل تحبّ البونبون، نعم؟») كان جيداً في تقديم الهدايا ـ كان فناً بالنسبة له.

كان فنّاً معه.

لا أعرف لماذا تذكرت السيد اللطيف تي. كانت رحلة شيطانية طويلة إلى البرونكس، ولو تركت عقلك على سجيته يمكنك أن تكتب

كتاباً بين بورو هول وتريمونت. ورغم المباراة المضنية مع مود، اعتراني واحد من تلك الانتصابات المخيفة البطيئة. أحاول بين الحين والآخر أن أركز تفكيري على مونا، أن أضع وجهي في الحزن البلاستيكي، لكنه لن يدوم. شعرت بالسعادة تغمرني، باسترخاء شديد، بالدعة والهناءة. داهمتني صورة هزلية لمود، فقد تركتها مستلقية على الأرض، منهكة، وأسرعت إلى الحمام لأنظف نفسي. وفيما كنت أغتسل فتحت الباب، تريد أن تأخذ دوشاً نسائيا فوراً لأنها تخاف أن يعتلق فيها. قلت لها أن تفعل ذلك، وأن لا تعبأ بوجودي. خلعت ثيابها، ووضعت الخرطوم، واستلقت على حصيرة الحمام، ورفعت ساقيها وأسندتهما إلى الحائط.

«هل يمكنني أن أساعدك؟» قلت لها، وأنا أجفف قضيبي وأذره بمسحوقها الرائع.

«إذا لم يكن لديك مانع؟» قالت وهي تهز مؤخرتها لترفع ساقيها وتجعلهما أكثر استقامة.

قلت أحثها: «افتحيهما قليلاً» وأخذت الخرطوم تهيئةً لإدخاله.

فعلت كما طلبت منها، وفتحت جرحها البليغ بجميع أصابعها. انحنيت ورحت أتفحصه بعناية. كان لونه أحمر بلون الكبد، والشفران كبيران بعض الشيء. أمسكتهما بين أصابعي ورحت أفركهما برقة معا، كما تفرك تويجتين مخمليتين. بدت عاجزة تماماً وهي مستلقية ومؤخرتها تلامس الحائط وساقاها مرفوعتان باستقامة، كعقربي بوصلة، بحيث انتابني الضحك.

قالت متوسلة: «أرجوك لا تعبث الآن»، وكأنه إذا تأخر سائلي فيها بضع ثوان أخرى فإن ذلك كان سيعني إجهاضاً «ظننت أنك في عجلة من أمرك».

أجبت «نعم، لكن يا إلهي، عندما أنظر إلى هذا الشيء يعتريني الانتصاب ثانية».

أدخلت الخرطوم. وبدأت الماء تخرج منها إلى الأرض. رميت بضع مناشف لأجففها. وعندما نهضت أخذت الصابون والليفة ورحت أفرك فرجها لها. غمرته برغوة الصابون، من الداخل ومن الخارج ـ كان الإحساس باللمس لذيذاً لكلينا.

بدا فرجها الآن أكثر نعومة من أي وقت مضى وكان أشبه بالحرير، ورحت أحرك أصابعي فيه وكأنني أعزف على آلة البانجو. وأصبح لدي انتصاب منتفخ غير متحمس من النوع الذي يجعل القضيب يبدو قاتلاً. كان يتدلى من فتحة بنطالي، يلامس فخذها. كانت ما تزال عارية. بدأت أجففها. ولأفعل ذلك بارتياح جلست على حافة حوض الحمام، وكان قضيبي قد أخذ ينتعظ ويشتد ويتصلّب شيئاً فشيئاً ويقفز قفزات متقطعة إليها. وعندما شددتها إليّ، لأجفف خاصرتيها، نظرت إليه نظرة يائسة جائعة، مفتونة به ونصف خجولة من نفسها لأنها تقوم بدور النهمة. وأخيراً لم تعد تحتمل المزيد. فجثت على ركبتيها وأخذته في فمها. ورحت أمرر أصابعي في شعرها، أداعب صوان أذنها، ومؤخرة عنقها، وأمسكت حلمتيها ورحت أفركهما برقة ونعومة حتى انتصبتا. وراحت الآن تلعقه كما لو كان إصبعاً من الحلوى. «اسمعي»، قلت لها هامساً في أذنها، «لن نفعل ذلك مرة أخرى لكن دعيني أدخله بضع لحظات وأذهب. ليس من الجيد أن نتوقف هكذا فجأة. لن أقذف، أعدك...» نظرت إليّ متوسلة، وكأنها تريد أن تقول، «هل أستطيع أن أصدقك؟ نعم، فأنا أريده. نعم، نعم، لكن لا تجعلني أحبل».

رفعتها إلى قدميها، أدرتها مثل دمية، ووضعت يديها على حافة الحوض، ورفعت عجزها قليلاً مثل كعكة فاكهة «لنفعلها بهذه الطريقة من أجل التغيير»، دمدمت، ولم أدخل قضيبي فوراً، بل رحت أمرره على طول شقّها من الخلف.

«إنك لن تقذف، أليس كذلك؟» قالت باستجداء، ومطت رقبتها

وألقت إليّ نظرة مستسلمة، نظرة رجاء من خلال المرآة فوق المغسلة. «إنه منفتح جداً...».

لقد أثارت هذه العبارة كلّ الشهوة الجامحة فيّ. «أيتها اللعينة»، قلت لنفسي، «هذا ما أريده. سأتبوّل في رحمك الواسع!» وبهذا تركته ينزلق ببطء، يتحسس جيوب وبطانة مهبلها الفاغر حتى أحسست بفم رحمها ولكزتها بقوة، كما لو كنت سأتركه هناك إلى الأبد.

«إنه رائع»، قالت، وقد سقط رأسها مسترخياً، كما لو أصبح بدون مفصلة.

استليته منها فجأة، دون سابق إنذار. «لنستلقي... هنا»، قلت، وسحبتها ووضعت منشفة جافة تحتها. كان قضيبي يتلألأ من عصيرها وكان صلباً كعامود. بدا وكأنه آلة ترتبط بي. انبطحت وهي تنظر إليه برعب وبهجة، تتساءل ماذا سيفعل في الخطوة التالية.

«إنها فظاظة مني أن أبقيك»، قالت، وقد أزلقته بسرعة. أحدث الامتصاص صوت صفعة، مثل ضرطات رطبة.

«لاتقلقي، لن أقذف... لم يبق فيه ولا نقطة. تحرّكي إن شئت».

«هس»، همست، ووضعت يدها على فمي. انحنيت ورحت أعض رقبتها، الطويلة والعميقة؛ عضضت أذنيها، شفتيها. «يا إلهي، ستأتيني الرعشة... لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسي. أوه، أوه...» وبدأت ترتعش، وبدت مثل حيوان مسعور. استليته منها دون أن أقذف. كان يلمع، يتلألأ، مثل فوهة بندقية. نهضت ببطء على قدميها. وأصرّت على أن تغسله لي، ربتت عليه بإعجاب، برقة. «يجب أن تسرع»، قالت، وهي تمسكه بكلتا يديها، ولفّت المنشفة حوله. ثم رمت المنشفة ونظرت بعيداً وقالت: «آمل أن تكون على ما يرام. قل لها إني أتمنى أن تكون بخير؟».

نعم، كان عليّ أن أبتسم وأنا أفكر بهذا المشهد الذي حصل في آخر لحظة. «قل لها ذلك». تلك المضاجعة جعلتها تلين. تذكرت كتاباً كنت قد قرأته يروي بعض التجارب الغريبة نسبياً مع حيوانات من أكلة اللحوم ـ أسود، نمور، فهود. إذ يبدو أنه عندما تطعم هذه الوحوش الشرسة جيداً ـ أو تطعم بإفراط ـ يمكن للمرء أن يضع مخلوقات لطيفة معها في نفس القفص فلا تؤذيها. فالأسد لا يهاجم إلا إذا جاع، فهو ليس قاتلاً أبدياً. كانت تلك هي العبرة من الكتاب.

ومود... بعد أن أحست بالرضا التام، لعلها أدركت لأول مرة أنه لا فائدة ترجى من أن تضمر أي شعور بالحقد للمرأة الأخرى. يمكنني أن أتخيلها وهي تمشط شعرها بفتور، تتحسس صدرها، تتفحص العلامات التي خلفتها أسناني على رقبتها، تتمنى ألّا تلاحظها ميلاني لكنها في قرارة نفسها لا تبالي إن لاحظتها أم لا. إنها لا تكترث إن كانت ميلاني قد سمعت شيئاً أم لا. ولعلها تسأل نفسها بشيء من الحزن كيف حدث وأن خسرتني. وقد عرفت الآن أنه إذا تعين عليها أن تعيش حياتها ثانية من البداية فلن تتصرف كما فعلت أبداً، ألا تتدخل أبداً في الأمور التي لن تجديها نفعاً، وأنه من الغباء أن تهتم بما يمكن أن تفعله المرأة الأخرى! ماذا يهم لو أن الرجل ترك قدميه تضلان من حين لآخر؟ أغلقت على نفسها، أحاطت نفسها بقفص. ادعت أنها لا تنتابها الرغبة، ادعت أنها لا تجرؤ على ممارسة الجنس لأننا لم نعد زوجاً وزوجة. يالها من مذلة فظيعة! لقد كانت تريده على نحو مخيف، تشتاق إليه، تتوسل من أجل الحصول عليه كما تتوسل كلبة ـ وكانت هناك طوال الوقت تنتظر. من كان يبالي إن كان ذلك صحيحاً أم لا؟ ألم تكن تلك الساعة المسروقة الرائعة أفضل من أي شيء كانت تعرفه؟ الشعور بالذنب؟ إنها لم تشعر قط بأنها مذنبة في حياتها. وحتى لو ماتت «تلك الأخرى» في الوقت نفسه فلن تندم على ذلك.

كنت أعرف تماماً ماذا كان يجول في رأسها، وفكرت أن

أسألها عن ذلك عندما نلتقي ثانية. إلا أنها يحتمل في المرة القادمة أن تعود إلى ما كانت عليه ـ وهذا أمر محتمل جداً مع مود. وليس من المفيد أيضاً أن أتركها ترى أني شديد الاهتمام بها ـ فقد يثير ذلك السموم، وليس من مصلحتي أنْ أجعلها تعود إلى عادتها القديمة. لن أفعل شيئاً سوى أن أدخل وأحييها بسعادة، وأسألها بضع أسئلة، وأرسل الطفلة لتلعب في الخارج. أتأكد من أن الغرفة ليست مضاءة تماماً، وبينما أسألها كيف تسير الأمور، أترك يدي تنسل تحت فستانها ويبدأ العصير يتدفق.

كان لمضاجعة اللحظة الأخيرة تلك مفعول سحري بالنسبة لي أيضاً. فدائماً، عندما يسبر المرء في الذاكرة، عندما يستدعي اللحظات الأخيرة، يندهش إذ يكتشف أنه يوجد معين لا ينضب من الطاقة يشده إليه. فقد حدث لي ذلك من قبل، لكني لم أعرّ ذلك اهتماماً جدياً. فقد كان للسهر طوال الليل والذهاب إلى العمل دون أن يغمض لي جفن تأثير مشابه. أو بالعكس، كنت عندما أبقى في السرير لفترة طويلة بعد النقاهة، أجبر نفسي على الراحة في الوقت الذي لم أكن فيه بحاجة إلى الراحة. إن الإقلاع عن عادة ما، وبدء إيقاع جديد ـ هو من الأمور البسيطة التي يعرفها الأقدمون. ولم تفشل أبداً. حطِّمْ النمط القديم، الارتباطات البالية، فتنطلق الروح، وتنشئ أقطاباً جديدة، وتخلق توترات جديدة، وتورث حيوية جديدة.

نعم، لاحظت بمتعة شديدة كيف كان عقلي يقدح، كيف أنه كان يشع في كل اتجاه. كان ذلك هو الإحساس الذي يغمرني عندما كنت أشعر بالرغبة في الكتابة. كنت أجلس وأنتظر حتى يحدث ذلك. إلا أنه لم يكن يحدث ـ ليس بهذه الطريقة. بل كان يحدث بعد ذلك، أحياناً عندما أكون قد تركت الآلة الكاتبة وخرجت لأتمشى. نعم، كانت تهبط عليّ فجأة، كهجوم مباغت، شذر مذر، من كل جهة، غمر حقيقي، سيل ـ وأكون عندها عاجزاً، وأنا على بعد أميال من الآلة الكاتبة، ولا يوجد لدي قصاصة من الورق في جيبي. أحياناً أعود

إلى البيت مهرولاً، لا أجري بسرعة كبيرة لأنها ستتلاشى عندئذ، بل ببطء، كما في أثناء ممارسة الحب عندما تقول لنفسك إنه يجب أن تأخذ الأمر بسهولة، ألّا تفكر في الموضوع، وأن تحاول أن تتظاهر بأن قضيبك وليس أنت هو الذي يمارس الحب. الطريقة نفسها تماماً. هرول بثبات، حافظ عليها، لا تفكر بالآلة الكاتبة أو ما تبقى من مسافة حتى البيت، فقط بتمهل وثبات...

وأنا أتدرب على هذه اللحظات الغريبة من الإلهام، تذكرت فجأة عندما كنت في طريقي إلى المسرح الهزلي، «غايتي»، في شارع لورمير وبرودواي (شارع برودواي في بروكلن)، وكنت استقل المترو المرتفع، وعلى حين غرة دهمني الإلهام قبل محطتين من مكان نزولي. وكان ذلك في غاية الأهمية لأني أدركت لأول مرة في حياتي حقيقة ما يدعى «بفيض الإلهام». وعرفت آنذاك، في سحابة بضع لحظات، أن شيئاً ما كان يحدث لي، شيئاً بدا أنه لم يكن يحدث لجميع الناس. فقد جاء بدون إنذار، بدون أي سبب يمكن أن أفكر به. ولعل ذلك لأن عقلي كان قد أصبح فارغاً تماماً، لأني غصت في لجة الأغوار، في أغوار ذاتي، راضياً بأن أنجرف. أذكر بوضوح شديد كيف أشرق العالم الخارجي فجأة، وكيف بدأت آلية عقلي تعمل بسرعة خاطفة بسهولة وسرعة كبيرتين، أفكار تطبق على بعضها بعضاً، الصور تتلاحق وتزيل إحداها الأخرى، وهي تريد على نحو مسعور أن تسجل ذاتها. ذلك لأن شارع برودواي الذي كنت أمقته بشدة، وخاصة من المحطة المرتفعة (التي تتيح لي مشهداً «من عل»، نظرة تحتية إلى الحياة والناس والبنايات والحركة)، وفجأة تغيّر برودواي، لم يعد مثالياً أو جميلاً أو غير واقعي، بل على العكس، أصبح حقيقياً جداً، حيوياً جداً. لكنه اكتسب توجهاً جديداً. فقد كانت تقبع في قلب العالم، هذا العالم الذي بدا لي أني قادر الآن على إمساكه بقبضة واحدة. وقبل ذلك، كانت برودواي تبدو لي كالقذى، تحمل كل البشاعة والغموض، ولكنها عادت الآن إلى موقعها الصحيح، جزءاً لا يتجزأ من العالم، ليست جيدة وليست سيئة، لا

قبيحة ولا جميلة: ببساطة كانت تعني الانتماء. كانت هناك كمسمار صدئ في جذع شجرة ملقى على شاطئ مهجور خلال زوبعة شتوية. لا يمكنني أن أعبّر عنها على نحو أفضل من ذلك. أتمشى على الشاطئ، أتنسم الهواء العليل الذي يبعث على النشوة، منشرح الصدر، أفكر بصفاء ـ ليس دائماً بشكل مبدع ولكن بوضوح. ثم يقبع الجذع هناك، جزء هائل من العالم الأساسي: مفعم بالتجارب، ملئ بالألغاز. فقد كان أحدهم قد دق ذلك المسمار في مكان ما، في وقت ما، بطريقة ما. وكان ثمة سبب لعمل ذلك، فقد كان يصنع سفينة ليبحر فيها الآخرون. بناء السفن كانت مهنته في الحياة ـ ومصيره ومصير أطفاله كان يسري في كل ضربة من ضربات المطرقة. والآن يقبع الجذع هناك، والمسمار صدئ، لكن يا إلهي، إنه أكثر من مجرد مسمار صدئ ـ أو أن كل ذلك يشوبه الجنون وبلا معنى... هكذا كان الأمر بالنسبة لشارع برودواي. غريب كيف يتطور الإنسان عبر العصور ـ من إنسان جاوة إلى زّجاج فضي الوجه يعالج مادة هشة تدعى الزجاج، لم يحلم به أحد لملايين السنين، ولا حتى السحرة في قديم الزمان. أستطيع أن أرى الشارع وهو يغوص ببطء، يتلاشى مع الزمن: الزمن الذي يمر كالرصاص أو يتبخر كالضباب.انهارت البنايات، الألواح الخشبية، الآجر، الإسمنت، الزجاج، المسامير، المعجون، الورق، كل شيء انحسر في المختبر العظيم. سباق جديد للرجال وهم يمشون على الأرض (على هذه الأرض بالذات)، لا نعرف شيئاً عن وجودنا، لا نبالي بالماضي ولا نستطيع فهمه، حتى إن كان بإمكاننا أن نعيد إحياءه. الحشرات تزحف في شقوق الأرض، كما تفعل منذ بلايين السنين: تتمسك بعناد بنمط حياتها، لا تساهم شيئاً في التطور، تتحداه كما يبدو. وقد شهدت، في جيلها، جميع سباقات الإنسان وهو يطأ الأرض ـ ونجت من كل الكوارث، كل الجوائح التي أصابت الإنسان على مدى التاريخ. ففي المكسيك، كانت بعض الحشرات الزاحفة طيبة المذاق، وهناك رجال ما زالوا أحياء يمشون على الأرض، لا تفصلهم المسافات الجغرافية الكبيرة،

بل الهوة العقلية والروحية، الذين أخذوا يشوون النمل، وفيما يلوكونه بألسنتهم بمتعة، كانت الموسيقى تعزف، وهي موسيقى تختلف عن موسيقانا. ومثل ذلك، فوق الأرض الواسعة، في اللحظة نفسها من الزمن، تحدث أشياء مختلفة تماماً، ليس على الأرض فحسب، بل في الجو وفي أعماق البحار أيضاً.

ثم جاءت محطة شارع لورمير. خرجت منها على نحو آلي، لكني كنت لا أقوى على تحريك قدمي نحو الدرجات. لقد علقت في الدفق الناري، وقفت مسمّراً هناك كما لو أني علقت في صنارة صياد سمك. كل هذه التيارات التي تركتها طليقة كانت تلتف حولي، تبتلعني، تشدني نحو الدوامة. كان عليّ أن أقف هناك كذلك، ثابتاً، حوالى ثلاث أو أربع دقائق، رغم أنها بدت أطول من ذلك بكثير. كان الناس يمرون كما في حلم. توقف قطار آخر ثم غادر المحطة، ثم اصطدم بي رجل، مسرعاً نحو الدرج. سمعته يعتذر، لكن صوته جاء من مسافة بعيدة، وعندما دفعني ترنحت قليلاً، فلم أكن أعي فظاظته، لا... لكني فجأة رأيت صورتي في آلة البيع حيث اصطفت العلكة فوق بعضها. بالطبع لم يكن الأمر كذلك، لكني توهمت أني أدركت نفسي ـ كما لو أني أمسكت طرف ذيل ذاتي القديمة، الشخص اليومي المألوف ينظر إليّ من وراء عيني. لقد أخافني قليلاً، كما ينتاب أي شخص الذعر إذا رأى ذيل مذنب فجأة يعبر السماوات، وهو خارج من حلم يقظة، تمّحي وهو يعبر شبكية العين. وقفت هناك أحدق في خيالي، وقد ولى الإحساس بالامتلاك الآن، أما التأثير اللاحق فقد بقي. وأحسست برجاحة عقل أكثر. يا إلهي، بدا لي أنه لو أني كنت ثملاً لكنت أكثر ضعفاً بالمقارنة بهذا (شفق، لاشيء أكثر.) لم أعد أتمالك نفسي من البهجة ـ لكن الإلهام دهمني منذ لحظة. منذ لحظة كنت أعرف ماذا يعني أن أتجاوز المتعة. منذ لحظة نسيت تماماً من أنا: نشرت نفسي على الأرض كلها. ولو كان الأمر أشد توتراً ربما تجاوزت ذلك الخط الرفيع الذي يفصل العاقل عن المجنون. لعلي فقدت كينونتي، أغرقت نفسي في محيط الهول. ببطء تقدمت نحو

الدرج، نزلت، عبرت الشارع، اشتريت تذكرة، ودخلت المسرح. كانت الستارة قد بدأت ترتفع. فُتحت على عالم أكثر غرابة وشذوذاً من عالم الهلوسة الذي انسللت منه لتوي. لم يكن عالماً حقيقياً أبداً، حتى الموسيقى، المألوفة جداً بالنسبة لي، بدت غريبة على أذني. لم أكد أتمكن من التمييز بين الأجسام الحية التي تثب أمام عيني وألق المشهد. بدت مصنوعة من المادة نفسها، امرأة كريهة المنظر فاجرة قبيحة يكسو الشيب رأسها مشربة بفولطية منخفضة من التيار الحيوي. كانت تتقافز بآلية! أصواتها ضعيفة وتافهة! أتطلع حولي، أتطلع إلى الصناديق المصفوفة فوق بعضها، الحبال الفاخرة ممدودة بين عواميد النحاس، وقد أُجلست الدمى هناك فوق بعضها؛ الكل يحدق في خشبة المسرح، لا تبدو على وجوههم أية تعابير، جميعهم مصنوع من مادة واحدة: الطين، طين مشترك. كان عالماً من الظل، مثبتاً بقوة. ملتصقاً بإحكام ـ المشهد المسرحي، النظارة، الفنانون، الستارة، الموسيقى، الدخان ـ في ستار قاتم كئيب بلامعنى. وفجأة شعرت برغبة جامحة في أن أحك جسمي، كما لو كانت ألف برغوثة قد لسعتني في وقت واحد. أردت أن أصرخ. أردت أن أصرخ شيئاً يصدمهم ويوقظهم من هذه الغيبوبة الرهيبة. (خراء! خراء حار! ويهب الجميع واقفين، وتنسدل الستارة، ويمسكني المرشد من ياقتي ويدفعني خارجاً من مؤخرتي)، لكني لا أتمكن من إصدار أي صوت. كانت حنجرتي مثل ورقة خشنة للصقل. زال شعوري بالحكة وبعدها أصبح جسدي حاراً ومحموماً، ظننت أني سأختنق. يا إلهي، لكن الملل اعتراني. اعتراني ملل لم أشعر مثله من قبل، عرفت أن لاشيء سيحدث. لاشيء يمكن أن يحدث، حتى لو رميت قنبلة، فقد كانوا أمواتاً، أمواتاً ورائحتهم نتنة، هذا هو السبب. كانوا جالسين فوق غائطهم العفن... لم أعد أتحمل ذلك ثانية أخرى. اندفعت خارجاً.

في الشارع بدا كل شيء رمادياً وطبيعياً مرة أخرى. حالة طبيعية تدعو للاكتئاب. الناس يتدحرجون كخضار مغزولة. يشبهون

الأشياء التي أكلوها. وما يأكلونه يصبح غائطاً. لاشيء أكثر. أفففف!

في ضوء تلك التجربة السابقة في محطة المترو المرتفعة أدركت أن عنصراً جديداً بدأ يتكشف، عنصراً في غاية الأهمية. هذا العنصر هو الإدراك. عرفت الآن ماذا كان يحدث لي، وبشكل يمكنني فيه أن أتحكم بالانفجار. فقدت شيئاً وكسبت شيئاً، إذ لم تعد توجد ذات الكثافة كما حدث في ذلك «الهجوم المباغت» المبكر، لم يعد العجز الذي كان يرافقه موجوداً. أحسست كما لو أنني كنت في طائرة تسابق الغيوم بسرعة هائلة، ورغم عدم تمكنك من إطفاء المحرك، فإنك تكتشف في آخر لحظة وبمفاجأة سعيدة أنه بوسعك أن تدير أزرار التحكم.

أُقذف خارج مداري المعتاد، إلا أني أتمتع بتوازن كاف. الطريقة التي بدأت أرى فيها الأشياء الآن، هي ذات الطريقة التي سأكتب عنها يوماً. تدهمني الأسئلة فوراً، كالمقالع والسهام التي تقذفها الآلهة الغاضبة. هل أتذكر؟ هل سيكون بإمكاني أن أفرغ حالاً كل ما يجول في خاطري على الورق؟ هل غرض الفن أن ينتقل من فورة إلى فورة، مخلفاً نزفاً دموياً في صحوة المرء؟ هل على المرء أن «يملي» ـ مثل مريد مخلص يطيع الوصايا التخاطرية من سيده؟ هل بدأ الخلق، مع الأرض نفسها، في الفقاعة النارية للصخور المنصهرة في جوف الأرض، أم هل كان من الضروري أن تبرد القشرة أولاً؟

وعلى نحو مسعور تقريباً استبعدت كل شيء سوى موضوع التذكر. وكان من العبث أن أفكر بإعادة إنتاج الدفقة العقلية. كان بإمكاني فقط أن أحتفظ ببعض الإشارات المحددة، وأحولها إلى محك التذكر. الشيء المهم هو أن أجد العِرق ثانية ـ لا كم بوسعي أن أستخلص من الذهب، كانت مهمتي تنحصر في أن أضع دليلاً تذكارياً لأطلس إلهامي. حتى أعتى المغامرين لا يستطيع خداع نفسه بقوله

إنه سيكون بوسعه تغطية كل قدم مربع من الأرض فوق هذه البسيطة الغامضة، بل يجب على المغامر الحقيقي أن يدرك، قبل أن يصل إلى نهاية تجواله، أن ثمة شيئاً غبياً في تراكم الخبرات الرائعة فقط.

فكرت بميلاني، التي لو فكرت في تدوين كتاب عن حياتي، فلم يكن يخطر ببالي أن أذكرها فيه. كيف استطاعت أن تحقن نفسها في داخلي وهي التي قلما كنت أعيرها أي اهتمام عادة؟ ماذا كانت أهمية هذا الإقحام التطفلي؟ بماذا كانت ستسهم؟ سقطت قطعتان من حجر المحك فوراً في حضني. ميلاني؟ نعم، أتذكر دائماً «الجمال» و«الجنون» ولماذا يجب أن أتذكر الجمال والجنون؟ ثم خطرت ببالي هذه الكلمات: «التنويعات اللحمية»، أعقب ذلك التفكير بالعلاقة بين اللحم والجمال والجنون. فالجميل في ميلاني مستمد من طبيعتها الملائكية، وجنونها مستمد من اللحم. وافترق الجسد فيها عن الملاك، وميلاني، الرائعة الجمال كتمثال متداع، راحت تذوي ببطء عند الخط الفاصل.

التنويعات اللحمية... قبل النوم، حالماً بدأ الجفنان يطبقان على شبكية العين وتبدأ الصور غير المستدعاة في عرضها الليلي... تلك المرأة في محطة المترو التي تبعتها في الشارع: خيال بلا اسم يعود للظهور الآن فجأة، تتقدم نحوك بساقين رشيقتين طريتين. تذكرك بأحد ما، بأحد مثلها تماماً، ولكن ذات وجه مختلف. (لكن الوجه لم يكن مهماً أبداً) تتذكر التموجات وومضة الساقين بقوة كما تتصور في دماغك صورة الثور الذي رأيته وأنت طفل: الثور وهو يعتلي بقرة: الصور تأتي وتروح، ودائماً يبرز جزء خاص من الجسم، علامة فارقة. أسماء ـ الأسماء تتلاشى. العبارات المحببة ـ تتلاشى أيضاً. حتى الصوت، القوي جداً، الشخصي تماماً ـ له طريقة في التلاشي، أن تضيع في كل الأصوات الأخرى، لكن الجسد يبقى، والعينين، وأصابع العيون تتذكر. تأتي وتروح، المجهولة، غير المسماة، وتختلط بحرية مع الآخرين كما لو كانت جزءاً لا ينفصل

عن الحياة. ومع الأشخاص المجهولين تأتي ذكرى أيام معينة، ساعات محددة، الطريقة الشهوانية التي تدخل في لحظة فارغة من التعب. تتذكر فقط كيف أن الفتاة الفارعة الطول التي ترتدي الفستان الحريري البنفسجي كانت واقفة بعد ظهر ذلك اليوم، عندما كانت الشمس تنشر دفأها، وهي تحدق مفتونة بالماء وهو يعلو ويهبط منبعثاً من النافورة. تتذكر تماماً كيف عبر جوعك في ذلك الوقت ـ حاداً، سريعاً، كنصل سكين بين الكتفين، ثم تضمحل بالسرعة نفسها تقريباً، ولكن في دخان لذيذ، كنسمة حنونة عميقة. ثم تنهض أخرى، ثقيلة، بليدة، جلدها المثقب كالحجر الرملي، معها كل شيء يتمركز في الرأس، الرأس الذي لا يلائم الجسد، الرأس البركاني ما زال مفعما بالانفجار. تأتي وتذهب هكذا، واضحة، دقيقة، تجر بيئة التصادم، تشع تأثيراتها الآنية. كل الأنواع، كلها مطعم بالقوام، بالطقس، بالمزاج: الأشياء المعدنية، تماثيل الرخام، تلك الغامضة نصف الشفافة، تلك التي تشبه الزهور، حيواناتٍ رشيقة مكسوة بالفراء، صفحات فضية من الماء تنبع في شكل إنساني وتنحني كزجاج مدينة البندقية. وتنزع عنهن ثيابهن بتمهّل، تفحصهن تحت المجهر، تطلب منهن أن يتمايلن، ينحنين، يثنين الركبة، يتدحرجن، يفتحن سيقانهن. تتحدث إليهن، الآن شفتاك غير مطبقتين. ماذا كنت تفعلين ذلك اليوم؟ هل تصففين شعرك هكذا دائماً؟ ماذا كنت ستقولين لي عندما كنت تحدقين فيّ بتلك الطريقة؟ هل يمكن أن أطلب منك أن تستديري؟ نعم هكذا. الآن كوّري نهديك بيديك. نعم، كان بوسعي أن ألقي بنفسي عليك في ذلك اليوم. كان بوسعي أن أمارس الحب معك على الرصيف، والناس يمرون فوقنا. كان بوسعي أن أضاجعك وأدفنك هناك قرب البحيرة حيث تجلسين وتلفين ساقاً على ساق. كنت تعرفين أني كنت أنظر إليك. أخبريني... قولي لي لأنه لن يعرف أحد أبداً... بماذا كنت تفكرين آنئذ، في تلك اللحظة؟ لماذا أبقيت ساقيك ملتفتين؟ كنت تعرفين أني كنت أنتظرك تباعدين بينهما. لقد أردت أن تباعدي بينهما، أليس

كذلك؟ قولي لي الحقيقة! كان الطقس دافئاً ولم تكوني ترتدين شيئاً تحت فستانك. لقد نزلت من عليائك لتتنسمي هواء نقياً، متمنية أن يحدث شيء ما. لم تكوني تبالين كثيراً بما حدث، أليس كذلك؟ تجولت بالقرب من البحيرة، تنتظرين أن يحل الظلام. كنت تريدين أن ينظر إليك أحد، وأن ينضو عنك ثيابك بعينيه، وأن يركز نظراته على تلك البقعة الرطبة الدافئة، بين ساقيك...

المخلوق الذي لا يقاوم من الجنس الآخر هو وحش سيغدو زهرة. الجمال الأنثوي هو خلق مستمر، ثورة لا تتوقف عن الخلل (خيالي غالباً) يجعل الكون يحلق في السماء.

11

«حاولت أن تسمّم نفسها».

بهذه الكلمات استقبلني كيرلي عندما فتح باب مؤسسة الدكتور أونيريفيك، وكانت كلماته تتحشرج مع صوت صرير قبضة الباب. ولمحت من فوق كتفه أنها كانت تغط في سبات عميق. وكان كرونسكي قد اعتنى بها وطلب عدم ذكر أي شيء عن هذا الأمر للدكتور أونيريفيك.

ومضى كيرلي يقول: «كانت رائحة الكلوروفورم تملأ الغرفة عندما دخلت، كانت متكورة على نفسها كما لو أنها أصيبت بسكتة دماغية»، وأضاف بشيء من الخجل: «حسبت أنها ربما قد أجهضت».

«لماذا فعلت ذلك، هل قالت شيئاً؟».

حمحم كيرلي وتلعثم.

«هيا لا تكن سخيفاً. هل كان ذلك بدافع ـ الغيرة؟».

لم يكن واثقاً من ذلك، فكل ما يذكره الكلمات التي كانت تهذر بها عندما أخذت تستعيد وعيها، إذ راحت تكرّر أنها لم تعد تحتمل أكثر من ذلك.

سألته: «تتحمل ماذا؟».

«رؤيتك لزوجتك، على ما أظن. قالت إنها رفعت السماعة لتخابرك، وأحست أن شيئاً لم يكن على ما يرام».

«ماذا قالت بالضبط، هل تتذكّر؟».

«نعم، لقد هذرت بكثير من الكلام الفارغ حول أنها امرأة مخدوعة. قالت بأنك لا تذهب لترى طفلتك بل لترى زوجتك. قالت أنت ضعيف، وأنها عندما لا تكون معك فقد تفعل أي شيء...».

نظرت إليه بدهشة «هل حقاً قالت هذا؟ إنك لا تقول ذلك من عندك، أليس كذلك؟».

تظاهر كيرلي بأنه لم يسمعني. وواصل حديثه عن كرونسكي، وكيف عاملها بلطف.

قال كيرلي: «لم أكن أعرف أنه يستطيع أن يكذب بذكاء هكذا».

«يكذب؟ ماذا تعني؟».

«الطريقة التي تحدث فيها عنك. كان يجب أن تسمعه. يا إلهي، كان يتصرف كما لو كان يمارس الحب معها. قال أشياء رائعة عنك فراحت تبكي وتنشج كطفل».

وتابع يقول: «تخيّل، قال لها إنك أكثر الأشخاص إخلاصاً ووفاء في العالم! وقال إنك قد تغيّرت تماماً منذ أن عرفتها ولايمكن لامرأة أن تغويك».

وهنا لم يتمكن كيرلي من كبت ابتسامة عريضة خبيثة.

قلت بشيء من الحنق: «حسناً، هذا صحيح، إن كرونسكي يقول الحقيقة».

«إنك تحبها كثيراً...».

«وما الذي يجعلك تظن أني لا أحبها؟».

«لأني أعرفك. أنت لن تتغير أبداً».

جلست قرب السرير ورحت أنظر إليها، وراح كيرلي يذرع الغرفة متململاً. أحسست أنه كان غاضباً. كنت أعرف ماذا يدور في خلده.

قلت بعد قليل: «أظن أنها في حالة جيدة الآن؟».

«كيف لي أن أعرف، إنها ليست زوجتي». ومضت الكلمات كبريق سكين من فمه.

«ماذا بك ياكيرلي؟ هل تغار من كرونسكي؟ أم أنك تغار مني؟ يمكنك أن تمسك يدها وتربت عليها عندما تصحو. إنك تعرفني...».

«نعم بإمكاني أن أفعل ذلك»، جاءت إجابة كيرلي المتجهمة، «كان يجب أن تكون أنت هنا ممسكاً بيدها. أنت لا تتواجد أبداً عندما يكون المرء بحاجة إليك. أظن أنك كنت وقتها تمسك يد مود ـ التي لم تعد تريدك. أذكر كيف كنت تعاملها. ظننت أن الأمر مضحك آنئذ ـ كنت صغيراً ولم أكن أدرك هذه الأمور جيداً. وأذكر دولوريس أيضاً».

«حسناً»، همست وأومأت برأسي نحو الجسد المستلقي.

«ستصحو بعد قليل، لا تقلق».

قلت بصوت منخفض: «حسناً... والآن ماذا عن دولوريس؟ قل لي ماذا فعلت لدولوريس لكي أسيء إليك؟».

للحظة، لم ينبس بكلمة. كان مفعماً بالازدراء والاحتقار، ثم انفجر قائلاً: «إنك تدمرهن! تدمر شيئاً ما فيهن، هذا كل ما يمكنني أن أقوله».

«تعني أننا بعد أن انفصلنا حاولت أن توقع دولوريس في حبالك ولم ترض هي بك؟».

فزمجر قائلاً: «قبل أو بعد ما الفرق، أعرف كيف كانت مشاعرها، فقد كانت تقول لي. حتى عندما أصبحت تكرهك لم تكن

تراني. لقد استخدمتني كوسادة. كانت تبكي على صدري، كما لو كنت مجبولاً من شيء لا يعرفه إلا المسيح... كنت تنسل خارجاً بعد تلك اللقاءات التي كانت تجري في الغرفة الخلفية. وكان كيرلي الصغير يلعق الفتات. كان كيرلي الصغير يرتب كل شيء لك. لم تكن تفكر أبداً ماذا يحدث عندما كان الباب يوصد وراءك، أليس كذلك؟».

تشدقت وأنا ابتسم ابتسامة هازئة: «لا لا لا... ماذا كان يحدث؟ قل لي».

إنه لمن المثير للاهتمام حقاً أن تعرف ماذا يحدث عندما يوصد الباب وراءك. وكنت مستعداً لأن أسترخي وأستمع إليه بآذان صاغية.

قلت لكي أستثيره أكثر: «وطبعاً، فقد حاولت أن تستغل هذا الوضع».

أجاب بصراحة قاسية: «إذا أردت أن تعرف، نعم، لقد فعلت ذلك. فقد كنت أشجعها على البكاء، لأنه يمكنني عندئذ أن أطوقها بذراعيّ. وأخيراً تمكنت من ذلك، لكني لم أفعل شيئاً سيئاً، إذا أخذت بالاعتبار الظروف السيئة التي كنت أمر بها. يمكنني أن أخبرك بضع أشياء عن جميلتك دولوريس».

هززت رأسي وقلت: «دعنا نسمع كل شيء، يبدو أن الأمر مثير».

«لعل الشيء الذي لا تعرفه هو كيف تتصرف عندما كانت تأتيها نوبة البكاء. لقد فوّت عليك الشيء الكثير».

حاولت أن أطلق له العنان، مخفياً عواطفي وراء قناع من التسامح وتصنعت عدم الاكتراث. ومن الغريب أنه وجد صعوبة في أن يروي قصته بشكل متماسك، رغم أنه كان يرغب في أن يجرحني، لكنه لم يستغل الفرصة التي أتحتها له. وكلما تحدث أكثر أحس بالمزيد من الأسف. فلم يتمكن من التخلص من إحساسه بالإحباط، إذ أراد أن يلوّث سمعتها، وبما أنه حصل على موافقتي أخذ يضيف

إليها توابل. وظن أني سأجد أيضاً متعة في تدنيس سمعة معبودتي السابقة.

قلت له: «إذاً لم تتمكن حقاً من إيلاج ذيلك فيها؟»، ورميته بنظرة فيها مسحة من المواساة وأضفت: «هذا مؤسف للغاية، لأنها كانت حقاً قطعة رائعة... ولو كنت أعلم ذلك لساعدتك. كان ينبغي أن تخبرني، فقد ظننتك صغيراً على مثل هذه المشاعر. من الطبيعي أن أشك أنك كنت تطوقها بذراعيك عندما كنت أدير ظهري، حتى أني لم أمنحك حق قدرك لكي تخرج قطعة اللحم بين ساقيك وتحاول أن تلجها. لا، كنت أحسن بك الظن. يا إلهي، كنت مجرد طفل آنذاك. كم كان عمرك - ست عشرة سنة، سبع عشرة سنة؟ كان لا بد من أن أتذكر عمتك. إلا أن ذلك كان شيئاً مختلفاً. لقد اغتصبتك، أليس كذلك؟».

أشعلت سيجارة واسترخيت في الكرسي ذي المسندين.

«أنت تعرف ياكيرلي، هذا يجعلني أتساءل قليلاً...».

«أتقصد مود؟ لم أحاول معها شيئاً على الإطلاق...».

«لا، لا أعني ذلك. فأنا لا أبالي البتة إذا ما حاولت أم لم تحاول».

وأردفت: «أظن أنك يجب أن تغادر فوراً الآن، فأنا أريد أن أتحدّث إليها عندما تسترد وعيها. كان من حسن الحظ أنك جئت في ذلك الوقت. أظن أنه يتوجب عليّ أن أشكرك».

جمع كيرلي أشياءه والتفت إليّ وقال: «بالمناسبة إن قلبها ليس في حالة جيدة. وثمة شيء آخر ليس على ما يرام أيضاً... سيخبرك به كرونسكي».

رافقته إلى الباب. صافحته، وشعرت أنه يجب عليّ أن أقول له شيئاً.

«اسمع، ليس عندي شيء ضدك بشأن دولوريس، لكن... لكن

لاتأت إلى هذا المكان في غيابي، هل فهمت! يمكنك أن تعبدها كما يحلو لك ـ ولكن من بعيد. لا أريد أن أرى هذا السلوك الحقير، هل فهمت؟».

ألقى إليّ نظرة حاقدة وسار متجهماً. لم يسبق لي أن تحدثت معه بهذه الطريقة، وقد ندمت على ذلك، لا لأني جرحته بل لأني أدركت فجأة أني أوحيت إليه بالفكرة، إذ سيظن نفسه الآن أنه أصبح خطيراً، ولن يهنأ له بال حتى يختبر قواه.

دولوريس! كان ثمة شيء فيها لم أكن أحبه. فقد كانت دولوريس ناعمة، خنوعة إلى حد يجعلها لا تناسبني. وجاء وقت كنت على وشك أن أطلب يدها. وأذكر الشيء الذي منعني من الإقدام على مثل هذه الحماقة، رغم أني كنت أعرف أنها كانت ستقول نعم، بضعف، لأنها كانت ما تزال عذراء عقلياً، غير قادرة على مقاومة ضغط قضيب صلب. وكان ـ قبولها الضعيف ـ سيجر وراءه دموع الندم طوال العمر. وبدلاً من مساعدتي على النسيان، كانت تذكرني باستمرار وبصمت بالجريمة التي كنت أنوي ارتكابها (جريمة هجر زوجتي) والله يعلم، أن جزءاً مني كان طرياً كإسفنجة. ولم أكن بحاجة لأحد لكي يغذيّ ذلك الجانب مني! كانت دولوريس تثير القرف حقاً. وكانت عيناها تتألقان بهذا الوهج المراهق وهي تراقبني وأنا أصبّ البلسم على الجرحى وعلى الذين بترت أعضاؤهم. نعم، أصبح بوسعي أن أراها بوضوح الآن. كانت مثل ممرضة ترافق طبيباً، تريد أن ترعى جميع أولاد الزنا المساكين الذين كنت أقتل نفسي لأساعدهم بشكل أو بآخر. ولم تكن تريد سوى أن تبقى بجانبي طوال اليوم. ثم كانت تقدم شيئها الصغير كمكافأة، كعلامة استحسان. ماذا كانت تعرف بحق الجحيم عن الحب؟ كانت مجرد جرو صغير. لقد شعرت بالأسف تجاه كيرلي.

لقد قال كرونسكي الحق! هذا ما أخذت أردده لنفسي وأنا

أجلس بجانب السرير أنتظر عودتها للحياة. وأحمد الله أنها لم تمت، كانت نائمة فقط. بدت وكأنها تحلق في السماوات.

لم أعتد أبداً أن ألعب دور المفجوع، لذا راقت لي فكرة أن أفكر كيف سأتصرف إذا ماتت حقاً الآن وأمام عيني. وهب أنها لم تفتح عينيها ثانية؟ وهَبْ أنها انتقلت من هذه الغيبوبة العميقة إلى الموت؟ حاولت أن أركّز على هذه الفكرة، وكنت أتحرق شوقاً لأعرف كيف ستكون مشاعري إذا ماتت. حاولت أن أتخيّل أني أرمل جديد، حتى أني لم أستدع الحانوتي.

قبل كل شيء نهضت ووضعت أذني على فمها. نعم، ما زالت تتنفس. سحبت الكرسي عند أسفل السرير وركزت كل تفكيري على الموت ـ موتها. لم تظهر عليّ عواطف قوية. ولأكون صادقاً نسيت خسارتي الشخصية المفترضة، واستغرقت في تأمل سعيد بالرغبة في الموت. بدأت أفكّر بموتي، وكيف سأستمتع به. الجسد المستلقي هناك، يتنفس بصعوبة، يطفو بتأثير المخدر كمركب صغير مربوط بمؤخرة سفينة، هو أنا. أردت أن أموت وإني الآن أموت. لم أعد أعي هذا العالم ولكني لم أصل بعد إلى العالم الآخر. كنت أعبر ببطء إلى البحر، أغرق بدون ألم مختنقاً. لم أكن أفكر بالعالم الذي كنت أغادره ولا العالم الذي كنت أدنو منه. في الواقع، لم يكن ثمة شيء يماثل الفكرة التي تدور في خلدي. لم يكن حلماً، بل شيئاً أشبه بالشتات، وبدأت العقدة تتفكك، النفس ترشح، حتى لم تعد هناك نفس: كنت الدخان المتصاعد من سيجار جيد، وكالدّخان كنت أتلاشى في الهواء الرقيق، وكانت بقايا السيجار تتساقط وتتحول إلى رماد.

ثم صحوت. المسار الخاطئ. استرخيت ورحت أحدق فيها بدون ثبات. لماذا يجب عليّ أن أفكر بموتها؟

ثم خطر ببالي: لو ماتت الآن فقد أحبها بالقدر الذي كنت أتخيل أني أحببتها!

«ما زال الممثل! لقد أحببتها ذات مرة، لكنك كنت في غاية السعادة عندما ظننت أن بوسعك أن تحب شخصاً آخر بالإضافة إلى نفسك بحيث كدت تنساها على الفور. إنك تراقب نفسك وأنت تمارس الحب. لقد دفعتها إلى هذا لتشعر من جديد. أن تفقدها يعني أن تجدها ثانية».

قرصت نفسي، لأقنع نفسي بأني أستطيع أن أحس وأشعر. نعم، إنك لست مقدوداً من خشب. لديك مشاعر ـ لكنها مضللة. قلبك يخفق بشكل متقطع. إنك تشعر بالامتنان لأولئك الذين يجعلون قلبك ينزف. أنت لا تعاني من أجلهم، بل تعاني لتتمتع بترف الألم. لم تبدأ تعاني بعد، بل تعاني بالإنابة فقط.

كان هناك شيء من الحقيقة في ما كنت أقوله لنفسي. فمنذ اللحظة التي دخلت فيها الغرفة رحت أفكر بالطريقة التي يجب عليّ أن أتصرف بها، كيف ينبغي لي أن أعبّر عن مشاعري. أما بالنسبة لما فعلته مع مود في آخر لحظة ـ فكنت معذوراً في ذلك. إذ تغيرت مشاعري، هذا كل ما في الأمر. لقد خدعني القدر. مود، أف! لم أكن أعيرها أي اهتمام. ولا أذكر مرة أنها حركت فيّ أي مشاعر حقيقية. كم سيكون ذلك قاسياً لو اكتشفت مونا الحقيقة! كيف يمكنني أن أفسر لها هذه الورطة؟ ففي اللحظة نفسها التي كنت أخونها فيها، كما ظننت، كان كرونسكي يقول لها كم أنا مخلص ووفي. وكان كرونسكي محقاً، لكن لا بد أن الشك كان يعتري كرونسكي، وهو يقول لها الحقيقة، بأنها تستند إلى كذبة. فقد كان يؤكد إيمانه فيّ لأنه هو نفسه يريد أن يثق بي، فلم يكن كرونسكي أحمق، ولعله كان صديقاً مخلصاً أكثر مما كنت أظنه. لو لم يكن يبدي رغبته الجامحة في الوصول إلى أعماقي! لو توقف فقط عن دفعي إلى العراء.

استحوذت عليّ ملاحظة كيرلي ثانية. فقد كان تصرف كرونسكي رائعاً جداً ـ كما لو أنه يضاجعها! لماذا تعتريني

الرعشة عندما أفكر بأن أحداً يضاجعها؟ هل هي الغيرة؟ كنت أرغب في أن أصبح غيوراً لو تمكنت فقط من رؤية هذه القوة التي تتمتع بها في جعل الآخرين غيورين. مثالي ـ لقد صعقني أن أصوغها بهذه الطريقة! هل كان ذلك عن امرأة تضع العالم عند قدميها. فلو ظننت أنه يوجد رجال لا يأبهون بمفاتنها لساعدتها على إيقاعهم في شراكها. فكلما كثر محبوها ازداد انتصاري الشخصي. لأنها تحبني، وهذا أمر لاشك فيه. ألم تخترني من بين جميع الرجال الآخرين، أنا، الذي لم يكن لدي الشيء الكثير لأقدمه لها؟

قالت لكيرلي إني ضعيف. نعم، وهي ضعيفة أيضاً. فأنا ضعيف إزاء النساء بصورة عامة، أما هي، فضعيفة إزاء من تحب. لقد أرادت أن ينصب حبي عليها فقط، حتى في التفكير.

ومن الغرابة أني بدأت أركّز عليها وحدها، بطريقتي الضعيفة. فلو لم تجذب اهتمامي لضعفها، لاكتشفته أنا بنفسي، فمع كل مغامرة جديدة، لم يكن يوجد سوى شخص واحد فقط في العالم ـ إنه هي. أما الآن، وبعد أن رحت أقلّب الأمر في عقلي على نحو مأساوي، كانت تطاردني دائماً فكرة القوة التي أمارسها عليها. وربما كان يستهويني أن أبرهن لها ذلك.

طردت هذه الأفكار من رأسي ـ بقوة. إذ لم يكن ذلك ما أردت أن تكون عليه الأشياء. فقد أحببتها كلها، هي فقط، ولا يمكن لأي شيء على وجه الأرض أن يجعلني أحيد عن ذلك.

بدأت أستعرض نشأة هذا الحب. نشأته؟ لم يكن ثمة نشأة له. كان آنياً. أصابتني الدهشة عندما فكرت أنه ينبغي لي أن أقدم هذا البرهان، حتى أن إيماءتي الأولى التي عبّرت عن الرفض كانت إثباتاً للحقيقة بأني شعرت بالانجذاب نحوها. غريزياً قلت لها لا بسبب الخوف. تذكرت ذلك المشهد في المرقص في تلك الأمسية عندما ودعت حياتي القديمة إلى غير رجعة. كانت قادمة نحوي من وسط حلبة الرقص. ألقيت نظرة حولي، غير مصدق أنها اختارتني أنا. ثم

اعتراني الخوف، رغم أني كنت متلهفاً لأن ألقي بنفسي بين ذراعيها. ألم أهز رأسي بقوة؟ لا! لا! إلى حد الإهانة تقريباً. وفي الوقت نفسه ارتعدت خوفاً من أنها لن تلقي نحوي نظرة ثانية حتى لو بقيت واقفاً هناك. ثم عرفت أني أردتها، وسأتبعها دون كلل أو ملل حتى لو لم يجد ذلك نفعاً. تركت الدرابزين وتوجهت إلى الزاوية لأدخن سيجارة. كنت أرتعش من رأسي حتى قدميّ. كنت أدير ظهري لحلبة الرقص، لا أجرؤ على النظر إليها. بدأت أغار للتو، أغار من أي شخص يمكن أن تختاره كشريك قادم لتراقصه...(كان من الرائع أن أتذكر تلك اللحظات. الآن، وبحق السماء بدأت أشعر ثانية...).

بعد لحظات استجمعت نفسي وعدت إلى الدرابزين، الذي أطبقت عليه من كل جانب مجموعة من الذئاب الجائعة. كانت ترقص. وكانت قد رقصت عدة رقصات متتالية مع ذات الرجل. لم تكن تلتصق به شأن الفتيات الأخريات، بل كانت تنظر إلى وجهه بانشراح وهي تبتسم وتضحك وتتحدث. ومن الواضح أنه لم يكن يعني لها شيئاً.

ثم جاء دوري، فقد تنازلت أخيراً ونظرت إليّ! ولم يبدُ أنها قد انزعجت مني أبداً، بل بالعكس، فقد تصرّفت وكأنها تبذل أقصى جهدها لكي تكون لطيفة معي. وهكذا، وبلمح البصر، تركتها تأخذني إلى ساحة الرقص، ثم مرة أخرى، وأخرى، وأخرى. وحتى قبل أن أجازف وأدخل معها في حديث عرفت أني لن أغادر هذا المكان بدونها.

رقصنا ورقصنا، وعندما تعبنا من الرقص جلسنا في ركن ورحنا نتحدث، وكانت الساعة تسجل مزيداً من الدولارات والسنتات في كل دقيقة أحدثها فيها أو أراقصها. كم كنت غنياً في تلك الليلة! كم كان الإحساس لذيذاً وأنت تدفع دولاراً بعد دولار بطيش وبدون حساب! كنت أتصرف كمليونير لأني كنت مليونيراً. ولأول مرة في حياتي عرفت ماذا يعني أن تكون ثرياً، أن تكون كبير القوم، أميراً، حاكماً، مهراجا. كنت أسلم لها روحي، ولا أقايضها، كما فعل فاوست، بل كنت بالفعل أتخلى عنها.

وكانت تلك المحادثة الغريبة عن ستريندبيرج، التي مرت في حياتنا كخيط فضي. وكنت دائماً أعيد قراءة *الآنسة جولي*، بسبب ما قالته لي في تلك الليلة، لكني لم أفعل ذلك قط ـ وليس من المحتمل أن أفعل ذلك.

ثم انتظرتها في الشارع، في برودواي، وعندما كانت قادمة نحوي استحوذت علي تماماً للمرة الثانية. وفي الكشك، في مطعم تشين لي، تحولت إلى إنسان آخر تماماً، فقد تحولت ـ وهذا كان حقاً سر سحرها الذي لا يقاوم ـ إلى إنسان غامض.

لم أنسج ذلك بنفسي، إلا أني عندما جلست ورحت أتلمس طريقي على غير هدى عبر دخان كلماتها، عرفت أني سأرمي بنفسي كمجنون في كل فجوة من فجوات قصتها. كانت تحيك نسيجاً، نسيجاً واهياً جداً، دقيقاً للغاية. ولو تصرفت أي امرأة أخرى بهذا الشكل لأثارت شكوكي، ولوصمتها بالكذابة المحنكة. فهي لم تكن تكذب، بل كانت تطرز. كانت تخيط وكانت بين الحين والأخر تنسى درزة هنا وهناك.

وهنا برقت في خاطري فكرة لم يسبق أن خطرت لي من قبل. كانت واحدة من تلك الأفكار الدودية التي تندفع في العقل كقمر رفيع عبر شرائح من لحم الضأن، وكان ذلك يحدث لي دائماً! نعم، لعلها خطرت ببالي في ذلك الوقت، لكني طردتها على الفور. الطريقة التي كانت تتكئ فيها، جسدها المستند على ذراع واحدة، اليد، اليد اليمنى، تتحرك كإبرة ـ نعم، في تلك اللحظة، وفي أوقات أخرى بعد ذلك، ومضت صورة في رأسي، لكن لم يكن لدي الوقت، أو بالأحرى لم يتح لي الوقت، لأتعقب مصدرها، لكنها أصبحت واضحة الآن. من كان ذلك «الذي كان يفعلها دائماً»؟ القدر. كان هناك ثلاثة منهم، وكان ثمة شيء شرير فيهم. كانوا يعيشون في العتمة ويغزلون نسيجاً: أحدهم اتخذ تلك الوضعية، أدار جسدها، وهو ينظر إلى الكاميرا وقد أشار بيده، ثم واصلت عملية الخياطة، والغزل،

والنسج، ذلك الحديث الصامت الذي يحاك داخل نسيج الكلمات المنطوقة وخارجها.

مكوك يتحرك ذهاباً وإياباً، وشيعة تتحرك باستمرار. بين الحين والآخر غرزة تسقط سهواً... كالرجل الذي رفع فستانها، وانحنى ليقول لها طابت ليلتك. صمت. يفجر دماغه... أو الأب الذي يطيّر طائراته الورقية على السطح، يطير من السماء، كملاك شاغال البنفسجي، يسير بين أحصنة سباقه، يمسك بزمامي حصانين بكل يد. صمت.

إننا على الشاطئ والقمر يخترق الغيوم، إلا أني، قبل أن نجلس لصق بعضنا في عربة سائق القطار في محطة المترو المرتفعة عن الأرض، رحت أروي لها قصة طوني وجويي، التي كنت قد كتبتها لتوي ـ ربما بسببها، وربما بسبب تأثير بعض الأمور الغامضة. لقد ردتني إلى نفسي فجأة، جعلت الوحدة تبدو ممتعة. هزّت باقات العاطفة الشبيهة بعناقيد العنب التي انتظمت في خيط كإكليل معلق على هيكلي العظمي. أحيت الصبي، الصبي الذي كان يجري عبر الحقول ليحيّي صديقيه الصغيرين. لم يكن هناك أي ممثل آنذاك! كان ذلك الصبي يجري وحيداً. كان ذلك الصبي يجري ليلقي بنفسه بين ذراعي جويي وطوني... لماذا كانت تنظر اليّ بإمعان عندما رحت أروي لها قصة جويي وطوني؟ كان ثمة ألق شديد في وجهها، لايمكنني أن أنساه أبداً. والآن أظن أنني أعرف ما هو. أظنني قد أوقفتها ـ أوقفت ذلك الغزل والنسج المستمرين. كان ثمة شعور بالامتنان في عينيها، وأيضاً حب وإعجاب. أوقفت تلك الآلة وصعدت كالبخار لبضع دقائق فقط. كانت تلك النظرة المتألقة جداً، السحابة الماطرة لذاتها المتحرّرة.

وفجأة اجتاحتني فكرة كئيبة. أصبح الخطر من كاروثرس شيئاً من الماضي. كان كاروثرس قد مدّ لها يد المساعدة، ولاشك أن آخرين قد ساعدوها قبله... والفكرة هي أنه لو لم آت في تلك

الليلة إلى المرقص، ولم تكن تلك اللفافة في جيبي، لو لم يكن معي ما يكفي فقط لبضع رقصات، ماذا كان سيحدث؟ وبالإضافة إلى تلك المناسبة العظيمة الأولى، ماذا عن ذلك الزمن الآخر في البقعة الفارغة؟ («للقذارة!...») ولأفترض أنني خذلتها آنذاك؟ لكن لم يكن بوسعي أن أخذلها، هذا كل ما في الأمر. لا بد أنها أدركت ذلك وإلا لما جازفت بها.

ومع ذلك فقد اضطررت للاعتراف بمنتهى الصدق بأن المبالغ القليلة التي كنت أخرجها بأعجوبة في اللحظة المناسبة كانت عاملاً هاماً. فقد ساعدها ذلك على الظن أن بإمكانها أن تعتمد علي.

بدأت صفحة جديدة. اللعنة، إذا كان بوسع المرء أن يستجلي القدر بهذه الطريقة فبإمكانه أن يفسر كل شيء وأن يعرف ماذا سيتناول على الفطور. إن العناية الإلهية تضع أمامك فرصاً يمكن أن تصرفها كنقود، حظاً، شباباً وحيوية، ألف شيء وشيء. وإذا لم تتوافر لك الجاذبية فلا يمكن أن تستفيد حتى من أفضل الفرص. ولأني كنت سأفعل من أجلها أي شيء، فقد أتيحت لي فرص كثيرة. النقود، خراء! لا دخل للنقود في ذلك. كثير من الالتواءات، أو انعدام المال! كانت كتعريف الهستيريا في مكتبة الدكتور أونيريفيك: «نفاذية لا داعي لها للحجاب الحاجز الروحي».

لا، لن أغوص في هذه الدوامات المعقّدة. أغمضت عيني لأغوص في ذلك الجدول الصافي الآخر الذي لا يكف عن الجريان مثل خيط فضي. وفي بقعة هادئة مني كانت هناك أسطورة راحت تغذّيها. كانت الأسطورة عن شجرة، تماماً كما في الإنجيل، ووقفت تحتها امرأة تدعى حواء تحمل بيدها تفاحة. هنا كانت تجري كجدول رائق، كل ذلك كان يحدد مجرى حياتي حقاً. هنا يقبع الإحساس، من الضفة إلى الضفة.

إلى ماذا أريد أن أصل ـ هنا حيث الينبوع الصافي يجري تحت الأرض؟ لماذا تلك الصورة عن شجرة الحياة؟ لماذا كان من الممتع

أن أتذوق التفاحة المسمومة مرة أخرى، أن أجثو متضرعا عند قدمي امرأة في الإنجيل؟ لماذا كانت ابتسامة الموناليزا الأكثر غموضاً من بين كل التعابير الإنسانية؟ ولماذا تعين عليّ أن أنقل ابتسامة عصر النهضة هذه إلى شفتي حواء التي لم أعرفها إلا كفن من فنون الحفر؟

ثمة شيء معلق على حافة الذاكرة، ابتسامة مبهمة أظهرت صفاء وسعادة وبركة. لكن كان هناك أيضاً سم ينضح من تلك الابتسامة المحيرة. ولقد جرعت هذا السّم واختلطت ذاكرتي. كان هناك يوم قبلت فيه شيئاً لقاء شيء، في ذلك اليوم حدثت تشعبات غريبة.

عبثاً رحت أنقب وأبحث في دماغي. تمكنت أخيراً من تذكّر هذا القدر. في أحد أيام الربيع التقيت بها في القاعة الوردية في أحد الفنادق الكبيرة. وكانت قد طلبت مني أن ألقاها هناك لتريني الفستان الذي اشترته. كنت قد وصلت قبل الموعد المحدد، وبعد بضع لحظات قلقة رحت في غيبوبة. وكان صوتها هو الذي جعلني أصحو. لفظت اسمي واخترق صوتها جسدي، كما يخترق الدخان الشاش. كانت رائعة الجمال، ظهرت فجأة هكذا أمام عيني. كنت مأزال خارجاً من السديم. وفيما جلست نهضت ببطء، ما أزال أتحرك عبر الضباب، وجثوت عند قدميها، وأنا أدمدم شيئاً عن تألق جمالها. ولبضع دقائق كاملة لم تبذل جهداً لتوقظني. أمسكت يدي في يديها وابتسمت لي، تلك الابتسامة المضيئة المتألقة، التي تتوهج كهالة ثم تتلاشى، ولا تظهر ثانية أبداً. وافترت شفتاها عن ابتسامة ملائكية من السكينة والهدوء والبركة، في مكان عام حيث وجدنا نفسينا وحيدين. كان طقساً دينياً، وقد سجلت الساعة، واليوم، والمكان في رسائل من ذهب في كتاب الأسطورة الملقى عند أسفل شجرة الحياة. لذلك انضم إلينا، نحن اللذين توحدنا، كائن خفي. ولم يحدث أن التقينا وحدنا بعد ذلك. ولن تتكرر أبداً تلك اللحظة من

الصمت، تلك اللحظة من اليقين ـ ربما حتى الموت. شيء ما أعطي، شيء ما أُخذ. لبضع لحظات خالدة وقفنا عند بوابات الجنة ـ ثم دُفعنا إلى الأمام وتلاشى ذلك البريق المليء بالنجوم، كألسنة من البرق تبدّد في ألف جهة وجهة.

هناك نظرية تقول إنه عندما يظهر أحد الكواكب، كالأرض التي نعيش فوقها، تظهر فيه جميع أشكال الحياة، وعندما يستنفد نفسه حتى درجة النضوب، فإنه ينهار إلى قطع ويتناثر كهباء النجوم عبر الكون. وهو لا يتدحرج كقمر ميت، بل ينفجر، وفي خلال بضع دقائق، يصبح أثراً بعد عين في السماوات. وفي الحياة البحرية ثمة شيء مماثل، يدعى التخسف. فعندما يتعرض كائن برمائي، كان قد اعتاد على العيش عند مستوى معين من الأعماق المظلمة، إلى ارتفاع مفاجئ في الضغط الذي كان قد كيّف نفسه معه، فإن الجسم ينفجر من الداخل. ألا نعرف هذا الشيء في الإنسان أيضاً؟ الاسكندنافيون القدماء الهمج، الملاويون الذين عاثوا فساداً ـ أليست هذه أمثلة عن التخسف والانفجار؟ عندما تكون الكأس مترعة فإنها تفيض، ولكن عندما تكون الكأس وما تحتويه مادة واحدة، فماذا إذن؟

هناك لحظات يرتفع فيها إكسير الحياة إلى هذه الدرجة من الروعة فتبدأ الروح تفيض. في الابتسامة الملائكية لصورة السيدة مريم ترى الروح تفيض على الذات. قمر الوجه يصبح بدراً، المعادلة تامة. بعد دقيقة، نصف دقيقة، ثانية، تكون المعجزة قد انتهت. فقد يكون هناك شيء غير ملموس، شيء يتعذر تفسيره قد مُنح ـ وأُخذ. وفي حياة إنسان ما قد لا يصادف أن يصبح القمر بدراً، ويبدو حقاً أن الظاهرة الغامضة الوحيدة التي يمكن ملاحظتها في حياة بعض البشر هي ظاهرة الكسوف الأبدي. وفي حالة المبتلين بالعبقرية، مهما كان الشكل الذي تتخذه، نكاد نخاف من رؤية عدم وجود شيء سوى أن يستمر القمر في أن يكبر ويصغر. والأندر من كل ذلك،

أولئك الشاذون الذين، بعد أن يبلغوا قمة نموهم واكتمالهم، يفزعون من هذه المعجزة ويمضون بقية حياتهم وهم يسعون إلى خنق من أنجبوهم ومنحوهم الكينونة. إن حرب العقل هي قصة انشقاق الروح. وعندما كان القمر بدراً، حاول الذين لم يتمكنوا من تقبل الموت الخافت للانحسار، التعلق بأوج سمائهم. حاولوا وقف عمل القانون الذي كان يظهر من خلالهم، من خلال ولادتهم وموتهم، في تمام خلقتهم وعند تبدل هيئتهم. علقوا بين المد الذي شقوه، وتكون الروح قد غادرت الجسد، مخلفة شبه نفس مقسمة تتصارع مع العقل. وبفعل تألقهم يعيشون إلى الأبد وهم يسعون إلى الوصول إلى بغيتهم العقيمة المجردة من الجمال والحقيقة والألفة. وبعد أن يفقدوا تألقهم يسعون إلى امتلاك روح الذين ينجذبون نحوهم. يمسكون كل إشعاعات الضوء، يعكسونها مع كل جانب جائع من كينونتهم. ويشعّون فوراً، عندما يتجه الضوء نحوهم، ويخبو نورهم بسرعة أيضاً. وكلما كان النور المسلط عليهم أشد وهجاً كان الإبهار - والإعماء - أشد قوة. ويشكلون خطراً على المتألقين خاصة، وينجذبون انجذاباً عاطفياً دائماً نحو تلك الأجسام المضيئة التي لا تتوقف عن الإشعاع والسطوع.

كانت ممددة تحت ضوء ساطع، الشفتان تفتران قليلاً عن ابتسامة غامضة. وبدا جسدها خفيفا جداً، كما لو كان يطوف في الأبخرة المقطرة لأحد العقاقير. الألق الذي ما انفك ينبثق من لحمها مايزال هناك، لكنه انفصل عنها، وأصبح معلقاً حولها، يطوف حولها كتكثيف نادر ينتظر أن يمتصه لحمها ثانية.

استحوذت عليّ فكرة غريبة، فيما راحت نفسي تتأمل. هل من الجنون أن أفكر أنه في محاولتها إلغاء ذاتها اكتشفت أنها ماتت؟ هل عاد إليها الموت، الذي رفض أن تفلت من بين يديه؟ هل كان ذلك الوهج الغريب، الذي أخذ يتجمع حول صورتها في المرآة، انعكاس موت آخر؟

ربما قال أحدهم إنها كانت دائماً في غاية الحيوية، حيوية على نحو خارق. لم تكن تنال شيئاً من الراحة أبداً، إلا عندما تخلد إلى النوم، وكان نومها ثقيلاً.

سألتها مرة: «ألا تحلمين أبداً؟».

لا تتذكر ـ فقد مضى زمن بعيد منذ أن حلمت.

ألححت قائلاً: «ولكن الجميع يحلمون، أنتِ لا تحاولين التذكر، هذا كل ما في الأمر».

بعد ذلك بفترة وجيزة، أعلمتني بطريقة عفوية واضحة أنها بدأت تحلم ثانية. وكانت أحلاماً رائعة، تختلف تماماً عن طريقتها في الكلام. وفي البداية تظاهرت أنها تخجل من الإفصاح عنها، ولكن بعد ذلك، عندما تبين لها من كلامي كم كانت رائعة، بدأت تستفيض في الحديث عنها.

وفي أحد الأيام، بينما كنت أروي لكرونسكي أحد هذه الأحلام وكأنه حلمي أنا متظاهراً بالارتباك والحيرة، صعقت عندما قال: «لا يوجد شيء أصيل في أحلامك، يا سيد ميلر! هل تحاول أن تهزأ بي؟».

قلت له مندهشاً: «أهزأ بك؟».

قال ساخراً: «قد يبدو أنها أصيلة بالنسبة لكاتب، أما بالنسبة إلى عالم نفساني فهي زائفة. إذ لا يمكنك أن تخترع أحلاماً كما تخترع قصصاً، فللأحلام أصالتها كما للقصص أصالتها».

تركته يهدّم الحلم ولكي أسكته، اعترفت له أني اخترعته.

وبعد عدة أيام، وفيما كنت أبحث في مكتبة الدكتور أونيريفيك، عثرت على مجلد سميك يتناول موضوع استلاب الشخصية. وفيما كنت أقلّب صفحاته وجدت مغلفاً عليه اسمي وعنواني. لم يكن سوى لسان المغلف، ومن المؤكد أن الخط كان خطي. لا يوجد إلا تفسير واحد: وهو أن مونا هي التي تركته.

وكانت الصفحات التي رحت أقلبّها كآكل النمل مخصصة للأحلام التي دونّها طبيب نفساني. أحلام شخص مشّاء أثناء نومه، شخصية مصابة بالانفصام. وجدت نفسي أتابعها بإحساس مشوش من الألفة، وقد تعرفت على بعض النقاط فيها.

وأخيراً استغرقت فيها إلى حد أني بدأت أدّون ملاحظات من الفقرات التي تعرفت عليها. واكتشفت لاحقاً من أين جاءت العناصر الأخرى. فقد أخرجت عدداً من الكتب، ورحت أبحث فيها عن إشارات ودلائل أخرى، لكني لم أعثر على شيء.

لكني فهمت الأمر. إذ انتزعت أكثر العناصر إثارة ـ ثم ربطتها ببعضها، ولم تأبه ما إذا كانت أجزاء من حلمها عبارة عن حلم أنثى لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر وأجزاء أخرى مأخوذة من حلم ذكر مدمن على المخدرات.

واستحسنت فكرة وضع القطعة الممزقة من المغلف في جزء آخر من الكتاب قبل أن أعيده إلى الرف.

وبعد نصف ساعة خطرت ببالي فكرة أفضل. أنزلت الكتاب، راجعت ملاحظاتي، ثم وضعت خطاً تحت المقاطع المجزأة بعناية التي كانت قد انتحلتها. وأدركت، بالطبع، أنه من المحتمل ألاّ أسمع منها حقيقة الأمر إلا بعد سنوات ـ وربما لن أسمعها منها أبداً، لكني رضيت أن أنتظر.

وأعقبت ذلك فكرة جعلتني منقبض الصدر إثر هذا التفكير. فإذا كان بإمكانها أن تزيّف حياة أحلامها، فماذا عن حياة يقظتها؟ ولو بدأت أنبش في ماضيها... فإن جسامة هذه المهمة تكفي لثنيّ عن أي محاولة آنية في ذلك الاتجاه. إلا أنه يمكن للمرء دائماً أن يشنف أذنيه. ولم تكن تلك فكرة تبعث على البهجة أيضاً. إذ لا يمكن للمرء أن يواصل حياته وأذناه مشنفتان. ومن الغرابة، أني لم أعد أفعل شيئاً سوى أن أقول ذلك في نفسي عندما أتذكر الطريقة التي تستبعد فيها موضوعاً. ومن الغريب أنها كانت تنجح في جعلي أنسى ذلك

العنصر الصغير، في تحريري من فكرة أني لمحت أمها في الفناء الخلفي، عندما كنت أبحث لأول مرة عن مكان بيتها. دفنت بالمنزل بمهارة وبإخلاص ماكر الشكوك التي انتابتني عن مزايا وصفات المرأة التي تخيلت أنها أمها، المرأة التي أصرّت على أنها زوجة أبيها. فقد كانت حيلة كاذبة أنزعج من نفسي عندما أتذكرها، لأنها انطلت علي بهذه السهولة. وهذا على الأقل شيء يمكنني أن أتبين حقيقته في المستقبل القريب. وكنت متأكداً من أنني محق بحيث كدت أقرر أن أقلع عن مهمة التثبت من ذلك. وقلت في نفسي إنه من الممتع ألّا أخوض في ذلك، بل أن أوقعها في الشرك بمناورة لفظية ذكية. لو كان بوسعي أن أطور فن نصب الفخاخ فإن ذلك سيوفر عليّ الكثير من السير والجهد الذي لا طائل منه.

قبل كل شيء، خلصت إلى أنه يجب عليّ أن لا أدعها تشك أبداً بأني أهدف إلى كشف أكاذيبها. لماذا كان ذلك أمراً حتمياً؟ سألت نفسي على الفور تقريباً. هل سأكون سعيداً إذا كشفت المزيد والمزيد من أكاذيبها؟ هل كان في ذلك متعة؟ ثم انبثق سؤال آخر في رأسي. لو كنت متزوجاً من مدمنة على الكحول، هل كنت سأدّعي أن هوسها بالكحول ليس مؤذياً جداً؟ هل سأظل أتظاهر بأن كل شيء كان جميلاً لدراسة تأثيرات هذه العلة على الشخص من بين الأشخاص الذين تحبهم؟

إذا كان يحق لي تحريض شهوات الفضول، فمن الأفضل الوصول إلى جذر المشكلة، معرفة لماذا تكذب بهذا الشكل الصارخ. إذ لم تكن آثار هذا الداء واضحة تماماً بالنسبة لي ـ بعد. شيء من التفكير وأكون قد أدركت في الحال أن التأثير الأول والأكثر تدميراً ـ هو اللامبالاة. إن صدمة الاكتشاف، التي يسببها اكتشاف الكذبة الأولى، ذات السمات العاطفية، كالصدمة التي ترافق المعرفة بأن المرء يواجه شخصاً مجنوناً. للخيانة جذورها في الخوف من فقدان الشخصية. ولا بد أن الإنسانية احتاجت إلى حقب من الزمن للارتقاء

بالحقيقة إلى هذا المستوى الرفيع، لجعلها نقطة الارتكاز، كما كانت، للفردية. لقد كان المظهر الأخلاقي مجرد تابع، غطاء عاماً لغرض أعمق، يكاد يكون منسياً. إن التاريخ لا بد أن يكون قصة وكذبة وحقائق تاريخية مجتمعة، ومن المهم ألّا ننظر إليه نظرة متعالية. ويجب اعتبار القصة، بصفتها اختراع فنان مبدع، المادة الأكثر فعالية لأن معرفة حقيقة مؤلفها أمر هام أيضاً. ولا يمكن للأكاذيب إلا أن تكون مغروزة في الحقيقة. ليس لها وجود منفصل، بل لها علاقة تكافلية مع الحقيقة. إن الكذبة الجيدة تكشف أكثر مما تكشفه الحقيقة بالنسبة للشخص الذي يسعى وراء الحقيقة، ولمثل هذا الشخص لا يوجد مبرر للغضب أو توجيه الاتهام حين يواجه كذبة. ليس حتى الألم، لأن كل شيء سيكون واضحاً، عارياً، موحياً.

تعجبت تماماً عندما عرفت إلى أي مدى يمكن أن يوصلني هذا التجرد الفلسفي. سجلت ملاحظة لأستأنف التجربة ثانية، فربما أتى ذلك أوكله.

12

كنت قد غادرت مكتب كلانسي. وكلانسي هذا هو مدير عام شركة كوسموديمونيك اللعينة للتلغراف. وهو المسؤول اللعين فيها، وكان يخاطب الجميع، الموظفين التابعين له أو ورؤساؤه، بكلمة «ياسيد».

وقد هبط احترامي لكلانسي إلى درجة الصفر. ولأكثر من ستة أشهر كنت أتفادى زيارته، رغم أننا كنا قد اتفقنا على أن أقوم بزيارته مرة كل شهر أو حوالى الشهر ـ للدردشة. وهاهو يستدعيني اليوم إلى مكتبه، ليعرب لي عن خيبة أمله بي، ويقول لي إني خذلته.

هذا النقّاق المسكين! لو لم أكن أشعر بالاشمئزاز منه لشعرت بالأسف عليه. إذ كان في موقع لا يحسد عليه، ويمكنني أن أقدر وضعه، لكنه وضع نفسه في هذا الموقع منذ أكثر من عشرين سنة أو يزيد.

وكان سلوك كلانسي النموذجي هو سلوك الجندي الذي يتلقى الأوامر ويصدرها إذا استدعت الضرورة. وكان شعاره الطاعة العمياء. ومن الواضح أني كنت جندياً مسكيناً، فقد كنت أداة رائعة طالما منحت يداً طليقة، أما الآن وبعد أن تم تضييق الخناق عليّ حزن عندما علم أني لم أعد أرد على طلبات أولئك الذين كان هو نفسه، كلانسي، المدير العام، ينحني لهم باحترام وتبجيل. وتألم عندما سمع أني أهنت أحد أنصار السيد تويليجير، الذي كان نائباً

للرئيس، ذلك الرجل الذي قُدَّ قلبه من صخر، والذي صعد من أدنى المراتب، تماماً كما هو حال كلانسي.

ابتلعت الكثير من الهُراء في ذلك اللقاء القصير مع رئيسي بحيث رحت أتقيأ. وانتهت المناقشة بأكثر الملاحظات شناعة، وهي أنه يجب عليّ أن أتعلم كيف أتعاون مع السيد سبيفاك، الذي أصبح بالتأكيد وسيطاً للسيد تويليجير الآن.

كيف يمكنك أن تتعاون مع جرذ؟ وخاصة جرذ وظيفته الوحيدة التجسس عليك؟

وفيما كنت أضع قدمي داخل أحد البارات لأحتسي مشروباً، رحت أفكر بأني كنت قد عزمت على التخلي عن حياتي القديمة قبل بضعة شهور من ظهور سبيفاك على الساحة. وشعرت الآن أن قدومه عجّل هذا الأمر، أو ساهم في تعجيله. وقد جاءت نقطة الانعطاف في حياة شركة كوسموديمونيك للتلغراف في لحظة من الوفرة. فحين كنت أرتب كل شيء، وعندما كانت الآلة تعمل كالساعة، استدعى تويليجير سبيفاك من مدينة أخرى وعينه خبيراً. وقد جسّ سبيفاك نبض آلة كوسموديمونيك وتبين له أن نبضها بطيء جداً.

منذ ذلك اليوم المشؤوم أخذوا يحركونني كقطعة شطرنج. وكتهديد لي، نقلوني أولاً إلى المكتب الرئيسي، حيث كان مكتب تويليجير المقدس يقع في البناية ذاتها، فوقي بحوالى خمسة عشر طابقاً. ولم يعد بوسعي أن أتصرف الآن، كما كنت أفعل في مكتب السعاة القديم الذي توجد فيه أكشاك الملابس في الخلف والطاولة المغطاة بالزنك، حيث كنت أخرج بين الحين والآخر. أما الآن، فقد حُجزت في قفص مفرغ من الهواء، تحيطه بدع جهنمية تئز وتئن وتومض في كل مرة يطلب فيها زبون ساعياً، في مكان لا يتسع إلا لطاولة مكتب كبيرة وكرسي على كل جانب (للمتقدمين بالطلبات)، وكان يتعين عليّ أن أتصبب عرقاً وأصرخ بأعلى صوتي ليسمعوني. وقد اختفى صوتي ثلاث مرات خلال بضعة شهور،

وكنت في كل مرة أزور طبيب الشركة في الطابق العلوي. وفي كل مرة كان يهز رأسه في حيرة.

«قل آ آ».

«آ».

«قل إي إي».

«إي إي إي».

ويدفع عوداً رفيعاً دقيقاً كمنفضة الغبرة داخل حنجرتي.

«افتح فمك واسعاً».

افتحه واسعاً بقدر ما يمكنني. يمسحه من الخارج، ويرشه ببخاخ إذا رغب في ذلك.

«هل تشعر أنك أفضل حالاً الآن؟».

أحاول أن أقول نعم لكن أفضل ما يمكنني قوله هو أن ألفظ أووغ!

قال: «لا أرى شيئاً غير طبيعي في حنجرتك، ارجع بعد عدة أيام وسألقي نظرة أخرى. قد يكون سبب ذلك الطقس».

ولم يخطر بباله أبداً أن يسألني ماذا فعلت بحنجرتي طوال اليوم. وبالطبع، عندما أدركت أن فقدان صوتي يعني أن أتمتع بعطلة بضعة أيام، شعرت أنه من الأفضل أن أتركه في جهله عن سبب بلائي.

إلا أن سبيفاك كان يشك في أني كنت أتمارض. وكنت أجد متعة في التحدث إليه همساً بعد أن أكون قد استعدت صوتي بفترة طويلة.

يسألني: «ماذا قلت؟».

وكنت أختار اللحظة التي يزداد فيها الضجيج لأكرر له المعلومات التافهة بالهمس نفسه الخافت.

فيقول: «أوه هكذا إذاً»، وكان الغضب يتملكه إلى حد كبير،

وتثور ثائرته لأني لم أكن أبذل أدنى مجهود لأرفع صوتي، ويقول: «متى تظن أنك ستستعيد صوتك؟».

فأقول له: «لا أعرف» وأنا أنظر في عينيه وأترك صوتي يتلاشى.

ثم يتحدث إلى الكاتب، ويطلب منه أن يتجسس علي ليعرف إن كنت أتصنّع ذلك أم لا. وما أن يذهب حتى كنت أستعيد مستوى صوتي الطبيعي. وإذا رن الهاتف، كنت أطلب من مساعدي أن يرد عليه ويقول: «السيد ميلر لا يستطيع الرد على الهاتف ـ لقد اختفى صوته»، وكنت أفعل ذلك نكاية بسبيفاك لإغاظته. وكان يغادر مكتبي، ويخرج من الباب الأمامي، ويذهب إلى كشك في الخارج ويتلفن لي. وكم كانت سعادته كبيرة عندما يكتشف اللعبة.

كان كل هذا الخراء، لعب أطفال. وتوجد هذه الألعاب في كل الشركات الكبيرة. فهي المنفذ الوحيد للجانب الإنساني، إنها كالحضارة. كل شيء مسخّر للعمل بسلاسة لتقوم بتدميره بعض الألعاب النارية السخيفة. فما أن تلمّع وتشحذ دوافعك، وتجمّل أظافرك وترتدي بزة مفصلة حسب طلبك، حتى يضعوا بندقية في يدك، وفي ستة دروس يُتوقع منك أن تتعلم فن غرز الحربة في كيس من الحنطة. إنه أمر محير، على أقل تقدير. وإذا لم يكن هناك خوف، أو حرب، أو ثورة، فإنك تواصل الارتقاء من موقع ممتاز إلى آخر حتى تصبح الأير الكبير نفسه وتفجر دماغك.

جرعت كأساً آخر وألقيت نظرة إلى ساعة الحائط الكبيرة على البرج. ومن الطريف أن تلك الساعة هي التي ألهمتني القصيدة الوحيدة التي كتبتها في حياتي. وكان ذلك بعد فترة قليلة من نقلي إلى شمال المدينة من المكتب الرئيسي.

كان البرج نفسه يظهر من النافذة التي أطل منها على الشارع. وكانت تجلس أمامي فاليسكا، التي كتبت القصيدة من أجلها. تذكرت الإثارة التي غمرتني في صباح يوم الأحد ذاك الذي بدأت فيه كتابة

القصيدة. كان الأمر لا يصدق ـ قصيدة. كان علي أن أتلفن لفاليسكا وأخبرها بالنبأ السعيد. وبعد شهرين من ذلك توفيت.

وكانت تلك المرة الوحيدة، التي تمكن فيها كيرلي من إيلاج ذيله فيها. لم أعلم بذلك إلا مؤخراً. وكان يبدو أنه كان يأخذها إلى الشاطئ. وقد فعلها، يا إلهي في الماء، وهما واقفان. كانت تلك هي المرة الأولى، هذا كل ما في الأمر. وبعد ذلك أخذ يضاجعها ـ في السيارة، في الحمام، على رصيف الميناء، في المركب.

في خضم هذه الذكريات الجميلة، رأيت شخصاً طويلاً يرتدي بدلة رسمية يمر من أمام النافذة. هرعت خارجاً وحييته.

«لا أعرف إن كان علي أن أدخل يا سيد ميلر. فأنا في العمل كما تعرف».

«لا يهم. ادخل دقيقة وتناول كأساً معي. إني سعيد برؤيتك».

إنه العقيد شيريدان، رئيس فريق السعاة الذي نظمه سبيفاك. وكان شيريدان من آريزونا، وقد جاء إليّ يبحث عن عمل وكنت قد عينته في الفريق الليلي. لقد أحببت شيريدان، فقد كان أحد تلك الأرواح النظيفة القليلة الذين أحضرتهم من بين الآلاف الذين عينتهم في فريق السعاة. أحبه الجميع، حتى تويليجير، تلك القطعة الإسمنتية المتحركة.

كان شيريدان بسيطاً للغاية. فقد ولد في بيئة نظيفة، ولم ينل تعليماً أكثر مما كان يحتاجه، وكان تعليماً بسيطاً جداً، ولم يكن يتمتع بأي طموح سوى أن يكون كما هو، فرداً عادياً بسيطاً، يقبل الحياة كما هي. كان شخصاً من مليون، حسب ما عرفت طبيعتي البشرية.

سألته كيف تجري الأمور بصفته مسؤولاً عن التدريب. قال إن الأمر لا يدعو للتفاؤل. لقد خاب أمله ـ إذ لم يكن الأولاد يبدون حماساً، ولا يبدون اهتماماً بالتدريب العسكري.

قال: «يا سيد ميلر، لم أقابل في حياتي كلها فتياناً كهؤلاء. لايوجد لديهم إحساس بالكرامة».

انفجرت ضاحكا. «لا توجد كرامة، يا إلهي».

قلت: «شيريدان، ألم تتعلم بعد أنك تتعامل مع حثالة المجتمع؟ كما أن الأولاد لم يولدوا ولديهم إحساس بالكرامة، خاصة أولاد المدينة. إن هؤلاء الأولاد هم أفراد عصابة. هل سبق لك أن ذهبت إلى مكتب رئيس البلدية؟ هل رأيت الحشد الواقف في الخارج هناك؟ إنهم سعاة بالغون. إذا وضعتهم وراء القضبان فلن يكون بوسعك أن تميّز بينهم وبين المجرمين الحقيقيين. إذ لا يوجد في المدينة اللعينة كلها سوى محتالين وأفراد عصابات. هذه هي المدينة ـ مكان تترعرع فيه الجريمة».

رمقني شيريدان بنظرة مضطربة.

قال بشيء من الخجل: «ولكنك لست كذلك، يا سيد ميلر».

ضحكت ثانية. «أعرف ياشيريدان. إني استثناء. أقتل الوقت هنا. ففي أحد الأيام سأذهب إلى آريزونا، أو إلى أي مكان هادئ وفارغ آخر. ألم أخبرك أني ذهبت منذ سنوات عديدة إلى آريزونا؟ كم كنت أتمنى لو أني بقيت هناك... قل لي، ماذا كنت تفعل هناك... هل كنت تعمل راعياً للغنم؟»

جاء دور شيريدان ليبتسم، وقال: «لا يا سيد ميلر، قلت لك، ألا تذكر، كنت حلاقاً هناك».

«حلاق!».

قال شيريدان: «نعم، وحلاق جيد أيضاً».

«أرجو ألاّ تكون قد أمضيت حياتك كلها في دكان الحلاقة؟».

فأجاب بسرعة، «أوه لا، لقد عملت قليلاً من كل شيء على

مـاأظن. لقد بدأت أعمل وأكسب من عرق جبيني منذ أن كنت في السابعة من عمري».

«ومـاذا أتى بك إلى نيويورك؟».

«أردت أن أرى كيف تبدو المدن الكبيرة. لقد ذهبت إلى دينفير وإلى لوس أنجلوس، وإلى شيكاغو أيضاً. كان الجميع يقولون لي إنه يجب أن أرى نيويورك، وهذا ما قررت أن أفعله. أقول لك يا سيد ميلر، إن نيويورك مكان جميل ـ لكني لا أحب الناس فيها... لا أفهم أساليبهم، على ما أظن».

«تعني الطريقة التي يدفعونك فيها؟».

«نعم، وطريقتهم في الكذب والغش. حتى النساء مختلفات هنا. لا يبدو أني سأجد الفتاة التي يمكن أن أحبها».

«أنت في غاية الطيبة ياشيريدان. إنك لا تعرف كيف تعاملهن».

أطرق برأسه، وتصرف بخجل كإله الغابات: «أعرف يا سيد ميلر...».

بدأ يتلعثم قائلاً: «أظن أن العيب يكمن فيّ. إنهم يضحكون من وراء ظهري ـ الجميع حتى الصغار. ربما كانت طريقتي في الكلام».

قلت: «لا يمكنك أن تكون لطيفاً جداً مع الصغار ياشيريدان، لقد حذرتك ـ كن قاسياً معهم! اصفعهم بين الحين والآخر. اشتمهم. لاتتركهم يظنون أنك ضعيف، إذا بقيت هكذا معهم فسيدوسون عليك بأقدامهم».

نظر إلي بهدوء ومد يده. «انظر إلى هذا؟ هنا عضني أحد الصبية منذ أيام. هل يمكن أن تتخيل ذلك؟».

«ومـاذا فعلت به؟».

أطرق شيريدان وراح ينظر إلي قدميه ثانية وقال: «أرسلته إلى البيت».

«هذا كل ما في الأمر؟ أرسلته إلى البيت؟ ألم تجلده؟».

لاذ بالصمت. ثم تكلم بعد لحظات، هادئاً وبكرامة متواضعة.

«أنا لا أؤمن بالعقاب، يا سيد ميلر. إذا ضربني رجل فلن أرد عليه. أحاول أن أتحدث إليه، لا أعرف سبب ذلك. لقد ضُربت كثيراً عندما كنت طفلاً. لم يكن ذلك سهلاً علي...». توقف، وحوّل ثقل جسمه إلى القدم الأخرى.

ثم تابع قوله بعد أن استجمع شجاعته: «إنك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أخبره بهذا، يا سيد ميلر، أعرف أنه يمكنني أن أثق بك...».

توقف ثانية. انتظرت باهتمام، متسائلاً ما الأشياء التي يريد أن يفرغها من صدره.

ثم تابع: «عندما جئت إلى شركة التلغراف، لم يكن يوجد في جيبي دولار واحد. أنت تذكر ذلك يا سيد ميلر... لقد ساعدتني في الخروج من هذه الضائقة. وإني أقدر لك كل شيء فعلته من أجلي».

توقف.

«قلت منذ لحظات إني جئت إلى نيويورك لأرى المدينة الكبيرة. لم تكن هذه هي الحقيقة كلها. لقد هربت من شيء ما يا سيد ميلر، لقد كنت عاشقاً هناك. كانت هناك امرأة تعني لي كل شيء. كانت تفهمني، وكنت أفهمها. لكنها كانت متزوجة من أخي. لم أكن أريد أن أسرقها من أخي، لكني لم أكن أستطيع أن أعيش بدونها...».

«هل كان أخوك يعرف أنك تحبها؟».

قال شيريدان: «ليس في بادئ الأمر، لكن بعد فترة بدأ يلاحظ ذلك. كنا نعيش معاً. كان يمتلك دكاناً للحلاقة وكنت أساعده. وكان لدينا صالون حلاقة من الطراز الأول».

توقفٌ صعب آخر.

«بدأت المشكلة في أحد الأيام، وكان يوم أحد، عندما خرجنا

في نزهة. كان أحدنا يحب الآخر، لكننا لم نفعل شيئاً. لم أكن أريد أن أجرح أخي، كما قلت لك. حدث ذات مرة أننا كنا ننام نحن الثلاثة في الخارج وكانت هي مستلقية بيننا. استيقظت فجأة وأحسست بيدها عليّ. كانت مستيقظة، تحدق فيّ بعينيها الواسعتين. انحنت وقبلتني في فمي، وكان أخي نائماً بجانبنا، وقد امتطيتها».

طلبت منه أن يحتسي كأساً آخر.

قال شيريدان: «نعم أظن أنني سأحتسي كأساً آخر، شكراً».

وتابع بطريقته المترددة البطيئة، وكان في غاية الحساسية، ومن الواضح أنه كان منزعجاً من الداخل. أحببت الطريقة التي كان يتحدث فيها عن أخيه. كما لو أنه يتحدث عن نفسه.

«حسناً، باختصار يا سيد ميلر، في أحد الأيام بدأت الغيرة تنهشه - لحقني بموسى الحلاقة. أترى هذه الندبة؟» وأدار رأسه قليلاً. «أصابني هنا، حاولت الإفلات منه. ولو لم أخفض رأسي لقشط طرف وجهي».

رشف شيريدان شرابه ببطء، وهو ينظر بإمعان في المرآة المغبشة أمامه.

قال: «لقد هدّأت من روعه أخيراً، خاف بالطبع عندما شاهد الدم يسيل من رقبتي وأذني شبه مدلاة. وبعد ذلك يا سيد ميلر، حدث شيء فظيع. بدأ يبكي كطفل. قال إنه كان سيئاً، وأنا أعرف أنه لم يكن كذلك. قال إنه كان يجب أن لا يتزوج *إلا* - كان ذلك اسمها. قال إنه سيطلقها، ويذهب إلى مكان آخر، ويبدأ حياته من جديد - وبإمكاني أن أتزوجها. ورجاني أن أقبل ذلك. حتى أنه حاول أن يقرضني بعض المال. أراد أن يذهب على الفور... قال إنه لم يعد يحتمل الأمر».

«بالطبع لم أقبل ذلك. رجوته ألا يقول شيئاً لها. قلت سأذهب في رحلة لبعض الوقت حتى تهدأ الأمور وننسى ذلك. لم ينصت

إليّ... لكنه أخيراً، وبعد أن أكدت له أن هذا هو الشيء الوحيد المنطقي، وافق على أن يتركني أذهب.

«وهذا ما جعلك تأتي إلى نيويورك؟».

«نعم، لكن لم يكن ذلك كل شيء. حاولت أن أفعل الشيء الصحيح. كنت ستفعل الشيء نفسه، لو كان أخوك، أليس كذلك؟ عملت كل ما يمكنني أن أفعله...».

قلت: «حسناً، وماذا يقلقك الآن؟».

راح يحدق في المرآة.

ثم تابع بعد فترة طويلة من التوقف: «ثم هربت *إلا* منه. في بادئ الأمر لم تكن تعرف مكاني. وكنت أرسل إليهما ببطاقة بريدية بين الحين والآخر، من هذا المكان أو ذاك، لكني لم أعطهما عنواني أبداً. ومنذ أيام وصلتني رسالة من أخي، يقول فيها إنها كتبت له ـ من تكساس. ترجوه أن يعطيها عنواني. قال إنها إذا لم تسمع مني خبراً قريباً فستنتحر».

«وهل راسلتها؟».

قال: «لا، لم أكتب لها حتى الآن. لا أعرف تماماً ماذا سأفعل».

«لكنك تحبها بحق المسيح، أليس كذلك؟ وهي تحبك. وأخوك ـ لن يعارض ذلك. ماذا تنتظر بحق الشيطان؟».

«لا أريد أن أسرق زوجة أخي. زد على ذلك، فأنا أعرف أنها تحبه. إنها تحبّ كلينا ـ هذا كل ما في الأمر».

جاء دوري لأبدي دهشتي ثانية. أطلقت صفرة منخفضة وقلت: «هكذا إذن، هذا أمر مختلف».

«نعم»، قال شيريدان بسرعة «إنها تحبنا نحن الاثنين بالقدر نفسه. لم تهرب منه لأنها تكرهه أو لأنها كانت تريدني أنا. فهي تريدني، نعم. لكنها هربت لتجعله يفعل شيئاً ما، يدفعه للبحث عني وإعادتي».

سألته، وقد انتابني شيء من الشك بأن شيريدان كان يتخيل أشياء: «وهل يعرف هو ذلك؟».

«نعم، إنه يعرف وهو مستعد لأن يعيش بهذه الطريقة، إذا كان ذلك ما تقصد. أظن أنه سيصبح أفضل حالاً، أيضاً، إذا رتبت الأمور بهذه الطريقة».

قلت: «حسنا؟ وماذا الآن؟ ما هي خططك؟».

«لا أعرف. لا أستطيع أن أفكر. ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟ لقد أخبرتك كل شيء يا سيد ميلر».

ثم قال وكأنه يحدّث نفسه: «لا يمكن للإنسان أن يصمد إلى الأبد. أعرف أنه من الخطأ أن أعيش هكذا... لكني إذا لم أسرع في عمل شيء ربما قتلت إلا نفسها. وأنا لا أريد ذلك. فأنا مستعد لأن أفعل أي شيء لأحول دون ذلك».

«أنظر يا شيريدان... كان أخوك يغار في البداية، إلا أنه تغلب على ذلك الآن كما أظن. إنه يريدها أن تعود بقدر ما تريد أنت. الآن... هل فكرت إن كنت ستشعر بالغيرة من أخيك ـ في النهاية؟ ليس من السهل أن تشارك المرأة التي تحب شخصاً آخر، حتى أخاك. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟».

لم يبد شيريدان أي تردد في الإجابة.

«لقد فكرت بكل ذلك يا سيد ميلر. أعرف أني لن أكون ذلك الشخص الغيور. كما أنني لست قلقاً من ناحية أخي أيضاً. إذ يفهم أحدنا الآخر. المشكلة في إلا. فأنا أتساءل أحياناً إن كانت تعرف حقاً ماذا تريد. لقد كبرنا نحن الثلاثة معاً. ولهذا كنا قادرين على العيش معاً بهدوء وسلام... إلى أن... حسناً، كان ذلك أمراً طبيعياً، أليس كذلك؟ لكني إذا عدت الآن، وعشنا نحن الثلاثة، فلعلها تهتم بنا على نحو مختلف. لقد أدى هذا الأمر إلى تدمير الأسرة السعيدة.

وقريباً سيبدأ الناس يلاحظون أشياء. إنه عالم صغير هناك، وأهل منطقتنا لا يفعلون أموراً كهذه. لا أعرف ماذا سيحدث بعد فترة...».

توقف ثانية وراح يفرك أصابعه.

«ثمة شيء آخر أفكر به يا سيد ميلر... لنفترض أنها أنجبت طفلاً. فقد لا نعرف من هو الأب. أوه، لقد قلبت الأمر على وجوهه. إن القرار ليس سهلاً».

وافقته: «لا، إن الأمر ليس سهلاً. وليس لدي جواب الآن ياشيريدان. يجب أن أفكر في الموضوع».

«شكرا يا سيد ميلر. أعرف أنك ستساعدني، إن استطعت ذلك. أظن أنه يجب أن أذهب الآن. سبيفاك سيبحث عني. إلى اللقاء يا سيد ميلر»، وذهب.

حين عدت إلى المكتب أُبلغت أن كلانسي قد اتصل، وسأل عن استمارة أحد السعاة الذين كنت قد وظفتهم مؤخراً - إنها امرأة.

استفسرت «ماذا هنالك؟ ماذا فعلت؟».

لم يتمكن أحد من إعطاء أي معلومات دقيقة.

«حسناً، أين كانت تعمل؟».

تبين لي أننا كنا قد أرسلناها إلى أحد مباني مكاتبنا في وسط المدينة. كان اسمها نينا آندروز. وقد سجل هيمي كل التفاصيل. كما اتصل مدير المكتب حيث تعمل الفتاة، لكنه لم يتمكن من معرفة شيء. وكان لدى مديرة المكتب، وهي شابة، انطباع بأن الفتاة لم تكن سيئة.

قررت أنه من الأفضل أن أتصل بكلانسي وأنهي المسألة معه. كان صوته غليظاً وعصبياً. لا بد أن السيد توبليجير قد قلّبه على النار، والآن جاء دوري.

سألته ببراءة: «لكن ماذا فعلت؟».

تردد صوت كلانسي غاضباً: «ماذا فعلت؟ يا سيد ميلر، ألم أحذرك مراراً من أننا لا نريد إلا فتيات مهذبات في فريق السعاة؟»

قلت وأنا ألعنه في سري: «نعم يا سيدي».

أضاف وقد اتخذ صوته نبرة جدية مدمرة: «يا سيد ميلر، المرأة التي تطلق على نفسها اسم نينا آندروز ما هي إلا مومس. لقد أخبرنا بذلك أحد زبائننا المهمين. لقد أخبر السيد تويليجير أنها حاولت أن تغويه، والسيد تويليجير سيفتح تحقيقاً في ذلك. وهو يشك بوجود فتيات أخريات غير مرغوب فيهن بين موظفينا. ولست بحاجة لأن أخبرك يا سيد ميلر أن هذه المسألة في غاية الخطورة. مسألة في غاية الأهمية. وأنا على ثقة من أنك قادر على معالجة هذا الأمر. ستقدم لي تقريراً بعد يوم أو يومين ـ هل هذا واضح؟» وأقفل سماعة الهاتف.

جلست ورحت أحاول أن أتذكر تلك الفتاة الشابة.

سألت: «أين هي الآن؟».

قال هيمي: «أرسلوها إلى البيت».

قلت له: «ابعث إليها ببرقية، واطلب منها أن تتلفن لي. أريد أن أتحدث إليها».

انتظرت حتى الساعة السابعة على أمل أن تخابرني. دخل أورورك فخطرت لي فكرة. ربما أسأل أورورك.

رن جرس الهاتف. كانت نينا آندروز. كان صوتها لطيفاً وفي غاية النعومة، وقد أثار ذلك تعاطفي معها على الفور.

قالت: «أنا آسفة لم أتمكن من مخابرتك قبل الآن، كنت خارج البيت طوال فترة بعد الظهر».

قلت: «الآنسة آندروز أرجو أن تسدي لي معروفاً. أود أن أزورك في بيتك لبضع دقائق لندردش قليلاً».

قالت بصوت يشوبه شيء من البهجة: «أوه، لا أريد أن أعود إلى العمل ـ لقد وجدت عملاً آخر ـ أفضل بكثير. إنه لطف منك أن...».

ألححت: «آنسة آندروز ومع ذلك فأنا أريد أن أراك لبضع دقائق فقط. هل عندك مانع؟».

«لا، لا، أبداً. تفضل بالطبع. لقد أردت فقط أن أجنبك عناء...»

«حسناً شكراً لك... سأكون هناك بعد بضع دقائق».

توجهت إلى أورورك وأوضحت له الأمر ببضع كلمات مختصرة وقلت له: «لعلك تريد أن تأتي معي، فأنا لا أظن أن هذه الفتاة عاهرة. لقد بدأت أتذكرها الآن. أظن أنني أعرف...».

قفزنا في سيارة أجرة واتجهنا شمال المدينة إلى شارع اثنين وسبعين حيث كانت تقيم. وكانت تسكن في الطابق الرابع في إحدى البنايات.

دهشت الفتاة عندما رأت أورورك معي، لكن لم يبد عليها الخوف ـ وقلت في نفسي إن هذه نقطة في صالحها.

«لم أكن أعرف أنك ستحضر معك صديقاً»، قالت وهي تنظر إلي بعينين زرقاوين صافيتين». أرجو أن تعذراني لأن البيت غير مرّتب».

«لا تهتمي بذلك يا آنسة آندروز». كان أورورك هو الذي تكلم «اسمك نينا، أليس كذلك؟».

قالت: «نعم، لماذا؟».

قال: «إنه اسم جميل، لم يعد المرء يسمع بهذا الاسم كثيراً. إنك لا تنحدرين من أصل إسباني بأي حال؟».

قالت بذكاء وبصوت تشوبه نغمة جذابة: «أوه لا، ليس من أصل إسباني. أمي دانمركية، وأبي إنكليزي. لماذا، هل أبدو إسبانية؟».

ابتسم أورورك «لكي أكون صادقاً يا آنسة آندروز... الآنسة

نينا... هل يمكنني أن أخاطبك هكذا؟... لا، لا تبدين إسبانية أبداً. لكن نينا اسم إسباني، أليس كذلك؟».

«ألن تجلسا؟» قالت، وهي تسوّي الوسادات على الأريكة. وبعد ذلك، وبنبرة طبيعية من صوتها قالت: «أظن أنكما سمعتما بأني طردت من العمل؟ بكل بساطة! بدون أي كلمة تبرير. لكنهم دفعوا لي أجرة أسبوعين ـ وقد وجدت عملاً أفضل. لذا فإن الأمر ليس فظيعاً إلى هذه الدرجة، أليس كذلك؟».

سررت الآن لأني أحضرت أورورك معي. فلو جئت وحدي لكنت غادرت دون كثير من الجلبة. لقد اقتنعت تماماً، عند هذه النقطة، بأن الفتاة بريئة.

الفتاة. كان مسجلاً في الاستمارة أن عمرها خمسة وعشرون عاماً، إلا أنه من الواضح أنها لم تكن تتجاوز التاسعة عشرة بيوم واحد. وكان يبدو أن الفتاة قد تربت في الريف، مخلوق صغير ساحر، حاضر البديهة.

من الواضح أن أورورك كان يقيّمها مثلي. وعندما رفع صوته كان لا بد أنه يحاول أن يكون لبقاً ولا يزعجها بما سيقوله.

قال بلهجة الأب: «آنسة نينا، طلب مني السيد ميلر أن آتي معه. أنا مفتش النوبة الليلية. وثمة سوء تفاهم مع أحد زبائننا، أحد الزبائن الذين يقوم مكتبكم بخدمتهم. لعلك تتذكرين الاسم ـ وكالة بروكس للتأمين. هل تذكرين هذا الاسم يا آنسة نينا؟ تذكري لأنه ربما استطعت أن تساعدينا».

ردت بحيوية: «طبعاً أعرف الاسم، الغرفة 715، السيد هاركورت. نعم، أعرفه جيداً. أعرف ابنه أيضاً».

شنّف أورورك أذنيه في الحال.

كرر قائلاً: «أتعرفين ابنه؟».

«أجل. كان أحدنا يحب الآخر. إننا من البلدة نفسها»، وذكرت

اسم بلدة صغيرة في شمال ولاية نيويورك «بالكاد يمكنكما أن تطلقا عليها اسم بلدة على ما أظن»، وانطلقت من شفتيها ضحكة خفيفة براقة.

«حسناً»، قال أورورك وهو يمط كلامه ليجعلها تتكلم.

قالت: «الآن فهمت لماذا طردوني من العمل، إنه يظن أني لا أليق بابنه، هذا السيد هاركورت. لكني لم أكن أظن أنه يكرهني إلى هذه الدرجة».

وفيما راحت تحكي لنا، أخذت أتذكر بوضوح أشد ظروف زيارتها الأولى إلى مكتب التوظيف. وبرز أمامي جلياً أمر واحد. فعندما كانت تملأ الاستمارة طلبت أن نرسلها إلى مكتب معين. ولم يكن ذلك طلباً غير عادي؛ إذ كان مقدمو الطلبات يفضلون مناطق معينة لسبب أو لآخر. ولكني أتذكر الآن ابتسامتها وهي تشكرني فيها لهذه الخدمة التي أسديتها لها.

قلت: «آنسة آندروز، ألم تطلبي مني أن أرسلك إلى مبنى هيكشير عندما قدمت الطلب للعمل؟».

فأجابت: «بالطبع، لقد أردت أن أكون قريبة من جون. كنت أعرف أن أباه يحاول إبعادنا عن بعضنا. ولهذا السبب تركت البيت».

ومضت تقول: «لقد حاول السيد هاركورت أن يسخر مني في البداية، أعني عندما بدأت أسلم البرقيات إلى مكتبه. لكني لم أبد اهتماماً بذلك، ولا حتى جون».

قال أورورك: «حسناً، إذن أنت لا تأبهين كثيراً بأنك فقدت عملك؟ إذا كنت تريدين العودة إلى العمل، فأظن أن السيد ميلر يمكن أن يتدبر ذلك من أجلك»، وألقى نظرة نحوي.

قالت لاهثة: «أوه، حقاً لا أريد أن أعود، لقد وجدت عملاً أفضل بكثير وهو في البناية نفسها!».

وانفجرنا نحن الثلاثة ضاحكين.

نهضنا أنا وأورورك لنذهب. وسألها أورورك: «إنك عازفة موسيقية، ألست كذلك؟».

تضرج وجهها وقالت: «لماذا... نعم... كيف عرفت؟ أنا عازفة كمان. وهذا أحد الأسباب الأخرى، بالطبع، الذي جعلني أقرر أن آتي إلى نيويورك. أتمنى أن أقدم حفلة هنا ذات يوم ـ ربما في دار البلدية. من المثير أن يكون المرء في مدينة كبيرة كهذه، أليس كذلك؟» وضحكت كتلميذة.

قال أورورك: «من الرائع أن يعيش المرء في مدينة مثل نيويورك»، واكتسى صوته فجأة نبرة جدية أكثر. وأضاف: «أتمنى لك كل النجاح الذي تتطلعين إليه...»، توقف قليلاً، ثم أخذ كلتا يديها بيديه، ووقف أمامها مباشرة وقال: «دعيني أقترح عليك شيئاً، هل يمكنني ذلك؟».

«طبعاً»، قالت الآنسة آندروز، وقد تضرّج وجهها قليلاً.

«حسناً إذن، عندما تقدمين حفلتك الموسيقية الأولى في دار البلدية، فأنا أقترح أن تستخدمي اسمك الحقيقي. إذ إن اسم مارجوري بلير جيد بنفس قدر نينا آندروز... ألا تظنين ذلك؟ حسناً»، ودون أن يتوقف ليلحظ تأثير ذلك عليها، مضى يقول وقد أمسك ذراعي وبدأنا نتجه نحو الباب «أظن أنه علينا أن نذهب الآن. حظاً طيباً يا آنسة بلير. إلى اللقاء».

عندما أصبحنا في الشارع قلت له: «اللعنة، ماهذا».

قال أورورك، وهو يدفعني إلى الأمام: «إنها فتاة صغيرة جميلة، أليس كذلك؟ لقد اتصل بي كلانسي بعد ظهر اليوم... آراني الاستمارة. لقد حصلت على كل المعلومات عنها. لا بأس بها».

قلت: «لكن الاسم؟ لماذا غيّرت اسمها؟».

قال أورورك: «أوه، هذا لاشيء، يجد الشبان متعة في تغيير

أسمائهم في بعض الأحيان... من حسن الحظ أنها لا تعرف ماذا قال السيد هاركورت عنها إلى السيد تويليجير، ايه؟ سيكون لدينا قضية لطيفة، إذا تسرب هذا الأمر خارجاً».

ثم أضاف قائلاً، وكأن ذلك ليس أمراً ذا أهمية، «بالمناسبة، عندما سأكتب تقريري إلى تويليجير، فسأقول إنها في الثانية والعشرين. إنك لن تمانع في ذلك، أليس كذلك؟ إنهم يشكوّن في إنها تحت السن القانونية. بالطبع لا يمكنك أن تدقق في عمر كل شخص. ومع ذلك يجب أن تبقى حذراً. فهمت طبعاً...».

قلت: «طبعاً، إنه لطف كبير منك أن تغطيني».

مشينا صامتين بضع لحظات، ورحنا نبحث عن مطعم.

«ألم يكن هاركورت يجازف مجازفة كبيرة عندما أخبر تويليجير بقصة كهذه؟».

لم يجب أورورك على الفور.

قلت: «هذا يثير حنقي، اللعنة عليه، كاد يجعلني أفقد وظيفتي أيضاً، هل تدرك ذلك؟».

قال أورورك بتثاقل: «حالة هاركورت معقدة أكثر من ذلك، إني أقول لك هذا بثقة تامة، فهمت. إننا لن نقول شيئاً للسيد هاركورت. سأعلم السيد تويليجير في تقريري أنه تمت معالجة المسألة على نحو مرضٍ. وسأوضح بأن السيد هاركورت كان مخطئاً بشأن شخصية الفتاة، وأنها وجدت على الفور وظيفة أخرى، وأوصي بطي المسألة... وأظن أن السيد هاركورت هو صديق مقرب لتويليجير. فكل شيء قالته الفتاة صحيح، هذا أمر مؤكد منه، وهي فتاة صغيرة جميلة، لقد أعجبتني. إلا أن هناك شيئاً واحداً لم تخبرنا إياه ـ وهو أن السيد هاركورت طردها لأنه يغار من ابنه... إنك تتساءل كيف عرفت هذا بسرعة؟ حسناً، لدينا طريقتنا في معرفة الأشياء. إني أعرف أشياء كثيرة عن هاركورت هذا، إذا كنت مهتماً بسماعها».

كنت على وشك أن أقول نعم عندما غيّر الموضوع فجأة.

«علمت أنك قابلت مؤخراً شخصاً اسمه موينهان».

شعرت كما لو أنه أحدث لي هزة عنيفة.

«نعم، موينهان... بالطبع. لماذا، هل أخبرك أخوك؟».

تابع أورورك بأسلوبه الهادئ الناعم: «أنت تعرف طبعاً، ماذا يعمل موينهان، أليس كذلك؟ أعني ما هي وظيفته؟».

غمغمت جواباً، متظاهراً بأني أعرف أكثر مما أعرف في الحقيقة، وانتظرت رده بنفاد صبر.

وتابع كلامه: «حسناً، من الغريب أن تجري الأمور بهذه الطريقة. كيف تتصل الأشياء ببعضها. إذاً لم تذهب الآنسة نينا آندروز فوراً إلى مكتب السعاة بحثاً عن عمل، عندما جاءت إلى نيويورك. فشأن جميع الفتيات الشابات، انجذبت نحو الأضواء المبهرة. إنها شابة، ذكية وتعرف كيف تعتني بنفسها. دعني أكلمك بصراحة، فأنا لا أظن أنها بريئة تماماً كما يبدو عليها، نظراً لمعرفتي بهاركورت. إلا أن هذا ليس من شأني... على أي حال، بالاختصار يا سيد ميلر، إن أول عمل قامت به كان جليسة للرجال في أحد المراقص. لعلك تعرف تلك...» وتطلع مباشرة أمامه عندما قال ذلك. «نعم، المكان نفسه الذي يراقبه موينهان. يديره شاب يوناني، وهو لطيف جداً. بالتأكيد هذا على المستوى الظاهري، ينبغي أن أقول. إلا أن هناك أشخاصاً آخرين يراقبون المكان عن كثب أكثر. وخاصة عندما تدخل فتاة صغيرة وجميلة مثل نينا آندروز - بهاتين الوجنتين الحمراوين وذلك الأسلوب الريفي الرزين».

كنت أتمنى أنا أسمع المزيد عن موينهان عندما غيّر الموضوع مرة أخرى.

«ثمة شيء غريب يتعلق بهاركورت. وهذا يريك كم يجب أن تكون حذراً عندما تبدأ في التدقيق في الأمور...».

«ماذا تعني؟» قلت وأنا أتساءل ماذا سيعقب ذلك.

قال أورورك وهو يدقق في كلماته: «مجرد ذلك، فلدى هاركورت سلسلة كاملة من المراقص هنا في نيويورك، وفي أماكن أخرى أيضاً. إن وكالة التأمين ليست إلا غطاء. ولهذا فهو يدرب ابنه. إنه لا يعبأ بلعبة التأمين. إن إحدى الأمور المولع بها هاركورت هي الفتيات الصغيرات ـ وكلما كن أصغر كان أفضل. بالطبع، أنا لا أعرف هذا، يا سيد ميلر، لكني لن أدهش إن كان قد حاول إغواء الآنسة آندروز أو مارجوري بلير، إذا استعملنا اسمها الصحيح. فإذا حدث شيء بينهما، فلن يكون بوسع الآنسة آندروز أن تخبر أحداً، أليس كذلك؟ فضلاً عن الشاب الذي تحبه. إنها في التاسعة عشرة من عمرها الآن، لكنها يمكن أن تبدو في السادسة عشرة. إنها فتاة ريفية، لا تنسَ ذلك. إذ إنهن يبدأن في وقت مبكر أحياناً ـ كما تعرف، دم حار أحمر».

توقف، كما لو أنه يتفحص المطعم الذي لم أكن أعرفه، وأخذ يقودني إليه بلطف وبطء. «إنه ليس بالمكان السيء. هل نجربه؟ آه، دقيقة فقط، قبل أن ندخل... بشأن هاركورت... الفتاة طبعاً لا تشك بأن له أي علاقة بالمراقص. كان ذهابها إلى ذلك المكان مجرد مصادفة. تعرف المكان الذي أعنيه؟ أمام...».

«نعم، أعرفه»، قلت له بشيء من الانزعاج لاتباعه هذه الأساليب الماكرة معي. وتابعت: «عندي صديقة تعمل هناك»، وقلت في نفسي وأنت تعرف جيداً من أعني.

كنت أتساءل ماذا كشف له موينهان. وتساءلت أيضاً، فجأة، إذا لم يكن موينهان يعرف أورورك منذ سنوات عديدة، فكم كانا يحبان أن يتصرفا بهذه الطريقة، ويطلقان العبارات التي تنم عن الاستغراب،

عن الجهل، عن الدهشة، وإلى آخر ما هنالك في القائمة. أظن أنهما لا يستطيعان أن يتصرفا إلا بهذه الطريقة. إنهما مثل أمين صندوق يقول في نومه «شكراً».

وفيما كنت انتظره ليتابع كلامه اعتراني شك آخر. فلعل ورقتي الخمسين دولاراً التي أعطاني إياهما موينهان جاءتا من جيب أورورك. أكاد أكون متأكداً من ذلك. ورحت أردد في نفسي، هذا إن لم تأتِ النقود من جيب هاركورت. كانت لفافة كبيرة من الأوراق المالية التي أخذ يلوح بها في تلك الليلة. فالمخبرون لا يمشون عادة وهم يحملون مثل هذه المبالغ الضخمة في جيوبهم. على أي حال، إذا كان موينهان قد هدد هاركورت (أو ربما اليوناني) فلن يعرف أورورك بذلك.

بل إن ملاحظة صاعقة ذكرها أورورك أخرجتني بقوة من هذه التخمينات. فقد سمعته يقول ونحن في المدخل، على وشك دخول المطعم: «في ذلك المرقص بالذات يكاد يكون من المستحيل أن تحصل فتاة على عمل دون أن تنام مع هاركورت أولاً. هذا على الأقل ما قاله لي موينهان».

«وطبعاً هذا الأمر ليس بمستغرب»، تابع كلامه وتوقف لحظة كي أستوعب الملاحظة.

جلسنا إلى طاولة تقع في أقصى ركن من المطعم، حيث يمكننا أن نتحدث دون أن نخشى أن يسمعنا أحد. ولاحظت أن أورورك يتطلع حوله بنظراته الثاقبة المألوفة الشاملة، والمخفية تماماً. وقام بذلك فطرياً، تماماً كما يفعل مهندس ديكور داخلي عندما يلقي نظرة على أثاث غرفة، متفحصاً حتى ورق الجدران.

«إلا أن حصول الآنسة مارجوري بلير على العمل باسم آخر جعله يرتكب حماقة».

قلت: «يا إلهي، نعم، لم يخطر ذلك ببالي».

«كان من حسن الحظ أنه احتاط لذلك وطلب صورتها أولاً...».

لم أتمالك نفسي عن عدم مقاطعته: «يا إلهي، يجب أن أقول إنك عرفت أموراً كثيرة في وقت قصير».

فقال أوروورك بتواضع: «مجرد مصادفة، فقد التقيت بموينهان عندما كنت خارجاً من مكتب كلانسي».

تابعت قائلاً: «ولكن كيف تمكنت من دراسة المسألة بهذا الشكل وبهذه السرعة؟ إذ لم تكن تعرف عندما قابلت موينهان أن الفتاة كانت تعمل في المرقص. ولا أرى بحق الشيطان كيف حصلت على تلك المعلومات».

فقال أوروورك: «لم أحصل عليها، بل انتزعتها من هاركورت. ففيما كنت أتحدث إلى موينهان... كان يتحدث عن مهمته ـ وعنك بالمصادفة... نعم، قال إنه يحبك كثيراً... وبالمناسبة، فهو يريد أن يراك ثانية... ينبغي أن تتصل به... حسناً، على أي حال، كما كنت أقول، شعرت برغبة في أن أذهب وأتلفن لهاركورت. سألته بضع أسئلة روتينية ـ منها أين كانت الفتاة تعمل من قبل، إن كان يعرف. قال إنها كانت تعمل في مرقص. قالها كما لو كان يقول إنها قطعة حلوى صغيرة. عندما عدت إلى الطاولة أخذت مصنفاً وسألت موينهان إن كان يعرف فتاة اسمها آندروز ـ في المرقص. لم أكن أعرف حينئذ أي مرقص هو. وبعدها، بعد أن شرحت له الأمر فوجئت أنه بدأ يحدثني عن هاركورت. هذه هي القصة، إنها بسيطة، أليس كذلك؟ أقول لك إنه يمكن ربط كل شيء في هذه اللعبة. تؤدي دورك في اللعبة، ترمي كرتك، فترتد إليك أحياناً وتقع في حضنك تماماً».

«اللعنة علي»، هذا كل ما أمكنني قوله.

كان أوروورك يتفحص قائمة الطعام. رحت أنظر إليه دون اهتمام، عاجزاً عن معرفة ماذا سآكل. وكل ما كنت أفكر به هو

هاركورت. هكذا إذن فقد ضاجعهن جميعهن! يا إلهي، كم كنت غاضباً. أردت أكثر من أي وقت مضى أن أفعل شيئاً حيال ذلك. ربما كان موينهان هو الرجل؛ لعله كان ينصب فخاخه.

طلبت شيئاً لا على التعيين وجلست وأنا أنظر متململاً في وجوه رواد المطعم.

سأل أورورك: «ماذا في الأمر؟ تبدو مكتئباً».

أجبت: «لاشيء».

خلال الوجبة لم أكن أركّز على ما كان يقوله أورورك. كنت أفكّر بمونا. كنت أتساءل ماذا ستقول إن ذكرت أمامها اسم هاركورت. ابن الزانية! ينكح كل شيء تقع عينه عليه، ثم، يا إلهي، يريد أن يطردني من العمل! ياله من صفيق! حسناً، هذا دليل آخر يمكنني أن أعمل على أساسه. الأمور تجري بسرعة...

بعد ساعات عديدة تمكنت من الانفصال عن أورورك. فعندما كان يريد أن يبقيك بصحبته يمكنه أن يروي لك قصة بعد أخرى، يخرج من قصة ويدخل في قصة بمهارة وإبداع فائقين. وكنت دائماً أشعر بالإرهاق بعد أن أمضي المساء معه. كان مجرد الاستماع إليه يرهقني، لأنه مع كل جملة تخرج من فمه، كنت أتحين الفرصة لأنقض كطير جارح. كما كانت هناك دائماً فترات توقف طويلة أثناء روايته للقصص، استطرادات، تكرارات مختصرة، وكل أساليب الألعاب البهلوانية. وفي بعض الأحيان كان يجعلني أنتظر نصف ساعة أو أكثر في مكتب التلغراف وهو يبحث في الملفات بحماس، بذلك الصبر الذي يثيرني عن بعض التفاصيل التافهة. وقبل أن يستأنف قصته، وفيما كنا ننتقل من مكتب إلى آخر، كان دائماً يتحدث عن الكاتب أو المدير أو عامل التلغراف في المكتب الذي كنا قد غادرناه للتو. كانت ذاكرته هائلة. ففي المائة مكتب أو يزيد المتناثرة في أرجاء المدينة كان يعرف جميع الكتبة بالاسم، وسجلات تنقلاتهم من عمل إلى آخر، من مكتب إلى آخر، وآلاف

التفاصيل الحميمية عن حياة عائلاتهم. ولم يكن يعرف الموظفين الحاليين فقط ـ بل كان يعرف أيضاً الأشباح الذين كانوا يشغلون أماكنهم قبلهم. كما كان يعرف العديد من السعاة، سواء في النوبات الليلية أو النهارية، وكان يكرس نفسه خاصة لزملائه القدامى، الذين خدم بعضهم الشركة لسنوات كما فعل أوروورك نفسه.

لقد تعلمت الكثير من جولات التفتيش الليلية هذه، أشياء كنت أشك في أن كلانسي نفسه يعرفها. فقد اكتشفت خلال هذه الجولات مع أوروورك أن عدداً لا يستهان به من الكتبة كان متهماً بالاختلاس ذات يوم أثناء عملهم في شركة التلغراف المهلهلة. وكان لدى أوروورك أسلوب خاص في معالجة هذه الحالات، وهو اللجوء إلى الحكمة الجيدة التي منحته إياها خبرته الطويلة، وكان يتمادى غالباً في التعامل مع هؤلاء الأفراد المنكودي الحظ. وكنت متأكداً من أن نصف الحالات، لم يكن يعرفها إلا أوروورك وحده. فعندما تكون لديه ثقة بالشخص، كان يتركه يعيد ما اختلسه شيئاً فشيئاً، ويوضح له، بالطبع، أن المسألة ستبقى سراً بينهما. وفي بعض الأحيان، كان هناك هدف مزدوج من هذا العمل الطيب. فبمعالجة الأمر بهذه الطريقة غير العادية، لا تكون الشركة واثقة من استرجاع كل ما قد سرق منها فحسب، بل، وبسبب شعور الضحية بالامتنان، يمكنه الاعتماد عليه بالتجسس على زملائه. ومن الممكن جعله يئن ويزعق عندما تحين الفرصة. وفي البداية كنت أتساءل لماذا كان أوروورك يبدي اهتماماً بمثل هؤلاء الحثالة من الأشخاص، ثم اكتشفت أنهم القبيلة الضائعة التي حولها أوروورك إلى أدوات مفيدة. وفي الواقع، فقد علمت شيئاً عن أوروورك فسر لي كل شيء، من ناحية سلوكه الغامض: وهو أن كل شخص كان يوليه أدنى اهتمام أو يمنحه أقل وقت، كان يتمتع بشيء من الأهمية في مخطط حياة شركة التلغراف.

ومع أنه كان يوهم الآخرين بأنه يدير حلقات من حوله، ورغم أنه كان يتصرف غالباً كغبي وجاهل، ورغم أنه كان يبدو أنه لا

يعمل شيئاً سوى إضاعة الوقت، فقد كان في الواقع لكل شيء يقوله أو يفعله صلة حيوية بالعمل. كما لم تكن تشغله قضية واحدة فقط، إذ كان لديه مائة وتر في قيثارته. وبالنسبة له لم تكن توجد مسألة ميئوس منها فيسقطها من حسابه. إذ يمكن أن تحذفها الشركة من سجلاتها ـ ولكن ليس من ذهن أورورك. فقد كان يتحلى بصبر فنان بلا حدود، وهو يؤمن أن الزمن في صالحه. ولم يكن يبدو أنه توجد مرحلة من مراحل الحياة لا يعرفها. وما دمنا في صدد الحديث عن الفنان، يجب أن أقرّ بأنه لم يكن على اطلاع جيد في هذا المجال. إذ كان يقف وينظر إلى عمل بومبيه عبر زجاج أحد المخازن بعينين نديتين. وكانت معرفته بالأدب تكاد تكون صفراً. لكنه إذا صادف وحكيت له قصة راسكولنيكوف، كما رواها دوستويفسكي، فيمكنني أن أكون واثقاً من أني سأسمع منه أكثر الملاحظات دقة. والشيء الذي كان يدفعني حقاً لأعزز صداقتي به هو الصلة التي كانت تربطه، إنسانياً وروحياً، بكتاب من أمثال دوستويفسكي. إن معرفته بالعالم السفلي جعلته دمثاً ووسعت مداركه. كان مخبراً بسبب اهتمامه غير العادي بالناس وتعاطفه معهم. إذ لم يكن يزعج أو يؤذي أحداً دون مبرر. وكان يمنح الشخص فرصاً كثيرة لإثبات براءته. ولم يكن يكنّ مشاعر حقد لأي شخص، مهما فعل ذلك الشخص. وكان يسعى لأن يفهمهم، أن يسبر دوافعهم، حتى لو كانوا من أخس الناس. والأهم من كل ذلك، كان شخصاً يمكن الاعتماد عليه تماماً. فإذا أعطى كلمته كان يتمسك بها مهما كلف الأمر. لا يمكن رشوته. ولا يمكنني أن أتخيل أنه يمكن لأي إغراء أن يحيد به عن أداء واجبه. وثمة نقطة أخرى لصالحه، برأيي، هي أنه لم يكن طموحاً. إذ لم تكن لديه رغبة في أن يصبح أي شيء آخر سوى نفسه. كان يكرس نفسه جسداً وروحاً لمهمته، رغم علمه بأنها مهمة لا حمد فيها ولا شكوراً، ويعرف أن منظمة قاسية لا ترحم تستخدمه وتستغله. لكنه كان يقول إنه مهما كان موقف الشركة منه فهذا ليس

من شأنه. كما لم يكن يعنيه، عندما يحال إلى التقاعد، أن يهدموا كل ما سعى لبنائه. وبما أنه لا توجد لديه أوهام، فقد كان يبذل كل مابوسعه لتنفيذ أي طلب يطلب إليه.

كان أورورك شخصاً فريداً من نوعه. فهو يزعجني أحياناً إلى حد كبير. ولا أظن أني عرفت طوال حياتي شخصاً، من قبل أو الآن، جعلني أشعر بأني في غاية الشفافية كما فعل هو. كما لا أذكر شخصاً كان يمتنع عن تقديم نصيحة أو انتقاد باعتدال. كان الشخص الوحيد الذي عرفته طوال حياتي الذي جعلني أدرك ماذا يعني أن تكون متسامحاً، ماذا يعني أن تحترم حرية الشخص الآخر. ومن الغرابة أن أفكر الآن، كيف كان يمثل القانون. ليس روح القانون التافه الذي يستخدمه الإنسان لمآربه الخاصة، بل القانون الكوني الغامض الذي لا يتوقف عن العمل، الراسخ والعادل، الأكثر رحمة.

فيما كنت مستلقياً على السرير يقظاً تماماً بعد أمسية كهذه، رحت أتساءل ماذا كان سيفعل أورورك لو كان مكاني. وفيما كنت أحاول أن أضع نفسي في مكانه، تذكرت أني لم أكن أعرف شيئاً عن حياة أورورك الخاصة، لاشيء على الإطلاق. ليس لأنه كان مراوغاً ـ لا، لا يمكنني أن أقول ذلك. بل كان بالنسبة لي صفحة بيضاء. ولم يثر هذا الموضوع أثناء أحاديثنا أبداً.

لا أعرف لماذا رحت أفكر بهذه الطريقة، إلا أنه كان لدي شعور بأنه تعرض منذ زمن بعيد إلى عملية خداع كبيرة، لعله كان حباً فاشلاً.

مهما كان الأمر، فإن ذلك لم يؤثر عليه ويفسده. لا بد أنه تعثر ثم وقف على قدميه ثانية، لكن حياته تغيرت تماماً. وإذا جمعت كل التفاصيل الصغيرة، إذا وضعت الشخص الذي عرفته على جانب، والرجل الذي عرفت عنه ومضات بين الحين والآخر (عندما أكون في مزاج للتذكر) على الجانب الآخر، أقارن الواحد بالآخر، فإنه

يستحيل عليّ أن أنكر أنهما كانا كائنين مختلفين تماماً. إن كل تلك الصفات القاسية والرائعة في شخصية أورورك كانت كالأجهزة الواقية، التي لم يكن يرتديها من الخارج بل من الداخل. لم يكن لديه شيء يخشاه من العالم. فقد كان فيه ومنه كلية. كان لا حول له ولا قوة ولا يؤمن بقوانين القدر.

قلت لنفسي وأنا أغمض عيني إنه من الغرابة أن الشخص الذي أدين له بالشيء الكثير، يجب أن يبقى إلى الأبد كتاباً موصداً، ولم يكن بوسعي إلا أن أتعلم من سلوكه وقدوته.

انتابتني رعشات خفيفة ناعمة. لقد فهمت أورورك أكثر مما كنت أفهمه من قبل. فهمت كل شيء بوضوح أكبر. فهمت للمرة الأولى ماذا يعني أن تكون «لطيفاً مرهف الإحساس».

13

هناك أيام تكون فيها العودة إلى الحياة ممضة ومحزنة. إذ يتعين على المرء أن يترك مملكة النوم رغماً عنه. لا يحدث شيء سوى الإدراك بأن الواقع الأكثر عمقاً وحقيقية يعود إلى عالم العقل الباطن.

وهكذا فتحت عيني رغماً عني في صبيحة أحد الأيام، ورحت أسعى جاهداً لكي أعود إلى تلك الحالة من السعادة التي غلفني فيها الحلم. لكنني شعرت بكدر شديد عندما وجدت نفسي مستيقظاً والدموع توشك أن تطفر من عيني. أغمضت عيني ثانية محاولاً الغوص ثانية في العالم الذي نبذت منه بقوة. ولكن بدون جدوى. جربت كل وسيلة وطريقة سمعت بها، إلا إني لم أعد أتمكن من تطبيقها كما لا يمكن لأحد أن يوقف رصاصة منطلقة في الهواء ويعيدها إلى مخزن المسدس الفارغ.

لكن لم تتبق إلا هالة الحلم: التي رحت أجتر عليها بشهوانية. لقد تحقق هدف عميق، إلا أني قبل أن يتاح لي الوقت لقراءته، مُسح اللوح تماماً ودُفعت إلى الخارج دفعاً، إلى عالم لا يوجد فيه حل لكل شيء سوى الموت.

لم يكن هناك إلا قليل من الفتات الذي بقي في يدي، كالفتات الذي يجمعه الفقراء من موائد الأغنياء، وتمسكت به بجشع. إلا أن الفتات الذي سقط من مائدة النوم يشبه الوقائع النادرة في جريمة

يجب أن يبقى حلها لغزاً إلى الأبد. تلك الصور التي تنضح والتي ينسل المرء منها أثناء اليقظة عبر العتبة كصوفي لديه طريقة للدخول في تحولات مفجعة على الجانب الأخر من النفس. تذوب كالمرطبات في يوم خانق من أيام شهر آب. ومع ذلك، وفيما تندمج في الصهارة البدائية التي تشكل مادة الروح، فإن عقدة ضبابية من التذكر تبقى حية - إلى الأبد كما يبدو - على التخوم المخملية لاستمرارية محسوسة واضحة، حيث تحرك وتملك، ليس كيانها، بل الحقيقة. الحقيقة! التي تعانق، وتقيم أود الحياة وتعلي شأنها. في هذا الينبوع يتوق المرء للعودة ويصبح مغموراً إلى الأبد.

ماذا بقي إذن من ذلك العالم الملتهب الذي صحوت فيه ذات صباح تملؤني جروح خفيفة توقفت عن النزف أثناء الليل؟ وجه من أحببت وفقدت! أونا غيفورد. ليست أونا التي كنت أعرفها، بل أونا التي ضخمتها سنوات من الألم والفراق وحولتها إلى جمال مبهر. وقد أصبح وجهها زهرة ثقيلة علقت في الظلمة؛ بدا مسمراً بوهجه الساطع. كل تلك الذكريات التي حفظتها عنها والغيرة تتملكني والتي حشيت بخفة، مثل تبغ جيد تحت أصابع مدخن غليون، وأحرقت فجأة الجمال. وقد زاد وهج الرخام الذي أيقظ جمر احتراق الذاكرة من بياض بشرتها. استدار الرأس ببطء فوق جذع يكاد يتعذر تمييزه. وقد افترت الشفتان من العطش؛ كانتا تنبضان بالحياة. وبدا كرأس مفصول عن جسد لحالم يسعى بعينين مغلقتين إلى التقام شفتين نهمتين لفتاة جاءت من مكان بعيد. ومثل اختلاجات نباتات غريبة تتلوّى في الليل، التقت شفاهنا أخيراً بعد بحث لانهائي، التحمت ببعضها، وأغلقت الجرح الذي لم يتوقف عن النزف. كانت قبلة أغرقت ذكرى كل ألم، أوقفت النزف وجعلت الجرح يلتئم. استمرت إلى ما لا نهاية، فترة منسية، كما لو بين حلمين منسيين. ثم، كما لو أن طيّات الليل قد حالت بيننا برقة، انفصلت الشفاه عن بعضها وراح أحدنا يحدق في عيني الآخر، وبراقع الظلمة المتدفقة تتغلغل بنظرة واحدة منوّمة. وكما في

السابق، كانت الشفاه المبللة مطبقة ـ كتويجات منفوشة هشة، ألقت بها زوبعة شديدة.

فاصل من الميتات الصغيرة، كلها بدون ألم، كما لو أن الأحاسيس عبارة عن تشنجات كثيرة من الأعضاء مخفية ورحيمة.

هاهي الآن تقرأ بصوت عال مقاطع ـ مألوفة من كتاب لا بد أنني كنت قد قرأته. كانت تستلقي على بطنها، وكان مرفقاها مثنيين، ورأسها مدفون بين راحتيها. طرف وجهها باتجاهي واللحم الأبيض الشفاف مخملي ومعطّر. الشفتان أشبه بنبتة خبيزة مكدومة، تويجتان تنفتحان وتنغلقان. الكلمات رخيمة تصدر عن صندوق موسيقي.

وما إن أدرك أنها كلماتي، كلمات لم تدّون على الورق لكنها كانت محفورة في رأسي حتى ألاحظ أنها لم تكن تقرأ لي، بل إلى شاب مستلق بجانبها. مستلق على ظهره ويتطلع إلى وجهها باهتمام شخص وفيّ. لا يوجد أحد سواهما، وكانا غائبين تماماً عن العالم. ولا يفصلني عنهما الفضاء فقط بل هوّة العالم. ولم يعد ثمة احتمال للتواصل، فهما يعومان في الفضاء على ورقة من اللوتس. إننا منفصلان عن بعضنا. أحاول يائساً أن أرسل لها رسالة عبر الأثير، لأعلمها على الأقل بأن كلمات السحرة هذه هي من كتاب جنين حياتي. لكنها خارج الحدود. وتواصل القراءة ونشوتها تتصاعد. أشعر بأني ضائع ومنسي.

ثم، وبلمح البصر، أدارت وجهها نحوي استدارة كاملة، ولم ينم عن نظرتها أنها عرفتني. كانت العينان متجهتين نحو الداخل، كما لو كانت في حالة تأمل عميق. كمال الوجه يتلاشى، تبرز تعاريج الجمجمة. كانت ما تزال جميلة، لكن جمالها لم يعد إغواء النجمة واللحم. إنه الجمال الوهمي للرّوح المخنوقة التي تبرز من موشور الموت.

عرفت عندئذ أنني وجدت السعادة، وأن السعادة هي العالم، أو

حالة العالم، حيث يسود الخلق. عرفت شيئاً آخر، أنه إذا كان مجرد حلم فإنه سينتهي، وإذا لم يكن حلماً...

كانت عيناي مفتوحتين، وكنت في غرفة، الغرفة نفسها التي كنت قد نمت فيها الليلة السابقة. وسيرضى الآخرون بأن يدعونه حلماً. لكن ما هو الحلم؟ من جرّب ماذا؟ وأين ومتى؟

لقد خدرتني العظمة المتلاشية لهذه الرحلة الوهمية. لم يعد بوسعي أن أعود أو أغادر. تمددت على الفراش مغمضاً عيني قليلاً ورحت استعرض موكب الصور التي تتلاحق أثناء الوسن والتي كانت تتنقل كأشباح الحراس من محطة إلى أخرى على طول جبهات النوم الواهية. ذكريات صور اليقظة الأخرى تحتشد، وتخلف لطخاً عبر الممر الساطع مع مرور الأشباح الأصلية. كانت هناك أونا التي لوّحت لها بيدي مودعاً في أحد أيام الصيف، أونا التي أدرت لها ظهري، أونا التي كانت عيناها تلاحقاني وأنا أسير في الشارع، وعند الناصية عندما استدرت أحسست بهاتين العينين تخترقاني ـ وعرفت أني أنّى ذهبت أو مهما حاولت أن أنسى، فإن هاتين العينين المتوسلتين ستدفنان إلى الأبد بين نصلي كتفي. كانت هناك أونا أخرى التي أرتني غرفة نومها ـ بعد سنوات عندما التقينا مصادفة في الشارع أمام بيتها. أونا المتغيرة، لم تتفتح إلا في الحلم. أونا التي تخص رجلاً آخر، أونا المقيدة برباط الزوجية. هذا الحلم المتكرر، اللطيف، التافه، المريح. كان يرجع مستحوذاً عليّ بترتيب رياضي يكاد يكون دقيقاً. يوجهه قريني، جورج مارشال، أقف أمام بيتها وكمختلس أنتظرها حتى تخرج من بيتها مشمرة عن أكمامها لتأخذ نفحة من الهواء. لم تكن تدرك وجودنا أبداً، رغم أننا كنا هناك بضخامة الحياة لا نبعد عنها سوى أقدام قليلة. وهذا يعني أني كنت أحظى برؤيتها بتمهل، حتى أن أتناقش مع مرافقي ودليلي عنها. كانت دائماً تبدو الشيء نفسه ـ الوقار متجلياً فيها. عندها أكحّل عيني بها ثم انصرف بهدوء. يكون الظلام قد خيّم وأبذل جهداً

يائسا لأتذكر اسم الشارع الذي لم يكن بوسعي أن أجده دون مساعدة. لكن عند ناصية الشارع، تخيّم الظلمة بستارها الكثيف الأسود فيما أبحث عن اللوحة التي تحمل اسم الشارع. وأعرف أن جورج مارشال سيمسكني عندئذ من ذراعي ويقول، كما دائماً، «لا تقلق، أعرف أين هو... سآتي بك مرة أخرى في يوم ما»، وبعدها ينسل جورج مارشال، قريني وصديقي وخائني، فجأة ويتركني أتعثر في طريقي في بعض أحياء البلدة الوسخة المقرفة التي تفوح منها رائحة الجريمة والرذيلة.

وأتنقل من حانة إلى أخرى، وينظر إليّ الروّاد دائماً باستهزاء، يهينونني ويذلونني، وغالباً ما يوسعونني ضرباً ويركلونني مثل كيس من الشوفان. ومرة بعد أخرى أجد نفسي ملقى على الرصيف، الدم يسيل من فمي وأذنيّ، يداي مثخنتان بالجروح، وجسمي مليء بالكدمات والضربات. كان عليّ دائماً أن أدفع ثمناً باهظاً لرؤيتها وهي تتنشق نفحة من الهواء. لكن الأمر كان يستحق ذلك! وعندما كنت أرى جورج مارشال في أحلامي وهو يقترب، وعندما أسمع كلماته المطمئنة، يبدأ قلبي يدق بقوة وأنا أسرع الخطى لأصل أمام بيتها في الوقت المناسب. ومن الغريب أني لم أكن أجد طريقي وحدي. ومن الغريب أن يكون جورج مارشال هو الشخص الذي يقودني إليها، لأن جورج مارشال لم يكن يرى فيها أكثر من كونها كتلة ممتعة من اللحم. لكن جورج مارشال، الذي كان مقيداً بي بحبل خفي، كان الشاهد الصامت على مسرحية أنكرتها عيناه غير المصدقتين. وهكذا في الحلم، كان بوسع جورج مارشال أن ينظر ثانية بعينين مندهشتين؛ ويمكنه أيضاً أن يجد قناعة في اكتشاف مكان التقائنا مرة أخرى من حيث يفترق طريقانا.

وبغتة تذكرت شيئاً كان قد غاب عن ذاكرتي تماماً. فتحت عينيّ واسعاً كما لو كنت أحدق عبر امتداد الماضي لأرى زاوية فارغة من الرؤيا. أرى الحديقة الخلفية، كما لو كانت في الشتاء الطويل،

الأغصان الداكنة لأشجار الدردار المكسوة بالجليد، الأرض صعبة وقاحلة، والسماء داكنة. أنا السجين في بيت الحب في غير موضعه.

يستمرّ الأمر على هذا المنوال طوال الشتاء ـ حتى اليوم الذي أعود فيه إلى البيت وأجدها مستلقية على السرير وسط بركة من الدم. ويضع الطبيب الجسد في الخزانة ملفوفاً بمنشفة. إنها أشبه بقزم، الجلد أحمر غامق وله شعر وأظافر.

كارلوتا مستلقية على عرض السرير، قدماها مدليتان من حافة السرير. وستبقى مستلقية هكذا حتى يأتي الطبيب ويعيدها إلى الحياة. وستأتي صاحبة البيت وتغيّر الشراشف. وسيتم التخلص من الجسد بالطريقة المعتادة. ويطلب منا أن نخرج إلى مكان آخر، لتطهير الغرفة، وتقيد الجريمة ضد مجهول. ونجد مكاناً آخر فيه سرير، وموقد، وخزانة ذات أدراج. وسنعود إلى ديدننا في تناول الطعام والنوم والتربية والدفن.

يرفرف ذلك الشكل فوقي ذهاباً وإياباً ـ إنها أونا غيفورد. وبعد ذلك بأسابيع، بعد أن نكون أنا وكارلوتا قد انتقلنا إلى شقة أخرى، نلتقي في الشارع أمام بيتها. صعدت معها إلى الطابق العلوي ولعلي بقيت هناك نصف ساعة، ربما أكثر، لكن كل ما أمكنني تذكره من تلك الزيارة هو أنها قادتني إلى غرفة النوم وأرتني السرير، سريرهما الذي ولد عليه طفلهما.

ولم تمض على ذلك فترة طويلة، حتى تمكّنت من الهرب من قبضة كارلوتا الملتهمة. وحتى النهاية كانت علاقتي مستمرة مع مود. وبعد زواجنا بثلاثة أشهر حصل لقاء غير متوقع. كنت قد ذهبت إلى السينما وحدي في إحدى الأمسيات، وكنت قد اشتريت تذكرتي ودخلت المسرح. كان عليّ أن أنتظر بضع لحظات في الخلف حتى أجد مقعداً. في الضوء الخافت اقتربت مني مرشدة تحمل مصباحاً. كانت كارلوتا.

قالت: «هاري» بصوت ناحب مثل ظبية مجروحة. ظلت تنظر

إليّ بعينيها الواسعتين النديتين. وسرعان ما تلاشيت تحت هذا الاتهام الصامت الثابت. قالت أخيراً: «سأجد لك مقعداً»، وفيما كانت ترشدني إلى أحد المقاعد همست في أذني: «سأحاول أن أنضم إليك فيما بعد».

كانت عيناي ما زالتا مثبتتين على الشاشة، إلا أن أفكاري كانت تحلق بعيداً كحريق هائل. وقد أكون جلست هكذا ساعات طوال، دماغي يلف بالذكريات. وفجأة أدركت وجودها وهي تتسل في المقعد بجانبي وتمسك بذراعي. وبسرعة انزلقت يدها فوق يدي وفيما راحت تضغط عليها نظرت إليها وشاهدت الدموع تسيل على خديها. همست «يا إلهي يا هاري، لقد مر زمن طويل»، وزحفت يدها إلى ساقي وشدّت عليها بقوة فوق الركبة. وعلى الفور فعلت الشيء نفسه، وجلسنا هكذا بعض الوقت، شفتانا ملتحمتان، وعينانا تحدقان في الفراغ في الشاشة التي كانت تومض.

اجتاحتنا موجة من الشبق وراحت يدانا تتلمس بشكل مسعور اللحم اللاهب. وما كدنا نطفئ لهيبنا حتى انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار.

قلت ونحن نتعثر في الممر: «سآخذك إلى البيت». كان صوتي غليظاً أجشاً، حنجرتي جافة، وشفتاي ظامئتين. وضعت ذراعها في ذراعي، ولفت فخذها على فخذي. ترنحنا ونحن نتجه نحو باب الخروج. في الرواق وقفت لحظة لتذر على وجهها قليلاً من المكياج. لم تتغير كثيراً. عيناها أصبحتا أكثر اتساعاً وأشد حزناً. كانت رائعة وجذابة، ترتدي فستانا بنفسجياً مشدوداً على جسدها يظهر تقاطيع قوامها الجميل. نظرت إلى قدميها وتذكرت فجأة أنهما كانتا صغيرتين طريتين، قدمان رشيقتان لامرأة لا تشيخ.

في سيارة الأجرة رحت أحدثها عما جرى منذ أن هربت منها، لكنها وضعت يدها على فمي ورجتني بصوت مبحوح خفيض ألّا أخبرها شيئاً حتى نصل إلي البيت. ثم قالت ويدها ما تزال على

فمي: «لقد تزوجت، أليس كذلك؟» أومأت بالإيجاب، فدمدمت قائلة: «كنت أعرف ذلك» وسحبت يدها.

ثم طوقتني بذراعيها، وراحت تقبلّني بحرارة، وتنشج «هاري، هاري، كان يجب ألا تعاملني بهذه الطريقة. كان بوسعك أن تخبرني كل شيء... كل شيء. لقد كنت قاسياً معي يا هاري. لقد دمرت كل شيء».

شددتها نحوي، وسحبت ساقها فوق ساقي وراحت يدي تجوس فوق ساقها بسرعة حتى استقرت بين ملتقى الفخذين. وفجأة وقفت السيارة فانفصلنا عن بعضنا. وتبعتها ونحن نصعد الدرجات وأنا أرتجف، لا أعرف ماذا أتوقع منها عندما نصبح في الداخل. وعندما أغلق باب البيت خلفنا همست في أذني أن لا أصدر صوتاً «يجب ألا يسمعك جورجي. إنه طريح الفراش... أخشى أنه سيموت».

كانت القاعة غارقة في ظلمة حالكة. وكان عليّ أن أمسك يدها وهي تقودني ونحن نصعد درجات السلم الملتوية الطويلة إلى الغرفة العلوية حيث كانت هي وابنها ينهيان أيامهما.

أشعلت ضوءاً خافتاً وأشارت إلى الأريكة وهي تضع سبابتها على شفتيها. ثم وقفت ووضعت أذنها على باب الغرفة المجاورة وراحت تنصت للتأكد من أن جورجي نائم. أخيراً جاءت إلى جانبي وهي تسير على أطراف أصابعها وجلست بتوجس على حافة الكنبة وهمست: «حاذر، إنها تصدر صريراً».

انتابني شعور بالحيرة بحيث لم أهمس أو أحرك ساكناً. ماذا كان جورجي سيفعل إن وجدني جالساً هنا، شيء لم أجرؤ على التفكير فيه. وهاهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. يالها من نهاية مروّعة. وها نحن، نجلس كمومياءات مذنبة في غرفة عليا فقيرة. والله يعلم ما هي كلمات التوبيخ الفظيعة التي يمكن أن تقذفها في وجهي لو تمكنت من النطق.

«أطفئي النور»، قلت لها متوسلاً بطريقة صامتة. وفيما كانت تنهض لتفعل ذلك، أشرت إلى الأرض، للدلالة على أني سأتمدد بجانب الكنبة. وقبل لحظات من انضمامها إليّ على الأرض، كانت تقف في الزاوية تخلع ثيابها خلسة. ورحت أرقبها في الضوء الخافت الذي كان يتسرب عبر النوافذ. وفيما كانت تمد يدها لتأخذ إزاراً تغطي به جسدها العاري حللت أزرار بنطالي بسرعة.

كان من الصعب أن أتحرك دون إصدار صوت. فقد كانت فكرة أن يسمعنا جورجي تثير فزعها. وفهمت أنها قيدتني بمسؤولية معاناتها هذه، وفهمت كذلك أنها أذعنت بصمت وأن فزعها الآن ماهو إلا ارتداد لفزعها من الشعور بالخيانة.

أن نتحرّك دون تنفس، أن يلتحم جسدانا كمفتاحين لولبيين، أن نمارس الحب بهذه الحرارة التي لم يسبق أن مارسناها من قبل دون أن نصدر صوتاً، كان ذلك يتطلب مهارة وصبراً أثّرا عليّ بقوة...كانت تبكي دون دموع. كنت أسمعها تشهق في داخلها، كخزان الماء في الحمام الذي لا يتوقف عن الخرير. ورغم أنها رجتني بهمس مذعور أن لا أقذف، لأنها لا تستطيع أن تغتسل بسبب الضوضاء، بسبب جورجي الموجود في الغرفة المجاورة، رغم أني كنت أعرف أنها من الصنف الذي يرتعش لذة من مجرد النظر إليها، وأنها إذ انتابتها الرعشة فسيكون ذلك قاسٍ عليه، ولعلي بسبب البكاء الصامت أردت أن أضع حداً لشهقاتها رحت أقذف المرة تلو الأخرى. وانتابتها هي أيضاً رعشات متلاحقة.

وأخيراً عندما وقفت عند المدخل ورحت أعانقها للمرة الأخيرة، همست في أذني بأنها تحتاج إلى نقود لتسديد الإيجار، ورجتني أن أحضر لها المبلغ في الغد. وفيما هممت بنزول الدرج، شدتني إلى الخلف، وألصقت شفتيها في أذني ودمدمت: «لن يعيش أسبوعاً آخر». هذه الكلمات جاءتني كما لو كانت عبر مكّبر للصوت. وحتى اليوم، عندما أكررها لنفسي، يمكنني أن أسمع اندفاع الهواء

الناعم الأشبه بالصفير الذي كان يرافق صوتها الخافت تقريباً. كانت أذني وكأنها هندباء برية وكل شوكة صغيرة فيها عبارة عن هوائي يلتقط الرسالة، ويعيد صداها إلى سقف دماغي حيث تنفجر بدفق ممل. «لن يعيش أسبوعاً آخر»، رحت أرددها وأنا في طريقي إلى البيت، ألف مرة أو أكثر.

وفي اليوم الذي أعقب ذلك لم أعد إليها بالنقود، ولم أحضر الجنازة أيضاً بعد عشرة أيام. لكن بعد حوالى ثلاثة أسابيع شعرت أني مرغم على إزالة هذا العبء من فوق كتفي إلى مود. ولن أقول لها شيئاً بالطبع عن المضاجعة الهامسة على الأرض في تلك الليلة، لكني كنت مستعداً لأن أعترف أني رافقتها إلى غرفتها. وكان يمكنني أن أعترف لأي امرأة أخرى بكل شيء، لكن ليس لمود. وكما هو متوقع، فما أن بدأت أحدثها عما جرى حتى تشنجت كفرس مذعورة. ولم تعد تسمع المزيد ـ لو أنها انتظرتني فقط حتى أنهي كلامي وتقول لاءها الحازمة الجازمة!

ولكي أكون منصفاً معها، كان من الجنون أن أتوقع منها أن توافق على اقتراحي. وكانت ستكون امرأة نادرة إذا قالت نعم. ماذا كنت أريدها أن تفعل؟ لماذا؟ لأن أدعو كارلوتا لتقيم معنا. نعم، أخيراً وصلت إلى النتيجة الخارقة أن الشيء المعقول الوحيد هو أن نطلب من كارلوتا أن تشاركنا حياتنا. حاولت أن أبسط الأمر لمود وقلت لها إنه لم يسبق لي أن أحببت كارلوتا، وأنا أعطف عليها فقط، ولذلك فقد كنت أدين لها بشيء. منطق ذكوري غريب. لكني كنت أؤمن بكل كلمة قلتها، أي أن تأتي كارلوتا وتأخذ غرفة وتعيش حياتها الخاصة. وأننا سنعاملها معاملة جيدة، كملكة سقطت عن عرشها، ولا بد أني بدوت فارغاً وزائفاً في نظر مود.

وكان الجواب لا! البارحة، اليوم، وغداً لا! لا وألف لا! لقد أوصلها نموها الأخلاقي والروحي العقلي والجسدي إلى تلك اللحظة الحاسمة عندما تمكنت من الإجابة بانتصار: لا! وألف لا!

لو كانت قد اكتفت بالقول: «اسمع، لا تستطيع أن تطلب مني شيئاً كهذا! إنه جنون محض، ألا تظن ذلك؟ كيف سنعيش نحن الثلاثة؟ أعرف أنك تريد أن تساعدها ـ وكذلك أنا... لكن».

لو قالت ذلك بهذه الطريقة لذهبت إلى المرآة، وألقيت نظرة باردة طويلة على نفسي، لضحكت كمفصلة باب مكسور، ووافقت معها على أن هذا هو الجنون بعينه. ليس ذلك فقط، لكن أكثر من ذلك... لكنت اعترفت لها بأنها حقاً ترغب في أن تفعل شيئاً تعجز روحها الضئيلة عن تخيله.

على أي حال، اجتاحني غضب شديد وخرجت في منتصف الليل ومشيت إلى كوني آيلاند. كان الطقس معتدلاً وعندما وصلت إلى ممشى التنزه، جلست على الرصيف المائل وانتابتني نوبة من الضحك. أخذت أفكّر بستانلي، بالليلة التي قابلته فيها بعد إطلاق سراحه من أوجليثورب فورت، عندما استأجرنا عربة مفتوحة يجرها حصان، وقد تكدست قناني البيرة على المقعد المقابل. فبعد أربع سنوات في سلاح الفرسان أصبح ستانلي رجلاً حديدياً. كان صلباً من الداخل والخارج. كان يمكنه أن يقتلع أذني لو أني تحديته على ذلك، وربما بصق في وجهي. كان معه مائتا دولار في جيبه وأراد أن يصرفها كلها طوال تلك الليلة. وقبل انقضاء الليلة أذكر أنه كان معنا ما يكفي لاستئجار غرفة في أحد الفنادق الآيلة للسقوط بالقرب من بورو هول. وأذكر أيضاً أنه كان ثملاً إلى درجة نتنة، بحيث لم يتمكن من مغادرة السرير ليفرغ مثانته ـ بل انقلب على بطنه وراح يبول في جدول متواصل على الحائط.

في اليوم التالي كان الغضب مايزال يتملكني. واليوم الذي تلاه والذي بعده. تلك اللا كانت تنهشني. وتحتاج إلى ألف نعم لتعويضها. لم يكن ثمة شيء حيوي يشغلني في ذلك الوقت. كنت أدعيّ أني أرتزق من بيع الكتب التي يزين بها الناس مكتباتهم والتي كان يفترض أنها تضم «عيون الأدب العالمي» ولم أكن قد غصت إلى

مرحلة الموسوعة بعد. والجرذ الذي وضعني في اللعبة كان قد نوّمني مغنطيسياً. لقد بعت كل شيء في حالة من الغيبوبة التي تعقب التنويم المغناطيسي. وفي بعض الأحيان كنت أستيقظ وفي رأسي أفكار نيّرة، بعبارة أخرى، أفكار فيها شيء من الإجرام أو الهلوسة بالتأكيد. على كل حال، وفيما كنت ما أزال أقفز كالمجنون، غاضباً، صحوت يوماً بتلك اللا التي ما فتئ صداها يتردد في أذني. كنت أتناول طعام الإفطار عندما تذكرت فجأة أني لم أحشد تأييد ابنة العم جولي. جولي ابنة عم مود. فقد تزوجت جولي الآن، منذ فترة تكفي، كما أظن، لأن تشعر بالرغبة في تغيير وتيرة حياتها. ستكون جولي محطتي الأولى. سأكون بارد الأعصاب معها، أذهب لعندها قبل الغداء بقليل، وأبيعها مجموعة من الكتب، أتناول وجبة جيدة، وأبلل قضيبي فيها ثم نذهب إلى السينما.

كانت جولي تعيش في الجانب الشمالي من مانهاتن في حاضنة يكسوها ورق الجدران. وكان زوجها مخبولاً. بعبارة أخرى كان نموذجا طبيعياً تماماً للأشخاص الذين يكسبون رزقهم بالحلال ويصوّتون لصالح الجمهوريين أو الديموقراطيين، حسب المزاج. وكانت جولي ساذجة، طيبة القلب ولم تكن تزعج نفسها وتقرأ شيئاً أكثر من صحيفة ساترداي بوست إفنينغ. وكانت غبية تتمتع بقسط من الذكاء يجعلها تدرك أنه يجب عليها أن تأخذ دشاً بعد مضاجعتها. وكانت فكرتها الرئيسية تتركز في أن تستمتع مثل ابن عرس ثمل وتستله منها بأسرع ما يمكن.

انتابني شيء من الدهشة عندما جاءت إلى الباب. لم يخطر ببالي أن سنة أو ما يقرب من السنة قد تفعل فعلها في تغيير الأنثى، ولم يخطر ببالي بأي شكل تبدو معظم الإناث عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر عندما لا يتوقعن زواراً. وتوخياً للدقة، فقد كانت تبدو مثل رغيف من اللحم البارد الذي رشت عليه طبقة من صلصة البندورة وأعيد إلى الثلاجة. بالاختصار كانت جولي التي رأيتها

آخر مرة حلماً قياساً إلى جولي هذه. وكان عليّ أن أكيّف نفسي بسرعة مع الوضع الجديد.

ومن الطبيعي أن مزاجي كان ينحصر في البيع أكثر من المضاجعة. ولم تمض فترة طويلة حتى أدركت أنه لكي أبيع، كان يتوجب عليّ أن أضاجع. ولم تستطع جولي أن تفهم ماذا دهاني بحق السماء - أن أقوم بزيارتها وأحاول أن أرمي في وجهها هذه المجموعة من الكتب. ولم أستطع أن أخبرها أنها ستحسن عقلها لأنه لا يوجد لديها عقل، وهي تعرف ذلك، ولم تكن تتحرج أبداً من الإقرار بذلك.

تركتني وحدي لبضع دقائق لتتزيّن. ورحت أثناء ذلك أقرأ الدليل المرافق للكتب. وجدته شائقاً جداً بحيث كدت أبيع نفسي مجموعة من الكتب. كنت أقرأ مقطعاً عن كوليردج، ياله من عقل رائع (وكنت أظنه دائماً كيساً من الغائط)، عندما شعرت بقدومها نحوي. كانت الفقرة شائقة جداً، بحيث سمحت لنفسي ألّا أنظر إليها وواصلت قراءتي. انحنت خلفي على الأريكة، وراحت تقرأ من وراء كتفي. أحسست بنهديها الرجراجين يهتزان من فوق كتفي لكني كنت مصمماً على متابعة تشعبات عقل كوليردج الذي يدعو للإعجاب وأن لا أسمح لثدييها المكورين أن يزعجاني.

وفجأة طار الدليل المجلد تجليداً جميلاً من يدي.

صاحت: «لماذا تقرأ هذه الفضلات؟» وأدارتني نحوها وأمسكتني من مرفقي «أنا لا أفهم كلمة واحدة منه، وأراهن أنك لا تفهم منه شيئاً أيضاً. ما خطبك، أليس بإمكانك أن تجد عملاً؟»».

وارتسم على وجهها ذلك النوع من الابتسامة العريضة البلهاء، وبدت مثل ملاك توتوني حقيقي. نهضت، استعدت منها الدليل، وسألتها ماذا أعدت لطعام الغداء.

قالت: «يا إلهي كم أحب أسلوبك هذا، ماذا بحق الجحيم تظنني على أي حال؟»».

هنا كان عليّ أن أتظاهر بأني كنت أمزح معها فقط، ولكن بعد أن دسست يدي في صدرها ورحت أداعب حلمة ثديها الأيمن لفترة من الوقت، أعدت الحديث بمهارة إلى موضوع الطعام.

قالت: «اسمع، لقد تغيرّت كثيراً، وأنا لا أحب الطريقة التي تتحدث ـ أو تتصرف فيها»، وهنا أعادت ثديها بحدّة إلى موضعه، كما لو كان كرة من الجوارب المبللة تدس في كيس للغسيل. «اسمع، فأنا امرأة متزوجة، هل تعرف ذلك؟ هل تعرف ماذا يمكن أن يفعل بك مايك إذا شاهدك وأنت تتصرف بهذه الطريقة؟».

قلت: «لقد تغيرت قليلاً أنت نفسك»، استويت واقفاً ورحت أتنشق الهواء بحثاً عن العلف. كل ما أردته الآن هو الطعام. لا أعرف لماذا، لكني صممت على أنها يجب أن تقدم لي وجبة جيدة ـ وهذا أقل مايمكنها أن تفعله لي، تلك البليدة الغبية.

كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكنني أن أحصل منها على أي شيء هي أن أعرف كيف أتعامل معها. يجب أن أشعرها أني أصبحت مغرماً بها وأنا أربّت على كفلها المتضخم. لا بل يجب ألا أريها أني مولّه بها الآن لأن ذلك يعني مضاجعة سريعة وربما لا يتيح لي أن أتناول طعام الغداء بعدها. وإذا كانت الوجبة جيدة ربما اتبعت أسلوب أضرب واهرب ـ هذا ما كنت أفكر فيه وأنا أعابثها.

قالت بحدة وهي تقرأ أفكاري مثل عثة كتب عمياء: «بحق المسيح، حسناً، سأعد لك وجبة».

كدت أصرخ: «جميل، ماذا لديك؟».

«تعال وشاهد بنفسك»، أجابت، وشدّتني إلى المطبخ وفتحت الثلاجة.

رأيت لحم خنزير، وسلطة البطاطا، وسمك السردين، وشوندر بارد، ورز بالحليب، وصلصة التفاح، وسجق، ومخلل، وأعواد

الكرفس، وقشطة الجبن، وصحن خاص مليء بالقيء وعليه طبقة من المايونيز عافته نفسي على الفور.

اقترحت عليها: «لنخرجها كلها، وهل عندك بيرة؟».

زمجرت قائلة: «نعم، وعندي خردل أيضاً».

«هل تريد خبزاً؟».

رمقتني بنظرة يشوبها اشمئزاز. أخرجت الأشياء بسرعة من الثلاجة ووضعتها على المائدة.

قلت: «من الأفضل أن تصنعي شيئاً من القهوة أيضاً».

«أظن أنك تريد شيئاً من القشطة المخفوقة معها، أليس كذلك؟ هل تعرف، أريد أن أسممك. يا إلهي، إذا كان وضعك صعباً يمكنك أن تطلب مني أن أقرضك بعض المال... لا ينبغي أن تأتي إلي هنا وتحاول أن تبيعني الكثير من الزبالة. ولو كنت ألطف قليلاً معي لدعوتك إلى تناول طعام الغداء في أحد المطاعم، ولدي تذاكر للمسرح. كان يمكن أن نقضي وقتاً جميلاً... وكان من الممكن أن أشتري الكتب الغبية. إن مايك ليس شخصاً سيئاً. لقد اشترى الكتب حتى لو لم تكن لنا نية في قراءتها. لو ظن أنك بحاجة إلى مساعدة... تأتي إلى هنا وتعاملني كما لو كنت وسخاً. ماذا فعلت لك؟ أنا لا أفهم. لا تضحك! إني أتكلم بجد. لا أعرف لماذا يجب عليّ أن أتحمل هذا منك. من تظن نفسك بحق السماء؟».

ألقت صحناً أمامي. ثم استدارت على عقبيها وتوجهت إلى المطبخ. وتركتني وحدي مع كل هذا الطعام المكوّم أمامي.

قلت وأنا أدفع الملعقة في فمي: «هيا، هيا، لا تفهمي الأمر هكذا»، وتابعت: «تعرفين أني لم أكن أعني شيئاً يمسّك شخصياً» (وهنا بدت لي كلمة شخصياً في غير محلها، لكني كنت أعرف أنها ستروق لها).

فأجابت: «سواء كانت المسألة شخصية أم لا، فأنا لا أريد أن

أشاركك الطعام، يمكنك أن تملأ بطنك وتخرج. سأصنع لك بعض القهوة. لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى. إنك تثير الاشمئزاز».

وضعت السكين والشوكة على المائدة ودلفت إلى المطبخ. كانت الأشياء باردة على كل حال، لذا لا يهم إن أمضيت بضع دقائق وأنا أهدئ خاطرها.

قلت وأنا أحاول تطويقها بذراعي: «أنا آسف يا جولي»، لكنها دفعتني عنها بغضب. «أترين»، قلت وقد بدأت أضع مشاعر في كلماتي: «لم نكن أنا وMood على ما يرام. لقد تشاجرنا هذا الصباح. لا بد أني خرجت عن طوري...».

«هل هذا يبرر إساءتك لي دون أن يكون لي ذنب في ذلك؟».

«لا، ليس لك ذنب. لا أعرف ماذا دهاني... لقد كنت يائساً هذا الصباح، وهذا ما جعلني أجيء لأراك. وعندما بدأت أحاول... أن أبيعك الكتب... شعرت بالخجل من نفسي. لم أكن لأدعك تأخذين الكتب حتى لو ادعيت بأنك كنت تريدينها...».

قالت: «اعرف مشكلتك، لقد خاب ظنك عندما رأيتني. لقد تغيرت، هذا كل ما في الأمر. وأنت خاسر سيء. تريد أن تسيء إليّ دون أن يكون لي ذنب ـ لكن الخطأ خطؤك. فلديك زوجة جميلة... لماذا لا تتمسك بها؟ الجميع يتشاجر ـ أنتما لستما الوحيدين في العالم. هل أهرب إلى زوج شخص آخر عندما تسوء الأمور؟ إلى أي جحيم سيوصلنا هذا؟ إن مايك ليس ملاكاً لأعيش معه... ليس فينا ملاك، على ما أظن. إنك تتصرف كطفل أفسده الدلال. ماذا تظن الحياة، احتلام؟».

لم يكن بوسعي أن أتجاهل هذا الخطاب. وكان عليّ أن أستجديها لكي تجلس وتأكل معي، وتمنحني فرصة لأوضح لها. وقبلت بشيء من الممانعة.

كانت قصة طويلة تلك التي أفضيت بها إليها، فيما كنت أنظف

صحناً بعد الآخر. وبدا أنها أعجبت بصدقي بحيث بدأت فكرة إعادة تقديم عيون الأدب العالمي إليها تداعبني. وكان عليّ أن أعاملها بلطف شديد لأنه بدا لي أني كنت أسدي لها معروفا هذه المرة. وكنت أحاول أن أضع نفسي في موقع يجعلها تساعدني. وفي الوقت نفسه رحت أتساءل إن كان الأمر يستحق ذلك.

أخذت تعود إلى طبيعتها، وتصبح ودودة وتثق بي. كانت القهوة ممتازة، ولم أكد أنهي الكوب الثاني حتى أحسست بحركة في أمعائي. استأذنتها وتوجهت إلى الحمام. وهناك وجدت متعة كبيرة في إفراغ أمعائي تماماً. سحبت السلسلة وبقيت جالساً هناك بضع لحظات، حالماً قليلاً وداعراً بعض الشيء أيضاً، وفجأة أدركت أني كنت أجلس على الشطافة. سحبت السلسلة ثانية. بدأ الماء يفيض بين ساقي وأخذ يتدفق على الأرض. قفزت واقفاً، جففت مؤخرتي بمنشفة، زررت بنطالي ونظرت مسعوراً إلى صندوق المرحاض. حاولت كل شيء يمكنني أن أفكّر به، لكن الماء لم يتوقف عن التدفق والارتفاع.

ناديت جولي مذعوراً. ومن خلال شق الباب رجوتها أن تخبرني ماذا أفعل.

قالت «دعني أدخل، أنا سأصلحها».

توسلت لها قائلاً: «بل أخبريني، أنا سأصلحها. لا يمكنك أن تدخلي الآن».

قالت جولي: «لا يمكنني أن أشرح لك، يجب أن تدعني أدخل».

لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً، فاضطررت لأن افتح الباب لها. ولم أشعر بإحراج أكثر من هذا في حياتي. كانت الأرض في حالة يرثى لها. وراحت جولي تنظف الأرض، كما لو كان عملاً روتينياً. وبلحظة واحدة توقف الماء عن الجريان، ولم يبق سوى تنظيف هذه القاذورات.

رجوتها قائلاً: «اسمعي، اخرجي الآن، دعيني أتدبر أمر هذا. هل عندك مجرفة وممسحة؟».

قالت: «اخرج! أنا سأتدبر ذلك»، ودفعتني خارجاً وأغلقت الباب.

انتظرت على أحر من الجمر حتى تخرج. ثم انتابني شعور حقيقي بالخوف. هناك شيء واحد فقط يمكنني أن أفعله ـ أن أطلق ساقيّ للريح بأسرع ما يمكن.

تململت بضع لحظات، ورحت أنصت أولاً على قدم واحدة، ثم الأخرى، لا أجرؤ على أن أسترق النظر إليها. كنت أعرف أنه لن يكون بوسعي أن أواجهها. نظرت حولي، قست المسافة إلى الباب، رحت أنصت لثانية فقط، ثم أخذت ثيابي وتسللت خارجاً على رؤوس أصابعي.

كان هناك مصعد، لكني لم أنتظره، بل رحت أقفز هابطاً الدرجات، ثلاث درجات دفعة واحدة، كما لو كان الشيطان يطاردني.

كان أول شيء فعلته أني توجهت إلى أحد المطاعم وغسلت يدي تماماً. وكانت هناك آلة ترش عليك عطراً ـ بإدخال قطعة معدنية فيها. تعطّرت وخرجت أتمشى تحت أشعة الشمس الساطعة. مشيت أهيم على وجهي لفترة من الزمن، وأنا أقارن الطقس الجميل مع حالتي النفسية المتكدرة.

وسرعان ما وجدت نفسي أتمشى قرب النهر. وكانت هناك حديقة على بعد بضع ياردات، أو على الأقل شريط من العشب وبعض المقاعد. جلست ورحت أجترّ. وبسرعة خاطفة عادت أفكاري إلى كوليردج. وكان يريحني، أن أترك أفكاري تسرح بمشاكل جمالية بحتة.

فتحت الدليل شارد الذهن وأخذت أعيد قراءة المقطع الذي جعلني أستغرق فيه استغراقاً تاماً ـ قبل المهزلة المروّعة التي

حصلت في بيت جولي. رحت أقفز من مادة إلى أخرى. وعلى الصفحة الخلفية للمنشور كانت هناك خرائط ومخططات ورسوم مصورة عن كتابات قديمة وجدت على ألواح وآثار في أصقاع متعددة من العالم. عثرت على «الكتابة الغامضة» جحافل لويجورس التي اجتاحت أوروبا في أحد الأيام قادمة من آسيا الوسطى. قرأت عن مدن ارتفعت نحو الأعلى اثنتي عشر وثلاث عشرة ألف قدم عندما بدأت تتشكل السلاسل الجبلية؛ قرأت عن الحوار بين صولون وأفلاطون، وعن الرسوم المحفورة التي يعود تاريخها إلى سبعين ألف سنة والتي عثر عليها في التيبت، والتي تدل بوضوح شديد على وجود قارات مجهولة الآن. قرأت مصادر مفاهيم فيثاغورس، وقرأت بحزن عن الدمار الذي لحق المكتبة العظيمة في الإسكندرية. وذكرتني بعض ألواح مايان بوضوح شديد برسوم بول كلي. كتابات الأقدمين، رموزهم، رسومهم، نصوصهم، كانت كالأشياء التي يخترعها الأطفال في رياضهم. لقد أنتج المجانين، من الناحية الأخرى، أكثر النصوص ذكاء. قرأت عن لاوتس والبيرتوس وماغنوس وكاغليوسترو وكورنيليوس أغريبا ويامبليخوس، كل واحد منهم عالم بحد ذاته، وكل واحد حلقة في سلسلة خفية من العوالم المتفجرة الآن. وصلت إلى مخطط مرتب مثل خطوط متوازية من حنق البانجو، ترسم صورة القرون «منذ فجر الحضارة» وتسجل الشخصيات الأدبية على مر العصور: أسماؤهم وأعمالهم. وبرزت العصور المظلمة كنوافذ عمياء بجانب ناطحة سحاب؛ وهنا وهناك في الحائط الفارغ العظيم يوجد شعاع من الضوء تلقيه روح عملاق مثقف استطاع أن يُسمع صوته ويغطي على نقيق الغائصين والمتشائمين تحت المستنقعات. عندما كانت أوروبا غارقة في الظلام، كانت الحضارة مشرقة في مكان آخر: إن روح الإنسان مثل لوحة مفاتيح حقيقية، تدل على نفسها بإشارات وومضات، غالباً عبر محيطات من الظلمة. شيء واحد كان بارزاً بوضوح ـ فقد كانت بعض الأرواح العظيمة موصلة على لوحة المفاتيح تلك ما تزال

جاهزة للنداء. وعندما غرق العصر الذي دعاهم خرجوا من الظلمة كقمم جبال الهيمالايا الشاهقة المغطاة بالثلج. وبدا لي أن هناك سبباً للإيمان، وأن النور الذي أضاءه لن يخبو حتى تحصل كارثة شنيعة أخرى. وعندما أسدلت الستار على مجرى أحلام اليقظة التي سرحت فيها، انطبعت صورة شبيهة بصورة أبي الهول على الستارة المسدلة: كانت صورة وجه أشيب لأحد المجوس في أوروبا: ليوناردو دِ فينشي. إن القناع الذي لبسه ليخفي هويته هو أحد أكثر أقنعة التنكر المحيّرة التي يضعها رسول من الأعماق. إن التفكير بما رأته هاتان العينان اللتان تحدقان بثبات في المستقبل جعل جسدي يرتعش...

نظرت عبر النهر إلى شاطئ جيرسي. بدا مقفراً، أكثر قفراً من قاع صخري لنهر جاف. لم يحدث شيء هام للعرق الإنساني هنا أبداً. وربما لن يحدث شيء لآلاف السنين. الأقزام كانت أكثر أهمية، أكثر تنويراً للمعرفة، من سكان نيوجيرسي. نظرت إلى أعلى وأسفل نهر هدسن، هذا النهر الذي كنت أمقته دائماً، حتى منذ قرأت هنري هدسن وهلاله الدموي لأول مرة. كرهت ضفتي النهر على حد سواء. كرهت الأساطير التي نسجت حول اسمه. الوادي كله كان كالحلم الفارغ لرجل هولندي مخمور بالبيرة. لم أبال قط ببوهاتان أو بمانهاتان. احتقرت الأب نيكيربوكر. تمنيت أن يكون هناك عشرة آلاف نبات مسحوق أسود يبعثر على ضفتي النهر وأن تنفجر كلها في آن واحد.

14

اتخذت قراراً مفاجئاً بإخلاء قاعة الصراصير. لماذا؟ لأني قابلت ريبيكا... وريبيكا هي الزوجة الثانية لصديقي آرثر رايموند، حيث يعيشان حالياً في شقة ضخمة في شارع ريفرسايد، ويريدان تأجير بعض الغرف فيها. وكان كرونسكي هو الذي أخبرني بذلك، وقال إنه سيستأجر إحدى الغرف.

«لماذا لا تأتي وتقابل زوجته ـ إنها ستعجبك. لعلها أخت مونا».

سألته: «ما اسمها؟».

«ريبيكا. ريبيكا فالنتاين».

أثارني اسم ريبيكا. كنت دائماً أتوق للقاء امرأة اسمها ريبيكا ـ وليس بيكي. (ريبيكا، روث، روكسان، روزاليند، فريدريكا، أورسولا، شيلا، نورما، جوينيفير، ليونورا، سابينا، مالفينا، سولانج، ديردر. يالها من أسماء نسوية رائعة! مثل أزهار، نجوم، أفلاك...).

ولم تكن مونا متحمسة للانتقال، إلا أننا عندما وصلنا إلى بيت آرثر رايموند وسمعته يعزف، غيرت لهجتها.

وكانت رينيه، أخت آرثر رايموند الصغرى، هي التي فتحت الباب. كانت في حوالى التاسعة عشرة من عمرها، شعلة نارية

متأججة، ذات خصلات مجعّدة ثقيلة مفعمة بالحيوية. وكان صوتها كالعندليب ـ بحيث كنت تشعر بالرغبة في الموافقة على كل كلمة تقولها مهما كانت.

وأخيراً قدمت ريبيكا نفسها. كانت كما لو أنها خارجة من العهد القديم ـ داكنة ونظيفة كالشمس. وقد أحببت مونا على الفور، كما كانت ستفعل نحو أخت مفقودة. كلاهما كانتا جميلتين. رغم أن ريبيكا كانت أكثر نضجاً وصلابة. وينتابك إحساس فطري بأنها تفضل الحقيقة دائماً. لقد أحببت قبضة يدها القوية، نظرتها الثاقبة المباشرة التي تُحيي فيها المرء، وكان يبدو أنها تخلو من التفاهات النسوية العادية.

وسرعان ما انضم آرثر إلينا. كان قصيراً، ذا عضلات مفتولة، وصوته ذا نبرة فولاذية قاسية وكان كثيراً ما تنتابه نوبات شديدة من الضحك. كان يضحك من كل قلبه على النكات التي يلقيها كما يضحك على النكات التي يلقيها الآخرون. كان وافر الصحة، مرحاً، مفعماً بالحيوية. هو دائماً كذلك، وكنت مغرماً به في الأيام الخوالي، أول ما انتقلنا أنا ومود إلى المنطقة المجاورة. كنت أفاجئه بزياراتي طوال ساعات النهار والليل، وأقدم له لمدة ثلاث أو أربع ساعات ملخصاً عن الكتب التي كنت قد قرأتها. أذكر أني كنت أمضي فترة بعد الظهر كلها وأنا أتحدث عن سميردياكوف وبافيل بافلوفيتش، أو الجنرال إفولجين، أو عن تلك العفاريت الملائكية التي كانت تحيط *الأبله*، أو عن امرأة فيليبوفنا. وكان آنئذ زوج إرما، التي أصبحت فيما بعد واحدة من العاملات في شركة كوسموديمونيك للتلغراف. ويجب أن أضيف أنه في تلك الأيام الأولى، عندما عرفت آرثر رايموند، حصلت أشياء كثيرة جداً ـ في العقل. كانت محادثاتنا أشبه بمقاطع من *الجبل السحري*، بل أكثر تهديداً، أكثر خطورة، أكثر اشتعالاً، أكثر استفزازاً، أكثر سموّاً، أكثر مرارة بل أكثر بكثير.

بدأ شريط الذكريات يمر بسرعة في رأسي وأنا واقف أتطلع إليه وهو يتحدث. وكانت أخته رينيه تحاول متابعة حديثها مع زوجة كرونسكي. ورحت أتساءل كيف يمكننا أن نعيش وننسجم كلنا معا تحت سقف واحد. وكان كرونسكي قد استحوذ على أكبر الغرفتين الشاغرتين. بينما تكدسنا نحن الستة الآن في الغرفة الأخرى، التي لم تكن أكثر من قن للدجاج.

وكان آرثر رايموند يقول: «يا إلهي، لستم بحاجة إلى مكان أوسع ـ هناك البيت كله. أريدك أن تأتي. سنقضي وقتاً ممتعاً هنا. يا إلهي!» ثم ينفجر ضاحكاً ثانية.

كنت أعرف أنه كان يائساً، إلا أن كرامته لا تسمح له بأن يقر بأنه بحاجة إلى مال. وكانت ريبيكا تنظر إليّ بلهفة. وأستطيع أن اقرأ بوضوح شديد ما كان مكتوباً على وجهها. ثم قالت مونا فجأة: «بالطبع سنأخذها»، ففرك كرونسكي يديه فرحاً، وقال: «طبعاً ستأخذانها! سنجعل منها وجبة دسمة، سترى». ثم أخذ يساومهم على السعر. إلا أن آرثر رايموند رفض أن يتحدث عن النقود، وقال: «ضع شروطك الخاصة»، وتوجه إلى الغرفة الكبيرة حيث يوجد البيانو. سمعته يخبط على البيانو. حاولت أن أستمع إلا أن ريبيكا وقفت أمامي وراحت تشغلني بأسئلتها.

واستقر بنا المقام بعد ذلك ببضعة أيام. وكان أول شيء لاحظناه عن مكان إقامتنا الجديد هو أن جميع سكان البيت كانوا يحاولون استخدام الحمام في وقت واحد. وكان بوسعك أن تعرف الشخص الذي سبقك إليه من الرائحة التي خلفها وراءه. وكانت تسد المغسلة على الدوام شعرات طويلة، وكان آرثر رايموند، الذي لم تكن عنده فرشاة أسنان، يستعمل أول فرشاة تقع يده عليها. والشيء الآخر هو أن المنزل كان يعج بالإناث. وكانت الأخت الكبرى، جيسيكا، التي كانت ممثلة، تأتي كثيراً وتبيت غالباً في الليل. وكانت هناك أم ريبيكا أيضاً، التي كانت دائماً داخلة وخارجة، متشحة

دائماً بالحزن، تجر أذيالها دائماً كجثة. وكان هناك أيضاً أصدقاء كرونسكي وأصدقاء ريبيكا وأصدقاء آرثر وأصدقاء رينيه، هذا ماعدا التلاميذ الذين كانوا يأتون في جميع الأوقات في النهار والليل. في البداية، كان من الممتع الاستماع إلى عزف البيانو: مقاطع من باخ، ورافاييل، ودبوسي، وموزار وما إلى هنالك. ثم أصبح الأمر يثير الغضب، وخاصة عندما كان آرثر رايموند يعزف لنفسه. إذ كان يعيد ويكرر معزوفة معينة بإصرار ومثابرة شخص فيه مس من الجنون. وكان يعزف في البداية بيد واحدة، بثبات وبطء، ثم باليد الأخرى، بثبات وبطء. ثم باليدين الاثنتين، بمزيد من الثبات، وببطء أكثر، ثم بسرعة أكبر وأكبر، حتى يصل إلى سرعة الإيقاع الطبيعية. ويكرر ذلك عشرين مرة، خمسين مرة، مائة مرة. يصعد قليلاً على السلم الموسيقي - ويكرر. ثم يعاود الكرّة، كالسرطان، ويبدأ من جديد. ثم وعلى حين غرة يتوقف عن اللحن، ليبدأ لحناً جديداً، شيئاً يحبه. يعزفه من كل قلبه، كما لو كان يعزف في حفلة موسيقية. إلا أنه كان يتعثر، ربما في نصف الطريق. ويخيم الصمت. ليعود ويعزف بضع نغمات، ببطء ثم بسرعة، بيد واحدة، ثم باليدين معا، باليدين والقدمين، بالمرفقين، بالمفاصل، يندفع إلى الأمام كبرميل، يكتسح كل شيء أمامه، يزيل الأشجار، الأسيجة، الحظائر، الجدران. كان استمراره شيئاً معذباً. لم يكن يعزف للمتعة - بل ليتقن أسلوبه في العزف. كانت رؤوس أصابعه تهترئ، تصبح مؤخرته ناعمة بسبب الاحتكاك. يتقدم دائماً، مهاجماً، غازياً، مبيداً، مطهراً، يعيد ترتيب قواته، يرمي حراساً، يغطي مؤخرته، يحصّن نفسه في خندق، يوجه التهم إلى السجناء، ويعزل المجروحين، يكمن لرجاله، يرغي ويزبد، يطلق صواريخاً، يفجر مصانع ذخيرة، مراكز سكك حديدية، يخترع طوربيدات جديدة، مولّدات، قاذفات لهب، يشفّر ويفك رموز الرسائل التي وصلت...

ومع ذلك فقد كان معلماً كبيراً، معلماً محبوباً. فقد كان يبدو في الغرفة بقميصه الكاكي المفتوح دائماً عند الرقبة، مثل نمر متململ.

يقف في إحدى الزوايا ويستمع، وذقنه في كفه، ويسند باليد الأخرى مرفقه. وكان يمشي نحو النافذة ويتطلع منها، وهو يدمدم بهدوء ويتابع محاولات التلميذ الشجاعة ليجاري الكمال الذي يتطلبه آرثر من كل تلاميذه. وإذا كانت تلميذة صغيرة فقد يصبح وديعاً كالحمل، فيضحك الطفلة، يحملها بذراعيه ويرفعها من على الكرسي الصغير، ويقول لها: «انظري...؟» ويشير ببطء شديد، وبلطف فائق، وبحذر لا متناه، إلى الطريقة التي يجب أن تفعلها. وكان يتمتع بصبر لانهائي مع تلاميذه الصغار ـ وكم كان من الممتع مراقبته. كان يعتني بهم كما لو كانوا أزهاراً. يحاول أن يصل إلى أرواحهم، يحاول أن يجعلهم هادئين أو يثير الحماس فيهم، حسبما تكون الحالة. أما مع الأكبر سناً فمن الممتع أيضاً مراقبة أسلوبه. إذ كان يعيرهم كل اهتمامه، متوتراً كحيوان الشيهم، ساقاه مشددوتان، تتأرجحان، يوازن نفسه، يعلو ويهبط على كعبي قدميه، عضلات وجهه تتحرك بسرعة وهو يتابع بلهفة شديدة الانتقال من مقطع إلى آخر. وكان يتحدث إلى هؤلاء كما لو كانوا قد أصبحوا من السادة في العزف. وكان يقترح هذه الحركة أو تلك، هذا التفسير أو ذاك. وكان غالباً يقاطع العزف لعشر أو خمس عشرة دقيقة دون توقف، ويبدأ بعرض رائع لبعض التقنيات الرائعة، يقارن إحداها بالأخرى، يقيّمها، يقارن قطعة موسيقية مدونة بكتاب، كاتب بكاتب آخر، لحن بمصطلح شخصي، وما إلى هنالك. كان يبعث الحياة في الموسيقى. كان يسمع الموسيقى في كل شيء. وفي نهاية جلسة تحضير الأرواح هذه كانت الشابات الصغيرات تغمرهن النشوة وهن يمشين في الممر، لا يدركن شيئاً سوى شعاع العبقري. نعم، كان مانحاً للحياة، إله الشمس: كن يخرجن إلى الشارع دائخات.

وعندما تتجادل مع كرونسكي، فإنه يبدو لك شخصاً مختلفاً. إذ يتلاشى ذلك الهوس بالكمال، وذلك الحماس التعليمي الذي يعد ثروة كبيرة له كمعلم للموسيقى، ليصبح شخصاً سخيفاً عندما يدخل في عالم الأفكار. وكان كرونسكي يلعب معه لعبة القط والفأر. وكانت

تغمره السعادة عندما يجعل خصمه يتعثر. ولم يكن يدافع عن شيء سوى أمنه. وكان لآرثر رايموند شيء من أسلوب جاك ديمبسي، عندما يتعلق الأمر بمناقشة حامية. فقد كان يدأب على أن يفرغ محادثه، بوخزات سريعة قصيرة، مثل آلة فرم ذات أرجل راقصة. وكان بين الحين والآخر يوجه طعنة، طعنة ذكية، ليجد أنه يصارع الفضاء. أما كرونسكي فكان يتبع حيلة التواري عن الأنظار عندما يبدو محرجاً. وما أن تمضي لحظة حتى تجده معلقاً في الثريا. ولم تكن لديه استراتيجية يمكن التعرف عليها بسهولة، ما لم تتبدَّ في التلميح، والسخرية من معارضه أو تعنيفه، أو إغضابه، ثم يقوم بدور البهلوان المتخفي. وكان يبدو أن آرثر رايموند يقول طوال الوقت: «ارفع دوقاتك! قاتل! قاتل، أيها المأفون!» إلا أنه لم يكن في نية كرونسكي أن يجعل من نفسه كيساً لكيل الضربات عليه.

لم أر آرثر رايموند قط وهو يقرأ كتاباً. ولا أعتقد أنه قرأ العديد من الكتب، ومع ذلك فقد كان يعرف الكثير من الأشياء على نحو يثير العجب. وكان يتذكر كل ما كان قد قرأه بحيوية ودقة مدهشتين. وشأن صديقي روي هاملتون، كان يمكنه أن يستخلص معلومات من كتاب أكثر من أي شخص آخر عرفته. كان حرفياً إلى حد أنه ينزع أحشاء النص. وكان روي هاملتون يتحرك أنملة أنملة، إذا جاز التعبير، ويظل يمحص ويتمعن في عبارة واحدة أياماً أو أسابيع متواصلة. وفي بعض الأحيان، كان يمضي سنة أو سنتين لينهي كتاباً صغيراً، إلا أنه عندما كان ينهي قراءته، كان يتصرف وكأنه أضاف مقياس ذراع إلى قامته. ويرى أن عدداً لا يتعدى أصابع اليد من الكتب الجيدة يكفي لتزويده بغذاء روحي حتى نهاية حياته. كانت الأفكار بالنسبة له أشياء حية، كما كانت بالنسبة للويس لامبيرت. فبعد أن يقرأ كتاباً كاملاً كان يعطي انطباعاً بأنه اطلع على كل الكتب. كان يفكر ويعيش حياته من خلال كتاب واحد، وكان يخرج من هذه التجربة الجديدة كائناً فخوراً وجديداً. وكان على نقيض العالم الذي يزداد تواضعاً مع كل كتاب يقرأه. كانت

الكتب بالنسبة له كاليوغا بالنسبة للباحث الحقيقي عن الحقيقة: فقد كانت تساعده في التوحد مع الله.

أما آرثر رايموند فكان يجعلك تتوهم أنه التهم محتويات الكتاب، وأنه قرأه باهتمام عضلي، أو هكذا كان يخيّل إليّ، وأنا ألاحظ تأثيره عليه. يقرأ مثل إسفنجة، مصمّماً على استيعاب أفكار الكاتب. وكان همه الوحيد أن يهضمها، أن يستوعبها، وأن يعيد توزيعها. كان همجياً. كل كتاب جديد يمثّل له فتحاً جديداً. كانت الكتب تحصّن غروره. لم يكن ينمو، بل كان يزداد انتفاخا بالكبرياء والتكبر. كان يبحث عن تأكيدات تجعله يصول ويجول في معركته، ولم يكن يسمح لنفسه بأن ينهزم. كان يمكن أن يمتدح مؤلفاً يعجب به إلا أنه لم يكن يحني ركبتيه أبداً. كان يبقى دائماً عنيداً وصلباً، ودرعه يزداد سماكة.

وكان من النوع الذي لا يمكنه أن يتحدث عن شيء آخر لأسابيع قادمة عندما ينهي قراءة كتاب، ومهما كان الموضوع الذي تجري مناقشته، كان يعزوه إلى الكتاب الذي التهمه للتو. ومما يثير الغرابة أنه كلما تحدث عن الكتاب أكثر، ازداد شعور المرء برغبة لاشعورية في تحطيمه. وفي الصميم كان يبدو لي دائماً أنه يشعر بالخجل عندما يسمح لعقل آخر أن يفتنه ويأسره. ولم يكن يتحدث عن الكتاب، بل عن استيعابه هو، آرثر رايموند، على هذا النحو الكامل والعميق. أما أن تتوقع أن يلخص لك محتوى الكتاب فهذا أمر غير وارد. بل كان يكتفي بتقديم معلومات كافية عن موضوعه يمكّنك من خلالها أن تتابع تحليلاته واسهاباته بذكاء. رغم أنه لا يتوقف عن القول لك ـ «يجب عليك أن تقرأه، إنه رائع»، وما كان يعنيه هو ـ «يمكنك أن تثق بي بأنه عمل مهم، وإلا ما أضعت وقتي وناقشته معك». وما كان يعنيه ضمنياً أيضاً، «هوَ أنك لم تقرأه لأنك لن تتمكن بجهودك الخاصة من استكشاف الدرر التي عثر عليها هو، آرثر رايموند» وكان يبدو أنه يقول لك: «عندما أنتهي من الحديث عنه فلن

تحتاج لقراءته. فأنا لا أعرف ما قاله المؤلف فقط، بل ما كان ينوي أن يقوله أيضاً».

وفي الفترة التي أتحدث عنها، كان من بين الأمور المولع بها سيجموند فرويد. ولا أعني أنه كان يعرف فرويد فقط، لا، بل كان يتكلم كما لو كان يعرف المجموعة كلها، من كرافت إبنج وستيكيل إلى أخر القائمة. ولم يكن يعتبر فرويد مفكراً فقط بل شاعراً أيضاً. أما كرونسكي، الذي كانت قراءاته أوسع وأعمق في هذا المجال، ويتمتع بخبرة سريرية أيضاً، فقد كان يجري آنذاك دراسة مقارنة في التحليل النفسي، وليس مجرد السعي لاستيعاب إسهام جديد، فقد كان يثير حفيظة آرثر رايموند إلى حد كبير، والذي كان يحلو لهذا الأخير أن يدعوها «شكّه القاتل».

هذه المناقشات كانت تدور في مقصورتنا، وتستغرق ساعات طوالاً لا تنتهي. ولم تعد مونا تذهب إلى المرقص وكانت تبحث عن عمل في المسرح. وفي معظم الأحيان، كنا نأكل معاً في المطبخ، ونحاول حتى منتصف الليل أن نفترق ويذهب كل منا في حال سبيله. إلا أن آرثر رايموند لم يكن لديه أي اعتبار للوقت؛ فعندما كان يشغله موضوع ما لم يكن يفكر بالطعام، أو بالنوم أو بالجنس. وإذا نام في الساعة الخامسة صباحاً كان ينهض في الثامنة، إذا شاء، أو يبقى في السرير لمدة ثماني عشرة ساعة. وكان يترك الأمر لريبيكا لتعيد ترتيب جدول مواعيده. ومن الطبيعي أن هذا النوع من الحياة قد هيأ جواً من الفوضى والتأجيل. وحين تتعقد الأمور، كان آرثر رايموند يرفع يديه مستسلماً ويخرج، يغيب في بعض الأحيان أياماً عديدة. وبعد فترة غيابه تلك تنتشر إشاعات غريبة، قصص تلقي ضوءاً مختلفاً تماماً على شخصيته. ومن الواضح أن هذه النزهات كانت ضرورية لتكمل الكيان الجسدي، فحياة الموسيقار قد لا تشبعها طبيعته المتينة. وكان بين الحين والآخر يهرب ويختلط بأصدقائه ـ الذين يشكلون تشكيلة متنافرة ومتناقضة جداً من

الأشخاص. وكانت بعض أفعاله الطائشة بريئة ومسلية، والبعض الآخر يتسم بالقذارة والقبح. وبما أنه تربى كمخنث، فقد وجد أنه لا بد له من أن يطور الجانب المتوحش من طبيعته. فقد كان يستمتع بالتشاجر مع أبله صاخب ذي جثة أضخم منه بكثير، وكان يكسر ذراع الرجل أو ساقه ببرود شديد. وقد حقق الكثير مما كان رفاقه الصغار يحلمون بتحقيقه ـ فقد أتقن المصارعة اليابانية. أتقنها ليستمتع بإهانة العمالقة الوحوش الذين يشكلون عالم الأشقياء الذين يخشاهم الرجل الضئيل الحجم. وكلما كانوا أضخم جثة، كان ذلك محبباً لآرثر رايموند. ولم يكن يجرؤ على استخدام قبضتيه خشية أن تجرح يديه. وكنت اعتقد أنه يدعي دائماً بأنه يقاتل، لكنه بلغ من الوضاعة حداً جعله يأخذ خصمه على حين غرة. قلت له مرة: «لا يعجبني ذلك فيك، إذا خدعتني بهذه الطريقة فسأكسر القنينة على رأسك». نظر إليّ مندهشاً، إذ كان يعرف أني لم أكن أهتم بالمشاجرة أو المصارعة. وأضفت: «لاأبالي إن كنت تلجأ إلى هذه الخدع كملاذ أخير. لكنك تريد أن تتباهى فقط. إنك شرس صغير، والشرس الصغير أبغض من الشرس الكبير. وفي يوم من الأيام ستلتقي بالرجل الذي تخطىء في اختياره...».

ضحك وقال بأنني دائماً أفهم الأمور بطريقة غريبة.

وكان يقول: «لهذا أحبك، لأنك متقلب المزاج. فلا يوجد لديك قانون. حقاً يا هنري ـ ويطلق قهقهة من قلبه ـ لا يؤمن جانبك. وإذا أقمنا عالماً جديداً فلن يكون لك مكان فيه. لا يبدو أنك تفهم ماذا يعني الأخذ والعطاء. إنك أفاق مثقف... في بعض الأحيان لا أفهمك على الإطلاق. أنت دائماً خفيف الظل، لطيف، اجتماعي، ومع ذلك... حسناً، لا يوجد لديك ولاءات. أحاول أن أكون صديقاً لك... كنا أصدقاء ذات مرة، هل تذكر... لكنك تغيرت... إنك صعب من الداخل... لا يمكن لأحد أن يقترب منك. يا إلهي، تظن أنني قاس... إني مجرد مشاكس مغرور، مفعم بالحيوية. أنت هو القاسي وليس

أنا. أنت شقي، هل تعرف ذلك؟» ضحك وقال: «نعم، يا هنري أنت هكذا ـ إنك شقي روحي. وأنا لا أثق بك...»

ما كان يزعجه ملاحظة حالة الوئام بيني وبين ريبيكا. لم يكن غيوراً، ولم يكن ثمة داع لذلك، بل كان يحسدني على مقدرتي على إقامة مثل هذه العلاقة الناعمة مع زوجته. وكان دائماً يخبرني بميزاتها الثقافية، رغم أن ذلك يجب أن يكون أساس انجذاب الواحد منا للآخر، لكنه كان في أثناء المناقشة، إذا كانت ريبيكا موجودة، يسفه آراءها كما لو أنها كانت تافهة. وكان يستمع إلى مونا باهتمام يكاد يكون هزلياً. ولم يكن بالطبع يستمع إلا إلى ما تقوله «نعم، نعم، بالتأكيد». ولكن في حقيقة الأمر لم يكن يولي ما كانت تقوله أي اهتمام.

عندما أكون وحيداً مع ريبيكا، كنت أراقبها وهي تطبخ أو تكوي، وكنت أتجاذب معها الأحاديث التي لا يمكن أن تدور إلا مع امرأة تخص رجلاً آخر. وكانت هنا حقاً روح «الأخذ والعطاء» التي كان آرثر رايموند يشتكي أنها إحدى أخطائي. ولم تكن ريبيكا مثقفة على الإطلاق، وكانت تتمتع بطبيعة شهوانية تحب أن تعامل كامرأة وليس كعقل. كنا نتكلم في بعض الأحيان عن الأمور المنزلية البسيطة، الأشياء التي لم يكن يهتم بها معلم الموسيقى.

ما الحديث إلا مجرد ذريعة لأشكال الاتصال الراقية الأخرى. وعندما لا تؤدي هذه الأشكال وظيفتها يصبح الكلام ميتاً. فإذا كان في نية شخصين الاتصال ببعضهما، فلا يهم إن أصبح الكلام مبهماً. فالأشخاص الذين يصرون على الوضوح والمنطق لا يتمكنون غالباً من إفهام ما يريدونه. إنهم دائبو البحث عن جهاز إرسال أكثر كمالاً، مفترضين خطأ أن العقل هو الآلة الوحيدة لتبادل الفكر. فعندما يبدأ أحدهم بالتحدث حقاً فهو ينقذ نفسه. تخرج الكلمات بتهور، لا تكون محسوبة كالبنسات. إن المرء لا يهتم بالأخطاء القواعدية أو الواقعية، والتناقضات، والأكاذيب وما إلى هنالك. إذا

كنت تتحدث إلى شخص يعرف كيف يستمع فهو يفهم تماماً، رغم أنه قد لا يكون للكلمات معنى. عندما يتم هذا الضرب من الكلام يحدث الزواج، لا يهم إن كنت تتحدث إلى رجل أو امرأة. فالرجال الذين يتحدثون إلى رجال آخرين يحتاجون بالقدر نفسه إلى هذا النوع من الزواج تماماً كما تحتاج النساء اللاتي يتحدثن مع أخريات. وقلما يجد الأزواج متعة بهذا الضرب من الحديث، لأسباب شديدة الوضوح.

ويبدو لي أن الحديث، الحديث الحقيقي، هو أحد أكثر سبل التعبير عن جوع الإنسان للزواج اللامحدود. إن الأشخاص الحساسين، الأشخاص الذين يشعرون، يريدون أن يتوحدوا بطريقة أكثر دواماً مما تسمح به العادات والتقاليد. أعني بطرق تتجاوز أحلام الطوباويين الاجتماعيين والسياسيين. إن أخوّة الإنسان، إذا ما حدثت، ما هي إلا مرحلة روضة الأطفال في مسرحية العلاقات الإنسانية. عندما يبدأ الإنسان بالتعبير عن نفسه تماماً، ويتمكن من التعبير عن نفسه دون أن يخشى السخرية، والمقاطعة أو الاضطهاد، فإن أول شيء سيفعله هو أن يصب حبّه. ونحن في قصة الحب الإنساني مانزال في الفصل الأول. هل يوجد لدينا أكثر من عشرة أبطال وبطلات في الحب يمكننا أن نضرب بهم المثل؟ أشكّ إن كان لدينا عشاق بقدر ما لدينا من قديسين شهيرين. ثمة عدد كبير من العلماء، والملوك والأباطرة، والسياسيين والقادة العسكريين، وكثير من الفنانين، والمخترعين، والمكتشفين، والمستكشفين - لكن أين هم العشاق العظام؟ بعد تفكّر وتأمل عميقين لبرهة واحدة يعود المرء إلى أبيلارد وهيليوس، أو إلى أنطونيو وكليوباترا، أو إلى قصة تاج محل. الكثير منها خيالي، صنعها ومجدّها العشاق المساكين الذين لا تلبى دعواتهم إلا بالأساطير. تريستان وأيزولد - يا للتأثير القوي الذي تلقيه الأسطورة على العالم المعاصر! فهي تبرز في عالم الرومانسية كقمة جبل فوجي ياما التي يتوجها الثلج.

كان ثمة ملاحظة رحت أكررها لنفسي مراراً وأنا استمع إلى المشاجرات الطويلة بين آرثر رايموند وكرونسكي. وهي أن المعرفة التي لا يرافقها عمل تؤدي إلى العقم. فهاكم شابان حيويان، كل منهما رائع بطريقته، يتجادلان بحماس ليلة إثر ليلة للتوصل إلى حل جديد لمشاكل الحياة. وثمة فرد صارم، يعيش حياة رصينة، هادئة، منضبطة، في مدينة فيينا البعيدة، مسؤول عن هذه الخلافات. وكان هذا الضرب من الشجار يحدث في أنحاء العالم الغربي. وكان يبدو أنه إما أن يتعين على المرء أن يتكلم بحماس وانفعال عن نظريات سيجموند فرويد هذه أو لا يتكلم أبداً. هذه الحقيقة هامة بحد ذاتها، بل أهم بكثير من النظريات التي تجري مناقشتها. وسيخضع بضعة آلاف من البشر ـ وليس مئات الآلاف! ـ في السنوات العشرين القادمة للعملية المعروفة بالتحليل النفسي. إن تعبير «التحليل النفسي» سيفقد سحره حقاً وسيصبح ألهوجة على كل لسان. وستقل قيمته العلاجية مع انتشار الفهم الشعبي له. وستتضاءل فعالية الحكمة التي تنطوي عليها اكتشافات وتفسيرات فرويد مع تزايد رغبة المصابين بمرض عصبي في التكيف ثانية مع الحياة.

أما في حالة صديقيّ الشابين، فيرى أحدهما أنه لا يوجد حل لجميع المشاكل السائدة سوى الحل الذي تقدمه الشيوعية؛ والآخر، الذي قال إنني مجنون عندما ألمحت إلى احتمال كهذا، فقد أصبح مريضي. لقد ترك أستاذ الموسيقى موسيقاه ليقوّم العالم ولكنه فشل. فشل حتى في أن يجعل حياته أكثر إثارة، أكثر إرضاء، أكثر وفرة. وتخلى الآخر عن ممارسته للطب ووضع نفسه أخيراً بين يدي مشعوذ، وهو الداعي. وقد فعل ذلك عمداً، رغم أنه يعرف أنه لا توجد لدي مؤهلات سوى إخلاصي وحماسي. بل كان سعيداً بالنتيجة، التي كانت لاشيء، والتي كان يتوقعها سلفاً.

الآن وبعد حوالى عشرين سنة على انقضاء الفترة التي أتحدث عنها. في ذلك اليوم، وفيما كنت أهيم على وجهي، فإذا بي أصادف آرثر رايموند في الشارع. كان من الممكن أن أتجاوزه لو لم يبادر

إلى تحيتي. لقد تغيّر كثيراً، فقد ازداد محيط جسمه وأصبح مثل كرونسكي تقريباً. وقد أصبح في منتصف العمر الآن واسودّت أسنانه وتفحمت. وبعد كلمات الترحيب بدأ يتحدث عن ابنه ـ البكر، الذي أصبح الآن طالباً في الجامعة وعضواً في فريق كرة القدم. لقد نقل كل آماله وطموحاته إلى الابن. شعرت بالغثيان. وعبثاً حاولت أن أعرف منه شيئاً عن حياته الخاصة. لا، فقد كان يفضل أن يتحدث عن ابنه. إذ سيصبح شيئاً هاماً! (رياضي، كاتب، موسيقار ـ الله يعلم ماذا أيضاً) لم أكترث للابن. كل ما تمكنت أن أعرفه من كل هذا السيل من الكلمات هو أنه، آرثر رايموند، قد أسلم الروح. كان يعيش في الابن. كان أمراً يثير الشفقة. لم أتمكن من الخلاص منه بسرعة.

«يجب أن تأتي وتزورنا قريباً» (وكان يحاول أن يمسكني) «دعنا نلتقي ونستحضر ذكريات جلساتنا أيام زمان. أنت تعرف كم أحب الكلام!» وأطلق قهقهة كما في الأيام السالفة.

وأضاف وهو يمسك ذراعي «أين تقيم الآن؟».

أخرجت قصاصة من الورق من جيبي وكتبت عليها عنواناً ورقم هاتف زائفين. وقلت لنفسي: في المرة القادمة سنلتقي في عالم النسيان.

عندما ابتعدت أدركت فجأة أنه لم يبد أي اهتمام بما حدث لي خلال كل هذه السنوات. إذ كان يعرف أني كنت مسافراً إلى الخارج، وأني ألفت عدداً من الكتب. قال: «لقد قرأت عدداً من كتبك»، ثم ضحك مرتبكاً، كما لو أنه كان يقول: «لكني أعرفك، أيها العجوز السافل الفاسق... فأنا لا أصدقك!» وكان بإمكاني أن أجيب: «نعم، وأنا أعرف عنك كل شيء. أعرف ما تعرضت إليه من مهانة وخداع».

لو كنا بدأنا نتحدث عن التجارب التي مررنا بها لدار بيننا حديث ممتع. وكان من الممكن أن يفهم أحدنا الآخر على نحو أفضل. لو أنه منحني فقط الفرصة لأظهرت له أن آرثر، الذي فشل، كان

عزيزاً عليّ بنفس القدر الذي كنت أقدرّ فيه ذلك الشاب الواعد الذي عبدته ذات مرة. كان كلانا متمرد، كل بطريقته، وكافحنا كلانا لنصنع عالماً جديداً.

قال وهو يبتعد: «طبعاً ما زلت أثق بها [الشيوعية]». قالها كما لو كان آسفاً لأن يعترف بأن الحركة لم تكن واسعة لتستوعبه بكامل خصاله. بالطريقة نفسها التي كان يمكن أن أتخيّله وهو يقول لنفسه إنه ما زال يثق بالموسيقى، أو بالحياة الخارجية، أو بالمصارعة اليابانية. تساءلت إن كان يدرك ما فعل عندما كان يترك طريقاً تلو الآخر. لو كان توقف في نقطة على طول الجبهة وشق طريقه، لكانت الحياة جديرة بالعيش.

فرويد، فرويد... ربما تنسب إليه الكثير من الأشياء. هناك الدكتور كرونسكي الآن، بعد حوالى عشر سنوات من حياتنا السيمانطيقية في ريفرسايد. كان ضخماً كخنزير بحر، منتفخاً كحيوان مائي، ينفث الكلام من فمه كما ينفث القطار البخار. وكان الجرح الذي أصابه في رأسه قد شوش له جهازه العصبي. لقد أصبح شيئاً شاذاً.

لم يكن قد رأى أحدنا الآخر منذ سنوات عديدة. التقينا مرة أخرى في نيويورك، ودارت بيننا أحاديث حامية. وعرف أني أعلم عن التحليل النفسي أكثر مما كنت أتكلم خلال فترة غيابي في الخارج. ذكرت له بعض الشخصيات في ذلك العالم الذين يعرفهم - من مؤلفاتهم. أبدى إعجابه ودهشته لأني أعرفهم، وأنهم اتخذوني - صديقاً. وبدأ يتساءل إن كان قد أخطأ في حق صديقه القديم هنري ميلر. إنه يريد أن يتحدث عنه، أن يتكلم ويتكلم ويتكلم. أرفض، وقد أعجبه ذلك. إنه يعرف أن التكلم نقطة ضعفه، رذيلته.

بعد عدة لقاءات أدرك أنه يتمخض عن فكرة. لا يمكنه أن يتقبل أني أعرف شيئاً عن التحليل النفسي - إنه يريد إثباتات. يسألني: «ماذا تعمل الآن... في نيويورك؟». أجيب أني لا أعمل شيئاً، حقاً.

«ألا تكتب؟».

«لا».

وسادت فترة صمت طويلة. ثم أخرج ما في جعبته. خبرة... خبرة طويلة. وأنا الشخص المناسب الذي يمكنه أن يقوم بها. وهو سيشرح لي كل شيء.

بالاختصار كان يريدني أن أجرّب مع بعض مرضاه، وهنا يجب أن أقول مرضاه السابقين، لأنه لم يعد يمارس الطب. وهو واثق من أنه بوسعي أن أكون جيداً مثل غيري - بل وربما أفضل. قال: «لن أخبرهم أنك كاتب، لقد كنت كاتباً، لكن خلال إقامتك في أوروبا، أصبحت محلّلاً نفسانياً. هذا كل ما في الأمر؟».

ابتسمت. للوهلة الأولى لم يبدُ الأمر سيئاً على الإطلاق. وفي الواقع كانت هذه الفكرة تداعب مخيلتي منذ زمن. رحبت بها. اتفقنا إذن. غداً الساعة الرابعة سيعرفني إلى أحد مرضاه.

هكذا بدأ الأمر. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح عندي حوالى سبعة أو ثمانية مرضى. وبدوا أنهم كانوا مسرورين من جهودي، وأخبروا الدكتور كرونسكي بذلك. وبالطبع كان يتوقع أن الأمر سيكون هكذا. فكّر أنه ربما أصبح هو نفسه محلّلاً نفسانياً. لم لا؟ كان عليّ أن أعترف أنه لا يوجد سبب يمنعه من ذلك. فأي شخص يتمتع بالجاذبية والذكاء والحساسية يمكنه أن يصبح محللاً نفسانياً. فقد كان هناك معالجون قبل أن يسمع أحد عن ماري بيكر أو سيجموند فرويد بفترة طويلة. فالحصافة تلعب دورها أيضاً.

قلت دون أن أنوي أن تكون ملاحظة جدية: «لكي يكون الشخص محللاً، يجب عليه أولا أن يحلل نفسه، إنك تعرف ذلك».

قال «وماذا عنك؟».

ادّعيت أن أوتو رانك كان قد حلل نفسيتي.

قال وقد بدا عليه الإعجاب ثانية: «لم تخبرني بذلك أبداً»، ولم يكن يكنّ احتراماً كبيراً لأوتو رانك.

سألني: «كم استمر ذلك؟».

«حوالى ثلاثة أشهر. إذ إن فرانك لا يؤمن بإطالة فترة التحليل، أظن أنك تعرف ذلك».

قال متفكراً: «هذا صحيح»، ثم أضاف: «ماذا لو حللت نفسيتي؟ لا، فأنا جاد فيما أقول. أعرف أنها مجازفة عندما تعرف الشخص الذي ستحلله معرفة وثيقة كما هو حالنا، ولكن ذلك لا يهم...».

«نعم»، قلت ببطء وأنا أتحسس طريقي، «ربما فجرنا تلك الممالأة الغبية. ومع ذلك فقد حلل فرويد رانك، أليس كذلك؟» (كانت هذه أكذوبة، لأنه لم يقم أحد بتحليل رانك، حتى الأب فرويد).

«إذن غداً، الساعة العاشرة!».

قلت: «حسناً، وكن هنا في الموعد بدقة. سأحاسبك بالساعة. ستون دقيقة بالتمام والكمال. إن لم تأت في الوقت المحدد فإنك ستخسر...».

«ستجعلني أدفع؟» ردّد، وهو ينظر إليّ كما لو كنت فقدت عقلي.

«بالطبع! أنت تعرف كم هو مهم أن يدفع المريض لقاء تحليله».

فصرخ: «لكني لست مريضاً! يا إلهي، لقد أسديت لك معروفاً».

قلت متصنعاً البرود: «إن الأمر يعود لك، إن تمكنت من الحصول على شخص آخر يقوم بذلك دون مقابل فهذا حسن. سآخذ منك الأجر المعروف، الأجر الذي اقترحته أنت على مرضاك».

فقال: «اسمع الآن، لقد بدأت تصبح رائعاً. ومع ذلك، فأنا الذي جعلتك تنطلق في هذا العمل، لا تنس ذلك».

قلت ملحاً: «يجب أن أنسى هذا، فهذه ليست مسألة عواطف. في المقام الأول يجب أن أذكّرك بأنك لا تحتاج إلى تحليل فقط لتصبح محلّلاً، بل تحتاجه لأنك مريض نفسياً. ولعلك لا تستطيع أن تصبح

محلّلاً إن لم تكن مريضاً نفسياً. وقبل أن تتمكن من شفاء الآخرين يجب أن تشفي نفسك أولاً. وإذا لم تكن مريضاً نفسياً فسأجعلك مريضاً قبل أن أنتهي منك، كيف ترى ذلك؟».

ظن أنها نكتة كبيرة. لكنه جاء في صباح اليوم التالي على الموعد تماماً. وبدا وكأنه قد سهر طوال الليل ليأتي في الوقت المحدد.

«النقود»، قلت حتى قبل أن يخلع معطفه.

حاول أن ينهي الأمر بضحكة. جلس على الأريكة متلهفاً لأن يحصل على زجاجة الحليب كأي طفل في القماط.

قلت مصراً: «يجب أن تدفع لي الآن، وإلا سأرفض التعامل معك»، ووجدت متعة في كوني صارماً معه ـ فقد كان هذا الدور جديداً بالنسبة لي أيضاً.

قال مماطلاً: «لكن كيف يمكننا أن نعرف أنه بوسعنا أن نفعل ذلك؟ أنا سأقول لك... إذا أعجبني أسلوب معالجتك لي فسأدفع لك المبلغ الذي تطلبه... في حدود المعقول طبعاً. لكن لا تثر ضجة على ذلك الآن. هيا لنبدأ».

قلت: «لن أفعل شيئاً... إن لم أعجبك فيمكنك أن ترفع دعوى ضدي، لكنك إن أردت مساعدتي فعليك أن تدفع، وتدفع سلفاً... بالمناسبة، إنك تضيع الوقت فيها، هل تعرف ذلك. إن كل دقيقة تجلس فيها هنا وتجادل حول النقود فإنك تهدر الوقت الذي يمكن أن نقضيه في العلاج. الساعة الآن»، وهنا نظرت إلى ساعتي، «الساعة الآن العاشرة واثنتا عشرة دقيقة. عندما تكون مستعداً، سنبدأ...».

آلمه ذلك كجرو، لكني حصرته الآن.

وفيما كان يفكر في الأمر ـ طلبت منه عشرة دولارات للجلسة الواحدة ـ نظر إلى الأعلى، لكن هذه المرة بطريقة شخص وضع

نفسه بين يدي الطبيب «هل تعني أني إذا جئت إلى هنا يوماً وليس معي نقود، إذا صادف ونسيت، أو لم يكن معي دولارات كافية، فإنك لن تعالجني؟».

قلت: «تماماً»، إننا نفهم بعضنا تماماً. «هل نبدأ... الآن؟».

استلقى على الأريكة مثل خروف جاهز للذبح. قلت له بلطف شديد: «تمالك نفسك»، وجلست خلفه بعيداً عن مدى بصره. «استرخي واهدأ. ستخبرني عن نفسك كل شيء... من البداية. لا تظن أنه يمكنك أن تقول كل شيء في جلسة واحدة. سيكون أمامنا عدة جلسات كهذه. والأمر متروك لك لتقرر كم ستطول هذه العلاقة. تذّكر أن كل جلسة ستكلفك عشرة دولارات. لكن لا تدع ذلك ينخر عظامك، لأنك إذا لم تفكر إلا بالمبلغ الذي سيكلفك، فستنسى ما تريد أن تخبرني به. هذا شيء مؤلم، لكنه في مصلحتك. إذا تعلمت كيف تكيّف نفسك لدور المريض، تعلمت أيضاً كيف يمكنك أن تكيّف نفسك لدور المحلّل. كن نقدياً مع ذاتك، وليس معي. أنا مجرد أداة. أنا هنا لأساعدك... الآن أستجمع نفسك واسترخِ. سأستمع إليك حينما تكون مستعداً لتسلم نفسك...».

تمددّ وذراعاه مطويتان على كتلة من اللحم التي هي بطنه. كان وجهه متغضناً، ممتقعاً، وجلده منكمشاً كجلد رجل عاد لتوه من المرحاض بعد أن اعتصر نفسه حتى الموت. وشكل جسمه لا بلوري لرجل بدين عاجز، يجد الجهد الذي يبذله لرفع جسمه إلى وضعية الجلوس صعباً بنفس الصعوبة التي تبذلها سلحفاة مقلوبة على قفاها لتعدل من وضعيتها. ومهما كانت القوى التي يمتلكها فقد بدت أنها هجرته. ترنح بقلق لبضع دقائق.

حثثته على التكلم، إلا أن ملكة الكلام التي هي موهبته الفائقة تلاشت. فبداية لم يعد هناك خصم أمامه يريد أن يدمره. مطلوب منه الآن أن يستخدم مواهبه ضد نفسه. كان عليه أن يستسلم وأن يكشف

ما في دخيلته، باختصار، أن يخلق ـ وهذا شيء لم يسبق له أن حاوله طوال حياته. كان عليه أن يكتشف «معنى المعنى» بطريقة جديدة، وكان من الواضح أن تلك الفكرة أثارت فزعه.

بعد أن تلوّى، وحك نفسه، وتخبط من جانب إلى آخر على الأريكة، وفرك عينيه، وسعل، وتفتف، وتثاءب، فتح فمه كما ليتحدث لكنه لم يتفوه بشيء. وبعد أن نخر وهمهم ودمدم عدة مرات، نهض قليلاً على مرفقه وأدار رأسه نحوي. كان ثمة شيء يدعو للشفقة في تعابير عينيه.

قال: «هل يمكنك أن تسألني بضعة أسئلة؟ فأنا لا أعرف من أين أبدأ».

قلت: «من الأفضل أن لا أسألك أي سؤال، إنك ستجد طريقك إن أخذت وقتك. فما أن تبدأ حتى تستمر كسواد العين، لا تنسَ ذلك».

انكفأ وتنهد بعمق. سيكون من الرائع تبادل الأماكن معه، قلت لنفسي. خلال فترات الصمت، رغبت في أن أتوقف مؤقتاً. كنت أجد متعة بالبوح، بالاعتراف الصامت إلى محلل كبير خفي. لم أشعر أبداً بالخجل أو بالصعوبة أو أني عديم الخبرة. وبالفعل، فما أن قررت أن ألعب الدور الذي اندمجت فيه تماماً حتى أصبحت مستعداً لأي احتمال. وأدركت على الفور أنه ما أن يتقمص المرء دور المعالج حتى يصبح معالجاً حقاً.

كنت أمسك في يدي دفتراً، مستعداً لتدوين أي شيء مهم يقوله. وكلما طالت فترة الصمت وجدتني أدون بضع ملاحظات ذات طبيعة علاجية خارقة. أذكر أسمي تشيسترتون وهيريوت، وهما شخصيتان عظيمتان كانتا، مثل كرونسكي، موهوبتين بطلاقة لسان رائعة. وخطر لي أني كنت ألاحظ هذه الظاهرة غالباً عند البدينين. كانوا كقناديل عالم البحار ـ أعضاء عائمة ـ تسبح في صوت أصواتها، زوائد لحمية متهدلة إلى الخارج. كان ثمة تركيز حاد رائع في قدراتهم العقلية. وغالباً ما يكون الرجال البدينون أكثر

حيوية وجاذبية وإغراء. إن كسلهم وعدم اكتراثهم بهيئتهم ما هو إلا خداع. وهم يحملون غالباً في أدمغتهم ماسة. وبخلاف الرجل النحيف، فإنهم بعد أن يغسلوا معدتهم بالطعام تبدأ أفكارهم تتلألأ وتومض. ويكونون غالباً في أفضل أحوالهم عندما تستثار شهواتهم الذوقية. أما الشخص النحيف فغالباً ما يكون آكلاً نهماً، وينحو لأن يصبح كسولاً ونعساً عندما يبدأ جهازه الهضمي يعمل. ويكون عادة في أفضل حالاته عندما يكون فارغ المعدة.

قلت أخيراً: «لا يهم من أين تبدأ»، وخشيت أن يغط في النوم. وأضفت: «مهما كان الموضوع الذي بدأت به فإنك ستعود دائماً إلى البقعة المؤلمة». توقّفت لحظة، وبصوت رقيق قلت متعمداً: «يمكنك أن تأخذ غفوة أيضاً، إن أحببت. لعل ذلك سيكون مفيداً لك».

وبلمح البصر استيقظ تماماً وراح يتحدث. فقد أحدثت فيه فكرة الدفع لي ليأخذ غفوة مساً كهربائياً. وراح يفيض بالكلام من كل الجهات على الفور. وقلت لنفسي لم تكن تلك حيلة سيئة.

بدأ بسرعة مدفوعاً بخوف مسعور من أنه يضيع الوقت. وبغتة بدا أنه أصبح يعجب بالمعلومات التي راح يفضي بها وأراد أن يجرني إلى مناقشته عن أهميتها. مرة أخرى رفضت بحزم ولطف ذلك وقلت: «فيما بعد، عندما يصبح لدينا شيء ننطلق منه. لقد بدأت للتو...لم تخدش سوى السطح».

«هل تدوّن ملاحظات؟» سأل مبتهجاً.

أجبت: «لا تهتم بي، فكّر بنفسك، بمشاكلك. تذّكر أنه يجب أن يكون لديك ثقة ضمنية بي. فكل دقيقة تنفقها على التفكير بالأثر الذي تخلفه فإنك تبددها. لا تحاول أن تؤثر عليّ - مهمتك أن تصبح صادقا مع نفسك. فلا يوجد جمهور هنا - إني مجرد مستمع، أذن كبيرة. يمكنك أن تملأها بالثلوج الذائبة والكلام الفارغ، أو يمكنك أن تسقط فيها لآلئ. مشكلتك هي وعي ذاتك. هنا لا نريد إلا ما هو حقيقي وصادق ومحسوس...».

صمت ثانية، تململ بضع لحظات، ثم لبث ساكناً. وكانت يداه متشابكتين خلف رأسه الآن. وقد رفع الوسادة عالياً لكي لا ينام ثانية.

قال بمزاج تأملي هادئ أكثر: «إني أفكر الآن بحلم حلمت به ليلة أمس. وأظن أني سأرويه لك، فلعله يعطيك إشارة...».

هذه المقدمة البسيطة لم تكن تعني سوى شيء واحد ـ أنه مازال قلقاً من تعاوني معه. فقد كان يعرف أنه في التحليل النفسي ينتظر من المرء أن يكشف عن أحلامه. وأنه متأكد من الكثير من التقنية ـ وهي التقنية المتعارف عليها. واستغربت أنه مهما كان المرء ضليعاً في موضوع ما، فإن التنفيذ شيء آخر. وكان يفهم تماماً ما يجري، في التحليل، بين المريض والمحلل، إلا أنه لم يسبق له أن واجه نفسه مرة بإدراك ماذا كان يعني ذلك. حتى الآن، رغم أنه كان يكره أن يهدر نقوده، فإنه سيجد راحة كبيرة إن اقترحت عليه أن نناقش الطبيعة العلاجية لهذا المعلومات التي يكشفها بدلاً من الاستماع إلى حلمه. وفي الواقع كان يفضل أن يخترع حلماً ثم يجزئه إلى قطع معي، ولا أن يفرغ ما في جعبته بهدوء وصدق. وأحسست أنه يلعن نفسه، ويلعنني أيضاً طبعاً ـ لأنه اقترح حالة يمكنه فيها فقط، كما تخيّل، أن يترك نفسه يتعذب.

وبكثير من الجهد والعرق، تمكن من رواية حلم متماسك. وعندما انتهى توقف، كما لو كان يتوقع مني أن أبدي تعليقاً، إشارة بالموافقة أو الرفض. وبما أني لم أقل شيئاً، بدأ يلعب بفكرة أهمية الحلم. وفي خضم هذه النزهة الثقافية توقّف فجأة وأدار رأسه قليلاً، ثم غمغم باكتئاب وقال: «أظن أنه لا يجب عليّ أن أفعل ذلك... هذا شغلك، أليس كذلك؟».

قلت بهدوء: «يمكنك أن تفعل أي شيء يعجبك، إن كنت تحب أن تحلل نفسك ـ وأن تدفع لي لقاء ذلك ـ فليس لديّ أي اعتراض. وأظن

أنك تدرك أن أحد الأشياء التي جئت إليّ من أجلها هي اكتساب الثقة بالآخرين. إن عدم إدراكك ذلك هو جزء من مرضك».

وبدأ على الفور يرغي ويزبد. كان يجب أن يحمي نفسه من كلامي، فليس صحيحاً أنه يفتقر إلى الثقة. وقد قلت ذلك فقط لكي أستثيره.

قاطعته قائلاً: «لا جدوى أيضاً من دفعي إلى المجادلة. فإذا كان هدفك أن تثبت فقط أنك تعرف أكثر مما أعرف، فعندئذ لن تصل إلى أي شيء. أنا أقرّ بأنك تعرف أكثر مما أعرف ـ لكن هذا أيضاً جزء من مرضك ـ إنك تعرف أكثر من اللازم. ولن تعرف أبداً كل شيء، ولو كان بإمكان المعرفة أن تنقذك، لما استلقيت هنا».

«إنك على حق»، قال بوداعة، وقد قبل بما قلته كتأديب له يستحقه. «لنرى الآن... أين وصلت؟ سأدخل في عمق الأشياء...».

هنا نظرت عرضاً إلى ساعتي واكتشفت أن الساعة قد انتهت.

قلت: «لقد انتهى الوقت»، واستويت واقفاً واتجهت نحوه.

قال: «انتظر دقيقة؟» وهو ينظر إليّ والغيظ يمزقه كما لو كنت قد أهنته. «بدأت الأفكار التي أريد أن أقولها تأتي الآن. اجلس دقيقة...».

فقلت: «لا، لا يمكننا أن نفعل ذلك. لقد انتهت فرصتك ـ لقد منحتك ساعة كاملة. ربما في المرة القادمة ستكون أفضل. إنها الطريقة الوحيدة للتعلم»، وشددته ليقف على قدميه.

ضحك رغماً عنه. مد يده وصافحني بحرارة وقال: «بحق الله إنك محق! أنت تجيد التقنية. كنت سأفعل تماماً ما فعلته لو كنت في مكانك».

سلمته معطفه وقبعته، وأوصلته إلى الباب لكي يخرج.

قال: «هل تدفعني إلى الخارج؟ ألا يمكننا أن ندردش قليلاً؟».

قلت: «إنك تريد أن تناقش الأمر، أليس كذلك؟» وأنا أرافقه إلى الباب ضد رغبته. «انتهى الأمر يا دكتور كرونسكي. بدون مناقشات. سأنتظرك غداً في الموعد نفسه».

«لكن ألن تأتي إلى البيت الليلة؟».

«لا، إلى أن تنهي تحليلك لن تكون بيننا علاقة سوى العلاقة بين الطبيب والمريض إن ذلك أفضل بكثير، سترى ذلك». أمسكت يده المرتخية، ورفعتها وصافحته بقوة مودعاً. انسحب نحو الباب مذهولاً.

وأصبح يأتي خلال الأسابيع الأولى بين يوم وآخر، ثم طلب مني أن نباعد بين المواعيد، مشتكياً من أن نقوده بدأت تنفد. وكنت أعرف بالطبع أن ذلك يستنزف ماله، لأنه منذ أن ترك عيادته، كان دخله يأتي من شركة التأمين فقط. ولعله حصل على مبلغ لا بأس به ـ قبل الحادثة. كما كانت زوجته تعمل مدرسة ـ وهو شيء لم أتمكن من إغفاله. وكانت المشكلة هي أن أجعله يتخلى عن كونه تابعاً، أن أجعله ينفق كل قرش بحوزته، وأجعله يستعيد الرغبة في أن يكسب من عرق جبينه مرة أخرى. إذ يصعب على المرء أن يتخيل أنه يمكن لرجل بطاقاته، ومواهبه، وقواه، أن يخصي نفسه عمداً ليستغل شركة التأمين. ومما لا شك فيه أن الإصابة التي تعرض لها في حادث سيارة أضعفت صحته. ومما لا شك فيه أنه أصبح وحشاً. وكنت على قناعة بأن الحادث عجّل من تغيره الشاذ. وعندما طرح فكرة أن يصبح محللاً أدركت أنه مايزال فيه بصيص من الأمل. قبلت الاقتراح بمعناه الظاهري، وأعرف أن كبرياءه لن يسمح له أن يعترف بأنه أصبح «مريضاً». وكنت دائماً أتعمد استعمال كلمة «مرض» لأصدمه، أن أجعله يعترف بأنه بحاجة إلى مساعدة. وأعرف أيضاً أنه إذا منح نفسه نصف فرصة، فإنه سينهار في نهاية الأمر وسيستسلم لي استسلاماً تاماً.

ثمة شيء ما في التحليل يذّكر المرء بغرفة العمليات. فما أن

يستعد المرء ليحلل نفسه، حتى يجد أن الوقت قد فاته كثيراً في العادة. وعندما يواجه المحلل النفسي روحاً مشروخة فإن الملاذ الوحيد أمامه هو أن يجري عملية جراحية. والمحلل النفسي الجيد يفضل أن يمنح مريضه العاجز أطرافاً اصطناعية وليس عكازات، هذا كل ما في الأمر.

إلا أنه ليس للمحلل النفسي خيار، كما يحدث أحياناً للجراح في ساحة المعركة. وفي بعض الأحيان يضطر الجراح إلى بتر ذراع وساق، يصنع وجهاً جديداً من قطعة من اللب يستحيل تمييزها، يقطع خصيتيه، يصمم مستقيماً والله يعلم ماذا أيضاً - إن كان لديه الوقت لذلك. سيكون أكثر رحمة القضاء على مثل هذا الحطام، إلا أن هذه واحدة من سخريات قدر الحياة المتمدنة - تحاول أن تحافظ على البقايا. وبين الحين والآخر، في حوليات الجراحة المروّعة، تصادف نماذج مدهشة من الحيوية المقطعة والمقشرة حتى الجذع، نوع من الكمثرى الإنسانية التي يمكن لبرانكوسي أن يشذبها ويجعلها تحفة فنية. تقرأ أن هذا الإنسان يعيل أمه وأباه المسنين مما يكسبه من صنعته المدهشة، صنعة أداتها الوحيدة الفم الاصطناعي الذي شكلّه سكين جراح من وجه لم يكن بالوسع تمييزه مرة.

هناك نماذج من المرضى النفسيين من هذا الضرب الذين يخرجون من عيادة المحلل النفسي ليأخذوا مكانهم في صفوف العمال الذين امّحت إنسانيتهم. فقد تم تقليمهم ليصبحوا حزمة صغيرة فعالة من الردود الانفعالية. وهم لا يكسبون فقط رزقهم، بل يعيلون أيضاً أقرباءهم المسنين. يرفضون محراب الشهرة في قاعة الرعب التي يتكفلون بها؛ يختارون التنافس مع الأرواح الأخرى بطريقة عاطفية. يستبسلون، كالعقد الخشبية في شجرة بلوط عملاقة. يقاومون الفأس، حتى لو كانوا في الأعلى.

لا أبالغ عندما أقول إن كرونسكي كان من هذا النوع، لكن يجب أن أعترف أنه كان يمنحني هذا الانطباع في مرات كثيرة. فقد

انتابتني رغبة شديدة مرات عديدة في أن أضربه بالفأس وأقضي عليه. وعندها لن يفتقده أحد، ولن يحزن أحد على فقدانه. لقد جعل نفسه يولد كسيحاً وسيموت كسيحاً، هكذا بدا لي الأمر. وكمحلّل نفساني لم أتمكن من رؤية ما هي فائدته للآخرين. وكمحلّل لا يرى إلا الكسيحين في كل مكان، حتى بين أشباه الآلهة. ومحللون آخرون، كنت أعرف بعضهم شخصياً، كانوا ناجحين جداً، تعافوا من عجزهم إذا جاز القول، وكانوا مفيدين لعاجزين آخرين مثلهم، لأنهم تعلموا على الأقل استخدام أطرافهم الاصطناعية بسهولة وإتقان.

وكانت هناك فكرة واحدة، تنخر فيّ كالمثقاب خلال هذه الجلسات مع كرونسكي، وهي أنه يمكن إنقاذ أي شخص، مهما ساءت حالته. نعم، إذا كان لدى المرء وقت لا محدود وصبر أزلي، يمكنه عمل ذلك. وبدأ يخطر لي أن فن الشفاء لم يكن يوماً ما كان يتصوره الناس، وأنه شيء بسيط جداً، بسيط للغاية في الواقع، ليتمكن العقل العادي من إدراكه.

ببساطة خطر لي أن أقول إنها كانت هكذا: كل شخص يصبح معالجاً في اللحظة التي ينسى فيها نفسه. المرض الذي نراه في كل مكان، المرارة والاشمئزاز اللذين تنضحهما الحياة في الكثير منا، ما هو إلا مجرد انعكاس للمرض الذي نحمله في داخلنا. الواقيات لن تحمينا من عالم المرض، لأننا نحمل العالم فينا. ومهما أصبح البشر رائعين، فإن المحصلة النهائية ستتمخض عن عالم خارجي مؤلم وغير كامل. وطالما نحيا ونحن واعين لذاتنا، يجب أن نفشل دائماً في تحمل العالم. وليس من الضروري أن نموت لكي نصبح أخيراً وجها لوجه أمام الحقيقة. إن الحقيقة هنا والآن، في كل مكان، تومض في كل انعكاس يقابل العين. تفرغ السجون وحتى مستشفيات المجانين من نزلائها عندما يهدد المجتمع خطر أكثر حيوية. عندما يقترب العدو، يُستدعى المنفي السياسي ليشارك في الدفاع عن بلده. وفي الخندق الأخير يرسخ في جماجمنا السميكة

أننا جميعنا جزء لا يتجزأ من اللحم نفسه. وعندما تتهدد حياتنا نبدأ في العيش. حتى المريض النفسي، في مثل هذه اللحظات، العاجز يرمي عكازيه جانباً. وبالنسبة له، فإن أعظم متعة هي أن يدرك أن ثمة شيئاً أكثر أهمية من نفسه. إذ كان يطلق غروره طوال حياته. يشعل النار بيديه. يجعل نفسه لقمة سائغة للشياطين الذين حررهم بيديه. هذه هي صورة الحياة الإنسانية على هذا الكوكب الذي يسمى الأرض. الجميع عصابيون، حتى آخر رجل وامرأة. والمعالج أو المحلل ما هو إلا عصابي بامتياز، وقد أصابنا بلعنة لن نشفى منها إلا بعد أن ننهض من قبورنا ونخلع أكفان الموتى. ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك للآخر - إنها مسألة خاصة تتم جماعياً. يجب أن نموت بذواتنا وأن نولد ثانية في الحشد، ليس منفصلين ومنومين ذاتياً، بل أفراداً وذوي قرابة.

أما بالنسبة للإنقاذ وكل ذلك...فإني أقول إن أعظم المعلمين، المعالجين الحقيقيين، يصرّون دائماً على أنهم يدلون على الطريق فقط. وقد بلغ الأمر ببوذا أن قال: «لا تؤمن بشيء ما لم يوافق منطقك وإحساسك، لا يهم أين قرأته أو من قاله، حتى لو كنت أنا قائله».

العظماء لا يقيمون مكاتب، لا يطلبون أجراً، لا يلقون محاضرات، أو يؤلفون كتباً. الحكمة صامتة، وأكثر الدعايات فعالية عن الحقيقة هي قوة القدوة الشخصية. العظماء يجذبون أتباعاً وتلاميذ، شخصيات أقل أهمية تتمثل مهمتها في تقديم الموعظة والتعليم. هؤلاء هم التلاميذ الذين يمضون حياتهم في جعل الآخرين يعتنقون معتقداتهم. العظماء لا يبالون، في عمق إحساسهم. إنهم لا يطلبون منك أن تؤمن: إنهم يؤثرون عليك بسلوكهم. هم الموقظون. يبدو أنهم يقولون إن ما تفعله في حياتك هو شأنك أنت. باختصار، إن غرضهم هنا، على الأرض، إلهام الآخرين. وماذا يمكن للمرء أن يطلب من إنسان أكثر من ذلك؟

أن تكون مريضاً، أن تكون عصابياً، إذا أحببت، يعني أنك تحتاج إلى ضمانات. إن الشخص العصابي هو سمكة موسى قابعة

في قعر النهر، مستقرة بأمان في الطين، تنتظر رمحاً يخترقها. هي تعتبر أن الموت هو الحقيقة الوحيدة، وأن الفزع من تلك الحقيقة البائسة تشلها وتجعلها عديمة الحركة في موت حي أفظع بكثير من الموت الذي يتصوره لكنه لا يعرف عنه شيئاً.

إن طريق الحياة يسير نحو الإنجاز، أينما قاد ذلك. أن تعيد إنساناً ما إلى تيار الحياة لا يعني منحه ثقة بنفسه فقط، بل منحه أيضاً إيماناً كامناً في عمليات الحياة. فالإنسان الذي لديه ثقة بنفسه يجب أن تكون لديه ثقة بالآخرين، ثقة بصلاحية الكون وصوابه. لذلك عندما يقع الإنسان فريسة للمرض يتوقف عن الاهتمام بصلاحية الأشياء، بسلوك أخوانه، بالصح والخطأ، بالعدالة والظلم. وإذا كانت جذوره في تيار الحياة فإنه سيطفو على السطح مثل نبات اللوتس وسيزهر ويثمر. وسيستمد غذاءه من الأعلى والأسفل، وسيضرب جذوره في الأعماق، لا يخشى الأعماق أو المرتفعات. وستتجلى الحياة التي يعيشها في النمو، والنمو عملية سرمدية لانهائية. ولن يخشى الذبول، لأن الاضمحلال والموت هما جزء من النمو. بدأ بذرة ويعود بذرة. البدايات والنهايات ما هي إلا خطوات جزئية في العملية السرمدية. الصيرورة هي كل شيء...الطريقة... الطاوية.

طريقة الحياة! عبارة عظيمة، مثل القول الحق. لاشيء وراءها... إنها كل شيء.

ولذا يقول المحلل النفساني: «كيّف نفسك!» وهو لا يعني، كما يظن البعض ـ أن تكيّف نفسك مع الأمور المتعفنة! إنه يعني: «كيّف نفسك مع الحياة! كن بارعاً! إن أعظم تكيّف ـ هو أن يجعل المرء نفسه بارعاً».

أول من يهلك عندما تهب العاصفة هي الزهور الرقيقة، العملاق يقع صريعاً بالمقلاع. ومع كل ارتفاع جديد، تهددنا أخطار محيرة جديدة أكثر. وغالباً ما يدفن الجبان تحت الجدار الذي تكوّم تحته من الخوف والألم. أعظم الأساطيل هي التي تغرق في نهاية الأمر،

الخطوط السحرية تراوغ دائماً. إن حصان طروادة مستعد دائماً للجري. أين إذاً تكمن السلامة؟ ما هي الحماية التي يمكن أن تخترعها والتي لم تخطر ببال أحد من قبل؟ لا جدوى من التفكير بالأمن إذ لا وجود له. فالإنسان الذي يبحث عن الأمن، حتى في عقله، كالإنسان الذي يقطّع أوصاله ليحصل على أعضاء اصطناعية لا تجعله يشعر بالألم أو الإزعاج.

في عالم الحشرات نرى نظام الدفاع في أكمل صوره. وفي عالم الحيوان نرى في حياة الأسراب نوعاً آخر من نظم الدفاع. وبالمقارنة معها يبدو الإنسان مخلوقاً عاجزاً. بمعنى أنه يعيش حياة مكشوفة أكثر. إلا أن هذه القدرة على تعريض نفسه لكل خطر هي بالضبط مكمن قوته.

الخوف، الخوف متعدد الرؤوس المتأصل فينا جميعاً، زائدة معلقة فينا من الأشكال الأدنى من الحياة. إننا ننتمي إلى عالمين، العالم الذي نشأنا فيه، والعالم الذي نتجه إليه. ذلك هو المعنى الأعمق لكلمة «إنسان»، إذ إننا صلة، جسر، وعد. فصيرورة الحياة تكتمل فينا. وعلى عاتقنا تقع مسؤولية ضخمة، وأهمية هذه المسؤولية هي التي توقظ مخاوفنا. نعرف أننا إذا لم نتقدم، إذا لم نحقق كينونتنا المحتملة، فإننا سنتعرض إلى انتكاسة، سيخرج الزبد منا، ونجر العالم إلى الأسفل معنا. نحن نحمل الجنة وجهنم معا فينا؛ نحن بناؤو الكون. لدينا الخيار ـ وكل المخلوقات تقع ضمن مدانا.

البعض يرى في هذا أمراً مثيراً للفزع. فهم يظنون أن من الأفضل أن تكون الجنة في الأعلى وجهنم في الأسفل ـ في أي مكان في خارجنا، لا في داخلنا. إلا أن هذه المتعة أزيلت من تحتنا. لاتوجد أماكن يمكن أن نذهب إليها، سواء للثواب أو العقاب. المكان دائماً هنا والآن، في شخصك ووفق هواك. إن العالم هو تماماً ماتتصوره أن يكون، دائماً، في كل لحظة. ومن المحال أن تغير المشهد وتتظاهر بأنك ستتمتع بعالم بآخر، بفصل مختلف. مسرح

الأحداث دائم، يتغير مع العقل والقلب، لا طبقاً لأوامر مخرج مسرحي خفي. أنت المؤلف والمخرج والممثل مجتمعين: والمسرحية هي دائماً حياتك الخاصة، وليس حياة شخص آخر. مسرحية جميلة، فظيعة، حتمية مثل بدلة مصنوعة من جلدك الخاص. هل تريدها غير ذلك؟ هل يمكنك أن تخترع مسرحية أفضل؟

إذن استلق على الأريكة الناعمة التي يقدمها لك المحلل النفسي، وحاول أن تبتدع شيئاً مختلفاً. للمحلل النفسي وقت لانهائي وصبر لا ينفد. فكل دقيقة تحتجزه فيها تعني نقوداً في جيبه. إنه مثل الإله ـ الذي خلقك. وسواء تأففت، أو نبحت، أو استجديت، أو بكيت، أو توسلت، أو داهنت، أو صليت أو لعنت ـ فإنه ينصت إليك. إنه مجرد أذن كبيرة لا ينقصه إلا جهاز عصبي متعاطف. محصن ضد كل شيء سوى الحقيقة. وإذا كنت تعتقد أنه من المجدي أن تخدعه فاخدعه إذن. من سيكون الخاسر؟ إن كنت تعتقد أنه يستطيع مساعدتك، ولا تستطيع مساعدة نفسك، فتمسك به حتى تتعفن. لا يوجد ثمة شيء يخسره. لكنك إذا أدركت أنه ليس إلهاً بل إنساناً مثلك، ينتابه القلق، وله عيوب، وطموحات، ونقاط ضعف، وأنه ليس مستودعاً يحيط بالحكمة كلها بل جوّال مثلك، على طول الطريق، فربما توقفت عن تدفق الكلام كالبالوعة، مهما بدت رخيمة لأذنيك، واستويت واقفاً على قدميك وغنّيت بصوتك الذي حباك الله به. أن تعترف، أن تئنّ، أن تشتكي، أن ترثي، فإن ذلك يحتاج دائماً إلى أجر. أما إذا غنيت فلن يكلفك ذلك قرشاً واحداً. لا لن يكلفك شيئاً فحسب ـ بل إنك في الحقيقة ستثري الآخرين. غنيّ، غنيّ. هل تعرف أن الشهداء كانوا ينشدون عندما كانوا يحرقون على الصليب؟ لم يروا شيئاً ينهار، لم يسمعوا صرخات الألم. كانوا ينشدون لأنهم كانوا مفعمين بالإيمان. من يمكنه أن يهدم الإيمان؟ من يمكنه أن يزيل البهجة؟ حاول الإنسان في كل العصور، لكنه لم ينجح. البهجة والإيمان متأصلان في الكون. في النمو ألم وكفاح؛ في الإنجاز بهجة وغزارة؛ في الأداء سلام وصفاء. بين السهول وأجواء الوجود، الأرضية وغير

الأرضية، هناك سلالم وشبكات. إن الذي يتسلق الجبال يغني. ينتشي ويثمل. يصعد بخطى واثقة، لا يفكر بما يقبع في الأسفل إذا ما انزلق ولم يعد يتمسك بقبضته، بل إنه يفكر بما ينتظره. كل شيء يقبع أمامه. الطريق لا نهاية له، وكلما ابتعد المرء، انفتح الطريق أمامه أكثر. إن المستنقعات والسبخات، والحفر والفخاخ، كلها تقبع في العقل. إنها تترصد المرء، مستعدة لابتلاعه في اللحظة التي يتوقف فيها عن التقدم. إن العالم الوهمي هو العالم الذي لم يقهر تماماً. إنه عالم الماضي، وليس عالم المستقبل. والتقدم إلى الأمام والتمسك بالماضي أشبه بشد كرة وسلسلة. السجين ليس هو الذي ارتكب جريمة، بل هو الذي يتمسك بجريمته ويحياها مرات ومرات. إننا جميعنا مذنبون بارتكاب جريمة، الجريمة الكبيرة هي عدم العيش حياة بكاملها. إلا أنه يمكننا أن نكون جميعنا أحراراً. يمكننا أن نكف عن التفكير بما أخفقنا في عمله وأن نعمل في حدود قوتنا. إن القوى التي نمتلكها قد لا يجرؤ أحد حقاً على أن يتصورها. سندرك أنها لانهائية في اليوم الذي نقر فيه لأنفسنا أن الخيال هو كل شيء. الخيال هو صوت الجرأة. إذا كان ثمة شيء إلهيّ عن الله فهو هذا: لقد تجرأ على تخيّل كل شيء.

15

ظن الجميع أن مونا وريبيكا أختان. فقد كانت الواحدة تشبه الأخرى شبهاً يكاد يكون تاماً من الخارج، أما من الداخل، فلم يكن ثمة أدنى شبه بينهما. إذ كانت ريبيكا، التي لم تكن تنكر دمها اليهودي قط، تعيش في الحاضر. وكانت طبيعية جداً، موفورة الصحة، ذكية، تأكل بنهم، تضحك من كل قلبها، وتتحدث ببساطة وسهولة. وكما أتصور، فهي تضاجع جيداً وتنام جيداً أيضاً. وقادرة على التكيف مع واقعها تكيفاً تاماً، وهي تعرف ما تريد، وبوسعها أن تعيش في أي مكان وتقنع بالأشياء كما هي. لقد كانت تمتلك كل الصفات التي يرغبها أي رجل في زوجة. كانت أنثى حقيقية. وفي حضورها، كانت المرأة الأمريكية العادية تبدو كتلة من العيوب.

إلا أن أهم ما كان يميزها هو خشونتها. فقد ولدت في جنوب روسيا، ولأنها لم تعش أهوال حياة الغيتو، فقد كانت تعكس عظمة الناس الروس البسطاء، الذين ترعرعت في كنفهم وعاشت معهم. وكانت ذات قلب كبير، مرنة، صلبة ولينة العريكة في آن واحد. وكانت شيوعية بالغريزة، لأن طبيعتها كانت بسيطة. ورغم أنها كانت ابنة حَبْر، فقد تمكنت من تحرير نفسها في سن مبكرة، وورثت عن أبيها تلك الفطنة والنزاهة.

أما مونا، فمن المستحيل أن تخمّن ما هي أصولها. فقد كانت

تزعم، ولفترة طويلة، أنها ولدت في نيو هامبشاير، وأنها تلقت تعليمها في جامعة نيو إنكلاند. وقد تكون برتغالية الأصل، من الباسك، أو رومانية غجرية، أو مجرية، أو جورجية، أو أي شيء كانت تريدك أن تظنه. وكانت لغتها الإنكليزية صافية لا تشوبها شائبة، ولم يكن في نبرتها، بالنسبة لمعظم من يستمع إليها، أي أثر لأي لكنة. فقد تكون ولدت في أي مكان، لأنه من الواضح أن الإنكليزية التي تتحدث بها هي الإنكليزية التي أتقنتها لتسكت جميع التساؤلات المتعلقة بأصلها وفصلها. وفي وجودها كانت الغرفة تهتز وترتج من موجتها الطويلة التي تتميز بها: قصيرة، قوية، ومعرقلة. وكانت تعمل على قطع كل الإرسالات الأخرى، وخاصة تلك التي تهدد بإجراء اتصال حقيقي معها. لقد كانت تتصرف كما يفعل البرق عندما تهب عاصفة فيهيج البحر.

كان ثمة شيء يجعلها تتكدر من الجو الذي أشاعه التقاء هؤلاء الأفراد الأقوياء، الذين أصبحوا يشكلون أفراد المنزل الجديد. فقد كانت تشعر بتحد لم تكن قادرة تماماً على مواجهته. كان جواز سفرها منظماً أما أمتعتها فكانت تثير الشبهات. وفي نهاية كل لقاء كان يتعين عليها أن تستجمع قواها، إلا أنه بات واضحاً، حتى بالنسبة لها، أن قواها بدأت تذوي وتضعف. وعندما كنا نختلي أنا وإياها في غرفتنا الصغيرة - المقصورة - ونصبح وحيدين، كنت أداوي جروحها وأبذل ما بوسعي لكي أسلّحها للتصدي للمواجهة التالية. وكنت أتظاهر بالطبع أنها خرجت من المواجهة منتصرة انتصاراً يثير الإعجاب. وغالباً ما كنت أكرر على مسمعها بعض ماكنت قد ذكرته، بعد أن أدخل شيئاً من التعديل عليه ببراعة، أو أضخّمه على نحو غير متوقع، لأعطيها الدليل الذي تبحث عنه. ولم أحاول قط أن أذلّها بإرغامها على طرح سؤال مباشر. كنت أعرف تماماً أين يقبع الجليد الرقيق لكي أتزلج فوق هذه المناطق الخطرة ببراعة وخفة شخص محترف. وبهذه الطريقة كنت أملأ بصبر تلك

الفجوات الصارخة على نحو مؤلم في واحدة يفترض أنها تخرجت من معهد تعليمي راق مثل ويلسلي.

كانت لعبة غريبة، سخيفة ومحرجة في آن واحد. وفوجئت عندما لاحظت ظهور مشاعر جديدة نحوها في نفسي: الشفقة. ولم أكن أفهم لماذا لا تلجأ إلى الصراحة. فقد كانت تعرف أني كنت أعرف، لكنها تصرّ على مواصلة تذرعاتها الكاذبة. لماذا؟ لماذا معي؟ من أي شيء كانت تخاف؟ فقد أوضحت لها أن ضعفها لم يقلل من حبي لها. بل على العكس، زاده اضطراماً. لقد أصبح سرها سرّي، وفي حمايتها كنت أحمي نفسي أيضاً. ألم يكن بوسعها أن ترى أنها بإثارة شفقتي عليها لم تكن تفعل سوى أن تقوّي الصلة التي تربطنا؟ لكن لعل ذلك لم يكن يعنيها كثيراً، ولعلها كانت تعتبر أن الصلة بيننا ستنمو مع مرور السنين.

وكان شغلها الشاغل أن تحصن نفسها وتجعلها منيعة. وعندما كشفت ذلك ازداد شعوري بالشفقة عليها كثيراً. كنت كما لو أني اكتشفت بغتة أنها كانت كسيحة. وهذا يحدث أحياناً، عندما يتحابب شخصان. وإذا كان الحب هو الذي يوحّد الشخصين، فإن اكتشاف ذلك لا يؤدي إلا إلى تقوية الحب. إذ يكون المرء متحمساً للتغاضي عن ازدواجية الشخص المنكود الحظ، ويبذل جهداً كبيراً وغير طبيعي لتحديد هويته. «دعني أحمل عبء عيبك الحلو!» أي بكاء القلب الولهان. الأناني فقط هو الذي يمكنه أن يتجنب القيود التي فرضها عليه ندّ غير مساو له. الشخص الذي يحب تثيره فكرة الاختبارات الأكبر، ويتوسل بصمت لأن يسمح له أن يضع اللهب في يده. وإذا أصر المحبوب الكسيح على لعب لعبة التذرع، عندها ينفتح القلب ويطوي التثاؤبات بالفراغ المؤلم للقبر. عندها، لا تُبتلع عيوب المحبوب فقط في ما يدعى حقاً بقبر حيّ، بل كذلك جسده وروحه.

كانت ريبيكا هي التي تركن مونا حقاً على الرفّ. والحق أقول، أن مونا هي التي كانت تسمح بأن تضع نفسها على الرفّ. ولم يكن

ثمة شيء يقنعها بأن تلعب اللعبة كما تطلب مونا أن تلعبها. وكانت تصمد كالجلمود، لا تتزحزح قيد أنملة. ولم تكن تظهر شفقة ولا قسوة. لقد كانت صلبة إزاء كل تلك الحيل والإغواءات التي كانت مونا تعرف كيف تستخدمها مع النساء فضلاً عن الرجال. وأصبح الفرق الرئيسي بين «الأختين» ساطعاً سطوع الشمس، وكانت العداوة في أغلب الأحيان صامتة أكثر منها صريحة، تكشف بوضوح مثير قطبي الروح الأنثوية. ومن الناحية السطحية، كانت مونا تشبه نمط الأنثى السرمدية. أما ريبيكا، التي لم تكن تتسم طبيعتها بالسطحية، فقد كانت تتمتع بمرونة وطراوة الأنثى الحقيقية التي كانت على مر العصور، ودون أن تتنازل عن شخصيتها الفردية، تغيّر معالم روحها وفق تغير الصورة التي يخلقها الرجل ليركّز الإله رغباته غير الكاملة.

إن الجانب المبدع للأنثى يعمل بالتدريج دون أن يشعر به أحد: ويكون إقليمه الرجل المحتمل. وعندما تكون الأنثى حرة ولا تكون لعبتها مقيدة يرتقي مستوى العرق بارتقائها. ويمكن للمرء دائماً أن يقيس مستوى حقبة من الحقب بقياس وضع نسائها. وينطوي الأمر هنا على شيء يتجاوز الحرية والفرص، لأن طبيعة المرأة الحقيقية لا تعبّر عن نفسها أبداً في الطلبات. والمرأة كالماء تستوي دائماً عند المنسوب الذي تصل إليه. وهي كالماء أيضاً، تعكس بصدق كل ما يعتمل في روح الرجل.

لذلك فإن ما يدعى «بالأنثى الحقيقية» ما هو إلا تنكر خادع يقبله الذكر غير المبدع قبولاً أعمى وكأنه حقيقة. إنه الإغراء البديل الذي تقدمه الأنثى المحبطة دفاعاً عن النفس. إنها اللعبة المثلية التي تنتزعها النرجسية، وتتجلى أكثر ما تتجلى عندما يكون الشريكان ذكراً وأنثى تماماً.

لا يمكن للرجل أن يبدأ في فهم أعماق طبيعة المرأة إلا عندما يستسلم بروحه استسلاماً تاماً. عندها فقط يبدأ في النمو ويلقحها

حقاً. هنا لا توجد حدود لما يمكن أن يتوقع منها، لأنه عندما يستسلم يكون قد حدّد قواه. وفي هذا النوع من الاتحاد، الذي هو حقا زواج الروح بالروح، يواجه الرجل وجهاً لوجه معنى الخلق. يشارك في تجربة يدرك أنها تتجاوز دائماً فهمه الضعيف. ويحسّ بالدراما الأرضية والدور الذي تلعب فيه. إذ يأخذ تملك المرأة ضوءاً جديداً. يصبح لذيذاً وغامضاً كقانون الجاذبية.

كانت تدور بيننا معركة غريبة رباعية، وكان كرونسكي يقوم بدور الحكم والمحرض في آن معاً. فيما تسعى مونا دون جدوى إلى تشويه سمعة ريبيكا وإغوائها، وكان آرثر رايموند يبذل قصارى جهده لأتبنى طريقة تفكيره. رغم أن أحداً منا لم يلمح صراحة إلى الموضوع، فإنه كان يعتقد أني أهمل مونا وكنت أعتقد أنه لا يقدّر ريبيكا حق قدرها. وفي جميع مناقشاتنا كنت دائماً أقف في صف ريبيكا، وكانت هي تناصرني، وبالطبع، كانا هو ومونا يفعلان ذات الشيء. وكان كرونسكي، بروح الحكم الحقيقي، يرى أننا كنا جميعنا نقف متحفزين.

أما زوجته، التي لم يكن لديها شيء تسهم فيه، فقد بدأ ينتابها النعاس وكانت تنسحب من المشهد بأسرع ما يمكن. وكان لدي انطباع بأنها كانت تبقى في السرير مستيقظة وتنصت إلينا، لأنه ماأن ينضم كرونسكي إليها حتى كانت توّبخه وتعذّبه لأنه أهملها على نحو مخز. وكان الشجار بينهما ينتهي دائماً بالشخير والنخير والصئيل، تعقبها زيارات متكررة إلى المغسلة المشتركة بيننا.

وبعد أن ننسحب أنا ومونا إلى غرفتنا، كان آرثر رايموند يقف غالباً خارج باب غرفتنا، ويسألنا في البداية إن كنا مانزال مستيقظين، ويروح يتحدث إلينا من خلال عارضة الباب. وكنت أغلق الباب عمداً لأني أخطأت في البداية عندما عاملته بتهذيب وأنا أدعوه للدخول، وكان ذلك شيئاً قاتلاً إذا فكّر المرء بأنه يريد الحصول على قسط من الراحة. ثم وقعت في خطأ آخر، الخطأ الغبي لكوني نصف

مؤدب، بالإجابة على مراحل بكلمات ممطوطة أحادية المقطع نعم... لا... نعم... لا. وما دام يشعر بأدنى حركة في وعي مستمعه، كان آرثر رايموند يواصل كلامه بدفق شديد مثل شلالات نياغارا، ويعمل على حتّ الصخور والجلمود التي تقف في وجه تدفقه الغزير. كان ببساطة يكتسح كل معارضة له... وكانت هناك على أي حال، طريقة لحماية المرء من هذه القوى التي لا تقاوم. إذ يمكن للمرء أن يتعلم الحيلة بالذهاب إلى شلالات نياغارا، ويراقب تلك الأشكال الرائعة التي تقف وظهورها متجهة نحو الجدار الصخري تراقب النهر الهائل وهو يقذف رذاذه على رؤوسها ثم يتساقط بهدير يصمّ الآذان في المنحدر الضيق. إذ يقوم الرذاذ المتناثر فوق رؤوسهم بتنبيه أحاسيسهم المخدرة.

وكان يبدو أن آرثر رايموند أدرك أني اكتشفت وسيلة للحماية تماثل هذه الصورة الوصفية. لذلك كان ملاذه الوحيد، هو العمل على حت قعر النهر ودحرجتي خارج مأواي. ثمة شيء عنيد على نحو سخيف لمثل هذه المثابرة العمياء والعنيدة، شيء يذكّر بالاستراتيجية الرائعة التي استخدمها توماس وولف بعد ذلك كروائي حيث أدرك هو نفسه أنها عيب الآلة *المتنقلة الأبدية* عندما أطلق اسم *الزمن والنهر* على عمله العظيم.

لو كان آرثر رايموند كتاباً لألقيته جانباً. إلا أنه كان نهراً مجسّداً. حتى في نومه كان زئير صوته ماثلاً. كنا نخرج من نومنا وعلى وجوهنا قسمات أولئك الذين أصيبوا بالصمم في نومهم. هذه القوة، التي لم يتمكن أحد من التخلص منها أو أن يدرأها، أصبحت تهديداً كلي الوجود. وعندما كنت أفكر به في السنوات اللاحقة، كنت أشبّهه غالباً في عقلي بتلك الأنهار الهائجة المضطربة التي تفيض، وتخلّف وراءها دوائر هائلة كالتواء الثعبان، تسعى دون جدوى لصرف طاقاتها التي لا يمكن السيطرة عليها، وتنهي معاناتها بقذف عشرات الأفواه الغاضبة في البحر.

إلا أن القوة التي كانت تغمر آرثر رايموند حتى العدم في ذلك الوقت، بسبب مظهرها المهدّد، كانت قوة مهدئة ومنوّمة. ومثل تفاحتين تحت سقف زجاجي، كنت أنا ومونا نتمدد متشبثين بسريرنا، الذي كان سريراً إنسانياً بكل معنى الكلمة، ونخصّب فيه بيضة الحب.

وفي صبيحة أحد الأيام، بعد فترة من استقرارنا في البيت، اكتشفت فيما كنت أستحم، أن قروحاً جلدية نازفة تحيط بالحشفة. ولا داعي للقول إن ذلك أثار مخاوفي. فقد اعتقدت على الفور أني أصبت بمرض جنسي. ولمّا كنت مخلصاً بطريقتي الخاصة، فقد جزمت أن العدوى انتقلت إليّ من مونا.

ولكن ليس من طبيعتي أن أهرع إلى الطبيب في الحال. فنحن نعتبر الطبيب شخصاً محتالاً إن لم يكن مجرماً حقيقياً، وننتظر الجراح عادة، الذي يكون على اتفاق مع الحانوتي. إننا ندفع دائماً مبالغ كبيرة للعناية الأبدية للتوجه إلى القبر.

كنت أقول لنفسي: «ستذهب من تلقاء نفسها»، وأتفحص نفسي عشرين أو ثلاثين مرة في اليوم.

وكان أسهل شيء بالطبع، هو أن أسأل مونا، وهو الأمر الذي مضيت إليه على الفور.

قلت لها وأنا في حالة نفسية مرحة: «اسمعي الآن، إن كنت مصابة فمن الأفضل أن تخبريني. ولن أسألك كيف أصبت بها... أريد الحقيقة، هذا كل ما في الأمر».

سؤالي المباشر لها جعلها تنفجر ضاحكة.

قلت: «يمكنك أن تصابي من جلوسك على كرسي التواليت».

جعلها هذا تضحك على نحو هستيري.

«أو يمكن أن تكون قد عادت من إصابة قديمة. لا يهمني متى أو أين حدثت... هل أصبت بها، وهذا ما أريد أن اعرفه».

كان الجواب لا. لا حازمة! وبدأت تصحو الآن وصاحب التغيير شيء من الغضب. كيف يمكنني أن أفكر بمثل هذا وأتهمها؟ ماذا ظننتها ـ بغي؟

قلت: «حسنا، إذا كان الأمر كذلك، فلا داعي للقلق. فالمرء لا يصاب من الهواء. سأنسى الموضوع...».

لكن لم يكن من السهل نسيان الموضوع بعد ذلك. ففي المقام الأول أصبحت ممارسة الحب من المحرمات. مضى أسبوع، وأسبوع وقت طويل عندما تكون معتاداً على ممارسة الجنس كل ليلة، ومن آن لآخر.

كان ينتصب في كل ليلة كسارية علم. حتى إني استعملت الغشاء الواقي ـ مرة واحدة فقط ـ لأنه آلمني حتى الموت. وكان الشيء الوحيد المتاح أمامي هو أن أداعبها بأصابعي أو ألعقها. وكنت قلقاً بعض الشيء بسبب هذا الشيء، رغم تأكيداتها الوقائية.

من المثير للاهتمام كيف تقول النساء الحقيقة! إذ غالباً مايبدأن بالكذب، كذبة صغيرة غير مؤذية، لجس النبض فقط. ليرين من أين تهب الريح، ألا تعرف. وعندما يشعرن أنك لم تنزعج أو لم تشعر بالإهانة، يجازفن ويخبرنك جرعة من الحقيقة، ثم قليل من الفتات ملفوف بذكاء في منديل ورقي من الأكاذيب.

فمثلاً تلك الجولة الطائشة التي قامت بها في السيارة، والتي كانت تذكرها بصوت خافت. ولا ينبغي لأحد أن يظن لوهلة أنها كانت تستمتع بالخروج مع ثلاثة رجال غرباء ـ وفتاتين غبيتين من المرقص. وكانت قد قبلت لأنه لم تكن توجد، في الدقيقة الأخيرة، فتاة أخرى. ثم كانت تأمل بالطبع، رغم أنها لم تكن تعرف ذلك حينئذ، أن أحد الرجال قد يكون إنساناً، يمكن أن ينصت إليها ويساعدها بمنحها ورقة من فئة الخمسين دولاراً. (فأمها كانت دائماً تعتمد عليها: الأم، السبب والحافز الرئيسي لكل الجريمة...).

ثم، وكما يحدث دائماً في الجولات في السيارة، بدأت تغمر الجميع السعادة. ولو لم تكن الفتيات هناك لاختلف الأمر. فما كادت السيارة تنطلق حتى شمّرن عن فساتينهن فوق ركبهن. وقد شرب الجميع حتى الثمالة، وكان هذا أسوأ ما في الأمر. وبالطبع فقد تظاهرت بأنها شربت... ولكنها لم تجرع سوى بضع قطرات... تكفي لتبليل حنجرتها... أما الآخرون فقد جرعوا كميات كبيرة. ولم تكترث كثيراً بتقبيل الرجال ـ لم يكن ذلك شيئاً هاماً ـ بل بالطريقة التي أمسكوها بها... فقد أخرجا نهديها وأخذا يمرران أيديهما بين ساقيها... اثنان منهم في وقت واحد، وهي تظن أنهما كانا إيطاليين. وحوش داعرة.

ثم اعترفت بشيء كنت أعرف أنه كذبة كبيرة، لكنه كان مثيراً للاهتمام مع ذلك. واحدة من التشوهات كما يحدث في الأحلام التي كانت ترويها. بلى، ومما كان يدعو للغرابة أن الفتاتين الأخريين شعرتا بالأسف عليها... لقد أسفتا لأنهما ورطتاها في هذا الأمر. فقد أدركتا أنها لم تكن تنام مع كل من هبّ ودبّ. لذا أوقفتا السيارة وتبادلن الأماكن، وأجلستاها في المقعد الأمامي مع الشخص ذي الشعر الكثيف الذي ظل مهذباً وهادئاً حتى الآن. جلست الفتاتان على حضني الرجلين الجالسين في المقعد الخلفي، وثوباهما مرفوعان، ووجهاهما متجهان إلى الأمام، وفيما كانتا تدخنان سيجارتيهما وتضحكان وتشربان، تركتا الشابين في المؤخرة يستمتعان بهما إلى أقصى درجة.

شعرتُ أخيراً بالرغبة في السؤال: «وماذا كان الشخص الآخر يفعل خلال ذلك؟».

قالت: «لم يفعل شيئاً. لقد تركته يمسك يدي ورحت أحدثه بسرعة لكي أصرف ذهنه عن أي أمر».

قلت: «دعيكِ من هذا، لا تقولي لي ذلك. الآن ماذا فعل ـ هيا قولي!».

حسناً، فقد أمسك يدها لفترة طويلة ـ صدق أو لا تصدق. بالإضافة إلى ذلك، ماذا يمكنه أن يفعل ـ ألم يكن يقود السيارة؟

«تقصدين أنه لم يفكر قط بأن يوقف السيارة؟».

«بالطبع فعل». حاول عدة مرات، لكنها أقنعته بالعدول عن ذلك... لقد كانت تفكر جاهدة كيف يمكنها أن تراوغ وتلتف حول الحقيقة.

قلت: «وبعد ذلك؟» فقط لأمهد لها السبيل لتتحدث عن النقاط الصعبة.

«حسناً، بغتة أسقط يدي» وتوقفت عن الكلام.

«هيا تابعي!».

«ثم أمسكها ثانية ووضعها في حضنه. كانت فتحة بنطاله مفتوحة وكان منتصباً... انتابني خوف شديد منه. لكنه لم يدعني أبعد يدي. ثم أوقف السيارة وحاول أن يدفعني خارجها. رجوته ألا يقذف بي إلى خارج السيارة. طلبت منه أن يقود السيارة ببطء، فيما أفعل له ذلك... كنت خائفة». جفف قضيبه بمنديل وانطلق ثانية. ثم بدأ يتفوه بأقذر الكلمات...

«مثل ماذا؟ ماذا قال، هل تذكرين؟».

«أوه، لا أريد أن أتحدث عن ذلك...كان شيئاً مقززاً».

قلت: «بما أنك أخبرتني بكل هذا فلا أرى سبباً يجعلك تترددين في الكلمات. ما الفرق... يمكنك أيضاً...

«حسناً، إن كنت تريد... قال إنك النموذج الذي أحب أن أضاجعه. إني أفكر بك منذ زمن بعيد. أحب استدارة مؤخرتك. أحب نهديك. إنك لست عذراء فعلى ماذا تخافين؟ لقد ضاجعك الجميع ـ إنك مثيرة حتى العظم ـ وأشياء من هذا القبيل».

قلت: «إنك تثيرينني، استمري، أخبريني بكل شيء».

يمكنني أن أرى الآن كم كانت سعيدة لأنها أخذت تفرغ كل ذلك من صدرها. لم نعد مضطرين للتظاهر بأي شيء ـ كان كلانا يستمتع بذلك.

يبدو أن الرجلين في المقعد الخلفي أرادا تبديل الأماكن. لقد أخافها ذلك حقاً. الشيء الوحيد الذي كان يمكنني أن أفعله هو أن أدّعي بأني أردت أن أضاجع الآخر أولاً. أراد أن يتوقف حالاً ويخرج. حاولت أن أقنعه بلطف: «قُدِ السيارة ببطء، سأمنحه لك فيما بعد... لا أريدهم كلهم فوقي في وقت واحد. أمسكت قضيبه ورحت أمسده. تصلب بدقيقة... حتى أنه أصبح أضخم من قبل. يا إلهي، أقول لك يا فال، كان لا بد أن يكون حيواناً».

«لا تخرجي عن الموضوع...الآن ماذا حدث بعد؟ ماذا فعل؟».

أمسكني من رقبتي ودفع رأسي إلى حضنه. وغمغم قائلاً: «سأقود ببطء كما قلتِ، وافعلي ما طلبت منك». في هذه الأثناء كنت على وشك أن تأتيني الرعشة أنا نفسي. كان قضيبي يتراقص كشمعة مبللة.

تابعت قصتها بعد توقف قصير. وراحت تحكي كيف جعلها تتكور في ركن السيارة وساقيها مرفوعتين وكيف أنه أخذ يطعنها في داخلها وهو يقود بيد واحدة. كانت السيارة تتعرج ذات اليمين وذات اليسار على الطريق. أما الفتاتان فكانتا في ذلك الحين عاريتين تماماً وتغنيان أغان بذيئة. لم يكن يعرف إلى أين يقود. قالت: «لا، كنت خائفة حتى الموت. فقد كانوا قادرين على عمل أي شيء. كانوا مجرمين. وكل ما كنت أفكر به هو كيف يمكنني أن أهرب. كنت خائفة جداً». ثم توقفت عن الحديث.

قلت: «بحق المسيح، لا تتوقفي هنا. ماذا حدث بعد ذلك؟».

ثم أوقف السيارة على طرف أحد الحقول. وكانت الفتاتان في الخلف تحاولان ارتداء ثيابهما، لكن الرجلين دفعاهما خارج

السيارة عاريتين. كن يصرخن. تلقت إحداهما لكمة في فكها وسقطت من ألمها كجذع على جانب الطريق. فيما بدأت الأخرى تضم يديها، كما لو كانت تصلي، إلا أنها لم تنبس بحرف واحد، فقد شلّها الخوف.

قالت مونا: «انتظرته حتى يفتح الباب من جانبه، ثم قفزت بسرعة خارج السيارة وبدأت أعدو في الحقل. انخلع حذائي من قدميّ اللتين أدمتهما بقايا العشب السميك. أخذت أجري كالمجنونة وهو يجري خلفي. لحق بي وأمسكني من ثوبي ـ مزقه بشدّة واحدة. ثم رأيته يرفع يده وفي اللحظة التالية رأيت النجوم تتراقص أمام عيني. كانت هناك وخزات في ظهري ووخزات في السماء. ارتمى فوقي وأخذ يفعلها كالحيوان. آلمني بشدة. أردت أن أصرخ لكني عرفت إنه سيضربني مرة أخرى. تمددت هناك متشنجة من الخوف وتركته يفعل بي ما يشاء. عضّني في كل أنحاء جسدي، شفتي، أذني، رقبتي، كتفي، صدري ـ ولم يتوقف أبداً عن الحركة ـ كان يضاجعني كحيوان مسعور. ظننت أن كل قطعة من جسدي قد تهشمت. وعندما بدأ يتدفق حسبت أنه انتهى. وعندما بدأت اصرخ قال: «توقفي عن هذا، وإلا ركلتك في فكك». أحسست بوخز في ظهري كما لو أنني كنت أتدحرج على زجاج. قال: «اجثي على يديك وركبتيك الآن وارفعي مؤخرتك». ثم فعل كل شيء... يستله من مكان ويولجه في المكان الآخر. كنت قد دفنت رأسي في الأرض، في التراب. تغلغل التراب في عيني... راح يلسعني بقوة. وفجأة أحسست به يلجني بكل ما أوتي من عزم... لم أعد أحتمله لحظة أخرى. غصت على وجهي وسمعته يقول «اللعنة» ولا بد أنه ضربني مرة أخرى لأني لم أعد أذكر شيئاً حتى استيقظت وأنا أرتعش من البرد، ووجدت نفسي مكسوة بالجروح والكدمات. كانت الأرض ندية... كنت وحيدة...».

هنا اتخذت القصة منحى آخر. ثم منحى آخر وآخر. ومن شدة

لهفتي لمتابعة شطحاتها السريعة كدت أتغاضى عن النقطة الرئيسية في القصة، وهي أنها التقطت المرض. لم تدرك في البداية ماذا كان، لأنه بدا لها في البداية حالة التهاب شديدة من البواسير. وجزمت أن الاستلقاء على الأرض الندية هو السبب في ذلك. على الأقل كان ذلك رأي الطبيب. ثم جاء الشيء الآخر ـ إلا أنها ذهبت إلى الطبيب في الوقت المناسب وعالجها.

أما بالنسبة لي، وبما أني كنت ما أزال مهتماً بالتقرحات التي ظهرت لي، برزت حقيقة أخرى تجاوزتها في الأهمية. ولم أعد أولي اهتماماً كبيراً بمعرفة تفاصيل ما حدث بعد ذلك ـ كيف استجمعت قواها، وتدبرت سيارة توصلها إلى نيويورك. لقد استعارت بعض الملابس من فلوري، وما إلى هنالك. أذكر أني قاطعتها لأسألها كم مضى على حادثة الاغتصاب، وكان انطباعي أن ردها كان غامضاً بعض الشيء. ولكني أدركت فجأة، فيما كنت أحاول أن أدرس المسألة جيداً، أنها كانت تتحدث عن كاروثرس، عن الإقامة في بيته وهي تطهو له وما إلى هنالك. كيف حدث ذلك؟

قالت: «لكن سبق أن قلت لك، إنني ذهبت إلى بيته لأني لم أجرؤ على الذهاب إلى البيت وأنا في هذه الحالة. كان لطيفاً معي إلى أبعد درجة. لقد عاملني كما لو كنت ابنته. كان الطبيب الذي ذهبت إليه طبيبه الشخصي ـ لقد أخذني إليه بنفسه».

استنتجت من ذلك أن الإقامة مع كاروثرس تعني أنها كانت تعيش معه في البيت الذي التقينا فيه ذات مرة، عندما دخل علينا كاروثرس بغتة وأبدى غيرته. لكني كنت مخطئاً.

قالت: «كان ذلك قبل فترة طويلة، كان يعيش آنذاك في شمال المدينة»، وذكرت اسم ممثل كوميدي أمريكي مشهور كان يشاطر كاروثرس الشقة نفسها عندئذ.

«كنت وقتئذ طفلة تقريباً ـ إلا إذا كنت تكذبين في الإبلاغ عن عمرك الحقيقي».

«كنت في السابعة عشرة. فقد هربت من البيت خلال الحرب. ذهبت إلى نيوجيرسي وعملت في مصنع للذخيرة، وبقيت أعمل هناك بضعة أشهر فقط. وأرغمني كاروثرس على ترك العمل والعودة إلى الكلية».

«إذن فقد أنهيتِ دراساتك؟» قلت لها بعد أن اختلطت عليّ الأشياء من كل هذه التناقضات التي سمعتها منها.

«بالطبع! أرجو أن تكف عن ـ».

«وقد التقيت كاروثرس في مصنع الذخيرة؟».

«ليس في المصنع. لقد كان يعمل في ورشة للصباغة بالقرب من المصنع. كان يأخذني إلى نيويورك في بعض الأحيان. أظن أنه كان نائب رئيس الورشة. على أي حال، كان يمكنه أن يتصرف كما يحلو له. كان يصطحبني إلى المسرح وإلى النوادي الليلية...كان يحب الرقص».

«ولم تكوني تقيمين معه في ذلك الحين؟».

«لا، كان ذلك فيما بعد. حتى في شمال المدينة، بعد الاغتصاب، لم أقم معه. كنت أطهو له طعامه وأقوم بالأعمال المنزلية لأظهر له مدى امتناني لما فعله من أجلي. لم يطلب مني قط أن أكون خليلته. أراد أن يتزوجني... إلا أنه لم تكن لديه الشجاعة ليترك زوجته. كانت عاجزة...».

«تقصدين جنسياً؟».

«لقد أخبرتك عنها كل شيء. ما الفرق في ذلك؟».

قلت لك: «لقد اختلطت عليّ الأمور».

«لكني أقول لك الحقيقة. لقد طلبت مني أن أقول لك كل شيء. الآن أنت لا تصدقني».

في هذه اللحظة برق في رأسي ذلك الشك المروّع بأن

«الاغتصاب» (ولعله لم يكن اغتصاباً) حدث في الآونة الأخيرة. ولعل «الإيطالي» الشبق لم يكن سوى ذلك الشاب في الغابة الشمالية. لا شك في ذلك، لأنه جرى أكثر من «اغتصاب» في تلك الجولات بالسيارة بعد منتصف الليل. إن صورتها وهي تقف وحيدة وعارية في حقل مبلل عند الفجر، وجسدها مغطى بالجروح والكدمات، وجدار رحمها هابط، والمستقيم ممزق، وقد طار حذاؤها، عيناها سوداوان وزرقاوان... حسناً، كان ذلك اختلاقاً من شابة رومانسية لتغطي به هفوة مهملة تنتهي بالسيلان والبواسير.

قلت بهدوء: «أظن أنه يجب أن نذهب أنا وأنت إلى الطبيب غداً ونجري فحصاً للدم».

أجابت: «طبعاً سأذهب معك».

تعانقنا بهدوء ثم مارسنا الحب.

قبل أن نغط في النوم، علمت أن غشاء بكارتها كان قد فض عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. وكان ذلك بسبب أمها. نعم، فقد كانوا يفقدونها أعصابها في البيت بسبب حديثهم الذي لايكل ولا يمل عن النقود. لذلك عملت أمينة صندوق في كوة صغيرة أمام دار للسينما. ولم تمض فترة طويلة حتى انتبه لها صاحب دار السينما، الذي كان يمتلك مجموعة من دور السينما في أنحاء البلاد. وكان يمتلك سيارة رولز رويس، ويرتدي أفضل الثياب، وقفازات صفراء. كان غارقاً بالمال. وكان دائماً يخرج ورقة من فئة المائة دولار من محفظته الكبيرة. وأصابعه مسوّرة بخواتم من الألماس. أظافره مشذّبة بشكل جميل. رجل عمره غير معروف، لعله في آواخر الأربعينات. كان يحب الجنس ويترصد الفتيات دائماً. وبالطبع قبلت هداياه. وكانت تعرف أنه يمكنها أن تلعّبه حول إصبعها.

ولكن كان هناك الضغط في البيت. ومهما ألقت لهم من المال فلم يكن يكفيهم.

لذا قبلت دعوته عندما سألها يوما إن كانت تودّ اصطحابه إلى شيكاغو ليفتتح داراً جديدة للسينما هناك. وكانت على ثقة من أنه يمكنها أن تتعامل معه جيداً. كما كانت تتلهف للخروج من نيويورك، لتبتعد عن والديها، وإلى غير ذلك.

بدأ يتصرّف كرجل محترم جداً. كان كل شيء يسير على مايرام ـ وقد منحها علاوة جيدة على الراتب، وكان يشتري لها ملابسها، ويأخذها إلى أفضل الأماكن، كل ما كانت تتخيله. وفي إحدى الليالي وبعد العشاء (كان قد اشترى تذاكر للمسرح) سألها بصراحة: كان يريد أن يعرف إن كانت ما تزال عذراء. وكانت متشوقة لأن تقول له نعم، لأنها ظنت أن بكارتها كانت مصدر حمايتها. لكنها ذهلت عندما اعترف لها بصراحة ووحشية بأنه مهووس بالرغبة في افتضاض الفتيات الصغيرات. حتى أنه اعترف لها أن ذلك كلفه كل قرش يملكه وقد أوقعه في مآزق خطيرة. ومن الواضح أنه لم يتمكن من كبح هذه الرغبة. فقد أقّر بأنه كان منحرفاً، ولم تفد أي وسيلة في شفائه من بليته. وألمح إلى أنه لم يكن ثمة شيء وحشي في ذلك، وأنه كان يعامل ضحاياه دائماً بشفقة ورحمة. فعاجلاً أم آجلاً ستسلم كل فتاة صغيرة عذريتها إلى رجل. وقال بما أن ذلك سيتم، فمن الأفضل أن يعهد بالعملية إلى شخص محترف، ذوّاقة، إذا جاز التعبير. فالعديد من الأزواج الشبان يفعلون ذلك بشكل أخرق وهم لا يجيدون ذلك، ولذا تصبح زوجاتهم في الغالب باردات جنسياً. ولعل تهدم الحياة الزوجية يعود بشكل رئيسي إلى تلك الليلة الأولى. وكان يقول ذلك بإصرار وبسهولة على أنها حقيقة لا يمكن نكرانها.

باختصار، فإنك تستنتج عندما تسمعها تروي لك الحادثة أنه لم يكن يجيد فن افتضاض العذارى فحسب، بل وفن الإغواء أيضاً.

قالت مونا: «قلت لنفسي، إذا كانت ستحدث لمرة واحدة فقط فلماذا لا أتركه يفعلها. قال إنه سيدفع لي ألف دولار، وكنت أعرف

ماذا تعني ألف دولار بالنسبة لأمي وأبي. أحسست أنه يمكنني الوثوق به».

«إذن لم تذهبي معه إلى السينما في تلك الليلة؟.

«لا، لم نذهب ـ لكني وعدته أني سأتركه يفعلها. قال إنه لا داعي للعجلة، وعليّ ألا أقلق من هذا الأمر. طمأنني أنها لن تكون مؤلمة جداً، وقال إنه يمكنه الوثوق بي، إذ كان يراقبني منذ فترة طويلة وهو متأكد من تصرفاتي الجيدة. وليبرهن على حسن نواياه عرض أن يعطيني النقود أولاً. لكني لم أقبلها. لقد كان لبقاً ومهذباً للغاية معي وأحسست أنه عليّ أن أتم الصفقة قبل أن أقبل نقوده. وفي الواقع يا فال، بدأ قلبي يهفو له. كان في غاية اللطف بحيث أنه لم يدفعني إلى ذلك. ولو فعل لكرهته بعد ذلك. وكما تم الأمر، فإني أشعر بالامتنان له ـ رغم أنه تبين لي أن الأمر أسوأ مما كنت أتصوره».

تساءلت ماذا كانت تقصد بهذه الجملة الأخيرة، واستغربت عندما سمعتها تقول:

«كان غشاء بكارتي قاسياً جداً. وكما تعرف فإنهم يجرون في بعض الأحيان عملية جراحية لافتضاضه. لم أكن أعرف عن مثل هذه الأشياء في ذلك الوقت. ظننت أن الأمر سيكون مؤلماً ودموياً قليلاً... بضع دقائق... ثم ينتهي كل شيء... على كل حال، لم يتم الأمر على هذا النحو أبداً. فقد استغرق أسبوعاً تقريباً قبل أن يتمكن من افتضاضه. يجب أن أقول إنه كان يجد متعة في ذلك. كان لطيفاً! لعله كان يدخل في روعي أنه كان صلباً جداً، لكي يطيل الأمر. فهو لم يكن قوياً جداً. كان قصيراً وغليظاً. وكان يخيل لي أنه كان يولجه حتى آخره، لكن بدأ ينتابني الخوف ولم أستطع أن أقول له ذلك. كان يبقى فيّ لفترة طويلة، وكان قلما يتحرك، صلباً كصخرة، وكنت أشعر بوخزه كأداة حادة. وكان أحياناً يخرجه ويداعبني به من الخارج. بدا ذلك لذيذاً. كان يمكنه أن يفعل ذلك إلى ما لا نهاية. كان يقول إن جسدي رائع... وإنه ما أن يتمكن من ثقب تلك القطعة

الجلدية حتى يغدو النوم معي لذيذاً. لم يكن يستخدم كلمات نابية ـ كذلك الفظ العنيف الآخر. كان شبقاً. يراقبني، يعلمني كيف أتحرك، لقد أراني كل أنواع الحيل... وكان من الممكن أن يستمر الأمر فترة أطول لو لم أشعر بشهوة جامحة في إحدى الليالي».

كنت أتساءل إن كانت ستخبرني بصدق كم دامت هذه العلاقة ـ بعد انتهاء الجانب التقني منها. وقد أعطتني الجواب على الفور تقريباً. كانت صادقة على نحو مدهش. وبدا لي وجود دفء غير عادي في ذكرياتها، جعلني أدرك كيف أن النساء يشعرن بالامتنان عندما يُعاملن بتفهم.

استمرت قائلة: «بقيت خليلته لفترة من الزمن. وكنت دائماً أتوقع منه أن يمل مني، لأنه كان قد أكد لي أنه لا ينجذب إلا إلى العذراوات. وبالطبع كنت ما أزال عذراء بمعنى ما. فقد كنت صغيرة جداً، رغم أن الناس كانوا يظنونني في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمري. لقد علمّني الشيء الكثير. ذهبت معه إلى كل مكان، تجولنا في جميع أنحاء البلد. كان مولعاً بي جداً ويعاملني دائماً باهتمام شديد. وفي أحد الأيام لاحظت أنه كان غيوراً. فقد فاجأني ذلك لأنني أعرف أنه ضاجع الكثير من النساء ـ ولم يكن يخطر لي أنه كان يحبني «لكني أحبك» قال عندما أثرت غيرته. ثم تملكني الفضول. فأردت أن أعرف كم كان يتوقع أن يستمر معي في هذه العلاقة. دائماً كنت أنتظر تلك اللحظة التي يجد فيها فتاة أخرى يريد أن يفتضها. كنت أخشى وجود فتاة صغيرة في حضوره».

قال لي: «لكني لا أفكر في فتاة أخرى، إني أريدك أنت... وسأبقى معك».

«لكنك قلت لي...» بدأت أقول، ثم رأيته يضحك... وأدركت حالاً كم كنت حمقاء. قلت: «إذن هكذا حصلت عليّ، أليس كذلك؟» ثم انتابني شعور بالحقد عليه. كان حمقاً مني لأنه لم يفعل شيئاً يؤذيني. لكني أردت أن أذلّه.

وتابعت قولها: «أنا أحتقر نفسي لما فعلته، لم يكن يستحق أن أعامله بهذه الطريقة. لكني شعرت بالسعادة عندما جعلته يعاني. بدأت أغازل أي رجل أصادفه. حتى أني ذهبت إلى الفراش مع بعضهم، وكنت أحكي له عنهم وأبالغ في ذلك عندما رأيت كيف كان ذلك يؤذيه. وكان يقول: «إنك صغيرة ولا تفهمين ما تفعلينه». بدا لي ذلك صحيحاً، لكني كنت أفهم شيئاً واحداً وهو أني كنت في موقع أفضل من موقعه، ورغم أني بعت نفسي له فقد كان عبداً لي. كنت أقول له: «أذهب وأشتري لك عذراء أخرى، إذ يمكنك أن تحصل عليهن بأقل من ألف دولار. ولو كنت عرضت علي خمسمائة دولار لقبلتها. كان بوسعك أن تنالني بدون مقابل لو كنت أذكى قليلاً. ولو أخذت منك النقود لاخترت واحداً جديداً كل ليلة». بدأت أتكلم معه بهذه الطريقة حتى لم يعد يحتمل ذلك. وفي إحدى الليالي اقترح أن يتزوجني. وأقسم أنه سيطلق زوجته فوراً إن وافقت. قال إنه لا يمكنه العيش بدوني. أجبت: «لكن يمكنني أن أعيش بدونك». جفل وقال: «إنك قاسية، فظة». لم تكن لدي نية في الزواج منه، مهما كان مخلصاً. ولم أكن أبالي بنقوده. لا أعرف لماذا أسأت إليه هكذا. وبعد أن تركته شعرت بالخجل التام من نفسي. عدت إليه في إحدى المرات وطلبت منه أن يصفح عني. كان يعيش مع فتاة أخرى - أخبرني بذلك على الفور. قال: «سأخلص لك. لقد أحببتك. أريد أن أفعل أشياء وأشياء من أجلك. لم أكن أتوقع أن تعيشي معي إلى الأبد. لكنك كنت متهورة وعنيدة... كنت مختالة بنفسك كثيراً». كان يتحدث إليّ كما لو كان أبي يتحدث إليّ. وددت أن أبكي».

في صبيحة اليوم التالي ذكّرتها بزيارتنا المقترحة إلى الطبيب. قلت لها إني سأخابرها في وقت لاحق من اليوم وأطلب منها أن نلتقي في عيادة الطبيب. كان يجب أن أستشير كرونسكي في الأمر. وافقت وقالت لك ما شئت.

قمنا بزيارة الطبيب الذي اختاره لنا كرونسكي، وأجرينا

فحصاً للدم، حتى أننا تناولنا طعام العشاء مع الطبيب. كان شاباً وظننت أنه لم يكن واثقاً تماماً من نفسه. لم يكن يعرف كيف يتصرف. أراد أن يعرف إن كنت قد أصبت بالسفلس في الماضي. قلت له إني أصبت به مرتين. هل عاد مرة أخرى؟ لا أعرف، وما إلى هنالك. أشار عليّ بأن أنتظر بضعة أيام قبل أن نقدم على أي شيء. وخلال ذلك سيجري تحليلاً لدمنا. وقال إننا نبدو في صحة جيدة، رغم أن المظاهر خادعة في معظم الأحيان. باختصار، تحدّث وتحدّث، كما يفعل الأطباء الشبان غالباً ـ والأطباء المسنون أيضاً.

عندما قمنا بزيارة الطبيب مرة ثانية أعلمنا أن كل الدلائل تشير إلى نتيجة سلبية. إلا أنه أوضح أن ذلك ليس دليلاً قاطعاً.

قال ـ من الواضح أنه كان يفكر في الموضوع قبل وصولنا ـ «أظن أنه من الأفضل لك بكثير إذا خُتنت في الحال، فعندما تزال القلفة فستذهب من تلقاء ذاتها. عندك قلفة طويلة بشكل نادر ـ ألا تضايقك؟».

اعترفت أني لم أفكر في ذلك من قبل. يولد أحدنا بقلفة ويموت آخر بها. فلا أحد يفكر في الزائدة إلا عندما يحين وقت استئصالها.

تابع قوله: «نعم، ستكون أفضل حالاً بدون تلك القلفة. يجب أن تذهب إلى المستشفى، بالطبع... وستتماثل للشفاء خلال أسبوع أو حوالى الأسبوع».

سألته: «وكم تكلف؟».

لم يذكر المبلغ بدقة وقال ـ ربما مائة دولار.

قلت له سأفكّر في الموضوع. ولم أكن متحمساً جداً لأن أفقد قلفتي الثمينة، حتى لو كان في استئصالها فوائد صحّية جمة. وخطرت لي عندئذ فكرة مضحكة ـ وهي أن حشفتي ستصبح عديمة الإحساس. لم تعجبني تلك الفكرة على الإطلاق.

إلا أنه أقنعني أن آخذ موعداً مع جراحه بعد أسبوع من

مغادرتي عيادته. «إذا ذهبت من تلقاء نفسها أثناء ذلك فلن تحتاج إلى إجراء العملية إذا لم ترق لك الفكرة».

وأضاف: «لكني لو كنت مكانك لفعلتها سواء أحببتها أم لا. إنها أنظف بكثير».

وخلال ذلك مضت فترة الاعترافات الليلية بسرعة. فقد توقفت مونا عن العمل في المرقص منذ بضعة أسابيع، وأصبحنا نمضي الأمسيات معاً. لم تكن تعرف ماذا ستفعل ثانية ـ وكانت دائماً مسألة النقود هي التي تقلقها ـ إلا أنها كانت على ثقة بأنها لن تعود إلى المرقص. وبدا أنها مرتاحة مثلي عندما علمنا أن نتيجة فحص دمها كانت جيدة.

«ولكن لم تساورك الظنون بأنك مصابة بمرض، أليس كذلك؟».

قالت: «لا يعرف المرء، إنه مكان مروّع... فالفتيات قذرات».

«الفتيات؟».

«والرجال أيضاً... دعنا لا نتحدث عن ذلك».

استيقظت مبكراً في صباح اليوم الذي كنت سأزور فيه المستشفى. وفيما كنت أستحم نظرت إلى قضيبي ولم يكن هناك شيء. لم أكد أصدق عيني. أيقظت مونا وأريتها إياه. عدت إلى السرير ثانية ومارسنا الحب بسرعة لأختبر إن كان على ما يرام. ثم اتجهت إلى الهاتف واتصلت بالطبيب. قلت: «إنه الآن أفضل بكثير. ولن أزيل قلفتي». وأطبقت سماعة الهاتف بسرعة لأحبط أي محاولة منه لإقناعي.

فيما كنت أغادر مقصورة الهاتف خطر لي فجأة أن أتصل بمود.

شرحت لها الأمر. بدا أنها تريد مواصلة الحديث عن أشياء كثيرة ليس لها علاقة بالموضوع. فقلت لها بضيق: «يجب أن أذهب الآن».

قالت: «لحظة واحدة، كنت سأسألك إن كان بإمكانك أن تأتي قريباً، لنقل يوم الأحد، ونخرج إلى الريف. يمكننا أن نذهب نحن الثلاثة في نزهة. سأحضّر غداء...».

كان صوتها ناعماً جداً.

قلت: «حسناً، سآتي. سآتي في وقت مبكر... حوالى الساعة الثامنة».

قالت: «هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟».

«تماماً. سأريك إياه ـ يوم الأحد».

أطلقت ضحكة خفيفة داعرة. وأطبقت السماعة.

16

فيما كانت إجراءات الطلاق معلّقة، مرت أحداث كما لو أن العصر يشارف على الانتهاء، ولم يكن ينقصه سوى اندلاع حرب. فقبل كل شيء رأى أصحاب الفخامة الشيطانيون في شركة كوسموديمونيك للتلغراف ضرورة نقلي إلى مكان آخر مرة أخرى، هذه المرة إلى غرفة تقع في أعلى طابق في بناية عالية قديمة في منطقة تصنيع الخيوط والصناديق الورقية. وكانت طاولتي توجد في وسط طابق مهجور كبير يستخدم غرفة لتدريب فرق السعاة بعد ساعات العمل. وفي الغرفة المجاورة، التي كانت كبيرة وفارغة أيضاً، أقيم فيها ما يشبه عيادة وصيدلية وصالة رياضة مجتمعة. ولكي تكتمل الصورة وضعوا طاولات للعب البلياردو. وكان بعض أنصاف الأذكياء يحضرون معهم مزالجهم لتزجية ما تبقى من الوقت. ولم أعد أبالي أبداً الآن بجميع خطط ومشاريع الشركة التي لم تعد تزعجني بقدر ما أصبحت تسليني وتدخل إلى نفسي المتعة والسرور. وقد أصبحت الآن معزولاً تماماً عن المكاتب الأخرى. وخفت حدة التطفل والتجسس. ويمكنني القول بأنهم وضعوني في حجر صحي. واستمرت عملية التوظيف والطرد بطريقة حالمة، وخُفّض عدد العاملين معي إلى اثنين ـ أنا والملاكم المحترف السابق. ولم أعد أبذل أي جهد لترتيب الملفات، ولم أعد أدقق في المعرّفين، كما ماعدت أجري أي مراسلات. ولم أعد أبالي بالرد على الهاتف، وإذا كان ثمة شيء عاجل جداً فهناك البرقيات.

كان الجو السائد في المكان الجديد عبارة عن انفصام تام في الشخصية. فقد نفوني إلى جهنم ووجدتني استمتع بذلك. وما أن أنتهي من المتقدمين بطلبات عمل حتى كنت أدخل إلى الغرفة المجاورة وأراقب الأعمال البهلوانية التي تجري فيها. وكنت بين الحين والآخر ألبس حذاء التزحلق وأقوم بدورة مع أولئك البلهاء. وكان مساعدي ينظر إليّ مستنكراً ممتعضاً، عاجزاً عن فهم ما جرى لي. وكان في بعض الأحيان، رغم صرامته وقانونه السلوكي المتزمت وعناصره النفسية الأخرى، تنطلق منه ضحكة تطول حتى تصل إلى درجة الهستيريا. وسألني مرة إن كنت أعاني من «مشكلة في البيت»، وكان يخشى أن تكون الخطوة التالية إقدامي على الشراب.

في واقع الأمر، بدأت أتعاطى الشراب بحرية في هذه الفترة. وكان الشراب الذي بدأت أحتسيه نوعاً غير ضار، وقد بدأ ذلك على مائدة العشاء. وبالمصادفة المحضة اكتشفت مطعماً إيطالياً فرنسياً وراء إحدى البقاليات. فقد كان يشيع جواً لطيفاً، حيث كان كل شخص يتمتع «بشخصية مميزة» حتى الشرطة والمخبرون الذين كانوا يلتهمون كل شيء بشكل معيب على نفقة صاحب المطعم.

كان عليّ أن أجد مكاناً أمضي فيه أمسياتي، بعد أن انسلّت مونا إلى المسرح من الباب الخلفي. وسواء كان موينهان هو الذي وجد لها العمل أم لا، كما ادعت، لم يكن بوسعي أن أكتشف ذلك أبداً. وقد أطلقت على نفسها اسماً جديداً، اسماً يناسب عملها الجديد ومعه تاريخ جديد كامل من حياتها. فقد أصبحت بغتة إنكليزية، وكان أقاربها على صلة بالمسرح بقدر ما تستطيع أن تتذكر. وكانت قد شقت طريقها إلى ذلك العالم التخيّلي عن طريق أحد المسارح الصغيرة التي ازدهرت في ذلك الوقت والتي كانت تلائمها تماماً.

في بادئ الأمر، لم يكن آرثر رايموند وزوجته يميلان إلى تصديقها. وكانا يظنان أنها كذبة أخرى من الأكاذيب التي درجت

مونا على اختلاقها. وراحت ريبيكا، التي لم يكن بوسعها إخفاء مشاعرها، تضحك في وجه مونا. إلا أنها عندما عادت إلى البيت في إحدى الأمسيات تحمل مخطوطة مسرحية شنيزلير، وراحت تتدرب بجدية على دورها تحولت شكوكهما إلى ذعر.

وعندما تمكنت مونا من الانضمام إلى نقابة المسرح بألاعيبها المعروفة عنها والتي لا يمكن تفسيرها، شابَ جو العائلة مشاعر الحسد والنكاية والحقد. وكانت المسرحية على وشك أن تصبح حقيقية جداً ـ وبات هناك الآن خطر حقيقي بأن تصبح مونا تلك الممثلة التي دأبت على الإدعاء بأنها ستكونها.

بدا أن البروفات لا نهاية لها. ولم أعرف قط في أي ساعة ستعود إلى البيت. وعندما كنت أمضي الأمسية معها كنت كمن يستمع إلى امرأة ثملة. فقد أفسدت بهجة الحياة الجديدة تماماً. وكنت بين الحين والآخر أمكث في المساء وأحاول الكتابة، لكن ليس ثمة فائدة. وكان آرثر رايموند يقبع هناك دائماً كإخطبوط،فيقول: «ماذا تريد أن تكتب؟ يا إلهي، أليس هناك ما يكفي من الكتّاب في العالم؟» ثم يأخذ في التحدث عن الكتّاب، الكتّاب الذين كان يعجب بهم، وأنا جالس أمام الآلة الكاتبة، متحفز لاستئناف عملي في اللحظة التي يتركني فيها. وغالباً لا أفعل شيئاً أكثر من كتابة رسالة ـ إلى مؤلف مشهور، أعبّر له فيها عن إعجابي بأعماله، ملمّحاً إلى أنه، إذا لم يكن قد سمع عني مسبقاً، فسيسمع عني في القريب العاجل. وهكذا حدث ذات يوم أني تلقيت رسالة رائعة من دوستويفسكي الشمال، كما كان يدعى: كنوت هامسن. وكانت قد كتبتها سكرتيرته، بإنكليزية ركيكة. وكانت بالنسبة لرجل حصل منذ فترة وجيزة على جائزة نوبل، قطعة محيرة من الإملاء. فبعد أن أوضح أنه أحس بالسعادة لما أعربت عنه من تقديري له، إلى درجة أنه تأثر كثيراً بذلك، فقد تابع قوله (من خلال فمَه الخشبي) بأن ناشره في أمريكا لم يكن راضياً تماماً عما يدرّه بيع كتبه من إيرادات مالية. وهو يخشى ألّا

يكون بوسعه نشر كتبه ما لم يُبدِ جمهور القراء اهتماماً أكبر. وكانت تنم عنه لهجة عملاق تغمره الكآبة، وتساءل بغموض ماذا يمكن عمله لإنقاذ الموقف، ليس بالنسبة له فقط بل ولناشره العزيز، الذي كان يعاني حقاً بسببه. وبعد ذلك، كما ورد في الرسالة، بدا وقد استحوذت عليه فكرة سعيدة وسرعان ما عبّر عنها. وهي على النحو التالي: فقد تلقى رسالة من السيد بويل الذي كان يعيش أيضاً في نيويورك، والذي كنت بلا شك أعرفه (!). وهو يفكر أنه قد ألتقي بالسيد بويل، ونشحذ زناد فكرنا ونمعن النظر في هذا الأمر، وقد نتوصل إلى حل رائع. وربما نعلم الناس الآخرين في أمريكا أنه يوجد في براري ومستنقعات النرويج كاتب يدعى كنوت هامسن، تمت ترجمة أعماله بدقة إلى الإنكليزية وهي ملقاة الآن على رفوف مخازن ناشره. وهو على ثقة بأنه إذا تمكن من زيادة مبيعات كتبه بضع مئات فقط من النسخ، فإن ناشره سيستعيد ثقته وإيمانه فيه ثانية. وقال إنه قام بزيارة أمريكا، ورغم أن لغته الإنكليزية ركيكة جداً بحيث لا يستطيع أن يسطر لي رسالته بيده، فإنه على ثقة من أنه يمكن لسكرتيرته توضيح أفكاره ونواياه. ويتعين عليّ أن أبحث عن عنوان السيد بويل، الذي لم يعد يتذكره. وحثني على عمل ما بوسعي أن أفعله. ولعله يوجد عدد من الأشخاص الذين سمعوا عن أعماله في نيويورك ممن يمكننا التعاون معهم. وأنهى رسالته بملاحظة مؤلمة، ولكنها رصينة... وتفحصت الرسالة بعناية لعلي أرى إن كان قد ذرف دموعاً عليها.

لو كان المغلف لا يحمل خاتم البريد النرويجي، ولو لم تكن الرسالة نفسها موقعة بخربشة خطه، الذي تأكدت منه، لظننت أن الأمر ينطوي على خدعة. وأعقب ذلك مناقشات مستفيضة وسط نوبات من الضحك الصاخب. فقد اعتبرت أن ذلك عقوبة لي لعبادتي بطلي بحمق. فقد حطم المعبود وتلاشت قدراتي النقدية إلى درجة الصفر. ولا يمكن لأحد أن يتصور كيف سيمكنني قراءة كنوت هامسن مرة أخرى. والحق أقول أني شعرت برغبة في البكاء. فقد

حصل فشل فظيع، فكيف لم أفهم، رغم الدليل على عكس ذلك، وببساطة شديدة، كيف لم أستطع أن أفكر مجرد تفكير أن مؤلف الجوع، إله الرياض والرعاة، فيكتوريا، نمو المحاصيل، هو الذي أملى تلك الرسالة. ومن المفهوم تماماً أنه ترك الأمر لسكرتيرته، وقد وقّع اسمه بنية طيبة دون أن يزعج نفسه بالإطلاع على ماتحتويه الرسالة. فمما لاشك فيه أن رجلاً شهيراً مثل كنوت كان يتلقى عشرات الرسائل في اليوم من المعجبين من جميع أنحاء العالم. وليس هناك في مقدرتي الفتية شيء يهم رجلاً في مقامه إن قرظته أم لا. ولعله أصبح أيضاً يمقت العرق الأمريكي كله، بعد أن مرّ بفترة مريرة هنا خلال السنوات التي حجّ فيها إلى أمريكا. ومن المرجح أنه أخبر سكرتيرته البلهاء في أكثر من مناسبة أن مبيعاته في أمريكا لم تكن تذكر. وربما كان ناشرو كتبه يضايقونه - فالمعروف أن الناشرين تستحوذ عليهم فكرة واحدة هي شغلهم الشاغل عندما يتعاملون مع مؤلفيهم، ألا وهي المبيعات. ولعله لاحظ بامتعاض، بحضور سكرتيرته، أن لدى الأمريكيين نقوداً ينفقونها على كل شيء ماعدا الأشياء التي تستحق أن ينفق عليها في الحياة. فقررت، تلك البلهاء المسكينة، أن تنتهز الفرصة وتقدم عدداً من الاقتراحات النيّرة لتحسين الوضع المؤلم نتيجة عبادتها لسيدها. ولعلها واحدة من المثقفات النرويجيات المتحررات من كل شيء إلا من الخيال. ولعلها كانت تحرص على النظافة وتهتم بالعلم، وقادرة على ترتيب بيتها، ولا تؤذي أحداً، ولا تتدخل في شؤون الآخرين، وتحلم في أن تصبح يوماً ربة مؤسسة إخصاب، أو رئيسة أحد مراكز رعاية اللقطاء.

لا، لقد زالت غشاوة الوهم تماماً عن إلهي. وتعمدت أن أعيد قراءة بعض كتبه، وبسذاجة رحت أبكي على بعض المقاطع. تأثرت بعمق بحيث بدأت أتساءل إن كنت قد حلمت بالرسالة.

كان صدى هذا «الفشل» غير عادي. فقد أصبحت متوحشاً، لاذعاً، أشعر بالمرارة. أصبحت جوالاً يعزف على أوتار خرساء من

الحديد. رحت أقلد الشخصيات التي أعبدها الواحدة تلو الأخرى. أصبح حديثي مجرد هراء متعفن وكلام فارغ. بدأت أصب البول الحار على كل شيء. أصبحت شخصين ـ شخصي والشخصيات التي أتقمصها، والتي كانت تشكل فيلقاً.

إن اقتراب موعد محاكمة الطلاق جعلني أكثر وحشية وحقداً، ولسبب يتعذر تفسيره، بدأت أكره المهزلة التي ستتم باسم العدالة. شعرت بازدراء المحامي الذي وكّلته مود للدفاع عن مصالحها. بدا أشبه برومين رولاند الذي يتغذى على أكواز الذرة، الخفاش الذي لا يملك ذرة واحدة من الروح المرحة أو الخيال. ويبدو أنه كان مشحوناً بالتذمر الأخلاقي. لقد كان جباناً، خائناً، منافقاً. كان ذكر اسمه يجعل بدني يقشعرّ.

خرجنا لقضاء يوم في نزهة. استلقينا على العشب في مكان بالقرب من مينيولا. وكانت الطفلة تقفز فوق العشب وتقطف أزهاراً. كان اليوم دافئاً وكانت تهب رياح جافة وحارة تجعل المرء عصبياً ومتوتراً. حاولت مداعبتها ودسست يدي داخل سروالها. استسلمت قليلاً لمداعباتي، إلا أنها سرعان ما عادت ثانية إلى أحد أمزجتها الاحتجاجية. فلم تحب أن أداعبها هكذا في حقل مفتوح. قلت لها بإصرار لكن لا يوجد أحد حولنا. كانت قلقة على الطفلة. نظرت حولي وقلت: «إنها على ما يرام، تمضي وقتاً جميلاً. وهي لا تفكر بنا».

«لكن افترض أنها عادت... ووجدتنا...».

«ستظن أننا نائمان. لن تعرف ماذا نفعل...».

وبهذا دفعتني جانباً بقسوة. «إن ذلك فظيع. ستأخذني أمام طفلتك! هذا شيء فظيع».

«ليس فظيعاً أبداً. أنتِ الفظيعة. أقول لكِ إنه شيء بريء. حتى

لو تذكرته ـ عندما تكبر ـ تكون قد أصبحت امرأة وستفهم عندئذ. لاشيء قذر في هذا. إن عقلك هو القذر، هذا كل ما في الأمر».

قلت: «حسناً، لنأكل شيئاً إذن، إذا لم يكن بوسعنا أن نضاجع فلنأكل».

«نعم، كل! يمكنك أن تأكل في أي وقت. هذا كل ما يهمك، أن تأكل وتنام».

قلت: «المضاجعة، وليس النوم».

«أرجو أن تكف عن التحدث معي بهذه الطريقة. وراحت تخرج صحون الطعام. يجب أن تفسد كل شيء. ظننت أنه يمكننا أن نمضي يوماً هادئاً، ولو مرة واحدة فقط. كنت دائماً تقول إنك تريد إمتاعنا بنزهة. لم تفعل ذلك طوال عمرك. ولا مرة. إنك لا تفكر إلا بنفسك، بأصدقائك، بنسائك. كنت غبية عندما ظننت أنك ربما تغيرت. أنت لا تهتم بطفلتك ـ قلما رعيتها. حتى لا يمكنك أن تمسك نفسك في وجودها. ستأخذني أمامها وتدعي أنّ ذلك أمر بريء. إنك حقير... وأنا سعيدة بأن كل شيء قد انتهى بيننا. في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم سأكون حرة... سأخلص منك إلى الأبد. لقد سمّمت حياتي. جعلتني حقودة وكارهة. جعلتني أحتقر نفسي. منذ أن عرفتك لم أعد أعرف نفسي. لقد أصبحت ما كنت تريدني أن أصبحه. أنت لم تحبني... أبداً. كل ما أردته هو أن تشبع رغباتك. لقد عاملتني كحيوان. تأخذ ما تريد وتذهب. تذهب مني إلى امرأة أخرى ـ أي امرأة ـ مادامت ستفتح لك ساقيها. ليس لديك ذرة ولاء أو رقة أو اعتبار... خذ!» قالت، وهي تدفع السندويشة في يدي، «أتمنى أن تغصّ بها!».

عندما قربّت السندويشة من فمي، شممت رائحة فرجها على أصابعي. شممت أصابعي وأنا أنظر إليها مكشراً. قالت: «إنك مقرف».

قلت: «ليس كثيراً يا سيدتي. أنا أحب رائحته، حتى لو كنت بغيضة. إني أحبه. إنه الشيء الوحيد الذي أحبه فيك». تملكها الغضب الآن، وأخذت تبكي.

«أتبكين لأني قلت أني أحب فرجك! يالك من امرأة! يا إلهي، أنا الذي يجب أن أكرهك. أي نوع من النساء أنت؟».

أصبحت دموعها أكثر غزارة. عندها جاءت الطفلة راكضة. سألت: «ماذا في الأمر؟ لماذا تبكي يا ماما؟».

قالت مود وهي تجفف دموعها: «لاشيء، لقد لويت كاحلي»، وراحت تنشج رغم محاولاتها لتمسك نفسها. انحنت فوق السلة وانتقت سندويشة للطفلة.

قالت الطفلة: «لماذا لا تفعل شيئاً يا هنري؟» وجلست هناك وراحت تنقل نظراتها بيننا بنظرة يشوبها الحزن.

جلست على ركبتي ورحت أفرك كاحل مود.

قالت بحدة: «لا تلمسني».

فقالت الطفلة: «لكنه يريد أن يجعلها أفضل».

«نعم يا أبت اجعلها أفضل»، قلت وأنا أفرك كاحلها بلطف، ثم أخذت أربت على ربلة ساقها.

قالت الطفلة: «قبّلها، قبّلها وجفف دموعها».

انحنيت فوقها وقبّلت مود على خدها. ولدهشتي فقد طوقتني بذراعيها وقبّلتني قبلة عنيفة على فمي. ووضعت الطفلة ذراعيها حولنا أيضاً وقبلتنا.

انتابت مود فجأة نوبة جديدة من البكاء. وفي هذه المرة كان منظرها يثير الشفقة. وشعرت بالأسف عليها. فألقيت ذراعيّ حولها بلطف ورحت ألاطفها.

راحت تنشج وتشهق: «يا إلهي، يالها من مهزلة!».

قلت: «ولكنها ليست مهزلة، أعني ذلك بصدق. أنا آسف، آسف على كل شيء».

توسلت الطفلة: «كفيّ عن البكاء. أريد أن آكل. أريد أن يأخذني هنريْ إلى هناك» وأشارت بيدها الصغيرة إلى أجمة في طرف الحقل. وأضافت: «أريدك أن تأتي أنت أيضاً».

«إذا فكرت أنها المرة الوحيدة... ويجب أن تكون هكذا». كانت تشهق الآن.

«لا تقولي ذلك يا مود. لم ينته اليوم بعد. لننسَ كل شيء. هيا لنأكل».

وبشيء من الممانعة والتعب، كما يبدو، التقطت سندويشة ورفعتها إلى فمها، ثم غمغمت: «لا يمكنني أن آكل»، ووضعت السندويشة جانباً.

«هيا، نعم يمكنك أن تأكليها»، حثثتها وضممتها إليّ مرة أخرى.

«إنك تتصرف هكذا الآن... وبعد ذلك ستفعل شيئاً يفسده».

«لا لن أفعل... أعدك».

قالت الطفلة «قبّلها ثانية».

انحنيت وقبلتها بنعومة ولطف على الشفتين. وبدا أنني تمكنت من استرضائها حقاً الآن. فقد شعت عيناها بضوء خافت.

قالت بعد توقف قصير: «لماذا لا تكون هكذا دائماً؟».

قلت: «أنا هكذا، عندما تتاح لي الفرصة. لا أحب أن أتشاجر معك. لماذا يجب عليّ؟ إننا لم نعد زوجاً وزوجة».

«إذن لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟ لماذا تمارس الحب معي دائماً؟ لماذا لا تتركني وشأني؟».

أجبت: «أنا لا أمارس الحب معك، هذا ليس حباً، إنها عاطفة

مشبوبة. وهذا ليس جريمة، أليس كذلك؟ بحق الله، لا تدعينا نبدأ ذلك من جديد. سأعاملك بالطريقة التي تريدين أن أعاملك بها ـ اليوم لن أمسّك ثانية».

«أنا لا أطلب منك ذلك. أنا لا أقول لا يجب أن تمسّني. لكن الطريقة التي تفعلها بها... أنت لا تظهر أي احترام لي... لشخصي. هذا ما أكرهه فيك. اعرف أنك لم تعد تحبني، لكن يمكنك أن تتصرف بشكل لائق معي، حتى لو لم تعد تكترث بي. أنا لست تلك المتزمتة حسب ادعائك لي. لدي مشاعر أيضاً... ربما أقوى وأعمق من مشاعرك. يمكنني أن أجد شخصاً آخر يحل محلك، لا تظن أنه لايمكنني أن أفعل ذلك. أحتاج فقط إلى بعض الوقت...».

كانت تمضغ سندويشتها بتراخ. وفجأة ومضت عيناها، واكتستا بلمحة خبيثة خجولة.

وتابعت: «يمكنني أن أتزوج غداً، إذا أردت، لم يخطر ذلك ببالك أبداً، أليس كذلك؟ في الواقع لدي ثلاثة عروض الآن. كان الأخير من...» وهنا ذكرت اسم المحامي.

قلت: «هو؟» ولم أتمكن من أن أكبت ابتسامة ازدراء.

قالت: «نعم، هو، وهو ليس كما تظن. إني أحبّه كثيراً».

«حسنا، ذلك يفسر كل شيء. الآن فهمت لماذا يبدي كل هذا الحماس بالقضية».

أعرف أنها لم تكن تهتم به، روكامبو ليسكوي هذا، أكثر من اهتمامها بالطبيب الذي فحص مهبلها بإصبع مطاطي. إنها لا تهتم بأحد في الحقيقة. كل ما تريده السكينة وتوقف الألم. كانت تريد حضناً تجلس عليه في الظلام، قضيباً يلجها على نحو غامض، كلمات تغرق رغباتها التي لا يمكن ذكرها. والمحامي ذاك سيؤدي الغرض بالطبع. لماذا؟ سيكون مخلصاً كقلم حبر، رصيناً كمصيدة جرذ. لقد صُدم عندما علم أني أحضرت امرأة أخرى إلى بيتي؟ صدم

حين عرف أني تركت الواقيات الجنسية المستعملة على حافة المغسلة؟ صدم لأني بقيت في البيت ريثما أتناول طعام فطوري مع عشيقتي؟ الحلزون تُصدم عندما تصيب قطرة المطر صدفتها. الجنرال يُصدم عندما يعلم أن حاميته أبيدت أثناء غيابه. الله نفسه سيُصدم بلا شك عندما يرى كم غبي وعديم الحس على نحو مقرف هو ذلك الوحش الإنساني حقاً. لكني أشكّ إن كانت الملائكة تصدم أبداً ـ ليس حتى بحضور المجانين.

كنت أحاول أن أشرح لها ديالكتيك الدينامية الأخلاقية. لويت لساني في محاولة مني لأن أجعلها تفهم الفرق بين زواج الحيوان والزواج الإلهي. وفهمت كما يفهم الإنسان العادي عندما تشرح له نظرية البعد الرابع. فقد تحدثت عن الطيبة والاحترام، كما لو أنهما كانتا قطعاً من الحلوى الملائكية. أما الجنس فهو حيوان حُبس في حديقة حيوان يزورها المرء أحياناً ليدرس نظرية التطور.

عند المساء عدنا إلى المدينة في آخر قطار، وكانت الطفلة نائمة بين ذراعيّ. الأم والأب عائدان من النزهة. وفي الأسفل كانت المدينة تمتد بصلابة هندسية خالية من الشعور، حلم شيطاني يتولد معمارياً. حلم يستحيل أن تصحو منه. السيد والسيدة ميجالوبوليتان ونسلهما. عرجاء ومقيّدة. معلّقة في السماء كلحم الغزال. زوج من كل شيء معلق من العراقيب. في طرف تمتد المجاعة، وفي الطرف الآخر يوجد الإفلاس.

ماما وبابا مسالمان. لم يعد فيهما نفسٌ للشجار. كم من الممتع أن يمضي المرء يوماً في العراء، مع الديدان ومخلوقات الله الأخرى. يا لها من استراحة بين الفصول! الحياة تسير كحلم. إذا فتحت الأجسام وهي ما تزال دافئة لن تجد شيئاً يشبه هذه القصيدة الرعوية. وإذا أفرغت الأجسام وملأتها بالأحجار فستغوص إلى قاع البحر مثل بطات ميتة.

يبدأ المطر ينهمر بغزارة. حبات كبيرة من البرد تتقافز فوق

الرصيف. المدينة تشبه كومة من النمل. المجاري تفيض وتلفظ قيأها. السماء متجهمة وكئيبة كقعر أنبوبة اختبار.

بغتة أشعر ببهجة غامرة. أتمنى من الله أن يستمر المطر هكذا أربعين يوماً وليلة، أريد أن أرى المدينة تسبح في غائطها. أريد أن أرى القميئين يعومون في النهر وصناديق النقد تدهس تحت عجلات سيارات الشحن. أريد أن أرى المجانين يخرجون من مستشفيات المجانين يحملون سواطيرهم ويقطعون بها الأوصال يمنة ويسرة.

أوصلهما إلى البيت بسيارة أجرة بسلامة عندما ضرب سهم من البرق برج الكنيسة الكاثوليكية اللعينة عند الزاوية. أصدرت الأجراس المكسورة ضجيجاً صاخباً وهي تسقط على الرصيف. داخل الكنيسة تمثال للعذراء من الجبس يتحطم ويتناثر أشتاتاً. يباغت القسيس ولا يتاح له وقت ليزرر بنطاله. خصيتاه تنتفخان كصخرتين.

ميلاني ترفرف كطائر قطرس مجنون. تقول نائحة: «جفف أشياءك!» أرتدي رداء مود الذي يشبه كيساً ذا ريش اللقلق. يحصل لدي انتصاب، «انتصاب شخصي»، إذا عرفت ما أقصد.

كانت مود في الطابق الأعلى تضع الطفلة في السرير. أجول في البيت حافي القدمين، الرداء واسع جداً وفضفاض. ينتابني إحساس لذيذ. ميلاني تختلس النظر لتتأكد إن كنت على ما يرام. تجول في البيت في سروالها الداخلي والببغاء الجاثم فوق رسغها. أثار البرق ذعرها. كانت السماء تومض بين الحين والآخر بشريط من البرق، مخلفاً طعم المطاط المحروق في الفم.

كنت أقف أمام المرآة الكبيرة معجباً بنفسي عندما دخلت مود. كانت مرحة وتثب كأرنب بري مزدانة بالنسيج الحريري والموسلين. لم يكن يبدو أنها كانت خائفة مما تراه في المرآة. جاءت ووقفت إلى جانبي. قلت أحثها: «باعدي بين ساقيك»، سألتني «هل أنت جائع؟».

أدرتها وشددتها نحوي. رفعت إحدى ساقيها لتتيح لي إمكانية ولوجها. نظر أحدنا إلى الآخر في المرآة. كانت مفتونة.

عندما انتهينا، خطر ببالي الدوش فجأة. قلت لها وأنا أكاد أدفعها: «انهضي! انهضي!».

قالت بصوت متراخ: «لم أعد بحاجة إليه»، ورمقتني بابتسامة العارف.

«هل تعنين...؟» ونظرت إليها مندهشاً.

«نعم، لا حاجة للقلق... هل أنت على ما يرام؟ ألا تريد أن تغتسل؟».

في الحمام اعترفت لي بأنها قامت بزيارة الطبيب - طبيب آخر. وأخبرها بأنه لا يوجد شيء يثير الخوف بعد الآن.

«هكذا إذن؟».

مالت فوقي وقبلتني وقالت: «يا إلهي، وألقت بذراعيها حولي، لو...».

«لو ماذا؟».

«إنك تعرف قصدي...».

انفصلت عنها وأدرت رأسي. قلت: «نعم، أظن أني فهمت قصدك. على كل حال، لم تعودي تكرهينني، أليس كذلك؟».

أجابت: «أنا لا أكره أحداً، آسفة لأن الأمور أخذت هذا المنحى. والآن يجب عليّ أن أشاركها...إياك».

ثم أضافت بسرعة: «لا بد أنك جائع. دعني أحضّر لك شيئاً قبل أن تذهب». وذرّت على وجهها مسحوقاً في البداية بعناية، ثم طلت شفتيها بأحمر الشفاه، وصففت شعرها بعجلة ولكن بجاذبية. وكان ثوبها مفتوحاً من الخصر فما فوق. وبدت لي الآن أفضل مما رأيتها في حياتي ألف مرة. لقد بدت مثل حيوان شبق مشرق.

رحت أجول في المطبخ وقضيبي متدل، وساعدتها في تحضير الوجبة الخفيفة الباردة. ولدهشتي أخرجت زجاجة نبيذ محلي كان قد أهداها إياها أحد الجيران. أغلقنا الأبواب وأبقينا الغاز مشتعلاً ليظل المكان دافئاً. كم كان الأمر رائعاً. كنا كما لو كان الواحد منا يتعرف إلى الآخر من جديد. كنت أنهض بين الحين والآخر وأطوقها بذراعيّ، وأقبّلها بحرارة على فمها فيما تنسل يدي في شقها. لم تكن تشعر بالخجل على الإطلاق. بل بالعكس. عندما شددتها نحوي، أمسكت يدي، وبسرعة أطبقت شفتيها عليه وأخذت تمصه.

«لا يتعين عليك أن تذهب في الحال، أليس كذلك؟» سألتني وأنا أجلس وأعود إلى تناول طعامي.

قلت بطريقة ودية جداً ومستسلمة: «لا، إلا إذا كنت لا تريدنني أن أبقى».

قالت: «هل العيب فيّ أن ذلك لم يحدث من قبل؟ هل كنت مخلوقاً مقززاً إلى هذه الدرجة؟» ونظرت إليّ بعينين تشوبهما الصراحة والإخلاص بحيث لم أكد أميّز المرأة التي عشت معها كل هذه السنوات.

قلت وأنا أجرع كأساً آخر من النبيذ: «أظن أن اللوم يقع علينا كلينا».

توجهت إلى الثلاجة لتبحث عن طعام شهي.

قالت: «أتعرف ماذا أودّ أن أفعل؟» وعادت إلى المائدة ويداها محملتان. «أريد أن أجلب الفونوغراف إلى هنا وأرقص. عندي بعض اسطوانات الأغاني الخفيفة...هل تودّ ذلك؟».

قلت: «بالتأكيد».

«ولنثمل قليلاً... هل تمانع في ذلك؟ تغمرني سعادة بالغة الآن. أريد أن أحتفل».

قلت: «وماذا عن النبيذ؟ هل هذا كل ما عندك؟».

قالت: «يمكنني أن أحصل على المزيد من الفتاة التي تسكن في الطابق العلوي، أو ربما على شيء من الكونياك إذا كنت تريد؟».

«سأشرب أي شيء... إذا كان ذلك سيسعدك».

توجهت على الفور للذهاب. قفزت واقفاً وأمسكتها من خصرها. رفعت ثوبها وقبّلت ردفها.

غمغمت قائلة: «دعني أذهب، سأعود في الحال».

عندما عادت سمعتها تهمس إلى الفتاة في الطابق العلوي. نقرت نقرات خفيفة على الزجاج، وقالت بمناغاة: «ضع شيئاً عليك، إلسي معي».

دخلت الحمام ولففت منشفة حول وسطي. انتابت إلسي نوبة من الضحك عندما رأتني. لم نكن قد التقينا منذ ذلك اليوم الذي وجدتني فيه مستلقياً على السرير مع مونا، وقد بدت في مزاج مرح رائع ولم تشعر بالحرج لما آلت إليه الأمور. وأحضرتا زجاجة أخرى من النبيذ وبعض الكونياك والفونوغراف والأسطوانات.

كانت إلسي في مزاج جيد لمشاركتنا احتفالنا الصغير. وتوقعت من مود أن تعرض عليها الشراب ثم تتخلص منها بشكل مؤدب. لكن لا، لم يحدث شيء من هذا. ولم تكن منزعجة أبداً لوجود إلسي، بل استأذنتنا ضاحكة لكي نسمح لها أن تخلع بعض ثيابها وتبقى نصف عارية، كما لو كان ذلك مجرد أمر طبيعي. وضعنا إحدى التسجيلات ورحت أرقص مع مود. وانزلقت المنشفة إلا أن أيا منا لم يحاول رفعها.

قالت مود: «لماذا لا تراقصها؟ فأنا لا أمانع في ذلك. هيا ياإلسي ارقصي معه».

توجهت إلى إلسي. وعندما أدارت ظهرها نحو مود سحبت المنشفة وأمسكتها بيد محمومة. شعرت بجسدها كله يرتفع، كما لو كانت قد اعترتها نوبة من البرد.

قالت مود: «سأذهب لأحضر بعض الشموع، إن المكان ساطع جداً هنا». واختفت في الغرفة المجاورة. وعلى الفور توقفت إلسي عن الرقص، وأطبقت شفتيها على شفتي ودفعت لسانها في فمي. وضعت يدي بين ساقيها ورحت أعركها. توقف المسجل. لم يتوجه أحد منا لتوقيف الفونوغراف. سمعت وقع خطوات مود وهي عائدة. بقيت مطوقا إلسي بين ذراعي.

قلت لنفسي ستبدأ المشاكل من الآن. إلا أنه بدا أن مود لم تعر ذلك أي اهتمام. أشعلت الشموع، ثم أطفأت النور الكهربائي. كنت على وشك أن أنسل من بين ذراعي إلسي عندما شعرت بها بجانبنا. قالت: «هذا جيد، إني لا أمانع. دعني أنضم إليكما». وعلى الفور طوقتنا بذراعيها ورحنا نقبل بعضنا نحن الثلاثة.

«آووه! الجو حار!» قالت إلسي وانفصلت عنا.

قالت لها مود: «اخلعي فستانك إذا أردت، أنا سأخلع هذا»، وقرنت كلامها بالفعل وخلعت ثوبها ووقفت عارية أمامنا.

وفي اللحظة التالية أصبحنا جمعينا عراة كما ولدتنا أمهاتنا.

قالت مود: «لم أشعر بسعادة مثل الآن»، وتوجهت إلى الفونوغراف ووضعت أسطوانة أخرى. قالت: «أعطني كأسك»، وعندما أترعتها غمغمت: «ماذا ستقول لها عندما ستعود إلى البيت؟». لم أقل شيئاً. ثم أضافت بصوت خافت: «يمكنك أن تقول إن أحدنا كان مريضاً».

قلت: «لا يهم سأفكر بشيء أقوله».

«ألن تزعل مني؟».

«أزعل؟ لماذا؟».

«لأني جعلتك تبقى كلّ هذه الوقت».

قلت: «هراء».

طوقتني بذراعيها وقبلتني بنعومة. ويد الواحد منا حول وسط الآخر، مددنا أيدينا إلى الأقداح ورشفنا نخب صحتينا بصمت. في هذه اللحظة عادت إلسي. وقفنا عراة، أذرعنا متشابكة، وتبادلنا الأنخاب.

عدنا إلى الرقص مرة أخرى، وقد ذابت الشموع وأصبح لها أخاديد. وعرفت أنه بعد بضع لحظات ستنطفئ ولن يتحرك أحد ليحضر شموعاً جديدة. كنا نبّدل أماكننا بسرعة، لكي لا يحرج واحدنا الآخر من الوقوف والمراقبة. كانت مود وإلسي ترقصان معاً في بعض الأحيان، ثم تفترقان وهما تضحكان، وكانت تقترب مني الواحدة منهما أو الأخرى. وساد شعور بالحرية والألفة بحيث أصبح أي تعبير أو عمل جائزاً. أخذنا نضحك ونتبادل مزيداً من النكات، وعندما ذابت الشموع أخيراً، الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق سوى وميض باهت من ضوء القمر ينسرب عبر النوافذ، زال أي شعور بالحشمة بيننا.

كانت فكرة مود أن ننظف الطاولة. ساعدتها إلسي دون وعي منها، كشخص منوّم مغناطيسياً. وبسرعة ألقيت الصحون في حوض المجلى. وبسرعة وثبت إحداهن إلى الغرفة المجاورة لتحضر ملاءة ناعمة لفرشها على الطاولة.

وقبل البدء في العمل، كان لدى مود إلهام آخر بأن تصنع مشروباً خليطاً. وكان علينا أن نشعل الضوء لذلك. وراحت الاثنتان تعملان بسرعة كبيرة، بشكل مسعور تقريباً. صبتا جرعة كبيرة من الكونياك في الخلطة.

كانت مود تضيء شمعة عندما قالت: «لقد تأخرت».

قلت: «لن أذهب إلى البيت الليلة، سأنام هنا.

«صحيح؟» قالت مود، يشوب صوتها إثارة يتعذر كبتها.

«نعم، لا يمكنني أن أعود وأنا في هذه الحالة، يا إلهي، إني

أترنح... أنا ثمل ومحلول»، وارتميت على الكرسي، «أعطني قطرة من ذلك الكونياك، إني أحتاج إلى جرعة».

صبّت لي كأساً قوياً ورفعته إلى شفتي، كما لو أنها تعطيني جرعة من الدواء. استوت إلسي واقفة على قدميها وراحت تتمايل منهكة وقالت: «أعطني واحداً.. يالها من ليلة! يجب أن نكرر هذا مرة أخرى».

قلت «نعم، غداً».

قالت وهي تمسد رقبتي: «لقد كان رائعاً، لم أظن في حياتي أنك هكذا... كدت تقتلني، هل تعرف ذلك؟».

قلت: «سأذهب لأنام»، وتوجهت إلى الغرفة المجاورة، وأنا أفكر بالاستلقاء على الأريكة.

قالت مود وهي تمسك بذراعي «يمكنك أن تبقى معي»، ثم أردفت عندما رأت النظرة المندهشة في عيني «لم لا؟».

قالت إلسي: «نعم، لم لا؟ ربما نمت معكما أيضاً. هل تسمحين لي؟» سألت مود بصراحة. وأضافت: «لن أضايقكما، لا أريد أن أترككما الآن».

قالت مود: «لكن ماذا سيقول أهلك؟».

«لن يعرفوا أن هنري بقي الليلة؟».

«لا، بالطبع لا!» قالت مود، وقد انتابها شيء من الذعر لمجرد الفكرة.

قلت: «وميلاني؟».

«أوه، إنها تغادر في الصباح الباكر. أصبح عندها شغل الآن».

فجأة تساءلت ماذا سأقول لمونا. انتابني شيء من الذعرً.

قلت: «أظن أنه يجب عليّ أن أخابر البيت».

فقالت إلسي: «ليس الآن، لقد أصبح الوقت متأخراً جداً... انتظر».

أخفينا الزجاجات، وكوّمنا الصحون في المغسلة، وأخذنا الفونوغراف معنا إلى الطابق العلوي. وذلك لكي لا ينتاب ميلاني كثير من الشك. ومشينا على أطراف أصابعنا في القاعة وصعدنا الدرج.

استلقيت بين الاثنتين. تمددتا هادئتين لفترة طويلة، وظننت أنهما تغطان في سبات عميق. كنت منهكاً إلى درجة أنه لم يغمض لي جفن. استلقيت وعيناي مفتوحتان على وسعهما، أحدق في السقف في الظلام. وأخيراً استدرت نحو مود. فاستدارت نحوي على الفور، وطوقتني بذراعيها، واطبقت شفتيها على شفتي. ثم أبعدتهما ووضعتهما على أذني وهمست بصوت خافت «أحبك». لم أحر جواباً. فهمست «هل سمعت؟ إني أحبك!» شددتها نحوي ووضعت يدي بين ساقيها. عندها شعرت بإلسي تستدير، وتكورت عليّ كالملعقة. شعرت بيدها تنسل بين ساقيّ. كانت شفتاها على رقبتي تقبلني بهدوء ودفء، بشفتيها الباردتين المبللتين.

بعد قليل انكفأت على وجهي، وفعلت إلسي ذات الشيء. أغمضت عينيّ، محاولاً أن استجلب النوم. لكن ذلك كان شيئاً مستحيلاً. أحسست بالسرير ناعماً لذيذاً، وكان الجسدان بجانبي ناعمين طريين ومتشابكين، وكانت رائحة الشعر والجنس تعشش في خياشيمي. ومن الحديقة فاحت رائحة التراب المشبع بالمطر.

عندما تحركت ثانية كان باتجاه إلسي، التي كانت تنتظرني، متشوقة لتضغط شيئها عليّ، وأدخلت لسانها القاسي السميك في فمي.

همست: «هل هي نائمة؟، افعلها مرة أخرى أرجوك».

تمدّدت ساكناً دون أي حركة، قضيبي مرتخ، وذراعاي تتدليان على خصرها.

همست: «ليس الآن، ربما في الصباح».

رجتني: «ليس الآن!» وراحت تهمس: «أرجوك، أرجوك، أنا أريده. مرة واحدة أيضاً يا هنري».

«اتركيه ينام»، قالت مود، وهي تتكور بجسدها. وبدا صوتها كما لو أنها تناولت مخدراً.

انقلبنا على طرفينا وتمددنا ونحن ملتصقان معا، لا نبدي حراكاً، ولا نصدر صوتاً.

همست قائلة: «أين تسكن؟ أين يمكنني أن أراك... وحدنا؟ اكتب لي غداً... أخبرني أين يمكنني أن ألتقي بك. أريدك أن تضاجعني كل يوم... هل تسمع؟».

سادت فترة صمت. دقات نبضها تسمع بين ساقيها فقط. لم أشعر قط بمثل هذه القبضة الضيقة، الطرية، النظيفة، الحريرية، الناعمة، الطويلة. وكانت جذور شعر عانتها قوية ومعطرة، وثدياها قويين وناعمين، كتفاحتين. والأصابع أيضاً، قوية، مرنة، طرية، نهمة، لا تتوقف عن التجوال والاستكشاف، مداعبة، مدغدغة. ولسانها النشيط أبداً، أسنانها تعضّ، تقرص، تقرض...

أصبحت هادئة جداً الآن، لا تحرك ساكناً. همسات ثانية.

«هل أنا جيدة؟ إنك ستعلّمني، أليس كذلك؟ يمكنني أن أمارس الحب إلى الأبد... إنك لا تتعب، أليس كذلك؟ أتركه هكذا، لا تتحرك. إذا آتتني الشهوة لا تستله... يا إلهي إنه النعيم...».

ساد هدوء ثانية. انتابني شعور بأنه يمكنني أن أستلقي هكذا إلى الأبد. أريد أن أسمع المزيد.

همست: «عندي صديقة، يمكننا أن نلتقي في بيتها. لن تقول

شيئاً. يا إلهي، يا هنري لم يخطر لي أنها يمكن أن تكون هكذا. هل يمكنك أن تمارس الحب هكذا كل ليلة؟».

ابتسمت في الظلام. همست: «ما الأمر؟».

همست: «ليس كل ليلة» وأنا أكاد أنفجر ضاحكاً.

«هنري، هيا ضاجعني! بسرعة، ضاجعني... إني أرتعش».

انفصلنا في وقت واحد، رعشة طويلة قوية جعلتني أتساءل من أين جاء كل هذا العصير منها. همست «لقد فعلتها!» ثم قالت: «كان ذلك رائعاً».

تقلبت مود بشدة في نومها.

همست: «تصبحين على خير.. سأنام... إني ميت».

همست: «أكتب لي غداً»، وقبلّت خدي.

«أو خابرني... وعد».

شخرت. التصقت بي، ذراعاها حول خصري. ورحنا في غيبوبة.

17

كان ذلك في يوم الأحد. لم أكن قد رأيت مونا حتى فجر يوم الثلاثاء، لا لأني بقيت مع مود، بل لأني ذهبت مباشرة إلى المكتب صباح يوم الاثنين. وحوالى الظهيرة خابرت مونا وقيل لي إنها نائمة. كانت ريبيكا هي التي ردت على الهاتف. قالت إن مونا لم تأت إلى البيت طوال الليل، وأنها تتدرب على المسرحية. ثم سألتني بلهجة المالك: «وأين كنت طوال الليل؟» فقلت لها إن الطفلة كانت مريضة وإني اضطررت للمكوث عندها طوال الليل.

قالت ضاحكة: «منِ الأفضل أن تختلق عذراً أفضل من هذا»، ثم أضافت: «قبل أن تتحدث إلى مونا. لقد كانت تخابر طوال الليل. كانت مجنونة من أجلك».

«ولهذا السبب لم ترجع إلى البيت كما أظن؟».

«لا تتوقع أن يصدق أحد قصصك؟» قالت ريبيكا، وأطلقت ضحكة مكتومة أخرى. وأضافت: «هل ستعود إلى البيت هذه الليلة؟ لقد اشتقنا إليك... تعرف يا هنري، كان يجب ألا تتزوج أبداً...».

قاطعتها قائلاً: «نعم سآتي إلى البيت الليلة لتناول العشاء. قولي لها ذلك عندما تستيقظ؟ ولا تضحكي عندما تخبريها ما قلته لك ـ أعني عن الطفلة».

بدأت تضحك على الهاتف.

«اسمعي يا ريبيكا، أنا أثق بك. لا تصعبيّ الأمور عليّ. تعرفين أني أفكر بعالمك. لو كنت سأتزوج امرأة أخرى فسأتزوجك أنت، تعرفين...».

أطلقت ضحكة أخرى ثم قالت: «بحق السماء، كف عن ذلك ياهنري! لكن عد إلى البيت الليلة... أريد أن اسمع منك كل شيء. لن يكون آرثر في البيت. سأقف إلى جانبك... رغم أنك لا تستحق ذلك».

هكذا ذهبت إلى البيت، بعد أن أخذت غفوة في ساحة التزلج. وكنت أشعر بالسعادة أيضاً عندما وصلت، بسبب لقاء جرى في آخر لحظة مع عالم بالآثار المصرية أراد أن يعمل ساعياً في الليل. وكان قد ألمح في كلامه عن العمر المحتمل للأهرامات بحيث لم يعد يهمني تماماً كيف سيكون رد فعل مونا على قصتي. وقال إن ثمة سبباً للاعتقاد، وأنا متأكد أني سمعته بشكل صحيح، بأنه يحتمل أن يكون عمر الأهرامات ستين ألف سنة ـ على الأقل. وإذا صح ذلك، يمكن أن نلقي المفهوم الذي نعرفه عن الحضارة المصرية بكامله في سلة المهملات ـ بالإضافة إلى الكثير من المفاهيم التاريخية الأخرى. وفي محطة المترو انتابني شعور بأني أكبر سناً بكثير مما كان يحتمل أن أشعر. كنت أحاول أن أعود إلى الوراء عشرين أو ثلاثين ألف سنة، في نقطة وسط بين تشييد هذه الكتل الصخرية المبهمة وفجر حضارة النيل العظيمة. كنت معلقاً في الزمان والمكان. وبدأت كلمة «عمر» تكتسي أهمية جديدة. ومعها جاءت فكرة رائعة: ماذا لو عشت مائة وخمسين سنة، أو مائة وخمساً وتسعين سنة؟ كيف يمكن أن يكون قدر هذا الحدث البسيط الذي كنت أحاول طمسه في ضوء مائة وخمسين سنة من الخبرة؟ ماذا يهمّ إن تركتني مونا؟ ماذا يهمّ بعد ثلاثة أجيال إن كنت قد عملت في ليلة الرابع عشر من كذا وكذا؟ لنفترض أني ما زلت فحلاً وأنا في الخامسة والتسعين من عمري وقد شهدت موت ست زوجات، أو ثمان أو عشر؟ لنفترض أننا قفزنا إلى القرن الحادي والعشرين إلى المورمونية؟ أو أننا بدأنا نرى،

وليس فقط نرى بل نمارس، المنطق الجنسي للإسكيمو؟ لنفترض أن فكرة الملكية قد ألغيت وأبطلت مؤسسة الزواج؟ قد تحدث في السبعين أو الثمانين سنة القادمة ثورات كبيرة. بعد سبعين أو ثمانين سنة سأكون قد بلغت مائة سنة أو نحوها ـ أي مازلت شاباً تقريباً. يحتمل أن أكون قد نسيت أسماء معظم زوجاتي، ما عدا اللاتي تعرفت عليهن في الليالي... كنت في حالة من الحبور عندما دخلت البيت.

بغتة دخلت ريبيكا غرفتي. كان البيت فارغاً. قالت إن مونا خابرت وقالت إن هناك بروفة أخرى، وإنها لا تعرف متى ستعود إلى البيت.

قلت: «هذا جميل. هل أعددت العشاء؟».

«يا إلهي، كم أنت لذيذ يا هنري». وألقت بذراعيها حولي وضمتني إلى صدرها وعانقتني عناقاً أخوياً وقالت: «كم أتمنى لو كان آرثر مثلك. لكان من السهل عليّ أن أغفر له في بعض الأحيان».

سألتها: «ألا توجد روح تدبّ في البيت؟» فليس من المعتاد أبداً أن يكون البيت مهجوراً هكذا.

«لا، لقد خرج الجميع»، قالت ريبيكا وهي تفحص الشواء في الفرن. «الآن يمكنك أن تخبرني بالحب العظيم الذي كنت تتحدّث عنه على الهاتف»، وضحكت ثانية، ضحكة خبيثة منخفضة.

قلت: «تعرفين أني لم أكن جدياً، في بعض الأحيان أقول أي شيء... مع أني أعنيها بطريقة ما أيضاً. هل تفهمين؟».

«تماماً! ولهذا السبب فأنا أحبك. إنك لا تؤتمن ولكنك صادق تماماً. إنها توليفة لا يمكن مقاومتها».

قلت مقترباً منها وألقيت ذراعي حولها: «تعرفين أنك صادقة معي، أليس كذلك؟».

ابتعدت عني ضاحكة وقالت: «لا أفكر بمثل هذه الأمور وأنت تعرف ذلك».

قلت: «إني أكافئك من باب اللباقة فقط، سنتناول وجبة دافئة الآن... يا إلهي، إن رائحة الطعام لذيذة... ما هو؟ دجاج؟».

قالت: «لحم خنزير!... دجاج... ماذا تظن؟ أني أعددت هذا خصيصاً لك؟ هيا، تحدث إليّ. أبعد تفكيرك قليلاً عن الطعام. قل شيئاً لطيفاً، إذا استطعت ذلك. لكن لا تقترب مني، وإلا سأغمد هذه الشوكة فيك... قل لي ماذا حدث ليلة أمس. أتحداك أن تقول لي الحقيقة...».

«هذا ليس صعباً يا ريبيكا الرائعة. خاصة وأننا وحدنا. إنها قصة طويلة ـ هل أنت متأكدة أنك تريدين أن تسمعيها؟».

ضحكت ثانية. قلت: «يا إلهي، ضحكتك داعرة، على كل حال، ماذا كنت أقول؟ أه نعم، الحقيقة... اسمعي، الحقيقة هي أني نمت مع زوجتي...».

قالت ريبيكا: «هذا ما كنت أظنه».

«لكن انتظري، هذا ليس كل شيء. كانت هناك امرأة أخرى أيضاً...».

«تعني بعد أن نمت مع زوجتك أم قبل؟».

قلت مبتسماً: «في وقت واحد».

«لا، لا! لا تقل لي ذلك!» ووضعت سكين المطبخ ووقفت ويداها على خصرها ترمقني بنظرات فضولية «لا أعرف... كل شيء ممكن معك. انتظر لحظة. انتظر حتى أضع المائدة. أريد أن أسمع كل شيء، من البداية حتى النهاية».

قلت: «ألا يوجد عندك شيء يجعلنا ثملين؟».

«عندي قليل من النبيذ الأحمر... هل هذا يلائمك».

«جيد! بالطبع يناسبني. أين هو؟».

فيما كنت أفتح فلينة الزجاجة اقتربت مني وأمسكتني من ذراعي وقالت: «انظر، قل لي الحقيقة، لن أفشي بك».

«لكني أقول لك الحقيقة!».

«حسناً، انتظر لحظة. انتظر حتى نجلس...هل تحب القنبيط؟ لايوجد عندي خضار أخرى».

«أحب كل أنواع الطعام. أحب كل شيء. أحبك، أحب مونا، أحب زوجتي، أحب الخيل، البقر، الدجاج، لعبة البينوكل، التابيوكا، باخ، البنزين، الحر القائظ...».

«أنت تحب!... هذا ما أنت مجبول عليه. من الرائع أن يسمع المرء ذلك. إنك تجعلني جائعة أيضاً. نعم إنك تحب كل شيء... لكنك لا تحب من كل قلبك».

«أنا أحب من قلبي أيضاً. أحب الطعام، أحب النبيذ، أحب النساء. بالطبع أنا أحب. ما الذي يجعلك تظنين أني لا أحب من كل قلبي؟ إذا كنت تحبين فأنت تحبين من كل قلبك. أنا أحب كما يحب الله دون تمييز الزمان والمكان والعرق واللون والجنس وما إلى هنالك. أحبك أنت أيضاً ـ هكذا. هذا ليس كافياً، كما أظن؟»

«أنت تعني أكثر من اللازم. إنك لا تركّز. اسمع، اهدأ لحظة. قطّع اللحم من فضلك؟ سأعمل أنا المرق».

«المرق... مممممم. كم أحب المرق».

«كما تحب زوجتك وتحبني وتحب مونا، أليس كذلك؟».

«بل أكثر. الآن كله مرق. يمكنني أن ألعقه من المغرفة. مرق أسود ثقيل، سميك، ثقيل... إنه رائع. بالمناسبة، كنت أتحدث إلى عالم بالآثار المصرية ـ كان يبحث عن عمل كساعي بريد».

«هاهو المرق. لا تخرج عن الموضوع. كنت ستخبرني عن زوجتك».

«بالتأكيد، بالتأكيد. سأخبرك بذلك أيضاً. سأخبرك كل شيء. أولا، أريد أن أخبرك كم أنت جميلة ـ والمرق في يدك».

قالت: «إذا لم تكف عن ذلك، فسأغرز السكين في صدرك. ماذا دهاك، على كل حال؟ هل لزوجتك مثل هذا التأثير عليك في كل مرة تراها؟ لا بد أنك أمضيت وقتاً رائعاً». جلست، ليس أمامي، بل بجانبي.

قلت: «نعم أمضيت وقتاً رائعاً، وبعدها مباشرة كان هناك عالم بالآثار المصرية...».

«أوه، أعوذ بالله من عالم الآثار المصرية! أريد أن أسمع عن زوجتك، وتلك المرأة الأخرى. تعرف، لو كنت تختلق هذه القصة من خيالك لقتلتك!»

تشاغلت فترة بلحم الخنزير والقنبيط. رشفت بضع جرعات من النبيذ لأغسل ما تناولته من حنجرتي. وجبة ريانة لذيذة. غمرني شعور بالمتعة. كنت بحاجة إلى المزيد.

«بدا الأمر هكذا»، بدأت قصتي، بعد أن تناولت عدة لقيمات.

بدأت تضحك.

«ماذا في الأمر؟ ماذا قلت الآن؟».

«إنه ليس ما تقول، بل الطريقة التي تتحدث بها. تبدو في غاية الهدوء والرزانة، بريئاً جداً. يا الله، نعم، لابراءة. لو كانت قصة جريمة قتل وليس زنا، لبدأت على ما أظن بالطريقة نفسها. إنك مسرور أليس كذلك؟».

«بالطبع... لم لا؟ هل هذا أمر غريب جداً؟».

قالت متشدقة «لا، لا أظن أنه أمر غريب... لكنك تجعل كل شيء يبدو مجنوناً نوعاً ما. إنك تعمل من الحبة قبة. كان يجب أن تولد في روسيا!».

«نعم، روسيا! أصبت. أحب روسيا!».

«وتحب لحم الخنزير والقنبيط ـ والمرق وأنا. قل لي، ما الذي لا تحبه؟ أظن أني أريد أن أعرف أولاً!».

ازدردت قطعة سمينة ريانة من لحم الخنزير المغمسة في المرق ونظرت إليها. «حسناً، أول شيء هو أني لا أحب العمل». ثم توقفت برهة لأفكر بالشيء الآخر الذي لم أحبه «أوه نعم، قلت وأنا أعني تماماً ما أقوله بجدية، إني لا أحب الذباب».

انفجرت ضاحكة: «العمل والذباب ـ هذا كل ما في الأمر. يجب أن أتذكر ذلك. يا إلهي، هل هذه هي كل الأشياء التي لا تحبها؟».

«في هذه اللحظة هذا كل ما يمكنني أن أفكّر به».

«وماذا عن الجريمة، الظلم، الاستبداد وهذه الأشياء؟»

قلت: «حسناً، ماذا عنها؟ ماذا يمكنك أن تفعلي إزاء هذه الأشياء؟ يمكنك أيضاً أن تسأليني ـ ماذا عن الطقس؟».

«هل تعني ذلك؟».

«طبعاً».

«إنك مستحيل! أو لعلك لا تستطيع أن تفكر وأنت تأكل».

قلت: «هذه حقيقة، فأنا لا أفكر جيداً عندما آكل. هل أنت كذلك؟ أنا لا أريد ذلك في الواقع. على أي حال، أنا لم أكن مفكراً كبيراً في حياتي. إن التفكير لا يوصلك إلى أي شيء. إنه وهم. التفكير يجعل المرء سقيماً... بالمناسبة، هل عندك حلوى... أي نوع من ليدر كرانز تلك؟ إنها نوع ممتاز من الجبن، ألا تظنين ذلك؟».

وتابعت قائلاً: «أظن أن الأمر يبدو مضحكاً، أن تسمعي أحداً يقول إني أحبها، إنها رائعة، جيدة، عظيمة بمعنى كل شيء. بالطبع لا أشعر هكذا كل يوم ـ لكني أودّ ذلك. وأفعل ذلك عندما أكون طبيعياً، عندما أكون أنا ذاتي. فكل شخص يشعر بذلك إذا ما أتيحت له الفرصة. هذه هي الحالة الطبيعية للقلب. المشكلة أننا نتعرض

للإرهاب معظم الأحيان. أقول «إننا مرهبون» لكني أعني أننا نرهب أنفسنا. ليلة أمس مثلاً، لا يمكن أن تتخيّلي كم كان الأمر رائعاً. لم يكن ذلك بسبب عامل خارجي ـ إلا إذا كان البرق قد عمل ذلك. فجأة أصبح كل شيء مختلفاً ـ ومع ذلك كان البيت نفسه، الجو نفسه، الزوجة نفسها، السرير نفسه. شعرنا كما لو أن الضغط قد زال فجأة ـ أعني ذلك الضغط النفسي، تلك البطانية المبللة الغامضة التي تخنقنا منذ أن نولد... لقد قلت شيئاً عن الاستبداد والظلم وما إلى هنالك. بالطبع أعرف ماذا تعنين. كنت أشغل نفسي بتلك المشاكل عندما كنت أصغر سناً ـ حين كنت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. آنئذ كنت أفهم كل شيء بوضوح شديد... أي حسبما يتيح فيه العقل للمرء فهم بعض الأشياء. كنت أكثر نقاء، أكثر زهداً. لم أكن مضطراً لأن أدافع أو أؤيد أي شيء، وخاصة نظام لم أكن أؤمن به، حتى وأنا طفل. صنعت لنفسي كوناً مثالياً. كان بسيطاً جداً: لا نقود، لا أملاك، لا قوانين، لا شرطة، لا حكومة، لا جنود، لا جلادون، لا سجون، لا مدارس. أزلت كل العناصر المثيرة للإزعاج وأي مصدر للإعاقة. حرية تامة. كان فراغاً ـ وفيه انفجرت. لم أكن أريده، كان على كل شخص أن يتصرف كما أتصرف أنا، أو أظن أني سأتصرف. أردت عالما مصنوعاً في مخيلتي، عالماً يتنفس روحي. جعلت نفسي إلهاً، بما أنه لم يكن ثمة شيء يعيقني...».

توقفت لحظة لألتقط أنفاسي. لاحظت أنها كانت تستمع بجدية بالغة.

«هل عليّ أن أتابع؟ لعلكِ سمعت هذا النوع من الكلام ألف مرة».

قالت بهدوء: «تابع كلامك» ووضعت يدها على ذراعي. «بدأت أرى فيك شخصاً آخر. بدأت أحبك هكذا أكثر».

«ألم تنسي الجبن؟ بالمناسبة، النبيذ ليس سيئاً على الإطلاق. ربما كان لاذعاً قليلاً، لكنه مقبول».

«اسمع يا هنري، كل واشرب ودخن، افعل أي شيء تريد، بقدر

ما تريد. سأعطيك كل شيء لدينا في البيت. لكن لا تتوقف عن الكلام الآن... أرجوك».

كانت على وشك أن تجلس. وثبت فجأة من مكاني، عيناي مغرورقتان بالدموع، طوقتها بذراعي وقلت: «الآن يمكنني أن أخبرك بصدق وإخلاص، إني أحبك». ولم أحاول تقبيلها - بل ضممتها إليّ فقط. تركتها من تلقاء نفسي، جلست، ورفعت كأس النبيذ ورشفته.

قالت: «بالطبع أنت ممثل بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. وهذا يجعلني لا أستغرب لماذا يخشاك الناس في بعض الأحيان».

«أعرف فأنا أخاف من نفسي أحياناً. خاصة إذا استجاب الشخص الآخر. لا أعرف أين تكمن الحدود الصحيحة. ليس هناك حدود على ما أظن. ليس هناك شيء سيء أو قبيح أو شرير إذا أطلقنا أنفسنا على سجيتها. لكن من الصعب جعل الناس يفهمون ذلك. على كل حال، هذا هو الفرق بين عالم الخيال وعالم الحس السليم، الذي ليس حساً سليماً أبداً بل مجرد لواطة وجنون. إذا توقفتِ قليلاً وألقيتِ نظرة إلى الأشياء... أقول انظري، لا تفكري، أو تنتقدي... فمن المؤكد أن العالم يبدو مجنوناً بالنسبة لك. إنه مجنون، بحق الله! مجنون أيضاً عندما تكون الأشياء طبيعية وهادئة كما هي الحال في أوقات الحرب أو الثورة. الشرور هي شرور مجنونة، والأدوية الحاسمة هي أدوية حاسمة مجنونة. لأننا جميعنا نساق مثل الكلاب. نحن هاربون. من ماذا؟ لا نعرف. من مليون شيء لا اسم له. إنه اندحار، رعب. لا يوجد مكان يمكن للمرء أن يلوذ به - إلا، كما أقول، إذا بقي المرء جامداً. إذا كان بوسعك أن تفعلي ذلك، بحيث لا تفقدين توازنك، ولا تنجرفين في العجلة، يمكنك عندها أن تمسكي بزمام أمورك... وسيكون بوسعك أن تتصرفي حينها، أظن أنك تفهمين ما أقصد. تعرفين ما أريد أن أصل إليه... إنها كذبة منذ اللحظة التي تستيقظين فيها وحتى اللحظة التي تأوين فيها إلى

الفراش، هذا كله كذب واحتيال. كل شخص يعرف، وكل شخص يتواطأ في استمرار الخدعة. ولذلك نبدو مقرفين في عيون بعضنا البعض. فمن السهولة بمكان تلفيق حرب، أو مذبحة مدبرة، أو حملة صليبية رذيلة، أو أي شيء ملعون يمكن أن تفكري به. من الأسهل أن نستسلم دائماً. وإذا استطعنا أن نؤمن بإله فإننا سنجعله إله ثأر وانتقام. ونسلم إليه من كل قلبنا مهمة تنظيف الأمور. وقد تأخر الوقت كثيراً لأن ندّعي أننا نعمل على تنظيف الفوضى. إننا غارقون فيها حتى الأذنين. إننا لا نريد عالماً جديداً... نريد وضع حد للفوضى التي صنعناها. عندما تكونين في السادسة عشرة يمكنك أن تؤمني بعالم جديد... تستطيعين أن تؤمني بأي شيء، في الحقيقة... أما في العشرين فأنت مقضي عليك، وأنت تعرفين ذلك. في العشرين أنت مكبلة، وكل ما يمكنك أن تتمنينه هو أن تنفذي بجلدك. إنها ليست مسألة أمل ضعيف...الأمل إشارة سامّة، يعني العجز. وليس للشجاعة من فائدة: يمكن للجميع أن يكونوا شجعاناً أمام الشيء الخاطئ. لا أعرف ماذا سأقول ـ ما لم أستعمل كلمة مثل الرؤيا. وبها لا أعني صورة عن المستقبل، شيئاً مثالياً متخيّلاً أصبح حقيقياً ـ أعني شيئاً أكثر مرونة، أكثر دواماً ـ رؤيا خارقة دائمة... شيئاً من قبيل العين الثالثة التي كنا نملكها ذات مرة. كان ثمة ضرب من قراءة الطالع الذي كان طبيعياً وعاماً للبشر أجمعين. ثم جاء العقل، وتلك العين التي سمحت لنا أن نرى كل شيء والتي استوعبها العقل، وأصبحنا ندرك العالم، وندرك بعضنا بعضاً بأسلوب جديد. لقد ترعرعت ذاتنا الصغيرة الجميلة: أصبحنا واعين بذاتنا، ومعها جاء الوهم، التكبر، العماء، العماء الذي لم يعرف مثله من قبل، حتى العميان أنفسهم».

بغتة قالت ريبيكا: «من أين تأتي بكل هذه الأفكار؟ هل تختلقها من وحي اللحظة؟ انتظر لحظة... أريدك أن تخبرني شيئاً. هل تسجل أفكارك على الورق؟ ماذا تكتب بأي حال؟ لم ترني شيئاً أبداً حتى الآن. ليس لدي أدنى فكرة عما تفعل».

قلت: «أوه هكذا إذن، لم تقرئي شيئاً. أنا لم أقل شيئاً بعد. يبدو أنني لا أستطيع أن أفعل أبداً. لا أعرف ماذا سأكتب أولاً بحق الجحيم، هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها».

«لكنك هل تكتب بالطريقة نفسها التي تتحدث فيها؟ هذا ما أريد أن أعرفه».

قلت بشيء من الخجل: «لا أظن ذلك، لا أعرف شيئاً عن الكتابة بعد. إنني خجول جداً، على ما أظن».

قالت ريبيكا: «لا ينبغي أن تكون كذلك، إنك لست خجولاً عندما تتحدث، وأنت لا تتصرف بخجل أيضاً».

قلت بهدوء وبطء: «ريبيكا، لو كنت أعرف حقاً ماذا بوسعي أن أفعل لما جلست هنا أتحدث إليك الآن. أشعر أحياناً وكأني سأنفجر. فأنا حقاً لا أبالي البتة ببؤس العالم. آخذه على أنه شيء مسلم به. ماأريده هو أن أكشف ذاتي. أريد أن أعرف ماذا في داخلي. أريد من الجميع أن يكشفوا ذاتهم. أنا مثل الأبله الذي يحمل بيده فتاحة علب، أتساءل من أين سأبدأ ـ لأفتح الأرض. أعرف أنه تحت هذه الفوضى يوجد شيء رائع. إني واثق من ذلك. أعرف ذلك لأني أشعر بالروعة في أغلب الأحيان. وعندما أشعر بهذه الطريقة يبدو لي الجميع رائعين... الجميع، كل شيء... حتى الحصى وقطع الورق المقوّى... حتى لحية العنزة، إذا أردت. هذا ما أريد أن أكتب عنه ـ لكني لا أعرف كيف... لا أعرف من أين أبدأ. ربما كان الأمر شخصياً جداً. ربما بدا الأمر مجرد قمامة... يبدو لي كما لو أن الفنانين والعلماء والفلاسفة يصقلون عدسات ويحضّرون شيئاً عظيماً لم يحدث بعد. في أحد الأيام ستصبح العدسة كاملة، وعندها سنرى كل شيء بوضوح، سنرى كم هو عالم مترنح جميل ورائع. لكننا في الوقت ذاته نسير بدون نظارات، إذا جاز التعبير. نتعثر كبلهاء قصيري النظر. إننا لا نرى ماذا تحت أنوفنا لأننا عازمون على رؤية النجوم، أو ماذا يقبع وراءها. نحاول أن نرى بالعقل، لكن العقل لا

يرى إلا ما يطلب منه أن يرى. لا يمكن للعقل أن يفتح عينيه وينظر لمجرد النظر. ألم تلاحظي أبداً أنه عندما تكفين عن النظر، عندما لا تحاولين أن تري، فإنك ترين فجأة؟ ما الشيء الذي ترينه؟ من الذي يرى؟ لماذا يبدو كل شيء مختلفاً تماماً - بروعة في هذه اللحظات؟ وأيها أكثر حقيقية، ذلك النوع من الرؤية أو الشيء الآخر؟ هل تفهمين ما أعني... عندما يكون لديك إلهام فإن عقلك يأخذ إجازة، تنقليه إلى شخص آخر، إلى قوة خفية مجهولة، قوة تتملكك، كما نقول. ماذا يعني كل ذلك بحق الجحيم - إذا كان لذلك أي معنى؟ ماذا يحدث عندما تتباطأ أو تتوقف آلات العقل؟ مهما كان أو بأي طريقة تريدين أن تنظري إليها، طريقة العمل الأخرى هذه من نظام آخر. تدور الآلة على نحو ممتاز، إلا أن هدفها وغرضها يبدوان اعتباطيين تماماً. يجعل نوعاً آخر من المعنى... معنى كبير إذا تقبلته بشكل مطلق، وتفاهة - أو ليس تفاهة، بل جنون إذا حاولت فحصها في الآلة الأخرى، يا إلهي، أخالني خرجت عن الموضوع».

وشيئاً فشيئاً أعادتني إلى القصة التي كانت تريد أن تسمعها. لقد كانت متلهفة لمعرفة التفاصيل. ضحكت كثيراً - تلك الضحكة الخبيثة الواطئة، التي كانت استفزازية ولطيفة في الوقت نفسه.

قالت: «إنك تلتقط أغرب أنواع النساء، يبدو أنك تختار وعيناك مغلقتان. ألا تفكر مقدماً ماذا يعني أن تعيش معهن؟»».

استمرت هكذا لفترة من الزمن ثم أدركت فجأة أنها حوّلت الحديث إلى مونا. مونا - التي حيّرتها وأربكتها. كانت تريد أن تعرف ما هي النقاط المشتركة التي تجمع بيننا. كيف يمكنني أن أتحمل أكاذيبها، مزاعمها - أم أنني لم أكن أبالي بمثل هذه الأشياء؟ بالتأكيد لابد أن تكون هناك أرضية قوية في مكان ما... لا يمكن للمرء أن يبني على الرمال المتحركة. لقد فكرت بنا كثيراً، حتى قبل أن تلتقي بمونا. كانت قد سمعت بها من مصادر مختلفة، وكان فضولها يدفعها لمعرفتها أكثر، لأن تفهم ما هي تلك الجاذبية

الكبيرة...كانت مونا جميلة، نعم ـ على نحو فتّان ـ وربما ذكية أيضاً. لكنها يا إلهي، ممثلة! لا يمكن التعامل معها بسهولة. فقد كانت تتملص منك كالشبح.

سألتني بلهجة تحدٍ «ماذا تعرف عنها حقاً؟ هل التقيت بوالديها؟ هل تعرف شيئاً عن حياتها قبل أن تلتقي بها؟».

اعترفت أنّي أكاد لا أعرف عنها شيئاً. وجزمت أنه لعله من الأفضل ألّا أعرف شيئاً. هناك شيء يجذبني إلى اللغز الذي يكتنفها.

قالت ريبيكا بقسوة: «أوه، هذا هراء! أنا لا أعتقد أن هناك لغزاً كبيراً. لعل أباها كان حَبراً».

«ماذا! ما الذي يجعلك تقولين هذا؟ كيف تعرفين أنها يهودية؟ أنا نفسي لا أعرف ذلك».

«تعني أنك لا تريد أن تعرف. بالطبع أنا لا أعرف أيضاً، سوى أنها تنكر ذلك بقوة ـ تجعل المرء يشك دائماً. أيضاً، هل هي تشبه النمط الأمريكي العادي. هيا، هيا، لا تقل لي إنك لم تشك كثيراً ـ أنت لست أعمى إلى هذه الدرجة».

الشيء الذي فاجأني أكثر من أي شيء آخر، في هذه الملاحظات، هو أن ريبيكا نجحت في مناقشة الموضوع مع مونا. ولم يتناهَ إليّ أي تلميح عن ذلك. كنت مستعداً لأن أبذل أي شيء في سبيل أن أقف وراء الشبك لأتنصت إليهما خلال ذلك اللقاء.

قلت: «إذا كنت تريدين حقاً أن تعرفي شيئاً، فأنا أفضّل أن تكون يهودية على أن تكون أي شيء آخر. لن أدفعها إلى قول ذلك، بالطبع. من الواضح أنه موضوع مؤلم. هي ستثيره ذات يوم، سترين...».

قالت ريبيكا: «أنت رومانسي جداً، حقاً تبدو مستعصياً على الشفاء. لماذا يجب أن تكون الفتاة اليهودية مختلفة عن غيرها من غير اليهود؟ إني أعيش في كلا العالمين... وأنا لا أجد شيئاً غريباً أو رائعاً في أيهما».

قلت: «بالطبع، فأنت دائماً الشخص ذاته. لا تتغيرين من بيئة إلى أخرى. صادقة ومنفتحة. ويمكنك أن تنسجمي في أي مكان ومع أي مجموعة أو طبقة أو عرق. إلا أن معظم الناس ليسوا كذلك. معظم الناس يدركون مسألة العرق، اللون، الدين، الجنسية، وما إلى هنالك. أما بالنسبة لي فإن جميع الناس يبدون غامضين عندما أنظر إليهم عن قرب. يمكنني أن ألاحظ الاختلاف بينهم أكثر بكثير من أقاربهم. في الحقيقة، أنا أحب الفروق التي تميزهم تماماً كما أحب ما يوحدهم. أظن أنه من الحماقة الإدعاء بأننا كلنا متشابهون تقريباً. العظماء والأفراد المتميزون حقاً، هم فقط الذين يتشابهون. لا تبدأ الأخوّة من الأسفل، بل من القمة. وكلما اقتربنا من الله أصبح واحدنا يشبه الآخر. في الأسفل نبدو مثل كومة من القمامة... بعبارة أخرى، من مسافة تبدو أشياء كثيرة مثل القمامة، أما عندما تقتربين منها فإنك ستدركين أن هذه التي تدعى «قمامة» تتكون من مليون بليون ذرّة مختلفة. ومع ذلك، لا يهم مدى اختلاف حفنة من القمامة عن الأخرى. إن الفرق الحقيقي يظهر فقط عندما تنظرين إلى شيء لايكون «قمامة». حتى لو كان بالإمكان تحليل العناصر التي يتألف منها إلى مادة حيوية واحدة... حسناً، لا أعرف ماذا كنت سأقول بالضبط... ربما هذا... ما دامت توجد حياة سيكون هناك تفاضل، قيم، طبقات. الحياة تصنع دائماً بنى هرمية في كل مملكة. فإذا كنت في القاع فإنك تؤكدين على تشابه الأشياء؛ وإذا كنت في القمة، أو قريباً منها، فإنك ستدركين الفرق بين الأشياء. وإذا كان ثمة شيء غامض ـ وخاصة شخص ـ فإنك تنجذبين إلى ما وراء قوة الإرادة كلها. قد يتبين لك إنه سباق فارغ، وإنه لم يكن هناك شيء، لاشيء سوى إشارة استفهام، لكن الشيء نفسه...».

وكانت هناك أمور كثيرة أردت أن أتحدث عنها فتابعت: «وهناك عكس كل ذلك، كما هو حال زوجتي السابقة مثلاً. بالطبع كان يجب أن أشكّ بأن لديها جانباً آخر، فقد كنت أكرهها لتعصبها الشديد. يمكنني القول إن الشخص المغرق في التواضع، ليس

متواضعاً، كما يقول المحللون، أما أن تري شخصاً يتغير من شخص إلى آخر، فهذا شيء لا تتاح لك الفرصة غالباً لمشاهدته. أو إذا رأيت ذلك، فإن التغير يتم عادة عند شخص آخر. لكني رأيت ذلك يحدث أمامي البارحة، وليس مع شخص آخر، بل معي! لا يهم كم تظنين أنك تعرفين عن الأفكار الخفية لشخص ما، عن نوازعه في اللاوعي وكل هذه الأمور، ورغم هذا، عندما يحدث التحول أمام عينيك تبدئين بالتساؤل إن كنت تعرفين الشخص الذي كنت تعيشين معه طوال حياتك. لا بأس أن تقولي لنفسك عن صديق عزيز: لديه جميع غرائز المجرم! ـ لكن عندما ترينه يهاجمك بسكين، فإن ذلك شيء آخر. فأنت إلى حد ما جاهزة أبداً لذلك، مهما كنت ذكية. في أحسن الأحوال، ربما توافقين على أن يفعل ذلك بشخص آخر ـ لكن ليس بك أبداً... أوه لا! ما أشعر به الآن أني يجب أن أكون مستعداً لأي شيء من أقل الأشخاص الذين أرتاب فيهم. لا أعني أنه ينبغي أن يكون المرء قلقاً، لا، ليس ذلك... ينبغي أن يفاجأ المرء، هذا كل ما في الأمر. المفاجأة الوحيدة هي أنه يمكنك أن تكون مندهشاً».

استمر الحديث على هذا المنوال عدة ساعات، لم يوقفه إلا عودة آرثر رايموند. بقيت فترة أطول، لأبعد أي شك يمكن أن ينتابه، ثم ذهبت إلى غرفتي. وحوالى الفجر عادت مونا، يقظة، بدت أجمل من أي وقت مضى، بشرتها تتوهج كالكالسيوم. ولم ترد أن تسمع تبريراتي عن الليلة السابقة؛ كانت منتشية، مفتونة بنفسها. إذ حدثت أشياء كثيرة جداً منذ ذلك الحين ـ لم تكن تعرف من أين تبدأ. فقبل كل شيء، وعدوها بدور الممثلة البديلة في الجزء الرئيسي من عرضهم القادم. أي أن المخرج وعدها ـ ولا يعلم أحد عن ذلك بعد. إن المخرج يحبها. وكان يضع كلمات حب في مغلفات أجورها في الأسابيع الماضية. وكان الممثل الرئيسي يحبها أيضاً ـ بجنون. فهو الذي كان يدربها. كان يعلمها كيف تتنفس، كيف تسترخي، كيف تقف، كيف تمشي، كيف تستخدم صوتها. كان الأمر رائعاً. أصبحت شخصاً جديداً، يتمتع بقوى غير معروفة. كان عندها ثقة بنفسها،

ثقة غير محدودة. وقريباً سيصبح العالم عند قدميها. ستفاجئ نيويورك، ستقوم بجولة في أرجاء البلد، وربما تسافر إلى الخارج... من يمكنه أن يتوقع ماينتظرها؟ وبالقدر نفسه، كان ينتابها شيء من الخوف أيضاً. أرادتني أن أساعدها؛ كان عليّ أن أستمع إليها وهي تقرأ مخطوطة دورها الجديد. كانت هناك أشياء كثيرة لم تكن تعرفها ـ ولم ترغب في أن تكشف جهلها أمام عشاقها المفتونين بها. قد تبحث عن تلك المستحاثة القديمة في ريتز كارلتون، وتجعله يشتري لها ثوباً جديداً. فقد كانت بحاجة إلى قبعات، أحذية، فساتين، بلوزات، قفازات، جوارب... الكثير من الأشياء. بدا من المهم الآن أن تحضّر للدور. وستصفف شعرها بطريقة مختلفة. ألم ألاحظ التغيير الذي طرأ على صوتها؟ حسناً، سألاحظ قريباً جداً. ستعيد تركيب نفسها بالكامل وسأحبها أكثر من قبل. ستكون مائة امرأة مختلفة بالنسبة لي الآن. وفجأة تذكرت العاشق الغندور القديم الذي كانت قد نسيته، الكاتب في فندق إمبريال. فهو سيشتري لها كل ما تحتاجه من أشياء ـ دون أن ينبس بكلمة. نعم، يجب أن تخابره في الصباح. ويمكنني أن أقابلها عند العشاء وهي في ملابسها الجديدة. ولن أغار، أليس كذلك؟ كان الكاتب شاباً لكنه غبي تماماً، أبله، أحمق. ولعل السبب الوحيد الذي وفّر نقوده من أجله هو لينفقها عليها. وإلا فلا حاجة له بها ـ لم يكن يعرف ماذا سيفعل بها. فلو أمكنه أن يمسك يدها بشكل خفي فقط لشعر بالامتنان. لعلها ستقبّله ذات مرة ـ عندما تحتاج إلى طلب غير عادي.

واستمرت على هذه الحال... نوع القفازات التي تحب، الطريقة التي ستنطق بها، كيف مشى الهنود، قيمة تمارين اليوغا، أسلوب تدريب الذاكرة، العطر الذي يناسب مزاجها، إيمان العاملين في المسرح بالخوارق، كرمهم، دسائسهم، غرامياتهم، كبرياؤهم، زهوهم بأنفسهم. كيف يكون الحال عندما يتدرّب المرء في بيت فارغ، النكات والدعابات التي تقال في الأروقة، ما هو موقف عمال

المسرح، الرائحة الغريبة التي تعبق في غرف تغيير الثياب. والغيرة! كل شخص يغار من الآخر. الحمى، الاضطراب، العظمة. عالم ضمن عالم. يصبح المرء منتشياً، مهلوساً مخدراً.

أما المناقشات! مجرّد أمور تافهة يمكن أن تجر وراءها خلافات شديدة، كان يبدو أن الشيطان في داخل بعضهم، خاصة النساء. كانت هناك امرأة واحدة جيدة فقط، لكنها كانت شابة وعديمة الخبرة تماماً. أما الأخريات فكن طائشات، غاضبات، طماعات. وكن يشتمن كجنود. وإذا قارنتهن بفتيات المرقص وجدت فتيات المرقص ملائكة.

سادت لحظات صمت طويلة. ثم، وبدون مناسبة سألتني متى موعد محاكمة الطلاق. قلت مندهشاً للتحول المفاجئ في تفكيرها: «هذا الأسبوع».

قالت: «وسنتزوج بعدها مباشرة»، أجبت: «طبعاً».

لم تحب الطريقة التي قلت فيها «طبعاً». فقالت: «لست مضطراً لأن تتزوجني إن كنت لا تريد».

قلت: «لكني أريد، وبعدها سنترك هذا المكان... ونجد مكاناً لنا».

صاحت: «هل تعني ذلك؟ أنا في غاية السعادة. إني أنتظر أن أسمعك تقول ذلك. أريد أن أبدأ حياة جديدة معك. لنبتعد عن كل هؤلاء الناس! وأنا أريدك أن تترك ذلك العمل السيء. سأجد مكاناً يمكنك أن تكتب فيه. لا يتعين عليك أن تكسب نقوداً. سأجمع قريباً الكثير من النقود. يمكنك أن تحصل على أي شيء تريد. سأحضر لك كل الكتب التي تريد أن تقرأها... لربما كتبت مسرحية - وسأمثل فيها! سيكون ذلك رائعاً».

تساءلت ماذا كانت ستقوله ريبيكا عن هذا الحديث، لو كانت تستمع إلينا. هل كانت ستسمع الممثلة فقط، أم كانت ستلاحظ جرثومة شخص جديد يكشف عن نفسه؟ وبحق فإن معالم شخصيتها

ليست محددة بوضوح شديد، لكن ذلك ليس سببا لاتهامها بالزيف. كانت مقلدة، وحربائية، ليس من الخارج، بل من الداخل. فمن الخارج كان كل شيء عنها واضحاً ومحدداً؛ وتضع ختمها عليك فوراً. ومن الداخل كانت مثل عمود من الدخان؛ وأي ضغط على إرادتها من شأنه أن يغيّر من ترتيب شخصيتها على الفور. فقد كانت حساسة إزاء الضغوط، ليس ضغط إرادات الآخرين بل رغباتهم. لم يكن الدور المسرحي معها شيئاً تضعه وتزيله - بل كانت طريقتها في مواجهة الواقع. كانت تؤمن بما تفكر فيه، وما كانت تؤمن فيه كان واقعاً. لم يكن ثمة شيء غير واقعي بالنسبة لها، ماعدا ذلك الشيء الذي لم تكن تفكر فيه. لكن في اللحظة التي يوجه فيها انتباهها إلى شيء، مهما كان بشعاً، أو رائعاً أو لا يصدق، يصبح الشيء حقيقياً. فيها لم تكن الحدود مغلقة. والأشخاص الذين كانوا يظنون أنها تمتلك إرادة قوية كانوا مخطئين تماماً. نعم عندها إرادة، ولكن لم تكن الإرادة هي التي تجرفها بتهور إلى أوضاع جديدة ومخيفة - بل كان استعدادها الدائم الحضور، يقظتها، لتنفذ أراءها. وكان بوسعها أن تتغيّر بسرعة مذهلة من دور إلى آخر؛ تتغيّر أمام ناظريك، بتلك الشعوذة المدهشة والمراوغة لنجمة الاستعراض المسرحي التي تتلبس شخصيات شديدة التنوع. إن الأشياء التي كانت تفعلها طوال حياتها في عقلها الباطن، بدأ المسرح يعلمها الآن أن تعملها بشكل متعمد. كانوا يجعلون منها ممثلة بمعنى أنهم كانوا يكشفون لها حدود الفن؛ كانوا يعلمونها القيود التي تحيط الخلق. وكان يمكنهم أن يجعلوا منها فاشلة لو أطلقوا لها العنان.

18

عندما مثلت أمام المحكمة كان يغمرني شعور بالغبطة والغطرسة. فقد كان قد تم الاتفاق على كل شيء سلفاً. ولم يكن عليّ إلا أن أرفع يدي، وأؤدي اليمين السخيفة، وأقرّ بذنبي وأنال عقابي. وبدا لي القاضي أشبه بفزّاعة يرتدي منظاراً أسود، ورداؤه الأسود يخفق بجناحيه على نحو جنائزي في الغرفة التي يكتنفها السكون. وقد بدا عليه شيء من الاستياء بسبب قبولي بالحكم بهدوء وبرود، لأني لم أعر مقامه، الذي كان معدوماً تماماً، أي أهمية. ولم أكن أميّز بينه وبين القضيب النحاسي خلفه، والإنجيل، والمبصقة، والعلم الأمريكي المنتصب خلفه، والنّشافة على طاولته، والمجرمين الذين يرتدون زياً موحداً للحفاظ على النظام، والمعارف التي تلتهم خلايا دماغه، والكتب المتعفّنة المصفوفة على رفوف مكتبه، والفلسفة التي يستند إليها القانون، والنظارات التي تكسو وجهه، وشخصه وشخصيته. لقد كان كل ذلك يشكل تواطؤاً عديم الإحساس باسم آلة عمياء لم أكترث لها البتة في الظلام. وكل ما أردت معرفته هو أني أصبحت حراً طليقاً تماماً وأنا أضع رأسي في الأنشوطة مرة أخرى.

كان كل شيء يسير مثل لعبة التيك تاك تو، شيء يلغي الآخر، وبالطبع يسحقك القانون في نهاية الأمر كما لو كنت بقة سمينة، عندما أدركت بغتة أنه كان يسألني إن كنت أرغب في أن أدفع كذا وكذا كنفقة بانتظام جتى آخر يوم في حياتي.

سألت: «ماذا؟» وتوقعه بأنه سيواجه قليلاً من المعارضة شيئاً من البهجة في نفسه. وراح يتلو بعض الهراء بطريقة رسمية مهيبة عن موافقتي على دفع مبلغ معين.

قلت بحزم: «إني غير موافق على ذلك، فأنا أعتزم أن أدفع» ـ وهنا ذكرت مبلغاً يبلغ ضعف المبلغ الذي ذكره هو.

وجاء دوره ليسأل: «ماذا؟».

كرّرت ما قلته، فنظر إليّ كما لو أني فقدت عقلي. وقال بسرعة، كما لو أنه يوقعني في الشرك: «جيد جداً! سنجعل المبلغ بقدر ماترغب. إنها جنازتك».

رددت: «إنه من دواعي سروري».

«نعم!».

كرّرت كلماتي. ألقى إليّ نظرة ناعسة، وأشار إلى المحامي أن يقترب منه. انحنى قليلاً وهمس شيئاً في أذنه. وتكّون لدي الانطباع بأنه سأل المحامي إن كنت بكامل قواي العقلية. ومن الواضح أنه طمأنه بأني أتمتع بكامل قواي العقلية، إذ نظر إلى الأعلى، وحدجني بنظرة ثاقبة وقال: «أيها الشاب، هل تعرف ما هي العقوبة إن لم تفِ بالتزاماتك؟».

قلت: «لا يا سيدي، ولا أريد أن أسمعها. هل انتهينا الآن؟ يجب أن أعود إلى عملي».

كان يوماً جميلاً في الخارج. رحت أمشي على غير هدى، وسرعان ما وصلت إلى جسر بروكلن. رحت أسير على الجسر، لكني بعد بضع دقائق فقدت الرغبة في المشي، فاستدرت وغصت في محطة المترو. لم أرغب في العودة إلى المكتب، فقد حصلت على يوم عطلة وقررت أن أستفيد منها حتى آخر قطرة.

نزلت من المترو في محطة تايمز سكوير وقادتني قدماي غريزياً باتجاه المطعم الإيطالي ـ الفرنسي بالقرب من الجادة

الثالثة. كان الجو بارداً ومعتماً في الجزء الخلفي من مخزن البقالة حيث يقدمون الطعام. ولم يكن ثمة العديد من الزبائن في فترة الغداء. وبعد فترة وجيزة لم يبق أحد سواي وفتاة آيرلندية ضخمة، شربت حتى الثمالة. ودخلنا في حديث غريب عن الكنيسة الكاثوليكية راحت تكرر خلاله اللازمة: «أنا لا أمانع بوجود البابا، لكني أرفض أن أقبّل مؤخرته».

أخيراً دفعت كرسيها إلى الخلف، وبذلت جهداً لتقف على قدميها، وحاولت أن تتجه إلى الحمام في البهو. (وكان الحمام مشتركا للرجال والنساء). وتبين لي أنها لن تتمكن من القيام بذلك وحدها. فنهضت وأمسكتها من ذراعها. كانت ثملة تماماً وتترنح مثل سفينة تهب عليها الرياح.

عندما وصلنا إلى باب الحمام رجتني أن أساعدها في الجلوس على المقعد. أوقفتها بجانب المقعد وكان كل ما عليها أن تفعله هو أن تجلس. رفعت تنورتها وحاولت أن تنزل سروالها الداخلي، لكنها لم تفلح. رجتني بابتسامة ناعسة أن أنزله لها. ففعلت وربت على شيئها بلطف، وأجلستها على المقعد.

ثم ساعدتها في الخروج من الحمام، ولاحظت أن صاحبة المحل تراقبنا وراحت تومئ برأسها بحزن. وتساءلت في نفسي إن كانت تقدر شهامتي التي جعلتني أفعل ذلك. عدنا إلى الطاولة، وطلبنا شيئاً من القهوة السادة، وجلسنا نتحدث فترة أطول. وعندما أفاقت أعربت لي عن امتنانها بشكل مقيت. وقالت إن أنا أوصلتها إلى البيت فيمكنني أن أنالها. قالت: «سأستحم وأغيّر ملابسي. فأنا أشعر بالقذارة. كان الله في عوني».

قلت إني سأوصلها إلى بيتها في سيارة أجرة، ولن أتمكن من البقاء معها.

قالت: «لقد بدأت تصبح لطيفاً الآن، ماذا دهاك، ألست من مقامك؟ ليس عيبي أني ذهبت إلى المرحاض؟ فأنت تذهب إلى

المرحاض أيضاً، أليس كذلك؟ انتظر حتى استحم وسترى ما أبدو عليه».

واصلت مناجاتها وهي تنتقل من موضوع إلى موضوع مثل عنزة. وفهمت أنها عاملة على الهاتف في فندق كبير. ولم تكن من النوع السيء تحت جلدها الأيرلندي. ولعلها تصبح جذّابة عندما يتبخر الكحول من فمها. كانت عيناها زرقاوين وشعرها أسود فاحماً، وترتسم على وجهها ابتسامة ماكرة وخبيثة. خاطبت نفسي أنه يمكنني أن أصعد معها وأساعدها في حمامها. ويمكنني في جميع الأحوال أن أتركها وشأنها إذا لم تجر الأمور على ما يرام. والشيء الوحيد الذي كان يشغلني هو أنه يجب عليّ أن ألتقي بمونا على العشاء. وكان عليّ أن أنتظرها في الغرفة الوردية في فندق ألبين.

ركبنا سيارة أجرة واتجهنا شمالاً. في سيارة الأجرة أراحت رأسها على كتفي، وقالت بصوت ناعس: «لقد كنت طيباً معي. وأنا لاأعرف من أنت. يا إلهي، أرغب في أن آخذ غفوة أولاً. هل تنتظرني؟».

قلت: «بالتأكيد، ربما أخذت غفوة أيضاً».

كانت الشقة مريحة وجذابة، وفي حالة أفضل مما توقعت. وما أن فتحت الباب حتى ركلت حذاءها. وساعدتها في نزع ثيابها.

عندما وقفت أمام المرآة عارية سوى من سروالها الداخلي، كان عليّ أن أقرّ بأن جسدها جميل. وكان يزين صدرها ثديان ناصعا البياض، مكوران، ناهدان، بحلمتين براقتين بلون الفريز.

قلت: «لماذا لا تخلعين هذا أيضاً؟» وأشرت إلى سروالها الداخلي.

قالت: «لا، ليس الآن»، وانتابها الخجل وتضرج خداها بشيء من الاحمرار.

قلت: «لقد خلعته من قبل، فلم لا الآن؟» ووضعت يدي على خصرها أريد أن أشدّه إلى الأسفل. فتوسلت قائلة: «لا أرجوك! انتظر حتى أنهي الحمّام». توقفت لحظة ثم أضافت: «لقد انتهيت من الدورة للتو».

كان ذلك كافياً بالنسبة لي. رأيت نجوم الظهر تتلألأ أمامي مرة أخرى. انتابني الذعر.

قلت: «حسناً، استحمي! وأنا سأتمدد هنا ريثما تنتهين من حمامك».

قالت: «ألن تفرك لي ظهري؟» وشفتاها ترسمان تلك الابتسامة الخبيثة.

قلت: «طبعاً سأفعل... بالتأكيد». قدتها إلى الحمّام، وكنت أدفعها دفعاً في عجلة من أمري لأتخلص منها.

عندما تمددت هناك وراحت تفرك جسدها بالصابون، شعرت أني بدأت أضعف. أخذت قطعة الصابون من يدها ورحت أدعك أجمتها. وشعرت بالمتعة فيما كانت أصابعي المكسوة بالصابون تتشابك في شعراتها.

الآن حان وقت الهروب، قلت لنفسي، وتظاهرت بأني ذاهب لأبحث عن لفافة تبغ. أخذت قبعتي وأطلقت ساقي للريح.

بعد بضع ليال كان سيقدم عرض خاص في المسرح. ورجتني مونا ألّا أحضر العرض، متذرعة بأن حضوري سيجعلها متوترة إن هي عرفت بأني أشاهدها. وقد أزعجني ذلك قليلاً، لكني وافقت أخيراً على ألّا أحضر العرض. واتفقنا على أن أقابلها بعد العرض عند الباب الخلفي للمسرح. وحددت الموعد بدقة.

وصلت إلى هناك قبل الموعد المحدد، ليس عند الباب الخلفي، بل عند مدخل المسرح. ورحت أتطلع إلى الإعلانات، وسررت عندما

رأيت اسمها مكتوباً في الإعلانات بحروف عريضة وبارزة. وحين خرج الجمهور توجهت إلى الجانب المقابل من الشارع ورحت أراقب الناس. لم أعرف لماذا كنت أراقب ـ وكنت ملتصقاً بهذه البقعة. وكان الظلام يخيم أمام المسرح وكانت سيارات الأجرة مصطفة في رتل طويل.

بغتة رأيت شخصاً يندفع مسرعاً إلى طرف الرصيف حيث كان يقف رجل ضئيل هزيل ينتظر سيارة أجرة. كانت مونا. رأيتها تقبّل الرجل، ثم، وفيما كانت سيارة الأجرة تبتعد، رأيتها تلوح مودعة. ثم أسقطت يدها بضعف إلى جانبها ووقفت هناك بضع دقائق كما لو أنها تفكر بعمق. أخيراً أسرعت نحو المسرح عبر المدخل الرئيسي.

حين التقيت بها عند الباب الخلفي بعد بضع دقائق بدت مجهدة. وأخبرتها بما شاهدته للتو. قالت وهي تمسك يدي: «إذن رأيته؟».

«نعم، ولكن من هو؟».

«إنه أبي. لقد نهض من السرير ليراني. لن يعيش طويلاً».

وترقرقت الدموع في عينيها. «قال إنه يمكنه أن يموت بسلام الآن». وتوقفت فجأة ودفنت رأسها في كفيها وراحت تنشج وتشهق، ثم قالت بانكسار: «كان يجب أن أرافقه إلى البيت».

قلت: «لكن لماذا لم تدعيني أقابله؟ كان يمكننا أن نأخذه معاً إلى البيت».

رفضت أن تتحدث عن ذلك. وأرادت أن تذهب إلى البيت ـ اذهبي إلى البيت وحدك وابكي. ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا يمكنني سوى أن أبدي موافقتي ـ بدا أنه أفضل شيء أقوم به.

وضعتها في سيارة أجرة وراقبتها وهي تغيب عن ناظري. شعرت بتأثر عميق. ثم قررت أن أغوص في الحشد. عند ناصية شارع برودواي سمعت امرأة تناديني باسمي. وأسرعت باتجاهي.

قالت: «لقد مررت بجانبي ولم تعرفني. ما خطبك؟ إنك تبدو مكتئباً». ومدت يديها لتمسك يدي.

كانت إرما، زوجة آرثر رايموند السابقة.

قالت: «يا له من أمر مضحك، فقد رأيت مونا قبل بضع ثواني. نزلت من سيارة أجرة وسارت في الشارع. كانت تبدو ذاهلة. كنت سأتكلم إليها، لكنها ابتعدت مسرعة. لا أعتقد أنها رأتني أيضاً... ألم تعودا تعيشان معاً؟ كنت أظن أنكما تقيمان في بيت آرثر».

«أين رأيتها بالضبط؟» تساءلت لعلها تكون مخطئة.

«عند الناصية».

«هل أنت متأكدة؟».

ابتسمت بغرابة: «لا يمكنني أن أخطئها؟».

غمغمت: «لا أعرف، هذا أمر غريب. ماذا كانت ترتدي؟»

وصفت ما كانت ترتديه بدقة. وعندما قالت: «قبعة مخملية صغيرة»، عرفت أنه لا يمكن أن تكون شخصاً آخر.

«هل تشاجرتما؟».

«لا لم نتشاجر...».

قالت إرما: «لا بد أنك أصبحت تعرف مونا الآن»، محاولة الابتعاد عن الموضوع. ثم أمسكتني من ذراعي وسارت بي، وكأني قد فقدت ملكاتي العقلية.

قالت: «أنا في غاية السعادة لأني رأيتك. أنا ودولوريس لا نكف عن الحديث عنك... ألا تريد أن تزورنا لدقيقة؟ ستسر دولوريس لرؤيتك. إننا نعيش معاً في شقة واحدة. الشقة قريبة جداً من هنا. هيا تعال... أحب أن أتحدث إليك قليلاً. لا بد أن يكون قد مضت سنة منذ أن رأيتك آخر مرة. كنت قد هجرت زوجتك، هل تذكر؟ والآن فأنت تعيش مع آرثر ـ هذا غريب. كيف حاله؟ هل هو بخير؟ سمعت أن عنده زوجة جميلة».

لم تكن بحاجة لأن تلح عليّ لأن أصعد واحتسي شراباً معهما بهدوء. وبدا أن إرما كانت تطفح بالبهجة. لقد كانت في غاية الوّد معي، لكنها لم تكن مبتهجة إلى هذه الدرجة. تساءلت ماذا دهاها.

عندما صعدنا الدرج كان المكان معتماً. قالت إرما: «إنه أمر مضحك، فقد قالت إنها ستأتي إلى البيت في وقت مبكر هذا المساء. أوه حسناً، لا شك أنها ستصل بعد دقائق. اخلع أشياءك... اجلس... سأجلب لك شراباً في الحال».

جلست ذاهلاً. فمنذ سنوات، عندما تعرفت على آرثر رايموند، كنت مولعاً تقريباً بإرما. وعندما انفصلا وقَعتْ في غرام صديقي أومارا، الذي جعل حياتها بائسة كما كان آرثر. وكان يشتكي من أنها كانت باردة ـ لا باردة جنسيا، بل أنانية. ولم أكن أوليها كثيراً من الاهتمام في ذلك الوقت لأني كنت مهتماً بدولوريس. وذات مرة حصل شيء قرّب منا نحن الاثنين. كانت مجرد حادثة لم نكترث بعدها كثيراً. كنا قد التقينا في الشارع أمام دار سينما رخيصة بعد ظهر أحد الأيام، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات، كان كلانا مرهق، دخلنا إلى السينما. كان الفيلم مملاً جداً، وكادت الصالة تكون فارغة. وكنا قد ألقينا معاطفنا على حضنينا، ثم ومن باب السأم والحاجة إلى نوع من التواصل الإنساني، التقت أيادينا فيما جلسنا هكذا لفترة من الوقت نحدّق في الشاشة. بعد قليل، ألقيت ذراعي حولها وشددتها نحوي. وبعد لحظات تركت يدي ووضعت يدها على قضيبي. لم أفعل شيئاً، وكان فضولي يدفعني لأن أرى ماستفعله. تذكّرت أومارا الذي يقول إنها كانت باردة ولا مبالية. وهكذا جلست لا أوتي بأي حركة ورحت أنتظر. وشيئاً فشيئاً بدأت أشعر بضغط أصابعها، ثم أحكمت قبضتها عليه، وراحت تضغط عليه وتدلكه، بهدوء شديد ورقة لا متناهية، كما لو كانت نائمة وتفعل ذلك دون وعي منها. وعندما بدأ يرتعش ويتقافز في يدها، حلت أزرار البنطال ببطء، وأدخلت يدها وأمسكت خصيتي. ولم أبدِ أي حركة

لألمسها. وكانت لدي رغبة منحرفة في أن أجعلها تفعل كل شيء بنفسها. تذكرت شكل وملمس أصابعها؛ كانت حساسة وخبيرة. وقد تكورت كقطة ولم تعد تنظر إلى الشاشة. وعندما جاءتني الرعشة لم أنبس بكلمة. لم أقم بحركة لمعانقتها. لم أفعل شيئاً. تماماً كما لو أنني كنت أراقبها تفعل ذلك لشخص آخر. ثم ذرّت وجهها بالمسحوق، وأعادت كل شيء إلى مكانه في حقيبتها، شددتها نحوي وأطبقت فمي على فمها. ثم أبعدت معطفها عن حضنها، رفعت ساقيها ورميتهما على حضني. لم تكن ترتدي شيئاً تحت تنورتها، كانت مبللة وندية. وفعلت ما فعلته لي بقوة حتى ارتعشت. عندما غادرنا المسرح احتسينا بعض القهوة وتناولنا بعض المعجنات معاً في أحد المخابز وبعد حديث غير مترابط افترقنا وكأن شيئاً لم يحدث.

قالت: «أعذرني لتأخري».

أفقت من أحلام يقظتي لأنظر إلى الأعلى وأرى شكلاً جميلاً يقدم لي كأساً طويلة. وكانت قد ارتدت ثوباً جعلها تبدو مثل دمية يابانية. ما كدنا نجلس على الأريكة حتى استوت واقفة واتجهت نحو خزانة الملابس. سمعتها تحرك الحقائب ثم انطلقت صيحة خفيفة، وتنهيدة إحباط، كما لو كانت تدعوني بصوت مكتوم.

قفزت واقفاً وهرعت إلى الخزانة حيث وجدتها تقف فوق حقيبة وهي تتأرجح، تحاول أن تمد يدها إلى شيء على الرف الأعلى. أمسكت ساقيها لحظة لأثبتها، وعندما استدارت لتنزل، انزلقت يدي تحت الكيمونو الحريري. نزلت وهي بين ذراعي ويداي تشبكان ساقيها. وقفنا هناك في عناق محموم، يغلفني ثوبها الأنثوي. ثم فتح الباب ودخلت دولوريس. وقد فوجئت عندما رأتنا محشورين في الخزانة.

هتفت وهي تلهث قليلاً: «حسناً! من أرى هنا!».

تركت إرما ووضعت ذراعيّ حول دولوريس، التي لم تبد شيئاً من الاحتجاج. وبدت أجمل من أي وقت مضى.

حين انفصلت عني انطلقت في ضحكتها المعتادة الساخرة قليلاً. قالت وهي تمسك يدي: «لا يتعين علينا أن نبقى في الخزانة، أليس كذلك؟» وفي الوقت نفسه طوقتني إرما بذراعيها.

قلت: «لماذا لا تبقين هنا؟ إنه مكان مريح وأشبه بالرحم»، وكنت أقرص مؤخرة إرما وأنا أتكلم.

قالت دولوريس: «يا إلهي، إنك لم تتغير أبداً، أنت لا تشبع منه؟ ظننت إنك تعشق تلك.. تلك... نسيت اسمها».

«مونا».

«نعم، مونا... كيف حالها؟ هل ما زال الأمر جدياً؟ ظننت إنك لن تنظر إلى امرأة أخرى!».

قلت: «بالضبط، هذا شيء عابر كما ترين».

قالت «أعرف»، مُظهرة غيرتها المخنوقة أكثر وأكثر «أعرف هذه الأشياء العابرة معك. دائماً في حالة تأهب، أليس كذلك؟».

دلفنا إلى غرفة الجلوس، حيث رمت دولوريس أشياءها بعنف، بحيث ظننت أنها تعد نفسها للشجار.

سألت إرما: «هل أصب لك شراباً؟».

قالت دولوريس.: «نعم وكمية كبيرة منه، أنا بحاجة إلى كأس... وأضافت: «أوه، ليس لك علاقة بذلك»، بعد أن لاحظت أني أرمقها بغرابة. «إنه صديقك أولريك».

«ماذا دهاه، ألا يعاملك جيداً؟».

لاذت بالصمت. رمقتني بنظرة جافة، كما لو كانت تقول ـ تعرف جيداً عمن أتحدث.

كان في رأي إرما أن الأضواء قوية جداً؛ فأطفأت كل الأضواء تقريباً ماعدا مصباح القراءة بجانب الأريكة الأخرى.

«يبدو وكأنك تعدّين المشهد» قالت دولوريس بسخرية، وفي الوقت نفسه ينتاب المرء شعور بإثارة سرية في صوتها. وعرفت أنه يجب عليّ أن أتعامل مع دولوريس. أما إرما فكانت مثل قطة، تتحرك بهدوء، تموء تقريباً. ولم تكن منزعجة على الإطلاق؛ فقد كانت مستعدة لأي احتمال.

«من الجيد أن تكون هنا وحدك»، قالت إرما، كما لو أنها عثرت على أخ فقدته منذ فترة طويلة. تمددت على الأريكة بجانب الحائط. وكنت أنا ودولوريس نجلس عند قدميها تقريباً. ومن خلف ظهر دولوريس كنت أسند يدي على فخذ إرما؛ كانت تنبثق حرارة جافة من جسمها.

قالت دولوريس ملمحة إلى مونا: «يجب أن تحرسك جيداً، هل تخاف أن تفقدك؟»

قلت: «ربما»، وابتسمت لها تلك الابتسامة الاستفزازية «وربما أخشى أن أفقدها».

«إذن الأمر جدّي؟».

أجبت «جداً. لقد عثرت على المرأة التي أحتاج إليها، وسأحافظ عليها».

«هل تزوجتها؟».

«لا، ليس بعد... لكننا سنتزوج قريباً».

«وسيكون لديكما أطفال وكل شيء؟».

«لا أعرف إن كنا سننجب أطفالا... لماذا، هل هذا مهم؟».

قالت دولوريس: «لعلكما تفعلان الشيء بتمامه».

قالت إرما: «أوه، كفي عن ذلك! تبدين كأنك غيورة. أنا لست

غيورة منه! أنا مسرورة أنه عثر على المرأة المناسبة. فهو يستحقها». ضغطت على يدي، ولتخفيف الضغط انزلقت يدي بخفة بين فخذيها.

كانت دولوريس تشعر بما يجري، لكنها تظاهرت أنها لم تكن تلاحظ شيئاً، ثم نهضت وذهبت إلى الحمّام.

قالت إرما: «إنها تتصرف على نحو غريب، يبدو أنها تغار».

قلت: «تعنين أنها تغار منك؟».

«لا، ليس منّي... طبعاً لا! إنها تغار من مونا».

قلت: «هذا غريب، ظننت أنها تحب أولريك».

«هي تحبه، لكنها لم تنسك. إنها...».

أوقفت كلماتها بقبلة. ألقت ذراعيها حول رقبتي وضمتني، وهي تتلوّى وتتكور كقطة كبيرة. ودمدمت: «إني سعيدة بهذا الشعور. لا أريد أن أقع في حبك. أحبك أفضل هكذا».

مررت يدي مرة أخرى تحت كيمونها. استجابت بهدوء ورغبة.

عادت دولوريس واعتذرت لأنها قطعت علينا اللعبة. وقفت بجانبنا، وراحت تتطلع بنظرتها المتلألئة، الخبيثة.

قلت: «أعطني الكأس من فضلك؟».

قالت: «لعلك تريدني أن أهوّي لك أيضاً» وهي تضع الكأس على شفتي.

شددتها إلى الأسفل بجانبنا، ورحت أمسّد الطرف نصف المكشوف البارز من ثوبها. وكانت قد خلعت هي أيضاً أشياءها.

سألت: «ألا يوجد لديكما شيء أضعه عليّ؟» ورحت أنقّل نظري من واحدة إلى أخرى.

«بالتأكيد»، قالت إرما، وقفزت واقفة على قدميها بحيوية.

قالت دولوريس، بابتسامة مكشرة: «أوه، لا تدلّليه هكذا، هذا مايحب... إنه يريد أن يكون مركز الاهتمام. ثم يقول لنا إنه مخلص لزوجته».

قلت: «إنها لم تصبح زوجتي بعد»، وأخذت الرداء الذي قدمته لي إرما.

قالت دولوريس: «أوه، صحيح؟، حسناً، هذا أسوأ إذن».

«أسوأ، ماذا تعنين أسوأ؟ لم أعمل شيئاً بعد؟».

«لا، لكنك ستحاول».

«هل تعنين أنك تريدين أن أحاول. اصبري... فستحصلين على نصيبك».

قالت دولوريس: «ليس معي، فأنا سآوي إلى الفراش. يمكنكما أنتما الاثنان أن تفعلا ما يحلو لكما».

رداً عليها أغلقت الباب وبدأت أخلع ثيابي. وعندما عدت كانت دولوريس تتمدد على الأريكة وإرما تجلس بجانبها تضع ساقاً على ساق، وساقاها مكشوفتان تماماً.

قالت إرما: «لا تبالي بأي شيء تقوله، إنها تحبك بقدر ماأحبك... وربما أكثر. إنها لا تحب مونا، هذا كل ما في الأمر».

«هل هذا صحيح؟» ورحت أنقّل بصري من إرما إلى دولوريس التي لاذت بالصمت، لكنه صمت يعني الموافقة.

وتابعت قائلاً: «لا أعرف لماذا تشعرين هكذا نحوها، فهي لم تفعل لك شيئاً. ولا يمكن أن تغاري منها لأنك... حسناً، لأنك لم تحبيني... آنئذ».

قالت دولوريس: «آنئذ؟ ماذا تعني؟ أنا لم أحبك قط، حمداً لله!».

قالت إرما بشكل لعوب: «لا يبدو ذلك مقنعاً، اسمعي، إذا لم تحبيه في حياتك فلماذا تتحدثين عنها». واستدارت إليّ وبطريقتها الخرقاء قالت: «لماذا لا تقبّلها وتوقف هذا الهراء؟».

«حسناً»، قلت وانحنيت وضممت دولوريس. في بادئ الأمر زمّت شفتيها وأغلقتهما بقوة، وراحت تنظر إليّ بتحد. ثم بدأت تتراخى شيئاً فشيئاً، وعندما استرخت أخيراً راحت تعضّ شفتي. وعندما سحبت شفتيها دفعتني قليلاً وقالت: «أخرجيه من هنا!» ألقيت عليها نظرة من اللوم تنطوي على شيء من الشفقة والاشمئزاز. وعلى الفور استسلمت ثانية. انحنيت فوقها مرة أخرى، بلطف هذه المرة، وعندما انزلق لساني في فمها دسست يدي بين ساقيها. وحاولت أن تدفع يدي بعيداً.

«وووه!» سمعت إرما تقول، ثم سحبتني بعيداً وقالت: «أنا هنا أيضاً، لا تنسَ ذلك». وكانت تعرض شفتيها وثدييها.

لقد بدأ الأمر يتحول إلى لعبة شد الحبل. قفزت لأصب لنفسي كأسا. فبرز الرداء مثل خيمة مشدودة.

قالت دولوريس متظاهرة بالإحراج: «هل عليك أن ترينا ذلك؟».

قلت: «سأريك مادمت تطلبين ذلك»، وسحبت الرداء إلى الوراء كاشفاً نفسي تماماً.

أدارت دولوريس رأسها إلى الحائط، ودمدمت شيئاً بصوت هستيري مزيف مثل «مقرف وبذيء». أما إرما فقد راحت ترمقه بإعجاب. وأخيراً مدت يدها ولمسته. وعندما وقفت لتتناول الكأس الذي صببته لها فتحت ثوبها ووضعته بين ساقيها. وشربنا معاً وهو يقرع بابها.

قالت دولوريس بفجاجة: «أريد كأساً أيضاً». استدرنا في وقت واحد نحوها. كان وجهها قرمزياً، وعيناها كبيرتين وساطعتين. «إنك تبدو فاسقاً»، قالت وعيناها تتنقلان بيني وبين إرما.

أعطيتها الكأس وجرعت منه جرعة كبيرة. كانت تبذل جهدها لتحصل على تلك الحرية التي كانت إرما تلوّح بها مثل علم.

جاء صوتها متحدياً الآن. «لماذا لا تفعلانها وتنتهيان؟» قالت

تقذفنا بكلماتها. وفي تلويها كشفت نفسها؛ وكانت تعرف ذلك أيضاً لكنها لم تبذل أي جهد لتخفي عريها.

قلت: «استلقي هناك»، ودفعت إرما بلطف على الأريكة.

أمسكت إرما يدي وشدتني معها، وقالت: «استلقي أيضاً».

رفعت الكأس إلى شفتي وفيما كان الشراب ينزلق في حنجرتي أطفئ الضوء. سمعت دولوريس تقول ـ «لا، لا تفعلي ذلك، أرجوك!» لكن الضوء انطفأ، وفيما وقفت هناك أغب كأسي شعرت بيد إرما على ذكري تعتصره. وضعت الكأس وقفزت في الوسط بينهما. فأطبقن عليّ على الفور. وراحت دولوريس تقبلني بشكل محموم وجثمت إرما كقطة.

كان الوقت فجراً عندما وصلت إلى ريفرسايد درايف. لم تعد مونا بعد. استلقيت ورحت أنصت كي أسمع وقع خطواتها. بدأت أخشى أن تكون قد تعرضت لحادثة أسوأ، فلعلها قتلت نفسها، أو أنها حاولت ذلك على الأقل. وكان يحتمل أن تكون قد ذهبت إلى بيت والديها. لكن لماذا تركت عندئذ سيارة الأجرة؟ ربما لتجري إلى محطة المترو. لكن لم تكن محطة المترو في ذلك الاتجاه. كان بوسعي طبعاً أن أخابرها في البيت، لكنني عرفت أنها ستسيء تفسير ذلك. تساءلت إن كانت قد خابرت خلال الليل. ولم تأبه ريبيكا ولا آرثر بأن يتركا رسالة لي؛ فقد كانا ينتظران دائماً حتى يرياني.

في حوالى الساعة الثامنة رحت أقرع بابهما. كانا ما يزالان نائمين. تعين عليّ أن أقرع الباب بقوة أكثر قبل أن يردا. ثم علمت إنهما عادا إلى البيت متأخرين جداً.

ذهبت إلى غرفة كرونسكي وقد تملكني اليأس. كان يغط في سبات عميق. لم يبد أنه كان يعرف ما كنت أرمي إليه.

وأخيراً قال: «ماذا في الأمر؟ هل بقيت خارج البيت طوال الليل

ثانية؟ لا، لم تكن هناك أي مخابرة لك. اخرج من هنا... اتركني وشأني!».

لم يغمض لي جفن. شعرت بالإنهاك. لكن خطرت ببالي تلك الفكرة المطمئنة بأنها لعلها تخابرني في المكتب. توقعت أن أجد رسالة على طاولتي بانتظاري.

مر معظم اليوم وأنا أغفو وأصحو. غفوت على طاولتي، رأسي مدفونة بين ذراعيّ المشبوكين أمامي. خابرت ريبيكا عدة مرات لأرى إن كانت قد تلقت أي رسالة منها، لكني كنت أسمع دائماً الجواب نفسه. عندما حان وقت إغلاق المحل رحت أتسكع. مهما حدث فلم أكن أعتقد أنها ستترك اليوم يمر دون أن تخابرني. كان أمراً لا يصدق.

تملكتني حيوية عصبية غريبة. وفجأة صحوت، لم أكن يقظاً في حياتي أكثر من الآن كما لو كنت قد أمضيت ثلاثة أيام مسترخياً في السرير. قررت أن أنتظر نصف ساعة أخرى وإن لم تخابر فسأذهب مباشرة إلى بيتها.

فيما كنت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات واسعة، انفتح باب السلم ودخل شاب صغير داكن البشرة. أغلق الباب خلفه بسرعة كما لو كان يغلق الباب في وجه شخص يلاحقه. كان ثمة شيء مرح وغامض يحيط به والأمر الذي بالغ في ذلك صوته الكوبي.

بدأ بقوله: «إنك ستمنحني عملاً، أليس كذلك يا سيد ميلر؟ يجب أن أعمل ساعياً لأكمل دراستي. قال لي الجميع إنك رجل رحيم ـ وأستطيع أن أرى ذلك بنفسي ـ فلديك وجه طيب. إني أتقن أشياء كثيرة، كما ستكتشف عندما تعرفني على نحو أفضل. اسمي خوان ريكو. وعمري ثمانية عشر عاما. وأنا شاعر أيضاً».

قلت: «حسنا، حسنا»، وضحكت ورحت أداعبه تحت ذقنه ـ فقد كان في حجم قزم ويشبه واحداً منهم ـ «وكذلك أنت شاعر؟ إذن بالتأكيد سأمنحك وظيفة».

قال: «وأنا بهلوان أيضاً، كان عند أبي سيرك. ستجدني سريعاً جداً على ساقي. أحب أن أذهب هنا وهناك بحماس ونشاط. وأنا في غاية التهذيب وعندما أقوم بتسليم رسالة أقول، شكراً يا سيدي، وأرفع قبعتي باحترام. أعرف كل الشوارع عن ظهر قلب، بما في ذلك البرونكس. وإذا وضعتني في الحي الإسباني فستجدني فعّالاً جداً. هل أعجبك يا سيدي؟» وابتسم لي ابتسامة ساحرة تدل على أنه يعرف جيداً كيف يقدم نفسه.

قلت: «اذهب واجلس هناك. سأعطيك استمارة فارغة لتملأها. وفي صباح الغد يمكنك أن تبدأ العمل باكراً وبابتسامة على وجهك».

«أوه يمكنني أن أبتسم، يا سيدي ـ ابتسامة جميلة» وهكذا فعل.

«أنت متأكد أنك في الثامنة عشرة؟».

«نعم يا سيدي، ويمكنني أن أثبت لك ذلك. معي كل الأوراق التي تثبت ذلك».

أعطيته استمارة فارغة وتوجهت إلى الغرفة المجاورة ـ ساحة التزلج ـ لأتركه وحده في سلام. بغتة رن جرس الهاتف. عدت مسرعاً إلى الطاولة ورفعت السماعة. كانت مونا هي التي تتكلم، بصوت منخفض غير طبيعي، هادئ.

قالت: «لقد مات منذ قليل، بقيت بجانبه منذ أن تركتك...».

غمغمت بضع كلمات متقطعة معزياً إياها ثم سألتها متى ستعود. قالت إنها ليست متأكدة متى سترجع... وقد أرادت أن أسدي لها معروفاً... أن أذهب إلى المخزن وأشتري لها فستان حداد وقفازات سوداء، قياس 16. ما نوع القماش؟ لا تعرف، أي شيء أختاره أنا... بضع كلمات أخرى وأطبقت السماعة.

كان خوان ريكو الضئيل البنية ينظر في عينيّ ككلب مخلص. فقد فهم كل شيء وكان يحاول بطريقته الكوبية الرقيقة أن يعلمني أنه يرغب في مشاركتي حزني.

قلت له: «حسناً يا خوان، كلنا سنموت ذات يوم».

سألني: «هل كانت زوجتك هي التي خابرت؟» كانت عيناه رطبتين تلمعان.

«أنا واثق من أنها جميلة».

«ما الذي يجعلك تقول هذا؟».

«الطريقة التي تحدثت بها... كان بوسعي أن أراها تقريباً. أتمنى أن أتزوّج امرأة جميلة ذات يوم. إن هذا الموضوع يشغلني في معظم الأحيان».

قلت: «إنك فتى مضحك، تفكر بالزواج بهذا السن. فأنت مازلت صبياً».

«ها هي استمارتي يا سيدي. هلاّ تفضلت وألقيت عليها نظرة الآن لأتأكد من أنه يمكنني أن آتي غداً؟».

ألقيت نظرة سريعة عليها وطمأنته أنها على ما يرام.

«إذن أنا في خدمتك يا سيدي. والآن يا سيدي، إذا سمحت لي، هل يمكنني أن أقترح أن تسمح لي أن أبقى معك قليلاً؟ لا أظن أنه من اللائق أن تبقى وحدك في هذه اللحظات. عندما يكون القلب حزيناً فالمرء يحتاج إلى صديق».

انفجرت ضاحكاً وقلت: «فكرة جيدة، سنذهب إلى العشاء معاً، كيف ترى ذلك؟ وبعدها إلى السينما ـ هل يعجبك ذلك؟».

نهض وبدأ يقفز ككلب مدرّب. وفجأة أبدى رغبة في معرفة ماذا يوجد في الغرفة الفارغة في الخلف. تبعته إليها ورحت أراقبه بصدر رحب وهو يتفحص الأمتعة الشخصية. فتنته الزلاجات. أخذ زوجاً منها وراح يتفحصها كما لو أنه لم يرها في حياته.

قلت: «البسها، ودر دورة. هذه ساحة للتزلج».

سأل: «هل يمكنك أن تتزلج أيضاً؟».

«بالتأكيد. هل تريد أن تراني وأنا أتزلج؟» فأجاب: «نعم، وهل تسمح لي أن أتزلج معك. فأنا لم أفعل ذلك منذ سنوات عديدة».

وضعنا الزلاجات. انطلقت إلى الأمام ويداي وراء ظهري. وتبعني خوان ريكو الصغير ورائي تماماً. وكان في وسط الغرفة أعمدة رفيعة، رحت أدور حولها كما لو أني كنت أقدم عرضاً.

قال خوان لاهثاً: «كم هذا ممتع؟ إنك تنزلق كالزفير».

«مثل ماذا؟».

«مثل الزفير... نسيم لطيف معتدل».

«أوه، زفير!».

«كتبت قصيدة في إحدى المرات عن زفير ـ كان ذلك منذ فترة بعيدة».

أمسكت يده وجعلته يدور معي. ثم وضعته أمامي ويدي على خصره ودفعته إلى الأمام، ورحت أوجهه برشاقة ومهارة على الأرض. وأخيرا دفعته دفعة قوية فانزلق إلى الطرف الآخر من الغرفة.

قلت له: «سأريك الآن بعض الدورات الغريبة التي تعلّمتها في تيرول»، وطويت ذراعيّ أمامي ورفعت إحدى ساقي في الهواء. إن الفكرة التي لن تشك بها مونا في حياتها بأني أفعل ذلك في هذه اللحظة منحتني شعوراً ببهجة شيطانية. وفيما كنت أجتاز خوان ثانية وثالثة، الذي كان يجلس الآن على عتبة النافذة مستغرقاً في المشهد، رحت أعمل له حركات في وجهي ـ في البداية حزين، ثم مرح، لا مبال، فرح، متأمّل، متجهم، ثم مرعب، ثم أبله. ورحت أدغدغ تحت إبطي مثل قرد، ورقصت الفالس كدب مدرّب، ثم قرفصت مثل كسيح، وغنّيت بنغمة نشاز، ثم أخذت أصيح مثل معتوه. وكنت أدور وأدور دون توقف، تغمرني البهجة، متحرراً كالطير، ثم انضم

إليّ خوان، وراح يطارد أحدنا الآخر كحيوانين، وأخذنا نرقص الفالس كفأرين، ثم مثّلنا فصل الأخرس ـ الأبكم.

وكنت طوال الوقت أفكر بمونا وهي تجول في البيت حزينة، تنتظر فستان الحداد، والقفاز الأسود.

كنا ندور وندور. وبقليل من الكيروسين، وعود ثقاب ونشتعل.

ندور وندور، أجراس تقرع، زلاجات تدق. دورة الأسى والحزن. في جذور شعري أحس بلمسة من الصقيع، وفي أطراف أصابع قدمي أشعر بنار متأججة. أب بارد متشنج مسجى على الفراش، والدة خضراء كالنغارينا، والعروس تتجول.

سنواريه التراب أولاً في الأرض الباردة. ثم سندفن اسمه، أسطورته، طائراته الورقية وأحصنة سباقه. وللأرملة مشعل. سأتزوج ابنة الأرملة ـ وهي ترتدي رداء الحداد وقفازيها السوداوين. سأكفّر عن نفسي، وأطلي رأسي بالرماد.

ندور وندور... الآن بشكل ثمانية. الآن بإشارة الدولار. الآن نسر ناشر جناحيه. قليل من الكيروسين وعود ثقاب، وأحلّق كشجرة عيد ميلاد.

«سيد ميلر! سيد ميلر!» ينادي خوان. «سيد ميلر، توقف! أرجوك توقف!».

يبدو الفزع على وجه الصبي. ماذا يمكن أن يكون ذلك الذي يجعله يحدّق فيّ هكذا؟

«سيد ميلر»، يقول ويمسكني من ذيل معطفي «أرجوك لا تضحك هكذا! أرجوك، إني أخاف عليك».

خففت من سرعتي. وارتسمت ابتسامة واسعة على وجهي، ثم تحولت إلى ابتسامة ودية.

«ذلك أفضل يا سيدي. جعلتني أقلق عليك. أليس من الأفضل أن نذهب الآن؟».

«أظن ذلك ياخوان. أظن أننا تدربنا ما فيه الكفاية اليوم. ستحصل غداً على دراجة. هل أنت جائع؟».

«نعم يا سيدي، أنا حقاً جائع. لدي دائماً شهية فظيعة. في إحدى المرات أكلت دجاجة كاملة وحدي. كان ذلك عندما ماتت عمتي».

«سنتناول دجاجاً الليلة يا خوان. دجاجتان - واحدة لك وواحدة لي».

«إنك لطيف جداً يا سيدي... هل أنت متأكد أنك على ما يرام الآن؟».

«على ما يرام ككمنجة ياخوان. الآن أين تظن أنه يمكننا أن نشتري فستان حداد في هذه الساعة؟».

فأجاب خوان: «لا أعرف».

في الشارع أوقفت سيارة أجرة. كنت أعرف أنه يوجد على الجانب الشرقي محلات لم تغلق بعد. قال السائق إنه واثق من أنه سيجد واحداً منها.

قال خوان ونحن نترجل من السيارة أمام محل بيع الفساتين: «المنطقة هنا تعج بالحركة، أليس كذلك؟ هل هي دائماً هكذا؟».

قلت: «دائماً. أعياد مستمرة. الفقراء فقط هم الذين يتمتعون بالحياة».

قال خوان: «يجب أن أعمل هنا في وقت ما. ما هي اللغة التي يتكلمون بها هنا؟».

قلت: «كل اللغات. يمكنك أن تتكلم الإنكليزية أيضاً».

كان صاحب المحل يقف عند الباب. ربّت على رأس خوان بودّ.

قلت: «أريد فستان حِداد، قياس 16. ليس غالياً جداً. يجب تسليمه الليلة».

تقدمت مني صبية يهودية سمراء داكنة تتكلم بلهجة روسية. قالت: «هل هو لشابة أم لعجوز؟».

«شابة، قياسك تقريباً. لزوجتي».

بدأت ترينا موديلات مختلفة. طلبت منها اختيار الفستان الذي تظن أنه مناسب أكثر. وأضفت: «ليس بشعاً، وليس أنيقاً جداً. تفهمين قصدي».

قال خوان: «والقفازات، لا تنسَ القفازات».

سألت الشابة: «ما القياس؟».

قلت: «أرني يديك». تفحصتها للحظة ثم قلت: «أكبر قليلاً من يديك».

أعطيتهم العنوان وتركت بقشيشاً جيداً للساعي. جاء صاحب المحل الآن، وراح يتحدث إلى خوان. بدا أنه أعجبه كثيراً.

سأله: «من أين أنت يا بني؟ من بورتوريكو؟».

فأجاب خوان: «لا، من كوبا».

«هل تتكلم الإسبانية؟».

«نعم يا سيدي، والفرنسية والبرتغالية».

«أنت صغير لكي تعرف كل هذه اللغات».

«أبي علّمني إياها. كان أبي رئيس تحرير صحيفة في هافانا».

قال صاحب المحل: «حسناً، حسناً. إنك تذكّرني بولد صغير كنت أعرفه في أوديسا».

قال خوان: «أوديسا! لقد ذهبت إلى أوديسا ذات مرة. كنت أعمل على باخرة تجارية».

«ماذا!» صاح صاحب المحل، «كنت في أوديسا؟ هذا لا يصدق. ما عمرك؟».

«ثماني عشرة سنة يا سيدي».

استدار صاحب المحل نحوي. أراد أن يعرف إن كان بوسعه أن يدعونا لاحتساء شيء معه في محل مجاور للمرطبات.

قبلنا الدعوة بسرور. وأخذ مضيفنا، الذي كان اسمه آيسنشتاين، يتحدث عن روسيا. كان طالب طب في الأصل. والصبي الذي يشبه خوان كان ابنه الذي توفي. قال آيسنشتاين: كان ولداً غريبا. لم يكن يشبه أحداً في العائلة. كان يفكر بطريقة خاصة. يريد أن يدور حول العالم. مهما قلت له كان لديه آراء مختلفة. كان فيلسوفاً صغيراً. مرة هرب إلى مصر ـ لأنه يريد أن يدرس الأهرامات. عندما قلنا له إننا سنذهب إلى أمريكا قال إنه سيذهب إلى الصين. قال إنه لا يريد أن يصبح غنياً كالأمريكيين. كان ولداً غريباً! يا لها من استقلالية! لم يكن ثمة شيء يخيفه ـ حتى القوزاق. كنت في بعض الأحيان أخشى عليه. من أين جاء؟ حتى أن شكله لم يكن يهودياً... دخل في حديث أحادي عن الدم الغريب الذي يجري في عروق اليهود في تجوالهم. وراح يتكلم عن القبائل الغريبة في بلاد العرب، وأفريقيا، والصين. وقال إنه يعتقد أنه ربما يجري دم يهودي في الإسكيمو. وطوال الوقت كان يعتقد أني يهودي. وأخيراً أوضحت له أني لست يهودياً، ولكن زوجتي يهودية.

«وقد اعتنقت المسيحية؟».

«لا، فأنا سأصبح يهودياً».

كان خوان ينظر إليّ بعينين واسعتين فيهما تساؤلات كثيرة. ولم يكن السيد آيسنشتاين يعرف إن كنت أمزح أم كنت جدياً.

قلت له: «عندما آتي إلى هنا، فأنا أشعر بالسعادة. لا أعرف السبب، لكني أشعر بالراحة. ربما كان يجري في عروقي دم يهودي ولا أعرف».

قال السيد آيسنشتاين: «أخشى ألّا يكون الأمر كذلك. لقد انجذبت إليك لأنك لست يهودياً. إنك تحب ما هو مختلف، هذا كل مافي الأمر. ربما كنت تكره اليهود ذات مرة. وهذا يحدث أحياناً.

فقد ينقلب الإنسان فجأة ويحب بقوة ما كان يكرهه. ينتقل إلى الجانب الآخر. أعرف شخصاً غير يهودي اعتنق اليهودية. وكما تعرف فإننا لا نحاول الدعوة إلى ديننا. إذا كنت مسيحياً جيداً فمن الأفضل أن تبقى مسيحياً».

قلت: «لكني لا أبالي بالدين».

قال: «الدين هو كل شيء. إذا لم تكن مسيحياً جيداً فلن تكون يهودياً جيداً. إننا لسنا عرقاً ـ نحن دين».

«هذا ما تقوله أنت، لكني لا أصدق. الأمر أكثر من ذلك. إنه كما لو كنت نوعاً من البكتريا. لاشيء يمكن أن يفسر بقاءك، بالتأكيد ليس معتقدك. لهذا فأنا أتساءل لماذا أشعر بالسعادة حين أكون مع أحد من بني جلدتك. أريد أن أعرف السر».

قال: «حسناً، أدرس زوجتك».

«لكني لا أفهمها. إنها لغز».

«لكنك تحبها؟».

قلت: «نعم، أحبها كثيراً».

«ولماذا أنت لست معها الآن؟ لماذا طلبت إرسال الفستان لها؟ من الذي مات؟».

أجبت: «أبوها، لكني لم ألتق به»، وأضفت بسرعة، «لم أدخل بيتهم حتى الآن».

قال: «هذا سيء، ثمة خطأ هنا. يجب أن تذهب إليها. حتى لو لم تطلب منك. اذهب إليها! لا تخجلها أمام والديها. ليس من واجبك أن تذهب إلى الجنازة، إنما يجب أن تدعها ترى أنك تهتم بعائلتها. أنت مجرد طارئ في حياتها. عندما تموت ستستمر العائلة. سيمتصون دمك. فلقد شربنا دم كل العروق. نحن نستمر كالنهر. لا يجب أن تعتقد أنك تتزوج وحدك ـ أنت تتزوج العرق اليهودي، الشعب اليهودي. إننا نمدك بالحياة والقوة. في النهاية كل الشعوب ستلتقي. سيكون لدينا سلام. سنصنع عالماً جديداً. وسيكون ثمة مكان

للجميع... لا، لا تتركها وحدها الآن. ستندم، إذا فعلت ذلك. إنها ذات كبرياء، هذا ما في الأمر. يجب أن تكون ناعماً ولطيفاً. عليك أن تناغيها كالحمامة. ربما كانت تحبك الآن، لكنها ستحبك أكثر فيما بعد. ستتمسك بك كالملزمة. لا يوجد حب كهذا بالنسبة لامرأة يهودية، فهي تعطي للرجل قلبها. خاصة إذا كان دمه غير يهودي. إنه نصر عظيم بالنسبة لها. من الأفضل لك أن تتوقف عن أن تكون السيد... أعذرني لأني أتكلم معك بهذه الطريقة، لكني أعرف عما أتحدث. وأنا أرى أنك لست شخصاً عادياً من غير اليهود. أنت واحد من أولئك الوثنيين الضائعين ـ إنك تبحث عن شيء... لا تعرف ماهو بالضبط. إننا نعرف نوعك. ولسنا دائماً متشوقين لنيل حبك. نحن خدعنا كثيراً. أحياناً من الأفضل أن يكون لدينا عدو جيد فنعرف عندها أين نقف. أما مع الأشخاص الذين من نوعك فلا نكون واثقين أبداً أين نقف. إنك كالماء ـ ونحن صخر. أنتم تعملون على حتنا شيئاً فشيئاً، ليس بالحقد، بل بالشفقة والرقة. تصدموننا مثل أمواج البحر. يمكننا التصدي للأمواج الكبيرة ـ أما اللمسات اللطيفة فذلك تستنفد قوانا».

شعرت بالسعادة لهذا الاستطراد حتى ساورتني الرغبة في مقاطعته.

قال: «نعم أعرف. أعرف كيف تشعر. كما ترى، فنحن نعرف كل شيء عنكم ـ لكن عليكم أن تتعلموا كل شيء عنا. يمكنك أن تتزوج ألف مرة، بألف امرأة يهودية، ومع ذلك فلن تعرفوا عنا مانعرفه عنكم. إننا بداخلكم طوال الوقت. بكتيريا، نعم، ربما. إن كنتم أقوياء دعمناكم، وإن كنتم ضعفاء حطمناكم. نحن لا نعيش في العالم، كما يبدو الأمر لغير اليهود، بل في الروح. العالم يموت، أما الروح فهي سرمدية».

19

بقيت وحيداً سبعة أيام بلياليها. خيّل إلي أنها تركتني. خابرتها مرتين، لكن صوتها كان بعيداً فارغاً، مغلفاً بالأسى. تذكرت كلمات السيد آيسنشتاين.

وفي أحد الأيام، عند موعد الانصراف تقريباً، خرجت من المصعد ووقفت أمامي. كانت تتشح بالسواد بكاملها، ما عدا قبعة بنفسجية أضفت عليها شكلاً غريباً. لقد طرأ تحول. فالعينان أصبحتا أكثر نعومة، والبشرة أكثر شفافية. وأصبح قوامها رقيقاً على نحو مغرٍ، مشيتها أكثر بهاء. كانت تبدو كمسرنم أثناء النوم.

للحظة لم أكد أصدق عيني. ثمة شيء غريب فيها. كانت تنبعث منها قوة مغناطيسية، سحر غريب. كانت كواحدة من تلك النسوة الإيطاليات منذ عهد النهضة اللاتي يحدّقن فيك بثبات بتلك الابتسامة المبهمة من وراء قماش الخيش الذي ينحسر إلى اللانهاية. في تلك الخطوات الواسعة التي خطتها قبل أن تلقي بنفسها بين ذراعيّ شعرت بهوة لم أكن أعرف من قبل أنها يمكن أن توجد بهذا الاتساع بين شخصين، وهاهي تلتئم الآن. شعرت كما لو أن الأرض قد انشقت بيننا، كما لو أنها، بجهد علوي وسحري، قفزت من الفراغ وانضمت ثانية إليّ. فقد تلاشت الأرض التي كانت تقف عليها منذ برهة، انزلقت إلى ماض سحيق بالنسبة لي، تماماً كما يهوي جرف إحدى القارات في البحر. ليس ثمة شيء واضح وملموس كذلك الذي

تشكّل في ذهني آنئذ؛ حصل ذلك فيما بعد، لأنني تدرّبت مؤخراً على هذه اللحظة، بأني فهمت طبيعة التئام شملنا.

بدا جسدها كله يبدو مختلفاً على نحو غريب، وأنا أضمها إليّ. جسد مخلوق ولد من جديد. كان جسداً جديداً تماماً ذلك الذي قدمته لي، جديداً لأنه كان يحتوى على عنصر كان مفقوداً. شعرت كما لو أنها عادت بروحها ـ ليست روحها الفردية الخاصة، بل روح عرق. بدا أنها تقدمه لي مثل تعويذة.

ظهرت الكلمات على شفاهنا بصعوبة. دمدمنا وحدق أحدنا في الآخر. ثم رأيت نظراتها تجول في أرجاء المكان، تحدق في كل شيء بعين صلبة، وأخيرا اتكأت على طاولتي وعليّ وبدا أنها تقول: «ماذا تفعل هنا؟».

هذه هي مونا، مونا التي جاءت إليّ من وسط باحة الرقص وعرضت نفسها عليّ، كما قدمت نفسها إلى مئات وربما آلاف الآخرين قبلي. مثل هذه الزهرة المدهشة الغريبة، هي الإنسان! تمسكها في يدك وبينما هي تنمو وتتغير، فإنها تنضح بشذا مخدّر.

بعد بضع ثوان أصبحت عبداً في محرابها. كان النظر إليها بثبات يكاد يكون أمراً لا يطاق. وبدا أنه أمر لا يصدق أن أفكر بأنها ستتبعني إلى البيت، أن تقبل الحياة التي سأعرضها عليها. كنت قد طلبت امرأة، ومُنحت ملكة.

لم أتذكر شيئاً مما حدث على العشاء. لا بد أننا تناولنا الطعام في مطعم، لا بد أننا تحدثنا، لا بد أننا وضعنا خططاً. لا أذكر شيئاً من هذا. أذكر وجهها، نظرتها الجديدة التي تعبرّ عن روحها، تألق وجاذبية العينين، لون بشرتها البراقة نصف الشفافة.

أذكر أننا مشينا بعض الوقت في شوارع مهجورة. وربما كنت أنصت إلى نبرة صوتها فقط، ربما أخبرتني آنذاك بكل شيء، كل شيء كنت أتوق إلى معرفته عنها. لا أذكر كلمة واحدة منها. ليس

هناك شيء له أهمية أو معنى سوى المستقبل. أمسكت بيدها، ضغطت عليها بقوة، أسير معها إلى المستقبل الزاخر وأصابعنا متشابكة. لاشيء يحتمل أن يكون كما كان في السابق. الأرض انفتحت، الماضي انجرف، وغاص كما تغوص قارة مفقودة. وبأعجوبة ـ أدركت بأعجوبة واللحظات تطول وتطول ـ لقد نجت، عادت إليّ. كان من واجبي ومهمتي وقدري في هذه الحياة أن أدللها وأحميها. وفيما رحت أفكر بكل ما كان عليّ أن أفعله بدأت أنمو من الداخل، كما لو كنت أنمو من بذرة صغيرة. نموت بضع سنتمترات في فضاء كتلة. شعرت بوساطة قلبي أن البذرة تنطلق.

وحين بلغنا ناصية الشارع، توقفت حافلة. قفزنا إليها وصعدنا إلى الطابق العلوي فيها. وتوجهنا إلى المقعد الأمامي. حالما دفعنا الأجرة أخذتها بين ذراعيّ وأمطرتها بالقبل. كنا وحيدين والحافلة تميل على الرصيف المليء بالمطبّات.

وفجأة رأيتها تلقي نظرة وحشية حولها، ترفع فستانها بشكل محموم، وفي اللحظة التالية كانت تجلس فوقي. تضاجعنا كالمجانين على مسافة عدة شوارع وهي تترنح. ظلت جالسة فوق حضني، حتى بعد أن انتهينا، واستمرت في مداعبتي بشكل محموم.

عندما دلفنا بيت آرثر رايموند كان المكان ملتهباً. شعرت كما لو أنهم كانوا يتوقعون عودتها. كان كرونسكي هناك وأختا آرثر، وريبيكا، وعدد من صديقاتها. حيّوا جميعهم مونا بحرارة ومودة. وكادوا يبكون من أجلها.

كانت اللحظة لحظة احتفال. أحضرت الزجاجات، وفرشت المائدة، وبدأ الفونوغراف يصدح. «نعم، نعم، لنبتهج!» أخذ الجميع يقولون. وكدنا نرتمي فوق بعضنا. رقصنا، غنّينا، تحدّثنا، أكلنا، شربنا. ساد الجو السعادة والبهجة. كان كل واحد يحب الآخر. الاتحاد ولم الشمل. واستمر ذلك حتى الليل، حتى كرونسكي راح

يغني ملء رئتيه. كانت كحفلة عرس. لقد عادت العروس من القبر. استعادت العروس شبابها. لقد أينعت العروس.

نعم، كان زواجاً. في تلك الليلة عرفت أننا جمعنا رماد الماضي.

«زوجتي، زوجتي!» دمدمت ونحن نخلد إلى النوم.

20

بعد موت أبيها أصبحت مونا مهووسة بفكرة الزواج. فلعلها وعدته بذلك وهو على فراش الموت، وهي تحاول أن تفي بوعدها له. وكان في كل مرة يثار فيها هذا الموضوع يعقبه قليل من الشجار. (ويبدو أنني لم آخذ الموضوع بجدية). وذات يوم، وبعد إحدى هذه المشاجرات، أخذت تحزم أمتعتها. وقالت إنها لن تبقى معي يوماً آخر. وبما أنه لم يكن عندنا حقيبة كبيرة فقد اضطرت إلى لف أشيائها بورقة كبيرة بنية اللون، مما جعلها تبدو حزمة ضخمة جداً.

قلت لها: «ستبدين كمهاجرة تسير في الشارع وهي تحمل هذه الصرة». كنت جالساً على السرير أراقبها وهي تحاول وتناور مدة نصف ساعة أو أكثر. ولم أستطع إلى حد ما أن أصدق أنها ستغادر فعلاً. وكنت أنتظر الانهيار المعتاد في آخر لحظة - موجة غضب، ذرف دموع، ثم مصالحة دافئة.

إلا أنها بدت في هذه المرة مصممة على موقفها. كنت ما أزال جالساً على السرير وهي تجر الحزمة عبر القاعة وفتحت الباب الأمامي. حتى أن أحدنا لم يودع الآخر.

وعندما انصفق الباب الأمامي، جاء آرثر رايموند إلى عتبة الباب وقال: «لا أظن أنك ستتركها تذهب هكذا؟ إنه سلوك لا إنساني منك».

فأجبته «صحيح؟» وارتسمت على وجهي ابتسامة يائسة ضعيفة.

قال وكأنه يكظم غيظه: «أنا لا أفهمك على الإطلاق».

قلت: «لعلها ستعود غداً».

«لو كنت مكانك فلن أكون متأكداً من ذلك. إنها فتاة حسّاسة... وأنت ابن حرام متوحش».

حاول آرثر رايموند أن يلقي عليّ محاضرة أخلاقية. وفي الحقيقة فقد أصبح مولعاً جداً بمونا. ولو كان صادقاً مع نفسه لاعترف بأنه يحبها.

بعد فترة صمت قال بغتة: «لماذا لا تذهب وراءها؟ أنا سأجري وراءها إن أحببت. يا إلهي، لا يمكنك أن تتركها تذهب هكذا!».

لم أُجِرْ جواباً. انحنى آرثر رايموند ووضع يده على كتفي وقال: «هيا، هيا، هذا غباء منك. ابق هنا... وسأجري أنا وراءها وأرجعها».

أسرع إلى نهاية القاعة وفتح الباب الأمامي. سمعته يصيح: «حسناً، حسناً! كنت ذاهباً لإحضارك. حسناً! ادخلي. هنا، دعيني آخذ هذه. هذا حسن». وسمعته يضحك، تلك الضحكة المفرقعة المفعمة بالبهجة، التي تجعل أعصاب المرء متوفزة في بعض الأحيان. «هيا ارجعي...إنه ينتظرك. بالتأكيد، كلنا ننتظرك. لماذا فعلت هذا؟ لا يجب أن تهربي هكذا. إننا جميعنا أصدقاء، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تخرجي وتتركينا هكذا...».

ومن نبرة صوته يخال للمرء أن آرثر رايموند هو الزوج، لا أنا.

وقد استغرق ذلك كله بضع ثواني، إلا أنه في تلك الفترة، التي كانت وجيزة جداً، شاهدت آرثر رايموند ثانية كما كنت قد رأيته أول مرة التقينا فيها، عندما اصطحبني إلى بيته إد غافاريني، الذي كان

يحدثني منذ أسابيع عن صديقه آرثر رايموند وعن عبقريته. وبدا أنه يعتقد أنه منح امتيازاً نادراً عندما جمعنا نحن الاثنين معا، لأني كنت في رأي إد غافارني عبقرياً أيضاً. وكان آرثر رايموند يجلس هناك، في ذلك القبو الكئيب في أحد تلك البيوت ذات الأحجار البنية في منطقة بروسبيكت بارك. كان أقصر بكثير مما كنت أتوقعه، لكن صوته كان دافئاً، ودوداً، مثل مصافحته، مثل شخصيته تماماً. كانت الحيوية تشع منه.

وفي الحال ساد لديّ انطباع بأني كنت أواجه شخصاً غير عادي. وكان هو في أسوأ حالاته أيضاً، كما تبين لي بعد ذلك. فقد كان خارج البيت طوال الليل، وكان قد نام بملابسه، وكان عصبياً ومتوتراً. جلس ثانية أمام البيانو، وبعد بضع كلمات، وعقب سيجارة تحترق بين شفتيه، وبينما كان يتكلم، راح يخبط على عدد من المفاتيح بعصبية وبنغمة عالية. كان يرغم نفسه على التدريب لأن الوقت بدأ ينفد ـ فبعد بضعة أيام كان سيقدم حفلة. وقال لي إد غافارني إن آرثر رايموند كان فلتة عندما كان طفلاً، وأن أمه كانت تلبسه ثياباً أنيقة كاللورد فونتليروي وتصحبه معها إلى جميع أنحاء القارة، من قاعة موسيقية إلى أخرى. وفي أحد الأيام رفض آرثر رايموند أن يعزف كالشمبانزي. وأصبح يخاف من العزف أمام الجمهور. وأراد أن يعيش حياته الخاصة. وقد فعل ذلك. وعاش حياته بالطول والعرض. لقد عمل كل شيء ليحطم ذلك الموسيقي البارع الذي خلقته أمّه منه.

كان آرثر رايموند ينصت إلى ذلك نافد الصبر. ثم قاطعه، وهو يستدير على كرسيه الصغير، ويلعب بيديه وهو يتكلم. وكان قد وضع سيجارة جديدة في فمه، وفيما كانت أصابعه تجري فوق مفاتيح البيانو، كان الدخان يتصاعد ويلتف حول عينيه. كان يحاول التخلص من الإحراج. وفي الوقت نفسه شعرت أنه كان ينتظرني أن أبدأ الحديث. وعندما قال له إد غافارني إني موسيقي أيضاً، قفز

آرثر رايموند ورجاني أن أعزف شيئاً. قال بوحشية تقريباً: «هيا، هيا... أريد أن أسمع منك شيئاً. يا إلهي، لقد سئمت من الاستماع إلى نفسي».

جلست رغماً عني، وعزفت مقطوعة صغيرة. وأدركت أكثر من أي وقت مضى كم أن عزفي سيء. أحسست بالخجل من نفسي واعتذرت عن أدائي السيء.

«لا لا أبداً!» قال، وهو يضحك ضحكة خافتة لطيفة. وأضاف: «يجب أن تتابع... فلديك موهبة».

اعترفت بقولي: «في الحقيقة لم أعد ألمس البيانو إلا ما ندر».

«وما السبب؟ لماذا؟ ماذا تعمل إذن؟».

قدم غافارني التفسيرات المألوفة وخلص إلى القول: «إنه حقاً كاتب».

تلألأت عينا آرثر رايموند. «كاتب! حسناً، حسناً...» وعاد إلى مقعده أمام البيانو وبدأ يعزف. ارتسمت على وجهه تعابير جدية لم أحببها فقط، بل أذكرها طوال حياتي. عزفه أطربني.

كان ذكياً، عاطفياً، نشيطاً، نظيفاً. يتعامل مع البيانو بكل جوارحه. كانت مقطوعة سوناتا برامز إذا لم تخني ذاكرتي، ولم أكن مغرما ببرامز على الإطلاق. توقف بغتة بعد بضع دقائق، وقبل أن نتمكن من فتح فمنا بدأ يعزف شيئاً آخر لديبوسي، ومنه انتقل إلى رافايل ثم إلى شوبان. وخلال مقدمة شوبان غمزني إد غافارني. وإذ انتهى من العزف طلب من آرثر رايموند أن يعزف «المعزوفة الثورية». «أوه، ذلك الشيء! أعوذ بالله من ذلك! يا إلهي، لا أتصور كيف يعجبك هذا!» عزف قليلاً، توقف، ثم عاد إلى الجزء الأوسط، توقف، أبعد السيجارة عن شفتيه، وانطلق في عزف قطعة موزارتيان.

وفي غضون ذلك كانت تنتابني اختلاجات داخلية. وعندما كنت

أستمع إلى عزف آرثر رايموند أدركت أنه إذا قيض لي أن أعزف البيانو فعليّ أن أتعلم من البداية. انتابني إحساس بأني لم أعزف البيانو حقاً طوال عمري. وطرأ لي شيء مشابه حين قرأت دوستويفسكي لأول مرة. لقد مسح كل الآداب الأخرى. (قلت لنفسي آنئذ «الآن أستمع حقاً إلى كائنات بشرية تتحدث!») كان الأمر شبيهاً بذلك عندما كان آرثر رايموند يعزف ـ في البداية بدا لي أني أفهم ما يقوله الملحنون. وعندما كان يتوقف ليكرّر مقطعاً مرة ثانية وثالثة، كنت كمن يسمعهم وهم يتكلمون، يتكلمون لغة الصوت هذه المألوفة لدى الجميع، لكنها حقاً لغة أعجمية بالنسبة لمعظمنا. وبغتة تذكرت معلم اللغة اللاتينية، فبعد أن استمع إلى ترجماتنا الكئيبة، خطف الكتاب فجأة من يدنا وراح يقرأ بصوت جهوري ـ باللاتينية. كان يقرأه كما لو كان يعني شيئاً هاماً بالنسبة له، أما بالنسبة لنا، فمهما بدت ترجماتنا جيدة، فقد كان الأمر دائماً اللغة اللاتينية، واللغة اللاتينية لغة ميتة، والأشخاص الذين كتبوا باللاتينية كانوا ميتين بالنسبة لنا أكثر من اللغة التي كتبوا بها. نعم، إن الاستماع إلى عزف آرثر رايموند، سواء لباخ، أو لبرامز أو شوبان، لم تعد توجد فواصل بين المقاطع. فكل شيء اتخذ شكلاً، بعداً، معنى. لم تكن هناك مقاطع مملة، لا تلكؤات، لا مقدمات.

كان ثمة شيء آخر في تلك الزيارة وهي إرما التي كانت آنئذ زوجته. مخلوق لطيف جميل، تشبه دمية، تميل لأن تكون قطعة خزفية من النوع الذي وصفه درسدن أكثر منها زوجة. وفي اللحظة التي قدّم فيها أحدنا إلى الآخر، علمت أن ثمة مشكلة بينهما. كان صوته أجشاً، وقسمات وجهه في غاية القسوة: وكانت تنكمش منه وكأنها تخشى أن تتحطم وتتهشم إلى قطع نتيجة حركة غير مقصودة. ولاحظت، ونحن نتصافح، أن كفيها كانا رطبين ـ رطبين وحارين. وكانت تدرك هذا الأمر أيضاً، وأبدت ملاحظة بخجل حول غددها التي لا تعمل جيداً. إلا أن المرء يشعر، وهي تقول هذا، أن السبب الحقيقي لهذا الخلل هو آرثر رايموند، و«عبقريته» هي التي

زعزعت كيانها. لقد كانت أومارا محقة بشأنها ـ فقد كانت كالقطة، تحب دائماً أن تُداعب وتُمسد. ويعرف المرء أن آرثر رايموند لم يضع وقتاً في مثل هذه المداعبات. وكان المرء يعرف على الفور أنه من الصنف الذي يتجه مباشرة إلى الهدف. كان يغتصبها، هذا ماأحسست به. وكنت محقاً. فقد اعترفت لي بذلك بعدئذ.

وكان هناك إد غافارني. فمن الطريقة التي كان يخاطبه فيها آرثر رايموند، يدرك المرء أنه معتاد على هذا النوع من التملق. وجميع أصدقائه كانوا متملقين. ولا شك أنه سئم منهم جميعاً، ومع ذلك فقد كان بحاجة إليهم. فأمه كانت قد بدأت في تربيته بداية سيئة ـ وتكاد تكون قد حطمته. ففي كل حفلة كان يقدمها كانت ثقته بنفسه تضعف. إذ كانت حفلات العزف التي يقدمها بالنسبة له كالغيبوبة التي تلي التنويم المغناطيسي، نجاحات لأن أمه كانت تريد تحقيقها. كان يكرهها. وكان بحاجة إلى امرأة تؤمن به ـ كرجل، وليس كفقمة مدرّبة.

وكانت إرما تكره أمه أيضاً، وكان لهذا الشيء تأثير مدمر على آرثر رايموند. إذ كان يشعر بضرورة حماية أمه من التعرض لتهجم زوجته عليها. إرما المسكينة! كانت معلقة بين الشيطان والبحر الذي لا قرار له. وفي الصميم، لم تكن تهتم بالموسيقى كثيراً. في الصميم، لم تكن تهتم بأي شيء بعمق. لقد كانت ناعمة، مرنة فيها أبهة وجلال: وكان ردها الوحيد هو أن تموء. ولا أظن أنها كانت تبالي بممارسة الجنس كثيراً. لكنها لم تكن تمانع في ممارسته بين الحين والآخر، عندما تكون ملتهبة، إلا أن العملية كانت، بالنسبة لها بصورة عامة، عملية وحشية جداً، مهينة جداً. لو كانا يلتقيان كزنبقتين فلا بأس، فمن المحتمل أن يصبح الأمر مختلفاً. شيء من الملاطفة والمداعبة الناعمة اللطيفة ـ هذا ما كانت تحب. ثمة شيء مقزز قليلاً في قضيب منتصب، يقطر منه ذلك السائل. والوضعيات التي يتخذها المرء! لقد كانت تشعر في بعض الأحيان بالإهانة من هذا العمل. وكان قضيب آرثر رايموند قصيراً عنيداً ـ كان الكبش.

وكان يمارس الجنس معها كالبهيمة كما لو أنه يقطّع قطعة من اللحم. وكانت العملية تنتهي قبل أن تتاح لها الفرصة لكي تشعر بأي شيء. لكزات سريعة قصيرة، أحياناً على الأرض، في أي مكان، في أي وقت، متى تملكه الشبق. حتى أنه لم يكن يمنحها الوقت لتنزع عنها ثيابها. كان يرفع تنورتها فقط ويلجه فيها. لا، كان ذلك حقاً «مروعاً». كانت تلك إحدى كلماتها المحببة «شيء مروّع».

أما أومارا فكان، من الناحية الأخرى، مثل أفعى مدربة. فقد كان قضيبه طويلاً مقوساً ينزلق كالبرق المكسو بالدهن ويفتح باب الرحم. كان يعرف كيف يتحكم به. لكنها لم تكن تحب الطريقة التي كان يتبعها معها أيضاً. فقد كان يستخدم ذكره كما لو كان أداة يمكن أن تنفصل عنه. كان يقف فوقها فيما تستلقي هي على الفراش وساقاها منفرجان. كان يلهث من أجله، ليرغمها على الإعجاب به. كان يجعلها تشعر أنها تحت رحمته ـ أو بالأحرى تحت رحمة ذلك الشيء المخاطي الطويل المدلى بين ساقيه. يمكنه أن يجعله ينتصب في أي لحظة ـ بإرادته. لم تكن تسيّره عاطفته ـ بل كانت عاطفته مركزة في قضيبه. إذ لم يكن «رومانسياً» ـ على حد قولها.

نظرت إلى الأعلى لأرى مونا تقف عند العتبة والدمع يسيل على خديها. وكان آرثر رايموند وراءها، يحمل الصرة الكبيرة بين يديه. وابتسامة فظة ترتسم على وجهه. كان مسروراً من نفسه، كان في غاية السعادة.

لم يكن من عادتي أن أنهض، خاصة في حضور آرثر رايموند.

قالت مونا: «حسناً، ألا يوجد لديك أي شيء تريد أن تقوله؟ ألست آسفاً؟».

فقال آرثر رايموند لكي لا تنفجر ثانية «بالتأكيد إنه آسف».

فردت بحدة: «إني لا أسألك، إني أسأله هو».

نهضت من السرير واتجهت إليها. ألقى آرثر رايموند نظرة خجولة. كان مستعداً ليقدم أي شيء ليكون في مكاني ـ كنت أعرف

ذلك. وفيما راح أحدنا يعانق الآخر، أدارت مونا رأسها وغمغمت من فوق كتفها وقالت له: «لماذا لا تغادر الغرفة الآن؟» فأصبح وجهه أحمر بلون الشوندر. وحاول أن يعتذر لكن الكلمات علقت في حنجرته. وعندما استدار صفقت مونا الباب وراءه وقالت: «الغبي! لقد سئمت هذا المكان!».

وفيما كانت تضغط بجسدها عليّ أحسست بجوعٍ ويأس منها من نوع جديد. فقد كان الفراق، رغم أنه كان قصيراً جداً، حقيقياً بالنسبة لها. وقد أثار جزعها أيضاً. إذ لم يطلب منها أحد أن تخرج هكذا. لم تشعر بالمهانة فقط، بل انتابها الفضول أيضاً.

من المثير للاهتمام أن يلاحظ المرء كم هو متكرر سلوك المرأة في مثل هذه الحالات. وعلى الفور يخطر ببالك السؤال: «لماذا فعلت مثل هذا الشيء؟ أو ـ كيف يمكنك أن تعاملني هكذا؟» وإذا كان الرجل هو الذي يتكلم فهو يقول: «دعنا لا نتحدث عن ذلك... دعنا ننسى الأمر!» لكن رد فعل المرأة يكون كما لو أنها صدمت في مراكزها الحيوية، كما لو أنها قد لا تبرأ من الطعنة القاتلة. إذ إن كل شيء، بالنسبة لها، يرتكز على الجانب الشخصي تماماً. تتحدث بأنانية، لكن ليست الأنانية هي التي تدفعها إلى اللوم ـ إنها *المرأة*. الرجل الذي تحب، الرجل الذي ربطت نفسها به، الرجل الذي تخلقه في مخيلتها، تنفصل عنه فجأة، وهو أمر غير معقول. وإذا كان الأمر يتعلق بامرأة أخرى، لو كان هناك منافس آخر، نعم، فقد تفهم. لكن أن يحرّر المرء نفسه دون أي سبب، أن يتخلى عنها بهذه السهولة ـ بسبب مجرد هفوة أنثوية صغيرة ـ فهذا يجعلها غامضة. ثم يجب أن يبنى كل شيء على الرمل... وليس ثمة شيء ثابت بقوة في أي مكان.

«كنت تعرف أني لن أذهب، أليس كذلك؟» قالت وارتسمت على وجهها نصف ابتسامة، نصف بكاء.

أن تجيب بنعم أم لا فهو حل وسط. في كلتا الحالتين سأتورط

في جدال طويل. لذا قلت: «كنت واثقاً من أنك ستعودين. لم أعرف. ظننت أنني ربما فقدتك».

استحسنت العبارة الأخيرة. «أن أفقدها» ـ فهذا يعني أنها كانت ثمينة. وبعودتها من تلقاء نفسها، جعلت من نفسها هدية، أثمن هدية يمكنها أن تقدمها لي.

قالت بهدوء: «كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟» ورمتني بنظرة تذيب القلب وتابعت: «أريد أن أعرف فقط أنك تهتمّ بي. إني أفعل أشياء سخيفة أحياناً... أشعر أني بحاجة إلى إثباتات بأنك تحبني... هذا أمر سخيف للغاية». أمسكتني بإحكام، والتصقت بي. وما هي إلا لحظات، حتى أحسست بيدها تتحسّس فتحة بنطالي. «لقد كنت تريدني أن أعود؟» دمدمت، وهي تخرج قضيبي ليلامس فرجها الدافئ. «قلها! أريد أن أسمعك وأنت تقلها!».

قلتها. قلتها بكل القناعة التي أمكنني أن استجمعها.

«ضاجعني الآن!» همست، وفمها ملتف بشكل وحشي. تمدّدت على عرض السرير، تنورتها حول رقبتها.

نمنا واستيقظنا متأخرين. كنا جائعين كذئبين. عندما نزلنا إلى الشارع استقلينا سيارة أجرة وذهبنا إلى مخزن البقالة الإيطالي الفرنسي. كانت الساعة تقارب العاشرة والمكان ما زال مزدحماً. وكان على جانب منا ضابط شرطة وعلى الجانب الآخر مخبر. جلسنا إلى الطاولة الطويلة. وكان معلقاً أمامي على الحائط حمالة فيها مسدس. وإلى اليسار كان المطبخ المفتوح حيث يقف أخو صاحب المطعم البدين الضخم وهو يتمايل. كان دباً رائعاً بدون مفاصل، يقطر دهناً وعرقاً. وكان يبدو دائماً شبه مزهو. وبعد أن نكون قد أكلنا جيداً، كان يدعونا لاحتساء شيء من الشراب معه. أما أخوه، الذي كان يقدم الطعام ويقبض المال، فكان من نوع مختلف تماماً. إذ كان مهذباً رقيقاً، وسيماً، ويتحدث بلغة إنكليزية جيدة نسبياً. وعندما يقل عدد الزبائن، كان يجلس غالباً إلى طاولتنا

ويدردش معنا. وكان حديثه يدور عن أوروبا في معظم الأحيان، كم كان الأمر مختلفاً هناك، كم كانت «متحضرة» كم كانت الحياة ممتعة هناك. وفي بعض الأحيان، يبدأ التحدث عن النساء الشقراوات من شمال إيطاليا مسقط رأسه. وكان يصفهن بدقة ـ لون شعورهن وعيونهن، نعومة بشرتهن، أفواههن الشهوانية المترفة، حركة أردافهن عندما يمشين، وما إلى هنالك. وقال إنه حتى الآن لم ير امرأة في أمريكا تعجبه. وتحدث عن النساء الأمريكيات باحتقار واشمئزاز، وقال: «لا أعرف لماذا تبقى هنا يا سيد ميلر، إن زوجتك جميلة جداً... لماذا لا تذهب إلى إيطاليا؟ فقط بضعة أشهر. وأؤكد لك أنك لن تعود بعدها»، وكان يطلب لنا كأساً آخر من الشراب ويطلب منا أن نبقى فترة أطول قليلاً... لعل صديقاً له يأتي... مطرب من دار الأوبرا.

وسرعان ما دخلنا في حديث مع رجل وامرأة يجلسان قبالتنا مباشرة. وكانا في مزاج مرح وانتقلا للتو إلى القهوة والمشروبات. وفهمت من كلامهما أنهما كانا يعملان في المسرح.

وكان من الصعوبة بمكان متابعة الحديث بسبب وجود بعض المشاغبين من كلا الطرفين. الذين انتابهم شعور بأنهم يُعاملون باحتقار وإهمال، لأننا كنا نتحدث عن أشياء تتجاوز فهمهم وإدراكهم. وبين الحين والآخر، كان الضابط يبدي ملاحظة خرقاء عن «المسرح». أما الآخر، المخبر، فقد احتسى عدداً من الكؤوس وأصبح مزعجاً. وقد احتقرتهما كليهما وأبديت لهما ذلك علناً بتجاهل ملاحظاتهما تماماً. وأخيراً، لم يعرفا ماذا يفعلان أكثر من ذلك، فمضيا في إزعاجنا ومضايقتنا.

قلت: «لننتقل إلى الغرفة الأخرى»، وأشرت إلى صاحب المحل وسألته: «هل يمكنك أن ترتب لنا طاولة هناك؟».

قال: «ماذا في الأمر؟ هل هناك شيء؟».

قلت: «لا، لا نحب أن نجلس هنا، هذا كل ما في الأمر».

فقال المخبر مزمجراً: «هذا يعني أننا لم نعجبك».

انفجرت في وجهه قائلاً: «نعم وهو كذلك».

«هذا ليس بالأمر الجيد بالنسبة لك، إيه؟ من تظن نفسك بحق جهنم؟».

«أنا الرئيس مكينلي ـ وأنت؟».

«إنك خفيف الدم، إيه؟» واستدار إلى صاحب المطعم وسأله: «قل لي، من هو هذا الشخص... ماذا يعمل؟ هل يحاول أن يهزأ مني؟».

فرد عليه صاحب المطعم: «أخرس! إنك سكران».

«سكران! من يقول أنا سكران؟» وبدأ يترنّح واقفاً على قدميه، لكنه جلس ثانية على الكرسي.

«من الأفضل لك أن تخرج من هنا... أنت تثير المشاكل. أنا لا أريد مشاكل في محلي، هل تفهم؟».

«لماذا تصرخ عالياً، ماذا فعلت؟» وبدأ يتصرف كطفل أسيء إليه.

فقال صاحب المطعم: «لا أريدك أن تجعل زبائني يهربون».

«من الذي يجعل زبائنك يهربون؟ هذا بلد حر أليس كذلك؟ بوسعي أن أتحدث إن أردت، أليس كذلك؟ ماذا قلت... هيا أخبرني! أنا لم أقل شيئاً مسيئاً. يمكنني أن أكون رجلاً محترماً أيضاً، إذا أردت...».

قال صاحب المطعم: «لن تكون رجلاً محترماً، هيا خذ أشياءك واخرج من هنا. اذهب إلى البيت ونم!».

استدار إلى الضابط ورمقه بنظرة ذات معنى، كما لو أنه يقول له هذا شغلك ـ أخرجه من هنا!

ثم أخذنا من ذراعنا وقادنا إلى الغرفة الأخرى. وتبعنا الرجل

والمرأة الجالسان قبالتنا. قال: «سأتخلص من هؤلاء المعوّقين بعد دقيقة»، وأشار إلى طاولتنا. وأضاف: «أنا آسف جداً، يا سيد ميلر. هذا ما يجب عليّ أن أتحمله بسبب قانون تحريم المشروبات الكحولية. في إيطاليا لا يوجد عندنا شيء كهذا. فكل شخص يعنى بأموره الخاصة... ماذا ستشرب؟ انتظر، سأجلب لك شيئاً جيداً...».

كانت في الغرفة التي قادنا إليها مجموعة من الفنانين يقيمون مأدبة - أغلبهم مسرحيون، رغم وجود حفنة من الموسيقيين، والنحاتين والرسامين. وتقدم واحد من المجموعة إلينا، وبعد أن قدّم لنا نفسه، قدّمنا إلى الآخرين. وبدا أنهم مسرورون لوجودنا بينهم. وسرعان ما أقنعنا بأن نترك طاولتنا وننضم إلى الجماعة على الطاولة الكبيرة الممتلئة بالدّوارق والقناني، والأجبان، والمعجنات، وأباريق القهوة، والقائمة طويلة.

عاد صاحب المطعم تغمره السعادة وقال: «هنا أفضل، أليس كذلك؟» وكان يحمل زجاجات من المشروب في يديه. قال: «لماذا لا تعزفون شيئاً من الموسيقى؟» وجلس إلى الطاولة. «آرتورو، أحضر غيتارك... هيا اعزف شيئاً! لعل السيدة ستغني معك».

وما هي إلا لحظات حتى بدأنا نغني جميعنا - أغاني روسية وفرنسية وألمانية وإيطالية. ودخل الأخ الأبله، رئيس الطهاة، وهو يحمل طبقاً كبيراً من شرائح اللحم والجبن والفواكه والفستق. وتنقل في الغرفة بقلق، دبّ منتشي، يصدر شخيراً، يئنّ، يضحك لنفسه. لا يملك شيئاً في عقله، لكنه كان طباخاً رائعاً. ولا أظن أنه خرج من المطعم في حياته. فقد أمضى طيلة حياته في المطبخ. وكان يتعامل بالأطعمة فقط وليس بالنقود. فما حاجته إلى النقود؟ إذ لا يمكنك أن تطهو بالنقود. وكانت تلك مهمة أخيه، الذي يلعب بالنقود. فقد كان يسجل ما يتناوله الناس ويحتسونه - ولم يكن يكترث بما كان أخوه يطلب من الزبائن. «هل كان جيداً؟» هذا كل ما كان يهمه. ولم يكن

يعرف جيداً ماذا كانوا يأكلون. كان من السهل غشه، إذا كنت تريد ذلك. لكن لم يكن أحد يفعل ذلك مطلقاً. وكان من الأسهل القول «لاأملك نقوداً... سأدفع لك في المرة القادمة»، وكان يرد: «بالتأكيد في المرة القادمة» بدون أدنى خوف أو قلق على وجهه المكسو بالدهن. «في المرة القادمة أحضر معك صديقك أيضاً، هه؟» ثم يصفعك على ظهرك بكفه المكسوة بالشعر ـ صفعة مدوية تهتز لها عظامك كالنرد. كان ضخماً كالعنقاء، وزوجته صغيرة الحجم هشة، ذات عينين واسعتين تمنحانك الثقة، كانت مخلوقاً لا يصدر عنه أي صوت، فقد كانت تتحدث وتستمع بعينيها الحزينتين الواسعتين.

كان اسمه لويس، وهو اسم يناسبه تماماً. لويس السمين! وكان اسم أخيه جو ـ جو ساباتيني. كان جو يعامل أخاه الأبله كما يعامل السائس حصانه المفضل. وكان يربت عليه بمودة عندما يريد منه أن يعد طبقاً جيداً لزبون خاص. وكان لويس يرد بشخير أو صهيل، مسروراً كالمهرة الحساسة عندما تربت عليها وتمسد كفلها الحريري. بل كان يتصرف بقليل من الغنج، كما لو أن لمسة أخيه أطلقت فيه غريزة أنثوية تكمن فيه. ورغم كل قوته، فإن المرء لم يكن يفكر بخصائص لويس الجنسية. لقد كان مخنثاً. وإذا كان لديه قضيب فلكي يبول منه فقط، لا أكثر من ذلك. وراح جو يشرح لنا أنا ومونا «في إيطاليا تأكلين أفضل من هذا، فاللحم أفضل، والخضار أفضل، والفواكه أفضل. في إيطاليا تنعمين بأشعة الشمس طوال النهار. والموسيقى! الجميع يغني هناك. هنا الجميع يبدون حزينين. أنا لا أفهم. نقود كثيرة، أعمال كثيرة، ولكن الكل حزين. هذا ليس بلداً يمكن للمرء أن يعيش فيه... إنه جيد فقط لجمع المال. سنتان أو ثلاث سنوات أخرى وأعود إلى إيطاليا. سآخذ لويس معي ونفتح مطعماً صغيراً. ليس من أجل المال... بل كعمل نقوم به. في إيطاليا لا أحد يجمع مالاً. الجميع فقراء. لكن اللعنة، يا سيد ميلر... أعذرني... إننا نمضي وقتا سعيداً! الكثير من النساء الجميلات...

الكثير منهن! إنك محظوظ لأنه لديك زوجة جميلة كهذه. إن زوجتك تشبه الإيطاليات. الإيطاليون أناس طيبون جداً. الجميع يعاملونك معاملة جيدة. الكل يصبح أصدقاء على الفور...».

كنا في السرير في تلك الليلة عندما بدأنا نتحدث عن أوروبا. قالت مونا: «يجب أن نذهب إلى أوروبا».

«نعم، لكن كيف؟».

«لا أعرف يا فال، لكننا سنجد وسيلة».

«هل تعرفين كم يكلفنا السفر إلى أوروبا من النقود؟».

«هذا لا يهم. إذا أردنا أن نذهب يجب علينا أن نجمع نقوداً بطريقة ما...».

كنا مستلقيين على ظهرينا، أيادينا مشتبكة وراء رقبتنا، نحدق في السقف في الظلمة ـ ونسافر كمجنونين. لقد استقليت قطار الشرق السريع إلى بغداد. كانت رحلة مألوفة بالنسبة لي لأني كنت قد قرأت عن هذه الرحلة في أحد كتب دوس باسوس. فيينا، بودابست، صوفيا، بلغراد، أثينا، القسطنطينية... ولعلنا إذا سافرنا إلى تلك المناطق البعيدة فربما نسافر أيضاً إلى تمبكتو. وكنت أعرف الكثير عن تمبكتو أيضاً من الكتب. لا يجب أن ننسى تاورمنا وتلك المقبرة في اسطنبول التي كتب عنها بيير لوتي. والقدس...

«بماذا تفكرين الآن؟» سألتها لاكزاً إياها بلطف.

«كنت ازور أهلي في رومانيا».

«في رومانيا؟ أين في رومانيا؟».

«لا أعرف بالضبط. مكان ما في جبال كارباثيان».

«ذات يوم كان يعمل عندي ساع، رجل هولندي مجنون، كان يكتب لي رسائل طويلة من جبال كارباثيان. كان يقيم في قصر الملكة...».

«ألا تحب أن تذهب إلى أفريقيا أيضاً ـ المغرب، الجزائر، مصر؟».

«هذا ما كنت أحلم به منذ لحظة».

«كنت دائماً أريد أن أذهب إلى الصحراء... وأتيه هناك».

«هذا مضحك، وأنا أيضاً مهووس بالصحراء».

ساد صمت. تائه في الصحراء...

شخص ما يتحدث إليّ. تحدثنا طويلاً. ولم أعد في الصحراء بل في الجادة السادسة تحت محطة القطار المرتفعة. صديقي أولريك يضع يده على كتفي بابتسامته المطمئنة. كان يكرر ما قاله منذ لحظة ـ بأني سأكون سعيداً في أوروبا. يتحدث ثانية عن جبل أثينا، عن العنب، عن أوقات الراحة، التسكع، الطعام اللذيذ، أشعة الشمس. إنه يزرع بذرة الشوق فيّ.

بعد ستة عشر عاماً، وفي صباح يوم أحد، كنت أسير على غير هدى في إحدى الكاتدرائيات في نابولي، ترافقني فتاة أرجنتينية وعاهرة فرنسية من مونمارتر. اعتراني شعور بأني عثرت أخيراً على دار للعبادة وأني سأجد متعة للصلاة فيها. إنها لا تخص الله أو البابا، بل تخص الشعب الإيطالي. إنه مكان ضخم أشبه بحظيرة، مجهز بذوق سيء، مع كل التزيينات العزيزة إلى قلب الكاثوليكي. كانت هناك باحة واسعة جداً. وكان الناس يبحرون عبر البوابات المتعددة ويتمشون في أرجائها بحرية كبيرة. كانوا يوحون إليك بأنهم في عطلة. وكان الأطفال يثبون كالحملان، وبعضهم يحمل أكاليل صغيرة في أيديهم، حيث يلتقي الناس ويتبادلون التحيات، تماماً كما لو كانوا في الشارع. وكانت الجدران مزدانة بتماثيل الشهداء في مختلف الأوضاع والأشكال، تعبق بالألم. وتجتاحني رغبة جامحة لأن أمرر يدي على الرخام البارد، كما لو كنت أحثها على عدم المعاناة كثيراً، إنه أمر غير لائق. وعندما اقتربت من أحد التماثيل لاحظت بطرف عيني امرأة تتشح بالسواد من قمة رأسها إلى

أخمص قدميها، تسجد أمام شيء مقدّس. كانت صورة من صور التقوى. لكني لم أتمالك نفسي من أن ألاحظ بأن لها أيضاً مؤخرة رائعة، مؤخرة موسيقية. (إن المؤخرة تخبرك كل شيء عن المرأة، شخصيتها، مزاجها، فيما إذا كانت مشرّبة بالحمرة، مرحة أو متقلبة المزاج، متجاوبة أو غير متجاوبة، باردة أو تحب المتعة، صادقة أم كاذبة بطبيعتها).

أبديت اهتماماً بتلك المؤخرة، وبالتقوى التي كانت تغمرها. رحت أنظر إليها بإمعان بحيث أن صاحبتها استدارت أخيراً، يداها ما زالتا مرفوعتين تصلي، شفتاها تتحركان كما لو أنها تمضغ نبات الشوفان في نومها. رمقتني بنظرة تشي باللوم، وامتقع وجهها خجلاً، ثم عادت تنظر إلى موضع عبادتها، الذي لاحظت الآن أنه أحد القديسين، شهيد مُقعد حزين بدا أنه يتسلق هضبة مكسور الظهر.

ابتعدت باحترام باحثاً عن مرافقتي. ذكّرني نشاط الحشد برواق فندق أستور ـ ولوحات أوشيلو من الخيش (ذلك العالم الرائع من المنظورية!). ذكّرني أيضاً بالسوق الكاليدونية في لندن. كان قد بدأ يذكّرني بالكثير من الأشياء، كل شيء في الحقيقة، إلا بدار العبادة الذي كان. توقعت أن أرى مالفوليو أو ميركوتيو يدخل وهو يرتدي كامل ثيابه الضيقة. رأيت رجلاً، من الواضح أنه حلاق، ذكّرني كثيراً بويرنر كراوس في عطيل. عرفت عازف أورغ من نيويورك تبعته ذات مرة إلى عرينه خلف القصر الحكومي.

والأهم من كل ذلك، فتنتني رؤوس عجائز نابولي الضخمة التي تشبه غورغون(*). بدا أنها تنبثق من عصر النهضة: رؤوس ملفوف قاتلة ضخمة على جبهتها فحم حجري ناري. مثل أوريزينس من خيال وليام بليك. كانت هذه الرؤوس المتحركة تتنقل بتواضع، كما لو أنها تعي الألغاز الشنيعة للكنيسة الدنيوية وقيئها للقوادين الذين يرتدون أثواباً قرمزية.

(*) إحدى أخوات ثلاث شعرها من الأفاعي ورؤيتها تحيل الإنسان حجراً.

شعرت براحة شديدة. لقد كان بازاراً، زئبقياً أوبراتياً. الأزيز والطنين عند المذبح رصين ورشيق، يشبه المخدع المكسو بالغلال حيث كان القسيس يغسل جواريه في الماء المقدس يساعده معاونوه المخصيون. وخلف الأردية الكهنوتية المتألقة توجد أبواب متشابكة صغيرة، كالنصابين الذين يستخدمون في العروض الشعبية في الشوارع خلال القرون الوسطى. أي شيء يمكن أن يقفز في وجهك من تلك الأبواب الصغيرة الغامضة. هنا كان مذبح التشويش والاضطراب، مسوراً بتاج مرصع بالجواهر تفوح منه رائحة طلاء الدهن، البخور، والعرق والإهمال. كان مثل الفصل الأخير من كوميديا مبهرجة، مسرحية مبتذلة تتناول البغاء وتنتهي بالواقيات الذكرية. وكان الفنانون يلهمون المودة والعطف؛ لم يكونوا خطاة، بل متسكعين. ألفا سنة من الاحتيال والخديعة توجه هذا العرض الجانبي. كانت حفلة عشاء، كرنفالاً بذيئاً أخذ فيه المخلص، المصنوع من جبس باريس، شكل خصي في لباسه الداخلي. كانت النساء تصلي من أجل الأطفال، والرجال يصلّون للحصول على الطعام ليسدوا الأفواه الجائعة. وفي الخارج، وعلى الرصيف، كانت أكوام الخضار والفواكه والزهور والحلويات. دكاكين الحلاقين مفتوحة على مصراعيها، والصبية الصغار، الذين يشبهون نسل أنجيليكو، يقفون والمراوح الكبيرة في أيديهم ينشّون فيها الذباب. مدينة جميلة، حيوية في كل فرد فيها، تغمرها أشعة الشمس. في الخلفية يقبع بركان فيسوفيوس، مخروط هاجع تنبعث منه ضفيرة كسولة من الدخان. لقد كنت في إيطاليا وهذا أمر كنت متأكداً منه. كانت كما توقعت أن تكون. وبغتة أدركت أنها لم تكن معي، وللحظة حزنت. ثم تساءلت... تساءلت عن البذرة وثمرتها. في تلك الليلة، عندما ذهبنا لننام وشوقي عارم إلى أوروبا، شيء ما تحرك فيّ. مرت السنون... سنوات فظيعة قصيرة. لقد تسارع إيقاعنا، إيقاعها بطريقة جسدية، وإيقاعي بطريقة أكثر ذكاء ورقة. لقد قفزت إلى الأمام بشكل محموم، مشيتها تبدلت لتصبح كوثبات ظبي. أما أنا فقد

بدوت أراوح في مكاني، لا أحرز أي تقدم، بل أدور كفقمة. لقد ثبّتت عينيها على الهدف، ولكنها كلما أسرعت كان الهدف يبتعد عنها. كنت أعرف أني لن أتمكن من الوصول إلى الهدف بهذه الطريقة. كنت أحرك جسدي بليونة، ولكن عيني مثبتتان دائماً على البذرة في داخلي. حين انزلقت وسقطت، سقطت بهدوء، مثل قطة، أو مثل امرأة حبلى، مدركاً دائماً ذلك الشيء الذي ينمو في داخلي. أوروبا، أوروبا... كانت دائماً معي، حتى عندما كنا نتشاجر، يزعق الواحد فينا في وجه الآخر كالمجانين. وكنت كرجل مهووس، أنتقل في كل حديث إلى الموضوع الذي كان يهمني فقط: *أوروبا*. الليالي التي كنا نطوف خلالها أرجاء المدينة، نبحث كقطط الشوارع عن نفايات الطعام، كنت أفكر دائماً بمدن وشعوب أوروبا. كنت مثل عبد يحلم بالحرية، مشبعاً بفكرة واحدة وهي: الهروب. ولم يكن بوسع أحد أن يقنعني في ذلك الحين أنه إذا عرض عليّ أن أختار بينها وبين حلمي بأوروبا فإني سأختار الأخير. وكان الأمر سيبدو رائعاً تماماً، في ذلك الحين، أن أفترض أنها هي نفسها التي ستعرض عليّ هذا الخيار. وربما كان أكثر روعة، أنه في اليوم الذي سأبحر فيه إلى أوروبا سأطلب من صديقي أولريك عشرة دولارات كي يكون في جيبي شيء عندما تطأ قدماي أرض أوروبا الحبيبة.

ذلك الحلم نصف الجهوري في الظلمة، تلك الليلة وحيداً في الصحراء، صوت أولريك وهو يهدئ من روعي، جبال كارباثيان تتحرك من تحت القمر، تمبكتو، أجراس الجمال، رائحة الجلد، ورائحة الروث المحروق والجاف («بماذا تفكر؟» «أنا أيضاً!»)، يرين صمت يشوبه توتر، جدران المبنى المقابل ميتة وفارغة. في الواقع كان آرثر رايموند نائماً، وسيتابع تمارينه في الصباح، إلى الأبد، إلا أنني تغيّرت، لقد كانت هناك مخارج، منافذ، ولو في المخيلة فقط، كل ذلك فعل فيّ فعل الخميرة، وجعل أيامي حيوية وديناميه، أشهر، سنوات قابعة في المستقبل، قوّى حبي لها. جعلني أعتقد أن الشيء الذي لم أتمكن من إنجازه وحيداً، سأنجزه معها،

من أجلها، من خلالها، وبسببها. لقد أصبحت رشاشة الماء، السماد، البيت الزجاجي، سراج البغل، المستكشف، المعيل، الجيروسكوب، الفيتامين المكمّل، قاذف اللهب.

منذ ذلك اليوم بدأت الأشياء تسير على أرضية تزلج مطلية بالشحم. هل ستتزوج؟ بالتأكيد، لم لا؟ فوراً. هل معك نقود تكفي لاستخراج رخصة الزواج؟ لا، لكني سأستدينها. حسناً. سأقابلك على الناصية.

إننا في نفق نهر هدسون في طريقنا إلى هوبوكين. متوجهان لعقد قراننا هناك. لماذا هوبوكين؟ لا أذكر. ربما لأخفي الحقيقة بأني كنت متزوجاً من قبل، لعلنا نستبق القائمة القانونية. على أي حال، هوبوكين.

في القطار تدور بيننا مشاجرة صغيرة. القصة القديمة ذاتها، بأنها ليست واثقة من أني أريد أن أتزوجها. إنها تظن أني أفعلها كرمى لعينيها ولأدخل السرور إلى نفسها فقط.

في المحطة قبل هوبوكين قفزت من القطار. قفزت وجريت خلفها.

«ماذا دهاك ـ هل أنت مجنونة؟».

«إنك لا تحبني. لن أتزوجك».

«والله إنك مجنونة فعلاً!».

أمسكتها وسحبتها إلى حافة الرصيف. وفيما يتوقف القطار التالي طوقتها وعانقتها.

«هل أنت متأكد يا فال؟ هل أنت متأكد من أنك تريد أن تتزوجني؟».

أقبّلها ثانية. «هيا، لننهِ هذه القصة! تعرفين جيداً أننا ذاهبان لعقد قراننا». نقفز داخل القطار.

هوبوكين. مكان كئيب حزين. مدينة تبدو لي أجنبية أكثر من بكين أو لهاسا. أبحث عن دار البلدية. أبحث عن اثنين من العجزة ليكونا شاهدين.

مراسم الزواج. ما اسمك؟ واسمك؟ واسمه؟ وهكذا. منذ متى تعرفين هذا الرجل؟

وهذا الرجل هل هو صديقك؟ نعم يا سيدي. أين عثرت عليه ـ في صفيحة القمامة؟ حسناً. وقّع هنا. بانغ، بانغ، بانغ! ارفع يدك اليمنى! أقسم، الخ، الخ. لقد أصبحتما زوجاً وزوجة. خمسة دولارات من فضلك. قبّل العروس. التالي، رجاء...

هل الكل سعداء؟

أريد أن أبصق.

في القطار... أضع يدها في يدي. نشعر بالاكتئاب والمهانة. «أنا آسف يا مونا... ما كان يجب أن نفعلها بهذه الطريقة».

«حسناً يا فال». إنها في غاية الهدوء الآن. كما لو كنا قد دفنا أحداً للتو.

«لكنه ليس على ما يرام، لعنها الله. أشعر بالغثيان. هذه ليست طريقة يتزوج بها المرء. أنا لن...».

ضبطت نفسي. نظرت إليّ وعلى قسماتها علائم الخوف.

«ماذا كنت ستقول؟».

كذبت. قلت: «لن أغفر لنفسي لأني فعلتها بهذه الطريقة».

لذت بالصمت. شفتاها ترتجفان.

قالت: «لا أريد أن أعود إلى البيت الآن».

«ولا أنا».

صمت.

قلت: «سأخابر أولريك، سنتعشى معه، هل توافقين؟».

«نعم»، قالت بشكل وديع تقريباً.

دخلنا كشك الهاتف معاً للاتصال بأولريك. كانت ذراعاي حولها. قلت: «الآن أصبحت السيدة ميلر. ما هو شعورك؟».

بدأت تبكي. «ألو، ألو؟ هذا أنت يا أولريك؟».

«لا، أنا نيد».

لم يكن أولريك هناك ـ ذهب إلى مكان ما اليوم.

«إسمع يا نيد، لقد تزوجنا للتو».

قال: «من تزوج من؟».

«مونا وأنا، بالطبع... من كنت تظن؟».

حاول أن يمزح حول ذلك، كأنه يقول إنه ليس متأكداً من أني سأتزوج.

«إسمع يا نيد، أنا جاد. ربما لم تتزوج من قبل قط. إننا نشعر بالاكتئاب. مونا تبكي. وأنا على وشك البكاء. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا، تعال قليلاً؟ إننا وحيدان. ربما احتسيت شيئاً من الشراب موافق؟».

ندت عن نيد ضحكة ثانية. طبعاً سنأتي في الحال. فقد كان ينتظر صديقته مارسيل. لكن ذلك لا يهم. كان يشعر بالسأم منها. لقد حولت حياته إلى جحيم. نعم، تعال في الحال... سنفرغ جميعنا كل أحزاننا.

«حسنا، لا تقلقي، سيكون لدى نيد بعض النقود. سنطلب منه أن يأخذنا لتناول العشاء. أظن أنه لن يخطر في بال أحد أن يقدم لنا هدية الزفاف. هذه مساوئ الزواج بطريقة غير رسمية. عندما تزوجنا أنا ومود، رهنا بعض هدايا الزفاف في اليوم التالي. لم نستعدها ثانية. إذ إننا لم نكن نريد الكثير من السكاكين والشوك الفضية؟».

«أرجوك لا تتحدث بهذه الطريقة يا فال».

«أنا آسف. أظن أني مجنون قليلاً اليوم. تلك الحفلة جعلتني مكتئبا. كنت سأقتل ذلك الشخص».

«توقف يا فال، أرجوك!».

«حسنا، لن نتحدث عنها بعد الآن. لنبتهج الآن، ماذا؟ لنضحك...».

كانت ترتسم على وجه نيد ابتسامة دافئة. كنت أحب نيد. كان ضعيفاً. ضعيفاً ومحبوباً. أناني من الداخل. أناني جداً. ولهذا السبب لم يتمكن من الزواج. كان موهوباً جداً، يتمتع بالكثير من الموهبة، لكنه لم يكن عبقرياً. كان فناناً لم يجد قط الوسط الذي يلائمه. كان الشراب أفضل ملاذ له. وحينما يشرب ينطلق لسانه. من الناحية الجسدية كان يذكّر المرء بجون باريمور في أفضل أيامه. وكان دوره دون جوان، وخاصة في بزة فينتشلي مع ربطة عنق ويلف حول عنقه لفاعاً عريضاً. كان صوته جميلاً عندما يتكلم. صوت رجولي غني، مليء بسحر تغير الطبقات. كل شيء كان يقوله يبدو لطيفاً ومهماً، مع أنه لم يكن يقول كلمة تستحق الذكر. لكنه عندما يتكلم كان يبدو أنه يداعبك بلسانه، يلعقك ككلب سعيد.

«حسناً، حسناً»، قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة من الأذن حتى الأذن «هكذا إذن، فعلتها أخيراً؟ حسناً، ادخلا. مرحباً يا مونا، كيف حالك؟ تهانينا! مارسيل لم تصل بعد. أتمنى ألّا تأتي. لا أشعر بحيوية شديدة اليوم».

كان مايزال يبتسم ابتسامته العريضة وهو يجلس على كرسي العرش الكبير بجانب حامل اللوحات.

قال: «لا بد أن أولريك سيشعر بالأسف لأنه افتقد هذه، هل تشربان قليلاً من الويسكي أم تريدان قليلاً من الجن؟».

«جن».

«حسناً، أخبراني كل شيء عن ذلك. متى جرى ذلك... الآن؟ لماذا لم تعلماني ـ كنت سأقف إلى جانبك»... واستدار نحو مونا وسألها: «أنت لست حاملاً؟».

قالت مونا: «بحق المسيح، دعنا نتحدث عن شيء آخر. أقسم أني لن أتزوج مرة أخرى... شيء فظيع».

«اسمع يا نيد، قبل أن تثمل، قل لي... كم معك من النقود؟».

أخرج من جيبه ستة سنتات وقال: «أوه، هذا حسن. سيكون مع مارسيل شيء».

«هذا إن أتت».

«أوه، إنها ستأتي، لا تقلق. هذه مصيبتها. لا أعرف أيهما أسوأ، أن أكون مفلساً أو أن تكون مارسيل بجانبي».

قلت: «لا أظن أنها سيئة إلى هذه الدرجة».

قال نيد: «لا، إنها ليست سيئة حقاً. فتاة رائعة. لكنها عاطفية جداً. شديدة التعلق بي. وأنا لم أخلق لأتمتع بنعمة الزواج. ينتابني الملل بسرعة من الوجه نفسه، حتى لو كانت السيدة العذراء. أنا متقلّب وهي ثابتة. إنها تدعمني وترفع معنوياتي طوال الوقت. وأنا لا أريد أن يدعمني أحد دائماً».

قالت مونا: «أنت لا تعرف ماذا تريد، أنت لا تعرف متى تكون أحسن حالاً».

قال نيد: «أظن أنك على حق، وأولريك أيضاً. أظن أننا مازوشيان»، وابتسم. كان خجولاً بعض الشيء لأنه استخدم كلمة كهذه على الفور. فقد كانت كلمة يستعملها المثقفون، ونيد لا يستعمل كلمات كهذه.

قرع الجرس. كانت مارسيل. وكان بإمكاني أن أسمعها تمنحه قبلة بصوت عال.

«تعرفين هنري ومونا، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد»، قالت مارسيل مبتهجة، «لقد رأيتك بملابسك الداخلية... هل تذكر؟ كان ذلك منذ زمن بعيد».

قال نيد: «اسمعي، ماذا تظنين أنهما فعلاً؟ لقد تزوّجا... نعم، منذ فترة قصيرة فقط... في هوبوكين».

قالت مارسيل: «هذا رائع!» ونهضت وتوجهت إلى مونا وقبّلتها. وقبّلتني أيضاً.

قال نيد: «ألا يبدوان حزينين؟».

قالت مارسيل: «لا، لا أظن أنهما يبدوان حزينين. لماذا يجب أن يكونا كذلك؟» وصبّ نيد كأساً لها. وفيما كان يقدمه لها قال: «هل لديك نقود؟».

«طبعاً لدي. لماذا؟ هل تريد بعض النقود؟».

«لا، لكنهما يحتاجان إلى قليل من النقود. إنهما مفلسان».

قالت مارسيل: «أنا آسفة، بالطبع لدي نقود. ماذا يمكنني أن أعطيكما ـ عشرة، عشرين؟ ولا تعيدانها لي، إنها هدية زواجكما».

توجهت مونا نحوها وأمسكتها من يدها وقالت: «هذا شيء رائع منك يا مارسيل. شكراً لك».

«إذن سنأخذكما لتناول العشاء»، قلت محاولاً أن أبدي تقديري لها.

قالت مارسيل: «لا، لن نذهب. سنعد العشاء هنا. لنجلس ونرتاح. أنا لا أحب الخروج والاحتفال في الخارج... حقاً، أنا في غاية السعادة. أحبّ أن أرى الناس يتزوجون ـ ويبقون متزوجين. لعلي متخلفة، لكني أؤمن بالحب. أريد أن أبقى عاشقة طوال حياتي».

قلت: «مارسيل، بحق الشيطان من أين أنت؟».

«من يوتا. لماذا؟».

«لا أعرف، لكنك تعجبينني. إنك تبهجين النفس. أنا أحبّ الطريقة التي قدمت فيها النقود أيضاً».

«إنك تسخر مني!».

«لا، لا، أنا لا أسخر منك. بل أنا جاد. إنك امرأة جيدة. إنك جيدة جداً إلى درجة أنك لا تناسبين هذا العاجز الجالس هناك. لماذا لا تتزوّجينه؟ هيا! إن ذلك يثير فزعه، لكن لعل ذلك يفيده كثيراً».

«هل تسمع ذلك؟» دمدمت، واستدارت نحو نيد «ألم أقل لك؟ إنك كسول، هذا كل ما في الأمر. إنك لا تعرف قيمتي بعد».

هنا انتابت مونا نوبة من الضحك. ضحكت وكادت خاصرتاها تنفجران من الضحك. قالت: «لا أستطيع أن أمسك نفسي. إنه أمر مضحك جداً».

قال نيد: «لم تثملي بعد؟»

قلت: «لا، إن الأمر ليس كذلك، إنها تسترخي فقط. مجرد ردّة فعل. لقد أجلنا الموضوع طويلاً، هذا هو كل ما في الأمر، أليس كذلك يا مونا؟».

نوبة أخرى من الضحك.

قلت: «بالإضافة إلى ذلك فهي تشعر بالحرج دائماً عندما أستدين نقوداً. أليس كذلك يا مونا؟».

لم تحر جواباً، بل انتابتها نوبات متلاحقة من الضحك.

توجهت مارسيل إليها، وكلمتها بصوت خفيض تهدئها وقالت: «اتركها لي. لقد ثملتما أنتما الاثنان. سنخرج ونتناول شيئاً، أليس كذلك يا مونا؟».

«ماذا جعلها هستيرية إلى هذا الحد؟» قال نيد بعد أن غادرت الفتاتان.

قلت: «أظن أنها لم تعتد على الزواج».

قال نيد: «اسمع، ما الذي جعلك تفعل ذلك؟ ألم يكن ذلك عملاً متهوراً بعض الشيء؟».

قلت: «اجلس، سأتحدث إليك. أنت لست ثملاً جداً بحيث لا تتمكن من فهمي، أليس كذلك؟».

«لا أظن أنك ستلقي علي محاضرة»، قال بشيء من الخجل.

«سأتكلم إليك بصراحة ودون مواربة. استمع إليّ الآن... لقد تزوجنا؟ أنت تظن أنه خطأ، ايه؟ دعني أخبرك هذا... لم أفعل شيئاً في حياتي أفضل من هذا. إني أحبها. أحبها إلى درجة أني أستطيع أن أفعل أي شيء تطلبه مني. إذا طلبت مني أن أقطع رقبتك... إذا اعتقدت أن ذلك سيجعلها سعيدة... فسأفعل ذلك. لماذا كانت تضحك بشكل هستيري؟ أيها التافه المسكين، لا أعرف ما قصتك. لقد أصبحت عديم الشعور. تحاول أن تحمي نفسك فقط. حسناً، أنا لا أريد أن أحمي نفسي. أريد أن أفعل أشياء حمقاء، أشياء صغيرة، أشياء عادية، أي شيء وكل شيء يمكن أن يجعل المرأة سعيدة. هل يمكن أن تفهم ذلك؟ أنت، وأولريك أيضاً، تظنان أنها مزحة، إنه الحب. هنري لن يتزوج مرة أخرى. أوه لا! افتتان فقط. وسيزول بعد فترة. هكذا تنظران إلى الأمر. حسناً، إنكما مخطئان. شعوري تجاهها قوي جداً بحيث لا أعرف كيف أعبّر عنه. هي في الشارع الآن، مونا. يمكن أن تدهسها سيارة شحن. أي شيء يمكن أن يحدث. أنا أرتعد لمجرد التفكير في ما سيحدث لي، إذا سمعت أن مكروهاً أصابها. أظن أني سأجن. وسأقتلك على الفور، هذا أول شيء سأفعله... أنت لا تعرف ماذا يعني أن يحب الإنسان بهذه الطريقة؟ أنت تفكر فقط بذات الوجه لتناول الفطور كل يوم. عندما أفكر بمدى روعة وجهها، فإن الأمر سيتغير في كل دقيقة. فأنا لاأراها مرتين بالطريقة ذاتها. أنا معجب بها إلى ما لانهاية. خذ هذه الكلمة فهي جيدة لك ـ الإعجاب. أراهنك أنه لم يسبق لك أن استعملت هذه الكلمة. الآن بدأنا نفهم بعضنا... إني أعبدها. سأقولها ثانية. إني أعبدها! يا إلهي، من الرائع أن يقول المرء ذلك. أنا

أعبدها وأجثو عند قدميها. أعبدها. أتلو صلاتي إليها. أبجّلها... كيف ترى ذلك؟ لم يكن يخطر ببالك، عندما أتيت بها لأول مرة إلى هنا، أني سأتحدث هكذا ذات يوم؟ ومع ذلك فقد حذرتكما. قلت لكما إن شيئاً ما قد حدث. ضحكتما. ظننتما أنكما تعرفان أكثر مني. حسناً، أنتما لا تعرفان شيئاً. لا تعرفان من أنا أو من أين أتيت. لاتريان إلا ما أظهره لكما. لا تنظران تحت سترتي. إذا ضحكت تظنان أني سعيد. لا تعرفان أنه عندما أضحك من كل قلبي في بعض الأحيان أكون على حافة اليأس. على الأقل كان ذلك الأمر. وعندما أضحك الآن فأنا أضحك، لا أبكي من الداخل وأضحك من الخارج».

«عدت إلى كينونتي ثانية. قطعة واحدة. رجل متيم. رجل تزوج بكامل إرادته. رجل لم يتزوج من قبل حقاً. رجل عرف نساء، ولكنه لم يعرف الحب... الآن سأغني لك. أو أقرأ، إذا أردت. ماذا تريد؟ فقط قل لي اسماً... اسمع، عندما تعود ـ والله، إن مجرد معرفتي بأنها ستعود، وأنها لم تخرج من ذلك الباب واختفت ـ عندما تعود أريد أن تكون مرحاً... أريد أن تكون مرحاً بشكل طبيعي. قل لها أشياء لطيفة... أشياء جيدة... أشياء تعنيها... أشياء تجد صعوبة في قولها عادة. عدها بأشياء. قل لها أنك ستشتري لها هدية الزفاف. قل لها إنك تتمنى أن تنجب أطفالاً. اكذب عليها، إذا تعين عليك ذلك. لكن اجعلها سعيدة. لا تدعها تضحك بتلك الطريقة مرة أخرى، هل تسمعني؟ لا أريد أن أسمعها تضحك هكذا... أبداً! أضحك أنت أيها النغل! ألعب دور المهرج، دور الأبله. لكن دعها تعتقد أنك تظن أن كل شيء على ما يرام... جميل وأنيق... وأنه سيدوم إلى الأبد...».

توقفت لحظة لآخذ نفساً وجرعت رشفة أخرى من شراب الجن. راح نيد ينظر إليّ فاغر الفم.

قال: «هيا تابع!».

«لقد أحببت ذلك، أليس كذلك؟».

قال: «إنه رائع. توجد في كلماتك عاطفة حقيقية. إني مستعد

لأدفع أي شيء حتى أصل إلى هذه المرحلة... هيا تابع، قل كل شيء تريد أن تقوله. لا تخف من جرح مشاعري. فأنا لا أحد...».

«بحق الله لا تتحدّث هكذا ـ لقد نفسّت عن نفسي. فأنا لا أمثل الآن... إني جاد تماماً».

«أعرف أنك جاد ـ ولهذا أقول لك تابع! إذ لم يعد الناس يتحدثون بهذا الطريقة... على الأقل الناس الذين أعرفهم».

استوى واقفاً، وشبك ذراعه بذراعي، ورمقني بتلك الابتسامة الساحرة المضيئة. كانت عيناه كبيرتين مترقرقتين؛ الجفنان كأطباق صغيرة مشطورة. وكان من المثير للعجب ذلك الوهم الذي كان يمنحه الدفء والفهم. تساءلت للحظة إن كنت قد قللت من أهميته. لا ينبغي ركل أو رفض أحد الذين يمنحونك حتى الشعور بالوهم. كيف يمكنني أن أعرف ما هي الصراعات التي تدور في داخله، والتي لعلها مستمرة، حتى تطفو إلى السطح؟ من أعطاني الحق في أن أحاكمه ـ هو أو أي شخص آخر؟ إذا ابتسم الناس لك، خذ ذراعك، أطفئ الوهج، لا بد أن هناك شيئاً فيهم يستجيب. لا يوجد أحد ميت تماماً.

«لا تبالي بما أظن» قال بذلك الصوت الرعوي الغني. «أتمنى أن يكون أولريك هنا... إنه سيقدّرها أكثر مني».

«بحق المسيح، لا تقل ذلك يا نيد! المرء لا يريد التقدير... المرء يريد الاستجابة. أقول لك الحقيقة، فأنا لا أعرف ماذا أريد منك، أو حتى من أي شخص آخر. فأنا أريد أكثر مما أحصل عليه، هذا كل ما أعرفه. أريدك أن تخرج من جلدك. أريد من الجميع أن يتعروا، ليس فقط حتى اللحم، بل حتى الروح. أحياناً أصبح جائعاً جداً، جشعاً جداً، إلى درجة أني أكون على استعداد لالتهام البشر. لا أستطيع أن أنتظرهم حتى يخبروني بأشياء... كيف يشعرون... ماذا يريدون...

وإلى ما هنالك. أريد أن أمضغهم أحياء... أن أجد بنفسي... بسرعة، في وقت واحد. اسمع...».

التقطت رسماً من رسومات أولريك الملقاة على طاولته.

«أنظر إلى هذه؟ الآن لنفترض أنني أكلتها؟» ورحت امضغ الورقة.

«يا إلهي يا هنري، لا تفعل ذلك! إنه يعمل عليها منذ ثلاثة أيام. إنه عمل». ومزّق الرسم وهو يشده من يدي.

قلت: «حسناً، أعطني شيئاً آخر إذن. أعطني معطفاً... أي شيء. هاهنا، اعطني يدك!» وأمسكت يده ورفعتها إلى فمي. فسحبها بشدة.

قال: «لقد جننت. اسمع، تريث».

«الفتاتان ستعودان قريباً... بعدها يمكنك أن تتناول طعاماً حقيقياً».

قلت: «سآكل أي شيء. إني لست جائعاً، إني جذل».

«أريد أن أريك كيف أشعر. ألا تشعر بذلك أبداً؟».

قال كاشفاً عن نابه: «يجب أن أقول لا! يا إلهي، لو أصبحت بهذه الدرجة من السوء لذهبت إلى الطبيب. من الأفضل لك أن تضع هذه الكأس... هذا الجن لا يناسبك».

«تظن أنه الجن؟ حسناً، سأرمي الكأس». وتوجهت إلى النافذة ورميتها إلى الحديقة الخلفية وقلت له: «والآن اعطني كأساً من الماء. أحضر إبريقاً من الماء. سأريك...أنت لم تر في حياتك شخصاً يصبح ثملاً من الماء، إيه؟ حسنا، انظر إليّ!».

وتابعت قائلاً وأنا أتبعه إلى الحمام: «والآن قبل أن أثمل من الماء، أريدك أن تلاحظ الفرق بين الشعور بالجذل والثمالة. الفتيات سيعدن قريباً. وإلى حين ذلك سأثمل. هيا راقبني. انظر ما سيحدث».

قال: «تراهن أنني سأراقبك. إذا تعلمت أن أثمل من الماء، فهذا سيوفر عليّ الكثير من المتاعب ووجع الرأس. هنا، خذ كأساً الآن. سأحضر الإبريق».

أخذت الكأس وجرعتها دفعة واحدة. وعندما عاد جرعت كأساً أخرى بالطريقة نفسها. راح ينظر كما لو كنت مهرجاً في سيرك.

قلت: «بعد خمس أو ست كؤوس ستبدأ بملاحظة التأثير».

«هل أنت متأكد من أنك لا تريد قطرة صغيرة من الجن فيه؟ لن أتهمك بالغش. فالماء لا طعم له ولا مذاق».

«الماء هو إكسير الحياة يا عزيزي نيد. لو كنت أدير العالم لجعلت غذاء المبدعين الخبز والماء. وسأعطي البليدين كل مايشتهونه من الطعام والشراب. سأسمّمهم بإشباع رغباتهم. الطعام سم الروح. الطعام لا يشبع الجائع، ولا الشراب يروي العطشان. الطعام، سواء كان جنسياً أو أي شيء آخر، يرضي الشهية فقط. أما الجوع فشيء آخر. لا يمكن لأحد أن يشبع الجوع. الجوع هو ميزان حرارة الروح. النشوة هي المعيار. السكينة والصفاء هما أن تصبح حراً من الأحوال الجوية ـ المناخ الدائم لطبقة الستراتوسفير. كلنا نتجه إلى هناك... نحو طبقة الستراتوسفير. ها قد ثملت قليلاً، ألا ترى ذلك؟ عندما يكون يوسعك أن تفكر بالصفاء فهذا يعني أنك اجتزت قمة الشعور بالجذل. يقول الصينيون إنه يبدأ عند الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة بعد منتصف الليل. لكنك تقف عند القمة ونظير السمت للحظة أو اثنتين. عند القطبين يمنحك الله فرصة لتقفز خارج آلية الساعة. في نظير السمت، الذي هو ثمل فيزيائي، يمكنك أن تختار بين أن تصبح مجنوناً ـ أو أن تنتحر. عند القمة، التي هي حالة من النشوة، يمكنك أن تعبر وأنت راض عن نفسك إلى الصفاء والنعمة. الساعة الآن تقارب الثانية عشرة وعشر دقائق حسب الساعة الروحية. لقد حل الليل. ولم أعد جائعاً، عندي أمنية مجنونة واحدة فقط لأصبح

سعيداً. وهذا يعني أني أريد أن أثمل معك ومع الجميع. هذا أمر عاطفي. عندما أنهي إبريق الماء سأبدأ بالاعتقاد أن الجميع جيدون: وسأفقد أي إحساس بالقيم. هذه هي الطريقة الوحيدة لدينا لنعرف كيف نكون سعداء ـ أن نعتقد بأننا متشابهون. إنه وهم الفقراء في الروح. هو مثل المطهر مجهّز بمراوح كهربائية وأثاث برمائي. إنه كاريكاتير البهجة. البهجة تعني الوحدة؛ السعادة تعني التعددية».

قال نيد: «هل تمانع إن أخذت جرعة؟ أظن أنك بدأت تقترب من هدفك الآن. أشعر بشيء من السعادة».

«إنها سعادة منعكسة. أنت تعيش على القمر. وحالما أتوقف عن الإشراق فستنقرض».

«لقد قلتها يا هنري. يا إلهي، عندما تكون هنا تصبح مثل حقنة في الذراع».

كان الإبريق فارغاً تقريباً. قلت: «املأه ثانية، فأنا لم أثمل بعد. أتمنى أن تعود الفتاتان. أحتاج إلى حافز. آمل ألّا تكونا قد دهستا».

سأل نيد: «هل تغني عندما تثمل؟».

«هل أثمل؟ هل تريد أن تسمعني؟» وبدأت أغني مطلع أغنية باجلياتشي.

في منتصف الأغنية عادت الفتاتان وهما محملتان بالأكياس. واصلت غنائي.

«لا بد أنك تشعر بالغبطة»، قالت مارسيل، وهي تنقل نظراتها من واحد إلى آخر.

قال نيد: «لقد ثمل من الماء».

ردّدتا: «من الماء؟».

قال: «نعم، من الماء. إنه عكس النشوة».

قالت مارسيل: «لم أفهم. دعني أشمّ أنفاسك».

«لا تشميني أنا... بل شميّه هو. فأنا راض بأن أثمل من المشروبات الكحولية. يقول هنري الساعة الثانية عشرة ودقيقتان بعد منتصف الليل. السعادة ما هي إلا شكل مكيّف من العذاب... أليس الأمر كذلك يا هنري؟».

قالت مارسيل: «اسمع، هنري ليس ثملاً، إنك أنت الثمل».

«المتعة في الجماعة؛ السعادة تكمن دائماً في الأغلبية، أو شيء من هذا القبيل. كان يجب أن تكونا هنا في وقت مبكر. لقد أراد أن يأكل يدي. عندما رفضت أن أستجيب له طلب معطفاً. تعالا... سأريكما ماذا فعل لرسم أولريك».

نظرتا إلى الرسم، الذي مضغت إحدى زواياه حتى بليت.

وضّح نيد: «هذا الجوع لكما، إنه لا يعني جوعاً عادياً ـ بل يعني جوعاً روحياً. الهدف هو طبقة الستراتوسفير حيث يكون المناخ هادئاً دائماً. أليس كذلك يا هنري؟».

قلت ببسمة جادة: «هو كذلك. الآن يا نيد قل لمونا ماذا قلت لي منذ لحظة»... وغمزته ورفعت قدحاً آخر إلى شفتي.

قال نيد يناشد مونا: «لا أظن أنك ستتركينه يشرب كل هذا القدر من الماء. فقد أنهى لتوه إبريقاً. أخشى أن يصاب بمرض الاستسقاء».

رمقتني مونا بنظرة متسائلة تعني ما معنى هذا الذي أفعله؟

وضعت يدي على ذراعها برفق، كما لو كنت أضع عصا إلهية عليها. وقلت: «لديه شيء يود أن يقوله لك. استمعي بهدوء. إن كلامه سيدخل السرور إلى نفسك».

تركزت كل العيون على نيد، الذي خجل وتلعثم.

قالت مارسيل: «ما هذا؟ ما الشيء الرائع الذي قاله؟».

قلت: «أظن أنني يجب أن أقولها عنه». أمسكت يدي مونا بيديّ

ونظرت في عينيها. «هذا ما قاله يا مونا. لم أعرف في حياتي أن بإمكان إنسان أن يغيّر إنساناً آخر كما غيرتك مونا. بعض الناس يهتدون إلى الدين؛ وأنت اهتديت إلى الحب. إنك أسعد إنسان في العالم».

مونا: «هل حقاً قلت ذلك يا نيد؟».

مارسيل: «وكيف لم أتمكن أنا من تغييرك؟».

بدأ نيد يتفتف ويهمهم.

قالت مارسيل: «أظن أنه يحتاج إلى كأس أخرى».

قال نيد: «لا، فالشراب لا يرضي إلا الرغبات الدنيا. أما أنا فإني أبحث عن إكسير الحياة الذي هو الماء، حسب رأي هنري».

قالت مارسيل: «سأعطيك إكسيرك فيما بعد. ما رأيكم بدجاجة باردة الآن؟».

سألت: «هل عندك عظام؟».

بدت مارسيل حائرة.

قلت: «أريد أن أتناول عظاماً فهي غنية بالفوسفور واليود. مونا تقدم لي دائماً عظاماً عندما أكون في حالة من الجذل. كما ترين، عندما أكون منفعلاً فإني أبعث طاقة حيوية. إنك لست بحاجة إلى عظام ـ بل تحتاجين إلى عصائر كونية. لقد ارتديت غلافك السماوي الرقيق جداً. تشعّين من المجال الجنسي».

«ماذا يعني ذلك بالإنكليزية الفصيحة؟».

«يعني أنك تتغذين بالبذرة وليس بالطعام اللذيذ. فتصبح هرموناتك الروحية فقيرة. يعني أنك تحبين أبيس الثور بدلاً من كريشنا قائد العجلة الحربية. ستجدين جنتك، لكنها ستكون في مستوى أدنى. والهروب الوحيد يكمن في الجنون».

قالت مارسيل: «الفكرة واضحة وضوح الشمس».

تطوّع نيد قائلاً: «لا تعلقيّ نفسك في آلية الساعة، هذا مايعني».

«ما هي آلية الساعة؟ عما تتحدثان بحق السماء، أنتما الاثنان؟».

قلت: «ألم تفهمي يا مارسيل؟ ماذا يمكن للحب أن يجلب لك ولا تملكينه أصلاً؟».

قالت مارسيل: «لم أحصل على شيء، سوى الكثير من المسؤوليات، فهو يحصل على كل شيء».

«بالضبط، ولهذا تبدو جيدة».

«أنا لم أقل ذلك!... اسمع، عمّ تتحدث؟ هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟».

قلت: «إني أتكلم عن روحك، إنك تجوّعين روحك. تحتاجين إلى عصائر كونية، كما قلت من قبل».

«نعم، وأين تشتريها؟».

«لا تشترينها... تتوسلين من أجل الحصول عليها. ألم تسمعي قط بالمنّ الذي سقط من السماء؟ إسألي عن المنّ الليلة: فهو سيمنحك نغمة لأربطتك النجمية».

قالت مارسيل: «أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المادة النجمية، لكني أعرف شيئاً عن المؤخرة. لماذا لا تذهب إلى الحمام قليلاً وتداعب نفسك؟ للزواج تأثير شاذ عليك».

تدّخل نيد قائلاً: «ألا ترى يا هنري، هكذا يجلبن الأشياء إلى الأرض. إنها دائماً مشغولة بفرجها، أليس كذلك يا عزيزتي؟» وربّت تحت ذقنها، ثم تابع: «كنت أفكر أنه ربما نذهب إلى مسرحية فكاهية هذه الليلة. ستكون هذه طريقة مبتكرة للاحتفال بالمناسبة، ألا تعتقدان ذلك؟ إنها تعطي المرء أفكاراً».

نظرت مارسيل إلى مونا. كان من الواضح أنهما لم تتحمسا للفكرة.

اقترحت: «لنأكل أولاً، أحضري ذلك المعطف، أو وسادة... لعلي أريد شيئاً أضعه إلى جانبي»، وتابعت، «بمناسبة الحديث عن المؤخرة، هل حدث وتناولت لقمة... لقمة حقيقية؟ خذوا مارسيل مثلاً... إنها ما أدعوها مؤخرة مغرية».

بدأت مارسيل تضحك. ووضعت يديها وراءها غريزياً.

«لا تقلقي. لم أقضمك بعد. هناك دجاج أولاً وأشياء أخرى. لكن بصدق، يشعر المرء أحياناً أنه يودّ أن يقضم شيئاً، ماذا! حلمتان، ذلك شيء مختلف. لا يمكنني أبداً أن أقضم حلمة امرأة ـ أعني قضمة حقيقية. أخشى دائماً أن يتدفق الحليب على وجهي. وكل تلك العروق... يا إلهي، إنها دموية. أما المؤخرة الجميلة... فأنت لا تفكر بطريقة ما بالدم في مؤخرة المرأة. إنها مجرد لحم أبيض نقي. ثمة شيء طيب آخر بين الفخذين تماماً، في الداخل. إنه أطرى حتى من المؤخرة النقية الصافية. لا أعرف، لعلي أبالغ. على كل حال فأنا جائع... انتظروا حتى أبول. البول يجعلني أنتصب، أبقوا لي بعض اللحم الأسمر مع الجلد. أنا أحب الجلد. اصنعي لي سندويشة من الفرج، وصّبي فوقها شيئاً من المرق البارد. يا إلهي، إن لعابي يسيل».

«هل أنت أفضل الآن؟» قال نيد عندما عدت من الحمام.

«إني أتضور جوعاً. ماذا في هذه الزبدية الكبيرة؟».

قال نيد: «إنه براز السلحفاة مع بيض متعفن وقليل من الصلصة من الحيض. هل ذلك يثير شهيتك؟».

قالت مارسيل: «أرجو أن تغيّرا الموضوع. لست حساسة جداً، لكني لا أحب أن أفكّر بالقيء وأنا آكل. إذا كان عليكما أن تتحدثا عن أشياء قذرة فأنا أفضل أن تتحدثا عن الجنس».

قال نيد: «هل تعنين أن الجنس قذر؟ ما رأيك يا هنري، هل الجنس قذر؟».

أجبت: «الجنس واحد من الأسباب التسعة للتناسخ. الثمانية الأخرى غير مهمة. لو كنّا جميعنا ملائكة فلن نمارس الجنس أبداً ـ بل سيكون لدينا أجنحة. ليس للطائرة جنس؛ وليس لله جنس. الجنس يؤدي إلى التناسل، والتناسل يؤدي إلى الفشل. ويقال إن أكثر الناس الجنسيين في العالم، هم مجانين. إنهم يعيشون في الجنة، لكنهم فقدوا براءتهم».

قالت مارسيل: «في كلامك الكثير من الهراء بالنسبة لشخص ذكي مثلك. لماذا لا تتحدث عن أشياء نفهمها جميعاً؟ لماذا تمنحنا كل هذا الهراء عن الملائكة والله ومستشفيات المجانين؟ لو كنت ثملاً لاختلف الأمر، لكنك لست ثملاً... بل إنك لا تتظاهر بأنك ثمل... أنت وقح ومتغطرس».

«حسنا يا مارسيل، هذا جيد! هل تريدين أن تسمعي الحقيقة؟ لقد مللت. جئت إلى هنا لأتناول وجبة وأقترض بعض النقود. نعم دعونا نتكلم عن الأشياء العادية البسيطة. كيف كانت عمليتك الأخيرة؟ هل تحبين اللحم الأبيض أم الأسمر؟ لنتحدث عن أي شيء يمنعنا من التفكير أو الشعور. بالتأكيد كان لطفاً منك أن تعطينا عشرين دولاراً على الفور. هذا شيء رائع منك. لكن بدني يقشعر حين أستمع إليك تتحدثين. أريد أن اسمع أحداً يقول شيئاً... شيئاً أصيلاً. أعرف أن لديك قلباً طيباً، أنك لم تؤذِ أحداً في حياتك. وأظن أنه يجب أن تهتمي بشؤونك أيضاً. لكن ذلك لا يهمني. لقد سئمت من الناس الكرماء الرحماء، الطيبين. أريد أن أرى الشخصية والمزاج الحقيقيين. يا إلهي، حتى أني لا أثمل في هذا الجو. أشعر أني كاليهودي المتجول. أودّ أن أضرم النار في البيت، أو شيئاً من هذا القبيل. ربما إذا خلعت سروالك وغمسته في القهوة فإن ذلك سيساعد. أو خذي قطعة سجق والعبي بها... اسمعي، ذات مرة كان لدي دماغ عادي، أحلام عادية، أمنيات عادية. كدت أصبح مجنوناً. أنا أمقت الأشياء. تجعلني أصاب بالإمساك. الموت العادي ـ إنه

يحدث للجميع. أرفض أن أموت. لقد قررت أن أعيش طوال الدهر. الموت سهل: إنه مثل مستشفى المجانين، فقط لا يعود بوسعك أن تستمني. يقول نيد إنك تحبين فرجك. بالتأكيد، الجميع يحببن فروجهن أيضاً. ثم ماذا بعد ذلك؟ بعد عشر سنوات ستصبح مؤخرتك متجعدة وسيتهدل نهداك ويصبحان كحقيبتين فارغتين. عشر سنوات... عشرون سنة... ما الفرق؟ تنالين بعض المضاجعات الجيدة ثم تجفين. ماذا في ذلك؟ ما أن تتوقفي عن قضاء وقت جميل حتى تصابين بالغم. إنك لا تنظمين حياتك ـ دعي فرجك يقوم بذلك بالنيابة عنك. أنت تحت رحمة عضو صلب...».

توقّفت لحظة لأستجمع أنفاسي. وبدت في عيني نيد ومضة يمكن أن تترجم على أنها ودودة ومشجعة ـ أو قاتلة. تمنيت أن يبدأ أحد شيئاً، أن يلقي بزجاجة، يحطم أشياء، يصرخ، يصيح، أي شيء ما عدا أن يجلس صامتاً ويستمع بوجل كالبوم. لا أعرف لماذا اخترت مارسيل، فهي لم تفعل شيئاً لي. كنت أستخدمها كوسيط فقط. كان ينبغي لمونا أن تقاطعني... كنت أعتمد عليها في ذلك. لكن لا، كانت هادئة على نحو غريب، حيادية بصورة عجيبة.

تابعت كلامي: «الآن وبعد أن أفرغت كل ما يعتمل في صدري، دعوني أعتذر. مارسيل لا أعرف ماذا سأقول لك. بالتأكيد إنك لاتستحقين ذلك».

قالت بشكل أخرق: «لا بأس. أعرف أن شيئاً يعتمل في صدرك. لا يمكن أن أكون أنا لأن... حسناً، لأنه ما من أحد يعرفني يتحدث إليّ بهذه الطريقة أبداً. لماذا لا تغيّر إلى الجن؟ ترى ماذا يفعل الماء. هيا، خذ جرعة...» شربت نصف قدح جرعة واحدة ورأيت حدوات حصان تقدح شرارات... «إنه كما ترى يجعلك تشعر كإنسان، أليس كذلك؟ تناول المزيد من الدجاج وقليلاً من سلطة البطاطا. مشكلتك أنك شديد الحساسية. أبي كان كذلك. لقد أراد أن يصبح راهباً لكنه أصبح محاسباً. عندما كان يشعر بالغضب يعتمل في ذاته كانت أمي

تسكره. ثم كان يضربنا ـ ويضربها ثم يشعر بالراحة بعد ذلك. لم يكن سيفلح لو أصبح راهباً، فلقد ولد وهو يحمل ضغينة ضد العالم. لم يكن يشعر بالسعادة إن لم ينتقد أشياء. ولهذا لا يمكنني أن أكره الناس لقد رأيت ما كان ذلك يسببه له. بالتأكيد أنا أحب فرجي. ومن منا لا تحب فرجها؟ كما تقول. أحبّ أن تكون الأشياء سهلة وسلسة. أحبّ أن أجعل الناس أكثر سعادة، إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك. ربما يكون ذلك غباء لكن ذلك يمنحك شعوراً بالسعادة. وكما ترى فقد كان أبي يرتئي ضرورة تدمير كل شيء قبل أن نتمكن من البدء في حياة جيدة. إن فلسفتي، إذا كان بالوسع أن أسميها فلسفة، هي عكس ذلك تماماً. فأنا لا أرى حاجة إلى تحطيم أي شيء. أعمل الشيء الجيد وأترك الأمور السيئة تتدبر نفسها. هذه طريقة أنثوية في النظر إلى الحياة. أنا محافظة. أظن أنه على النساء أن يكنّ بكماوات لكي لا يجعلن الرجال يشعرون أنهم أغبياء...».

صاح نيد: «اللعنة! لم يسبق أن سمعتك تتحدثين بهذه الطريقة».

«بالطبع لم تسمع يا عزيزي. لم تعترف أبداً بأني أملك ذرة من الذكاء، أليس كذلك؟ إذ كنت تحصل على ما تريده مني ثم تغط في سبات عميق. أطلب منك أن تتزوجني منذ سنة لكنك تقول إنك لست مستعداً لذلك. وأن لديك مشاكل أخرى. حسناً، ستكتشف ذات يوم أن هناك مشكلة واحدة فقط ـ وهي أنت نفسك».

انفجرت مونا قائلة فجأة: «جيد يا مارسيل!».

قال نيد: «ماذا بحق الجحيم! ما هذه ـ مؤامرة؟».

قالت مارسيل كما لو أنها تكلم نفسها: «تعرف، في بعض الأحيان أشعر أني حقاً غبية. فها أنا أنتظر هذا الشخص ليتزوجني. لنفترض أنه تزوجني ـ ثم ماذا؟ فهو لن يعرف عني بعد الزواج أكثر مما يعرفه عني قبل الزواج. إنه ليس عاشقاً. لو كان الشخص يحبك فهو يفكر بالمستقبل. الحب مقامرة، وليس وثيقة تأمين. أظن أني بدأت الآن أصبح حكيمة نفسي...نيد، سأتوقف عن التفكير بك.

سأتركك تقلق على نفسك. أنت من النوع القلق وليس هناك علاج لذلك. لقد جعلتني أقلق لفترة ـ أعني أقلق من أجلك أنت. لقد توقفت عن القلق. أريد حباً وليس حماية».

«يا إلهي، لقد أصبحنا جدّيين نوعاً ما؟» قال نيد، مندهشاً من التحول غير المتوقع للحديث.

«جدّي؟» قالت مارسيل باستهزاء. وأضافت، «إني سأتركك. ويمكنك أن تبقى وحيداً طوال حياتك ـ وأدعك تبحث وحدك في كل تلك المشاكل الثقيلة التي تثقل عليك. أشعر كما لو أن حملاً ثقيلاً قد نزل عن كتفي». واستدارت نحوي وأخذت قفازها وقالت: «شكراً ياهنري لأنك أعطيتني تلك الهزة. لا أظن أنك كنت تقول كلاماً فارغاً...».

21

كان عرض كليو مايزال الأكثر إقبالا في المسرح الفكاهي في شارع هيوستون. ومن السهل فهم لماذا سحر ذلك الجمهور الذي كانت مؤسسة مينسكاي أخوان تجمعه كل ليلة في حديقتها المسقوفة. وما على المرء إلا أن يقف خارج شباك تذاكر إحدى الحفلات الصباحية، في أي يوم من أيام الأسبوع، ويراقب الناس وهم يتدفقون. وكان روّاد الحفلات المسائية أكثر ثقافة وتأنقاً، وكانوا يأتون من مانهاتن، وبروكلن، وكوينز، والبرونكس، وستاتن آيلاند ونيو جيرسي. حتى إن بارك أفنيو كان لها نصيب في رواد الحفلات المسائية. أما في رابعة النهار، فكانت الخيمة التي يقام تحتها العرض تشبه وجهاً تبدو عليه آثار الجدري، وكانت الكنيسة الكاثوليكية المتاخمة مظلمة، وكئيبة جداً، وكان القسيس يقف دائماً على درجات الكنيسة، يحك مؤخرته وكأنه يبدي اشمئزازه ورفضه. ويستحضر ذلك في مخيلتك صورة واقعية عن عقل شخص يشك في وجود الله يحاول توضيح عدم وجود إله.

وفي مرات عديدة كنت أتسكّع عند مدخل المسرح، أبحث بعينين ثاقبتين عن شخص يقرضني بضعة بنسات تكفيني للدخول إلى المسرح. فحين لا يكون لديك عمل، أو تكون قد سئمت من البحث عن عمل، سيكون الأفضل لك أن تجلس في حفرة نتنة أكثر من أن تقف في حمّام عام ساعات طويلة ـ بسبب وجود الدفء فقط. إن الجنس والفاقة يسيران جنباً إلى جنب.

يا لهذه الرائحة النتنة التي تغمر المسرح الهزلي! رائحة مرحاض، رائحة بول مشبع بكرات الكافور! الرائحة الكريهة الممتزجة بالعرق، ورائحة الأقدام الزنخة، والبخر السيء، العلكة، المطّهرات! مزيل الروائح الكريه الموجه إليك كما لو كنت كتلة من الذباب! شيء مقزز؟

ولم يكن الديكور سيئاً. وهو يحمل أثراً من رينوار في المراحل الأخيرة من الغنغرينا. ممتزجاً بالتأثيرات الضوئية لمهرجان ماردي غرا ـ خيط متدفق من الأضواء الحمر تنير رحماً متعفناً. ينتابني شعور بالرضا على نحو مشين نتيجة الجلوس هناك مع البُلهاء المنغوليين في غسق عموره، ومعرفتي التامة أني سأعود بعد انتهاء العرض إلى البيت مشياً على الأقدام. ولا يمكن إلا لرجل جيوبه خالية تماماً أن يقدّر الدفء والرائحة الكريهة التي تصدر عن قرحة كبيرة حيث يجلس مئات من الآخرين مثله بانتظار ارتفاع الستارة. ويجلس حولك بلهاء متقدمون في العمر يقشّرون الفستق، أو يقضمون ألواح الشوكولاته، أو يمتصون زجاجات المرطبات بالقصبات. طبقة لومبين العاملة، حثالة القوم في الكون.

كان الجو سيئاً للغاية. على الستارة الحريرية إعلانات عن علاجات للشفاء من الأمراض التناسلية، وإعلانات عن العباءات والبدلات، صيادي فراء، معاجين أسنان بنكهات مختلفة، ساعات تحدد الوقت ـ كما لو أن الزمن مهم في حياتنا! أين تذهب لتتناول وجبة خفيفة سريعة بعد العرض ـ كما لو كان لدى المرء نقود يبغي هدرها، كما لو أننا بعد العرض سنذهب جميعاً إلى مكان لوي أو أوغست ونتطلع إلى الفتيات، ونرمي بالنقود فوق مؤخراتهن ونرى أورورا بوريليس الحمراء والزرقاء والصفراء.

المرشدون... أشخاص مهلهلون يشبهون المدمنين على السجون، إذا كانوا ذكوراً، ومومسات فارغات العقول، إن كنّ من الجنس الآخر. وبين الحين والآخر تأتيك فتاة بولونية جذابة شقراء

ترتسم على وجهها قسمات متحدية وقحة. واحدة من تلك البولونيات الحمقاوات اللاتي يفضلن كسب بنس من عرق جبينها بدل أن تخرج مؤخرتها لقاء مبلغ معين. ويمكن للمرء أن يشتمّ رائحة ملابسهن الداخلية القذرة، سواء في الشتاء أو في الصيف...

كان كل شيء يباع على أساس ادفع واحمل ـ كانت تلك خطة مينسكي. وقد تكللت بالنجاح أيضاً. لا احتجاج، مهما كان التمثيل ضعيفاً. وإذا ذهبت إلى هناك عدة مرات فستصبح الوجوه مألوفة جيداً بالنسبة لك، لا وجوه الممثلين فقط بل وجوه الجمهور أيضاً. كان الأمر يشبه لم شمل عائلة. وإذا شعرت بالقرف فلست بحاجة إلى مرآة لترى كيف كنت تبدو ـ بل كل ما عليك عمله هو أن تنظر إلى جارك. كان يجب أن يطلق عليه اسم «دار التعارف».

لم يكن ثمة شيء جديد، لا شيء لم تره ألف مرة من قبل. كان أشبه بفرج سئمت النظر إليه ـ وأنت تعرف كل طية وثنية فيه؛ تكون قد سئمت منه إلى درجة أنك تريد أن تبصق فيه. نعم، وفي مرات كثيرة تتملكك الرغبة في أن تضرم النار فيه ـ أن توجه صوبهم مدفع رشاش وتقتلهم رجالا ونساء وأطفالاً. في بعض الأحيان، تخطر ببالك بعض التخيلات: إذ تنتابك الرغبة في أن تستلقي على الأرض بين قشور الفستق، وتدع الناس يدوسونك بأحذيتهم الوسخة التي تفوح منها روائح كريهة.

ودائماً النشيد الوطني أيضاً. أي معتوه يمكنه أن يخرج ويسير في المقدمة وفي الوسط حاملاً العلم الأمريكي المجعد، وعندما أَنشَدَ قوبل بعاصفة من التصفيق. وإن كنت تجلس على مقعد في الصفوف الأمامية فيمكنك أن تراها وهي تمسك العلم وتمسح به أنفها. والحديث العاطفي... كم كانوا يحبون أغاني الأم!

ولا ينكر أن مؤسسة مينسكاي أخوان لم تترك شيئاً لم تفكر به، كل شيء يذكّر المرء بالأشياء التي يريد أن يهرب منها. كانوا يعرفون كيف يعرضون كل شيء باهت وسخيف بطريقة مملة، بما

في ذلك القمل في دماغك ـ وكانوا يفركون هذا الإعداد المفبرك تحت أنفك كخرقة منتنة. كانوا جريئين، هذا مما لاشك فيه. وربما كانوا يساريين أيضاً، رغمٍ إسهامهم في دعم الكنيسة الكاثوليكية المجاورة. كانوا عملياً من المُوحّدين. مرفهون ذوو قلوب رحيمة، قلوبهم منفتحة للمساكين. هذا أمر لاشك فيه. وكانوا بالتأكيد يذهبون إلى الحمامات التركية كل ليلة (بعد عد النقود)، وربما إلى الكنيس أيضاً، عندما يتاح لهم الوقت لذلك.

نعود إلى كليو. كانت كليو هذه الليلة مرة أخرى، كما كانت في الماضي. كانت تظهر على المسرح مرتين، مرة قبل الاستراحة ومرة أخرى عند نهاية العرض.

لم تطأ قدما مارسيل أو مونا المسرح الهزلي من قبل. فقد كانتا تعتبرانه شيئاً قذراً لم تكونا على استعداد لرؤيته. هؤلاء الكوميديون يقومون بعمل التابع. وكل ما يحتاجون إليه بنطال متهدل فضفاض، ووعاء للتبول وهاتف أو رف من القبعات لخلق وهم بعالم يحكمه اللاوعي. كل كوميدي هزلي، إذا كان يرجى منه خير، يوجد فيه شيء من البطولة. في كل أداء يذبح الرقيب يقف كشبح على عتبة النفس اللاشعورية. لا يذبحه حياً من أجلنا فقط، بل يبول عليه ويعذب الجسد.

على أي حال! فما أن تظهر كليو حتى يصبح الجميع على استعداد للاستمناء (لا كما في الهند حيث يشتري ثري نصف دزينة من المقاعد في صف واحد ليستمني بهدوء وسكينة وحده) أما هنا فكان الجميع يفعل ذلك سراً. طقوس عربيدة. يتدفّق المني كالبنزين. حتى الأعمى يعرف أن لا يوجد هناك سوى فرج على مرأى البصر. ومن العجيب في الأمر أنه لا تحدث فوضى ويدوس الناس فوق بعضهم. وفي بعض الأحيان، يذهب أحدهم إلى البيت ويقطع خصيتيه بشفرة حلاقة صدئة، لكن هذه المآثر القليلة لا تقرأ عنها في الصحف.

كان أحد الأشياء التي جعلت رقصة كليو ساحرة، تلك الكرة

الصغيرة المكشكشة التي كانت تضعها وسط حزامها فوق عانتها تماماً. وكانت تجعلك تثبت عينيك على تلك البقعة. وكانت تجعلها تدور كعجلة تديرها الرياح، أو تجعلها تقفز وترتعش بتشنجات كهربائية صغيرة. وكانت تخمد أحياناً بشهقات قليلة، مثل بجعة تأتي لترتاح بعد رعشة جماع عميقة. وفي أحيان أخرى كانت تتصرف بوقاحة وصفاقة، وأحياناً كانت متجهّمة وكئيبة. كانت تبدو أنها جزء منها، كرة صغيرة من الزغب نمت من بين شفريها. ولعلها حصلت عليها من ماخور جزائري من أحد البحارة الفرنسيين. كانت مثيرة، خاصة بالنسبة لشاب لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر يريد أن يعرف كيف سيشعر إذا لامس أجمة امرأة.

لا أستطيع أن أتذكر ملامح وجهها جيداً. ومن ذاكرتي الباهتة أذكر أن أنفها كان مشموراً إلى الأعلى. ولم يكن بوسع أحد أن يعرفها عندما ترتدي ثيابها. إذ كنت تركّز انتباهك على الجذع، الذي كانت ترتسم في وسطه سرة ضخمة مصبوغة بلون قرمزي. كانت أشبه بفم جائع، هذه السرّة. مثل فم سمكة تلقت ضربة مفاجئة وأصيبت بشيء من الشلل. وكنت واثقاً من أن النظر إلى فرجها لم يكن أمراً مثيراً. ولعله كان قطعة لحمية مزرقّة شاحبة لا يعبأ حتى كلب بشمّها. كانت تبدو حية عند حجابها الحاجز، عند تلك الكمثرى الممتلئة الملتوية الناتئة من تحت عظام الصدر. وكان جذعها يذكّرني دائماً بنماذج صانعي الألبسة التي تنتهي أفخاذها في إطار أضلاع مظللة. وعندما كنت طفلاً كنت أحبّ أن أمرر يدي فوق انتفاخ حبل السرة ذلك. كان ملمسه رائعاً.

خلال الاستراحة، وفيما توجهت الفتاتان إلى الحمّام لتفرغا مثانتيهما، وقفت أنا ونيد على السلم الحديدي خارج المسرح. ومن الطبقات العليا يستطيع المرء أن يرى البيوت عبر الشارع، حيث تغضب الأمهات المسنات العزيزات ويطهين كالصراصير الغاضبة. إنها شقق صغيرة مريحة، لو كانت لديك شهية قوية وذوق لأحلام

شاغال فوق البنفسجية. وكان الطعام والفراش هما الشيئين المهيمنين. وفي بعض الأحيان، يمتزجان عشوائياً، والأب الذي يبيع علب الثقاب طوال اليوم بشكل مسعور يجد نفسه يأكل الفراش. وعند الفقراء فإن الشيء الذي يستغرق إعداده ساعات عديدة هو الذي يقدم. فالذواقة يحب أن يتناول طعامه في مطعم مفعم بالروائح العطرة؛ أما الفقير فيشعر بالقرف عندما يصعد الدرج ويشتم ماسيأتي إليه. الرجل الغني يحبّ أن ينزّه كلبه في الشارع - ليفتح شهيته للأكل. أما الفقير فينظر إلى الكلبة المريضة المستلقية تحت الحوض ويشعر أنه من الرحمة أن يركلها في بطنها. لاشيء يستثير شهيته. إنه جائع، جائع أبدي للأشياء التي يشتهيها. حتى نسمة الهواء تعد رفاهية بالنسبة له. لكنه ليس كلباً، ولذا لا يأخذه أحد لينزهه ويجعله يستنشق هواء نقياً، واأسفاه وخيبتاه. لقد شاهدت هؤلاء المساكين وهم ينحنون خارج النوافذ متكئين على مرافقهم، رؤوسهم معلقة في أيديهم كفانوس القرعة: لا يحتاج الأمر إلى قارئ أفكار ليعرف بماذا يفكرون. وبين الحين والآخر تهدم المباني على صف واحد لفتح فتحات للتهوية، وعندما كنت أمر أمام هذه المناطق الفارغة، المتباعدة كالأسنان المفقودة، كنت أتخيّل غالباً الفقراء، التعساء الذين ما يزالون متكئين على عتبات النوافذ، البيوت مهترئة، لكنهم هم أنفسهم معلقون في وسط الهواء، يظهرون بؤسهم وحزنهم، كالمناطيد المتبلدة تتحدى قانون الجاذبية. من يلاحظ تلك الخيالات الهوائية؟ من يبالي إن كانوا معلقين في الهواء أم مدفونين على عمق ستة أقدام؟ العرض هو الشيء، كما قال شكسبير. مرّتين كل يوم، بما فيها أيام الآحاد، العرض مستمر. إذا لم يكن لديك علف كاف، فلماذا تطبخ زوجاً من الجوارب القديمة. إن مينسكاي أخوان عاكفون على تقديم عروض الترفيه. عرض جديد كل أسبوع يؤديه الممثلون القديمون أنفسهم ويلقون النكات القديمة ذاتها. إن الكارثة حقاً بالنسبة لمينسكاي هي أن تصاب كليو بالفتق المضاعف. أو أن تحبل. من الصعب القول أيهما سيكون أسوأ.

كان بوسعي أن أخمن ماذا يدور في عقل نيد خلال فترة الاستراحة القصيرة. «إنها مروّعة، أليس كذلك؟»، قال مردداً ملاحظة كنت قد أبديتها من قبل. قالها بلا مبالاة وكأنه يقدم مكرمة لأحد الذوات في بارك أفنيو. وهو يعني أنه لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً إزاءها. في الخامسة والعشرين كان يشغل منصب المدير الفني في شركة إعلانات؛ كان ذلك منذ خمس أو ست سنوات. وهو منذ ذلك الحين مفلس، ولم تغيّر المصائب في أي حال نظرته إلى الحياة. بل أكّدت فكرته الأساسية وهي أن الفقر شيء يجب تجنبه. وبفرصة جيدة سيصعد إلى القمة مرة أخرى، ويصدر الأوامر إلى أولئك ممن يتودّد لهم الآن.

كان يحدثني عن فكرة لديه، فكرة «فريدة» أخرى لحملة إعلانات. (كيف يجعل الناس يدخّنون أكثر ـ دون الإضرار بصحتهم) والمشكلة هي أنه الآن أصبح على الطرف الآخر ولن يستمع إليه أحد. فلو كان مايزال مديرا فنياً لقبل الجميع الفكرة على الفور وقالوا إنها فكرة رائعة. رأى نيد المفارقة في هذه الحالة، لاشيء أكثر. كان يظن أن ذلك يتعلق به شخصيا ـ لعله لم يعد واثقاً بنفسه كما كان. لو كانت لديه أفكار أفضل، لو كان بإمكانه أن يتوقف قليلاً عن احتساء الخمر، لو كان بوسعه أن يثير في نفسه الحماس الصحيح... وهكذا. كانت مارسيل تجعله قلقاً. كانت تخرجها منه. وفي كل مرة يضاجعها فيها كان يشعر أن فكرة رائعة أخرى قد ذبحت. كان يريد أن يبقى وحده فترة من الوقت لكي يتمكن من التفكير في الأشياء. لو كانت مارسيل تأتيه عندما يحتاجها ولا تأتي في الساعات التي لا يريدها فيها ـ تماماً عندما يكون مشغولاً بشيء ـ فسيكون ذلك أمراً رائعاً.

قلت له: «إنك تريد فتّاحة قناني، لا امرأة».

ضحك كما لو أنه أحرج قليلاً.

قال: «حسناً، أنت تعرف كيف هو الأمر، يا إلهي، نعم أنا

أحبها... إنها جيدة. كانت فتاة أخرى ستوقعني منذ زمن طويل. لكن ـ».

«نعم، أعرف. المشكلة أنها تلصق».

«يبدو الأمر كريهاً، أليس كذلك؟».

قلت: «إنه كريه، اسمع، هل خطر ببالك قط أنك قد لا تصبح مديراً فنياً مرة أخرى، وأن فرصتك أتتك ولم تقتنصها؟ الآن أمامك فرصة أخرى، وأنت تدعها تفلت منك ثانية. يمكنك أن تتزوج وتصبح... حسناً، لا أعرف ما... أي شيء ملعون... ما الفرق؟ لديك فرصة أن تعيش حياة سعيدة طبيعية ـ على طائرة متواضعة. لا يبدو الأمر ممكناً بالنسبة لك كما أظن، لعله من الأفضل لك أن تقود عربة حليب؟ هذا أمر مملّ جداً بالنسبة لك، أليس كذلك؟ سيء جداً! كنت سأكنّ لك احتراماً لو كنت حفاراً أكثر مما لو كنت رئيساً لشركة صابون بالموليف. إنك لست مفعماً بأفكار أصيلة، كما تتخيّل، أنت ببساطة تحاول أن تسترجع شيئاً مفقوداً. إنه الزهو الذي يتملكك، ليس الطموح. لو كان لديك أي أصالة لكنت أكثر مرونة: وستثبتها عبر مائة طريقة وطريقة. ما يشغلك هو أنك فشلت. لعل ذلك أفضل شيء حدث لك. لكنك لا تعرف كيف تستغلّ مصائبك. لعلك خلقت لشيء مختلف تماماً، لكنك لا تمنح نفسك فرصة لتجد ما هو. تدور حول الفكرة التي تسيطر عليك كجرذ وقع في الفخّ. لو سألتني، إنه أمر مروّع... أكثر ترويعاً من مشهد أولئك المساكين المتدلين من النوافذ. إنهم مستعدون للقيام بأي شيء؛ أما أنت فلست مستعداً لأن ترفع إصبعك. تريد أن تعود إلى عرشك وتكون ملك عالم الإعلان. وإذا لم تتمكن من عمل ذلك ستجعل كل شخص حولك بائساً. إنك ستخصي نفسك ثم تقول إن أحداً قطع خصيتيك».

بدأ الموسيقيون يضبطون أوتارهم؛ وكان علينا أن نسرع ونعود إلى مقاعدنا. وكانت مونا ومارسيل قد جلستا في مقعديهما، وكانتا غارقتين في الحديث. وفجأة ظهر بريق تام من جانب

الأوركسترا، كالصوت الذي يحدثه حامض البروسيك وهو يتساقط على قماش مشمع ضيّق. وكان عازف البيانو ذو الشعر الأحمر مسترخياً لا عظم له، أصابعه تسقط على لوحة المفاتيح كالنوازل والصواعد. وكان الناس لا يزالون يهرعون إلى أماكنهم عائدين من الحمّامات. وبدأت الموسيقى تعلو أكثر وأكثر على نحو مسعور، وأصبح صوت الآلات النحاسية والطبول والصناجات تهيمن على الصالة. وهنا وهناك كان يضيء ضوء وينطفئ، كما لو كانت هناك سلسلة من البومات المكهربة تفتح عيونها وتغلقها. وكان أمامنا فتى صغير يشعل عود ثقاب وينظر إلى بطاقة بريدية، يتوقع أن يكتشف عاهرة بابل ـ أو التوأمين السياميين وهما يتدحرجان في هزة جماع مشتركة مزدوجة.

وعندما ارتفعت الستارة، بدأت الحسناوات المصريات من ضواحي ريفينجتون ستريت يتدفقن، وانتشرن على المسرح كأسماك أطلقت من خطافاتها. وأخذت بهلوانة هزيلة تدور حول المسرح، ثم طوت نفسها كمطواة، وبعد عدة قفزات هنا وهناك، حاولت أن تقبّل مؤخرتها. وبدأت تضفي على الموسيقى رقة، وأخذت تنتقل من إيقاع إلى آخر، ولم تعد تعرف ماذا كانت الفرقة تعزف. وحين بدا أن كل شيء أصبح على حافة الانهيار، خفتت أصوات القرع، نهضت البهلوانة وخرجت تترنح كشخص مصاب بالجذام، وجاء زوج من المهرجين المتنافرين يتظاهران بأنهما فاسقان تماماً. وتسدل الستارة الخلفية وهما يقفان في منتصف أحد الشوارع في مدينة إركوتسك. أحدهما يتلهف للحصول على امرأة ولسانه متدل. والآخر يحب تناول لحم الحصان. لديه جهاز صغير، من نوع افتح ياسمسم، ويريد بيعه إلى صديقه بتسعمائة وأربعة وستين دولاراً واثنين وثلاثين سنتاً. وراحا يتساومان حتى وصلا إلى مبلغ دولار ونصف. جميل. امرأة تسير من أسفل الشارع. إنها من الجادة ألف. يتحدث إليها بالفرنسية، ذلك الشخص الذي اشترى الجهاز. ترد بلهجة الفولابوك. وكان كل ما عليه عمله هو أن يضيء النور

وتطوقه بذراعيها. ويتم ذلك باثنين وتسعين وضعية، تماماً كما جرى في الأسبوع الماضي والأسبوع قبل الماضي ـ منذ أيام بوب فيزسمونس، في الواقع. وتسدل الستارة ويخرج شاب ذكي يحمل ميكروفوناً من الجناح ويدندن أنشودة رومانسية عن طائر يسلم رسالة إلى حبيبته في كاليدونيا.

تخرج الآن الأسماك ثانية، هذه المرة متنكرة كالهنود الحمر من قبيلة نافاهو. وتدور حول نار المعسكر الكهربائية. تنتقل الموسيقى من «بوني بوي» إلى «الأغنية الكشميرية» ثم «مطر في الوجه». فتاة من لاتافيا تغرز ريشة في شعرها تقف مثل هياواثا، تنظر نحو أرض الغروب. وكان عليها أن تقف على أطراف أصابعها حتى ينهي بن كروسبي أربع عشرة رباعية من فلكلور أميريندیان كتبها راعي بقر من شارع هيستر. ثم تطلق طلقة مسدس، صياح، ويشرع العلم الأمريكي، ويقفز البهلوان عبر الحصن، وترقص هياواثا رقصة إسبانية، وتصبح الأوركسترا مسببة لسكتة دماغية. وعندما تنطفئ الأضواء تقف الأم ذات الشعر الأبيض بجانب الكرسي الكهربائي تنتظر أن ترى ابنها يحترق. ويرافق هذا المشهد المفجع صوت ذو طبقة عالية «خيوط فضية بين الذهب». وضحية العدالة هو واحد من المهرجين سيظهر على المسرح ممسكاً بوعاء للبول. وسوف يأخذ مقاييس السيدة البارزة ليخيط لها مايوه سباحة. وسوف تنحني وتبرز له مؤخرتها ليتمكن من أخذ المقاييس بدقة. وعندما ينتهي من ذلك، تصبح الممرضة في مستشفى المجانين، تمسك بحقنة مليئة بالماء تدلقها في بنطاله. ثم تظهر سيدتان رئيسيتان ترتديان ثوباً داخلياً. تجلسان في شقة مؤثثة جيداً تنتظران وصول صديقيهما. يصل الصديقان، وما هي إلا لحظات حتى يأخذان في خلع سروايلهما. ثم يعود الزوجان ويقفزِ الصديقان كعصفورين مشلولين.

كل شيء محسوب بالدقيقة. فعندما تدق الساعة 10:23 تكون

كليو مستعدة لأداء نمرتها الثانية والنهائية. سيكون أمامها ثماني دقائق ونصف الدقيقة تقريباً، حسب بنود العقد. ثم عليها أن تقف على المسرح اثنتي عشرة دقيقة أخرى وتأخذ مكانها مع بقية الممثلين حتى العرض النهائي. الاثنتا عشرة دقيقة تحرقها. إنها دقائق ثمينة مبدّدة تماماً. حتى أنها لا تستطيع أن ترتدي ثيابها الخارجية؛ يجب أن تُظهر نفسها بكل مجدها وتتلوى مرة أو اثنتين قبل أن تنسدل الستارة. إنها تحرقها.

الساعة العاشرة واثنتان وعشرون دقيقة ونصف الدقيقة! أصوات طبول مكتومة. تطفأ جميع الأضواء ماعدا ضوء «مخرج النجاة». الأضواء تركز على الأجنحة حيث تشير الساعة إلى تمام 10:23. يد أولاً، ثم ذراع، ثم الصدر. ويتبع ذلك الرأس ثم يليه الجسم، كما تتبع الهالة القديس. الرأس ملتف بنشارة وأوراق الملفوف تضع قناعاً على العيون؛ يتحرّك كقنفذ بحر يتصارع مع الحنكليس. جهاز لاسلكي مخفي تحت طيات السرة: إنه يتكلم من البطن يستعمل رموز الصم والبكم.

قبل أن تبدأ الحركات المتشنجة العظيمة مع دوران الجذع الشبيه بالطبل. تدور كليو حول خشبة المسرح. الساقان الحليبيتان البضتان تَظهران خلف برقع من الخرز الملتف حول الخصر؛ الحلمتان الورديتان مكسوتان بالشاش الشفّاف. إنها مخدّرة، حليبية، خالية من العظام: قنديل بحر مكسو بشعر مستعار يتموّج في بحيرة من الخرز الزجاجي.

والآن نحن في قلب أفريقيا المظلمة، حيث يتدفق أوبانغي. حيتان تشتبكان في معركة مميتة. الحية الكبيرة تبتلع الصغرى ببطء - الذيل أولا. يبلغ طول الحية الأصغر حوالى اثني عشر قدما - وهي سامة. تقاتل حتى آخر رمق؛ أنيابها ما تزال تنفث سمها، حتى عندما تطبق الحية الكبيرة فمها حول رأسها. تلي ذلك قيلولة في الظّل لتمنح العملية الهضمية دورتها الكاملة. معركة صامتة غريبة، لا بسبب

الكراهية بل بسبب الجوع. ورغم أن أفريقيا قارة الوفرة فإن الجوع يسود فيها. الضبع والعقاب هما الحكم. أرض الصمت البارد التي يشقها الزئير الغاضب والصيحات المعذّبة. كل شيء يؤكل دافئاً ودون طهي. الحياة وفيرة جداً تشحذ شهية الموت. لا توجد كراهية، بل الجوع فقط. الجوع في خضم الوفرة. الموت يأتي بسرعة. أسماك صغيرة جداً، يجعلها الجوع مجنونة، يمكن أن تلتهم عملاقاً وتتركه هيكلاً عظمياً خلال بضع دقائق. الدم يمتص كالماء. المخالب والأنياب تصبح أسلحة. لا شيء يعتبر نفاية. كل شيء يؤكل حياً وسط الصياح والصراخ المرعب. الموت يضرب كالبرق في الغابة والنهر. الشخص الضخم ليس أكثر مناعة من الشخص الهزيل. الجميع فريسة.

في خضم هذا الشجار المستمر تؤدي بقايا المملكة الإنسانية رقصاتها. الجوع هو الجسم الشمسي لأفريقيا، والرقص هو الجسم القمري. إن الرقص هو التعبير عن الجوع الثانوي: الجنس. الجوع والجنس مثل حيتين تشتبكان في معركة مميتة. لا توجد هناك بداية أو نهاية. الواحد يبتلع الآخر ليعود ليتناسل مرة ثالثة: الآلة تصبح لحماً. الآلة التي تعمل من تلقاء نفسها وبدون هدف، ما لم تكن لتنتج أكثر وأكثر وبذا فهي تنتج أقل وأقل. ويبدو أن الحكماء هم الغوريلات. فهي تعيش حياة منفصلة: تسكن الأشجار. إنها الأكثر شراسة، حتى أنها أشرس من الكركدن أو اللبوة. إنها تطلق صيحات تصم الآذان. تتحدى من يقترب منها.

في كل مكان من القارة تستمر الرقصة. إنها القصة المتكررة للهيمنة على قوى الطبيعة المظلمة. الروح تعمل من خلال الغريزة. إن أفريقيا الراقصة هي أفريقيا التي تحاول أن ترتقي بنفسها فوق اضطراب وتشويش التناسل فقط.

في أفريقيا الرقصة مقدسة وبذيئة وغير شخصية. عندما ينتصب القضيب ويعامل كموزة فإننا لا نرى أنه «انتصاب شخصي»

بل انتصاب عشائري. إنه انتصاب ديني، ليس موجهاً نحو المرأة بل نحو كل أنثى في القبيلة. الإنسان يرتقي من عالم الحيوان من خلال طقوس قام باختراعها. وبمحاكاته يبدو أنه جعل نفسه أرقى من مجرد الجماع.

ترقص راقصة هوتشي كوتشي في المدينة الكبيرة وحدها ـ وهي حقيقة ذات أهمية مدهشة. القانون يحرّم الاستجابة، يحرّم المشاركة. ولم يبق من الطقوس البدائية إلا حركات الجسم «الإيحائية». إن ما توحي به يتباين مع المراقب الفرد. بالنسبة للأغلبية، ربما لا شيء أكثر من مضاجعة رائعة في الظلام. وبدقة أكثر، مضاجعة بالحلم.

لكن ما هو القانون الذي يجعل المشاهد يجلس متصلباً في مقعده، كما لو كان مقيّداً؟ القانون الصامت الذي يحظى بقبول عام هو الذي يجعل الجنس عملاً شريرا مخفياً، لا يمكن القيام به إلا بإذن من الكنيسة.

هذا ما يدور في رأسي...

إننا مجتمع مؤلف من سبعة أو ثمانية ملايين إنسان، أحرار ومتساوون ديموقراطياً، مكرّسون لمواصلة الحياة، الحرية والسعادة للجميع ـ نظرياً فقط. نحن نمثّل كل الأعراق وشعوب العالم تقريباً ونتسم بالتنوع الثقافي ـ نظرياً فقط. ولدينا الحق في العبادة كما يحلو لنا، ننتخب من نريد، نخلق قوانيننا الخاصة بنا، وما إلى هنالك ـ نظرياً فقط.

نظرياً كل شيء مثالي، عادل، ومنصف. وأفريقيا ما تزال قارة مظلمة وقد بدأ الرجل الأبيض ينورها بالكتاب المقدس والسيف. ومع ذلك، وباتفاق غريب وغامض، تقوم امرأة تدعى كليو بأداء رقصة بذيئة في مكان معتم بجانب كنيسة. وإذا رقصت هكذا في الشارع فستعتقل؛ وإذا رقصت هكذا في دار خاصة فإنها ستغتصب وتُنتهك؛ وإذا رقصت هكذا في مسرح كارنيجي فإنها ستحدث ثورة.

تعد رقصتها انتهاكا لدستور الولايات المتحدة. إنها بذيئة، بدائية، قديمة، لا تهدف إلا إلى استثارة وإلهاب العواطف السفلية للرجال والنساء. ولا يوجد لديها سوى هدف صادق وحيد ـ وهو زيادة إيرادات شباك التذاكر لصالح مؤسسة مينسكاي أخوان. وهي تفعل ذلك. وهناك، يجب على المرء أن يكف عن التفكير بالموضوع أو يفقد عقله.

لكني لا أستطيع أن أكفّ عن التفكير... فأنا أرى مانيكان التي اكتست لحماً ودماً تحت النظرة الشهوانية للعين العالمية. أراها تعتصر عاطفة جمهور يفترض أنه متحضّر في أكبر ثاني مدينة في العالم. لقد استحوذت على لحمهم، وأفكارهم، وعواطفهم، وأحلامهم الفاسقة ورغباتهم، وبذلك جعلتهم مجوفين، وتركتهم بأجساد محشوة وأضلاعٍ شمسية. حتى أني أشكّ في أنها سلبتهم أعضاءهم الجنسية أيضاً، لأنهم، لو كانوا ما يزالون رجالا ونساء، فما الذي يجعلهم يلتصقون بمقاعدهم هكذا؟ أرى العرض السريع كله كنوع من جلسات تحضير الأرواح التي يجريها كاليجارل، قطعة من الانتقال الروحي البارع. ينتابني الشك بأنني جالس في المسرح. أشكّ بكل شيء، إلا بقوة الإيحاء. يمكنني أن أتصور بسهولة أننا في أحد الأسواق في ناغازاكي، حيث تباع أدوات جنسية، وأننا جالسون هناك في الظلام نمسك بأيدينا أجزاء جنسية من المطاط ونستمني كالمجانين. أتصور أننا في عالم النسيان، وسط دخان من العوالم النجمية، والذي يمر أمام العين ما هو إلا سراب من عالم الألم والصّلب الهائل. يمكنني أن أتصور أننا جميعنا معلقون من رقابنا، وإنها اللحظة بين الفخ ذي النابض وقضم الحبل الشوكي، الذي يؤدي إلى القذف الأكثر روعة. يمكنني أن أتصور أننا في أي مكان سوى أننا في مدينة يقطنها سبعة أو ثمانية ملايين إنسان، الجميع أحرار ومتساوون، الجميع مثقفون ومتحضرون، الجميع عاكف على مواصلة الحياة والحرية والسعادة. وقبل كل شيء، أجد من الصعوبة أن أصدق أني تزوجت اليوم زواجاً مقدساً للمرة

الثالثة، وأننا نجلس جنباً إلى جنب في الظلام كزوج وزوجة، وأننا نحتفل بطقوس الربيع بعواطف مطاطية.

أجد الأمر مدهش تماماً. ثمة حالات تتحدى قوانين الذكاء. هناك لحظات يؤدي فيها الامتزاج غير الطبيعي بين ثمانية ملايين إنسان إلى إنجاب قطع زهرية من أكثر الجنون سواداً. المركيز دي ساد كان واضحاً ومعقولاً كخيارة. ساشير ماسوك كان لؤلؤة من الرصانة. وبلو بيرد كان لطيفاً كحمامة.

وفي هذه الساعة بالذات، بالدقيقة تقريباً، يقف شاب داكن أملس، يرتدي بأناقة ثياباً من قماش صوفي استوائي وربطة عنق صفراء ساطعة، ويعلق قرنفلة بيضاء في عروته، أمام فندق أستور على الدرجة الثالثة، ويتّكئ قليلاً على عصا من الخيزران، يتريض في هذه الساعة من اليوم.

اسمه عثمانلي. من الواضح أنه اسم مختلق. وفي جيبه لفافات من فئة العشرة، والعشرين والخمسين دولاراً. وتفوح من منديله الحريري البارز بحذر من جيب صدارته رائحة عطر غالي الثمن. إنه منتعش كأقحوان، متأنق، بارد، وقح ـ أنيق حقيقي. وإذا نظرت إليه فلن ينتابك شكّ بأنّه يقبض راتباً من منظمة إكليروسية، وأن مهمته الوحيدة في الحياة هي أن ينشر السموم، والحقد، والافتراء، وأنه يجد متعة فائقة في عمله، ينام جيداً ويزدهر كالوردة.

غداً ظهراً سيعود إلى مكانه المعهود في يونيون سكوير، يعتلي صندوق صابون، تحت حماية العلم الأمريكي؛ الرغوة ستروّل من شفتيه، خياشيمه سترتجف من الهياج، وسيكون صوته أجشاً ومتصدعاً. وكانت كل مناقشة يلفّقها هذا الرجل تهدف إلى تحطيم الدعوة إلى الشيوعية، وكان بوسعه أن يخرجها من تحت قبعته مثل ساحر رخيص. إنه هناك لا ليجادل فقط، لا لينشر سماً وافتراء فقط، بل ليثير مشاكل: إنه هناك ليثير الشغب، ليستدعي الشرطة، ليذهب إلى المحكمة ويتّهم الناس الأبرياء بأنهم هاجموا العلم الأمريكي.

وعندما تشتد حرارة الجو في يونيون سكوير، كان يذهب إلى بوسطن، بروفيدنس، أو إلى مدن أمريكية أخرى، متلفعاً دائماً بالعلم الأمريكي، محاطاً دائماً بمثيري الشغب والشقاق المدربين الذين يرافقونه، يحتمي دائماً بظل الكنيسة. رجل غامض الأصل تماماً، غيّر اسمه عشرات المرات، وخدم كل الأحزاب، الأحمر منها والأزرق والأبيض، من حين لآخر. رجل بدون بلد، بدون مبدأ، بدون عقيدة، بدون ورع. خادم الشيطان، عميل، زرق حمامة، خائن، منقلب على أسياده. أستاذ في تشويش عقول الرجال.

لا يوجد لديه أصدقاء مقربون، لا عشيقة، لا صلات من أي نوع. عندما يختفي لا يخلّف وراءه أي أثر. خيط خفيّ يربطه بأولئك الذين يخدمهم. فوق صندوق الصابون يبدو كرجل مهووس، كمتعصب مهتاج. على درج فندق أستور، حيث يقف كل ليلة بضع دقائق، كما لو أنه يجري مسحاً على الجمهور، كما لو أنه حائر قليلاً، إنه يجسد ضبط النفس، وصورة من اللامبالاة الباردة. كان قد استحم، وقلّمت أظافره، ولمّع حذاءه؛ أخذ غفوة عميقة، أيضاً، ويلي ذلك أفخر وجبة في أحد تلك المطاعم الخاصة الهادئة، التي تقدم الطعام للذواقين فقط. وغالباً يأخذ جولة قصيرة في الحديقة ليهضم وجبته. يتطلع حواليه بعين ثاقبة، ذكية، مدركاً جاذبية اللحم، مدركاً الحسناوات الأرضيات والسماويات. قارئ جيد، مسافر، يتمتع بذوق للموسيقى وولع بالأزهار، يفكّر غالباً بحماقات الإنسان وهو يسير. إنه يحبّ نكهة الكلمات ومذاقها؛ يدحرجها على لسانه، كما يفعل بلقمة لذيذة سائغة من الطعام. يعرف أنه يتمتع بالقوة لجذب الرجال، ليحرك عواطفهم، ليقنعهم ويفنّد آراءهم عندما يرغب. إلا أن هذه المقدرة جعلته ساخراً ومتهكماً ومحتقراً لأخيه الإنسان.

الآن يقف على درجات فندق أستور، متنكراً كمتسكع، يمعن النظر فوق رؤوس الحشد، لا تزعجه أضواء دعايات العلكة، الجسد المعد للإيجار، نظرات الشاردين في العيون العابرة. لقد انفصل عن

جميع الأحزاب، العقائد، الإيديولوجيات. إنه ذات تدور بحرية، منيع عن كل المعتقدات، والأديان والمبادئ. يمكنه أن يشتري كل شيء ليرضي وهمه بأنه لا يحتاج أحداً. ويبدو هذا المساء حراً أكثر من أي وقت مضى. ويقرّ في نفسه أنه يشعر بأنه يشبه إحدى الشخصيات في رواية روسية، يتساءل بغموض لماذا تنتابه مثل هذه المشاعر. ويقرّ بأنه نبذ فكرة الانتحار للتو؛ وقد انتابه شيء من الفزع عندما وجد هذه الأفكار تخطر له. كان يناقش نفسه؛ لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وقد أخذ يستعيد أفكاره الآن. وكانت أكثر الأفكار التي كانت تزعجه هي أنه لم يكن بوسعه الإقرار من هي الذات التي بحث معها مسألة الانتحار هذه... وكان يجد نفسه دائماً وحيداً. وقد اكتشف منذ لحظة واحدة فقط أنه ليس وحيداً، رغم جميع الأقنعة التي كان يرتديها، وجميع التمويهات المعمارية، كان ثمة أحد يحيا معه، يعرفه جيداً، وهو يناقشه الآن لوضع حد لكل ذلك.

والجزء المدهش فيه أنه راح يحثه على القيام بذلك على الفور، أن لا يضيع وقتاً. ورغم أنه أقر بأن الفكرة جذابة، فقد كان يشعر بالرغبة الإنسانية بالاستمتاع بموته في مخيلته، على الأقل لمدة ساعة أو تقاربها. كان يبدو أنه بحاجة إلى الوقت، الأمر الذي كان غريباً، لأنه لم يفكر قط في حياته أنه يمكنه التخلّص من نفسه. كان ينبغي له أن ينبذ الفكرة بدلا من أن يناشد كمجرم مدان بضع لحظات أخرى من الرحمة. إلا أن هذا الفراغ، هذه الوحدة التي كان ينسحب إليها في الغالب، بدأت الآن تمارس ضغطاً عليه وانفجار الفراغ. كانت الفقاعة على وشك الانفجار. كان يعرف ذلك. أسرع في نزول درجات فندق أستور واخترق الحشد. وظن لوهلة أنه ربما ضاع وسط كل هذه الأجساد، لكن لا، أصبح الآن أكثر وضوحاً، أكثر وعياً بذاته، أكثر تصميماً وعزماً على إطاعة الصوت الداخلي الذي أخذ يوجهه. كان كعاشق في طريقه إلى موعد. كانت تسيطر عليه فكرة واحدة فقط ـ تدمير نفسه. بدت تحترق كالنار، لقد أنارت دربه.

عندما أخذ يغذ الخطى في شارع جانبي، مسرعاً للحاق بموعده، عرف أنه واقع تحت سيطرة ما، وما عليه إلا أن يتبع أنفه. لا توجد لديه مشاكل أو خلافات مع أحد. أظهر تعابير آلية حتى دون أن يتباطأ في خطواته. فمثلاً، مر بجانب صندوق قمامة ورمى رزمة من النقود كما لو كان يتخلص من قشرة موز. وفي زاوية راح يفرغ محتويات جيب معطفه في المجاري؛ وكذلك ساعته وسلسلته، خاتمه، ومطواته. وراح يتحسس جيوبه، وهو يمشي، ليتأكد أنه تخلص من كل الأملاك الشخصية. حتى أنه رمى منديله في البالوعة، بعد أن تمخط فيه للمرة الأخيرة. شعر برشاقة وخفة كريشة وأخذ يغذّ الخطى عبر الشوارع الكئيبة. في لحظة محددة ستعطى له الإشارة ويتخلص من نفسه. وبدلاً من جدول هادر من الأفكار، من المخاوف في آخر لحظة، الرغبات، الآمال، الندم، كالتي نتخيّلها عندما نواجه المحتوم، عرف فقط المفرد والفراغ الآخذ في التوسع. كان قلبه مثل سماء زرقاء واضحة لا يشوبها أي أثر لغيمة. ولعل المرء يظن أنه عبر حدود العالم الآخر للتو، لقد كان الآن، قبل موته الجسدي الحقيقي، في غيبوبة، ويجد نفسه على الجانب الآخر أنه مندهش لأن يجد نفسه يمشي بسرعة كبيرة. لعله عندها فقط يكون قادراً على جمع شتات أفكاره؛ عندها فقط يكون قادراً على أن يسأل نفسه لماذا فعل ذلك.

يتجاوزه رجل مطلقاً ساقيه للريح. خلفه شرطي مشهراً مسدسه. يبدأ يجري أيضاً. الآن ثلاثتهم يجرون. إنه لا يعرف لماذا، حتى أنه لا يعرف أن أحداً خلفه. إلا أنه عندما تثقب الرصاصة جمجمته من الخلف وينكب على وجهه تنبعث منه ومضة شديدة الوضوح تعمي البصر عبر كيانه كله.

ملقى على الرصيف ووجه منكب على الأرض، العشب ينبت في أذنيه، يهبط عثمانلي درجات فندق أستور، لكنه بدل أن ينضم ثانية إلى الحشد، ينسل عبر باب خلفي لأحد المنازل الصغيرة في قرية

يتحدث أهلها لغة أخرى. يجلس إلى مائدة المطبخ ويرشف قدحاً من الحليب. ويبدو وكأن ذلك كان البارحة، عندما أخبرته زوجته، التي كانت تجلس إلى المائدة أيضاً، أنها ستهجره. وقد أصابه الخبر بالذهول إلى حد أنه عجز عن التفوه بكلمة واحدة؛ وراح يراقبها تمضي دون أن يبدي أدنى اعتراض. كان يجلس هناك بهدوء يشرب الحليب وهي تخبره بهذه الصراحة المباشرة الوحشية، أنها لم تحبه في حياتها قط. وبضع كلمات أخرى وتذهب. وفي هذه الدقائق القليلة أصبح رجلاً مختلفاً تماماً. وبعد أن شفي من الصدمة، شعر بابتهاج رائع. وأحس كما لو أنها قالت له: «أنت حرّ التصرف الآن!» شعر بحرية غامضة جعلته يتساءل إن كانت حياته حتى تلك اللحظة لم تكن حلماً. أن يتصرف! كان الأمر بسيطاً للغاية. خرج إلى الحديقة الخلفية وهو يفكر آنذاك بنفس العفوية، مشى إلى بيت الكلب، صفّر للحيوان، وعندما أخرج رأسه قطعه. هذا ما كانت تعنيه بأن يتصرف! الأمر في غاية البساطة، مما جعله يضحك. وعرف الآن أنه أصبح بإمكانه أن يفعل أي شيء يريده. ودخل ودعا الخادمة. أراد أن ينظر إليها بهاتين العينين الجديدتين. لم يكن ثمة شيء أكثر من ذلك في عقله. وبعد ساعة، وبعد أن اغتصبها، ذهب مباشرة إلى المصرف ومن هناك توجه إلى محطة القطار حيث استقل أول قطار وصل إلى المحطة.

ومنذ ذلك الحين، اتخذت حياته نمطاً متلوّناً. وجرائم القتل القليلة التي ارتكبها كان قد نفّذها بشرود تقريباً، بدون حقد أو كراهية أو جشع. وكان يمارس الجنس تقريباً بالطريقة نفسها. لم يكن يعرف الخوف أو الخجل أو الحذر.

هكذا مرت عشر سنوات خلال بضع دقائق. لقد تخلص من السلاسل التي تكبّل الرجل العادي، وراح يجول في أنحاء العالم بمحض إرادته، ذاق الحرية والحصانة، ثم وفي لحظة من الاسترخاء المطلق، استسلم للخيال، وخلص إلى المنطق عديم

الرحمة بأن الموت هو أحد الكماليات التي يحرم نفسه منها. وهكذا فقد هبط درجات فندق أستور وبعد بضع دقائق خرّ صريعاً، وأدرك أنه لم يكن مخطئاً إذ فهمها عندما قالت له إنها لم تحبه قط. كانت المرة الأولى التي فكّر فيها ثانية، ورغم أنها ستكون المرة الأخيرة التي سيفكر فيها وأنه لن يفكر فيها بعد أن سمعها للمرة الأولى منذ عشر سنوات. لم يكن لكلماتها أي معنى آنذاك وليس لها معنى الآن. كان مايزال يشرب حليبه. كان شخصاً ميتاً للتو. بدا ضعيفاً، ولهذا شعر بأنه أصبح حرّاً. إلا أنه لم يكن قط حراً في الحقيقة، كما تخيّل نفسه. كانت تلك مجرد هلوسة. بداية، لم يقطع رأس الكلب أبداً، وإلا فلن ينبح الآن بالبهجة. لو تمكن فقط من الوقوف على قدميه ونظر بعينيه ليتأكد فيما إذا كان كل شيء حقيقي أم هلوسة. إلا أنه لم يعد يملك قوة التحرك. ومنذ اللحظة التي نطقت فيها تلك الكلمات، عرف أنه لن يكون قادراً على التحرك من مكانه. لماذا اختارت تلك اللحظة بالذات عندما كان يشرب الحليب، لماذا انتظرت طويلاً لكي تخبره، لم يتمكن من فهم لماذا ولن يعرف. حتى أنه لن يحاول أن يفهم. لقد سمعها بوضوح شديد، تماماً كما لو أنها وضعت شفتيها على أذنه وصاحت الكلمات فيها. لقد انتقلت بهذه السرعة إلى أنحاء جسده كما لو كانت رصاصة تتفجر في دماغه. ثم ـ هل يمكن أن تصبح بضع لحظات لحظة واحدة فيما بعد أو دهراً؟ لقد خرج من سجن نفسه القديم كما تخرج الفراشة من شرنقتها. ثم الكلب، ثم الخادمة، ثم هذا، ثم ذاك ـ حوادث لا حصر لها تتكرر كما لو كانت وفقاً لخطة مرسومة. كل شيء يسير على نمط واحد، حتى جرائم القتل العادية الثلاث أو الأربع.

كما في الأساطير التي تقول إن من يتخلى عن رؤياه يقع في متاهة لا منجاة منها سوى بالموت، إذ يتضح من خلال الرمز والحكاية أن تلافيف الدماغ، تلافيف المتاهة، تلافيف الثعابين التي تلتف حول العمود الفقري، هي عملية الخنق نفسها، عملية وصْدّ الأبواب وراء المرء، وضع جدار في اللحم، التحرك بشكل صارم نحو

التحجر، وهكذا كان بالنسبة لعثمانلي، التركي الغامض، الذي مسه الخيال وهو على درجات فندق أستور في أقصى لحظات حريته خداعاً. وعندما كان ينظر من فوق رؤوس الحشد تذكر بارتجاف صورة زوجته المحبوبة، تَحوُّل رأسها الشبيه برأس كلب إلى حجر. لقد انتهت الرغبة المثيرة للشفقة على حزنه في مواجهة الزيف. فقد حال الجنين البشع الذي لم يمكنه من تحقيق الذات دون خروجه.

بدا بوجهه المنكب على الرصيف أنه كان يقبّل السمات الحجرية للمرأة التي فقدها. لقد جعله هروبه وجهاً لوجه أمام صورة مشرقة للرعب المنعكس على درع حماية النفس. وبموته ذبح العالم. لقد توصل بموته إلى هويته الحقيقية.

كانت كليو على وشك أن تنهي رقصتها. وقد تزامنت حركتها المتشنجة الأخيرة مع التفكير في الماضي الرائع بموت عثمانلي...

22

الشيء المدهش في هذه الهلوسة أنه كان يوجد فيها أساس من الواقع. فعندما انكب عثمانلي على وجهه على الرصيف كان يمثّل سلفاً مشهداً من مشاهد حياتي. ولنعد بضع سنوات إلى الوراء ـ إلى قدر الرعب.

للملعونين دائماً منضدة يجلسون إليها، يتكئون عليها بمرافقهم ويسندون إليها أدمغتهم المحشوة بالرصاص. الملعونون فاقدو البصر دائماً، يحدقون في العالم بأجرام فارغة. الملعونون متحجرون دائماً، وفي وسط تحجرهم فراغ لا حصر له. الملعونون يقدمون دائماً العذر نفسه ـ فقدان المحبوب.

كان الوقت ليلاً وأنا جالس في القبو. إنه بيتنا. أنتظرها ليلة بعد ليلة، كسجين مقيّد بأرض زنزانته. هناك امرأة معها تدعوها صديقتها. لقد تآمرتا لخيانتي وإلحاق الهزيمة بي. تركتاني دون طعام، دون تدفئة، دون ضوء. طلبتا مني أن أسلّي نفسي إلى حين عودتهما.

خلال أشهر من الخزي والمذلة بدأت أعانق وحدتي. فلم أعد أطلب مساعدة من العالم الخارجي. ولم أعد أرد على قرع الجرس. وأنا أعيش وحدي، في اضطراب مخاوفي الخاصة. محصور في أوهامي الخاصة، أنتظر الفيضان كي يرتفع ويغرقني.

عندما تعودان لتعذيبي أتصرّف كالحيوان الذي أصبحته.

أنقضّ على الطعام بجوع مفترس. آكل بأصابعي. ما أن ألتهم الطعام، أكشّر فيهما بلا رحمة، كما لو كنت قيصر الغيور المجنون. أتظاهر بأني غاضب: أقذفهما بإهانات حقيرة، أهدّدهما بقبضات يدي، أهذر وأبصق وأهتاج.

أفعل ذلك ليلة بعد ليلة، لكي أحفّز مشاعري التي كادت تنقرض. فقدت القوة بالإحساس. ولأخفي هذا العيب أستثير كل عاطفة. وفي بعض الليالي، عندما كنت أسلّيهن كنت أزأر كأسد مجروح. وفي بعض الأحيان، كنت ألقيهما أرضاً بيدي المخملية، بل حتى بلت عليهما ذات مرة عندما استلقتا على الأرض مغشياً عليهما من الضحك الهستيري.

تقولان إني أملك مقومات المهرج. تقولان إنهما ستحضران بعض الأصدقاء ذات ليلة وتجعلاني أؤدي لهم أدواراً هزلية. أصرّ على أسناني وأحرّك رأسي إلى الوراء والأمام مبدياً موافقتي. أتعلّم كل خدع وألعاب حديقة الحيوانات.

تصرفي المثير هو أن أتظاهر بالغيرة. الغيرة على أشياء صغيرة خاصة. لن أسأل ما حييت إن كانت قد نامت مع هذا أو ذاك، بل لا أريد أن أعرف سوى إن كان قد قبّل يدها. يمكنني أن أغضب بسبب تعبير ضئيل كهذا. يمكنني أن أمسك السكين وأهدّد بأن أحزّ رقبتها. وفي بعض الأحيان أذهب إلى حد أني أركل صديقتها التي لا تنفصل عنها، ركلة خفيفة على الردفين. أحضر يوداً ولزقة جروح وأقبّل مؤخرة صديقتها التي لا تنفصل عنها.

لنقل أنهما وصلتا إلى البيت ذات مساء ووجدتا النار مطفأة. لنقل إني في هذا المساء في مزاج رائق، بعد أن قهرت آلام الجوع بإرادة حديدية، بعد أن تحديت انقضاض الجنون عليّ وحدي في الظلام، بعد أن كدت أقنع نفسي إنه قد لا ينجم عن الأنانية سوى الحزن والبؤس. لنقل كذلك، إني دخلت الزنزانة في السجن، تبدوان عديمتي الحس إزاء النصر الذي حققته. لا تحسان بشيء أكثر من

برد الغرفة القارس. لا يسألن إن كنت أشعر بالبرد، إنهما تقولان ببساطة ـ الجو بارد هنا.

برد يا مليكتاي؟ ثم تتوهج نار صاخبة. أمسكت الكرسي وحطمته على الحائط الحجري. قفزت فوقه وقطعته إلى قطع صغيرة. أوقدت ناراً خفيفة في الموقد بالأوراق والشظايا. أشعلت الكرسي قطعة قطعة.

سمة ساحر كما تعتقدان. كل شيء على ما يرام حتى الآن. قليل من الطعام الآن، زجاجة من البيرة الباردة. إذاً أمضيت مساء جميلاً هذا المساء؟ الجو بارد في الخارج، أليس كذلك؟ لقد جمعت قليلاً من النقود؟ حسناً، سأودعها غداً في مصرف دايم للتوفير! أنتِ ياهيجوروبورو، أركضي واشتري زجاجة من شراب الروم! فأنا سأغادر غداً... سأذهب في رحلة.

تخفت النار. رفعت الكرسي وهشمته على الحائط. تصاعد اللهب. عادت هيجوروبورو وبدت على وجهها تكشيرة ومدت يدها بالزجاجة. استغرقت فتحها دقيقة، وأخذت جرعة كبيرة. اللهب يتقافز في حوصلتي. انهضي! صرخت. أعطني الكرسي الآخر! احتجاجات، صراخ، صياح. هذا يدفع الأمور إلى حدها الأقصى. لكن الجو بارد في الخارج، أنتِ تقولين؟ إذن تريد مزيداً من الحرارة. ابتعدي! أرمي الصحون على الأرض دفعة واحدة من فوق الطاولة. تحاولان إخراجي. أخرج إلى صندوق القمامة، وأجد الفأس. أبدأ تقطيع الطاولة قطعاً صغيرة جداً، ثم الخزانة، وألقي بكل شيء على الأرض. أحذّرهما بأني سأحطم كل شيء، حتى الآنية الفخارية. سندفئ أنفسنا كما لم يسبق أن دفّأنا أنفسنا من قبل.

نمضي الليلة على الأرض، ثلاثتنا مستلقون على الأرض كفِيلَةٍ تحترق. يمر التهكم والاستهزاء ذهاباً وإياباً.

«إنه لن يذهب... إنه يمثّل فقط».

صوت يهمس في أذني: «هل ستذهب حقاً؟».

«نعم، أعدك بأني سأذهب».

«لكني لا أريدك أن تذهب».

«لا يهمني ماذا تريدين».

«لكني أحبك».

«لا أصدق ذلك».

«لكن يجب أن تصدقني».

«أنا لا أصدق أحداً، لا أصدق شيئاً».

«إنك مريض. إنك لا تعرف ماذا تفعل. لن أتركك تذهب».

«كيف ستوقفيني؟».

«أرجوك، أرجوك يا فال، لا تتحدّث بهذه الطريقة... إنك تثير قلقي».

تسود برهة من الصمت.

ثم همست بشكل خجول: «كيف ستعيش بدوني؟».

«لا أعرف، لا يهمني».

«لكنك بحاجة إليّ. إنك لا تعرف كيف ترعى نفسك».

«أنا لا أحتاج أحداً».

«إني خائفة يا فال. أخشى أن يحدث لك شيء».

في الصباح تسللت خارجاً وهما ما تزالان تغطان في نوم هادئ. وبعد أن سرقت بضعة بنسات من بائع جرائد أعمى وصلت إلى شاطئ جيرسي، ثم انطلقت إلى الطريق العام. شعرت بالخفة والحرية على نحو رائع. في فيلادلفيا رحت أتمشى كسائح. شعرت بالجوع. طلبت عشرة سنتات من عابر سبيل ومنحني إياها. حاولت أن أطلب عشرة سنتات أخرى وأخرى ـ للمتعة والدعابة فقط. دخلت

صالة، وتناولت غداء مجاناً مع كأس من البيرة، وعدت إلى الطريق العام مرة أخرى.

حصلت على توصيلة إلى بيتسبيرغ. لم يكن السائق يحب التكلم. وكذلك أنا. كنت أشعر كما لو أنه سائقي الخاص. بعد فترة تساءلت إلى أين أنا ذاهب (هل أريد عملاً؟ لا. هل أريد أن أبدأ حياة جديدة؟ لا).

هل أريد عطلة؟ لا أريد شيئاً.

إذن ماذا أريد؟ أقول لنفسي. الجواب دائماً ذاته: لاشيء.

حسناً، هذا تماماً ما لديك: لاشيء.

خَفتَ الحوار. تحول اهتمامي إلى الولاعة الموصولة بلوحة عدّاد السيارة. كلمة «ثبّت»، تخطر ببالي. عبثت بها لفترة طويلة، ثم طردتها من بالي تماماً، كما يطرد المرء طفلاً يريد أن يلعب بالكرة معك طوال اليوم.

الطرق والشوارع الفرعية تتفرع في كل اتجاه. كيف ستكون الأرض بدون طرق؟ محيط لا يمكن تعقبه. غابة. لا بد أن أول طريق شُق عبر القفار كان إنجازاً عظيماً. الاتجاه، التوجيه، المواصلات. ثم طريقان، ثم ثلاثة طرق... ثم ملايين الطرق. شبكة من نسيج عنكبوت وفي وسطها الإنسان، الخالق، علق مثل ذبابة.

كنا نسير بسرعة سبعين ميلاً في الساعة، أو لعله خيّل إلي ذلك. لا نتبادل ولا كلمة. لعله كان يخشى أن يسمعني أقول إني جائع أو إنه ليس لدي مكان أنام فيه. لعله كان يفكر أين سيلقي بي إذا بدأت أتصرّف على نحو مريب. وكان بين الحين والآخر يشعل سيجارة من الولاعة الكهربائية. الأداة تسحرني. إنها مثل كرسي كهربائي صغير.

يقول السائق بغتة: «سأتوقف هنا. أين أنت ذاهب؟».

«يمكنك أن تنزلني هنا... شكراً».

بدأ نثيث ناعم من المطر يهطل. بدأ الظلام يخيم. الطرق تؤدي إلى كل مكان. يجب أن أقرّر إلى أين أريد أن اذهب. يجب أن يكون لديّ هدف.

وقفت وأنا في غيبوبة عميقة بحيث تركت مائة سيارة تمرّ دون أن تعيرني اهتماماً. تبين لي أنه ليس لدي حتى منديل إضافي. كنت على وشك أن أمسح نظارتي، لكن عندئذ، ما الفائدة؟ لم يكن يتعين عليّ أن أرى جيداً أو أشعر جيداً أو أفكر جيداً. لن أذهب إلى أي مكان. عندما أتعب يمكنني أن أتهاوى وأنام. الحيوانات تنام تحت المطر، لماذا لا يفعل ذلك الإنسان؟ لو كان بوسعي أن أصبح حيواناً سأصل إلى مكان ما.

توقفت سيارة شحن بجانبي؛ راح السائق يبحث عن علبة ثقاب.

سألني: «هل يمكنني أن أوصلك؟».

قفزت إلى الشاحنة دون أن أسأله أين وجهته. اشتّد هطول المطر، وبغتة اكفهر الجو. لم تكن لديّ فكرة عن وجهتنا ولم أرغب في أن اعرف. غمرتني السعادة لأني أصبحت في منأى من المطر وجلست بجانب جسد دافئ.

كان هذا الشخص أكثر إيناساً. كان يتحدث كثيراً عن الثقاب، كم هي مهمة عندما تكون بحاجة إليها، كم من السهل أن تفقدها، وما إلى هنالك. كان بإمكانه أن يتحدث عن أي شيء. إن الحديث بهذا الحماس والجدية عن لاشيء في الوقت الذي توجد فيه حقاً مشاكل أعظم يجب حلّها، يبدو أمراً غريباً بالنسبة لي. وفيما عدا أننا نتحدث عن أشياء مادية تافهة، قد يكون هذا هو نوع الحديث الذي يدور في أحد الصالونات الفرنسية. الطرق تربط كل شيء على نحو رائع.

عندما وصلنا إلى أطراف بلدة كبيرة سألته عن مكان وجودنا.

قال: «ماذا! إنها فيلادلفيا، أين كنت تظن نفسك؟».

قلت: «لا أعرف، ليس لدي فكرة... ظننت أنك ذاهب إلى نيويورك؟».

أصدر صوتاً كالشخير وقال: «يبدو أنك لا تهتم كثيراً إن كنا نسير في هذا الطريق أو ذاك. إنك تتصرف وكأنك تسير في الظلام».

«لقد قلتها. هذا تماماً ما أفعله... أسير في الظلام».

استرخيت في المقعد ورحت أستمع إليه وهو يتحدث عن أشخاص يسيرون في الظلام يبحثون عن مكان يحلّون به. وكان يتحدث عنهم كبستاني يتحدث عن بعض أنواع الشجيرات. كان «رابط - مسافات» كما قال كورزيبيسكي، شخص يركب الطرق العامة والطرق الجانبية وحيداً. وكانت السهوب الممتدة على جانبي الطرق، والمخلوقات التي تقطن في ذلك المكان الرحب وتتسكع على جانبيه تطلب توصيلة في السيارات.

وكلما تحدث أكثر كان يزداد تفكيري بحزن شديد عن معنى الملاذ. ومع ذلك، لم يبدو القبو شيئاً سيئاً جداً. ففي العالم يوجد أناس فقراء، والفرق الوحيد بيني وبينهم هو أنهم يخرجون ويحصلون على ما يحتاجونه؛ كانوا يعرقون للحصول عليها، يخدع أحدهم الآخر، يقاتل أحدهم الآخر بضراوة. أما أنا فلم تكن لديّ أي من هذه المشاكل. بل كانت مشكلتي الوحيدة تكمن في الطريقة التي أعيش فيها مع نفسي يوماً بعد يوم.

كنت أفكر كم سيكون الأمر سخيفاً ومثيراً للشفقة إذا انسللت عائداً إلى القبو وعثرت على ركن صغير يمكنني فيه أن أتكوّر وألتحف السقف. يمكنني أن أزحف ككلب وذيله بين ساقيه. لن أضايقهما بمشاهد الغيرة. سأكون ممتناً لأي فتات قد تقدمانه لي. فإذا أرادت أن تأتي بعشاقها وتمارس الجنس معهم في حضوري فلن أمانع. فالمرء لا يعضّ اليد التي تطعمه. الآن وبعد أن رأيت العالم على حقيقته لن أتذمر ثانية. إذ إن أي شيء سيكون أفضل من أن أظل واقفاً تحت وابل المطر ولا أعرف إلى أين أريد أن أذهب.

ومع ذلك، ما زال عندي عقل. يمكنني أن أستلقي في الظلام وأفكّر، أفكّر بقدر ما أريد. الناس في الخارج يجرون ذهاباً وإياباً، يحركون الأشياء، يشترون، يبيعون، يودعون نقوداً في المصرف ويسحبونها ثانية. إن ذلك أمر مروّع. فأنا لا أريد أن أفعل ذلك ماحييت. بل أفضّل كثيراً أن أتظاهر بأنّي حيوان، كلب، وترمى لي عظمة بين الحين والآخر. وإذا تصرّفت جيداً فإنهم سيداعبونني ويمسدونني. ولعلي أجد سيداً جيداً يخرجني لأتنشق الهواء والزمام في رقبتي ويتركني أبول في كل مكان. ولعلي ألتقي كلباً آخر، كلباً من الجنس الآخر، وأندفع نحوه بسرعة من حين لآخر. أه، أصبحت أعرف كيف أكون الآن هادئاً ومطيعاً. لقد تعلّمت درسي الصغير. أتكوّر في زاوية قرب الموقد، هادئاً ولطيفا كما تشاءان. ستكونان في غاية الخساسة إن هما ركلتاني إلى الخارج. وإذا أظهرت كذلك أنّي لا أحتاج شيئاً، إذا لم أطلب أي معروف، إذا تركتهما تتابعان حياتهما كما لو كانتا وحدهما، فما الضرر في منحي مكاناً صغيراً في الركن؟

كان عليّ أن أتسلل إلى البيت وهما خارج البيت، لكي لا توصدا الباب في وجهي.

عند هذه النقطة من أحلام يقظتي تملكتني أكثر الأفكار المثيرة للقلق. ماذا لو هربتا؟ ماذا لو أصبح البيت مهجوراً؟

توقّفنا في مكان بالقرب من بلدة إليزابيث. تعطل المحرك. بدا لي أنه من الأفضل أن أترك هذه الشاحنة وأستقل سيارة أخرى بدلاً من أن أنتظر طوال الليل. مشيت إلى أقرب محطة للوقود أنتظر سيارة تقلني إلى نيويورك. انتظرت حوالى ساعة، ثم نفد صبري فرحت أغذّ خطاي في الطريق المظلم. كان المطر قد بدأ يهمي قليلاً؛ وكان قد بدأ رذاذ خفيف يهمي ناعماً مسترسلاً. وكنت بين الحين والآخر، أفكر كم هو جميل أن أزحف إلى بيت كلب، ورحت أهرول. كانت إليزابيث تبعد حوالى خمسة عشر ميلاً.

وعندما غمرتني الغبطة أخذت أغني. وبصوت أعلى وأعلى غنّيت، كما لو أني كنت أبلغهما بقدومي. بالطبع لن أدخل البيت وأنا أغني لأن ذلك سيفزعهما حتى الموت.

الغناء جعلني جائعاً. اشتريت لوحاً من شوكولا هيرشي باللوز من كشك صغير على قارعة الطريق. كان لذيذاً. قلت لنفسي، أنظر فأنت لست في وضع سيء جداً. فإنك لا تأكل عظاماً أو قمامة حتى الآن. ربما حصلت على بعض الأطباق الشهية قبل أن تموت. بماذا تفكر - لحم ضأن بالصلصة؟ يجب ألا تفكّر بالأشياء اللذيذة... لا تفكّر إلا بالعظام والنفايات. من الآن وصاعداً ستعيش حياة كلب.

كنت جالساً على صخرة كبيرة في أحد الأماكن من هذا الجانب من بلدة إليزابيث عندما رأيت سيارة شحن كبيرة تقترب. كان السائق نفسه الذي كنت قد تركته. قفزت إلى الشاحنة. أخذ يتحدث عن المحركات، الأمور التي تجعلها تعطب، ماذا يجعلها تسير، وما إلى هنالك.

قال فجأة وبدون مناسبة: «سنصل هناك قريباً».

سألته: «أين؟».

«نيويورك، بالطبع... أين تظن؟».

«أوه، نيويورك، آه نعم. نسيت».

«ماذا ستعمل في نيويورك بحق الجحيم، أرجو أن لا يكون سؤالي شخصياً جداً؟».

«سأنضم إلى عائلتي».

«هل كنت غائباً منذ فترة طويلة؟».

قلت: «حوالى عشر سنوات»، وأنا أمطّ الكلمات مطّاً.

«عشر سنوات! إنها فترة طويلة. ماذا كنت تعمل، تتسكع فقط؟».

«نعم أتسكع فقط».

«أظن أنهم سيكونون سعداء برؤيتك... أهلك».

«أظن أنهم سيكونون كذلك».

قال وهو يرمقني بنظرة ساخرة: «لا يبدو أنك واثق جداً من ذلك».

«هذا صحيح. حسناً، كيف عرفت؟».

أجاب: «أظن ذلك، فأنا ألتقي بالكثير من الأشخاص مثلك. دائماً يعودون إلى قنّ الدجاج بين الحين والآخر».

قال قنّ دجاج، وأنا قلت بيت كلب. لقد أحببت بيت الكلب أكثر. القنّ للديكة والحمام والطيور التي ترقد على بيض. أما أنا فلن أرقد على بيض. عظام ونفايات، عظام ونفايات، عظام ونفايات. كرّرتها مراراً وتكراراً، لأعطي نفسي القوة الأخلاقية لأعود زاحفاً ككلب أُشبع ضرباً.

اقترضت منه عشرة سنتات حين تركته وغصت في محطة المترو. شعرت بالتعب، والجوع والإنهاك. وبدا لي المسافرون مرضى. كما لو أن أحداً أطلقهم من السجن أو من دار خيرية. كنت خارج العالم، بعيداً بعيداً. منذ عشر سنوات أجول هنا وهناك والآن أعود إلى البيت. الحمد لله على السلامة، يا ابن المسرف! الحمد لله على السلامة! يا إلهي، ما هي القصص التي سمعتها، ما هي المدن التي رأيتها! يا لها من مغامرات رائعة! عشر سنوات من الحياة، فقط من الصباح وحتى منتصف الليل. هل مازال القوم هناك؟

مشيت على أطراف أصابعي في ممر البيت وبحثت عن بصيص ضوء. لم يكن يوجد أي دليل عن وجود حياة. حسناً، لم تعودا إلى البيت باكراً في حياتهما. أصعد إلى الطابق العلوي محني الظهر. لعلهما كانتا في حديقة البيت الخلفية. في بعض الأحيان كانتا تجلسان في غرفة نوم هيجوروبورو الصغيرة قبالة الصالة حيث كان صندوق التواليت يقطر ليل نهار.

فتحت الباب بهدوء، مشيت إلى أعلى الدرجات، وبهدوء، وبهدوء شديد، رحت أمشي منحنياً، خطوة خطوة. كان هناك باب عند أسفل الدرج. كانت تغلفني ظلمة تامة.

بالقرب من قاع الدرج سمعت أصواتا مكتومة. إنهما في البيت! غمرتني سعادة بالغة. أردت أن أدخل وأنا أهزّ ذيلي القصير وأرتمي عند أقدامهما. لكن ليس ذلك ما خططت له.

بعد أن وقفت ألصقت أذني بلوح الزجاج بضع دقائق، وضعت يدي على قبضة الباب، وببطء شديد وبدون ضجيج أدرته. تناهى إليّ الآن صوتاهما بشكل متميّز أكثر وفتحت الباب قليلاً. هيجوروبورو الضخمة، كانت تتحدث. بدا صوتها هستيرياً عاطفياً، كما لو كانت تحتسي مشروباً. أما الصوت الآخر فكان ذا طبقة منخفضة، ناعماً ويداعب الأذن أكثر من أي وقت مضى. بدا لي أنها تتوسل إلى الضخمة. كانت هناك توقفات غريبة، أيضاً، كما لو أنهما كانتا تتعانقان. ومن حين لآخر، كان بوسعي أن أقسم أن الضخمة كانت تصدر همهمة ونخيراً، كما لو كانت الواحدة منهما تحك جلدها بالأخرى. ثم، وبغتة شهقت من اللذة كأنها تعوي. وفجأة صرخت.

«إذن ما تزالين تحبينه؟ كنت تكذبين عليّ!».

«لا، لا! أقسم أني لا أحبه. يجب أن تصدقيني، أرجوك. لم أحبه في حياتي».

«إنك تكذبين!».

«أقسم لك... أقسم أني لم أحبه قط في حياتي. كان مجرد طفل بالنسبة لي».

وأعقب ذلك عاصفة من الضحك الصارخ. ثم شيء من الاضطراب، كما لو كانتا تتشاجران. ثم ساد صمت مطبق، كما لو أن شفتي إحداهما أطبقت على شفتي الأخرى. ثم بدا كما لو أن الواحدة منهما تنزع ثياب الأخرى، وتلعقان بعضهما كما تفعل

العجول في المرعى. صدر صرير عن السرير. إفساد العش، هذا كل ما في الأمر. لقد تخلّصتا مني كما لو كنت مصاباً بالجذام والآن تحاولان القيام بدور الزوج والزوجة. كان من حسن الحظ أني لم أكن مستلقياً في الركن أراقبهما ورأسي مدفون بين راحتي يديّ. كنت سأنبح بغضب، ربما كنت سأعضّهما. وعندها كانتا ستركلاني مثل وغد قذر.

لم أعد أريد أن أسمع المزيد. أغلقت الباب بلطف وجلست على الدرجات في الظلام الدامس. ذهب الإعياء والجوع. أصبحت يقظاً على نحو غير عادي. كان بوسعي أن أذهب إلى سان فرانسيسكو سيراً على الأقدام في ثلاث ساعات.

الآن يجب عليّ أن اذهب إلى مكان ما! يجب أن أحدد موقفي وإلا فقدت عقلي. أعرف أني لست مجرد طفل. لا أعرف إن كنت أريد أن أكون رجلاً ـ أشعر بالكدمات تملؤني وأني مشبع ضرباً ـ لكني بالتأكيد لست طفلاً!

ثم حدثت لي مهزلة فيزيولوجية غريبة. إذ بدأت أحيض. لقد حضت من كل فتحة في جسمي.

عندما يحيض الرجل فإن حيضه ينتهي بعد بضع دقائق. ولا يخلّف وراءه أي فوضى.

زحفت إلى الطابق العلوي على يدي وركبتي وغادرت البيت بصمت كما دخلته. كان المطر قد توقف، والنجوم تتلألأ في السماء في كامل أبهتها. يهب نسيم عليل. الكنيسة اللوثرية قبالة الشارع، التي كانت تبدو في ضوء النهار بلون غائط الطفل الرضيع، وقد أصبح الآن بلون الطين الأحمر الممزوج بإسفلت أسود. ما زلت غير واثق في رأيي عن المستقبل. في الركن وقفت بضع دقائق، أنظر إلى أعلى الشارع وأسفله كما لو أني أراه للمرة الأولى.

عندما تكون قد عانيت كثيراً في مكان ما يتولد لديك الانطباع

بأن ذلك ينطبع في ذاكرة الشارع. لكن إذا لاحظت، فإنه يبدو أن الشوارع خاصة لا تتأثر بآلام الفرد. فإذا خرجت من بيتك ليلاً، بعد أن تكون قد فقدت صديقاً عزيزاً، فإن الشارع يبدو حقاً رصيناً جداً. أما إذا أصبح خارج البيت مثل داخله فسيكون الأمر لا يطاق. إن الشوارع أماكن تتنفس...

تابعت سيري، وحاولت أن أكون محدداً دون أن أتوصل إلى فكرة ثابتة. اجتزت صفائح قمامة مملوءة بالعظام والنفايات. وضع بعضهم أحذية قديمة، صنادل مهترئة، قبعات، حمّالات صدر، ومواد بالية أخرى أمام منازلهم. ليس ثمة شك بأني واصلت تسكعي طوال الليل، وأدركت أنه بوسعي أن أعيش جيداً على الفتات المرمي.

لم أعد أشعر بالرغبة في الحياة في بيت الكلب، هذا مما لا شك فيه. لم أعد أشعر أني مثل كلب... أصبحت أشعر أني أشبه قطة. فالقطة مستقلة، فوضوية، تتحرك بحرية. إنها هي التي تحكم القنّ في الليل.

أحسست بالجوع مرة أخرى. سرت باتجاه بورو هول التي كانت تتلألأ بالأضواء الساطعة حيث تشع المطاعم والمقاصف. رحت أنظر عبر النوافذ الكبيرة لأرى إن كان بوسعي أن أجد وجهاً أعرفه. أخذت أنتقل من واجهة محل إلى آخر، أتفحص الأحذية، محل الخردوات، التبغ، والغلايين وما إلى هنالك. ثم وقفت قليلاً عند مدخل محطة المترو، متمنياً على نحو يائس أن يسقط من أحد خمسة بنسات دون أن يلاحظها. ألقيت نظرة على أكشاك الجرائد لعلي أرى أعمى يمكنني أن أسرق منه بضع بنسات.

بعد ذلك بفترة وجيزة، رحت أسير باتجاه حيّ كولومبيا هايتس الذي كان يبدو كالجدار. اجتزت البيت ذا الحجر البني الرزين الذي أتذكّر أني دخلته منذ سنوات وسنوات مضت لأسلم صرّة من الملابس إلى أحد زبائن أبي. تذكرت وأنا أقف في الغرفة الخلفية الكبيرة ذات النوافذ الناتئة المطلة على النهر. كانت الشمس تسطع على نحو رائع

في ذلك اليوم، في وقت متأخر من بعد الظهر، والغرفة كانت مثل فيرمير. كان عليّ أن أساعد الرجل العجوز في ارتداء ملابسه. كان مصاباً بالفتق. كان يقف في وسط الغرفة بملابسه الداخلية وشكله يبدو بذيئاً تماماً.

وفي الأسفل كان ثمة شارع محفوف بالمخازن والمستودعات على جانبيه. وكانت مصاطب منازل الأغنياء تشبه الحدائق المعلقة، وتنتهي فجأة بعد حوالى عشرين أو ثلاثين قدماً فوق هذا الشارع الكئيب بنوافذه الميتة وأقواسه المتجهمة المؤدية إلى أرصفة الميناء. وفي نهاية الشارع وقفت أمام جدار لأبول. تقدم مني سكير ووقف بجانبي. بال على نفسه، ثم وفجأة انثنى على نفسه وبدأ يتقيّأ. وفيما كنت أبتعد عنه استطعت أن أسمع قيأه يتطاير ويبلل حذاءه.

جريت هابطاً الدرج المؤدي إلى أحواض السفن، ووجدت نفسي وجهاً لوجه أمام رجل يرتدي بدلة يلوّح بعصا كبيرة. يريد أن يعرف ماذا أريد، ولكن قبل أنا أتمكن من الإجابة أخذ يدفعني وراح يلوّح لي بعصاه.

عدت وصعدت الدرج وجلست على أحد المقاعد. كان أمامي فندق قديم تقيم فيه معلمة كانت لطيفة دائماً معي. وفي أخر مرة رأيتها فيها، كنت قد اصطحبتها إلى العشاء، وفيما كنت أودعها شحذت منها عشرة سنتات. أعطتها لي - عشرة سنتات فقط - ورمقتني بنظرة لن أنساها ما حييت. كانت تعلق آمالاً كبيرة عليّ عندما كنت تلميذها. أما تلك النظرة فكانت تقول لي بوضوح شديد إنها لا بد غيّرت رأيها بي. ولعلها كانت تقول: «لن يكون بوسعك أبداً أن تنسجم مع العالم!»

كانت النجوم متوهجة. تمددت على المقعد ورحت أحدّق فيها بإمعان. كل فشلي يعتمل الآن في داخلي، جنين حقيقي من عدم تحقق الطموحات. كل ما حدث لي الآن بدا بعيداً جداً. لا يمكنني أن أفعل

شيئاً سوى أن أفرح بانفصالي عن الواقع. بدأت أنتقل من نجمة إلى نجمة...

بعد ساعة أو حوالى الساعة، كان البرد ينخر عظامي، استويت واقفاً على قدمي ورحت أغذّ الخطى. استحوذت عليّ رغبة جامحة في أن أمرّ ثانية بالبيت الذي كنت قد أُخرجت منه. كنت متلهفاً لأعرف إن كانتا ما تزالان هناك.

كان الستار مفتوحاً جزئياً، وكان ضوء شمعة بالقرب من السرير يمنح الجزء الأمامي من الغرفة وهجاً هادئاً. تسللت بالقرب من النافدة ورحت أصيخ السمع. كانتا تغنيان أغنية روسية، كانت الضخمة مغرمة بها.

خرجت أسير على أطراف أصابعي واستدرت نحو زقاق الحب، الذي كان عند الناصية. وأغلب الظن أنه سمّي زقاق الحب أثناء الثورة؛ والآن كان مجرد زقاق خلفي تتخلله المرائب وورشات التصليح. وكانت صفائح القمامة متناثرة في أنحاء الزقاق مثل قطع شطرنج تم أسرها.

عدت ثانية إلى النهر، إلى ذلك الشارع الكئيب الحزين، الذي كان يجرى كإحليل منكمش تحت مصاطب بيوت الأغنياء المعلقة. ولم يكن أحد يسير في هذا الشارع في وقت متأخر من الليل ـ فقد كان خطراً جداً.

لا يوجد أحد في المنطقة. كانت الممرات التي تحفها المخازن تقدم صوراً رائعة عن الحياة النهرية ـ المراكب راسية بلا حياة، مراكب القطر تنزلق كأشباح دخانية، وكانت ناطحات السحاب تنعكس على صفحة مياه شاطئ نيويورك، دعامات حديدية ضخمة حولها كابلات ملفوفة، أكوام من الآجر والخشب، أكياس القهوة. وكان أكثر المشاهد جمالاً النظر إلى السماء نفسها. إذ كانت السماء صافية خالية من الغيوم تتناثر فيها حفنات من النجوم، وكانت تومض كالدروع التي كان يرتديها القساوسة على صدورهم.

وأخيراً رحت أمشي تحت أحد الأقواس. وفي منتصف الطريق أحسست بسباق جرذان كبير عند قدمي. توقفت وقشعريرة تسري في جسدي، وانزلق فأر آخر على قدمي. ثم تملكني الفزع فجريت عائداً إلى الشارع. على الجانب الآخر من الشارع، وبالقرب من الحائط، كان يقف رجل. وقفت حائراً لا أعرف في أي طريق أذهب، بأمل أن يتحرك هذا الشكل الصامت أولاً. لكنه بقى ثابتاً في مكانه، يراقبني كالصقر. وشعرت مرة أخرى بالذعر، لكن في هذه المرة بدأت أتحرك لأنصرف، خشيت إن أنا جريت جرى ورائي. رحت أمشي بهدوء دون أن أحدث ضجيجاً بقدر ما أمكنني، مشنفاً أذني لألتقط صوت خطواته. لم أجرؤ على أن أستدير إلى الوراء. رحت أمشي ببطء، متعمّداً، وكان كعب حذائي يكاد يلامس الأرض.

لم أكد أمشي سوى بضع ياردات حتى انتابني إحساس بأنه كان يتبعني، ليس على الجانب الآخر من الشارع، بل خلفي مباشرة، وربما على مسافة بضع ياردات. غذذت خطاي، حريصاً على عدم إصدار أي صوت. وبدا لي أنه كان يتحرك أسرع مني، وبأنه كان يقترب مني. كدت أشعر بأنفاسه فوق رقبتي. فجأة ألقيت نظرة سريعة حولي. كان هناك، في مجال قبضته. عرفت أني لن أتمكن من التملص منه الآن. انتابني شعور بأنه مسلح وأنه سيستخدم سلاحه، سكيناً أو مسدساً، في اللحظة التي حاولت فيها أن أثب عليه.

فطرياً استدرت نحوه وبسرعة البرق ألقيت بنفسي على ساقيه. وقع على ظهره واصطدم رأسه بالرصيف. عرفت أني لم أكن أملك القوة الكافية للعراك معه. ثانية كان عليّ أن أتحرّك بسرعة. كان يتدحرج، مذهولاً بعض الشيء، كما بدا لي، وأنا أقفز واقفاً على قدمي. كانت يده تمتد إلى جيبه. ركلته على بطنه.

أخذ يئن. وراح يتدحرج. أسلمت ساقي للريح بكل ما أوتيت من عزم. لكن الشارع كان شديد الانحدار، وقبل أن أصل إلى نهايته، تباطأت ورحت أمشي بتمهل. استدرت ثانية ورحت أنصت. كان

الظلام الحالك يخيم على المكان. كنت أريد أن أعرف إن كان قد انتصب على قدميه أم أنه مايزال يرقد هناك على الرصيف. لم أسمع صوتاً سوى وجيب قلبي، طرقات في صدغي. اتّكأت على الحائط لألتقط أنفاسي. شعرت بنفسي خائراً تماماً، يكاد يغمى عليّ. تساءلت إن كنت أتمتع بقوة كافية لأتسلق قمة التل.

وفيما كنت أهنئ نفسي على نجاتي رأيت ظلاً يزحف بجانب الحائط حيث كنت قد تركته. في هذه المرة جعل الخوف ساقيّ تتجمدان. لقد شللت تماماً. رأيته يقترب مني زاحفاً، ولم أستطع أن أحرّك عضلة. ويبدو أنه حدس بما كان يجري، فأسرع الخطى نحوي.

عندما أصبح على مسافة بضعة أقدام منّي استل مسدساً. عندها رفعت يدي غريزياً. اقترب مني وقفز فوقي. ثم أعاد مسدسه إلى مكانه في جيب وركه. لم ينبس بكلمة. أخذ يفتش جيوبي، وعندما لم يجد شيئاً، صفعني على فكي بظهر يده ثم بدأ يتراجع بضع خطوات باتجاه المجاري.

قال بصوت خفيض ومتوتر: «أنزل يديك».

أنزلتهما. كنت متسمراً من الخوف.

سحب المسدس ثانية ووجهه نحوي وقال بذلك الصوت المتوتر المنخفض: «سأمزق أحشاءك، أيها الكلب الوسخ!» وبهذا انهرت تماماً. وعندما سقطت أرضاً سمعت صوت رصاصة ترتطم بالحائط. لقد كانت النهاية. توقعت وابلاً من الرصاص. أذكر أني حاولت أن أتكور كالجنين، أحني مرفقي فوق عيني لأحميهما. ثم جاء صوت الوابل. وبعد ذلك سمعته يجري.

عرفت أني لابد قد مت، لكني لم أشعر بالألم.

بغتة أدركت أني لم أصب حتى بخدش. انتصبت واقفاً ورأيت رجلاً يجري خلف المعتدي الهارب ومسدس في يده. أطلق بضع طلقات وهو يجري لكن لا بد أنها لم تصب الهدف.

استويت واقفاً على قدمي وأنا أترنح، تحسست نفسي ثانية لأتأكد من أني لم أصب بأذى، وانتظرت حتى يعود الحارس.

توسلت قائلاً: «هل يمكنك أن تساعدني، فأنا لا أقوى على الحركة».

نظر إليّ بارتياب، والمسدس مايزال في يده.

«ماذا تفعل هنا في هذه الساعة من الليل بحق السماء؟».

غمغمت: «إني ضعيف كالقطة، سأخبرك فيما بعد. ساعدني لأذهب إلى البيت، هل ستفعل ذلك؟».

أخبرته أين أسكن، وبأني كاتب، وأني خرجت لآخذ نفساً من الهواء النقي. وأضفت: «لقد سلبني كل شيء، إني محظوظ أنك وصلت...».

وبعد المزيد من هذا الكلام لان موقفه نحوي وقال: «خذ هذا واستقل سيارة أجرة. أظن أنك على ما يرام»، ودس ورقة من فئة الدولار في يدي.

وجدت سيارة أجرة أمام أحد الفنادق وطلبت من السائق أن يقلني إلى زقاق الحب. وفي الطريق وقفت أشتري علبة سجائر.

كانت الأضواء مطفأة في هذا الوقت. صعدت منحنياً وانزلقت بخفة إلى الممر. لا يوجد صوت. وضعت أذني على باب الغرفة الأمامية ورحت أنصت. ثم عدت متسللاً إلى القبو الصغير في نهاية القاعة حيث كانت الضخمة تنام عادة. انتابني شعور بأن الغرفة قد هجرت. ببطء أدرت المقبض. عندما فتحت الباب بشكل كاف جثوت ورحت أزحف على يدي وركبتي، أتحسس طريقي بحذر نحو السرير. هناك رفعت يدي وتحسست السرير. كان فارغاً. خلعت ثيابي بسرعة وزحفت فوقه. كانت هناك بعض أعقاب السجائر عند أسفل السرير ـ أحسست كأنها خنافس ميتة.

وما هي إلا لحظات حتى غطت في النوم. حلمت أني مستلق

في الركن بالقرب من الموقد، أرتدي معطفا من الفراء، ولي كفان مبطنان بالشعر وأذنان طويلتان. وكانت توجد بين كفي عظمة ناتئة لعقت لعقاً تاماً، أحرسها بغيرة شديدة، حتى في نومي. ودخل رجل وركلني بين أضلاعي. تظاهرت بأني لم أشعر بها. ركلني ثانية، كما لو ليجعلني أصرخ ـ أو ربما ليجعلني أترك العظمة.

«انهض!» قال وهو يلوح بالسوط الذي أخفاه وراء ظهره.

كنت خائراً جداً بحيث لم أقو على الحراك. تطلعت إليه بعينين مغبشتين، متوسلاً إليه بصمت أن يتركني في سلام.

تمتم «هيا، اخرج من هنا!» ورفع طرف السوط كما لو كان يريد أن يضرب به.

تمايلت على الأربع وحاولت أن أهرب. بدا أن عمودي الفقري قد كسر. انهرت كحقيبة مثقوبة.

رفع الرجل السوط ببرود مرة أخرى، وبطرف السوط ضربني على جمجمتي. انطلق من فمي صوت كالعواء من شدة الألم. تملكه الغضب من هذا، وأمسك السوط من طرفه وراح يضربني على جسدي دون هدف. حاولت أن أنهض ولكن دون جدوى ـ كان عمودي الفقري مكسوراً. تلوّيت فوق الأرض كأخطبوط، وأنا أتلقى ضربة بعد ضربة. شدة الضربات جعلت أنفاسي تتلاشى. وبعد أن ذهب، ظناً منه أنه قضي عليّ، بدأت أعطي معاناتي متنفساً. في البداية بدأت أنشج؛ وبعد أن استعدت قوتي، بدأت أصرخ وأعوي. كان الدم يسيل مني كما لو كنت إسفنجة. كان الدم يتدفق من كل بقعة في جسدي، وتشكلت بقعة داكنة كبيرة من الدم، كما في أفلام الرسوم المتحركة. صوتي أصبح أكثر وهناً وضعفاً. ومن حين لآخر كان ينطلق من فمي صوت عواء.

عندما فتحت عيني كانت المرأتان تنحنيان فوقي تهزاني.

«توقف، بحق الله، توقف!»، سمعت الضخمة تقول.

وقالت الأخرى: «يا إلهي يا فال، ماذا حدث؟ استيقظ، استيقظ!».

استويت في جلستي ورحت أنظر إليهما بذهول. كنت عارياً وجسدي مليء بالدم والكدمات.

انطلق صوتهما الآن معا: «أين كنت؟ ماذا حدث؟».

«أظن أني كنت أحلم» حاولت أن أبتسم لكن الابتسامة بهتت وتحولت إلى تكشيرة مشوّهة. قلت لهما متوسلاً: «انظرا إلى ظهري، أشعر أنه مكسور».

مددتاني على السرير وجعلتاني أنكفئ على بطني، كما لو أنه كان مكتوباً عليّ عبارة «سريع العطب».

«جسدك مليء بالكدمات. لا بد أنك ضُربت». أغمضت عينيّ وحاولت أن أتذكر ما حدث. كل ما أمكنني تذكّره هو الحلم، ذلك الشخص العنيف يقف فوقي والسوط في يده يضربني به. ركلني في أضلاعي، كما لو كنت وغداً أجرب. («سأمزق أحشاءك أيها الكلب الوسخ») كان ظهري مكسوراً، تذكّرت على نحو خاص. كنت قد تمدّدت على الأرض كأخطبوط. وفي تلك الوضعية العاجزة أخذ يضربني بالسوط بغضب وحشي.

سمعت الضخمة تقول: «دعيه يَنَمْ».

قالت الأخرى: «سأطلب سيارة إسعاف».

بدأتا تتجادلان.

تمتمت: «أخرجا، اتركاني وحيداً».

ساد الهدوء ثانية. نمت. حلمت أني في أحد عروض للكلاب؛ كنت كلباً صينياً ذا شعر كثيف وحول عنقي شريط أزرق. في الكشك التالي كان هناك كلب صيني آخر؛ حول رقبته شريط وردي. كان سيتخذ قرار بالقرعة لمعرفة من منا سيفوز بالجائزة.

كانت المرأتان اللتان بدا أني كنت أعرفهما تتشاحنان حول

ميزات كل منا وعيوبه. أخيراً جاء الحكم ووضع يده على رقبتي. خطت المرأة الضخمة بضع خطوات، وبصقت باشمئزاز. أما المرأة التي كنت أنحني فوق حيوانها الأليف، فكانت تمسكني من أذني، وترفع رأسي وتقبّلني من خشمي. همست: «كنت أعرف أنك ستفوز بالجائزة من أجلي. يالك من مخلوق جميل، جميل»، وراحت تمسد فرائي. «انتظر لحظة، يا عزيزي، وسأجلب لك شيئاً لطيفاً. لحظة واحدة...».

عندما عادت كانت تحمل في يدها رزمة صغيرة؛ كانت ملفوفة بمنديل ورقي ومربوطة بشريط جميل. رفعتها أمامي ووقفت على قائمتي الخلفيتين ورحت أنبح «عوووو! عوووو، عوووو!».

قالت وهي تفك الرزمة: «رويدك يا عزيزي، ماما أحضرت لك هدية صغيرة جميلة».

«عوووو! عوووو، عوووو!».

«هاهي يا حبيبي، هاهي... رويدك الآن... رويدك».

كنت نافد الصبر بغضب متلهفاً للحصول على هديتي. لم أفهم لماذا كان ذلك يستغرق كل ذلك الوقت. لا بد أن يكون فيها شيء ثمين جداً، قلت لنفسي.

كانت الرزمة مفتوحة تقريباً الآن. كانت تمسك الهدية الصغيرة وراء ظهرها.

«فوق، فوق! هاهي...».

وقفت على قائمتي الخلفيتين ورحت أقفز وأرقص.

«استجدي الآن! توسل للحصول عليها».

«عوووو! عوووو، عوووو!» كنت مستعداً لأن أتخلص من جلدي فرحاً.

فجأة رفعتها أمام عيني. كانت عظم مفصل رائعة، مليئة

بالنخاع، مطوقة بخاتم زواج ذهبي. كنت متلهفاً بغضب للإمساك بها إلا أنها رفعتها عالياً فوق رأسها، تستثيرني دون شفقة. وأخيراً، ولدهشتي، مدت لسانها وأخذت تمص النخاع بفمها. ثم أدارتها وراحت تمصها من الطرف الآخر. وعندما أحدثت فيها فتحة نظيفة أمسكتني وبدأت تمسّدني. فعلت ذلك بمهارة كبيرة إلى حد أني بعد بضع ثوانٍ انتصبت كنبات اللفت. ثم أخذت العظمة (وخاتم الزواج ما زال حولها) وأدخلتها في قطعة اللفت. «الآن يا عزيزي الصغير، سآخذك إلى البيت وأضعك في السرير»، وبذلك رفعتني ومشت، الجميع يضحك ويصفق بيديه. وعندما وصلنا إلى الباب انزلقت العظمة وسقطت على الأرض. حاولت أن أجاهد لأتملص من بين ذراعيها، لكنها كانت تشدني بقوة إلى صدرها. بدأت انشج.

«اصمت، اصمت!» قالت وأخرجت لسانها وراحت تلعق وجهي. «أيها المخلوق الصغير الجميل العزيز!».

رحت أنبح: «عوووو! عوووو، عوووو!».

بالنخاع، مطوقة بخاتم زواج ذهبي. كنت متلهفاً بغضب للإمساك بها إلا أنها رفعتها عالياً فوق رأسها، تستثيرني دون شفقة. وأخيراً، ولدهشتي، مدت لسانها وأخذت تمص النخاع بفمها. ثم أدارتها وراحت تمصها من الطرف الآخر. وعندما أحدثت فيها فتحة نظيفة أمسكتني وبدأت تمسّدني. فعلت ذلك بمهارة كبيرة إلى حد أني بعد بضع ثوانٍ انتصبت كنبات اللفت. ثم أخذت العظمة (وخاتم الزواج ما زال حولها) وأدخلتها في قطعة اللفت. «الآن يا عزيزي الصغير، سآخذك إلى البيت وأضعك في السرير»، وبذلك رفعتني ومشت، الجميع يضحك ويصفق بيديه. وعندما وصلنا إلى الباب انزلقت العظمة وسقطت على الأرض. حاولت أن أجاهد لأتملص من بين ذراعيها، لكنها كانت تشدني بقوة إلى صدرها. بدأت انشج.

«اصمت، اصمت!» قالت وأخرجت لسانها وراحت تلعق وجهي. «أيها المخلوق الصغير الجميل العزيز!».

رحت أنبح: «عوووو! عوووو، عوووو!».

www.alexandra.ahlamontada.com منتدى مكتبة الاسكندرية

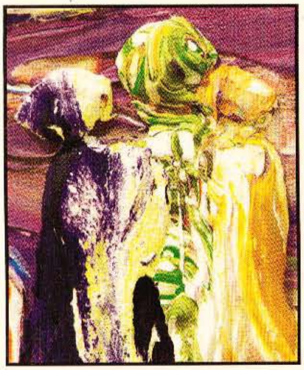

صبوات

هـنري فالنتايـن ميلـر (1891 ـ 1980)، روائـي ورسـام أمريكـي، نشأ في نيويـورك، وعاش شبابه في باريس، منها سنوات برفقة صديقته الروائية أنايس نـينّ بشـكل بوهيمي حتى انـدلاع الحرب العالميـة الثانيـة، حيـث تُعتـبر سنـوات إقامته في باريس الأخصب بالنسبة لإبداعاته الأدبية. عاد بعدهـا إلى الولايات المتحدة، وعاش ما تبقى من حياته فيها .

عُرف عنه كسر القوالب الأدبية التقليدية، وطوّر نوعاً جديداً من الرواية دمج فيه السيرة الذاتية والنقـد الاجتماعـي، الذي تنعكس فيـه الفلسفة والعلاقـات السرياليـة الحـرة مـع الروحانيـات التي تعبّر عن الحياة الحقيقية.

مـن أشهر أعماله: ثلاثية الصلب الوردي، مدار السرطان، مدار الجدي، ربيع أسود.

«لا شـك في أن هـنري ميلـر فنـان عظيـم، فنـان أمريكـي عظيم، وربما كان آخر فنان نستطيع أن نفتخـر به، ولا أشك في أنـه آخر أدبائنا العمالقة الذيـن صعدوا أثناء تلك الفترة المدهشة الممتدة بـين 1890 إلى الأربعينيات من القرن العشرين. إن (الصلـب الـوردي) والتـي تُكرر أجـزاء كبيرة من مؤلفاته الأولى، هي عمل فني أفضل بكثير. فمـا فعلـه هـنري ميلر هـو أنـه تنـاول السنوات الجوهريـة للحيـاة في أمريكا حـين كان يتعلم في البدايـة كيف يكتب، وعلاقة الحب الجوهرية في حياتـه، وفحصهمـا بدقة، ولكن مـن وجهة نظر لاحقـة أكثر نضجاً بكثير. فكانت النتيجة سرداً ساحراً بصورة لا تُصدّق... عملاً ملحمياً بالمعنى الشخصي والاجتماعي والجمالي».

ماكسويل جيسمار

علي مولا
عالم المعرفة
صبوات الصلب الورردي 1
رواية س
S.P600
1 5 1 2 6 6